

مَقَرِّبَاتُ الْخُلُومِ وَالْمَنَاجِحِ

المجلد الخامس

٥

النَّبَشِيرُ وَالْإِسْتِشْرَاقُ
وَالدَّعَوَاتُ الْهَدَامَةُ

مَحَاوِلُ لِسَانٍ

مِنْهُمُ أَكْبَرُ أَكْبَرِ الْمَسَائِلِ

بقلم أنور الجندي



دار الأنصار
بالقاهرة

HARVARD
COLLEGE
LIBRARY



موسوعة

مقدمات العلوم والمنهج

محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل

HARVARD
COLLEGE
LIBRARY

المجلد الخامس

النشير والإشتراق والدعوات الهدامة

يتناول هذا المجلد بالبحث مخططات الغزو الفكري والثقافي والعقائدي في ثلاث موضوعات كبرى :
الأول : النشير والإشتراق وأثرهما في الفكر والأدب والاجتماع .
الثاني : المؤامرة على تاريخ الإسلام : وأثر الإشتراق في تزييف عده من حقائق التاريخ
الإسلامي .

الثالث : الدعوات الهدامة : تاريخها وأهدافها وشبهاتها وبالجملة فإن بحوثه الأبحاث تكشف
عن المخاطر والمحاذير والأمواء التي أثارها الإشتراق والتفريب والتهويدية في أفق
الفكر الإسلامي في العصر الحديث مع ردود تفصيلية تدحض هذه الشبهات
وتكشف عن مصادرها وزيفها .

أنور الجندري

دار الأنصاري
مكتبة طباعة - نشر - توزيع
ش. البساتين - أمانة عمان - الأردن
أمام مبنى عابدين ت. ٩٣١٥٨١

رقم الإيداع ١٩٨٣/٤١٥٠

تقديم الدول ٩٧٧-٤٣٣-٠٠٨-٠٠

مقدمات العلوم والمناهج

موسوعة إسلامية جامعة

تهدف إلى إرساء منهج إسلامي جامع للفكر الإسلامي تضم عشرة مجلدات في عشر موضوعات كبرى كل منها مجلد خاص كوحدة مستقلة وتتسكمل في مجموعها العام بحيث تستوعب مختلف القضايا الإسلامية استيعاباً كاملاً

المجلد الأول : الفكر الإسلامي

يتناول بالبحث الجذور الأساسية للفكر الإسلامي التي بناها القرآن الكريم والسنة المطهرة وما واجهه من محاولات في العصر الأول وفي العصر الحديث وخاصة ما يتصل بحركات التنوير والغزو الثقافي من طريق الاستشراق والتبشير وأنبياء الفكر الوثني الهلالي والفرق القديمة

المجلد الثاني : تاريخ الإسلام

ويتناول بالبحث دراسة مستوعبة لتاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره إلى اليوم مروراً بمراحلته المختلفة وأحداثه الكبرى وتوسعاته في قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا إلى العصر الحديث وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين عالم الإسلام والغرب وبين العرب والدولة العثمانية وسقوط الخلافة وقيام القوميات والأقليات

المجلد الثالث : عالم الإسلام المعاصر

ويتناول البحث تاريخ العالم الإسلامي المعاصر وأقطاره وقضاياه والتحديات الموجهة إليه وتطبيقات الجامعة الإسلامية والوحدة العربية والتضامن وموقف العالم الإسلامي من القوى الغازية الثلاث : الاستعمار الغربي والصهيونية واليهودية ودراسة قضايا العالم الإسلامي على أبواب القرن الخامس عشر الهجري وما يتصل بالعلاقات بين الشيوعية والصهيونية والدعوات الهدامة كالبعثية والقاديانية والمخططات التي تستهدف غزو المجتمع الإسلامي

المجلد الرابع : اللغة والأدب والثقافة

(١) اللغة العربية العظمى لغة القرآن والتحديات التي تواجهها في العصر الحديث
(٢) الأدب العربي : خصائصه المستمدة من القرآن والسنة وارتباطه في العصر الحديث بمفاهيمه الأساسية .

(٣) دراسة الثقافة العربية ذات الانتماء الإسلامي وخصائصها ووجوه الخلاف بينها وبين

الثقافات الأخرى

المفردات

١٢٩	تالياً : مخططات الاستفراق
١٤٢	دوافع الاستفراق
١٤٤	أخطاء الاستفراق
١٤٦	تزييف النصوص
١٥٩	الباب الأول : صفحات من تاريخ الاستفراق
١٥٩	الفصل الأول : الاستفراق غربياً
١٥٩	الفصل الثاني :
١٧١	الباب الثاني : عموم الاستفراق في الفكر الاسلامي
١٧١	الأول : الاسلام ١٧١ الثاني : الرسول ١٧٥
١٨٧	الثالث : القرآن ١٧٧ الرابع : اللغة العربية ١٨٧
١٨٦	الخامس : التراث ١٨٥ السادس : السنة ١٨٦
١٩٠	السابع : الحضارة ١٨٨ الثامن : الشريعة ١٩٠
١٩٥	التاسع : الاديرة ١٩٣ العاشر : التاريخ ١٩٥
	الباب الثالث : خطط الاستفراق بين التحول والبناء
	الفصل الأول : طريقة المستشرقين في البحث ١٩٨
	و الثاني : مواجهة المستشرق في مؤتمراتهم ٢٠١
٢٠٣	و الثالث : وقفة في وجه الاستفراق ٢٠٣
٢٠٧	و الرابع : دراسات المستشرقين ٢٠٧
	خاتمة البحث (التبشير + الاستفراق + التصويب)

الرسالة الثانية

المؤامرة على تاريخ الاسلام

٢١٩	مدخل
٢١٩	الباب الأول : تاريخ ما قبل الاسلام
٢٢٦	الفصل الأول : الحنيفية السحابة
٢٢٩	و الثاني : الجاهلية
٢٣١	و الثالث : اليهودية
٢٣٢	و الرابع : اليهود في جزيرة العرب
٢٣٥	و الخامس : اليهود في المدينة
٢٣٧	و السادس : معارك النبوة
٢٣٨	و السابع : الحكم في النبوة

الرسالة الاولى

مخططات التبشير والاستفراق

١	مدخل
	القسم الأول : مخططات التبشير
	الباب الأول : صفحات من تاريخ التبشير
٦	الفصل الأول : من تاريخ التبشير
	و الثاني : مرحلة جديدة في خطة التبشير ١٥
	و الثالث : بعد الحرب العالمية الاولى ١٨
٣١	و الرابع : مؤتمرات التبشير
٣٥	و الخامس : أخطر تحول في تاريخ التبشير
	الباب الثاني : أهداف التبشير ومخططاته
٣٨	الفصل الأول : أهداف التبشير ومخططاته
٤٦	و الثاني : وسائل التبشير وأنظمته
٤٩	و الثالث : عملاء التبشير وحلفائهم
٥٩	و الرابع : الصحافة التبشيرية
٦٠	و الخامس : منهج التبشير
	الباب الثالث : أبعاد التبشير
٦٣	الفصل الأول : التبشير والاستعمار
٦٨	و الثاني : التبشير والتغريب
٧٤	و الثالث : التبشير والاستفراق
٨١	و الرابع : الدائرة للجنة والدائرة للصماء
	الباب الرابع : التبشير وآثاره في بناء الفكر
٨٥	الفصل الأول : التعليم في أحضان التبشير
٩٣	و الثاني : التشبهات التي أثارها التبشير
١٠١	و الثالث : التبشير والفكر الاسلامي
١٠٨	و الرابع : التبشير واللغة العربية
١١٣	و الخامس : التبشير والثقافة العربية
١١٨	و السادس : التبشير والادب العربي
١٢٥	و السابع : التبشير وتاريخ الاسلام
١٣١	و الثامن : التبشير والوحدة الاسلامية

الصفحة

٢٨٠	مصادر المذاهب الهدامة
٢٦٩	الباب الأول : الفوضوية
٢٧٢	الفصل الثاني : تحريف العقيدة المسيحية
٢٧٥	• الثالث : المذاهب الهدامة والإلحاد
٢٨٢	• الرابع : (الله) جل جلاله في مفهوم الإسلام
٢٨٢	• الخامس : عقيدة البعث
٢٨٤	الباب الثاني : دعوات هدامة للعقائد والقيم
٢٨٦	الفصل الأول : الدهرية
٢٩٢	• الثاني : التثنوصوفية
٢٩٢	• الثالث : البهائية
٢٩٧	• الرابع : الروحية الحديثة
٢٠٢	الباب الثالث : دعوات هدامة للمجتمعات والأمة
٤١٥	الفصل الأول : أيديولوجية التلويذ
٤١٣	• الثاني : العبقرية
٤٣٤	• الثالث : المسادية
٤٤١	• الرابع : العثمانية
٤٤١	• الخامس : العالمية
٤٤٤	الباب الرابع : دعوات هدامة للنفس والأخلاق
٤٥٥	الفصل الأول : الفرويدية
٤٦١	• الثاني : الوجودية
٤٦١	• الثالث : الهيغلية
٤٧٠	الباب الخامس : دعوات هدامة للفكر والثقافة
٤٧٥	الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام
٤٨٦	• الثاني : الاسرائيلية
٤٨٦	• الثالث : التغريب - الاستغربي - التقييدي (٨١)
٤٩٠	• الرابع : إحياء الهلينية
٤٩٤	• الخامس : الدعوة إلى العامة
٤٩٤	الإسلام في مواجهة الفكر الوافد
٤٩٤	آفاق البحث

الصفحة

٢٨٠	الفصل الثامن : إسماعيل والتوراة
٢٨٢	• التاسع : العروبة وليست السامية
٢٨٧	• العائش : مؤامرة النامية
٢٨٩	• الحادي عشر : الغرب والمسيحية
٢٥٤	• الثاني عشر : ما قبل الإسلام
٢٥٤	• الثالث عشر : تاريخ الإسلام اليوم
٢٥٧	الفصل الأول : الاختلاف الذي تحرك فيه
٢٦٤	• الثاني : كتاب السيرة
٢٧٠	• الثالث : الجهاد والفتح
٢٧٧	• الرابع : الخلاف بين الصحابة
٢٨٧	• الخامس : ثورة الولاة والفراسة
٢٨٩	• السادس : دور اليهود في الفتنة الكبرى
٢٩٤	• السابع : الحكومة الإسلامية الأولى
٢٩٦	• الثامن : الحواري والغرب
٢٩٨	• التاسع : الجهاد واليربى المثار
٢٩٨	الباب العاشر : التاريخ وطني وقومي وإسلامي
٣٠٧	الفصل الأول : مرآة التاريخ الإسلامي
٣١١	• الثاني : التاريخ وطني وقومي إسلامي
٣١٦	• الثالث : العروبة والإسلام
٣١٩	• الرابع : عصر العربية الإسلامية
٣١٩	الباب الرابع : تفسير التاريخ الإسلامي
٣٣٦	الفصل الأول : تفسير ماركسي غرب صهيوني
٣٤٠	• الثاني : التفسير الغربي المسيحي
٣٤٣	• الثالث : التفسير اليهودي
٣٤٥	• الرابع : التفسير الماركسي
٣٤٧	• الخامس : التفسير الإسلامي لتاريخ
٣٦٠	• السادس : في مواجهة التحديات
٣٦٤	صورة البحث
٣٦٧	الرسالة الثالثة
٣٦٧	الدعوات الهدامة
٣٦٧	مختتم

الرسالة الأولى : مخططات التبشير والاستشراق

مداخل

ظهرت في السنوات الأخيرة وثائق كثيرة كانت خافية على المسلمين والعرب لها أثرها الكبير في مصائرهم ومقدراتهم وإليها يمكن تفسير أسباب هزيمتهم ونكبتهم ومنها يوجد المنطلق إلى الأصالة الحققة بعد هزيمة لويس التاسع في المنصورة وجنوحه إلى التآمل في نتيجة خطته التي جرت عليه الهزيمة والاحتقال فقد كتب مذكرة خطيرة أشارت إليها مراجع عديدة من كتب التاريخ الفرنسي وذكرها مؤرخه جوانفيل يحدد بها الموقف من العالم الاسلامي بعد هذه السنوات الطويلة من الحروب الصليبية والمعروف أن لويس كان يقود الحملة الثامنة . لقد أشار لويس التاسع في وثيقته إلى أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لأن في دينهم عامل حاسم : هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصة في سبيل حماية العرض والأرض وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم لأنهم قادرون دوماً إنطلاقاً من عقيدتهم إلى المقاومة ودحر الغزو الذي يقفهم ببلادهم ، وأنه لا بد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيل هذا المفهوم عند المسلمين حتى يصبح مفهوماً أدبياً أو وجدانياً وإيجاد ما يبرره على نحو من الأنحاء بحيث تسقط خطورته وارتفاعته وأن ذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على الفكر الاسلامي وتحويله عن منطلقاته وأهدافه حتى يستسلم المسلمون أمام لقاء القوى الغربية وترويض أنفسهم على تقبلها على نحو من الأنحاء الاحتواء أو الصداقة أو التعاون وحتى نحصل على نص وثيقة لويس التاسع التي لم تتمكن من الحصول إلا على مقتطفات منها فيما أورده الأستاذ محمد علي الفتيت في كتابه من الحروب الصليبية إلى حرب السويس فإن الضرورة تقضي بدراسة هذا الهدف الذي كان له أثره في ذلك المنحنى الخطير الذي تحولت إليه علاقات الغرب مع عالم الاسلام ، هذا الهدف الذي جندت له قوى التبشير والاستشراق والتغريب والغزو الثقافي في خطة محكمة مدبرة ما زالت مفروضة على العالم الاسلامي منذ عام ١٩٠٥ هجرية الموافق ١٩٢١ م ، هذه الخطة التي سيطرت عليها من بعد قوى الصهيونية العالمية بما ستفسره فيما بعد الهدف هو : إيقاف توسع الإسلام ومحاصرته من ناحية واحتوائه فكرياً حتى يصبح عجيبة طبيعة في يد الفكر العالمي الأسمى تمهيداً للوثوب عليه ومن الوسائل لإنشاء مؤسسة لحرب السكمنة واستخدام من يمكن إغرائهم من أقبليات الشرق وإنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق الإسلامي يتخذها الغرب نقطة ارتكاز ومركزاً لهوته السياسية والدينية وقد عين لويس التاسع مكان تلك القاعدة في الأراضي الممتدة على ساحل البحر المتوسط من لبنان إلى فلسطين والاردن وسوريا ولا ريب أن أولى علامات وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة إنما نوحى بنهاية خطة وبداية خطة أخرى أشد عنفاً وإن كانت أطول معركة . بما يشتمل إن الحروب الصليبية وهزيمتها كانت تتمثل في إنطلاق المخطط الجديد :

الغزو الثقافي والفكري الذي يستهدف دحر الإسلام كـ... بعد العجز عن دحر أمته أو في العمل على دحر هذه الأمة بعد دحر فكرها ، لقد تبين للغرب من خلال مراجعة لويس التاسع لتجربة الحروب الصليبية : ان المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ أولاً من تزييف عقيدتهم الراسخة التي تحمل طابع الجهاد والمقاومة والتي تدفع بالوفهم إلى ساحات الاستشهاد في سبيل الدفاع عن الحق وعن الأرض وعن المرض ، إذن فهذه هي بداية المعركة ولا بد إذن من تزييف هذه العقيدة وامتصاص ما فيها من قوة وجهاد وإيمان وذلك بالترقية بين العقيدة والشريعة أو تصوير الإسلام بصورة دين عبادة كالمسيحية وفصل الدين عن الدولة ، حتى يفقد المسلمون ذلك السر الخطير السكوتي في أصالة عقيدتهم وجوهر دينهم وعندئذ يصبحون قطعاً من السائمة التي تنطوى وتقر ومن هنا بدأت معركة أطاق هاها :

التبشير ، الاستشراق ، التغريب ، الغزو الثقافي ، الاحتواء .

وقد وجدت هذه المعركة افلاماً إسلامية بالوراثية نخدمها ونقول ما يريد لويس التاسع على نحو ما قال طه حسين وعلى عبد الرزاق من دعاوى الفصل بين الإسلام والمجتمع وبين العقيدة الدينية والأدب والسخرية بما أورده القرآن ودعوة الشباب إلى نقده والنظر إلى الصحابة على أنهم من عترة السياسة ، كما جاء في الفتنة الكبرى على النحو الذي عاش على خدمته صاحب كتاب الشعر الجاهلي وحديث الأربعماء وإذا راجعنا قوائم التاريخ العربي فالتناجد أن وصية لويس التاسع قد وضعت موضع التنفيذ بعد سنوات قليلة من هزيمته وقلته في الحملة الصليبية التاسعة على تونس فقد بدأت حركة أوربا المعروفة إلى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام وبدأت نواة التبشير والاستشراق في المعاهدة الأوربية: دراسة اللغة العربية والإسلام والقرآن من منطلق الرد عليه وانتقاصه وإثارة الشبهات حوله وقد ظهرت هذه الحركة عملية خطيرة هي سرقة التراث العرب الإسلامي من البلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي سرقة بمعنى الكلمة ولأن محاولة الاستيلاء على مراكز الفكر الإسلامي في جامعات الأندلس وطرد المسلمين منها كانت أيضاً « سرقة كبرى » بالرغم من أن المسلمين كانوا يؤمنون بأن العلم للهبة كريمة ، حق العلم التجريبي الذي هو الآن من أسرار الأمم الحديثة ، والذي عجز المسلمون والعرب خلال قرن ونصف قرن إلى الآن عن الحصول على أصوله ومعادلاته ، أما المسلمون فكانوا يعملونه في جامعات الأندلس وجزيرة صقلية في حرية تامة ولكل الناس ، أما الغرب فانه في تنامي حقه لم يقف عند حد مصادرة العلم الإسلامي ومعاملة مكتبته وثائقه لسبب بل إنه أخرج منه المسلمين الذين هم من أهل الأندلس بعد ثمانمائة عام أخراجا حتى يكونوا عاجزين عن مواصلة جهادهم في أي أرض أخرى إذا هاجروا إليها وإذا كانت الحروب الصليبية قد توقفت عام ١٢٩٠ هـ ١٢٩١ فإن أوربا لم تتوقف عن الحرب . فقد بدأت حركتها كره أخرى بعد سقوط الأندلس على الطريق الأفريقي من ناحية الغرب دون توقف : الأسبان والبرتغال ومن وراءهم الهولنديون والإنجليز والفرنسيين انتقاماً من المسلمين الذين قدموا لهم نور العلم والحضارة في الأندلس . أما في أفق البلاد العربية فإن عام ١٨٢٠ م كان علامة الخطر حين بدأت فرنسا في غزو (الجزائر) وامتدت المعركة

إلى تونس مصر والسودان ، منذ ذلك اليوم بدأت نتائج الغزو العسكري تبرز ، وأخذت طلائع التبشير تعمل ، فإنه في نفس الوقت كانت قوى محمد علي نفسه تسيطر من الشام ١٨٤٠ حيث سيطرت قوى الغرب على هذه المنطقة التي اختارها لويس فأقامت فيها ما أطلق عليه حكومة خاصة داخل الدولة العثمانية وكانت معركة ١٨٦٠ التي أثارها الفرنسيون بتأييدهم للدوارة والانجليز بتأييدهم للدرود منطلقاً إلى إنهاء هذا السكان الذي تلاقى فيه قوى التبشير الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأمريكية والذي ما زال قائماً حتى الآن في الفترة الأولى من مخططات لويس ١١٢١ م إلى ١٨٣٠ كان الاستشراق يضع السموم ومن ١٨٢٠ إلى ١٩١٨ كان التبشير يحتاج البلاد عن طريق الرسائل : معاهد وجامعات في أستانبول والقاهرة ولبنان لها نفوذ داخل في نفوذ الامتيازات الأجنبية . ولها مناهج دراسية قائمة على تدمير الإسلام وتاريخ الإسلام ولغته وعقيدته وإذابة الأجيال الجديدة في سموم الغرب وتعظيم تاريخه ، واحتقاره لآمنه ودينه . ومن هذه الأجيال جاء الأمراء والسادة والقادة والوزراء الذين سيطروا في ظل حكومات الاستثمار والاحتلال والذين أخذوا مناهج التعليم التي وضعتها معاهد الإرساليات لجعلوها مناهج المدارس الوطنية وفي عديد من مصادر اللقاء بين الفرق والغرب نجد الإشارة مدسوسة إلى وصية لويس التاسع حتى لا يتغيب إليها المسلمون ، هذه الوصية التي تدعو إلى تهديد المبشرين الغربيين في (معركة سلبية) لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه مضموناً ، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة أعظم جنود الغرب) . إذا كان هذا هو تصورنا لوثيقة لويس التاسع التي ظلت خافية سنوات طويلة حتى تكشف هذه الأهوام ، فإنما مثلها مثل بروتوكولات صهيون التي حجبت عن المسلمين والعرب منذ ظهورها ١٩٠٢ حتى عام ١٩٤٨ وهو عام قيام إسرائيل عندما سمح الإعلام الصهيوني للصحافة العربية بأن تشير إلى هذه البروتوكولات التي لا توجد عنها إشارة واحدة في مجلات الهلال أو المصطفى أو الممار أو غيرها قبل هذا التاريخ . أقول : إذا كان هذا تصورنا لوثيقة لويس التاسع ومدى أبعاد الخطر للكامن فيها فإن الأستاذ نبية أمين فارس أحد كبار أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت (قد كشف عن هذه الصفحة بكل جرأة وقوة في بحث له نشر عام ١٩٥٨ في مجلة الأبحاث : يقول هذا المؤرخ العربي : « بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأفكار بناء الامبراطوريات كان أيضاً مطمح انظار جماعة أخرى من الناس تنشده أن تنجز عن طريق الكلمة ، ما عجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة أخرى تنشده احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح ، إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية العظيمة كما سجلها أول المبشرين : القديس لويس . ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كره أخرى على عقول المسيحيين يعود إلى البقعة الدينية التي عمت انكساراً في أواخر القرن الثامن عشر ، والبقعة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمتلئ فيما سمي بروح انكساراً الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من الجمعيات التبشيرية التي كرسَتْ نفسها لحل الانجيل إلى جميع البشر ، ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو إزدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوروبا المريض (يقصد الدولة العثمانية

الإسلامية) ومن المحتمل أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري. ومن أهم هذه الجمعيات التبشيرية التي ظهرت في هذه الفترة : الجمعية التبشيرية الكنسية التي أسست في لندن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي للمندوب البعثات التبشيرية وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشيرة إلى الشرق الأدنى ، ولما كانت المشكلة الأولى التي واجهت أولئك المبشرين هي اختيار مركز ملائم لهم ، وقدم سوريا عام ١٨٢٢ مبشرين آخرين وانتقلوا إلى بيروت ، وكان غرض الروستانتيون أن يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب (الكفار) إلى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا : أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين ، وصمم المبشرون منذ البداية على استعمال (الكلمة) حيث فشل استعمال (السيف) وفي سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية أولاً في مالطة ١٨٢٢ وفي بيروت ١٨٢٤ وأخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقل من هذا العدد من السنين وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حل لواء الحرية الدينية بصورة عامة ، الخ . ولقد كان أبرز ما استهدفته وثيقة لويس التاسع : القضاء على فكرة الجهاد ويكشف الدكتور محمد تقي الدين الهلالي هذا السر في مقال نشره عام ١٩٣١ في مجلة (الفتح) عن سير هذا المخطط في الجزائر : أن هؤلاء الأوروبيون النافسون المبعدين للحرار المغربين الديار ما زالوا يحرمون هبيد من كلمة (الجهاد) ويعمدون ذكره فضلاً عن فعله من أعظم الذنوب وهو عندهم آية الهمجية ، والتعصب الديني المفقوت ، وبلغ ببعضهم الأمر أن حرموا تفسير آيات الجهاد في كتب الفقه ، وبمبنى شاهدة صحيفة الأذان الفرنسية . التي حصل عليها شيخنا محمد بن حبيب الله الشقيطي رحمه الله في مدينة المشرقة قسم وهران من الجزائر وفيها ما يلي : « إن الإذن بتدريس علوم الدين مقيد بأن المدرس لا يفسر أي آية أو حديث يدل على الجهاد ، وأن لا يدرس شيئاً من أبواب الجهاد في كتب الفقه ، ولما راجت دعاية هؤلاء في الشرق سار المسلمون ينفرون من لفظ الجهاد ، ونقول بل أن الأمر قد بلغ غايته في تنفيذ وثيقة لويس التاسع فقد أهان الإنجليز في الهند على ظهور نحلة تدعى الإسلام وتلغى الجهاد وتنكره إنكاراً هي نحلة القاديانية ، والاحدية ، الذين يفسرون الجهاد تفسيراً مؤولاً ، والذين يدعون إلى الخضوع للحاكم المستعمر ويعدون ذلك من مفهوم الإسلام في غلاتهم وبعد فإن في تقدير الكثير من الباحثين اليوم أن المسلمين إنما طعنوا من طريق التعليم الذي بدأته معاهد الإرساليات وسارت على مناهجه أغلب المدارس الوطنية والذي تنقل الدول العربية مناهجه اليوم من نفس المصدر الأول الذي أنشأه تلاميذ لويس التاسع وأتباعه ، وخاصة مارسمه (دنلوب) وما زال سارياً وما رسمه طه حسين في مناهج الجامعات مستمداً إياه عما وضعته الجامعات التبشيرية في بيروت ولهذا الأمر حديث طويل في تفصيله ولكن المرة الآن هي : أن هذا هو (مدخل) الغزو الثقافي وسيطرة التيارات الوافدة وهو أيضاً في نفس الوقت (المخرج) إلى فهم تعليمي إسلامي لا سبيل إلى النجاة إلا به . ولا شك أن التبشير والاستعراق هما وجهين لعملة واحدة وهما شكلان : الأول في ميدان النظرية والثاني في ميدان الثقافة ، والمهمة مشتركة ، يقدم الاستعراق

القباهات والسموم ثم تجيء وسائل التبشير الظاهرة والخفية فتظهر هذه الشبهات في أفق الفكر الإسلامي سواء عن طريق مناهج التعليم أو المذاهب والأيدولوجيات المطروحة للدراسة والبحث في مجال الصحافة والثقافة وقد تخفف التبشير من أسلوبه القديم في الدعوة الجهرية إلى عمليات التنصير ولكن ذلك لم يكن إلا خطوة لإحكام عمله بالتخفي وراء أساليب التربية والثقافة. بدأت هذه الحركة بعد خروج الصليبيين من العالم الإسلامي ١٢٩١ م وما زالت تعمل إلى الآن، وقد غيرت جلدتها أكثر من مرة. وتولت وتحولت وغيرت أساليبها بما يوصلها إلى تحقيق الغاية وهو تاريخ طويل، وكان الاستثمار الذي غزا العالم الإسلامي هو ثمرة هذا العمل، فتمكن استثمار هولندا لاندونيسيا وانجلترا الهند وفرنسا الجزائر ثم انجلترا مصر وفرنسا لتونس والمغرب، وسقوط بقية أجزاء العالم الإسلامي في أيدي النفوذ الاستعماري خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وإعلان وعد بلفور بتمكين الصهيونية من فلسطين هو علامة على استجاشة هذه الحرب الخطيرة واستفحالها، ولقد كان هذا العمل المشترك (التبشير والاستعراق) قد وجد من النفوذ السياسي والعسكري القوي وسيلة وأداة وقوة على تركيز قواعه وإنشاء أجيال معتنقة لفكره متأثرة بسمومه، وبرزت في مرحلة الثلاثينات خطة التبشير التي قارنتها حركة اليقظة في مصر وغيرها مقاومة مكشوفة، حتى أعلن زعيم عام ١٩٢٥ أن مهمة التبشير ليست بإدخال المسلمين في المسيحية وإنما هي إخراجهم من الإسلام وجاء هاملتون جب بكتابه (وجهة الإسلام) في نفس الوقت فكشف عن أن هذا العمل الذي يقوم به الاستعراق والتبشير والنفوذ الثقافي في العالم الإسلامي إنما يستهدف تفريب الإسلام والمسلمين ونقلهم إلى دائرة الأمية والفكر الغربي في مختلف أساليب حياتهم ومجتمعاتهم : وخاصة في مجال التعليم والتشريع والثقافة والاقتصاد. وغير أنه لم يلبث أن تكشف أن هناك مخططات أخرى يقوم بها النفوذ الروسي والصيني في مجال الاستعراق والتبشير. تحقيقاً لطابع الصهيونية في السيطرة على البلاد العربية ومطامع الشيوعية في غزو عالم الإسلام وظهور الاستعراق الروسي والصيني إلى جواز الاستعراق الغربي المسيحي وتعددت المخططات ولكنها كانت تستهدف غاية واحدة هي قلع جذور الإصالة الإسلامية واحتواء الفكر الإسلامي والسيطرة عليه وإدخاله الدائرة المملقة التي تحول بينه وبين تحقيق وجوده أو بروز ذاته أو إتمام رسالته في الدعوة العالمية إلى الله وتلك هي أخطر المراحل التي يواجهها العالم الإسلامي. وقد تضاعفت بعد الحرب العالمية الثانية هذه المخططات استعملت أساليب جديدة وجاهات الهزيمة والنكبة والنكسة في خلال مرحلة تزيد عن ربع قرن عالمياً في تمكين هذا الوجود الوائس الخطير :

وتبين أن خطة التبشير ليست خطة دينية خالصة تستهدف إخراج المسلم من دينه وإدخاله في دين آخر ولكنها عملية ثقافية واسعة تستهدف إخراج المسلم من المفاهيم والقيم الإسلامية وإدخاله في دوامة الفكر البشري وصهره في مفاهيم الوثنية والمادية والعلمانية والأمية وفتح الطريق أمام فكرة لتقبل كل ما نطرحه أعاصير الليبرالية والماركسية والنفودية والوجودية وغيرها من سموم، المهم هو إخراج المسلم من الإسلام دون إدخاله في أي دين آخر وحجسه في الدائرة المظلمة المفرغة : دائرة التيه الذي لا تھمل منه قوة صالحة لتوجهه إلى الاتجاه الصحيح .

القسم الأول

مخططات التبشير

الباب الأول

صفحات من تاريخ التبشير

- (١) من تاريخ التبشير (٢) مرحلة جديدة في خطة التبشير (٣) بعد الحرب العالمية الأولى
(٤) مؤتمرات التبشير (٥) أخطر تحول وأكبر خطورة.

الفصل الأول

كانت الإرساليات التبشيرية هي مقدمات الاستعمار وطوابعه والممهدة له . حيث مد النفوذ الأجنبي ظله على العالم الإسلامي كانت هذه البعثات هي القوى المتقدمة فنذ أوائل القرن التاسع عشر تقريباً بدأت عملية النزول التبشيري في بطن وأناة متصلة بخطوط أخرى كالاستشراق والصحافة كأجهزة مترابطة لتحقيق السيطرة الاستعمارية . ولقد وجدت حركة التبشير الطريق أمامها مفتوحاً وميسراً مع العوامل التي أعدها لها النفوذ الاستعماري وأهمها : الامتيازات الأجنبية ونفوذ الفناصل . وسيطرة الدول الأجنبية على كثير من الأمراء كالشاه ناصر الدين في إيران والحديو اسماعيل في مصر وغيرهم من فتح لهم باب الاستئذنة . وفي خارج الدول العثمانية تركز الاستعمار في فارس وأندونيسيا (جاوة) والهند الإسلامية ولما كانت الدولة العثمانية هي أكبر أهداف التبشير كقمة لقمة بقايا وتوزيمها فقد ركزت القوى الاستعمارية على حملات تبشيرية انطلقت من مختلف الدول الأوروبية وبعثات من دول فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيرلندا والحبشة والدنمارك والروس . ولما كان المخطط قد رسم أساساً للسيطرة فقد عمد النفوذ الاستعماري أولاً للقضاء على القوى الشابة الجديدة وفي مقدمتها : الحركة الوهابية في الجزيرة العربية والتمضة المصرية التي قادها محمد علي . وكان أن حرص الاستعمار على دفع إحدى القوتين للقضاء على الأخرى ، ثم تفرغ بعد القوة الأخرى فكانت عملية التدخل العسكري في سوريا ١٨٤٠ التي مزقت الوحدة التي كونها إبراهيم ، وبذلك أهلت سوريا لعملية من أخطر عمليات السيطرة الأجنبية في صراع بين النفوذ الفرنسي والبريطاني مما دفع الدولتين إلى إثارة الصراع بين الطائفتين : الموارنة والحدود ، وقد أخذت فرنسا جانبا الموارنة وأمدتهم بالأسلحة وفعلت بريطانيا مثل ذلك بالنسبة للحدود ، ومهد ذلك للاستطدام الذي وقع بتحريرى الدولتين عام ١٨٦٠ وكان ذلك مقدمة لتنفيذ الخطة التي أعدتها الدول الأجنبية من إنقاذها رأس جسر لنفوذها في الشرق كله وذلك بوضع نظام يكفل إقامة كيان خاص في لبنان وساحا كخاصاً في حابة الدول الأوروبية ، وفي ظل هذا الوضع الذي أهل لبنان

لتسكون منطقة الغزو الاستعماري سياسياً وثقافياً حيث بدأت الإرساليات التبشيرية في الوصول إليها لتعمل في حركة مطلقة وتتخذ منها حقلاً لكل مخططات النفوذ الأجنبي وفي مقدمته :

(١) القضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة للمسلمين في العالم كله .

(٢) إعداد خطط الفصل والوقية بين العرب والأترك .

(٣) إعداد خطط الفتن والخلاف بين المسلمين والمسيحيين .

(٤) تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين .

(٥) تخريج طبقة مثقفة تفتح أمامها وسائل الحكم والسلطات في مختلف أجزاء العالم العرب .

وكانت المدارس الأجنبية وإرساليات التبشير في مختلف صورها من معاهد وجامعات قد احتضنت نفوذ فرنسا وأمريكا في نفس الوقت الذي تقدمت كل دولة من ذات المطامع إلى الدولة العثمانية معلنة نفسها حامية لطائفة معينة : فالفرنسيين لحماية الكاثوليك والبريطانيين لحماية البروتستانت والروس لحماية الأرثوذكس . وهكذا بدأ الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي بإسم العلم ورصدت لذلك الميزانيات الضخمة . وكان لهذه البعثات أثرها الهام في حل المسألة الشرقية على حد تعبير أحد أساطين السياسة الغربية وكان لها دورها في تمزيق الوحدة السياسية التي ظلت قائمة بين الترك والعرب خمسة قرون وفي المرحلة الأولى حملت الإرساليات لواء الدعوة إلى العروبة وتدريس اللغة العربية والإلحاح على عبارات الحرية ومقاومة الاستعمار كوسائل مرحلية حتى سقط السلطان عبد الحميد وتسلت الدولة العثمانية جماعة الاتحاديين ثمرة الإرساليات والنفوذ الاستعماري وهنا تحول اتجاه هذه المؤسسات والجامعات من الدعوة إلى العروبة وحماية اللغة العربية إلى اتخاذ اللغات الأجنبية أساساً للتدريس والمخلة على الوحدة العربية واللغة العربية وتغليب العامية والحرف اللاتيني عليها وتغريب التعليم وجعله طائفاً خالصاً . ومن الحق أن يقال أن النفوذ الاستعماري قد اختار في الدولة العثمانية ثلاث مناطق من أخطر المراكز الأساسية لعمله الأول هي لبنان ولبنانية مصر والثالثة باليونيك في تركيا . وفي كل منها قام بدور ضخم ، أما لبنان فقد غطت منطقة الشام جميعاً والعراق ، أما مصر فقد كانت تمثل القيادة الفكرية باعتبارها مصدراً قيادياً للعالم العربي كله وذلك على أساس التركيز في مجالات التعليم والثقافة والصحافة موجهة لخطط النموذج الاستعماري في العالم العربي بل الإسلامي كله ، أما باليونيك فقد كان مقر المخطط التبشيري الاستعماري الذي خلق القوة التي صارت الخلافة والدولة العثمانية وقضيت عليها نهائياً .

(١) التركيز على لبنان

تجمع المصادر على أن مراكز التبشير بدأت عملها في جزيرة مالطة في أواخر القرن السادس عشر واعتبرت الجزيرة قاعدة هجوم على الشرق الإسلامي كله . ثم انتقلت إلى بلاد الشام ١٦٢٥ وكان في هذه المرحلة عدوداً ، وفي ١٨٣٤ انتشرت البعثات التبشيرية في سائر بلاد الشام ففتحت مدرسة في قرية عنتورة في لبنان ونقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت وحينما سحب إبراهيم باشا ١٨٤٠ من بلاد الشام . بدأت عملية التدخل واستنارة الطوائف وخلق أسباب الاحتكاك بينها وتوالى الاضطرابات حتى انتهت إلى الفتنة الكبرى ١٨٦٠ حيث وجدت الدول الغربية الفرصة سانحة فأرسلت البوارج البحرية إلى شواطئ سوريا ثم ركزت إرساليات التبشير وانسحبت القوة العسكرية . وقد أشارت بعض المراجع إلى أن المجلس الأمريكي لمندوب البعثات الأجنبية أنشأ في بوسطن ١٨١٠ وأرسل بعد تسع سنوات (١٨١٩) أول مبشرين إلى الشرق الأدنى ، واتخذوا من مالطة مركزاً لهم واستعانوا بالمطبعة ١٨١٥ في إعداد المطبوعات اللازمة ثم بدأ التجول في شاطئ البحر وذهب بعض المبشرين إلى القدس ثم انتقل التبشير إلى بيروت . وكان عمل الإرساليات في مجالين أساسيين : إنشاء المدارس وتأليف الجمعيات وفي مقدمة هذه الجمعيات جمعية الفنون والعلوم ١٨٤٧ التي اصطلقت العاملين في سبيل خدمة أهداف التبشير وكان أبرز أعضائها : نصيف اليازجي وبطرس البستاني وإيلي سميس وفان ديك وكانت هذه الجمعية تظهر نشر العلوم بين الكبار كما تنشر العلوم في المدارس بين الصغار وتوجه الشباب إلى الثقافة الغربية وفق الخطة التبشيرية المرسومة . ولما فشلت هذه الجمعية لم يتوقف السعي لإنشاء جمعية أخرى بإسم الجمعية الشرقية أسسها اليسوعيون تحت رعاية الأب (هنري دوبرونيه) ولما اختفت تأسست عدة جمعيات وكان آخرها وأعمها الجمعية العلمية السورية : وكان أبرز رجالها إبراهيم اليازجي وبطرس البستاني وكان مظهرها التوفيق بين الطوائف وبعث القومية العربية . وتجمع المصادر على أن الدعوة إلى القومية بدأت في الكلية الدروستانية في بيروت ١٩٧٥ عن طريق جمعية سرية كانت تهاجم الدولة العثمانية وتدهو إلى فصل الدين عن الدولة وتتهم تركيا بأنها اغتصبت الخلافة الإسلامية من العرب . وكان هذا العمل الأول للبعثات التبشيرية في مواجهة التجمع الإسلامي الذي دعا إليه السلطان عبد الحميد باسم الجامعة الإسلامية في مواجهة النفوذ الغربي الواحف . وعاون التبشير في هذه المرحلة ثلاثة : فارس الشدياق ونصيف اليازجي وبطرس البستاني الذين عملوا على تصحيح تراجم العربية وترجمة التوراة إلى العامية العربية (وطبعت الترجمة ١٨٥٧) ووضع المخطط التبشيري لهم على أن يبتعدوا عن اللغة الفصحى ، وقد أشرف الشدياق على تصحيح منشورات المطبعة الانجليزية في مالطة والتوراة في لندن وله تعريف خطير المستشرقين ومدى علمهم وفهمهم ودورهم في الثقافة العربية . وكان أبرز المبشرين في هذه الفترة : فاندريك في لبنان وزويير في البحرين والعالم العربي وويلسكوكس ودللوب في مصر . والدكتور لرنيلوس فان ديك اختاره بجمع المراسلين الأمريكيين مراسلاً طبياً للديار السورية وصل بيروت ١٨٤٠ وأعلم اللغة العربية وتزوج ابنة قنصل اسكتلندي في بيروت وأنشأ مدرسة هيبية الشهيرة بمساعدة صديقه البستاني وعمل على ترجمة التوراة والإنجيل وأتم

الترجمة ١٩٦٤ بدأت الجامعة الأمريكية في بيروت ١٨٦٦ باسم المدرسة السورية الإنجيلية ، وقد اتخذت العربية لغة التدريس بها بادی الأمر في محاولة سياسية لمحاربة الدولة العثمانية والتودد للعرب ، وبعد التمزق السياسي الذي أصاب العالم الإسلامي بسقوط الدولة العثمانية وسيطرة انكلترا وفرنسا على العالم العربي ، تحولت في ثوب جديد باسم الجامعة الأمريكية وكذلك في القاهرة فقد اتخذت الانجليزية لغة العلم والدرس بها ، وذلك لتلقى في روع تلاميذها من العرب أن لغتهم قاصرة عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة (راجع لويس شيخو: الآداب العربية في القرن ١٩ ج ٢ ص ٤/٦٤) وقد أصبحت فروع الجامعتان الأمريكية والقديس يوسف الفرنسية مراكز هامة في الشرق الأوسط كله ، ليس للثقافة وحدها بل للسياسة العالمية حيث يتعلم بها طلاب من الشام والعراق والحدود ومكنا كائن لبنان بتركيبها الطائفي منطلقاً خصبا لحركة التبشير وأهم المناطق التي تصلح مرة كزاً للتدخل الأجنبي وفيها ظهرت حركة التنافس الشديد من الإرساليات التبشيرية ، ومنها حرك الاستعمار التنافس الهزلي الماروني والتنافس الفرنسي . ومن خريجي هذه الإرساليات انطلقت الجمعيات التي قدمت القاهرة واثبتت في مختلف أنحاء العالم العربي وخاصة المغرب وسيطرت على وسائل الثقافة والصحافة وكان لها دورها الخطار . لقد قدمت الإرساليات التبشيرية في لبنان إلى مصر شخصيات حملت لواء الفكر العربي وقادته وكان لها أثرها البعيد المدى وفي مقدمتهم يعقوب صروف ، فارس نمر ، جرجي زيدان ، وأديب اسحق ، وفرج أنطون ، الدكتور شبلي شميل مترجم دارون .

كان هدف البعثات التبشيرية في هذه المرحلة الأولى : إثارة العداء بين العرب والدولة العثمانية وفك الرابطة والقضاء على هذا الكيان الذي قاوم النفوذ الاستعماري ، وبالتالي للقضاء على فكرة الجماعة الإسلامية وتجميع قیام الكيانات المعتمدة على الدم والعرق كالقوميات التركية والعربية ثم برز الهدف في نطاقه السكامل : إسقاط الخلافة وشجب القيم الإسلامية كأساس للفكر والثقافة ، وإحلال الفكرة الملائكية اللادينية ، بديلا للمفهوم الإسلامي واتخاذ القومية سلاحا لهدم الإسلامية ، والخلافة ، فإذا التف العرب حول الوحدة العربية بدأ التبشير في رسم مخططات لضربها ومقاومتها وهدمها وخاق مفهوم جديد لاحتوائها مستوره من المفهوم الغربي للقومية ، وعندما يجري استعراض تاريخ التبشير في العالم الإسلامي ، يرد اسم لبنان على أنها أخطر معقل في الشرق بين المعقل الثلاث : مصر واستانبول ، غير أن الصورة تبدو في نظر أصحابها بعيدة عن كل شبهة . فلبنان بلد يجمع مختلف الطوائف وقد أدخل منذ ١٨٦٠ في نظام قرب بينه وبين الغرب الذي أمد هذه الطوائف بالتعليم والتثقيف فنشأ المهاد البروتستانتي والكاثوليكية فتلقفت أولا أبناء هذه الجاليات وأخرجت طائفة من المستعيرين أصبح لها قيادة الفكر ليس في بيروت وحدها ، بل انتقلت جوعهم إلى القاهرة التي بعدها الاستعمار قاعدة العمل كله فقبضوا على ناصية الصحافة والثقافة جميعاً ، ويمكن القول أن جميع الصحف التي صدرت في تونس وطرابلس

والغرب كان يهتم عليها لبنانيون . وفي لبنان تصارعت وتلاقت وتعاونت كل القوى المتصدرة للثقافة والتعليم : بين أمريكية وفرنسية وإنجليزية ومنها نشرت الترجمة العربية للتوراة (التي كانت من الوسائل الرئيسية في بث الدعوة للمذاهب الانجيلية) وقد شهد الباحثون من رجال هذه المعاهد أن قدوم البعثات التبشيرية كان له أثره في اذلال الخلاف الطائفي بين المسلمين والمسيحيين كذلك فإن المسلمين واجهوا هذه المدارس بالشك في رسالتها فأوروبا في ظنهم لم تنجس هذه المشاق رحمة بالشرق وإنما رغبة في أن تجعل لمشرها السياسي حزباً لها ، وغاية ما تقرره في عرض الباحثين لهذه الإرساليات ومعاهد ما هو قولهم إن الكنيسة هي المسؤولة الأولى عن تنظيم التعليم والإشراف عليه ، والمعروف أن الإرساليات عملت أولاً على نشر اللغة العربية لتكون سلاحاً عاملاً في تمزيق الوحدة بين العرب والتركة فلما تحقق ذلك تحوالت إلى الدراسة باللغات الأوروبية وقد أشارت في هذه الفترة إلى تيارات أربع خلقت الصراع السياسي الذي مزق العرب المسلمين وأما بينهم تباينا ما زال قائماً إلى اليوم تلك هي : (التيار العثماني - التيار السوري - التيار اللبناني (السكياني) التيار العربي) أي أنها عمدت إلى الفصل بين رعايا الدولة العثمانية : إلى عرب وترك وإلى مسلمين ومسيحيين ، وإلى الفصل بين أهل الشام : لبنانيين وسوريين وخلق طابع السكياني بين أهل لبنان في محاولة فصلهم عن السوريين والعرب والمسلمين جميعاً .

المرحلة الثانية : عام ١٩٠٨

مرحلة حاسمة في طريق التبشير

اعتبر المبشرون عام ١٩٠٨ من الأعوام الحاسمة في حركة التبشير في العالم الإسلامي كله وأن الانقلاب الذي قاده الاتحاديون والذي أنهى حكم السلطان عبد الحميد كان بعيد الأثر في توسيع حركة التبشير في الدولة العثمانية كلها . تقول مصادر التبشير : إن حدوث الانقلاب في غرب آسيا كانت موجياً للإعجاب والاستغراب ، فقد بددت معالم التجسس وأقامت الحرية على انقاض الاستعباد وصار التجول في البلاد العثمانية والعربية الفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجيناً في سلالتيك وقالت : إن السيادة السياسية هي أكثر المسلمين قد انتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد امكثترا وفرنسا وروسيا وهولندا ، وأن عدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين في كل أرجاء السلطنة العثمانية . ونتيجة لهذا الموقف عقد المبشرون في هذه الفترة عدداً من مؤتمرات التبشير لمواجهة الموقف الجديد في أدلبرج ١٩١٠ في إسكنو ١٩١١ ووضع خطط جديدة للعمل . كما كان للانقلاب العثماني أثره الذي أشار إليه د. زويمر ، من انتعاش مدارس وكنائس التبشير في كلية بيروت ١٠٤ من المسلمين وفي كلية الآستانة . وفي كليه المبشرين في ترك باشا في الآستانة أيضاً ٨٠ . كما أصبح الآن بيع كتب التبشير مباحاً بموجب حرية النشر التي أعطاها الدستور العثماني حتى لقد بيع عام ١٩١١ للمسلمين ما يزيد عن ٩ آلاف نسخة من هذه الكتب .

٢ - وفي مصر بدأت حركة التبشير عقيب الحملة الفرنسية مباشرة ، ومن جزيرة مالطة

١٨١٥ امتد نطاق العمل إلى مصر والحيشة واليونان وبلاد الدولة العثمانية وفلسطين . وفي خلاله حكم الخديو إسماعيل اتسع نطاق هذه البعثات ، وعمل إسماعيل على تشجيعها لإرضاء الدول الأجنبية التي كانت تمدّه بالقروض . ويروي أوفيق حبيب (هاشم الأهرام ١٩٣٧/٤/٢٩) أنه في أوائل القرن الماضي حضر إلى مصر خمسة من رجال الكنيسة الإنكليزية للوعظ والتبشير ثم عادوا إلى بلادهم الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم إلا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدرب الواسع ، وذكر الواعظ والمبشر الإنجليز الأسقف جوين الإنجليز الذي أنشأ مجلة للشرق والغرب ومستشفى هزمل في مصر القديمة وقال : كانت لهم دار في ميدان الأزهار (العباسي) للدراسات الأدبية والبحث في العقائد ، لم تلبث أن عطلت نتيجة لما كان يقع في بعض اجتماعاتهم من مشاغبات ، وكان القس (جاردنر) من أبرز رجال الإرسالية الإنكليزية وأعرفهم باللغة العربية ، والقس جاردنر كانت له اليد الطولى في تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس وإنشاء أقسام مصرية لجمعية اتحاد الشبان المسيحية ويقول أيضاً في هامش ١٩٣٣/٩/٢٤ إن جماعة المرسلين الأمريكيين للإنجليز أوفدت الإرسالية الأمريكية إلى مصر ١٨٥٥ . ويرجع أولى إنشاء المؤسسات الدراسية الأجنبية في مصر إلى عام ١٨٤٠ وأول ما ظهر منها مدرسة الآباء (لارنس) بمدينة الاسكندرية وأطلقوا عليها الكلية الفرنسية ، وفي نفس العام أسست الجمعية الأنجليكانية البروتستانتية بالقاهرة التي تعتبر أولى مدارسها التي انتشرت بعد في أنحاء القطر وأقدمها عهداً .

وفي عام ١٨٥٠ ظهرت مدارس الفرير ثم تبعتها بعض مدارس أخرى يونانية وإيطالية في القاهرة والاسكندرية وفي ١٨٦٠ بدأت الإرساليات الأمريكية تؤسس مدارس لها في القاهرة بل في جميع أنحاء القطر وخصوصاً في أسبوط حيث أنشأت هناك مدوسة كبيرة ظلت تحتسكّر تعليم أكبر عدد من أبناء المصريين وخصوصاً الأقباط الذين يثرونها على مدارس الحكومة . وبدأت مدارس الآباء اليسوعيين عام ١٨٨٠ وأعقبها مدارس أخرى فرنسية والساكر كيز والمريدييه واليون باستير وغيرها وبعض هذه المدارس يقتصر على تعليم أبناء الجاليات الأجنبية والبعض الآخر يعمل بصفة عامة . وقد بلغ عدد هذه المدارس ١٩٣٧ . بمناسبة عقد اتفاقية مونترو وإلغاء الامتيازات الأجنبية ٧٠٠ مؤسسة من فرنسية وإنجليزية وإيطالية ويونانية وأمريكية وغيرها وما يذكر أن موضوع حرية هذه المدارس كانت هي النقطة الخطرة في مختلف المفاوضات التي أجريت بين مصر وبريطانية بشأن الاستقلال وكانت الدول الأجنبية تصر على ضمان حريتها في العمل وتحاول الاحتفاظ بامتيازاتها في إدارة هذه المدارس وحماية أوجه الامتيازات المختلفة التي كانت تحصل عليها وقد كان لإسماعيل دور ضخم في تركيز هذه المؤسسات ومدها بالمعونات وقد اتسع نطاق هذه المؤسسات بعد الاحتلال عام ١٨٨٢ فقد جاء في الإحصاء أن مدارس الإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية بلغت ١٥٢ مدرسة تضم ٢٢٤٧ طالباً وقد جاء هذا التوسع بناء على توصيات دوفرين ، الوزير البريطاني الذي زار مصر بعد الاحتلال ووضع مخطط العمل الاستعماري في مصر وفيما يتعاقب بدور الاحتلال في التعليم قال : إن الأمل في نجاح تهذيب العامة في مصر نجاحاً عظيماً مازال ضعيفاً مادام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلاً من

تعليم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى في اللغة العربية كذبة الدابة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة ، وقد اتسع نطاق التبشير في عهد اللورد كرومر : الذي شجع المبشرين في مصر وحمى المؤسسات الأجنبية . ورددت جريدة التيمس والصحف البريطانية : أن مصر قد أصبحت تحت سلطة إنجلترا المسيحية واستقدمت بريطانيا المبشر القس دوجلاس دنلوب ، الذي استخدم معدا في مدرسة البعثة الاسكوتلاندية في الاسكندرية ، ثم نزل إلى نظارة المعارف مفتشاً ثم أصبح مسيطراً على الوزارة تماماً وعمل معه يعقوب أرئين الأرمني ثم ولى وزارة المعارف سعد زغلول وكان له دوره الخطير في تأكيد بقاء اللغة الانجليزية . وقد حمل عبد الله نديم في جريدته [الاستاد] عام ١٨٩٣ على التبشير في مصر وأشار إلى كتاب المبشر يوحنا موري الالماني الذي وزعه في القاهرة وسماه الإسلام وتأثيره على تابعيه وهاجم فيه الإسلام وقال نديم : لو أن مسلماناً هذا الكتاب لقامت على المسلمين قيامة أوربا قالوا هذا دعواه للحرب الدينية ومحبوا قناصلهم ونادوا بيزاباتهم المقيمين في الشرق بالرحيل بدعوى فقدان الأمن العام وتوحش المسلمين ولما رأوا أعمدة التيمس وغيرها بالحدث عن تعصب المصريين وقد أشار كثير من الباحثين إلى الدور الذي لعبته إرساليات التبشير في مصر منذ الاحتلال البريطاني وقال إنها اعتمدت أساساً على قول اللورد سالسبرى : « إن مدارس المبشرين أول خطوات الاستعمار فإن أول عملها هو إحداث الشقاق في الأمة التي تبشر فيها » وأول من فطن لهذه الحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده . وذلك قبل الاحتلال - كانت أول حادثة « أن إرسالية التبشير الأمريكية نصرت فتى مصرياً وصارت تعرضه للوعظ العام الذي يحضره كثير من المسلمين في كنيستهم بحى الأزبكية فكبر ذلك على جمال الدين فهدى إلى جماعة من الإيرانيين بمخطفه من الكنيسة ووضعه في مكان خفي ، ففعلوا ، وذهب هو وتلميذه (الشيخ محمد عبده) إلى ذلك المكان واستنابا الفتى واقنعه بأن الإسلام هو دين الله ثم سميا لتلافي هذا الأمر لدى الحكومة فلم يسمع لهما أحد وكان الشيخ محمد عبده تبهماً لذلك أول من فكر في خطر المدارس الأجنبية في مصر فاقترح على مجلس المعارف الأعلى الذي ألف في مصر عام ١٨٨١ أن تقرر جعل جميع مدارس الأجانب في مصر تحت مراقبة الحكومة وتفتشها غير أن هذا العمل الذي سعى إليه الشيخ محمد عبده قد توقف بعد الاحتلال وحيث فقدت الحكومة المصرية كل سلطان لها على التعليم وغير التعليم والقيت مقاليد وزارة المعارف في مصر في يد قسيس إنجليزي (مبشر) جعل سكرتيراً لها فاستشاراً (القس دوجلاس دنلوب) وقد بلغ من مساعدة الاحتلال الإنجليزي لدعاة المبشرين لسيطرتها على الحكومة أن أمر اللورد كمنشنر وزير الأوقاف بإلغاء المستشفى الذي بنته الوزارة في مصر القديمة بمحوار مستشفى هرم (هرم) التبشيري لأنه يصرف كثيراً من فقراء المسلمين عنهم فيحرمون من التبشير بالنصرانية ، كما أمر اللورد بتعطيل مجلة « المار » لأنها ترد على المبشرين ، وقد طلب المختصون من الشيخ رشيد رضا أن يتوقف عن الرد على المبشرين فأجاب : إني إن أدع الرد على المبشرين ماداموا في الإسلام ويدعون المسلمين إلى دينهم لأن الرد عليهم وتقنيدهم شبهاتهم فرض من فروض الكفاية ، حيث لا أرى في البلاد مجلة ولا جريدة تقوم بها فإن تركتها كنت أئماً لجميع القادرين عليها وسجل السيد رشيد رضا في عام ١٩١٥ أن المبشرين في مصر عدة مدارس

ومستشفيات وصحف وقد ساعدتهم الحكومة المصرية على إنشاء مدارسهم ومستشفياتهم باسم نشر العلم وهم ينشرون في كل عام عدة كتب ورسائل في الطعن في القرآن والذي ، وتنفيذ المسلمين من الإسلام فضلا عن النشرات والأوراق الصغيرة التي ينشرونها في المستشفيات والخطب التي يلقونها في سائر معاهد التبشير ولكن هذه الخطوط التي تتجمع عن حركة التبشير في مصر لا يمكن أن تعطى صورة كاملة وحقيقية إلا إذا أضفنا إليها خطة العمل الذي رسمها لورد كرومر للتبشير ، والتي ختمها إلى تقريره السنوي عام ١٩٠٤ ، هذا التقرير الذي يلقى الضوء على الخطة التي اتبعت خلال إقامته في مصر (١٨٨٣ - ١٩٠٧) وهي الخطة التي سار عليها العمل فيما بعد وقتنا طويلا .

« تقرير كرومر »

قال اللورد كرومر: من البين الجلي أنه ليس من أغراض الحكومة البريطانية دعوة الناس للانتقال من مذهب إلى مذهب لا في عالمها ولا في البلدان التي لها فيها شيء من السلطة والأدلة على ذلك كثرة ولا سيما في بلاد الهند كما يظهر من سياسة الحكومة فيها مدة أكثر من قرن فإن أعمال التبشير فيها لا تتجاوز أناسا مخصوصين والحكومة لا تعطيهما أقل عناية مالية ، وإنما تطلق الحرية لكل الأديان وتراقب أعمال المبشرين مراقبة تكفل أنهم لا يستخدمون لتصدير غير المسلمين إلا بالوسائل المحلية التي لا اعتراض عليها ومن الجرى على هذه المبادئ في مصر والسودان لابد من قسمة البلاد إلى ثلاثة أقسام تختلف بعضها من بعض من حيث المعاملة التي تعامل بها فالقسم الأول (القطر المصري) وهذا أكثر سكانه مسلمين وجانب كبير من المسلمين متعلم مهذب وقد طال اختلاطه بالأوروبيين فعرف كثيرا من آرائهم وأساليب حكوماتهم والقسم الثاني (شمال السودان) وسكانه الأصليون مسلمون كلهم وهم في غاية الانحطاط من حيث العمران بالنسبة إلى إخوانهم المصريين وليس منهم الآن فريق متعلم ، ولم يختلطوا بالأوروبيين لمعرفة آرائهم وأساليب حكوماتهم إلا منذ عهد قريب . وقد دل الاختيار على أنهم مائلون لتبني كل شيء ومعرضون للتحمس الديني يتقادون لكل رجال كما حدث في زمن المهدي (وهذه دعوى باطلة) والقسم الثالث يشمل كل (جنوب السودان) وسكانه وثنيون كلهم لم يروا أحدا من المسيحيين إلا منذ عهد قريب ماعدا بعض السياح الذين مروا في بلادهم واتصلوا بالمسلمين إنما يذكرونهم بفظائع الدراويش والنخاسين من العرب وبديهي أن كل قسم من هذه الأيام يجب أن يعامل معاملة خاصة ففي القطر المصري يجب أن تطبق الحرية ليدعو المسلمين إلى دينهم وليدعو المسيحيين إلى دينهم على السواء بشرط ألا تستعمل إلا وسائل الاقتناع المحلية ، وكل ما تطلبه الحكومة من هذا القبيل إنما هو ألا يحدث شيء منخل بالراحة العمومية وألا يستعمل أهل الديانة الواحدة ما ينتهك به حرمة الديانة الأخرى ، وقد جرى العمل بموجب هذا الأمر فجاءت النتائج مرضية بوجه العموم إلا أن هذه السياسة لا يمكن العمل بها في القسم الثاني أي في شمال السودان من غير التعرض لخطر جسيم فإن جمهور السكان هناك لا يزالون في حالة من الجهل تمنعهم من التمييز بين أعمال الحكومة البريطانية وبين ما يفعله أي شخص أوربي مما كانت حربته إذا أطلقت أيدي المرسلين لم تأت بأعمال مشرفة بل أغارت الفجوات والاحقاد وقد تحمل

على الإخلال بالراحة العمومية وقد قلت في تقريرى ١٩٠٢ أن أوافق السيد (رجنالد ونجت) حاكم السودان تمام الموافقة على رأيه وهو أن الزمان الذى يسمح فيه للمبشرين بالتبشير هناك ويكون تبشيرهم مأمون العاقبة لا يزال بعيداً ولم يستثن مكان من القسم الثانى من الشروط المتقدمة . إلا مدينة الخرطوم فإن سكانها ليسوا مسلمين بل فيها كثير من المسيحيين مستوطنون فيها، وهم من طوائف مختلفة وهى مركز الحكومة فسهل مراقبة أعمال المبشرين بالتدقيق وسكانها المسلمون مختلفون برجال الحكومة ثم إن الحاجة شديدة إلى تعليم أولاد المسلمين وأولاد المسيحيين، ولا تستطيع الحكومة أن تلبى كل ما يطلبه الأهالى من هذا القبيل، فلهذه الأسباب اتسع للبراسلين أن ينشئوا مدارس فى الخرطوم ولهم أن يدخلوا فى مدارسهم ما شاءوا من التعاليم الدينية ولكن الحكومة توجب عليهم أن يخطروا آباء التلامذة المسلمين وآباء التلامذة المسيحيين الذين هم من طائفة غير طائفتهم من أنواع العلوم التى تعلم فى مدارسهم قبل أن يرسلوا أولادهم إليها . أما فى القسم الثالث الذى يسكنه الوثنيون فقد كتب سيد رجنالد ونجت يقول : إن أعمال المبشرين جنوبى (كودك) ناشودة سائرة سيراً مستمرا وأعمال المبشرين الأمريكان والكاثوليك يقصد بها تمدين الأهالى وتهذيبهم أكثر مما يقصد بها إدخال الديانة المسيحية بين القبائل الوثنية، وعندى أنهم مصيبون فى اتباع هذه الخطة ولا شبهة فى أن التعليم الصنائعى الذى يعلونه لقبائل السلوك والدينكا وغيرها نافع جداً فى نظر الحكومة والعمل جار بمرعة فى بناء دار للبراسلين فى لول وقد أقيموا داراً أخرى فى طنجا وأقيمت داران فى بحر الغزال والمطران السيد جابر باذل أقصى جهده فى توسيع نطاق رسالته والعمل الذى عمل إلى الآن مفيد فمقدن الناس ، ويقال مثل ذلك عن البراسلين الأمريكيين . ويقول كرومر : وقد قلص فى نوفمبر سنة ١٩٠٢ وما يستوجب الأسف أنه لم توجه جمعية من جمعيات البراسلين الإنجليز أنظارها إلى أقاليم السودان الجنوبية التى يسكنها الوثنيون ولكن ندائى لم يأت بفائدة فأرسلت كتاباً إلى جمعية التبشير فى ديسمبر ١٩٠٢ أخبرها أن قسماً كبيراً من البلاد خصص لها فى الوقت الحاضر ، وقد عينت أقسام من البلاد للبراسلين النمسويين والأمريكيين وسألتها عما إذا كانت تريد أن ترسل مبشرين ثم قلت أن المسألة فى معرض البحث ولم يطلب أحد حتى الآن رخصة لإنشاء مدارس فى جنوب السودان على نفقته تعلم فيها فرائض الإسلام ولو طلب أحد ذلك لحل طلبه محل القبول ، أقول ذلك إظهاراً لخطة الحكومة ودفعاً لكل وم . . .

الفصل الثاني

مرحلة جديدة في خطة التبشير

تحول أخطر وخطوات أعمق

عندما أحس الاستعمار أن مخطط التبشير قد فشل وحرب بعنف وفضح أمره وكانت الحملة التي ساقتها الصحف العربية في مصر عليه عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ضخمة وبعيدة المدى وكسبت إلى المد الإسلامي كثيراً من دعاة التغريب أمثال الدكتور هيكل، بدأ في تعديل أسلوبه ونقل قيادته نقلاً مباشراً إلى كتاب يكتبون باللغة العربية وبمذهبهم مسلمون جغرافياً وبذلك اختفى اسم التبشير ظاهرياً وراء دعوة التجديد والعصرية وحرية الفكر وهي الكلمات التي حل لوائها طه حسين وسلامة موسى وعلى عبدالرازق وعمود عزمي . وفي هذه المرحلة أعلن التبشير بعد أن فشل في تحويل المسلمين إلى أديان أخرى أنه لا يطمح إلى إدخال المسلمين في أديان أخرى فإن ذلك من الاستحالة يمكن (باعترا فدهاقنة الاستعمار) ولكنه يهدف إلى إخراج المسلمين من دينهم نفسه فيصيحوا لاديين ومادى الفكر وبذلك يسرى فيهم الانحلال وتتحطم مقومات الفكر الإسلامى وقيمة من ناحية للتطبيق على الناس ، ويطلب طابع التفرنج لدى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية ثم أشار مخطط التبشير إلى أن العمل بين المسلمين إنما يكون عن طريق دعاة منهم ومن هنا ركز الاستعمار على بعض أسماء وأكسبها شهرة ولما نادى ودفع بها في خضم الثقافة والصحافة وأبرزها حتى تصدرت وأصبحت قوة لها وزنها حيث تولت كبريات المناصب في الجامعات والأعمال الرسمية ولما كانت هذه الأسماء قد كشفت عن هدفها ووجهت إليها الاتهامات فقد كان من الضروري في هذه المرحلة من العودة إلى مرحلة إرضاء الشهور الإسلامى والجاهير الساذجة بطبيعتها مهلة النسيان ، وأذيع من حول هذه الأسماء أنها عادت إلى الاسلام والايمان وكانت أبرز عوامل هذه المرحلة هي القفز فوق موج التيار الإسلامى نفسه . ومن هنا برزت المكتابات الإسلامية عن الهجرة والحضارة الإسلامية وتراجم الرسول والأعلام ولقد هو فعلاً كتاب عن الهجرة لواحد من هؤلاء الذين تكشفت خططهم في كلياتهم وفي مؤلفاتهم - من كثيراً من النفوس بأسلوبه الرائع وسدع كثيراً من المتقنين . وكان ذلك جرياً على المخطط المرسوم وهو إعادة الثقة إلى هذه الأسماء حتى تحمل هي مخطط التغريب ولتكون البديل الزائف عن الدعوة الإسلامية الأصلية ، التي كانت تحملها الشخصيات التي وصفت إذ ذاك بالجور والتخلف أمثال : شبيب أرسلان وعبد الدين الخطيب ورشيد رضا وحسن البنا ووصفت بالتخلف أيضاً أسماء حملت ألقاباً عالية من جامعات برلين والفنسا وبريطانيا أمثال الدكتور يحيى الدرديري والدكتور على مظهر وعبد العزيز جازي وفي هذه المرحلة أيضاً حرص النفوذ الاستعماري أن يضاف للتبشير تحت أسماء أخرى كثيرة . وكان حرصه إلى إيجاد البديل ، فاعللاً هاما في وقت انكشفت فيه خطط التبشير وزحف المد الإسلامى بالثناء جميعات للشباب والإخوان والهداية

منها تفرعت هضرات المجالات والهيئات . في هذه المرحلة رزت دعوة إلى الكتابة الإسلامية وتصديرها هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وهم نفس الكتاب الذين كانوا يهاجون الكتابات الإسلامية قبل سنوات قليلة لمصطفى الرافعي وشكيب أرسلان وجاد المولى ويصفونها بأنها كتابات قديمة رجعية وهذا هو ما وصفه الباحثون باسم « البديل » أي ظهور كتاب لهم أسماء لامعة في نفس السوق ، ببضاعة جديدة تلفت النظر ولكنها لا تحمل نفس مواصفات البضاعة الأصلية . ذلك أن هؤلاء الكتاب الذين تصدروا الكتابة الإسلامية كان فهمهم للإسلام فهماً غريباً خالصاً ، فهو لديهم دين روحاني ، تعبدى ، لا صلة بالجمتمع ولا علاقة له بالسياسة أو الاقتصاد أو التربية ويصور العلامة « مالك بن نبي » هذا الهدف من خطة الاستعمار حين يقول : « عندما تظهر فكرة مجردة فإن مرادف الاستعمار ترجمتها قبل أن يدركها الشعب الذي يريد صاحبها أن ينشرها بينه ، فيبدأ الاستعمار بتوجيه مدفعية إليها ، وبما أنه لا قدرة له على مجابهة الفكرة المجردة صراحة والقضاء عليها فإنه يوجه قذائفه نحو الكتاب لتصيب فكرته ، والاستعمار يحاول تجسيد الانظار المجردة حتى ينصب نفسه على الشخص وحتى تصبح العلاقة عاطفية لاعتقالية . أو يعمل على طبع الدعوات بسرعة لإخراج مولود ضعيف يسهل قتله . أو لا يمثل الفكرة الأصلية ، أو إيجاد بديل سريع لكل فكرة شريفة ونحويل الرأي الأول بالثانية ، أو شن غارة على الفكرة وصاحبها وانهاهم صاحبها من جهات ذات نفوذ . وإذا تبين له أن الفكرة التي أراد إقصائها قد بنيت بصورة فكرة مجردة استقرت في ضمير الشعب فإنه يتبع خططا أكثر دقة فهو يجتهد في امتصاص القوى الواعية بأية طريقة ممكنة حتى لا تتعلق بفكرة مجردة ويحاول تعبئتها لفكرة متجمدة حيث تصبح أقرب مثالا ، لأنه يستطيع مقاومتها بوسائل الإغراء أو القوة وفي الوقت نفسه يحاول حربه ضد المسكرة المجردة بوسائل ملائمة مرنة ، ويستعين بخريطة نفسية للبلاد المستعمرة ، ويجري عليها التعديلات اللازمة كل يوم رجال متخصصون بذلك ، مكلفون برصد الأفكار - والاستعمار لا يكشف عن وجهه النقاب بل يظهر وكأنه بعيد عن المعركة في الوقت الذي يدير ويشرف على كل صغيرة وكبيرة فيها . » وهذا يكشف بوضوح عن دورين مختلفين لرجل واحد ، كاتب يقول أن العلم هو الأساس للبحث في الأدب ، وأن الأدب الذي لا يخضع للعقل لا يمتد به ، يقول هذا عام ١٩٢٦ ولكنه لا يلبث عام ١٩٢٦ أن يقول: أنا أعلم أن قوماً سيضيعون بهذا الكتاب لأنهم محدثون بكبرون العقل ولا يتقنون إلا به ولا يطمنون إلا إليه ، وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ويرضاها ، هؤلاء سيضيعون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرءون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها في نفوس الناس ، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل وإن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها للمنطق ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي ، فإن في قلوب الناس وشعورهم وهو أطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يجيب لديهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها وأحب أن يعلم الناس أني وسعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجده بأسا ، هذا التحول : يجب أن يكون موضع

التقدير في مخطط التغريب نفسه ، فإن الرجل الذي حمل على القرآن وشكك فيه وأطاع الجراءة على النظر فيه بوصفه كتاب أدبي وبصرف النظر عن أي قداسة له ، وحقاق به الناس ، إنما يعود مرة أخرى ليندفع البسطاء بالحديث عن السيرة ، ولكنه يقف عن هامش السيرة ويولى الاهتمام بالأساطير مما يدفع أكبر أصدقائه أهمية لأن ينذر بخطر هذا الاتجاه : يجب في رأيي أن لا يتخذ ما اتصل (بسيرة النبي) مادة لأدب الأسطورة ، فالتبني وسهرته دعوة تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي فائدة من هذه الحياة ومن أعز فوائدها عليها وأكبرها أثراً في توجيهها ، (وللؤاف) يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير مثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتفكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه . وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المسلمين الدينيين في مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام . هذا جانب من التحول الاخطر : محاولة جديدة لخدمة أغراض التبشير بإذاعة الأساطير المتصلة بحياة النبي والتوسع فيها (بنص عبارة للؤاف) وإحلالها بديلاً للسيرة نفسها التي يستهدف المسلمون من إذاعتها الانتفاع بها في فهم أهداف الإسلام ومقاصده في بناء مجتمع كامل وفق النظام الذي أقام عليه محمد ﷺ والمجتمع الأول . وهذا الأسلوب الإنشائي الموسيقي المتصل بالخيال إنما يهز نفوس البسطاء ويخدع عقولهم ويحدث فيهم لشوة د شعراء المقامى القصاصيين المتحدئين عن أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة ، وهو في الوقت نفسه ينشر في نفوس الناس الإعجاب بالكاتب الذي يتحدث عن الرسول ويعيد الثقة حوله . ولا يقف التحول عن هذا الحد . بل إن الكاتب نفسه لا يلبث أن ينقلب على الحرب السياسي الذي نشأ في أحضانه ويتحول إلى حزب الأغلبية الذي ظل يحاربه وله في الحديث عن رئيسه د سعد زغلول ، أبلغ عبارات السخرية والنقد كان يقولها في أوج شهرة هذا الوهم السياسي ، ولكن لما إذا تحول الكاتب ؟ . من الحق أن يقال أنه تحول لكي يضمن استقراراً في أحضان الأغلبية ويرحف من جديد إلى أكبر منصب سياسي يحقق له تنفيذ خططاته الاستعمارية والتبشيرية وهو ما تحقق فعلاً بعد ذلك . د الحديث هنا عن طه حسين . . هذا نموذج من تحول خطة التبشير إلى أعق في مجال الثقافة والتعليم والنفوذ السياسي القادر على إحداث أبعاد الآثار في المناهج الدراسية . كانت أبرز هذه الآثار : ما يتصل بالأدب العربي وتغليب الأدب اليوناني عليه بالعرض المقارن وإثارة الشبهات التي كانت قاصرة على الدراسات الجامعية إلى مناهج التعليم الثانوي . وقد أشار المستشرقون إلى أهمية هذا العمل بالنسبة لوسطائهم . إذ أشار جيب إلى أن هذا النفوذ في الدوائر الرسمية من شأنه أن يوطد المبادئ ، التي يدعو إليها هؤلاء وقد صور عباس حافظ ما أدخله (كتاب المجمل في تاريخ الأدب العربي) الذي وضع بإشراف الدكتور طه حسين إلى الأثر الخطير حين قال : « إن الكتاب قد تعرض في تاريخ الأدب العربي لجملة من القضايا والنظريات والتخريجات والآراء الخطيرة التي لم تثبت بعد ولم يستقر العالم الأدبي منها على أحكام حاسمة ، فالشكوك في العصر الجاهلي واستباق الشعر للنثر وأثر الحضارات الأجنبية في حضارة العرب قد أقيمت إلى النashء طالب الثانوية كقضايا مفروغ منها وأحكام نهائية وهو منهج خطر على الناشئين ، مضلل للعقول الصغيرة . ويضاف إلى هذا

ما أثار الباحثون من المقارنات التي أجريت بين الخطابة في الأدب العربي والخطابة اليونانية . وفيما يتصل بهذا التحول أن جميع القضايا التي أثارها التبشير كشبهات لم يلبث أن وجد كتاب يكتبون باللغة العربية قد حلوا لوائها : (أولاً) إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية ومفهوم الإسلام بحسبانه نظام مجتمع كانت تثيرها أقلام شبلي شبل وجرجي زيدان . فأصبحت تثيرها أقلام مثل علي عبد الوازق وعمود عزمي (ثانياً) إثارة الشبهات حول اللغة العربية والاهتمام بالعامية والدعوة إليها بعد أن كان يحمل لوائها ولور وويلكوكس أصبح يحمل لوائها لطفي السيد وفاسم أمين . (ثالثاً) إثارة الشبهات حول الحديث النبوي وكانت من اتهامات المبشرين والمستشرقين أمثال برنجر وجوهل زهر ، أصبحت من كتابات بعض المسلمين وكان هذا أخطر تحول في طريق التبشير إلى دعم حركة التغريب . وهناك تحول آخر فقد استطاع الاستعمار أن ينسب إلى صف الدراسات الإسلامية بعض من كانوا يناقضونها أولاً يتصلو بها كالعقاد واسماعيل مظهر وغيرهم ، وذلك في ظل التحدي الذي واجهه الغرب نتيجة لوحف الشيوعية فقد اتجه هؤلاء الباحثين إلى الكتابة عن الإسلام ، ليس تقديراً له ولكنه بحسبانه عاملاً مدافعاً لا لخطر الشيوعية ، وهي كتابات لا تصل إلى جوهر الإسلام ومقاصده الأصلية وإنما تكتفي بأن تلمن شعارات الإسلام كعامل سياسي في مواجهة النفوذ الشيوعي . وقد يخدع هذا الاتجاه بعض البسطاء ويظنونه تحولاً من الكتاب أو دفاعاً عن الإسلام ولكن حين تعمل النظرة إلى هذه الظاهرة يمكن وصفها بأنها : دحق يراد به باطل ،

الفصل الثالث

بعد الحرب العالمية الأولى

أخطر مرحلة في تاريخ التبشير

حققت الحرب العالمية الأولى نتائج هامة في مخطط التبشير فقد قامت الانتدابات البريطانية والفرنسية على معظم أجزاء البلاد العربية التي قسمته إلى أقطار يقع كل منها تحت نفوذ غربي مختلف (أولاً) مصر والسودان والعراق والأردن تحت النفوذ البريطاني (ثانياً) سوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب تحت النفوذ الفرنسي . أما فلسطين فقد قام فيها نظام انتداب بريطاني ومشروع إنشاء دولة يهودية صهيونية معاً وقد وجد التبشير في هذه الخطوات الجديدة مجالاً واسعاً للعمل ، إذ راحت الدول المنتدبة أعمال الارساليات وكانت حامية لها ، كما أتبع لهذه الإرساليات من النفوذ والخطر أمرين هاميين : (الأول) التنزلات الخاصة بالأرض وإقامة المؤسسات والإعانات والإعفاءات الجمركية (الثاني) سلطة الامتيازات الأجنبية في إطلاق الحرية لها في العمل دون أن يكون في مقدور الحكومات إلزامها بشيء أو الإشراف عليها أو محاسبتها . ولم يتوقف عمل التبشير عند مجال التعليم وحده بل شمل مجالات كثيرة واتخذ من المستشفيات ستاراً خطيراً ، وبالرغم من آباءين وجهات النظر السياسية بين البعثات التبشيرية ،

فقد كانت جميعها متفقة في الغاية ، وهي بث الروح الاستعمارية في الشرق ، وتشكيك المسلمين في دينهم ، واحتقار تاريخهم وتمجيد الغرب وحضارته ، وفي هذه المرحلة خطف المبشرون بقوة في عدة مواقع : وركزوا على مصر تركيزاً شديداً إلى الحد الذي كشف عن دخيلة عملهم وفضح مخططاتهم كله ، بل لقد تجرأ المبشر زوير فاقترح الأهرم في خلال الدراسة ووزع منشوراته على الأساتذة والطلبة وتحدث معهم في جرأة ، كما عمد المبشرون إلى تنفيذ جرائم خطف الأطفال والأحداث وتعميدهم وإخضاعهم بالتنويم المغناطيسي وأثبتت محاضر التحقيق التي أجريت أن موظفي الإدارة وقسم الأديان في محافظة مصر كانوا يماونون المبشرين في تسهيل إجراءات تنصير أي مسلم ويحولون بينه وبين أهل دينه ، بل بينه وبين أبيه وأمه ، غير أن هذا العمل قد فجر طائفت حية وتصدت صهيفتين كبيرتين في مصر هما السياسة والبلاغ لفضح هذه الأعمال والكشف عن أهدافها الأساسية . وكان للدكتور هيكل دور كبير في هذا العمل ولما ساعده أحمد نقيب في جريدة السياسة حتى عدت كتاباته هذه من علامات الطريق في دراسة مخطط التبشير فهو الذي قال صراحة أن هدف التبشير هو توهين الروح المعنوية في قلوب المسلمين من جميع طبقاتهم ، وقد فصل ذلك حين قال : إن إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين بها ، هي استمرار للنضال التاريخي القديم بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، حيث يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والإغراء والوسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الإسلام من الأحرار والسياسة أنهم قطعوا في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها ، وقال : هذه هي الغاية التي تعمل لها الأمم الأوروبية وترصد لها الأموال الطائلة وتجهذ لها من الدعاة جيش ضخم في صور المعلمين والمبشرين والمبشرات والأخبار . على أن إضعاف العقيدة الإسلامية هي الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التي تنحل عقائدها القومية وتضعف تغدو فريسة أيسر للغزو الفكري والديني . فإذا تم هذا الوهن المذهود في عقائد الشعوب الإسلامية استطاع الاستعمار الإجهاز على الفرائس وغاضت الخواص والعقائد القومية التي ما زالت تنكسر عليها جرار الاستعمار . ومن الأسف أن الشعوب الإسلامية لم تظن حتى اليوم إلى هذه الحقيقة ولم تتنبه لفداحة الخطر ولم تفعل شيئاً لردّه ، وإذا كان الإسلام ما يزال يناضل بقوة وصلابة فإنه إنما يرد جيوش الغزاة برسوخ وقوة عقيدته لا بعمل أبنائه ولا بمجهوده . وقد استطاعت الصحف في هذه المرحلة أن تحصل على إحصائية خطيرة تكشف عما ينفق في العام الواحد بالنسبة للإرساليات الإنجليزية والأيرلندية على النحو الآتي : (عام ١٩٣٢) ٩١٣٨٨ مبشر تحت سلطتهم ٨١ مدرسة جامعة وكلية فيها ٧٩٩١ طالباً و ١١٣ مدرسة روضة أطفال بها ٣٤٠ و ٥٠٠ مستشفى و ١٠٢٤ صيدلية لها ٤ مليون من الزبائن ، تبلغ عدد إرساليات التبشير العامة ٣٨٣٨ درجة أولى و ٣٤٧١٩ درجة ثانية ، وجملة المبالغ الذي أنفق في هذا العام خمسة ملايين جنيه . كما أشارت التقارير الواردة من جمعية التوراة ومركزها ١٤٦ شارع الملكة فيكتوريا في لندن : عن توسيع نطاق حركة التوزيع في اليابان والصين ومصر وأنه قد تم توزيع ١٥٠ نسخة في السودان الإنجليزي والعربي والحبشة وفلسطين وسوريا وقبرص بمصر . وذكر التقرير أن جمعية نشر التوراة البريطانية أنفقت عام ١٨٠٤ ووزعت حتى عام ١٨٩٩ = ١٦٠ مليون نسخة له ٣٦٤ لغة

كما ظهر بوضوح الاهتمام البالغ بحماية معاهد التبشير كلما ورد ذكر الانجاء إلى عقد معاهدة ، وبلغت نفقاتها السنوية ٢٣٠ ألف جنيه بين بريطانيا ومصر (هذه المعاهدة بدأت المفاوضات من أجلها منذ ١٩٢٠ وانتهت ١٩٢٦) ، قالت جريدة التيمس في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بمناسبة المفاوضات الجارية بين مصر وبريطانيا : إذا كان هناك شيء يخشى منه فهو خلو المعاهدة من نص يتفق بحماية معاهد التبشير ولسكنها تعود فقط لمن النفوس إلى أن بريطانيا ستظل تحمي جميع معاهد وإرساليات التبشير . وأشارت التقارير في هذه الفترة إلى الدور الذي تلعبه أضخم مؤسسة لأعمال التبشير وهم : جمعية التبشيرية المسيحية الدولية في مدينة نيويورك ، والتي تضم ٩ آلاف فرع في العالم و يبلغ جملة أعضائها مليوني عضو ولها فروع في مختلف العالم الإسلامي وقد رافق هذه الخطوات الضخمة ضربات قوية كانت بعيدة المدى . ففي السودان أغلقت المناطق الجنوبية في وجه التاجر المسلم وسمح فيها للبعثات التبشيرية وحدها بمجرية الحركة . وفي تونس عقد المؤتمر الإلخارستي الذي جمع مؤسسة الآباء البيض للمبشرين وجرت محاولات تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية ، وفي المغرب صدر الظهير البربري سنة ١٩٣٠ الذي فصل البربر المسلمين عن العرب ووضع لهم أنظمة خاصة في القضاء والتعليم مستمدة من قوانينهم العرفية القديمة . واستهدف استخراج القبائل البربرية من حظيرة الشريعة الإسلامية وإلغاء العلوم التي تعلم اللغة العربية في مناطق القبائل .

وفي مصر وعديد من بلاد الشرق اقتحم دعاة البهائية ، المجال وبشروا علناً وكتبوا في الصحف وأقاموا محافلهم ، وكذلك اندفع دعاة القاديانية ، في الهند الإسلامية وفي غيرها كما انطلق دعاة التبشير في مجال الجامعة والثقافة والصحافة وظهرت كتابات مستمدة من مؤلفات المبشرين أهمها : الدرر الجاهلي لطله حسين والإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق . ولقد كان من أحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى وأخطارها إسقاط الخلافة . وقد وجدت هذه الخطوة تقديراً كبيراً في دوائر التبشير حتى إن زويمر في مؤتمر عام ١٩٢٤ الذي عقد في القدس أشار إليها إشارة التشنج وقال : أصبحت الروح القومية تدحر روح الجامعة الإسلامية وتعمل بحلها ، وكان لإلغاء الخلافة تأثير عميق ، . وأشار إلى أنها أحدثت ما أسماه انحلال الرابطة الإسلامية ، أو العروة الدينية في الإسلام ، وبالجملة فقد رأى المبشرون أن الأحوال في العالم الإسلامي كله تقريباً قد أصبحت ملائمة لأعمال التبشير وأن العراقيل التي كانت تنشأ فيما مضى قد أزيلت تماماً ، . وبعض الحكومات الاستعمارية التي كانت فيما مضى مضادة للتبشير قد تغير حالها وباتت صديقة للتبشير وعضده القوى تمسده بالمدونة اللازمة للقيام بالأعمال الطبية والاجتماعية التبشيرية الخاصة ، وأشار إلى أن الدستور الجديد الذي أنشئ في مصر قد اشتمل على نصوص قاطعة تكفل الحرية الدينية .

﴿ أولاً ﴾ في مصر

ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى لأمريين : (الأول) أن مصر هي مركز النقل في العالم العربي كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملاً هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء . (الثاني) أن مرحلة العمل الأولى في مصر قبل الحرب عن طريق الإرساليات التبشيرية الأولى قد

آتت أكلها وخاصة عن طريق الصحافة التي أبرزت ألمع نجومها من الصحفيين الغربي النزعة خريجي هذه الكليات من زيدان إلى صروف إلى فرح أنطون إلى سر كيس إلى شيلي شيل بالإضافة إلى الصحفيين الذين عملوا في فرنسا وبريطانيا، وقد تركز العمل في هذه المرحلة على عدة مراكز هامة (١) الصحافة (٢) الجمعيات الأدبية (٣) الجامعة المصرية (٤) مدارس الإرساليات (٥) المدارس المصرية الخاصة لإبراهيم كرومر ودنلوب. وكان لمعاهدة لوزان التي عقدت عام ١٩٢٩ أثرها الواضح حيث عقدت هذه المعاهدة بين الكرسي البابوي والحكومة الإيطالية التي حصلت بموجبها على تعويض ضخم وأعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه لدعم الحركة التبشيرية، فإنه لم يرض على ذلك عام وبضع عام حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الكبرى للإرساليات وبعض مستشفياتهم، ولم تلبث الحركات العنيفة أن كشفت عن أحداث خطيرة تمثلت في إغراء بعض الشباب والفتيات المسلمين بالتنويم المغناطيسي وترك دينهم. وجهت الصحف المنحرفة من نفوذ العهد السياسي الحاكم حملات عاصفة على هذه الحركة، وكانت جريدة البلاغ والسياسة هي أجراً هذه الصحف وكان الدكتور محمد حسين هيكل ورفيقه أحمد نجيب في جريدة السياسة من أعمق الدارسين والباحثين للظاهرة الخطيرة وتقديم إجابات صريحة عنها، كما تحدثت الصحف لفترة طويلة استمرت أعوام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ عن اتساع نشاط المبشرين الذي كان يشار إليه في بعض الصحف والمجلات وخاصة الإسلامية منها كالفتح والمنار لإشارات سريعة على فقرات متباعدة، وقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بورسعيد إلى أسبوط، وتحدثت عن وسائل الإغراء التي يلجأ إليها المبشرون لحل السدج على ترك دينهم وإغراء الأطفال من أبناء الفقراء. ويقول هيكل دكتنت من أشد الأعضاء تحمساً لمقاومة هذا التبشير اقتناعاً مني بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما في النفس من ثقة بدين الدولة، ولما تنطوى عليه من قصد سياسي هو إضعاف معنويات هذا الشعب بإضعاف عقيدته، وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفها منها أن وجهني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي يجب أن تقاوم بها، توجب أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثاً علمياً، كان هذا الحادث الذي روعت له مصر. حادث النشاط التبشيري، سبب متابعتي خلال أربع سنوات تمحيص حياة النبي العربي وتعاليمه. وفي خلال هذه المرحلة اندفع المبشر زويمر فدخل الجامعة الأزهرية ووزع منشوراته بها، وتألفت في إثر ذلك جمعية الدفاع عن الإسلام من العلماء والكتّاب، ووقفت الحكومة المؤيدة بالنفوذ الاستعماري في وجه هذه الجماعة التي كان يرأسها الشيخ المراغي. وكان من أثر الضربات الضخمة التي وجهت إلى الحركة التبشيرية السافرة أن اختفت هذه الحركة من المسرح وخلعت أثوابها واستترت وراء أثواب أخرى أشد خطراً بحيث لم يعد الكشف عليها ميسوراً، ورافقت هذه الحركة في مصر حركات مماثلة في السودان وتونس والمغرب أهمها حركة الظهير البربري في المغرب وحركة التجنيس في تونس وعقد المؤتمر التبشيري الأكبر في القدس وفي تونس، وهاجمت الصحف الأجنبية في مصر حركة المقاومة للتبشير، بل إن بعض الصحف اليومية العربية، والمجلات التي يرأس تحريرها طه حسين وتوفيق دياب وعلي عبد الرزاق قد هونت من شأن هذا الخطر، وصادرت الحكومة هيئة الدفاع عن الإسلام ومنعتها من الحركة. وفي خلال هذه المرحلة تبين أن عدد المبشرين في مصر يبلغ ٣٩٢ مبشراً وأن الحكومة تمنح لهيئات التبشير تسهيلات

جركية في حدود ما لا يقل عن مائة ألف جنيه . وقد أهدت جمعية الدفاع عن الإسلام النصح إلى المصريين اسحب أبنائهم من المعاهد التبشيرية ، ودعت إلى إلغاء معاهد ومدارس افتقراء المسلمين وكشفت عن الفارق بين دعوة كل صاحب دين إلى دينه وبين الإكراه ، وأعلن الإمام المراغى أن المعارض عليه هو طرق التبشير التي يبرأ منها العقل والعلم وتبرأ منها الفضيلة .

٢ - في السودان

يرجع بدء العمل التبشيري في السودان إلى عام ١٦٩٨ عندما وصل إليها الأب زامبيري دي برفندت بقصد التبشير فيه وفي الحبشة ، وأن أولى بعثة تبشيرية أرسلت إلى السودان كانت عام ١٨٤٦ وعلى رأسها القس (أورفالدر) وقد بقيت بالعمل حتى عهد الثورة المهدية . وفي عام ١٨٧٧ جاهر (غوردون) الذي تولى منصب حاكم السودان قبل عام ١٨١٩ بضرورة تنصير السودان . وما أن استردت بريطانيا السودان بعد القضاء على حكومة التعايش حتى نشطت حركة التبشير وكانت خطتها الثأر لغوردون الذي قتل عام ١٨٨٥ والانتقام له وتحقيق هدفه ، وقد تمهدت الإدارة الإنجليزية في مصر والسودان بالتجميع المادى والأدب وفي عام ١٨٩٩ أرسلت الكنيسة الإنجليكانية بانجلترا الووط الأول من المبشرين الثابطين لها فأنشأوا مراكز في الخرطوم وأم درمان . وفي عام ١٩٠٥ دعا اللورد كرومر إلى إنشاء مراكز للتبشير في مديريات جنوب السودان للعمل بين قبائل الدنكا والقبائل الوثنية ، وبذا بدأت أضخم خطوة في مجال التبشير . فتأسست مقرات في مديريات جوبا وبالي أورتاى ولوى وبامبيو ، وقد قامت بالعمل في السودان بعثات نمساوية وإنجليزية وأمريكية وأسترالية لها مراكز في مختلف المناطق الهامة ، وكتب دزويرى على إثر زيارته للسودان : إن من أدلة نشاط المبشرين أنه في منطقة تل دوليب التي يشغلون فيها منذ ربع قرن تمكنوا من جمع ١٩٠٠ من الأهالي في مدارس الآحاد ونصروا منهم بضع مئات ، وفي أم درمان تعقد الجمعية الأمريكية اجتماعات تبشيرية في سرادقات تقام على بعض أمتار من قبر المهدي ، وهناك من يقومون بالدعوة ويوزعون المذهورات ، وقال إن هناك مائة وعشرون تلميذاً مسلماً يلقنون قصص النصرانية وكتب الأسقف جوين في المجلة الكهنسية التبشيرية وأن من دواعي الغبطة أنه قد تم فصل مديريات جنوب السودان ليكون أسقفية جديدة تتحد مع جزء من أوغنده ، ومتى تم ذلك فسيصبح أول رئيس لها دكشن ، الذي قضى أكثر من خمسة وعشرون عاماً في التبشير في أوغنده ، ولا بد أن يؤول الأمر إلى تدعيم هذه المبادرات بخطط ومشروعات جديدة ليقوم التبشير في كل هذه المناطق ، وقد تم الاتفاق بين مصلحة الممارف السودانية والإرساليات على أن يترك لها مسألة التعليم في الجنوب مقابل إعانة تدفع لها . وقد عمدت حكومة الاحتلال ، في السودان ورغبة في دعم خطط التبشير إلى تحريم سفر أهل الشمال إلى الجنوب ووضع قيود التنقل داخل الجنوب إلا بتصريح كتاب ومنع التجار المقيمين من أهل الشمال من التحدث مع أهل الجنوب باللغة العربية وللأوامم بتعلم لغة أهل الجنوب . وقد ركز المبشرون جهوداً ضخمة على جنوب السودان حيث يكثرون الوثنيون ، ولما لم يقبل الوثنيون دعوتهم كان عمل المبشرين قاصراً على منع انتشار الإسلام ، وقد أشار ولسون كاتس في كتابه السيدان المذنبين أنه ما من قائد أو رائد أرسله مصر إلى أعالي النيل في القرن التاسع عشر

بإعزاز من الدول إلا كافي من رواد التبشير على وجه من الوجوه ، وقال إن الحكومات (المحتملة)
في السودان والافطار الإفريقية تيسر نشر التبشير في بلاد الوثنيين فتتبع لهم السفر إلى أقصى الجهات
وتحرره على الجلالة والفقهاء وأصحاب الخوات . وقد جعل الاستعمار من منطقة الجنوب مباحاً للتبشير
والنفوذ الأوربي دون الإسلامى ، وفيها نشروا اللغة الإنجليزية دون العربية ، وعملوا بذلك على إيقاف
تيار الإسلام صوب الجنوب والحد من زحف السيل العربى المتدفق بقفل الجنوب وفصله عن الشمال
وبذر بذور الشقاق والتفرقة بين العرب ولأخوانهم أهل الجنوب . ومن الخطوات الهامة في تاريخ
التبشير في السودان ، تلك الحركة الضخمة التي قامت عام ١٩٢٩ حين وجه حاكم السودان العام (وهو
بريطاني) وشاركه ستة عشر قائداً النداء بمناسبة ذكرى غوردون إلى توسيع نطاق العمل التبشيري
وفتح باب الاكتتاب لهذا الغرض لجمع أكثر من ٩٠ ألف جنيه ، ودعا إلى إنشاء مراكز التبشير في
بور سودان وغوردون ووادي مدني ، وقالت جريدة التيمس الشهيرة في هذه المناسبة : إن « غوردون »
بذلك حياته في سبيل التبشير ولا بد أن نكون ذكراؤه حافزاً إلى العمل ، والمعروف أن غوردون كان
يعتبر رسالته لإدخال هذه المناطق كلها في النفوذ الغربى عن طريق التبشير . وقد درست ميزانية الإرساليات
في هذه الفترة بمبلغ ٢١٠ ألف جنيه . بينما كان المعهد الدينى الإسلامى في أم درمان يصرف له ٢١ ألف
جنيه . وقد نشرت الصحف في (٩ يوليو ١٩٢٣) تقريراً عن أعمال المبشرين في السودان ذكرت فيه
أنه يجري الحيلولة دون المسلمين ومخالطة أهل الجنوب أو التجول في أرضهم أو الظهور أمامهم بأى
مظهر من المظاهر الدينية ، كما منع توظيف السودانيين في بلاد الوثنيين . وقد توغل الإنجليز في هذا
السبيل وأرسلوا إخصائين في اللغات لدرس لغة هؤلاء النوج لجعلها لغة رسمية في بلادهم وذلك لمقاومة
اللغة العربية والحيلولة دون انتشارها لأنها لغة المسلمين ، وإذا وصلت باخرة أو سفينة إلى بلاد النوج
منع المسلمون من أن يقيموا الصلاة خارج السفينة بحيث يرام هؤلاء النوج . وقد جربوا وكانت
تجربة قاسية عليهم أن المسلم إذا ظهر مصلياً لا يلبث أن يحتلطوا به ويسألون عن عمله وطفقوا بقلده
وانتشر الأمر بينهم . ونشرت جريدة السودان ٢٥ / ١٢ / ١٩٢٦ أن المبشرين يتمتعون في جنوب
السودان بحماية الحكومة السودانية ولهم كامل السلطة في إبعاد من يرون إبعاده من التجار والموظفين
غير المرغوب فيهم من جهة المبشرين ، وأن المسلمين هناك يلقون عنقاً وتضييقاً في سبيل إقامة شعائر
دينهم . وما يذكر أن الحاكم العام في السودان حاول أن يدافع عن هذه الإجراءات فادعى أن ما فرض
في جنوب السودان من القيود على صفار التجار وأما لهم إنما قصد به منع استغلال الأهالى الذين هم في
أبسط حالات الفطرة استغلالاً غير مشروع . ومن يتابع تقرير اللورد كرومر عن التبشير يعرف إلى
أى حد وجه العميد البريطانى أنظار الحركة التبشيرية إلى العمل في جنوب السودان حيث الميسدان
خصيب وبكر ، وقد نفذت الحكومات السودانية خطته بدقة فأوجدت فاصلاً بين الشمال والجنوب
وأطلقت على تلك الأجراء المناطق المقفلة ، وحالت بين المسلمين الشماليين وبين التحرك في الجنوب
واستقدموا هذه المناطق جيوشاً من المبشرين ، وكانوا يأخذون الأطفال الجنوبيين إلى مدارسهم منذ
نموهم أظافهم حتى المرحلة المتوسطة عملاً بخططهم التي تهدف إلى إثراء هؤلاء الأطفال دهورهم

في وقت مبكر ، وكانت وزاوة المعارف السودانية تقوم بدفع ٩٨ ٪ من نفقات مدارس التبشير دون أن تشرف عليها . ولما استقل السودان أحس المبشرون بأن عملهم أصبح مريضاً بالمخاطر ولذلك فقد عمدوا إلى حياكة المؤامرات وتشجيع السكان على الثورة والتمرد ، أدفع الحكومة السودانية إلى إفشاء بعضهم إلى خارج الحدود ، وثار الفاتيكانيات واتهمت الحكومة بأنها اضطهدت الدعاة . وقد كشفت السودان عن التفرقة بين المسيحية كدين هو موضع احترام الحكومات الإسلامية وبين المبشرين كطلائع للاستعمار وخدام لمطامعهم . والمعروف أن جمعيات التبشير في جنوب السودان كانت قد باغت ... جمعية لها فروعها المثبتة في جميع نواحي الجنوب يعيش القوامون عليها في بحبوحة العيش في الغابات وغيرها ولديهم وسائل التبريد والتدفئة والمواصلات ، وقد خلقوا جيلاً جديداً مثقفاً ثقافة استعمارية جعلته متعصباً ضد الإسلام والله العربية ودفعته إلى كراهية لإخوانهم في الشمال ، ويصور الأستاذ على السيد جعفر عمل المبشرين في مدينة (وار) عاصمة بحر الغزال حيث النفوذ الضخم الواسع للإرساليات التبشيرية فيقول : ومن المؤلف أن ترى الأطفال في حوزة المبشرين كأن لا صلة لهم بأهل أو أقارب ، ولقد هالني أن أرى هناك في مركزهم على النيل قرب الحدود الأوغندية كثيراً من الأطفال يفترقون ويتلانون مع المبشرين تحت ظلال الأشجار ، فهم مدد متجدد تحت أيدي صنائع الاستعمار ورسله ، وبما شاهدته طائفة من النساء والبنات العاريات تلقنهن التراقيم نصف عُمياء بلهجتهم المتوطنة على حين تقدم لهم الطعام فتاة مراهقة تؤدي عملها عارية كما ولدها أمها ، والهدف هو د خلق جيل منزول يخشى كل ما فيه رائحة الشماليين . . . ويقول الكاتب : إن الجنوب بهذه الحالة سيكون نقطة الضعف التي يستغلها المستعمرون في إثارة الفتن والفلافل بل طلب الانفصال عن الشمال .

(٤) في شمال أفريقيا

بدأت حركة التبشير في المغرب (مراکش) بالدعوة إلى الفصل بين العرب والبربر وهما مسلمين وذلك بإنشاء أنظمة خاصة ومماهد ومحاكم تفصلهم عن الشريعة الإسلامية ومماهد القرآن مع إلغاء تعليم اللغة العربية في المناطق البربرية . وكان أخطر ما وجه الحركة التبشيرية إلى شمال أفريقيا عقد المؤتمر الأنغليستي التبشيري في تونس الذي عقد في قرطاجنة عام ١٩٣١ وقال عنه أسقف قرطاجنة آن ، حملة صليبية وقال المؤتمر إن الدافع لهم على عقد هذا المؤتمر هو تحقيق الفكرة التي كانت تدور بين جنوبي لويس التاسع والتي حملها بعده الكردينال لافيغري ، وليست هذه الفكرة سوى ما كان يقصده لويس التاسع من حملة الصليبية على هذه الديار ، وهو إرجاعها إلى الصليب الذي أجبرت على قبوله بمصنف الرومانيين ، كما أوصى المؤتمر فرنسا بتعميم التبشير ، وذلك لتوحيد عقيدة شمال أفريقيا . وفي تونس أيضاً ظهرت حركة تهذيب السكان بالجانبية المرابية وتقديم الإغراءات والتهديدات لتحقيق ذلك . الفرض وكان الهدف أن لا يحتكم السكان إلى شريعة الإسلام بل يحتكمون إلى القانون المدني الفرنسي وإدماج أهل تونس في الجانبية المرابية وسلخهم من هويتهم ودينهم الإسلامي وإقامة الحواجز والفرار بينهم وبين جامعتهم الوطنية والدينية .

وقد استعانوا في ذلك ببعض العلماء الموالين للنفوذ الأجنبي وفتحوا لهم الطريق إلى المناصب الكبرى حتى أن أحدهم أصدر فتوى بتبيح الدماء للجنس بالجنسية الفرنسية، وفي الجزائر احتفل المبشرون عام ١٩٣٠ بمرور مائة سنة على قرار النفوذ الغربي لا يبيحى وكان (لافيجرى) عميد التبشير قد أنشأ (جماعة الآباء البيض عام ١٨٦٩) عندما اختار أن يعمل من مدينة بسكرة في منتصف الطريق بين جبال الأوراس وبحيرات شط الغرب مقراً لإقامة زوايا للتبشير ليس المبشرون فيها لباس رواد الصحراء الأبيض وقد قاوم المسلمون هذه الحركات بقوة وقامت جمعية العلماء الجزائريين بزعامة الإمام عبد الرحمن ابن بريس كرد فعل لهذه الحركات التي لم تستطع تحويل المسلمين عن دينهم وتنبه المسلمون إلى التهديدات التي كشفت عن أهداف المبشرين من أمثال قول الأب ميينز أن حركة التبشير حرب صليبية هادئة بدأها المبشرون في القرن السابع عشر ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا فقد كشف كتاب المسلمين ومفكرهم عن هدف التبشير في مختلف أجزاء العالم الإسلامي وفي المغرب بالذات المائل بها وجود الأمة بالقضاء على مقوماتها ومشخصاتها من لغة وأدب ودين وذلك تنفيذ مخطط مهدف إلى إزالة سلطان المسلمين من هذه الأرض . وفي نفس الوقت استطاعت الطرق الصوفية في المغرب والسوسية بالذات اقتحام المناطق اللوثنية وإدخال أهلها في الإسلام بالرغم من نفوذ الهيئات التبشيرية وملايينهم الكثيرة. وما تزال الإرساليات التبشيرية تسيطر بنفوذها على مجال التعليم في تونس والجزائر والمغرب على نحو ما يزال بالغ الخطورة ، بل إن فرنسا قد زادت نفوذها في مجال التعليم التبشيري خلال معركة التحرير التي دارت سبع سنوات بين الجزائر وفرنسا وأنشأت في خلال سنوات قليلة عدداً من هذه المدارس يوازي ما أنشأته في تاريخ احتلالها كله . وما تزال عملية التعريب عاجزة عن التأثير في نفوذ التعليم التبشيري والأجنبي في تونس والجزائر ومراكش .

(٥) التبشير في قلب أفريقيا

زحف الاستعمار منذ منتصف القرن الخامس عشر إلى أفريقيا وكان أوائل الرواد الغربيين مبشرين من أمثال ولفسنون وستانلي وغيرهم من الذين فتحوا الطريق أمام هذه البعثات ، وكانوا يعملون عن خطط تقدمهم إلى قلب أفريقيا باسم التبشير وبرون أن كلمة الفتح إنما تعني خضوع أفريقيا وأهلها للإرساليات ومعاييدها وأهدافها ، وقد كانت شرق أفريقيا وغربها ووسطها مجالاً للصراع والمنافسة لمختلف البعثات التبشيرية الكاثوليكية واليسوعية والبروتستانتية السويدية منها والإنجليزية والألمانية ، وتمتد الإرساليات البريطانية أضخم هذه البعثات وما ينفعه الإنجليز بقدر بثلاث نفقات الإرساليات وبصف رولاند أوليفر في كتابه بالعوامل التبشيرية في شرق أفريقيا ، رائد التبشير وولفنجنستون ، الذي تخطى المكتب المدرسية الخاصة لنفوذ الاستعمار في العالم الإسلامي حين تحاول أن تصوره مكتشفاً من الحق أن يقال أن هذه المناطق التي رادها لم تكن بمهولة وقد وردت في مختلف كتب التاريخ العربي ، يقول رولاند أوليفر : ولقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنوات حياته الأولى حينما كان يعمل في جمعية التبشير الهندية للإطلاع بأعباء التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية وبالعامل بين شعوب فطرية لم يكن قد

سكنها الأوروبيون . وفي عام ١٦٥٩ كان وافنيجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال في التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولاً وقبل كل شيء مبشراً مسيحياً فلقد اختار كعضو في الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمر فيه إلى داخل البلاد ، لقد أراد وافنيجستون أن يكتشف طرقاً في أفريقيا للمبشرين لا المدنية ، وبالجملة فقد كان وافنيجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلاته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية ويقول وافنيجستون في أحد تقاريره (إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري ، وهذه حقيقة كلية إذ أنه من المحال أن تكتشف أرضاً جديدة دون أن ينه ذلك فينا شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل) ثم قدم إلى أفريقيا بعد ذلك ستايلي الذي كان لسكتابه الموجه إلى كليات أ كسفورد وكامبرج ودبلن والجمعيات التبشيرية في أوروبا سنة ١٨٧٨ أثر كبير في تحريك هذه الهيئات إلى العمل في أفريقيا ، ولم يلبث حتى عقد في ١٨٨٥ مؤتمر في برلين لتقسيم أفريقيا بدعوة من البرلس بسمارك ، وفي هذا المؤتمر تمهدت الدول بحماية إرساليات التبشير المتجهة إلى أفريقيا والساعية إلى تهذيب السود ! ولكن حركة التوسع الإسلامي استطاعت أن تنفذ إلى قلب أفريقيا منذ ١٨٥٠ - ١٩٠١ على أيدي مشايخ الطرق الصوفية وزاحمت البعثات التبشيرية وكسبت منها أرضاً كثيرة بالرغم من ضعف إمكانياتها المادية ونفوذها السياسي مما أزهج هذه البعثات ودفعها إلى تعزيز اعتماداتها وإلى تحريض الحكومات المختلفة على إيقاف خطوات التاجر المسلم والشايخ المسلم والحيلولة بينه وبين التحرك في قلب أفريقيا . وكانت أبرز الطرق العاملة في هذا المجال (السنوسية والمهدوية والنادرية والشافعية والتيجانية) . وما يذكّر في هذا الصدد أن حركة التبشير قد اهتمت اهتماماً كبيراً باحتلال الجيش الفرنسي لمقاطعة (واداي) الأفريقية ، ونوه بذلك مؤتمر ١٩١١ في لاسكنو (الهند الإسلامية) وقال إنه أهم حادث سياسي في هذا العصر ، لأن واداي كانت أهم مركز في إفريقية الاتجار بالرقيق وانتشار الإسلام ، وأن احتلال واداي سيققل من نفوذ مشايخ الزوايا السنوسية بحيث لا يستطيعون الوقوف في طريق تقديم الاستعمار . وقد رافق التبشير نفوذ الاستعمار ووجد الطريق أمامه ممهداً للعمل ، غير أن المبشرين لم يجهدوا أمامهم نفوساً مستعدة لتقبل دعوتهم بالرغم من المال والنفوذ ، وقد أشاروا إلى ذلك في مختلف مؤتمراتهم ، وقال زويمر وهو يستعرض حالة الاستعمار في أفريقيا عام ١٩١١ د أن الموقف صار حرجاً لمرعة تقدم الإسلام من مركزه الواسع في الشمال ومعاقله التي في السواحل إلى الجنوب والغرب الأفريقي ، وأشار إلى أن المبشرين قد أخطأوا في تقدير إمكانياتهم السابقة ، ولأنه تبين لهم فيما بعد أن بعض البلاد التي كانوا يحسبونها خالية من الأديان المعروفة قد ظهر أنها إسلامية محضة أو أنها على أهبة الدخول في الإسلام . . وقد تناولت لجان المؤتمر التبشيري البحث في الأمور التي تمهد السبيل للبعثات التبشيرية ودعت جمعيات التبشير إلى توسيع نطاق التعليم الذي يشرف المبشرون عليه . . وقد اعترف رولف إيتاليايدر ، في كتابه (أفريقيا الجديدة) بخطأ السياسة التي اتبعتها الدول الأوروبية في فرض التبشير على هذه المناطق وقال : لقد اعتدنا على اعتبار ديننا هو المثل الأعلى للقيم الروحية دون أن نحاول تفهم ما في الأديان الأخرى من فضائل ، وسافنا الغيور إلى محاولة فرض المسيحية على كثير من الشعوب الإفريقية المسئلة عن طريق سياسة تبشيرية حمقاء ، كان التبشير

يسير فيها مع الاستعمار في ركاب واحد ، لقد تدخل المبشرون في السياسة بشكل مباشر وأصبحت مهمتهم هي تخدير الأفريقيين واتخاذ لشر الدين ذريعة لمد السيطرة الاستعمارية عليهم وإبقائهم خدماً إن لم نقل عبيداً للرجل الأبيض ، أترانا لمعجب إذا رأينا الأفريقيين يسعون في أول عهدهم بالاستقلال إلى طرد هؤلاء المبشرين الذين لا يمثلون إلا ظلم الاستعمار وطفقائه ، أما المسيحية فإنها منهم بريئة . . . وتدل التقارير الواردة في السنوات الأخيرة على أن في أفريقيا اليوم ميدان واسع للتبشير المهرج الواضح ، غير أن الإسلام ما زال بالرغم من ذلك النفوذ الخطير الإرساليات التبشيرية يجذب الوثنيين إليه لأسباب مختلفة أهمها بساطته وبعمده عن التعقيد ودعوته إلى الحرية ، وما زالت الإرساليات التبشيرية منقسمة على نفسها تتصارع وتتنافس ، مما يفقدهم ثقة من يدعونه إليهم ، فضلاً عن ارتباط البعثات التبشيرية بالنفوذ الاستعماري الذي ينفر منه الوطنيون ومحاربونه .

٦ - في الهند

ركز النفوذ الاستعماري البريطاني على الهند وأفسح للبعثات التبشيرية فيها منطلقاً واسعاً ، فقد وفد المبشرون إلى الهند قبل وصول بريطانيها ، وفي ظل النفوذ البريطاني المتزايد أنشأ المبشرون في مختلف بلاد الهند المدارس والكليات والمستشفيات وأسسوا مراكز للتبشير وترجوا التوراة إلى معظم لغات الهند ووزعوا منها الملايين من النسخ . وقد نجحوا في اجتذاب بعض الهندوس والمبشرين الذين ركز المبشرون عليهم ، وفشلت محاولات التبشير بين المسلمين ولكنها استطاعت أن تؤثر في مفاهيم التعليم وبرامجه ، وأن تخلق بعض المدافعين عن مفاهيم الغرب المضللة والمحدقة والتي تحاول أن تفرس في الأجيال المختلفة أن الإسلام دين عبادة فقط لا دين حكم وحياة ونظام مجتمع ، ومن هنا برزت الدعوات التي نادى بإلغاء الجهاد الإسلامي أو تأويله . وقد أشارت تقارير المبشرين في مؤتمراتهم المختلفة إلى الجهود الضخمة التي توالى بذلها ، وكيف أنهم فتحوا في دلهي ، باب الجدل في مسائل التوحيد والتثليث وكيف عارضتهم المسلمون وكيف نشر واعدداً من الكتب التي يحارلون بها تأييد دعواهم ومنها ميزان الحق . طريق الحياة . مفتاح الأسرار ، ولم يتوقف دعاة التبشير عن إثارة المجادلات الشديدة مع علماء المسلمين في دلهي وأكرا وليكنو كما تناول المبشرون بالدراسة الدور الذي قامت به حركة الإصلاح في الهند والدور الذي قام به د أحمد خان ، وما تبذله كلية عليكرة وجمعية العلماء في لكنو . وقد أشار المرحوم العلامة د عبد المزين الثعالبي ، إلى التبشير في الهند في تقريره عن المسلمين الذي كتبه عقب زيارته لها عام ١٩٣٦ فقال إن عدد الإرساليات التبشيرية بها بلغ ٣٧٧ إرسالية بالإضافة إلى ٥٠ كلية و ٣١٨ مدرسة ثانوية و ٧٨ مدرسة اجتماعية و ٦٥ مدرسة زراعية و ١١ مدرسة للبشرين و ١٠ مدارس لتخريج معلمين و ١٧٠ صحيفة وجريدة ونشرة ، وقال إن النفقات السنوية للإرساليات بلغت ٢٢٧٢٣١ مليون روبية . والمعروف أن المسلمين واجهوا حركة التبشير بالمقاومة الشديدة فأكثر من المدارس القرآنية وإن كان الاستعمار البريطاني مساعدة منه للبشرين عمد إلى التضييق على هذه المدارس ، كما واجه المسلمون الحركة التي توعمها (مالويه - غاندي - سرداسك)

بالمعارضة الشديدة وردوا بعنف على الحملات التي وجهت إلى دينهم والطعون التي تناوأت الرسول الكريم .
وكان للشهيد القاضي عبد الرشيد دوراً ضخماً في الانتقام من رجال جمعية سافيين التي كانت تعمل لهدم
الإسلام تحت ستار الثقافة والتبشير .

٧ - في آسيا الإسلامية

بدأت البعثات التبشيرية تقتحم آسيا الإسلامية قبل أوائل القرن التاسع عشر ، حيث نفذت إلى
الهند وفارس والآنضول والآستانة التي صارت منذ ١٩٤٦ مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين ، وفي
اللايو توزعت البعثات التبشيرية وشغلت مختلف الأنحاء . وأولت هذه البعثات اهتمامها للساحل الشرقي
من الجزيرة إلى جاوه وسومطرا وفي مختلف المدن حيث بدأت بعثات التبشير ١٨١٣ انتشر المبشرون
والأطباء التابعون لهم وركزت اهتمامها للرجل الشرقي من الجزيرة وإلى جاوه وسومطرا .

٨ - في الجزيرة العربية

وأولت حركة التبشير الجزيرة العربية باهتمامها الواسع جرباً على ما قاله وايم جيفوود بالكراف
« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب حينئذ زى العرب يتدرج في سبيل الحضارة التي لم
يبعده عنها إلا محمداً وكتابه » . ولذلك فقد ركز التبشير على الجزيرة العربية وطمع في الوصول إلى
مختلف أجزائها ، وقد استغل وجوده في البحرين وفي عدن لهذا الغرض ، كما وصلت بعثاته إلى البصرة
والشيخ عثمان ، وقد اتخذ المبشرون في جزيرة العرب مراكز تمهد لهم سبيل التوغل في داخل الجزيرة
وتعمل كل الإرساليات على اختلاف نزعاتها وأشكالها ومعاهدها الطبية والتعليمية في سبيل الهدف المحدد
وقد عمد المبشرون إلى الإيوانات في هذه المناطق ومعهم الفانوس السحري يجمعون الناس كل مساء حول
قصص تبشيرية مستمدة من التوراة ، وتضم صوراً لعظمة أوربا وارتقائها وانعطاط الممالك الإسلامية
فضلاً عن توزيع المؤلفات التبشيرية مجاًناً في كل . وقد أذاعت بعثات التبشير نداء حاراً عام ١٩٢٧
إلى مراكزها في أوربا تدعوهم إلى إرسال مبشرين إلى بلاد العرب : ويقول هذا النداء الذي أعلنه الفس
باركلين « إن بلاد العرب تبلغ مساحتها مليون ميل مربع لم يدخلها التبشير بعد ، وفيها من السكان أربع
ملايين إلى اثني عشر مليوناً ، وبلاد العرب هي مهد الإسلام وضيعة وفيها مكة التي هي القبلة للملايين
المسلمين يتوجهون نحوها كل صلاة ، إن الحاجة شديدة الآن إلى مائة بشير يذهبون إلى بلاد العرب
المهمة التي لم تبلغها الدعوة بعد ، هناك نحو مائة قبيلة في بلاد العرب يمكن تبليغهم الدعوة وهم يسكنون
بلاداً مساحتها ثلث مساحة الهند وهم يعيشون في الخيام ، اذهب بنفسك إلى بلاد العرب ، أرسل غيرك
أيضاً ، احمل الكتاب إلى بلاد العرب ، ادع العرب وبلاد العرب إلى ديارك »

والجمعية العالمية المسيحية للتبشير في العالم وبلاد العرب ،

١٩ أليكندر رود - أبرموود (لندن)

٩ - في إيران

منذ وقت بعيد عمد التبشير إلى العمل في المملكة الفارسية (إيران) وكان التعليم التبشيري هو أبرز هذه المعالم فقد أنشأت الإرساليات مدارسها عام ١٨٨٢ في مختلف مدن إيران : طهران ، ميناء بهلوي كرماشاه ، تبريز ، همدان وقد تم لهم شراء أراضى شاسعة خارج مدينة طهران جرى العمل فيها على إنشاء كلية ضخمة افتتحت عام ١٩٢٨ ودخلها ثمانية طالب وقد عمد المبشرون منذ عام ١٨٩٢ إلى إنشاء جمعيات وإرساليات ومستشفيات واستطاعوا عن طريقها توسيع نطاق عملهم في الطبقات الفقيرة وإثارة للمناقشات الدينية .

١٠ - في العراق

تنافست بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية منذ وقت بعيد ، غير أنه في الربع الأول من القرن التاسع عشر بدأت الحركة التبشيرية تعمل من جديد ، وكان بطل العمل « جروفر » ، أول مبشر يصل العراق ١٨٢٩ وقد عمد إلى ما عمد إليه « زويمر » في البحرين من بعد بفتح مدرسة ومكتبة ، ثم توالى البعثات البريطانية وكانت بريطانية تهدف من هذا التركيز التبشيري في هذه المرحلة إلى إقامة جهة مواجهة الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا والسودان وشبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي . وكان هدفها قطع الصلة بين العراقيين والمصريين وكان للعمل التبشيري في العراق دوره في تقويض هذه الوحدة وهدمها . واستغلت هذه البعثات جماعات النساطرة الإيقاع بينهم وبين المسلمين والعرب وإيجاد فتن ومذابح دموية على نفس النمط الذي اتخذته النفوذ الاستعماري في لبنان بين الدرزيين والموارنة عام ١٨٦٠ وبه استطاع أن يدعم وجوده في المشرق كله ومعنى هذا أن الإنجليز استخدموا التبشير في هذه الفترة كقاعدة لمقاومة التوسع للمصري في شبه الجزيرة العربية وفي العمل أيضاً على تمزيقه .

١١ - في عدن

مأن استولى الإنجليز عليها حتى اتخذ فيها المبشرون إرساليات كرسى يرسولون منها نشراتهم التبشيرية إلى قلب بلاد العرب .

١٢ - في أندونيسيا

هوا التبشير البلاد منذ أربعمئة عام تقريباً وأطاعتهم حكومة هواندا المسيطرة إذ ذاك على مقادير البلاد وأفسحت لهم المجال لنشر التعليم عن طريق إرسالياتهم ، وإن لم تتوقف أعمال التبشير الأخرى عن طريق المستشفيات والانقضاء على العدالات والشباب وقد واجه المسلمون أعمال المبشرين بإقامة الجمعيات الوطنية وإنشاء المدارس الأهلية والرد على الشبهات في مجتمعاتهم ومصحفهم بالرغم من نفوذ

الاستعمار العاصف المؤبد للتبشير وقد أشار إلى ذلك الدكتور سنوك هرجرنجه زعيم التبشير الذي أقام
سبعة عشر عاماً في الهند الشرقية مستشاراً لحكومة هواندا حين قال في تقريره : المبشرون لا يزالوا
يتوقعون إضمار كل الأديان إليهم . ولا تتحقق أحلامهم فيما يتعلق بالإسلام سيظل ديننا شيطانياً قوياً ،
والمسلمون لا يقصدون أن يغيروا دينهم وقد احتاطوا أعظم احتياط لهذا الأمر الذي أدركه كل المبشرين
الذين عملوا في أرض الإسلام ، ففي الهند الشرقية الهولندية ، حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقاً
تمام الالتصاق بالمؤسسات الإسلامية لا يستطيع المبشر الذي أن يربح تابعين لدينه . ولا أعقد أبداً
أن الإسلام يسقط أمام النصرانية ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الغربي المسيحي ،
وهو يرى أن النصرانية شيء مضي وأن تدينه بها هو خطوة إلى الوراء . زد على ذلك أن الإسلام
يربح تابعين له من الوثنيين قالى يصير مسلماً لا يطلب منه شيء كثير ، إذ لا يوجد تقديس ولا طقوس
دينية ولا تعاليم طويلة ، فكل ما يطلب منه أن يعترف بالله ، وعندما يصير مسلماً يتغير مركزه الاجتماعي
ولكنه إذا تنصر فإنه يبقى دون غيره ويظل المرسل الذي غرباً متنتحياً عنه . ولكن هذه التصريحات
الجزئية من المبشر هرجرنجه ، إنما تعنى التماس وسائل أخرى لتبشير المسلمين وتغيير مفاهيمهم وقيمهم
الأساسية ، وقد ركزت هذه الإرساليات على التعاليم وحقق في مجاله نتائج خطيرة كان أبرزها ظهور
زعامات دعت إلى الفصل بين الإسلام والمجتمع وآمنت بمخططات الاستعمار الذي يقول بأن الإسلام دين
عبادة ولا صلة له بالمجتمع ، وما تزال مخططات التبشير تركز على أندونيسيا وتعنى في عملها بكل أسلوب
واليوم تكشف مجلة تايم الأمريكية عن أن أندونيسيا هي مسرح لا كبر حركة تبشيرية في العصر
لحديث ففي غضون الأشهر العشر الأخيرة التي أعقبت حركة أندونيسيا الأخيرة نشطت أعمال المبشرين
حتى بلغ الذين تغلوا عن دينهم الإسلام ٢٥٠ ألف نسمة ، وقد كشفت التقارير المختلفة أن هناك تحالفاً
لمحاربة الإسلام في أندونيسيا بين الإلحاد والاستعمار ، حيث يجري العمل لهدم الإسلام في نفوس
المسلمين وهو غرض مشترك في تحالف القوى المعادية للإسلام وهم يرون أن تردى المسلمين إلى الإلحاد أو
المادية هو كسب للعمل التبشيري أيضاً ومن هنا فهم يساندون الدعوات الإلحادية المادية في هذا الغرض
ويقول أحد الباحثين الأندونيسيين : « إننا لم نكد نشعر بفرحة انتصارنا على المادية الملعونة والتخلص
من كابوسها حتى نشطت الطوائف والإرساليات التبشيرية على اختلاف مذاهبها لمحاربة الإسلام ونشر
الفساد بين المسلمين وراعى ذلك نشاط مريب من الدول التي تقاوم نفوذها وبرز تحالف بين القوتين
حيث وجهت الإرساليات نداء إلى الدول بطلب المساعدات فوصلت الإعانات السخية بالمرء
البحرية وطائرات المايكروتر لتساعد على تأمين راحة المبشرين في قجوالهم وأنشطتهم بين مختلف
المناطق كما قدمت المطابع والنشرات والكتب وغيرها ، وقررت ألمانيا الغربية التبرع ببناء أربعين
مستشفى بأندونيسيا تدار من قبل المؤسسات التبشيرية ، وقد تمكنوا بواسطة هذه المساعدات من تحقيق
نتائج خطيرة لم يسبق لها مثيل . وقد استطاعت الإرساليات أن تستميل أكثر من ربع مليون مسلم
كاد الجوع والعمرى والمرضى أن يفلك بهم . وقد تمكنت المادية الملعونة مع التبشير في تضيق الخناق على
كثير من المناطق الإسلامية لتزيد في إفقارهم وإرغامهم على الالتجاء إليهم والاستعانة بهم واتباعهم ،

ذلك إلى جانب نشر وسائل الفساد والانهلال الخافي في الشباب كمرحلة لاستعدادهم إلى شبا كههم ومصادهم ودعا الكتائب المسلمين إلى العمل على توحيد الهيئات الإسلامية والجمعيات الإسلامية في العالم والعمل على قيام جامعة إسلامية تعيد الأمة الإسلامية كيانها وقوتها .

الفصل الرابع

مؤتمرات التبشير

عقدت حركة التبشير في خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية عدداً من المؤتمرات الكبرى العلنية التي أشارت إليها الصحف ونشرت التقارير التي تضمنت مادار فيها من دراسات وأبحاث ومن أم هذه المؤتمرات :

- (١) مؤتمر ١٩٠٦ في القاهرة عقد في منزل أحمد عرابي في باب اللوق . (٢) مؤتمر ١٩١٠ في ادنبرج (الكترا) . (٣) مؤتمر ١٩١١ في بيروت . (٤) مؤتمر ١٩١٣ في لكتنو (الهند)
- (٥) مؤتمرات ١٩٢٤ في للقدس ، وبرمانا (لبنان) وقسطنطينية في الجزائر وحلوان في مصر .
- (٦) مؤتمر ١٩٢٨ في للقدس . (٧) مؤتمر ١٩٣١ في تونس (المؤتمر الاغارستي) .
- (٨) مؤتمر ١٩٢٥ في للقدس .

وفي مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ التي عميد المبشرين زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين تقريراً ضافياً يمكن الرجوع إليه في كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) الذي أصدره السيد عب الدين الخطيب عام ١٨٣١ ونشر في المؤيد ١٩١١ وهذا هو المؤتمر الأول الذي عقد بناء على اقتراح مقدم من زويمر وقد افتتح المؤتمر في أبريل ١٩٠٦ في القاهرة في منزل أحمد عرابي في باب اللوق وحضره مندوبون من إرساليات التبشير في الهند وسوريا والبلاد العثمانية وفارس ، وقد عقدت المؤتمرات التبشيرية في مناطق حساسة من العالم الإسلامي كالقاهرة والقدس (التي عقدت بها ثلاث مؤتمرات) وكذلك في لكتنو معقل للثقافة الإسلامية في الهند ، كما كان مؤتمر تونس من أخطر هذه المؤتمرات وقد تناولت هذه المؤتمرات بالدرس حالة المسلمين وإحصائيات عن تعدادهم وانتشارهم وعن حالة العالم الإسلامي السياسية وخاصة في العالم العربي وأفريقية وتضمنت توصيات وتوجيهات وقدر أس هذه المؤتمرات عديد من كبار الساسة وحضرها كثير من المبشرين أمثال موريسون وجويين . وموط وعدد من المستشرقين والكتائب الغربيين ذوي الأسماء اللامعة وقد بلغ عدد الهيئات التي اشتركت في كل مؤتمر أكثر من مائة من أربعين دولة . وقد وقعت في هذه المؤتمرات حوادث عامة تدل على مدى خطورتها . ففي تونس اقتحم الآباء البيض المدينة في استعراض أعمار مشاعر المسلمين . وقد

دفعت خزينة تونس التابعة للنفوذ الاستعماري الفرنسي مليون فرنك مساهمة منها في تكاليف المؤتمر كما وضعت الأسرة في المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاءوا من أطراف الأرض وقد واجه المسلمون والعرب هذه المؤتمرات بالاعتراض والاحتجاج وحملت الصحف ببرقيات الرفض وخاصة في مؤتمر القدس سنة ١٩٢٨ . وقد كان المؤتمرات التي عقدت بعد الحرب العالمية أهمية خاصة فقد استعرضت الوسائل التي تحقق غاياتها في ظل حكومات الانتداب بعد سقوط الدولة العثمانية ، أما مؤتمر سنة ١٩٢٩ فقد كانت له أهمية خاصة إذ أنه جاء بعد توقيع معاهدة لندن بين الدولة الإيطالية والفاتيكان (٧٥٠ مليون أيرة) وما أعلن عن دعم هيئات التبشير بقدر كبير من المبالغ التي حصل عليها الفاتيكان وصدر في نفس الوقت (الظهير البربري) في المغرب وهو المرسوم الخاص بإخراج القبايل البربرية من -ظلمة الشريعة الإسلامية ورددها إلى ماضي العرف البربري ، وقد كانت هذه المؤتمرات نحاول أن نكشف الطريق للهيئات التبشيرية مرحلة بعد مرحلة ، حتى أنهم أطلقوا على حملتهم وفتح العالم الإسلامي ، في وجه الثقافة الغربية المسيحية بحسبان أنه أصبح عالماً ممزقاً مغلوباً على أمره تسيطر عليه -حكومات الانتداب وحكومات لها ولاية للنفوذ الاستعماري وفي ظل الاحتلال الفرنسي والبريطاني والمولندي لأغلب أجزاء العالم الإسلامي . وقد أولت هذه المؤتمرات دراسات واسعة لعمليها في المجالات الثلاث :

(١) المدرسة (٢) المستنق (٣) الصحيفة والكتاب .

وكانت دائماً تغير أساليبها بما يحقق الغاية وفق ما تنسفر هذه المرحلة السابقة وكانت هذه المؤتمرات تذكر دائماً بما في أيديها من قوى : (أولاً) معاهدة فرساي التي نصت في المادة ٣٨ على جواز التبشير في سورية . (ثانياً) الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية ومصر . (ثالثاً) الوضع الخاص الذي فرضه النفوذ الأجنبي على لبنان منذ عام ١٨٦٠ وقد وصلت هذه المؤتمرات إلى خطط محددة أهمها : (أولاً) أن التعليم هو أنجح الخطط في تحقيق الأهداف وذلك بوضع الشباب المسلم العربي تحت تأثير التعليم (الغربي المسيحي) وأن يشمل هذا التأثير أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في دولهم ، كما أولت هذه المؤتمرات اهتمامها بالتوصيات إليها من وزارات المستعمرات في المغرب ، كما تضمنت التوصيات إلى الدول المستعمرة ومن أهم هذه الرغبات ماطلبت له إحدى المؤتمرات من إغلاق البلاد الأفريقية أمام التاجر للمسلم والعالم المسلم المتنقل في البلاد أو أداء الصلاة الإسلامية أمام الوثنيين . كما اهتمت بدراسة المطبوعات اللازمة للتبشير ، وترجمات التوراة وتوزيعها بين المسلمين وإنشاء المعاهد اللازمة لتخريج المبشرين والإضافات اللازمة للمناهج التي تدرس في المعاهد والجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية ووضع الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة في مواجهة حركتهم كما عمدت هذه المؤتمرات إلى دعم المخططات الأخرى الفرعية وفي مقدمتها :

- (١) دعوات الفرعونية في مصر والبربرية في المغرب والبحر المتوسط في سوريا والفينيقية في لبنان
- (٢) تنشيط دعوات القاديانية والبهائية .
- (٣) الانتفاع بنشاط المحافل الماسونية .

٤ - الإنتفاع بالصحف والأندية والجمعيات وفي هذه المؤتمرات دائماً دعوة إلى الصبر والتحمل والمثابرة على العمل مهما بدت النتائج غير مشجعة وقد أجمعت معظم التقارير التي درست في هذه المؤتمرات على صعوبة تحويل المسلم من معتقده إلى دين آخر، وأن معظم ما حققته بعثات التبشير إنما حدث اعتماداً على ضعف بعض المسلمين وليس على قوة المبشرين وقد أوتت هذه المؤتمرات اهتمامها بالخطوات التي تحققت بالدعوة إلى العالمية التي قام بها ولسكوكس، وبالأداء التي عرضها طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي والمأخوذة من آراء المبشر جورج سال وبما تحقق من استعلاء النظرة الإقليمية على النظرة الإسلامية فأصبح المسلم في مصر مصرياً قبل أن يكون مسلماً وفي تركيا تركيا قبل أن يكون مسلماً، قد أشار (زويمر) في كتابه (الإسلام . ماضيه . حاضره . مستقبله) إلى أهمية الإنتفاع بالدعوة إلى القومية والإقليمية . كما اهتمت المؤتمرات بهذه الإسلام عن طريق إصلاح الطرق الصوفية وتحديد مناهج الإسلام وعن اتساع انتشار الإسلام في أفريقيا ودعا إلى اتخاذ الخطوات في سبيل إفساد هذه الخطط الإصلاحية . وركزت هذه المؤتمرات على أهمية العمل للحيلولة دون حدوث دوحدة ، بين المسلمين أو بين العرب واتخاذ الوسائل حتى يبقى المسلمون متفرقين وحتى لا يكون لهم وزن ولا تأثير وعندها أن تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ولذلك فإن على المؤسسات التبشيرية أن تنكسر شوكة هذه الحركة . كما دعت هذه المؤتمرات في توصياتها إلى الاهتمام بالأزهر وقد قرر المبشرون في أحد هذه المؤتمرات أن الأزهر يعتبر أهم عائق في وجه التبشير وبالتالي في وجه الاستعمار في مصر والعالم الإسلامي ولذلك فلا بد من إيجاد مؤسسة علمية ثابتة يمشون منها أفكارهم ويطبعون جيلاً من المسلمين بطابعهم حتى يقف هذا الجيل أمام الثقافة الإسلامية ويشكك فيها وقد تحقق ذلك بإنشاء بعض الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية وقد شملت تقارير مؤتمرات التبشير خطوطاً عامة أهمها (١) التصور بأن اقتباس المسلمين للأوضاع الأوروبية الجديدة سيحملهم إلى الانطباع بالطابع الغربي المسيحي ، من حيث أن الثقافة الغربية لها طابعها المسيحي ، وأن توسع هذا الجانب سيضيّق الجانب الإسلامي ، وفي هذا يقول زويمر د أن المسلمون يقتبسون من حيث لا يشعرون شطراً من المدينة النصرانية ويدخلونه في ارتقائهم الاجتماعي ، ويترتب على هذا أن التحول سيدخل الإسلام في شكل جديد من الحياة والعقيدة ، ويرى : أن طلب العلوم يكون الآن عقلية جديدة ، في المسلمين ، من مظاهرها قيام الثورة ضد كل ما هو مأثور قديم ، ويرتبون على ذلك أن بزداد المسلمون قابلية للإلحاد ، ويقول : إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق دولي (٢) الاهتمام بعوامل نمو الإسلام ومحاولة إيقافها : ويرد هذا بالنص : د إن الوقوف على أسباب نمو الإسلام يمهّد للحصول على وسائل توقيف نمائه ، كما ركزت تقارير التبشير على أن إلغاء الخلافة كان له أثر عميق ليس في تركيا بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي قوامه د انحلال الرابطة الاجتماعية في الإسلام ، (٣) ركز المبشرون على ما أسماه د الانقلاب النسائي ، ومن ثمّاره العدول عن الزواج الباكر والتوسع في حرية المرأة بحيث صار في وسعها حضور الحفلات (٤) الاهتمام بالدهوات الإقليمية وقال عنها أنها أخذت تدمر الوحدة الإسلامية (٥) التركيز على كل ما يؤدي

إلى تعدد وجهات النظر وما يحول دون قيام وحدة فكرية بين المسلمين وتشير التقارير إلى الخلاف بين السنة والشيعة والأتراك والهند والفرس والعرب وإذا كانت تقارير المبشرين قد هملت لهذه المحاولات فإننا نستطيع أن نقول الآن أنها جميعها باءت بالفشل، وأن المسلمين أصبحوا على وعي بحقيقة الإسلام وفهمهم الصحيح له اليوم من أنه دين ونظام حياة، وأنه أصلح الأنظمة لقيام مجتمعاتهم بعد أن فشلت الأنظمة الأخرى في بلادها ولم تحقق لأهلها ما كانوا يتطلعون إليه، وقد أصبح في استطاعة المسلمين اليوم التفرقة بين العلم والثقافة وبين الحضارة والثقافة وقد جرت أفلام كتابهم في السنوات الأخيرة بتصوير الفوارق والعلاقات بما يدحض ما ذهب إليه زويمر وطه حسين وأحمد أغايف وما كل يستهدفه النفوذ الاستعماري من أن دخول الأفكار الغربية يؤدي إلى القضاء على مفهوم الإسلام ومقوماته الأساسية، فالمسلم الآن يأخذ تجارب أوروبا وعلومها ولكنه لا ينفصل عن الإسلام، وأصبح المسلمون الآن يأخذون تجارب أوروبا وعلومها ولكنهم لا ينفصلون عن الإسلام، وأصبح المسلمون الآن يجارون الحضارة مع الاحتفاظ بمبادئ القرآن وتعاليمه وأن القصور في هذا المجال لا يرجع إلى أنهم لا يريدونه بل لأن قوى النفوذ الأجنبي والغريب ما تزال تحاول بينهم وبين ذلك. والتشريع الإسلامي قد شهدت له محافل القانون العالمي جميعاً واعترفت باستقلاله واكتماله وإيجابيته وصلاحيته الإنسانية كلها. ووحدة المسلمين اليوم تسير في طريق مضيء، ولعل أكبر ما حققته أنها كشفت خدعة المستعمر ومؤمراته في تأريخ نار الخلاف بين المسلمين وإثارة المذاهب والآراء القديمة لتفريق وحدتهم، لقد حدث تقارب كبير بين السنة والشيعة وبين العرب والترك والفرس والهنود في عشرات من المؤتمرات الإسلامية الكبرى، وستحقق خطوات أخرى أكثر صلابة مما يقضى على آمال النفوذ الاستعماري في استدامة تسلطه. وتعود اليوم مناهج الدراسة في مختلف بلاد العالم الإسلامي إلى مادة الدين بعد أن انتزعها منها زعماء التبشير والاستعمار وهملوا بأنهم كونوا أجيالاً مجردة من إيمانها، وسوف لا يقف أمرها عند هذا الحد بل أنها سوف تجد نفسها مضطرة إزاء هذا الطعنف الاستعماري الهائل إلى التماس مفهوم التربية الإسلامية في بناء شبابها وفتياتها ولم تعد الدعوات الإقليمية اليوم قادرة على تحقيق أهداف التبشير والاستعمار منها فقد انضح أن الفراهة عرب والبربر عرب والفينيقيون عرب هذا من ناحية، وبدأت وحدة الفكر، تكون الأساس، لأي وحدة سياسية واقتصادية ووحدة الفكر عند العرب مستمدة من ثقافتهم ذات الجذور الإسلامية بحسبان أن الفكر الإسلامي هو القاسم المشترك الأعظم لثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية، وأن الثقافات الدينية والفلسفات المختلفة قد انصهرت فيه فهو أساساً فكر الفرق كاه، أقول هذا واستشهد في هذا بآراء غير المسلمين قبل أن استشهد بآراء المسلمين أنفسهم.

الفصل الخامس

أخطار تحول في تاريخ التبشير

قال الدكتور زويمر سنة ١٩١٠ في مؤتمر التبشير العالمي :

لقد جربنا الدعوة إلى النصرانية في أنحاء الكرة من الوطن الإسلامي وأن تجارتي نخولني أن أعلن بينكم على رؤوس الأشهاد أن الطريقة التي سرنا عليها إلى الآن لا تصلنا إلى الغاية التي نرشدنا، فقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة وألفنا ما استطعنا أن نؤلف وخطبنا ما شاء الله أن نخطب ومع ذلك فإننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه الجديد على أساس الهوى أو نصاباً سافلاً لم يكن داخل في دينه من قبل حتى نعدده قد خرج عنه بعد ذلك ، ولا محل لدينا في قلبه حتى نقول أنه دخل فيه ومع ذلك فالذين تنصروا لو يبيعوا بالمزاد لا يساوون من أخذتهم فالذي نحاوله من نقل المسلمين إلى النصرانية هو اللعب أشبه منه بالجهد فلنتمكن عندنا الهجاعة السكانية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفلس . وعندئذ يجب علينا قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام من نفوسهم حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم أو في نفوس من يتربون على أيديهم . إن عملية الهدم أسهل من عملية البناء في كل شيء إلا في موضوعنا هذا ، لأن هدم الإسلام في نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم وهي خطة مخالفة لما نهدف إليه لأنها خطة إلحاد وإنكار للأديان جميعاً ولكن لا سبيل إلى تخليص المسلمين من الإسلام غير هذا السبيل وقال الدكتور زويمر في مؤتمر سنة ١٩٢٧ : أن التبشير قد وصل إلى أسمى غاية في مهاجمة الإسلام وأدى المهمة على أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ليس عمل التبشير إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ، ليكونوا مسيحيين ، لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً . والتجارب دللتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التي نرمى إليها هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليسكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً أي لا تكون له عقيدة يدين بها ويسترشد ضميره بهمتها ، وعندها لا يكون للمسلم من الإسلام إلا الاسم ، عندها لا يكون مسيحياً ولا يهودياً ، بل ملحداً لا يؤمن إلا بالمادة أو مضطرباً يحترق الإسلام والمسلمين ، لقد قضينا على برامج التعليم في الأفطار الإسلامية فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهما العقيدة والوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق الواقع أن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنيينا منه أعظم الثمرات المرجوة .

أكبر خطوة للتبشير في العصر الحديث (معاهدة لوتران)

غير أن أكبر خطوة حقيقية في سبيل اتساع نطاق التبشير بعد الحرب العالمية الأولى تفسر ذلك الدعم المادى الخطير الذى واجهته إرساليات التبشير المختلفة في العالم الإسلامى وارتفاع المد التبشيري وبلوغه الذروة إنما ترجع إلى معاهدة لوتران ، الذى عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان . والمعروف أن خطوات التبشير في العالم الإسلامى قد تلاحقت منذ مطلع القرن الثامن عشر غير أن خطواتها الضخمة قد تمت في فترة ما بين الحربين ، هذه الفترة التى يطلق عليها فترة انضاج ، الثمار التى سيكون لها الصدارة في مجالات القيادات السياسية والثقافية في العالم الإسلامى كله ، ولذلك فقد حرص الاستعمار أنه يبقى في هذه المرحلة حارساً لهذه المؤسسات ومدعماً لها حتى تتم مهمتها وتتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاءها عن قواعدها . أما معاهدة لوتران ، التى عقدت بين الفاتيكان والدولة الإيطالية فقد حققت أن تستولى الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الإيطالية على ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوقها المالية التى توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة في المائة لقرض إسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية . وقد صرح السكرتيرينال كبير البطارقة أن الفاتيكان تعزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال في تقوية نفوذ الكنيسة المعنوى وبث الدعوة الكاثوليكية وتقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا وقد أولت الصحف اهتماماً كبيراً بعقد هذه المعاهدة في ١٠ فبراير ١٩٢٩ فقالت أنها تحمل مشكلة دولية لبشع مدى ثلاثي قرن تفصل رجال الدين ورجال السياسة ، فضلاً عن كونها تنظم علائق الكنيسة والدولة على قواعد جديدة تعيد إلى الكنيسة الرومانية دولتها السياسية القديمة وتعيد إليها شيئاً من سلطانها الزمنى ، وقالت مجلة الرابطة الشرقية : إن تقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا في مقدمة المسائل التى تعمل الفاتيكان على تنفيذها ، إذن فلن تضى شهور قليلة حتى نرى غزوة جديدة للكنيسة الرومانية تنفذ بالدعوة النصرانية إلى الأمم الآسيوية والأفريقية ، وحتى نرى طائفة جديدة من الجمعيات التبشيرية تقوم في هذه الأمم تحت ستارها المهود وهو حجاب الأعمال الخيرية من حيث التعليم والثقافة وإنهاء المسكفيات ، ونرى الحكومة الفرنسية تبذل مجهوداً خطراً لتقوية البعثات التبشيرية فنذ أيام صادق مجلس النواب الفرنسى على التعديل الجديد الذى أدخل في قانون القروض المالية بالاعتراف بالبعثات الدينية خارج فرنسا وتنظيم ملكيتها ومعاونتها المالية لتسطيع القيام بمهمتها ومعروف أن فرنسا كانت قد أنكرت صفة البعثات الدينية منذ ١٩٠١ واستبدلتها ببعثات مدنية ، ولكنها تعود اليوم فتعترف بطائفة من الجمعيات الدينية يعينها القانون الجديد وهى تسعة طوائف كبيرة منها اثنتان للراهبات وسبعة للرهبان وهى تقوم بمجهودها التبشيرية في الأغلب في أفريقيا وبلاد المشرق وخصوصاً مرا كش ومصر وفلسطين وسوريا والصين واليابان ومنها طائفة الفرنسيين سكان الشيرة وطائفة القلب المقدس وغيرها وهى تعمل لغايتها في مصر جهاراً بين جدران مدارسها ومعاهدها المختلفة المنبثة في أقاصى البلاد . ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية تعترف بهذه الجمعيات فيما يتعلق بعملها خارج فرنسا فقط ولا تسمح لها بمزاولة دهرتها في فرنسا ذاتها لأنها لا تسلم بنظام التعليم الدينية

وهذا ما يصرح به التقرير الذي وضعته اللجنة المالية لمجلس النواب ، فقد ورد فيه : أن الجهود التبشيرية التي تبذلها فرنسا في الشرق وأفريقيا قد اضمحلت كثيراً وأن البعثات أخفقت في مهمتها لأنها لا تضم سوى عشرة آلاف طالب وطالبة ، بينما تضم مدارس البعثات الدينية في الشرق ٣٠٠ ألف وفي أفريقيا وحدها ٢٠٠ ألف وقال المسيو هريو مقرر اللجنة في خطابه أمام مجلس النواب .. : إن الجمعيات الدينية قد أدت إلى الحضارة والتعليم ونشر اللغة الفرنسية والروح الفرنسية من الخدمات مالا ينكره كل من يعرف أحوال البلاد التي تعمل فيها ، والواقع أننا - وهذه الجمعيات الدينية تعمل بيننا وتحت سمعنا وأبصارنا - نعرف ما هي الجهود والخدمات التي تصاغ دائماً في أبواب الألفاظ الخلابة كالمدينة والثقافة والتربية وأمثالها ، أجل نعرف أن هذه الألفاظ يقصد بها جميعاً كلمة واحدة هي النصرانية ، فهي في نظر الداعين إلى بثها في الشرق علم كل رقي ومدنية . هذا ولم ننس بعد أمر المؤتمر التبشيري الذي عقد منذ أشهر قليلة في بيت المقدس لتنظيم وسائل الدعوة إلى النصرانية والجهود التي تنفق لنشرها في آسيا وأوروبا لتبسط بذلك روحاً جديدة في الجمعيات والبعثات الدينية التي تعمل في مختلف الأقطار لهذه الغاية حيث تنظم الأمم الغربية هذه الحركات والجهود جهاراً بما لها من سلطان سياسي في الشرق وفي الأمم الإسلامية وتشهدا الأمم الإسلامية وتشهد نشاطها وآثارها جامدة ، فإذا ما ارتفعت صرخة في مجتمع إسلامي لمقاومتها وفضح أعمالها انكسرت في الحال ووصيت بالجهل والتعصب ، إن على الأمم الشرقية وحدها واجب التأهب لمقاومة هذه الغزوة الجديدة محافظة على تراثها الديني وإحباط ما يريد التبشير من مشاريع لهدم عقائدها وتقاليدها الإسلامية ، اهـ . وقد كشفت هذه التعليقات عن أهمية العمل الذي بدأ بحيث لم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى رأينا في القاهرة أخطر عمل تبشيري هو المسلمين في العالم الإسلامي كله وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية التي سجلها القلم في هذا العصر . وقد استتبع ذلك أن أعلن د. الفاتيكاني إنشاء معهد خاص لدراسة الفقه الإسلامي والعقيدة الإسلامية وذلك حتى يتمكن المبشرون من مهاجمة الإسلام في بلاده كما نشرت الصحف أن جمعية المبشرين العامة عقدت اجتماعها السنوي في مدينة بلفاست وقالت المس سميث : : إن معظم آمالنا ستتمحور في مصر الحديثة ، وقال وزير خارجية فرنسا وهو يقدم ميزانية الجمعيات الدينية في البرلمان : لأنه يعلق على صرف هذه الاعتمادات آمالاً كبرى وأن العمل الذي يقوم به المبشرون ليس دينياً محضاً وإنما هي وسائل نشيطة لنهر الدعاية الفرنسية في أنحاء العالم .

الباب الثاني

أهداف التبشير ومخططاته

الفصل الأول : مخططات التبشير - الفصل الثاني : وسائل التبشير وأنظمته

الفصل الثالث : عملاء التبشير وخلفائهم - الفصل الرابع : الصحافة التبشيرية

الفصل الخامس : منهج التبشير

الفصل الأول

أهداف التبشير ومخططاته

السؤال الأول الذي يواجهنا ونحن ندرس مخطط التبشير وغايته هو : ما هو هدف التبشير أساساً ، الحق : أن خطة الاستعمار الأساسية في غزوه للعالم الإسلامي والاستيلاء عليه إنما تستهدف أساساً تثبيت هذا الوجود وبقائه في الصورة التي تضمن للنفوذ الأجنبي موارده وأسواقه وخاماته . ومن ثم فإن صورة هذا الوجود الاستعماري يمكن أن تتطور وتتشكل على النحو الذي يحقق بقاءها واستمرارها في جو من الطمأنينة والتقبل . ولذلك فإن الصورة الأولى صور الاستعمار العسكري والسياسي المسيطر عن طريق الاحتلال والجيوش والأساطيل ونفوذ الممثلين والمندوبين الساميين إنما كانت تمثل في نظر الاستعمار مرحلة إعداد وتجهيز الأفطار المحتلة حتى قصير في البوئقة التي تجعلها خاضعة إلى أبعد مدى . وكانت هذه المرحلة في الأغلب هي مرحلة الاحتلال الذي انتهى في أوائل الحرب العالمية الثانية وما بعدها عن عشرات من الأفطار والبلاد . هذا الاحتلال لم ينته بصورته الأولى في الحق إلا بعد أن أتم رسالته كاملة ، ربما يظن البعض أن الاحتلال حين انتهى قد انتهت آثاره وانطوت صفحته ، وإن مرحلة الاستقلال قد فتحت صفحة جديدة مختلفة عن مرحلة الاحتلال ، وفي هذا قصور في الرؤيا . ذلك أن مرحلة الاحتلال كانت قد رسمت لها خطة تتم في مرحلة لا تقل عن عشرين عاماً وربما زادت عن ذلك ففي مصر استمرت مرحلة الحماية أكثر من أربعين عاماً . واستمرت مرحلة الاحتلال بعدها ثلاثون عاماً وفي لبنان استمرت مرحلة النفوذ الاستعماري من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩١٨ أي أن مرحلة التجهيز للاستعمار باقت ٥٨ عاماً وهي المرحلة التي تقدمت فيها قوى التبشير وسيطرت وتولت أعمالها التمهيدية حتى سيطر الاحتلال الفرنسي عام ١٩١٨ واستمر حتى ١٩٤٨ وفي الجزائر استمر الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠ إلى ١٩٥٤ ، والمعروف أن النفوذ الأجنبي قد انطلق للعمل في مراحلها السابقة للاحتلال عن طريق توين استطلاعيين كبيرين هما قوة التجار والمرايين وشركات الاختكار وقوة التبشير المتمثلة في الإرساليات والمدارس والجامعات والمعاهد والمستشفيات والكتيب والصحف والذشرات ، وكانت

قوة التبشير تعرف طريقها وعملها أساساً ، فإذا كانت قوة التجار والمرايين وشركات الاحتكار تعمل للاستيلاء على الاقتصاد والأزوة القومية فإن قوة التبشير والإرساليات كانت تعمل للسيطرة على ما هو أخطر من ذلك : السيطرة على العقل البشري وإعدادة لتقبل النفوذ الاستعماري والترحيب به والتعاون معه بل الدعوة عليه وتمجيدته والإعجاب بأهله وتاريخهم ودورهم في تحضير الشعوب وتمدين الأمم وفي نفس الوقت الانتقاص من شأن أهمهم المتأخرة وتاريخها واغتها ودينها وثقافتها وتراثها . تلك خطة التبشير الطليعية الكبرى أمام النفوذ الاستعماري ، والعامل الكبير في سبيل تحويل الاستعمار العسكري السياسي القابض على الأمور بسلطة الأجانب من خبراء وقناصل ومستشارين ومسلحين ومبشرين إلى نفوذ مستقبل ، وذلك بقسليمه إلى أيدي الوطنيين أنفسهم ليدانعوا عن بقائه بمفاهيمه ويربطوا وجودهم به ويكونوا أحرص عليه من الاستعمار نفسه : تلك هي خطة التحول الخطيرة التي يسمى إليها الاستعمار عن طريق التبشير والتي نفذها بدقة في خلال مرحلتين النجوى للاحتلال ومرحلة الاحتلال نفسه ويمكن القول دون تحفظ أن النفوذ الاستعماري العسكري والسياسي لم ينسحب من أي وحدة من وحدات العالم الإسلامي إلا بعد تأكد أنه قد ترك ركائزه وأعد هذه المدرسة المؤمنة به ، الدائرة في فلسفه ، المتقبلة له تقبلاً نفسياً وعقلياً ، هذه المرحلة هي مرحلة تقبل الاستعمار والتحرك في فلسفه ، والعمل من خلال دائرة الصماء ، دون القدرة على الخروج منها إلى دائرة اليقظة الإسلامية المرننة لقد قامت في مختلف هذه الوحدات الإسلامية حركات يقظة إسلامية وطنية ، قوامها القيم الأساسية للفكر الإسلامي متصلة بالخلفاء المتواترة من المصلحين والمجددين ودعاة التحرر والمقاومة ، ولكن الاستعمار استطاع أن يوجد عن طريق التبشير دائرة أخرى تستمد وجودها منه ، وتستعمل بنفوذها على دائرة اليقظة الإسلامية ، وهي في الأغلب من ثمار الإرساليات الأجنبية ومن الذين كوّنتهم هذه الإرساليات عقائدياً وفكرياً على مفاهيم الإيمان بالاستعمار وتقبله والإعجاب به والتعاون معه ، وقد أتاح الاستعمار لهذه الدائرة الصماء القوة والسيطرة والتبريز وأنهى لإيها أمور السلطة والنفوذ ، وبذلك حجب بها الدائرة الأخرى الأكثر أصالة والأصدق إيماناً بفكرها ووطنها . لقد كان قادة اليقظة أساساً هم قواد الحركات المختلفة التي اندلعت في العالم الإسلامي لمقاومة النفوذ الاستعماري الواحف ، وكان هؤلاء يجمعون بين الاسلام والوطنية ، ويتخذون من القيم الإسلامية مثلهم الأعلى في الجهاد والمقاومة والعمل ، ولكن النفوذ الاستعماري الذي يعرف أن خططهم ستقضى على وجوده وتنتهي ببقائه وتدمير كيانه ، قد عرف كيف يجهمهم ، فإذا كانت أدواته في ذلك ، كانت أدواته الإرساليات التبشيرية بنفوذها في ثلاث مجالات : التربية والتعليم والثقافة ، وقد تمكنت هذه المؤسسات في خلال فترة حضارة الاستعمار للأوطان أن تشكل هذا الجيل القادر على حمل أمانة المستعمر باسم الحضارة والتقدم والمدنية والذي كان يرمى دائماً حركة اليقظة الأصيلة بالجمود والتعصب والتخلف في حملة ضارية لا تتوقف قوامها لإثارة الشبهات الاتهامات من حول الاسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث . وقد أتيح لبعض الأقطار التي مرت بهذه المرحلة أن تنور عليها وأن تحطم هذا النفوذ الأجنبي المسيطر وأن تتحرك بعيداً عن هذا الخط المرسوم ، بل أن تقاوم هذا الخطط وتصفي نفوذ هذه المؤسسات وتفرض عليها المناهج المقررة في بلادها ، وفي مقدمة هذه الأقطار مصر . وهكذا نرى مدى خطورة الدور الذي يقوم به التبشير :

الذي اختفى في العالم العربي في هذه المرحلة خلف راجحات المعاهد والجامعات ودور الصحف ومراكز الثقافة ، وإن ظل في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي جوهراً صريحاً يعمل في جراحة وعلائية . والسؤال هو : لماذا اختفى التبشير في العلم العربي وفي بعض الدول الإسلامية ، والاجابة هي أنه قد أدى دوره في إهداد الثورة التي تسلمت زمام القيادات العسكرية أو السياسية ، إذ أن الدور الصريح الجهر قد انتهى . أما الدور الخالي فهو أنجح وأقدر على النفاد على النحو الذي يتم به اليوم في الخفاء ومن خلال النظريات المذاعة والخطب الجريئة والشبهات المثارة التي لا تقف عن البث في إحكام دقيق ، ولنا نحن وحدنا الآن الذين تنبهنا إلى هدف التبشير ولكن كثير من المفكرين الواعين قد لفتوا أنظار أمتهم منذ وقت طويل إلى ذلك ولعل أخطر ما قرأت في هذا المجال ما ذكره محمد علي علوبة في الثلاثينات حين قال : إن الأمم المستعمرة قد تبينت بعد التفكير الطويل والتجارب العديدة أن أقوى سلاح لبث الاستعمار لم يعد الحديد والنايك كان من قبل ، وإنما هو اليوم هذا التبشير الخفي تحت أستار المعاهد والجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية لهدم العقيدة قبل كل شيء ، حتى يصلوا بهم إلى إطفاء تلك الشعلة شعلة العاطفة الدينية والوطنية وطريقة التبشير في البلاد الإسلامية تتركز في إنشاء معاهد تسبغ على نفسها صفات المعاهد العلمية وتقتصر وراء هذا الستار ، والحقيقة أنها معاهد تبشير ينتمي إليها مبشرون وظيفتهم تضليل البسطاء والسذج ، هذه المعاهد تكلف تلاميذ المسلمين الحضور في الصلوات وتستغل نفوذها القوي في نفوس الأطفال خاصة من بنين وبنات فيخرج الطفل المسلم من هذه المدارس وهو إما فاقد الإسلام كلية أو متشكك في دينه على الأقل ، وهم يتمتعون نوادي وقاعات للخطابة والمحاضرة وجماعات تسمى نفسها جمعيات الشبيبة ، تبذر بذور التشكيك في أفهام المسلمين ، وهم ينفقون على هذه المعاهد في سخاء ، ويتحررون لذلك من المبشرين من يرفون بالدهاء المسمم واللين الخطر ، حتى يبدى بعضهم أنهم كانوا مسلمين ثم (تحولوا) للإيقاع بالسذج والجهلاء . الحق أن الاستعمار حين عاد إلى العالم الإسلامي في دوره الجديد كان قد أعد مخططة على النحو الذي يكفل له العمل على تغيير العقيدة الإسلامية ، والنضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التبشير الحامل لواء التعليم والتربية والثقافة . وقد اعتبر أن هذه المعركة القائمة على الغزو الثقافي والاستعمار الفكري والتغريب هي كبرى معاركه وأعظم عوامل تثبيت قواعده . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التبشير هو : إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامي وإبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مرا كة التوجيه ، فإذا لم تنجح الدعوة إلى الخروج من الإسلام إلى دين آخر جرى تشكيكهم في الدين المطلق . لقد استهدف التبشير نقل المسلمين من الإسلام وخطا في سبيل ذلك خطوات واسعة ، فلما انكشفت خططه وافتضحت أساليبه غير المبشرون ملا بهم وتخفوا في أزياء العلماء والفلاسفة والمفكرين وظهرت جماعات جديدة وغيرت أسماء الهيئات القديمة والمعاهد الأولى ، وكلها بارعة المظهر ولكنها تحمل نفس الأغراض والأهداف . منها : جماعة الشرق الأوسط للتعاون الإسلامي المسيحي ، وجماعة من المبشرين يعملون لهدم الإسلام وجملة آلة بيد السياسة الغربية الاستعمارية التي يراد فرضها على العالم الإسلامي والأمة العربية لتزيق وحدتها وتدمير قوتها .

ومنها : (١) جمعية الهيئية المسيحية الدولية في نيويورك ولها ٩ آلاف فرع في أنحاء العالم . (٢) هيئة التوراة . (٣) معاهد الدراسات الشرقية والإسلامية . وقد تأهب التبشير للعمل في مختلف الميادين . فأتصل بالتعلمين عن طريق المدارس والجامعات ، واتصل بالناس عن طريق الصحف والمحاضرات والجماعات ، وكانت المدارس الأجنبية التي فرضت نفسها على المواسم الكبرى في العالم الإسلامي قد قادت حركة التعليم بواسطة النفوذ الأجنبي المتمثل في نفوذ الدول المحتلة ، أو المتحالفة ، وهذا النفوذ لم يقف عند حد هذه الجامعات والمعاهد وحدها ، بل إنه تطرق إلى وزارات التعليم والمعارف في مختلف هذه الأقطار ففرض فيها مناهج دراسية خالية من لباب الفكر الإسلامي والثقافة العربية وهو الإسلام والقرآن ، وقد أعلن ذلك صراحة دكتور زويمر ، كبير المبشرين في العالم العربي ، في تقرير مؤتمر التبشير العالمي عام ١٩٢٥ حين قال : « إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة مضطربة مادية الأغراض ، لا تؤمن بمقيدة ولا تعرف حقاً فلا الدين كرامة ولا للوطن حرمة . وأشار إلى هذا مدير إحدى الجامعات التابعة للإرساليات التبشيرية الكبرى حين قال : « إننا نراقب سيد القرآن في المدارس الإسلامية ونجد فيه الخطر الدائم ، إن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير . » وإذا كان بين التصريحين زمن لا يقل عن عشر سنوات إلا أنهما ينبغي أن يكونا في مورد واحد كأنهما يصدران من رجل واحد ، ويؤكدان نفس الغاية . واستطيع أن تؤكد أن خطة التبشير خطة شاملة وموحدة وذات مراحل وحلقات وقد أشرف عليها رجال ذوي خبرة وثقافة واتصال كامل بمخططات الاستعمار ، ويمكن أن يقال أن هناك ثلاثة قوى تعمل في تقاسق عجيب :

(الأولى) وزارات المستعمرات والخارجية في الدول المستعمرة للعالم الإسلامي .

(الثانية) مؤسسة التبشير الكبرى بفروعها المختلفة وإرسالياتها ومعاهدها في العالم الإسلامي .

(الثالثة) جماعة المستشرقين المنبشرين في مختلف الجامعات الأوروبية والمتاحف والمكتبات العامة والمعاهد المعنية بالدراسات الشرقية والإسلامية والعربية .

ويمكن النظر إلى مدى التقاسق بين هذه الهيئات حين نرى أن وزارات المستعمرات تستخدم مؤسسة التبشير في العمل داخل البلاد الإسلامية وتؤكد أهمية عملها ، وحين يتولى رجال السياسة الكبار الإشراف على مؤتمرات المبشرين أمثال لورد بلפור الذي أعلن أهمية مؤسسات التبشير في خدمة أهداف السياسة . والمبشرون في نظر الاستعمار هم عيونهم التي تقوم بتعريف الدول الغربية بالنواحي الهامة التي يتطلع إليها المسؤولون في وزارات الاستعمار من عقائد المسلمين وآدابهم وثقافتهم التي يتأثرون بها . ويتجلى ذلك حين ترى أن مؤتمر التبشير في أدنبرج سنة ١٩١٠ يعني دراسة قرار محول إليه من المؤتمر الاستعماري المنعقد في برلين في نفس العام ، يقول هذا القرار : « إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والرقابة على أدوار هذه الحركة ، ويشير المؤتمر الاستعماري على من في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يزيلوا العرقلات عن طريق انتهاز التبشير . »

أما جماعة المستشرقين فإنها تمد المؤسسة التبشيرية بالشبهات التي تصنعها ، والانهامات والافسكار والغفرات التي يمكن استخدامها لإثارة الشكوك حول الإسلام ، ومن ركاز هذا العمل إنشاء مجلة العالم الاسلامي بالإنجليزية والفرنسية والألمانية (كل منها على حدة) وإصدار دائرة المعارف الاسلامية المحررة بثلاث لغات ويشرف عليها أساطين التبشير والاستشراق ولا تخلو مادة واحدة منها من دس وإثارة شبهة وتخطيم القيم الاسلامية فضلاً عن مئات الشبهات على المستويين التعليمي والثقافي التي تدرس في مئات الكتب التي توزع في المعاهد والجامعات والمدارس من أندونيسيا إلى المغرب وكلها تحمل تصويراً شائناً للإسلام والقرآن .

وليست بواعث التبشير وأهدافه بخافية ، ولا هي موضع الاستنجاج ، بل إنها صريحة وواضحة في خطب وأبحاث عمداء التبشير أمثال : (شاتلية ، وزويمر ، ولويس ماسيون) . أما شاتلية وهو يمثل النفوذ التبشيري الفرنسي . فإن ملخص فكرته تتمثل فيما يلي :

(أولاً) ينبغي أن يكون عمل الاستعمار مبنيًا على قواعد القربية العقلية (التأثير على عقول المسلمين وقلوبهم) وعلى التعاليم في فرنسا أن يبت في دين الاسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الفرنسية .

(ثانياً) إن عجزت إرساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية في نفوس معتقديها فإنها تستطيع أن تقضي لبائتها من هدم الفكرة الاسلامية ببت الأفكار التي تنمرب مع اللغات الأوروبية ، فتفسرها باللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، بتبعية الاسلام لصحف أوروبا وتهديد السبيل لتقدم لاسلامى مادي وبذلك تقضي إرساليات التبشير لبائتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية التي لا تحفظ قوتها وكيانها إلا بعزلتها وانفرادها . (ثالثاً) لا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الاسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية .

٢ - أما د بلس ، وهو من كبار رجال التبشير فيرى : أن الاسلام هو العقبة القائمة في طريق التبشير في أفريقيا ، والمسلم فقط هو العدو اللدود ، وليس خصمنا إلا ذلك العربي الذي يرتاد البلاد للتجار ، بل إن هذا الخصم الممارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في افريقيا . (٣) أما زويمر فهو يرى أن إرساليات التبشير في البلاد الاسلامية لها ميزتان : مزية تشييد رمزية هدم . ويقول : د الأمر الذي لا مربة فيه هو أن حظ التبشير من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد المسلمين ومبادئهم الخلقية هو أكثر كثيراً من حظ الحضارة الغربية منه . ويرى زويمر ، أن القضاء على الاسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير ، وقد جنى منه أعظم الثمرات ، أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دللتنا ودايت رجال السواسة على استحالة ذلك . ولكن الغاية هي إخراج المسلم من الاسلام فقط ، ليكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً ، وهذه أسنى مراتب الانتقام من الاسلام وأعظم الغايات الاستعمارية . ويجعل آراء هؤلاء الدعاة من المبشرين الفرنسيين والأمريكيين هو استهداف تفتير غفيرة المسلم عن طريق الفكر الغربي واللغات الغربية والأديان الغربية وهم يحاولون غزو العالم الاسلامي بأسوأ مظاهر حضارتهم لإيماناً بأن هذا الغزو سيخرج المسلمين من معتقداتهم ويجعلهم يستسلمون استسلاماً كاملاً للتطويق الغربي العقلي والاجتماعي وبذلك يصبح المسلمون في العالم الاسلامي كله أذلاء عبيداً للغرب عقلياً واجتماعياً واقتصادياً وتصبح بلادهم مبدولة بالرضا والتقبل للغرب .

وهذا هو اتجاه التبشير وهدفه : إخضاع العقل الإسلامى كله للاستعمار الغربى والفكر الغربى خضوع ذوبان وانصهار فى بوتقة الحضارة العالمية . ولكن هل ذاب المسلمون اليوم فى بوتقة الغرب وفقدوا مشخصاتهم وقيمهم الأساسية وقد مضى على العمل الدائب المتصل أكثر من مائة عام . الواقع أن المسلمين لم يستقظوا بعد تحت سنايك الحيل ، ولكنهم على خطر عظيم ، وعليهم أن يتنبهوا إلى أن كل ما يواجههم الآن من أخطار إنما يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا المخطط التبشيرى المرسوم بدقة والذي كان يمكن أن يصل إلى غايته لولا صلابة الإسلام نفسه وعمق جذوره وعلى المسلمين أن يفرقوا تفريقاً واضحاً بين الثقافة والعلم وبين الحضارة والثقافة ، فالعلم من حق الجميع وهو ملك للبشرية كلها وكذلك الحضارة . أما الثقافة فهى من حق كل أمة وحدها ، ولذلك فالمسلمون فى اتجاههم نحو النهضة واليقظة والتحرير لا بد أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا . ولكنهم يجب أن يحفظوا ذاتيتهم الأساسية وشخصيتهم الأصلية وجذور ثقافتهم وفكرهم وعليهم أن يقاوموا كل محاولة لإخراجهم منها ، ولقد كان الانفجار للتبشير الذى وقع فى مصر عام ١٩٢٢ و١٩٣٣ أثره فى إيقاظ هذه المفاهيم ، ولكن يبدو أيضاً أن المسلمين عادوا مرة أخرى إلى النسيان ، ذلك أن التبشير نفسه لم يلبث أن بدل خططه وغير جلدته وتخفى وراء هيئات جديدة . لقد توصل المفكرون المسلمون فى هذه المرحلة إلى حقائق هامة نشرتها الصحف فى هذه الفترة وشاك فيها عشرات الباحثين فى مقدمتهم رشيد رضا وحسب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وطفى الدين النبهانى وعمر فروخ وبجمل النظرات هى : (١) أن هدف التبشير زلولة العقيدة فى النفوس وتشويه المفاهيم الإسلامية (٢) أن هدف المبشرين إضعاف القيم الإسلامية عن طريق شرح تعاليم الإسلام ومبادئه شرحاً يضعف عقيدة المسلم فى تمسكه بالإسلام ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين أو كنهج سلوك . (٣) وجدد المفكرون أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين فحسموا على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف (٤) الذى حمل الأوروبيون على إنشاء الجمعيات التبشيرية فى الشرق ما عانوه فى الحروب الصليبية من صلابة المسلمين وصبرهم على الجهاد ووحدهم فى المقاومة ، وقد بحثوا عن السر فى ذلك فوجدوه فى الإسلام لأن عقيدته هى منشأ هذه القوة العظيمة عند المسلمين وإن تسامح المسلمين أوجد هذا التماسك العظيم بين النصارى والمسلمين ، ومن هنا كان مفهوم التبشير هو تشكيك المسلمين فى تاريخهم وزعزعة عقائدهم (٥) محاولة لإنجاز ما عجز أجدادهم الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف وإخضاع العالم كله للغرب المسيحى (٦) يمكن أن يقال أنه بعد أن فشلت الحروب الصليبية كانت الخطوة هى تحويل العالم الإسلامى إلى المسيحية أو القضاء على الإسلام فيه كقوة أساسية هى مصدر الانتصار والمقاومة ، ومن هنا انطلقت الدعوة إلى إخضاع العالم الإسلامى كله للتبشير بالمسيحية لتطويعه للغرب أو إخضاعه للثقافة الغربية والنفوذ الغربى (٧) تحقق لهم أن إخضاع العالم الإسلامى لا يتم إلا عن طريق الثقافة والدين ، ومن هنا وضعت الخطوة على مستويين متتابعين : مستوى التبشير ومستوى التفريب وعمل الاستشراق والشعوبية فى خدمة المهدفين معاً (٨) الحرب التى يشنها التبشير على الإسلام فى قلب دياره إنما تمصّد الإسلام ذاته وترمى إلى إضعاف العقيدة فى نفوس المؤمنين بها ، وهذه السياسة هى استمرار للنضال التاريخى القديم بين الشرق والغرب والإسلام والنصرانية حيث تتحد اليوم

أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة والاغراء ، وحيث يعتقد خصوم الاسلام من الاحبار والرهباة والاساسة أنهم قطعوا في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها وهذه هي الغاية التي تعمل لها الكنيسة الرومانية وترصد لها الاموال الطائلة في كل عام في ميزانية الكنيسة وفي ميزانيات الدول المستعمرة وتحشد لها ذلك الجيش الضخم من المعلمين والمبشرين والاطباء . إضعاف العقيدة الإسلامية إذن : هي الخطوة الأولى لغاية أخطر ، فالشعوب التي تنحل عقائدها القومية وتضعف تفقد فريسة يسهولة للغزو الديني والفكري (السياسة ٢٢ يونيو سنة ١٩٣٣)

(٩) يواجه الإسلام اليوم حركتين من أخطر الحركات الهدامة : الأولى حركة المبشرين والثانية حركة الملحدين . الحركة الأولى تتجه نحو تحويل المسلمين عن دينهم . والثانية ترمى إلى تهريدهم من الدين تقوم بالحركة الأولى جمعيات منظمة ، تحمىها حكومات متعصبة ، والحركة الثانية يقوم بها رجال تعلموا في الغرب وأحكموا طريق الدعاية وسرّوا على أساليب القويّة ومن وراءهم قوم أولو نفوذ يحملون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم ، مهمتهم لإفساح المجال لدعاة الإلحاد كيما يباشرون مهمتهم والغاية هي هدم الإسلام في قلوب أهله وتهريد المسلمين منه (١٠) ليس هدف التبشير في الأغلب نشر المسيحية بقدر ما هو هدم الإسلام ، ونشر الدين أمر ثانوي جداً في جميع الحركات التبشيرية ، فالدين وسيلة والسياسة هي في غاية معناها استعباد الغرب للشرق ، والباعث الحقيقي في رأى القائمين على التبشير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلاً إلى استعباد أتباعها ، وأشد الأديان قوة في إباء الاستعباد إنما هو الاسلام ، والتبشير قد يتناول البوذيين والبرهمنين ولكن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون . استوى في هذه الرغبة جميع المبشرين على اختلاف طوائفهم وتباين الافئدة التي يرفعونها على وجوههم (١١) ليس التبشير دعاية دينوية استعمارية كما يظن بعضنا ولكنهم يدأبون لنشر دينهم وثقافتهم . الدول المستعمرة تعتقد أن نشر المسيحية في مستعمراتها يكون عاملاً عظيماً في توطيد الحكم الإداري ، والارسلالات في جميع الأمم الأفرنجية تجاهد في نشر الدين المسيحي بنشاط يجل عنه كل وصف ، ولكنني أحب أن لا يتخذه المسلمون بكلمة أن هؤلاء إنما يعملون للعالم وأن الدين إنما هو ستار لها فإن ذلك يكون من قبيل تشخيص المرض بغير حقيقته ، وعند ذلك يتعذر حركناحه ، إن الحكومة الفرنسية عندما تسهل للقسيس والرهبان الاتصال بالقبائل وتمنع دخول الفقهاء وحفاظ القرآن ومهاجرات الطرق الصوفية من البرابر إنما ترمى إلى غرض توطيد استعمارها بالغرب (شكيب أرسلان) (١٢) ليس التبشير هو الانتقال إلى المسيحية بقدر ما يؤدي إلى الانتقال عن الاسلام نفسه .

(١٣) إن حركة التبشير في الشرق نظمت لأغراض مخصوصة ، غديتها بالاموال والتأييد لتحل محل الحروب الصليبية القديمة (١٤) هدف التبشير هو توهين القيم الاسلامية وتفتيت الشعوب العربية والاسلامية ، في علاقاتها وصلات بعضها ببعض وبهثرة القوى الوطنية في كل بلد عربي ، وخلق جبهة من ضروب المواجهة والفض من اللغة العربية الفصحى والتأنيدي بحالة الشعوب الاسلامية الاخرى والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية (١٥) هؤلاء المبشرون يقصدون بالتبشير إلى غاية سياسية ليس غايتهم تنصير المسلمين أو سائر الشرقيين وإنما غايتهم توهين أمر العقيدة وأمر الدين باسم الانسانية

وباسم النقد العلني للدين الإسلامي . الغرض السياسي الذي يلبس ثوب التبشير . كان من أثر هذه الحملة أن حوالت كثيراً من دعاة التعريب وفي مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل الذي كان أبرز خدام الفكر الغربي في مصر عن طريق مجلة السياسة الأسبوعية وجريدة السياسة اليومية ، ولعل أبرز ما ظهر في تطوره الفكري بعد انفجار حملة التبشير في مصر أنه كتب أكثر من خمسين مقالا في مهاجمة التبشير ومهاجمة الغرب نفسه بعد انكشاف الحقيقة أمامه كاملة : إن التبشير ليس إلا وسيلة أكيدة لتوهين القيم الإسلامية والعربية في نفوس المسلمين والعرب وذلك لإحكام سيطرة النفوذ الأجنبي والاستعماري على العالم الإسلامي . ولا شك أن رؤوس موضوعات هذه المقالات تكشف عمق ما بلغه فهم الدكتور هيكل (١) تغريب الشرق وهل تعتبر حركة التبشير بعضاً منه (٢) حلقة من سلسلة الغارة على العالم الإسلامي (٣) لاجشرون رسل التجارة والاستعمار الغربي (٤) غزو العقيدة الإسلامية غاية التبشير وقد وصل الدكتور هيكل أخيراً إلى قرار حاسم في موقفه من الحضارة الغربية والاستعمار قال : إن الذين درسوا في أوربا يقصدون أنفسهم وبمجموعة من زملائه (طه حسين ومحمود عزمي ومصطفى عبد الرزاق) كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداهين إليها في مصر ، ظنا منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتنا . هؤلاء الغباب فتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن إلا في سبيل الاستعمار ، وأدركوا أن الدول الأوروبية التي تزعم أنها قد تحررت من التعصب الديني هي دول متعصبة تعصباً مسيحياً لم تدس مع الحروب الصليبية ، حتى أن قائداً كبيراً من قوادهم هو (اللانبي) قال يوم استولى على القدس أن الحروب الصليبية قد انتهت ، ثم أن هذه الدول الأوروبية شملت بحمايتها الجماعات التبشيرية المنبثة في كل مكان ، وعند ذلك غضب هذا الشباب لاسلامه الذي تريد للدول المسيحية أن تمحوه ، وجعل كل منهم يفكر في وسيلة للخلاص من الغرب ،

وكانت الصحف في الوقت نفسه تفيض بأخبار العدوان الفرنسي والإيطالي في شمال أفريقيا وفي سوريا واستغاثة المنكوبين من أهلها بالعالم الإسلامي ونشر مسلوا المغرب صيحة حارة جاء فيها :

أيها المسلمون : هل يرضيكم أن يحمي دينكم من الأرض التي أنجبتم رجالاً عظاماً وعلماً وقواداً وملوكاً غلصين ، الأرض التي سار أبناؤها مع طارق بن زياد وعبد الرحمن الغافقي فافتتحوها الأمصار ونشروا دعوة الإسلام ، وإذا نهج الفرنسيون في هذه التجربة فسيفتح العالم الإسلامي فتحاً دينياً لهم ، وهو أقبح وأسى من فتحهم الاقتصادي السياسي ، نخذوا حذركم أيها المسلمون واعصروا الله .

* * *

وقد ظهرت في هذه الفترة كثير من الأبحاث في مقدمتها :

١ - التبشير والاستعمار للدكتورين الخالدي وحمرو فوخ .

٢ - التبشير والاستعمار للدكتور محمد البهي .

ولكن يبدو أن تغيير المبشرين لآساليبهم وانصرافهم عن أساليب الخطف والتنويم المغناطيسي وغيرها ، قد أخفى خطرهم وصرف المسلمين عن تعقب أخطارهم ، ولكن الواقع يؤكد أن العمل مازال مستمرا وأن الثعبان لم يفعل أكثر من أنه غير جلده وانسجم مع التطورات المختلفة وحول كل مفاهيمه إلى مجالات الثقافة والتعليم والمعاهد والجماعات الأدبية والثقافية والصحف والمجالات نعم إذا قيل أن كلمة التبشير قد انتهت قلنا إنما انتهت مظهرها وبقي مخبرها .

وأن مخططات التغريب والشعوبية والإلحاد قد استوعبتها مؤسسة التبشير بكل مخططاتها في داخلها وما تزال تحمل نفس الأهداف والغاية وإن غيرت الأساليب .

الفصل الثاني

وسائل التبشير وأنظمته

كان العمل على إعداد مبشرين للعمل في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من أهم أهداف التبشير وذلك لتركيز قواة وبث مفاهيمه . وقد تم هذا العمل على مرحلتين : (الأولى) تمت في بلاد الغرب حيث قامت المعاهد الخاصة بإعداد المرسلين الذين سيوقدون إلى العالم (والثانية) تمت في بلاد المسلمين فقد قامت المدارس والجامعات التابعة للرساليات التبشيرية بإعداد الدعاة الذين عملوا في مبادئ الصحافة والتعليم والثقافة وقد انتفع الاستعمار بالشباب الطموح الذي صافر في البعثات المختلفة إلى الغرب واستطاع أن يكسب منه دعاة ومبشرين ، وقد أوردت العديد من مؤلفات المبشرين تلك المناهج والمخططات وأشارت إلى مهمة هذه المدارس التي أنشأت في روما وباريس وطليطلة بأسبانيا والمناهج الخاصة التي ترمى إلى تفهيمهم روح الشرق ، وتقوم هذه المناهج على تصوير الشرق بصورة التأخر والسوء ، وتصل طرق التبشير بصناعات الطب والتعليم والوعظ ونقل للكتاب من لغة إلى لغة وشعارها ، « جميع الوسائل تستغل في سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيب والتعليم من وسائل المبشرين ، مع ترك العارق المباشرة في نشر آرائهم والتماس أساليب أخرى أكثر التواء وخفاء ، وهم يلبسون لكل حالة لباسها » فعليهم أن يعطونوا الرأسمالية إذا كان ذلك يفتح لهم قلوب الخاضعين قهراً لها ، وهم في بعض البلاد الإسلامية يفسقون خططهم مع الصهيونية ومع الشيوعيين وتنصح لهم الوصايا بالتلون في سبيل الوصول إلى قلوب الناس . ويقول مؤلف كتاب طرق العمل التبشيري في المسلمين : « لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يفتنون في الدرجة الأولى بأننا نحبهم ، فنسكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم ، يجب على المبشر أن يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يهني إليها والمعروف أن التبشير تحول بعد مؤتمر ١٩٠٦ من التبشير الفردي إلى التبشير الجماعي ، وبعد الحرب العالمية الأولى إستفادت حركة التبشير من الدول المنتدبة التي أفسحت المجال لها وقد تولت المعاهدات

التي عقدت في ظل النفوذ الاستعماري حماية الإرساليات التبشيرية ، ولم يفت مؤتمر أدنبرج الذي عقد عام ١٩١٠ أن يدرس كيفية تعليم المبشرين وتربيتهم وتعليم المبشرين في العالم الإسلامي لغة البلاد وأوصى بإنشاء مدارس تبشيرية خاصة بتعليم مبشرى الأفطار الإسلامية والتخرج السكامل في اللغات السامية والقبض على ناصية اللغات العامية والفصحى وفهم روح المسلم وخصائص عقليته ، كما عرض المؤتمر التبشيري عام ١٩٢٤ لهذا الأمر وأورد آراء جديرة بالنظر والاعتبار تحت عنوان ، باب تخريج المبشرين ، قال : إن تخريج العدد اللازم من قادة التبشير المحلى من الوطنين تجرى غالباً على طريقة التخصص والتضلع تأمر ضرورى لا غنى عنه ، فن الضرورى أن يسكون المبشرون حائزون على مقدار من الكفاية والإستعداد الوافى من جميع الوجوه . هذا ما يلزم المبشرين من الإستعداد فى الثقافة العامة وقال : أن هناك طريقتين فى الإعداد والتجهيز : (١) التخريج فى اللغات بما يكفل التوسع والقبض على ناصية اللغات العامية منها والفصحى ، (٢) التخريج السكامل فى العلوم الإسلامية بما يجعل المتخرج يفهم روح المسلم وخصائص عقله فى هذه الأيام فهما تماماً مستندا إلى الحقائق مباشرة مع دراسة تاريخ الإسلام وعلى ما هو حى فى الإسلام المعاصر من المذاهب والطرق الصوفية ، (٣) التخصص فى الشؤون الإسلامية تخصيصاً صحيحاً يؤهل أربابه بعد حين لتولى أعمال الدراسات والأبحاث التى ينطوى عليها موضوع الإسلام ، ويمكن أن نستخلص الوسائط التى يستخدمها التبشير من نصوص تقريراته لا من خارجها . لقد تعرض كتاب (العالم الإسلامى اليوم) وكتاب (الإسلام : ماضيه . حاضره . مستقبله) بقلم زويمر كما تعرضت مختلف المؤتمرات التبشيرية لهذا العمل وذكرت الوسائل التى يمكن إستغلال المسلمين بها ، وأهمها ، (أولاً) دعوة المبشرين لتعليم اللهجات العامية واصطلاحاتها نظرياً وعملياً ودراسة القرآن والوقوف على ما يحتويه وأن مخاطب عوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم ، وأن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة وأن يخاطب المبشر وهو جالس ليكون تأثيره أشد على السامعين وأن يكون خبيراً بالنفس الشرقية وأن يستعمل التشبيه والتشليل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية والاستمانة بالموسيقى والفانوس السحري ، (ثانياً) كسب ثقة الشباب وذلك بالحديث فى موضوعات إجتماعية وخلقية وتاريخية ومنها إستطردون إلى مباحث الدين ومحاولة كسب القلوب بظواهرهم بالميل إلى مطامح المسلمين من الاستقلال السياسى والاجتماعى ، (ثالثاً) توزيع الكتاب المقدس والمؤلفات التى تضم المناظرات التاريخية وترجمة الكتاب المقدس إلى لغات المسلمين . (رابعاً) يجب أن يكون تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ، وعلى المبشرين ألا يقنطروا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرر النساء . (خامساً) على طبيب الإرسالية ألا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شئ وطبيب بعد ذلك ، وغاية إستغلال فرص المرض والسيطرة على المرضى وإنتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفرغ والافتناع والنس العقل الباطن بالإيمان . (سادساً) يجب أن نستخدم كتابهم (القرآن الكريم) وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه ، يجب أن نرى هؤلاء الناس أن الصحيح فى القرآن ليس جديداً وأن الجديد ليس صحيحاً . (سابعاً) الخطأ هو بث مبادئ المدنية مباشرة ثم

نشر الدين ثانياً لأن إدخال الحضارة والمدنية لا تحمد مغيبته بل تنجم عنه مبادئ كثيرة تفوق المبادئ التي كانت قبلاً . (ثامناً) منع طلبة الأزهر المتخرجين فيه من الوصول إلى جنوب إفريقيا (عاشراً) الاهتمام على الصحف والكتب والسينما والمسرح في إذاعة الآراء التي تحقق لإخراج المسلمين من مقومات فكرهم . (حادى عشر) الاعتماد على تدفق الطلاب على أوروبا (خاصة العمال والصناع من شمال أفريقيا إلى فرنسا) . (ثاني عشر) نقل الذين يصل المبشرون إلى قلوبهم إلى بيئات أخرى ذلك لأن المسلم في حياته الاجتماعية محوط بكثير من الأحوال والظروف التي تربطه بأخيه المسلم في كل موضع من مواضع حياته العملية . وقد أجمعت المراجع المختلفة على أن العمل في سبيل مكافحة الإسلام إنما يتم بوسائل مختلفة أهمها :

(١) إثارة الشبهات حول الإسلام ونعاليه : (تعدد الزوجات ، الحجاب ، الربا ، المرأة) .

(٢) محاولة القول بأن الإسلام منسجم مع الحضارة الغربية غير أن الفقهاء والعلماء يحدون دون تأويله وتفسيره وهذا عندهم أمضى سلاح لمقاومة الإسلام . وعلمنا أن تنبيه إلى مرمى هذا القول ، فالإسلام منهج كامل لا يخضع للمناهج الأخرى ، ولكنه يتقبل الصالح والإيجابي من الوسائل والأساليب التي تتفق مع تسيجه ، ولذلك فإن فكرة تأويل الإسلام وتفسيره بما يتفق مع الفكر الغربي لا يقرها الإسلام بحال ، فإنها إنما ترمى إلى إعطاء تنازلات لتلغوها تنازلات دون أن تتوقف عند حد ، وليس كذلك الاجتهاد في مفهوم الإسلام ، وليس كذلك انفتاح الإسلام على الحضارات . ليس الحق هو النظرة الغربية وليس على الإسلام أن يتفق معه أو يتأول أصوله الربانية لتقبل هذا الاتجاه أو ذاك . (٣) قد يترك المبشرون مجال المبادئ الإسلامية نفسها ، ويتجهون إلى الغرض من شأن الضوابط الأخلاقية ، والعمل للقضاء على الشهور الأخلاقية وبيان أن ما أقامه الإسلام في سبيل تنظيم علاقات المرء ورفعا عن الانحدار إلى الفرائز الجامعة ، إنما هي أغلال باطلة ، ويتمثلون هنا بعبارة المقد النفسية وهذه في الحق ليست إلا وسيلة لإقصاء المسلم عن قيم الإسلام ويتصل بها إقامة حفلات الرقص والموسيقى لإثارة الفرائز ودفع الشباب إلى إقتحام العقبة الأولى في طريق الشهوات كالأكاس الأولى ، والاتصالات المحرمة . من هنا وقد وضعت أمامنا هذه الحقائق أن تنبيه لها وأن نحاول أن نكون من اليقظة فلا نخدعنا الكتب اللامعة الفاخرة ، والصحف الواسعة الانتشار ، وأسماء الكتاب اللامعة ذات الألقاب الفخمة ولكن نظرنا دائماً إلى هدف أي قول ولا بد أن نصف المكتاب وفق قاعدة الجرح والتعديل ، فكل من اتصل به شبهة التبشير أو التفریب أو الشموبية فعلينا أن نكشف هدفه دوماً ونفطخ خطته .

الفصل الثالث

عمداء التبشير وخلفائهم

لا شك أن أبرز المبشرين على الإطلاق هو د كرينليوس فانديك ، الكبير الذي وصل بيروت عام ١٨٤٠ وتخرجت على يديه أجيال وهو الذي أشرف على ترجمة التوراة وساعده في العمل فاصبف البازجي وفارس الشدياق وبطرس البستاني وعاش بها طبيبياً ومبشراً حتى توفي ١٨٩٥ أما في مصر والبلاد العربية فقد كان أشهر المبشرين د صمويل زويمر ، وهو صاحب فكرة مؤتمرات التبشير وقد بدأ عمله في البحرين عام ١٩٠١ تقريباً وانتقل منها إلى الإحساء ثم عاد إلى البحرين وكان يلقب نفسه بضيف الله ، والإمام يدهونه ضيف الشيطان ، وقد فتح أول أمره حائوناً في السوق لبيع الكتب المختلفة ، ثم تخصص بالتدريج في بيع الكتب التبشيرية وساعده القنصلية الإنجليزية في بناء مدرسة ومستشفى . وعنى بالكتابة عن الإسلام وأذاع آراء المبشرين وشبهاتهم ومن أهم كتبه : « الإسلام : ماضيه ، حاضره ، مستقبله » ، الذي دعا فيه أوروبا إلى إثارة حمة من الدعوة إلى العالم الإسلامي لتقزيق وحدته الفكرية وخلق قضايا قومية ذات جذور تاريخية لتفريق الصف وزيادة النفوذ الاستعماري وله مؤلفات أخرى خلط فيها خطأ كبيراً بين الوقائع والأهواء ، ومن ذلك رسالته عن الوهابية التي تلاها في جمعية فكتوريا الفلسفية عام ١٩٠٢ وانتقد فيها ابن القيم المنوف في عام ٧٥١ لأنه يقول عن نفسه أنه حنبلي ولا يقول أنه وهابي ، أي أنه يعيب على ابن القيم أنه لا ينسب إلى عالم جاء بعده بأربع مائة وخمسة وخمسين سنة وهو الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي أطلق الاستعمار اسم الوهابية على حركته التي تسمى أصلاً بدعوة التوحيد ولقد كانت لزويمر آراء متعددة في دفع الحركة التبشيرية إلى العمل ، تقوم على أساس خبرة دقيقة وتمصب بالغ ، وأبرز آرائه إيمانه بأن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين في دين معين ولكنه إخراجهم من الإسلام أولاً ولقد كان من جرأته البالغة أنه اقترح الأزهر في ١٨ أبريل ١٩٢٨ وطاف بحلقات المحرس ومعه بعض زملائه ، وقباحثوا مع الطلاب والأساتذة بما يمس الإسلام ، ثم هاجم الطلاب في دارهم بتوزيع منشورات مطبوعة عن التبشير المسيحي وفي هذه المنشورات يدعو المسلمين إلى العودة للصلاة إلى قبلتهم المقدسة ويقول أن محمد ﷺ ماتحول عنها عن وعي وإنما تركها تبرما من اليهودية ، وقد أحدثت زيارته اضطراباً شديداً وهياجاً شاملاً في نظام الدراسة وكتب بعض الأزهر بين في الصحف يندد بهذا التصرف وتقدم بعض شبوخ البرلمان بالسؤال وتبين أن زويمر كان قد حصل على تصريح من وزارة الأوقاف لهذا الغرض وإن الوزارة استردت منه هذا التصريح وكان من آثار ذلك التفكير في إنشاء جمعية الشبان المسلمين في كل بلد من البلاد العربية والإسلامية . وقد حرر زويمر كتباً متعددة كلها حملات على الإسلام والقرآن والنبي . وهو يؤمن بأن التعليم التبشيري هو المصدر الأساسي للعمل بين المسلمين ، ويرى عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية بل الاتصال بهم عاطفياً واستمالة أهوائهم ويدعو إلى توحيد ميثاق التبشير حتى يتمكن من الإطباق على العالم الإسلامي وفتح . ومن أعماله ترجمة كتاب اللاب لوييس شينغو أسماء

خرافات القرآن وهي واحدة من الرسائل التي ترددها الشبهات المعروفة والمتداولة والتي واجهها كتاب المسلمين بالرد والإسقاط وقد زار زويمر مختلف المناطق الإسلامية في الجزيرة العربية ومصر والسودان وكانت له مساجلات ومجادلات مع العلماء في كل مكان ، وهو في كل ما يكتبه يعرض بالإسلام فهو حين يتحدث عن الغزالي يربط بين آرائه وبين بعض الآراء في المسيحية ولذلك يضع لكتابه عنواناً غريباً هو « يسوع في إحياء الغزالي » ، موهماً بأن آراء الغزالي مقتبسة من الإنجيل مستغلاً ذلك التشابه والاتصال الذي يمكن أن يلتقطه فيما بين الإسلام والمسيحية في جوانب التسامح والرحمة وغيرها ومن المعروف أن مصدر الأديان السماوية واحد وأن الإسلام جاء جامعاً لكل ما في الأديان السماوية من فضائل ، ويذكر الأستاذ حسن نجمة أن زويمر ألقى في السودان محاضرة عن عمر بن الخطاب ، ودهش الناس لذلك ولأنهم تبينوا أنه كان يحاول من طرف خفي أن يصور سيدنا عمر وكأنه صاحب آراء أخذ بها النبي وأن القرآن قد نصره في غير موضع وأيد رأيه الذي كان مغايراً لرأي النبي وهذا هو منهج التبشير كما وضعه زويمر: العمل دائماً على إثارة الشبهات والتشكيك في الحقائق المقطوع بها واستغلال النصوص .

٢ - أما المبشر ولیم ويلكوكس فهو في الأصل مهندس رى هريق استقدمه الإحتلال البريطاني إلى مصر وكان له دور كبير في تأريخ النفوذ البريطاني وتوزيع أراضي الدائرة السنية على الباشوات أعيان الاستعمار ، هؤلاء الذين خلق منهم « كرومر » ، الطبقة الجديدة التي أطلق عليها « أصحاب المصالح الحقيقية » ، وهم الذين تكون منهم عام ١٩٠٧ حزب الأمة ، وأصدروا جريدة الجريدة وكانوا يمثلون القوة الفعلية التي يسيطر بها النفوذ البريطاني في مصر ، وعليهم ركز كرومر في بناء « مصر الحديثة » فمنهم خرج رجال الأحزاب السياسية وكان لا بنائهم دور كبير بعد الحرب الأولى . وكانت هذه المدرسة تؤمن بأن الاستعمار البريطاني باق ولا بد من التعاون معه على أساس مفاهيمه وفلسفته التي عبر عنها لطف السيد في الجريدة من إعلاء الوطنية الضيقة والإقليمية المحدودة ، ورفض الوحدة العربية والجامعة الإسلامية ، والایمان بالثقافة الانجليزية والفسكر الغربي في مفاهيمه السياسية والاقتصادية والولاء الرأسمالية الغربية والديمقراطية الغربية وقد تحول هذا المهندس وللكوكس ، بعد أن أحيل إلى المعاش إلى مبشر فأخذ يدعو إلى استعمال اللغة العامية وله خطاب مشهور ألقاه في نادي الأربكية (يناير ١٨٩٣) دعا فيه المصريين إلى التماس نهضتهم في ظل العامية وكان عنوان خطابه : لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين حتى الآن ؟ قال فيه : إن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين إستبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى وذكر بنوع خاص الأمة الانجليزية وقال : إنها استفادت فائدة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانجليزية المحاضرة . ولم يتوقف وللكوكس عند هذا الحد بل اشترى ترخيص مجلة إسما الأزهر وراح يردد فيها هذه الدعوة ، ومضى ، فاتجه إلى التوراة فترجمها إلى اللغة العامية وكان يذهب إلى القرى النائية يحمل الأدوية والتبشير وظل يعمل في مستشفى مصر القديمة (هرمل) وله كتاب الاكل والایمان باللغة العامية وزعه مجاناً على العامة في المدن والقرى . وبعد ويلكوكس أستاذ سلامة موسى في الدعوة إلى العامية فقد حمل لوائها بعده وكتب عنه كثيراً وردد آرائه . ولقد وجد ويلكوكس في دعوته إلى العامية مقاومة شديدة ومعارضة صامدة مزمته ودفعته إلى التخلي عن آرائه ودعوته .

٣ - دنلوب : وبعد المبشر (دنلوب) أخطر هؤلاء جميعاً ، فقد استعان به كرومر على تكريس برنامج التعليم في المدارس الأميرية على نخط المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات بحيث يقع منها تعليم القرآن ومناهج التاريخ والتعاليم الإسلامية ، هذا العمل الذي أشار إليه (زويمر) في أحد تقاريره عندما قال : « لقد قضينا على برنامج التعليم في الأقطار الإسلامية فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التي تخفق فيهم العقيدة والوطنية والأخلاق والرجولة والحق ، . ثم عقب بقوله : إن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات ، . وقد كانت أبرز أعمال دنلوب :

(أولاً) محاربة اللغة العربية والإسلام والأزهر ، وقد عمد إلى اضطهاد معلمى اللغة العربية من الأزهريين .
(ثانياً) نشر لواء اللغة الإنجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على كل شئون التعليم وذلك للقضاء على نفوذ اللغة العربية .

(ثالثاً) إعداد أماج تقضى على شخصية الأمة ، ويهدف إلى تصويرها بصورة اللد المحتل للفرس والرومان والعرب والإنجليز واتهام الحضارة الإسلامية بالضعف ، واللغة العربية بالخلف والإسلام بالجهود (رابعاً) تجاهل الروابط والجذور التي تربط المصريين بالعرب والمسلمين دماً وجنساً ولغة وديناً وخلق جو من الإقليمية وعرض صور الخلاف والحروب والصراع بين المصريين والعرب وبين العرب والمسلمين .

وقد أبطل دنلوب عدداً من المكتتب التربوية النافعة لأنها تتحدث عن القيم الإسلامية ، ومنها كتب عبد العزيز جاويش ، وعلى مبارك وحزرة فتح الله ووضع بدلا منها مؤلفات غالية من القيم التي تستمد من الإسلام أو العروبة أو اللغة العربية أو التاريخ الإسلامى والتي تنسم بالبطولة أو الكرامة . وبذلك خلعت المناهج من روح الإسلام في التربية وروح القرآن في الفكر ، وجرى المدارس من التربية الإسلامية التي تربي الرجولة وتعد الشباب للجهاد في سبيل دحر المستعمر وتخليص الأوطان من الغاصبين .

خلفاء المبشرين

وقد تابع دعاة التبشير جيل من الذين تعلموا في الإرساليات والمدارس والجامعات الأجنبية وفق المنهج الذي رسمته مخططات الاستعمار بقصد إنشاء أجيال تفض من قدر ثقافتها الأصيلة وتاريخها وتراثها وماضيها جملة . وكان أغلب البارزين في هذا الجيل قد اتجهوا نحو القاهرة باعتبارها المركز الأول الذي تنطلق منه الثقافة للعالم الإسلامى والبلاد العربية جميعاً عن طريق أقوى صحافة برزت بقيادة نقلا وصروف ونمر وزيدان وسركيس ، ومن خلال هذه الصحف ظهرت سموم فرح أنطون وشيلى شمىل وأديب إسحاق وجرجى زيدان وآراء الدكتور صروف ونور ومكروم حيث تكونت تلك الدائرة

الصباح التي حاولت أن تسيطر على قيادة حركة اليقظة الفكرية الإسلامية العربية بالانصال بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده وكان من حولها كثير من هؤلاء أمثال سليم عنحوري ويعقوب صنوع ، وأديب إسحاق وقد قلب هؤلاء جميعاً ظهر المجن لفكرة جمال الدين بعد خروجه من مصر وتعاونوا مع النفوذ الأجنبي . ومن هذا الرعيل صابونجي ومراثي وآخرون سافروا إلى لندن وباريس وروما وأصدروا صحفاً بالعربية لم يكن لها هدف غير تفكيك الوحدة القائمة بين العرب والمسلمين في مواجهة الوحف الاستعماري الضاغط . وقد طرح فرح أنطون وشبل شميل وجرجي زيدان عديداً من الآراء التي تمثل الاتجاه التغريبي الوليد والتي تابعت مخطط اللورد كرومر ومفاهيمه عن الإسلام والعرب واللغة العربية ، ثم انضم إليهم بعد قليل حزب الأمة والجريدة ولطفي السيد ، وكان سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم يتابعون توجيهات كرومر ويشيدون بها في مجال الإقليمية وقصر التعليم على اللغة الإنجليزية وعلى أولاد الأعيان ولكن آراء هؤلاء واجهت ردوداً دحضت شبهاتها ، فقد رد الإمام محمد عبده على كتابات فرح أنطون واتهاماته للفكر الإسلامي ، ورد فريد وجدي على الفلاسفة المادية التي أذاع بها شبل شميل ودكتور صروف ورد شبل النعمان على مغالطات جرجي زيدان وقاوم مصطفى الفلايبي وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف ومصطفى كامل وفريد وجدي مختلف الآراء الغربية التي أقيمت في حفل الثقافة العربية في هذه الفترة وفيما بعد الحرب العالمية الأولى ظهر جيل جديد قوامه طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمي وعلى عبد الرزاق وإسماعيل مظهر وساطع المصري . وقد عرض لطه حسين وآرائه كثيرون في مقدمتهم الحضر حسين وفريد وجدي ولطفي جمعه والدكتور محمد أحمد الفمراوي وساطع المصري ودكتور هيكل ومصطفى صادق الرافعي ومحب الدين الخطيب وشكيب أرسلان ، وعرض لآراء سلامة كثيرين في مقدمتهم : الدكتور أحمد الحوفي وزكي مبارك ومحب الدين الخطيب وعرض لآراء على عبد الرزاق : الطاهر بن عاشور ومحمد نجيت والحضر حسين . وتصدى لآراء ساطع المصري : محب الدين الخطيب وعمر فروخ وغيرهم ، وبالجملة فإن رأياً من آراء المبشرين التي جرت على أقدام هؤلاء الكتاب لم يردون أن يجد دحضاً من أقلام واعية أصيلة الإيمان بالفكر الإسلامي والثقافة العربية وإن ظل لهذه الآراء قدرة على التشكل والظهور مرة بعد مرة نتيجة لسيطرة النفوذ الأجنبي الذي يجرها على بعض المجالات التعليمية والصحفية والثقافة في العالم العربي . وكانت بيروت في السنوات الأخيرة مقراً لهذا اللون وتقطعه البشاق في مواجهة المثقفين العرب جميعاً ، ومن القاهرة ظهرت مجلات متوالية اصارعة هذا الاتجاه ودحض شبهاته وشجب مخططاته ، وقد ظلت المجلات العربية والإسلامية تمنى كثيرها بالمؤلفات التبشيرية التي تصدر في أوروبا وأمريكا وبلغ غاية الجهد في ذلك الأمير شكيب أرسلان والدكتور زكي على وهجاج نوحض ، وقد أولت حركة التبشير التي أطلقت على نفسها من بعد حركة التغريب اهتماماً كبيراً بالشباب الذي تصدره الرسائل على أسلوب المبشرين ، وبرع منهم عدد كبير في أداء دوره ، وقد أحاطهم على ذلك أن المبشرين وضعوا عشرات المؤلفات التي ضمنوها روس الموضوعات التي تثار بين حين وآخر وتحفل باللعن على العرب والإسلام واللغة العربية والقرآن والتاريخ الإسلامي العربي .

وقد غش هؤلاء الطرف عن المؤلفات والأبحاث التي انصرفت تاريخ المسلمين وحضارتهم وتراثهم بل إن الأسماء اللاحقة التي دافعت عن الفكر الاسلامي والتمسك بالهوية العربية هي لديهم موضع التعقير والازدراء أمثال : جوستاف لوبون ، وتوماس كارليل والدكتور هونكة واسين بلاثيوس ومن أبرز أعمال هذا الجهاز أنه يسارع - كلما وجد حركة مد لإعلاء شأن التراث الإسلامي واللغة العربية والإسلام - إلى إثارة قضايا وخلق مقارعات بين الآداب العربية والآداب الغربية في مجال إعلاء الثقافات الغربية وإلتهام الثقافة العربية بالقصور والتخلف وذلك في محاولة دائمة من النفوذ الاستعماري للحيلولة دون خلق نفسية عربية أو إسلامية متميزة ، والعمل دوماً على إخضاعها للنفوذ الغربي الثقافي وإقناعها بأنها غير قادرة على التبرز ، هؤلاء خلفاء المبشرين وأتباعهم الذين لبسوا الثياب الجديدة وأخفوا ورائها أنياب المبشرين الكسرة وأظافرتهم الجارحة وهم الذين تصدر باسمهم صحف أنيقة في عواصم عربية ، تدفع أجوراً ضخمة لكتابها وتعرض بالسبوح لكل مقدراتنا ، وهم الذين يدهون إلى المؤتمرات المختلفة في الغرب ، وتكون كلماتهم المحررة بتوجيه خاص هي الكلمات المنسوبة إلى المسلمين وكأنها تردد أفكارهم ومفاهيمهم ولقد حرص النفوذ الاستعماري على إذاعة أسمائهم وخلق حالات من الضوء حولهم كما أفسح لهم مجال الشهرة والغنى ، وهم المتصدرون للمعارك في جرة المطمح إلى سناده الذي يحميه . ولقد كان هؤلاء دائماً ثمارت النائرة حول عمل من أعمال التبشير يقولون تلك الكلمة البسيطة الخطيرة : « إن الإسلام الراسخ لا يمكن أن تؤثر فيه مثل هذه الأحداث ، تسمع هذه الكلمات كلما ضبط كتاب في جامعة أو معهد يمتلي بالإساءة إلى الإسلام وفي الإسلام ، وكلما حدثت حادثة تبشير بإخفاء شاب أو تنويحه تنويماً مغناطيسياً ، وهؤلاء الأعوان قادرون دوماً على إلقاء سادتهم إذا وقعوا في مأزق ، وعندما ثارت ثائرة التبشير في مصر وهزت دوائر الاستعمار والمبشرين لشهور طويلة تقدم شيخ له عمامة مهيبة فاقتم هذه المؤسسة الضخمة ، التي تهاوت ، أمام الضربات فافتتح موسماً وتحدث في جرة باللغة عن التبشير في معقل التبشير ، وما قاله الشيخ على عبد الرازق : « إن هذه الحركة لا يمكن أن تؤثر في الإسلام أو تضعف من شوكته فهي ليست بأقوى ولا أخطر مما لقي الإسلام في بدأ ظهوره من مظاهر العداء والكيد ، وأن الحركة التبشيرية إنما هي وسيلة من وسائل المستعمرين لتصل بسياساتهم اتصالاً متيناً ولتكنها مع ذلك لن تفيدهم في مصر شيئاً وأن الإسلام سيطر برغمها كما كان دين الحضارة والمدنية . ومضى يقول : « إن أولئك المبشرين أقل شأنًا من أن يصلوا بكيدهم إلى حى الإسلام أو ينالوا من الإسلام منالاً ، فالإسلام دين قد صهرته الحوادث وتقبلت به الفتن وعصرته التجارب ، إن خطر المبشرين سياسى وخلق أكثر مما هو دنى . هكذا يتقدم التبشير بأحد خلفائه وأجنحة ، هو الشيخ على عبد الرازق صاحب الإسلام وأصول الحكم الذي يصور الإسلام على أنه دين روحاني لا علاقة له بالدولة أو المجتمع أو الحكم وهو رأى المبشرين أنفسهم كانوا يقولونه من قبله فلا يجدن نصيراً له فإذا بشيخ من الأهر يقرر ذلك ويستمد له نصوصاً جمعها بالتحريف والتأويل لتحقيق لهم أملاً أصبح الآن له مكانة ضخمة عندما يمرضون لمفهوم الاسلام فيستشهدون به وقد قبس الشيخ على عبد الرازق هذه الآراء من كتب المبشرين كما قبس طه حسين آرائه في كتابه في الأدب الجاهل ، الذي مازال يدرس في الجامعات وتتوالى طبعاته من البشر جرجس

سأل بكل ما أورده فيه من شبهات . وفي المرحلة الأولى وقبل الحرب العالمية كان المبشرون ينشرون آرائهم بأنفسهم : زويمر ، وكرومر ، وداركور ، ومارجليوث ، وهانوتو . ثم جاء فرح أنطون وصروف وشيل شمبل وجورجي زيدان وداود بركات وفارس نمر (فتصدروا منصة التبشير وحملوا لوائه في صف ضخمة منشورة) وهم أبناء الرسائل التبشيرية وخريجوها معاهدها ومدارسها . غير أن النجاح الذي حققه التبشير بحق هو ذلك الجيل الذي جاء قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، من أمثال لطفى السيد وسعد زهلول وطه حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى وساطع الحصري ومحمود عزمي على اختلاف في الآراء وتعارض فيما بينهم أشبه بتعارض أصحاب الفئات ومقاسم الأسلاب ، وبذلك حقق النفوذ الاستعماري عن طريق التبشير واحدة من أهم توصياته وخلق قاعدة من أكبر ركائزه ، تلك التي صورها حميد التبشير زويمر حين قال : إن تبشير المسلم يجب أن يكون بلسان من أنفسهم ومن بين صفوفهم فإن الفجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها .

عمداء التبشير وأتباعهم

من أخطر أعمال التبشير في مجال التغريب هو وضع خطة شاملة لغزو الفكر الإسلامي والتأثير فيه بالادلاء والخفض ، والاكبار والتصغير ، وفق مفهوم واضح هو تعظيم القيم العالية التي يعتز بها المسلمون والعرب وإخفاء معالم البطولة عن الشخصيات الأصلية وإصغاء بطولة زائفة على الشخصيات الشعبية المضللة في تاريخ الإسلام والثقافة العربية ويحمل اليوم الشعوبيون ودعاة التغريب على الامام الغزالي متابعين خطة أسلافهم المبشرين والمستشرقين ، وكان ذلك قد بدأ في وقت مبكر عندما أهدوا الدكتور زكي مبارك بتأليف كتابه الأخلاق عن الغزالي عام ١٩٢٥ وإن كان الدكتور مبارك قد قاد ممارك أخرى حول وحدة الوجود والحلول وأثار شبهات كثيرة ضارة ، كما أنه تحدث عن القرآن في النظر التي حديث المبشرين أنفسهم الذين يرون أن محمداً هو صاحب القرآن وذهب الامام الغزالي القديم المتجدد أنه أوقف تيار الفلسفة الالهية اليونانية المستمدة من علم الأصنام والقائمة على أصول وثنية تختلف اختلافاً جذرياً عن الفلسفة المستمدة من الإسلام ، ويردد - صوم الغزالي عبارة واحدة جعلونها معقد اتهامه وهي معقد شرفه هي أن الغزالي وقف في وجه الفلسفة الوثنية وهاجمها ومن الحق أن يقال : أن الغزالي لم يهاجم الفلسفة بعامه ، وقد اهتم بصحة آراء الفلاسفة في مجال المنطق والطبيعيات وليستكنه أنكر عليهم التبع التي حصلوا عليها في البحث فيما وراء الطبيعة وفي الالهيات وبدل ذلك حفظ للإسلام مقومه الفكرى الأساسى : د التوحيد ، ومن الشخصيات اللامعة في تاريخ الإسلام والفكر الإسلامى التي هاجمها التبشير : شخصية المتنبي ، وقد حاول الدكتور طه حسين أن يصل في كتاب ضخم إلى إثارة الشبهات حول نسب المتنبي بغرض تحقيره وتصغيره في نفوس المسلمين والعرب حين ادعى أنه لقيط وساق على ذلك شكوك وشبهات كان قد أوردها (بلاشير) في كتابه عنه وقد تصدى له الاستاذ

محمد شاكراً في فضول متوالية نشرت في الصحف (راجع كتابنا : المساجلات) فند فيها هذا الاتهام الظالم . ولقد عني الدكتور طه حسين أيضاً بمحاولة تحطيم شخصية ابن خلدون في أطروحته التي تقدم بها إلى جامعة باريس عام ١٩١٤ والتي كتبها تحت إشراف رجل يهودى هو دوركايم الذى كانت آرائه حملات تمصب على هذا العلامة المؤرخ العملاق . وقد كذبت الدراسات المتوالية وأشارت بالاثبات إلى الدكتور طه حسين وأستاذه بعد أن وضعت أكابيل الغار على رأس شيخ المؤرخين ومؤسس علمى التاريخ والاجتماع وكان للدكتور منصور فهمى موقف قديم في مجال متابعة المبشرين والمستشرقين حين وضع أطروحته عن (المرأة المسلمة) في باريس بإشراف عالم يهودى هو د ليني برايل ، وحين تعرض بالاثبات للرسول وزوجاته وقد رجع منصور فهمى عن آرائه هذه وتحول تحولاً خطيراً نحو مفاهيم الاسلام واهتم الدكتور طه حسين كثيراً بالأدب المأجور وحاول في كتابه (حديث الأربعاء) أن يصف (زينا وبطلانا) أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى بأنه عصر شك وبحرف وكان ذلك اتهاماً خطيراً كشف الباحثون عن خدعته وتضليله ومتابعة ركاب المستشرقين (لا جهلا ولا غفلة) ولكن متابعة فهمى كامل للهدف وعمل كامل على تحقيقه في مختلف المجالات الثقافية والتعليمية وقد كان طه حسين أول من دعا إلى اعتماد كتب المحاضرات والفكرات كمصدر للدراسة وقد اعتمد هو في هذا الرأى على كتاب الأغاني ، كما اعتمد جرجى زيدان في اتهام المسلمين والعرب على كتاب العقد الفريد (الذى أورد حجج فريق المتعصبين للعرب وحجج خصومهم) وكان معظم ما نقله جرجى زيدان من آراء خصومهم . وحين حكم طه حسين على عصر الإسلام الأول بأنه عصر شك وبحرف من خلال خمسة من الشعراء المتهاككين على الجون أمثال بشار وأبى نواس وصفهم بأنهم يمثلون عصرهم تمثيلاً صحيحاً ، كان قد ترك مختلف طوائف الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والرواة وعلماء اللغة والوهاد . فبظلم البحث العلمى اتخذ من حياة خمسة شعراء ماجنين ميواناً للعصر كله . واعتبه شعراً صورة عامة للعصر وقد أولى الدكتور طه اهتمامه إلى مختلف وسائل إذاعة الشعوبية والتشكيك وليس أدل على ذلك من اهتمامه بطبع رسائل إخوان الصفا بعد هودته من أوروبا ، وطبع هذه الرسائل عمل أدبى خالص إذا ما قصد به وجه العلم وقام على أصول البحث العلمى وكشف عن حقيقة أهداف هذه الرسائل ، أما إذاعتها بالتجسيد والتكريم بدعى أنها عمل من أعمال حرية الفكر فهذا هو هدف التثوير والتغريب من إثارة الغيبات وإذاعتها ، والمعروف أن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا في القرن الرابع الهجرى (٣٣٤ - ٢٧٣) في البصرة إنما هم جمعية سرية من الباطنية والمجوس والوندقة الحافدين على الإسلام والعرب واللغة العربية ولهم صلات أكيدة وواضحة بالحركات المربية التي كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى والدعوة الإسلامية - وليس الحكومة الإسلامية فقط - وكانوا قد وجدوا أن الطريق إلى دعوته يمكن أن يكون أكثر إيجابية إذا قام على الغيبات الفكرية المتصلة بالتوحيد وصميم روح الإسلام وجوهره ، وقد اتخذوا لدعوتهم السرية السياسية ظاهراً فكرياً أخفوا وراءه غاياتهم وطابعاً علمياً وفلسفياً زعموا به أن الشريعة قد دنست بالجمالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وم إنما اتخذوا من رسائل إخوان الصفا منها لقب الإسلام نفسه ، وإدخال الفلسفات الوثنية إليه

ولابد ان طابعه ابدالا ينتهي به تماماً ، وإلا فلماذا أغنى هؤلاء العلماء الأجلاء أسمائهم لو كانوا حسي النية طيبى الفصد . وكان شرفاً لهم أن يملئوا ذراهم كصالحين ! وما يزال التاريخ الحديث مليء بالثغرات والأخطاء التي تجري اليوم بحرى الحقائق ، وأهمها ما بين العرب والترك ، وفي مقدمة ذلك للسلطان عبد الحميد خصم الصهيونية والماسونية والاستعمار البريطاني وحامل لواء الوحدة الإسلامية في وجه النفوذ الغربي الواحف . وما تزال الحملة على السلطان عبد الحميد التي أثارها الاستعمار والتبشير لخدمة النفوذ الأجنبي والصهيونية ما تزال مستمرة على أقلام الذين يكتبون باللغة العربية دون محاولة صادقة لتحقيق الأصول التي اعتمد عليها هذا الانحياز . واعتقد أن الوقت قد حان لتحقيق هذا الموقف وتصحيحه ، وقد كشفت الظروف حقيقة السلطان عبد الحميد وموقفه المشرف في مسألة فلسطين وموقفه من الصهيونية ومن الاستعمار جميعاً في هذا الصدد . والحق أن ما وجهه السلطان عبد الحميد كان غالباً مسرفاً ولم يكن كله حق ، فلم يكن عبد الحميد على الأقل دكتاتورياً على الصورة التي عرفت من بعد عن الاتحاديين الذين علقوا العرب على المشائق ولا عن مصطفى كمال . وغيره من دكتاتوري الشرق .

وقد استغل التبشير والاستشراق في هذا العدد كتابات الكواكب ، الذي لو كان يعرف إلى أي حد ستصبح كتابته سلاحاً ضد الإسلام والأمة العربية نفسها لتحفظ كثيراً فيما ذهب إليه . والمعروف أن الحملة على عبد الحميد بلغت مداها عندما كادت دعوته إلى الجامعة الإسلامية تؤتي ثمرتها ، وأن الذين حملوا لواء الحملة عليه هم كتاب تخرجوا من الإرساليات التبشيرية وآمنوا بالأهداف التي بثتها في العالم الإسلامي وهم حينها جوا عبد الحميد وأثاروا حوله هذه الشبهات لم يكونوا يستهدفون إسقاطه إلا كقدمة لتزيق الدولة العثمانية نفسها . وقد عمل دعاة التغريب وأتباع المستشرقين في مجال الدعوة إلى التبشير بمخططات واضحة ، وأفسحوا الطريق للإلحاد والإباحة والشعوية وهي أم غمار التبشير وأبرز دعائم مخططة في مجال الثقافة ، هؤلاء الدعاة قد مروا على أساليب التزوير في الغرب وأحكموا طرق الدعاية ووقف من وراءهم قوم لهم نفوذ يحمون ظهورهم ويدفعون عنهم ما يصيبهم ، وذلك في سبيل الغاية الكبرى : دهم الإسلام في قلوب أهله وتجرده المسلمين منه . فالدكتور كامل حسين علل الصلب وأقره في كتابه قرية ظلمة . وعلى عبد الرازق : حاول أن يتخذ من النصوص المقطوعة عن أصولها ما ينفي عن الإسلام أنه دين حكم ونظام مجتمع . وطه حسين : عمد إلى تحطيم قدسية النص الديني والفصل بين الدين والأدب في الفكر الإسلامي . ولقد عرض كثيرون لكتاب الشعر الجاهلي وقالوا : إن طه حسين يردد نظرية مرجليوث في أن الشعر الجاهلي موضوع ، وهو مغفز يدين طه حسين كباحث ولكن الهدف الاضرار من الشعر الجاهلي الذي لا يزال يقرأ تحت اسم الأدب الجاهلي هو دعوته إلى نسيان القومية والدين كشرط أساسي من شروط البحث العلمي . ويصور خطر هذه الدعوة المستشرق (كامفراي) : إن المحاولة الجزئية التي قام بها طه حسين ومن يشابهه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية هي حركة لا يمكن تعديدها آثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا في التقدير فإنك لا تجد كلمة عنها . ذلك أن عملية الفصل بين أجزاء الفكر الإسلامي المتعاقبة المتتمة ، هو الهدف الأول الذي يهدف إليه التبشير والاستعمار وهو الذي يجعل الأدب جريئاً على كتابة الأدب المكشوف دون أن

بمبنى قيود الاخلاق ، وأن يصبح النص القرآني عرضة لأن يوضع موضع النقد ، وهذا هدف كبير . أما سلامة موسى فقد كان مفهومه واضح وعمله صريح : هب منه في حرية كاملة حين قال « هذا هو مذهبي الذي أحمل له طول حياتي ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب في كل ما أكتب ، أحاول أن أجعل قرأني يولون وجوههم نحو الغرب وينفصلون من الشرق ، وليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوروبية ، ولا ريب أن هذا من أكبر أهداف التبشير والنفوذ الاستعماري . وقد ردد طه حسين الدعوة إلى تكوين الصفوة المثقفة . وأشار إلى أن السبيل لتحقيق ذلك هو أن نفتح الطريق أمام مختلف العناصر الأجنبية وقال : إما أن نقصر على ثقافة بعينها أو يقتصر علينا في الثقافة فلا تدخلها العناصر الأجنبية إلا بمقدار ، فهذا هو الشر الذي لا ينفق مع كراحتنا ، وقال : هناك أشياء لا بد منها لتكوين المثقف الممتاز أهمها أمران : فتح الابواب للثقافات الأجنبية لنتزوج بثقافتنا والعناية بجعل اللغة العربية لغة مصرية . » ومعروف بالطبع ما يقصد إليه طه حسين .

وقد احتفلت دوائر التبشير إلى أبعد حد بالآراء التي أعلنها « على عبد الرزاق » في كتابه عن الإسلام وأصول الحكم التي حاول بها أن يجعل الإسلام ديناً روحياً محضاً لا علاقة له بالحكم والتطبيق للشرعية الإسلامية ، فقد كانت هذه الآراء التي أكدها عالم من الأزهر عام ١٩٢٦ هي نفس الآراء التي ألقاها اللورد كرومر إلى المثقفين من المصريين الطامحين إلى تولي شئون بلادهم عام ١٩٠٦ وفي مقدمتهم سيد زغلول ولطفي السيد وعبد العزيز فهمي ، غير أن أحداً لم يهرؤ في هذه الفترة أن يواجه هذه المسألة في صراحة ، وكانوا جميعاً يدورون حولها في رفق ومكر حتى جاء هذا القاضي الشرعي فوضعها موضعاً علمياً زائفاً على طريقة المستشرقين والمبشرين في فهم النصوص واستغلالها . ذلك أن على عبد الرزاق كان قد حدد لنفسه أو حدد له ذروه الغاية قبل أن يبدأ البحث : الغاية هي مقاومة محاولة الملك فؤاد في الحصول على الخلافة . هذه المحاولة التي لم يكن في الإمكان معارضتها سياسياً ولذلك فإن السلاح الماضي لتحقيقها هو سلاح (النص الديني) ومن هنا أجرى على عبد الرزاق هذه المحاولة معتدداً على نصوص بمنزلة من هنا وهناك وعلى كتب (١) مؤلفة في تركيا حاول ذروها تأييد الاتجاه الذي قرره الاستعمار ونفذه مصطفى كمال بإلغاء الخلافة ومحاربة إجماع عقلية لهذا الغرض تقوم على أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الإسلام . و « فيليب حني » واحد من المبشرين الذين عملوا في مجالات الدراسات التبشيرية في الغرب وقد حملت كتبه جميع الشبهات والنظريات التي قصد النفوذ الاستعماري إلى ترويجها وإذاعتها . وهو من الذين يردون النهضة الفكرية واليقظة العربية إلى دور إرساليات التبشير والحملة الفرنسية وغيرها من الآراء التي ثبت كذبها وضلالها . ومن آرائه التي أذاعها في جماعة من العرب عام ١٩٤٦ قوله : « لا بد لتحقيق النجاح من فصل الجامعة العربية كل الفصل عن الجامعة الإسلامية ، فالأولى تجعل اللغة والثقافة أساساً للتعاون والثانية تجعل الدين . ثم بروج الدعوة التبشيرية الغربية لفصل الدين عن السياسة (وهو ما لا يقره الفكر الإسلامي) فيقول : ومن الواضح أنه ما لم يتم فصل الدين عن السياسة فصلاً تاماً فلا نستطيع البلدان العربية الاجتماع على مستوى واحد ، ويجدر بالبلاد العربية أن تقتنى أثر لبنان . وساطع المصري له آراء جيدة في موضوعات كثيرة من الثقافة العربية ولما كان خطاه الوحيد الذي يثرثب عليه كثير من

أخطائه في قضية القومية العربية التي ركز عليها وسلطت عليه الأضواء من أجلها - هذا الخطأ هو أنه (استورد) المفهوم الغربي للقومية وحاول تطبيقه في مجال ثقافة ترتبط بالاسلام أساساً والاسلام أساس من أسس فكرها الذي لا ينفصل في مجال التاريخ واللغة والتراث . وساطع الحصري متأثر في هذا الاتجاه كله بالمفهوم الغربي ، العلماني ، الذي يفصل بين الدين والمجتمع ، وهو إلى ذلك يفهم الاسلام فهماً قاصراً فهو يتناول على أنه (دين تعبدى لا هو) قائم على العلاقة بين الله والإنسان ، ومن هنا فهو يستبعد كإرضية للثقافة ، وهذا الفهم خاطئ أساساً فليس الإسلام كذلك ولكنه في اعتقادي خطأ مقصود ، ومستهدف ، وهو نفس المفهوم الذي روجت له حركة التبشير وحركة الاستنراق ، واعتبره الاستعمار أساساً جذرياً لتعامله مع التعليم والتربية والثقافة في العالم الاسلامي ، وهو نفس المفهوم الذي اعتنقته حركة الاتحاديين التي حكمت الدولة العثمانية منذ ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ وكان ساطع الحصري هو المسئول عن التعليم في تركيا خلال هذه الفترة . وقد نقل مفهومه هذا إلى العراق خلال الفترة التي عمل بها مشرفاً على شئون التعليم بها حتى وصف بأنه (دنلوب العراق) . ومن السهل جداً على الباحث المثقف أن يرد آراء طه حسين وسلامة موسى وعلى عبد الرزاق ومحمود عزمي وآراء الشعوبيين ودعاة التغريب إلى يومنا هذا إلى السكود ، الأصل ، الذي كتبه المبشرون والمستشرقون في مختلف جوانب الرأي في اللغة العربية والاسلام والتاريخ والحضارة الاسلامية . ولقد تعجب لدقة هؤلاء في الكتابة عن مختلف العصبات حتى لقد هني باحث مثل بار تولد بكتابة ترجمة واسعة مستفيضة لمسيطة الكذاب لشرتها مجلة الرابطة الشرقية في مصر عام ١٩٢٨ كما تخصص بلاشير في المتنبي لهدفه وتخصص ماسنيون في الحلاج لآحيائه ولكن كتابات أتباع المستشرقين والمبشرين في اللغة العربية لم تمر دون رد عليها وكشف عن أخطائها وأهوائها . وقد تناول الرد على طه حسين عشرات من الكتاب : الرافعي ولطفي جمعه وفريد وجدي والخضر حسين ومحمد أحمد الغمراوي . وتناول الرد على عبد الرزاق : محمد نجيت والخضر حسين والطاهر ابن عاشور وغيرهم . ورد على قاسم أمين : طلعت حرب وفريد وجدي . ورد على فرح أنطون الامام محمد عبده . ورد على شبلي شميل : العلامة فريد وجدي . ورد على جرجي زيدان : العلامة شبلي النعمان ، ورد على لطفي السيد رجال أكرام أمثال : فريد وجدي وعبد العزيز جوايش والرافعي ، فعلى الباحث المسلم المتفطن الذي يقرأ كتب هؤلاء التابعين للتبشير والتغريب أن لا يتقبل آرائهم كفضاها مسلم بها وأن يعرف وجهة النظر الصحيحة الأصلية .

(١) بين للدكتور ضياء الدين الريس من نص للشيخ نجيت أن كتاب على عبد الرزاق له مصدر أصلي هو كتاب مرجليوث . إقرأ كتاب (الاسلام والخلافة للدكتور الريس) .

مهمة وأن أم هذه الصحف هي السياسة الأسبوعية والمصور (وأضيف المجلة الجديدة لسلامة موسى ومجلة الرابطة الشرقية التي كان يشرف عليها على عبد الرازق) تقول : « وتحدث المظلمون على مقدار الصلة بين بعض المصريين المشتغلين بالصحافة وبين زعماء تلك الجمعيات في الخارج وعن الإمدادات المالية التي ترد تباعاً تنفيذاً لمبادئ الجمعيات المذكورة التي تقضي بمزيد المساعدة لكل فرد أو هيئة تعمل للنشر مبادئها، حتى إذا كان النصف الآخر من سنة ١٩٢٧ وقعت مفاداة بين محمد باشا رئيس حزب الدستور وبين ورئيس تحرير جريدة العياسة وسبب المفاداة هو تألم أنصار الحزب من الخطوة الإلحادية التي تسلكها جريدة السياسة الأسبوعية وعلى أثر ذلك بدأت هذه الجريدة تخفف من حملتها على الأديان والتعليم وقد لفتت السياسة الأسبوعية جديلاً وتصريحات لطف حسين وعلى عبد الرازق وسلامة موسى في مهاجمة الإسلام والتشكيك في الأديان بالقول بأن التبشير شيء من أمام حركات الإلحاد والملاحدين، وقال : إن هذه الجمعيات تعنى أكبر عناية بمصر وتمتد أنها قاب الفرق وممثل الإسلام فإذا تمكنت من تهليل عدد كبير من أبناء مصر وزعماء من نفوسهم مبادئ الإسلام سهل عليها تحقيق غرضها .

الفصل الخامس

المنهج الذي تدرسه معاهد تخريج قادة المبشرين

هذه صورة للبرنامج التي تدرس في معاهد تخريج المبشرين مستغلة من تقارير المبشرين :

(أولاً) يجب أن يكون معلوماً أن للعالم الإسلامي هو الخطر المائل أمام الغرب ، وأنه إذا بقيت وتوحد كان خطراً على مصالح أوروبا ، فالغرب يتغذى من العالم الإسلامي منطقة نفوذ سياسية واقتصادية هامة ، فهو مصدر الخامات وسوق المبيعات وبه منابع البترول والمواقع الاستراتيجية العسكرية التي تجعل من يملكها مسيطراً على مقدرات السياسة العالمية . والمسلمون قوم لهم كتاب يشقون به نفقة لا أحد لها وقد حلت أعمالهم لهم عوامل الوحدة والقوة وهو يدفعهم إلى مقاومة الغاصب والمعتدى والدخول ويشن أعنف حركة مقاومة هي الجهاد ويجعل الاستشهاد في سبيل الدفاع عن الأرض دفاع عن الإسلام نفسه . وقد كانوا على طول تاريخهم قادرين على هذه المواجهة فيهم صلابة وعناد وقدرة على القداء والبذل والتضحية . وهم في مختلف مماركهم كانوا الفريق الأقل عدداً وعدداً ومع ذلك فقد كانوا ينتصرون بذلك الإيمان العجيب الذي يملك قلوبهم والذي يصدر من شيء واحد هو الإسلام . وقرآنهم يرسم لهم منهج حياة كامل في القانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع ويقدم نظاماً شاملاً يقوم على التوحيد والأخلاق والوحدة والمساواة والعدل الإجتماعي والهدوي ويجمع الإسلام بين الدين والدولة وهم إذا اتبعوا هذا المنهج لن يحتم أن تكتب لهم السيادة ولا بد أن يزيلوا نفوذ الغرب عن بلادهم . ولقد رأينا في الحروب الصليبية من المسلمين قوة وصبراً على الجهاد ووحدة في المقاومة مصدرها الإسلام . لذلك فإن أصلح طريق للسيطرة عليهم وإدامة هذه السيطرة إنما يكون عن طريق الحياة دون تنفيذ خطط

الاسلام الاجتماعي والسياسي ، هذه الحيلولة لن تكون قادرين عليها إلا بتربية جيل يكره هذه المفاهيم ويحترمها ويسخر منها وبها . (ثانياً) إن أهم عمل لاختضاع المسلمين لا يتم عن طريق الجيوش والاحتلال وإنما يتم عن طريق الثقافة والدين باختضاع المسلمين للثقافة الغربية وبذلك ينتزع منهم أبرز مافي الإسلام من علامات القوة والجهاد والمقاومة والوحدة . ولذلك فإن علينا أن نضمن منافع التعليم والثقافة ما يؤدي إلى هذا الاتجاه ، على أن ينفذ ذلك بدقة ومرونة وعلى آمد طويلة ، وأن نقيم مدارس ومعاهد تجذب المسلمين إليها . حيث يتملمون فيها كيف يعجبون بأوروبا ودينها وفكرها وعظمتها ، وبذلك يتحول ميزان النفسية الاسلامية والعقلية العربية من المقاومة والجهاد والحذر إلى التقبل والولاء والاعجاب . وبذلك يصبح هذا الجيل هو القادر على قيادة الحركة الفكرية بفضل تجميعنا وحمايتنا فإذا فرض علينا الجلاء وترك مواقعنا العسكرية والسياسية كان لهذا الجيل القدرة على حماية مخططنا ومفاهيمنا . ولا بد من مثابرة دائمة عن طريق المثقفين أصحاب الولاء لفكرنا وأمتنا ، على إثارة الشبهات والشكوك حول الاسلام واللغة العربية والتاريخ والقرآن ومحمد وعلينا أن نحول دون قيام ثلاثة أشياء :

(١) الجامعة الاسلامية (٢) الاسلام دين ودولة (٣) التعليم والاخلاق والدين - ولا بد من دفع قدر ضخم من عوامل المتعة والمذاق أمام الشباب عن طريق القصة والدرج وفتح النوادي الليلية ومعاهد الرفص وحانات الخمر ، وذلك للقضاء على مقومات الشخصية المسلمة وتدميرها وهدمها وإحلال روح من الفساد والتحلل والميوعة بين الرجال والنساء . ولا بد من الدعوة إلى حرية المرأة . أما حرية الفكر فهي التي تفتح الطريق أمام النظريات المضللة والهدامة للإسلام والفقه والتاريخ أما حرية المرأة فهي التي تفتح الطريق أمام انحلال المرأة والأسرة وهدم الاجيال القادمة من الشباب والطبقات (ثالثاً) إن هدفنا هو تغيير العقلية الاسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التعاطف والثقافة وتوهين عروة العقائد الاسلامية والحضارة الاسلامية والاخلاق الاسلامية لفرض حضارة الغرب وفلسفة حياته على المسلمين . إن علينا أن نخرج المسلمين من دينهم وواجباته ، ومن ناحية أخرى أن نصور لهم الاسلام ديناً رجعياً ليس له أثر في تطور الحياة الانسانية . وأن نعمل على تشويه الحركة الاسلامية وتهوين المقومات الانسانية والروحية والاسلامية وإظهارها بأشنع صورة في المجتمع ، وشن حملة على رجال الدين واتهامهم بالتخلف والجمود ولا بد من إقصاء الاسلام عن المناهج الدراسية ، وإذا كان لا بد فليكن على أنه دين عبادة ، دين روحاني ، عبارة عن صلوات وقساويح ولا شيء غير ذلك ، أما لأنه نظام اجتماعي أو اقتصادي أو تربوي فذلك مايجب إبعاده والتفاديه وتوجيه حملات التشكيك إليه وإثارة الخلافات التي وردت في كتب المسلمين ، وطرب النصوص بعضها ببعض وإذا كان لا بد من تعلم التاريخ الاسلامي فلا بد أن يكون بأفلام كتابنا ولدينا مئات الكتب عن الاسلام وتاريخه تصاح للتدريس في المعاهد والجامعات والاستعانة بما أورده المستشرقون في دراساتهم من شبهات ومقدمات كتاب الغرب الاحرار في مهاجمة الأديان ونشر المذاهب القوضوية والاباحية ونقل آراء نيقتشة ودارون ورينان وغيرهم بها وجهه إلى المسيحية ، إلى الاسلام نفسه والاهتمام بالدور الذي لعبه تاريخ أوروبا الحديث في مجال الديمقراطية الليبرالية وإثارة روح الاعجاب والتقدير للدور الذي قام به العقل الأوروبي في

مجال الحضارة والنظم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتربوية ونشر الدعوة إلى عالمية الحضارة الأوروبية وانصهار الثقافات والحضارات المختلفة منها ، وأن أوروبا هي التي يجب أن تخضع لها النظم العالمية القائمة في المجمع البشري كله وخلق عقيدة في نفوس المسلمين بأن نظم أوروبا طوداً شامخاً وأنه لا سبيل لحرية أو نهضة إلا إذا اعتنق المسلمون أسلوب العيش الغربي ، فيجب أن يخضعوا لنفوذها ويسيروا في ركابها أولاً حتى تتحقق لهم الحرية ، (رابعاً) إن على رجالنا أن يكونوا غاية في الجرأة ولا يخافوا شيئاً فإن هناك الامتيازات الأجنبية تحميهم فلا يحاكم أحد منهم أو تستطبع أي حكومة أن توجه إليه أي لوم غير أن مقاومة الاسلام بالقوة تزيد انتصاراً . أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعائمه فهي تربية بنيه في المدارس التبشيرية أو المسيحية ونفث جرائم الاتحاد في صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون مالم يتنصروا فيصبحوا لامسلمين ولا مسيحيين . (خامساً) أن نحول بين المسلمين وبين الوحدة فإذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير ، إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب الصود وتساعد على التخلص من السيطرَة الأوروبية لذلك فإن التبشير عامل هام في كسر شوكة هذه الحركات فهو يعمل على سلب الحركة الاسلامية عنصر القوة والتمركز وبذلك تفقت وحدة المسلمين وندراً خطر إمتداد سلطانهم باستغلال الشعوب الأوروبية لهم واستنزاف ثرواتهم . (سادساً) إن مهمة المبشرين هو تأجيج الخلاف بين الطوائف ، وخلق تحاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس المسلمين وحلمهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية الغربية . (سابعاً) لا بد من الاهتمام بالمبعوثين إلى الغرب وتدريبهم على أساليب الكتابة المرونة الدقيقة الماكرة التي تدخل الدم في أسلوب من البراعة والبساطة . وعلينا أن نغريهم بالوواج من الأجنيبيات حتى يكونوا خاضعين لنا ولحضارتنا وأفكارنا خضوعاً كاملاً ، وعلينا أن نقدم لهم دائماً تلك الشبهات المباحقة لينشرونها بين قومهم فإن كتابتهم ستكون أكبر أثراً في نفوس أبناء أمته من كتابات كتابنا ، وعلينا أن ندرّبهم على أسلوب القويّة والبراعة في عرض الشكوك والشبهات ورفضها وإبطالها وتقبلها مرة أخرى حتى تحدث زعزعة لايمان المسلمين بقيمهم الاسلامية ، (ثامناً) إن نزوع الاعتقادات الاسلامية ملازم دائماً للجهود التي تبذل في سبيل التربية الغربية ذات الطابع التبشيري .

الباب الثالث

أبعاد التبشير مع القوى المختلفة

الفصل الأول : التبشير والاستعمار
الفصل الثاني : التبشير والتفريب
الفصل الثالث : القاسم والاستشراق
الفصل الرابع : الدائرة للمرنة والدائرة للصماء

الفصل الأول

(١) التبشير والاستعمار

/ إن « العالم الإسلامي » اليوم يمر بمرحلة دقيقة من حياته تختلف اختلافاً كبيراً من المرحلة السابقة: مرحلة الاستعمار ، فقد أصبح معروفاً وواضحاً أن الاستعمار تغلغل عن احتلاله لأغلب وحدات عالم الاسلام وأصبحت هذه الوحدات « مستقلة » ، بعد أن حلت قوات الاحتلال وتركزت الأوطان لأصحابها يديرونها . هذه المرحلة الجديدة هي مرحلة ما بعد الاستقلال قد أعطت للناس شعوراً بالحرية والأمن ونقلتهم من مشاعر المقاومة والخطر والتخلف التي كانوا يعيشونها خلال فترة الاحتلال وإبان حكم الاستعمار إلى شعور بالهدوء والطمأنينة دفعهم إلى الانطلاق إلى مختلف مجالات التنمية واللهو حيث لم تعد هناك قضية من قضايا التحدي تشغلهم أو تستوجب جهودهم . وهذا هو الخطر الحقيقي الذي يواجه شبابنا وأمتنا في هذه المرحلة ، ذلك أن النفوذ الاستعماري عندما أجلى قواته وعساكره ، إنما كان قد اطمأن إلى أن له نفوذاً دائماً أصبح قادراً على الحركة بدلاً منه ، وهو في نفس الوقت أخفى من الحفاء ، وأدق من الدقة نفسها ، ذلك النفوذ هو « الغزو الثقافي » ، والاستعمار الفكري أو ما نطلق عليه نحن عبارة « التفريب » ، ومهيب أن يكون موضع التقدير ، إن الاستعمار لم يحقق الجلاء العسكري إلا وقد حقق أكبر أهدافه في فرض نفوذ دائم مستمر ، لن ينقطع مع هذه الوحدات التي استعمرها طويلاً . هذا النفوذ هو النفوذ الفكري والثقافي ، والمعروف أن حركة اليقظة الإسلامية العربية حين استعلت في منتصف القرن الثامن عشر ، ومضت طوراً بعد طور ، وحلقة بعد حلقة ، إنما كانت جعلت من أكبر أهدافها مقاومة النفوذ الاستعماري بأسلوب إسلامي هرب صميم ، هذا الأسلوب هو تجديد طوابع الفكر الإسلامي بالتقاسم مفاهيمه الأساسية وجذوره الأولى التي كانت مصدر قوته ، والتي تخلفها وضعت فاستطاعت القوى الاستعمارية أن تنفذ إليه يوم تخلف عن مفاهيمه وقيمه ، وأتاح لنفسه في نفس الوقت للناس أساليب الغرب ومناهجه وأخذ علومه والجرائب الجادة من حضارة كان هو مصدراً من مصادرها أساساً . غير أن هذا المنهج وهذا الأسلوب لم يكن مقبولا من الاستعمار والنفوذ

الغربي ، الذي لم يكن يسمح لهذه الأمة أن تستيقظ وتقوى وهو إذ كان حريصاً على استمرار نفوذه واستدامة بقائه فقد خرق هذه الدائرة المرنّة وكون دائرة أخرى قوامها منهج جديد هو التماس حضارة الغرب وفكره معاً ، والذوبان في الفكر الأممي . والحضارة العالمية ، حتى يفقد المسلمون خصائص ثقافتهم وملامح شخصيتهم ويتقبل النفوذ الاستعماري تقبل إيمان واقعة صداقة ، ومن هنا أراد أن يؤكد الاستعمار وجوده بالقضاء على الدائرة المرنّة وتصفيتها وإنهاء الدائرة الهباء ، وفرضها وفرض ثمارها على مختلف مجالات القيادة الفكرية والاجتماعية والسياسية . وقد كان على الاستعمار وهو يطعم في البقاء الطويل أن يقضي على عوامل المقاومة ، والمسلمون والعرب يستمدون عوامل مقاومتهم من أساس فكرهم الإسلامي العربي الذي يرفض الدخيل والنفوذ الأجنبي ويقاومه بالجهاد وحد السيف ، فلا بد إذن لهذا النفوذ أن يقضي على هذه الأسس من المفاهيم ولذلك فلا بد من القضاء على أبرز مقومات الفكر الإسلامي . ولم يكن ذلك يسيراً طالما أن هذا الفكر حتى يتجدد ، وهذه الثقافة ما تزال مرتبطة بجذورها الإسلامية ، لذلك فقد كانت أخطر خطوة بخطوها النفوذ الاستعماري هي العمل على فصل الثقافة العربية عن أمها الفكر الغربي الذي يحمل قيماً ومفاهيم وأسساً تختلف اختلافاً كبيراً . وكان للاستعمار لكي يحقق هذه الغاية أن يلجأ إلى وسيلتين هامتين : الأولى : التربية والتعليم .

والثانية : الثقافة ، فمن طريق التربية والتعليم يستطيع أن يلتقط الهباب المسلم في المراحل الأولى من حياته وقبل أن تنمو مفاهيمه الإسلامية وجذوره العربية ويعمل على بثائه في مدارس التبشير ومعاهد الإرساليات الأجنبية وفق منهج دقيق الخطر وضعه دهاقنة الاستعمار والنفوذ الأجنبي بحيث يخلق منه إنساناً لا يحمل أي معنى لوطنه أو الغيرة لدينه أو التعاطف بأمتة أو التقدير لتاريخه أو الإعتبار لغته وإنما هو إنسان متطلع إلى الغرب ، هو هناك ، وتقديره للحضارة الغربية بالغ ولا يبال الفرب كبير ولتاريخ الغرب ولغته وثقافته بالغ الخطر ، ومعه إيمان وعقيدة بأن وطنه المتأخر المتخلف المستعمر لا يستطيع أن يشق طريقه في الحياة إلا أن يكون تابعاً لهذا الغرب ، مصادقاً لهذه الحضارة ، عبداً لهذا النفوذ ، لا يرى في الاستعمار خطراً ، ولا يولييه خصومة بل يراه صداقة وتقديراً وإعجاباً مؤمناً بدور الغرب ودور الرجل الأبيض في تمدن الأمم المتخلفة ولشر رسالة الحضارة هذا هو ما تبثه هذه المعاهد والمدارس والإرساليات المفتحة الأبواب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي والوطن العربي اغفر القادوسين على الإلتحاق بالمدارس الأميرية ذات المصروفات الكثيرة ، ومن ثم فإن أجيالاً كبيرة متعاقبة ، ورجالاً كثيرين من المسلمين والعرب قد تخرجت من هذه المعاهد والمدارس والجامعات وقد صيغ فكرياً على هذا النحو وصنعت عقليتها وفق هذا المخطط ، ثم أتبع لها من بعد أن تنصدر مراكزها في الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية ، وأن تعمل من مفاهيمها هذه عقائد ، ومن النظريات هذه التي بثها الاستعمار عن طريق الإرساليات في أنفسها حقائق تؤمن بها وتدافع عنها وتذود من أجلها . (٢) وفي مجال الثقافة كان عمل الاستعمار عن طريق الصحافة والكتابات والفيلم السينمائي والقصة المرحبة بالغ الأهمية والخطر ، فقد حملت هذه الأدوات كلها أفكاره التي قدمتها بأسلوب غاية في الدقة والفن وأضفى عليها قدر كبير من البراعة والطلاوة ، وكان قوامها خاتق جو الممتعة والتحرر والانطلاق عن طريق ملذات الجنس والإباحية والسكينة الجريئة والصورة العارية والعبارة المكشوفة ووراء ذلك كله نظرية فلسفية

تدمها فتقول أن السكبت هو مصدر الفقاء والمرض وأن إطلاق الغرائز ، وتحريرها . والكشف في الثواب والسكبة أن الحرية في التماس متعة الشراب والمخاضرة والرقص ، عن طريق هذا المخطط التبدوي استطاع النفوذ الأجنبي أن يخلق ركائز التي اعتمد عليها في بناء أجيال ترضى عن الإستعمار وتنقبه فكرياً وحضارة وبذلك يتمد بقاءه ويصبح إشريعاً مقبلاً ، وليس خصماً يحارب أو يقاوم ، وهذا أخطر ما يواجه مرحلة ما بعد الاستقلال من تحديات : فالعرب والمسلمون يجب أن يكونوا قادرين على ربط ثقافتهم بهذورها من الفكر الإسلامي . مصدره وأساسه ، لقد مرت الثقافة العربية بمرحلتين متواليتين أولاً مرحلة الجود والتخلف ، حين توقفت الأساليب الأدبية والمضامين الفكرية عن النمو ، والثانية حين بدأت معالم اليقظة العربية الإسلامية مجددة للناموس والأساليب المتعمدة مفهوم الإسلام نفسه ومقوماته الأساسية ، وحين طغت تيارات الفكر الغربي تحمل عذرات من النظرات والافاسفات والذهوات وقد كان للاستعمار والنفوذ العربي أثره البعيد في فرض هذه النظرات التي تأثرت الثقافة العربية والفكر الإسلامي بها ، حيث جرت معركة ضخمة بين التجمية والأصالة ، وبين المحافظة على مقومات الفكر الإسلامي والشخصية العربية الإسلامية بيهت التراث الإسلامي وتهديده والتماس منابه من القرآن والسنة وبين هوامل الترجمة والنقل والانتباس . وعاش الفكر الإسلامي والثقافة العربية بين نظريتين : نظرية مستمدة من حركة اليقظة الإسلامية تدعو إلى بناء الجديد على أساس القديم والمواثمة بين إحياء التراث وترجمة الفكر الغربي : ونظرية قادما دعاة التغريب وحلة النفوذ الأجنبي وقوامها : تقبل الحضارة الغربية والفكر الغربي تقبلاً كاملاً وظل الصراخ يمتدأ بين النظريتين : حتى جاء الوقت الذي أصبح من الحق فيه أن يقال أن العالم الإسلامي والأمة العربية قد بلغت مرحلة الرشد الفكري ، وأن الفكر الإسلامي الذي كان طوال تاريخه قادراً على تأكيد ذاته ووجوده ودعم مقوماته وقيمه وفتح الأبواب أمام الثقافات المختلفة يأخذ منها مايزيده قوة وحيوية ، هذا الفكر قد أصبح اليوم على أبواب مرحلة هو فيها أكثر قدرة على أن يبني قاعدة الأساس مستمدة من مقوماته الأصيلة ، التي هي عبارة مزاجه وشخصيته ومفاهيمه ، وأن يتقبل من الثقافات الانسانية مايزيده هذه القاعدة قوة وهذه الشخصية حيوية دون أن ينصهر في الفكر الأسمى أو يضيع في ثقافات الغرب أو الشرق على السواء ومن شأن هذه النظرة الجديدة ، نظرة الأصالة والرشد الفكري أن تعيد النظر في كل المؤسسات والقضايا التي قد نزلت منذ وقت طويل آثارها وبصماتها على حركة تطور الثقافة العربية والفكر الإسلامي وذلك حتى تتحرر من آثارها التي تحاول أن تقضي بمرور الزمن على مقومات الفكر الإسلامي والثقافة العربية وكذلك على الشخصية العربية الإسلامية نفسها ذات الوجود المتميز الصريح ومن هنا فإن أبرز ما تنتجه إليه نظرة المثقفين في سبيل تحرير الفكر الإسلامي والثقافة العربية وأصليهما هو مواجهة هذا الخطر السكمان الحقن الذي خلفه الاستعمار قائماً في أو طائفاً بعد أن سحب جيوشه وقواه العسكرية ونفوذه السياسي : هذا الخطر للتمثل في الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري أو التغريب . هذا الخطر الذي ركن حله على دعامات ثلاث : هي التعليم والتربية والثقافة . لأن الحقيقة التي يجب أن تكون ماثلة في كل عقل ونفس ، هي أن النفوذ الاستعماري الذي ماتزال مصالحه قائمة في العالم الإسلامي والأمة العربية إنما يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق د تغريب . الثقافة العربية والفكر الإسلامي وساخ مقوماتها

وإضفاء مقومات الفكر الغربي والثقافة الغربية عليهما بحيث يفتزع من هذا الأمة مدبرتها النفسية والعقلية على مقاومته أو معارضته أو التخلص منه وإحلال روح من الثقيل له والتشجيع به والصداقة له والدفاع عنه بل والإعجاب به ، هذه الروح تحمل في طياتها أيضاً الفرض من شأن التراث العربي واللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي والتربية الإسلامية وإثارة الشبهات والانتقادات حولها جميعاً . إن أمتنا كي تحقق ذاتها لابد أن تكشف هذه الصفحة الهامة من صفحات النفوذ الاستعماري وهذا التحدي الخطير الذي واجه الإسلام واللغة والثقافة جميعاً : هذا الخطر المتمثل في حركة التبشير ومراحلها وتطوراتها التي إن تكن قد اختلفت مظاهرها من العالم العربي اليوم فإنها لاتزال حية في أعماق مناهج الدراسة والجامعات والثقافة ، فضلاً أنها لاتزال حية على الصورة العربية في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي وخاصة في قلب إفريقيا وجنوب شرق آسيا . لابد للثقافة العربي من إحاطة بهذا الدور الذي يلعبه التبشير كقوة أمامية زاحفة مفتحة تقدمت النفوذ الاستعماري ومهدت له الطريق وخلقت له الركائز الأساسية التي استطاع بها أن يهمل جيوشه وقواته ونفوذه السياسي لإعتقاداً على بقائها مؤثرة من بعده . ومن حق أن يقال أن أخطر تحد يواجهه العالم الإسلامي والأمة العربية اليوم في هذه المرحلة التي نعيشها إنما هو التغريب المتمثل في التبشير الخفي المستتر ، في الوطن العربي ، والواضح الصريح في كثير من أجزاء العالم الإسلامي وعلى قدر تفهم هذا الخطر والتمسك بالوسائل للتحرك منه يشكل مستقبل العالم الإسلامي والفكر الإسلامي جميعاً والمعتقد أن المستعمر قد أنهى مرحلة النضال السياسي بالجلء السياسي والعسكري ليعسج المجال أمام استعمار فكري وغزو ثقافي هو الخفي اليوم وراء التبشير الذي هو أداء الاستعمار والتغريب ثمرته ، لقد ترك الاستعمار أندية للسياسة وركز جهوده في الجامعات والمدارس والمصنف وأندية الثقافة بعد أن وجد أن حركته فيها حرة غير مقيدة ومتوالية من الأناظر . قال الشاعر الفيلسوف محمد إقبال عام ١٩٢١ . د أن الإسلام مهدد بخطرين مصدرهما الغرب . د أولهما الإلحاد وثانيهما الاستعمار وإن مستقبل الإسلام رهن بمستقبل العرب ومستقبل العرب فإذا تمت الوحدة العربية علا شأن المسلمين في كل أنحاء الأرض . . ولقد ظل المسلمون يقاومون الاستعمار السياسي فلما بدأ يتكشف ، ظهر الاستعمار الثقافي من وراءه أشد قوة وتبين أن الاستعمار لم يكن ليخل مكانه إلا بعد تأكد من وجود دعائم له وركائز يعتمد عليها في تأسيس وجوده . والحق أنه من بالغ السذاجة أن يظن الرجل المثقف المحيط بالتيارات المختلفة للسياسة العالمية أن الاستعمار قد انتهى أو أنه في طريق النهاية . وخاصة فيما يتعلق بسيطرته على العالم الإسلامي . إنما الذي انتهى هو صورة الاستعمار ، التي بدأت في أوائل القرن التاسع عشر . لقد أنتت هذه المرحلة دورها وحقت نتائجها . فكان لابد أن تختفي ، والاستعمار هو أحرص الناس على إنهاؤها حتى يستطيع أن يحقق استمراره من غير أن يخفش مظاهر الناس بعد أن ظلت هذه الصورة تزعمهم طويلاً فإذا اختلفت هذه الصورة اليوم فن السذاجة أن يظن أن الاستعمار قد انتهى فهذا ما يطمع الاستعمار بعد أن حقق أهدافه في تثبيت البقاء ، أصبح الآن قادراً على التخلص من أسلوب العمل الذي يظهر به أمام الناس ، فقد أتم أداء الدور الصريح الواضح الذي سيطر فيه برجاله وقواته وجيوشه ، وأصبح الآن قادر على أن يخفي وراء قوى قادرة على أن تؤدي دورها دون أن يظهر الاستعمار هيئاً وهو حين يخفي اليوم يخفف عن الناس شعور التحدي فتتوول القوى الوطنية

كلها إلى الإقصاء تحت أضواء الحضارة والسنوات والإنحلال ، نعم اختفى الاستعمار بصورة الصريحة بعد أن أقام دعائم نفوذه ، هذه الدعائم التي صنعها التبشير عن طريق التعليم والثقافة في مجالين من أخطر مصاندة المدرسة والصحيفة . وقد خرجت من قلب هذه الحركة قوى تعمل ، وفق مخططة ، وتربط وجودها بوجوده وتواجه التحديات الموجهة إلى الاستعمار بأقوى مما كان يراجهها الاستعمار نفسه ، لأنها تدافع عن بقائها وترى أن في محاولة تحطيم هذا النفوذ تحطيم لوجودها : وهذا الدور يمكن أن يسمى مرحلة الاستعمار الفكري والغزو الثقافي في سبيل الوصول إلى غاية كبرى هي : تقريب الشرق أو تقريب المسلمين أو تغريب العالم الإسلامي ومن عجب أن يرضى الناس عن انتهاء مرحلة الاستعمار ، ولا يقدرون الخطر الذي ظهر نتيجة ذلك ، ذلك أن وجود الاستعمار ، واضعاً صريحاً على مسرح الحياة السياسية في العالم الإسلامي ، إنما كان عاملاً من عوامل التحدى الذي يجب أن تهيئ كل القوى لمقاومته أما خروج الاستعمار فإنه يبعث في النفوس عامل الأمن والدعة ويدع لقوى الاستعمار الثقافي الحرية في الحركة والتأثير ، والاستعمار مؤسسات أساسية ضخمة تقوم بالعمل في سبيل تثبيت وجوده وتأكيد بقائه ، أهمها : التبشير والاستشراق وهذه المؤسسات تحمل دعوات مختلفة إلى التغريب والشعوبية واسكنها لانظيرها بأسمائها هذه وإنما تخفيها وراء أسماء كثيرة براقة أغلبها تحتجب تحت أسماء ثقافية أو حضارية . وأقوى القوى العاملة هي : المدرسة ، في مجال التعليم والزربية وتكوين النشء والأجيال الجديدة و الصحيفة ، في مجال الثقافة والقراء . وقد أكدت تقارير المبعوثين المختلفة على الدور الخطير الذي قامت به المدرسة والصحيفة وما تزال تقوم به في سبيل تحقيق غايتين أساسيتين هما : (١) تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيلولة دون النشأ (٢) تدمير القيم الإسلامية العربية والإسلامية الفكرية والحيلولة دون سيطرتها ومحاولة فرض مفاهيم أخرى غربية المصدر على الثقافة العربية والفكر الإسلامي رغبة في القضاء على (١) الرابطة بين الدين والمجتمع (٢) أخلاقية التعليم والتربية والمجتمع والسياسة (٣) إذاعة أسلوب من التحرر في مجال الفكر يصل إلى الإلحاد وأسلوب من مجال الحياة يصل إلى الإباحة . ولكن لماذا يهدف الاستعمار عن طريق أدواته : التبشير والاستشراق إلى هذا الغرض ، والإجابة يسيرة : وهي إخراج المسلمين والعرب من القيم التي تدفعهم إلى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبي وعدم الإقصاء في الأمية وإقامة مجتمعهم الخاص من قيمهم وتاريخهم ولغتهم وعقيدتهم . فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب في بوتقة الأمية وصهرهم في الثقافة العالمية وإخراجهم من ثقافتهم وقيمهم لم يعد هناك مجال لتشككهم بصورة خاصة ، بصورة الذات والشخصية الخاصة ، عندئذ تصبح الحضارة الغربية وقد حققت أكبر انتصاراتها بأن أحالت المسلمين والعرب إلى عبيد في القطيع التي يسود فيه الجنس الأبيض الغربي صانع الحضارة .

الفصل الثالث

التبشير والتغريب

تجمع الوثائق والنصوص التي بين أيدينا وتؤكد حقيقة واقعة هي أن هدف التبشير وأداته التبشير والاستشراق ، هو إخراج المسلمين من مقومات فكرهم وأهمها مقومات الإسلام ثم إخراج الإسلام من مقوماته أيضاً وذلك بتفسيره تفسيراً يقضي على قيمته الأساسية ويجعله ديناً تمهيدياً خالصاً ليس له صلة بالمجتمع والإنسان ، وليس لهذا من هدف إلا إبعاد الإسلام كنظام مجتمع وعامل حضارى وثقافى مؤثر عن فاعليته مع المجتمع والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم وقد كانت محاولة التبشير لخدمة النفوذ الأجنبي تتركز في إقصاء مفهوم الإسلام الحقيقي وإبقاء مفهوم الإسلام كدين تمهيدى ، وتسهيل أجيال جديدة لا ترى إلا هذا الرأى . وبذلك يقضى على أهم عناصر القوة في فكر المسلمين وحياتهم وهو القدرة والإيمان بمقاومة أى نفوذ أجنبي عليهم . ومحاولة صهرهم في الأمية الصاراً يفقدون شخصيتهم وذايتهم الأصيلة . والهدف من التغريب كما ذكره الغربيون في كتاباتهم هو : « إنشاء عقلية عامة تختقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مركز التوجيه » ويقوم التغريب على تحريف التاريخ الإسلامى وتشويه مبادئ الإسلام وثقافته وانتقاص الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى بقصد إبعاد شعور بالانقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة بمحقق قبول ذهنية الغرب والمضغوط لها ، ويغرس مبادئ غريبة في نفوس المسلمين حتى ينشئوا مستغربين في حياتهم وبمبادئ عن موازين القيم الإسلامية . وليس ما نقوله بهذا استنتاجاً وإنما هو ثابت بما تحت أيدينا من عشرات من النصوص الصريحة الواضحة التي تكشف في مجموعها الأهداف النفسية العميقة التي تسكن وراء السيطرة الغربية والنفوذ الاستعماري وتكشف عن تكتل هذه القوى جميعها (التبشير والاستعمار والتغريب) على احتواء فكر العرب والمسلمين ودينهم وافتهم . من أجل هذا الهدف الواضح الصريح وكل هذه النصوص لباحثين لامعين بعدم الناس في مقدمة البارزين :

(١) يقول الفرد كاتل سميت : إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامى بفرض إذلاله وتحقيره وإشغاله بالاضالة والخنوع ، وأن الغرب وقف في صف الصهيونية ضد العرب المسلمين متأثراً بتلك العداءة القديمة بين المسيحية والإسلام .

(٢) يقول لويس ماسنيون : إن هؤلاء العالاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية عاصلة حتى يكونوا أهواناً لنا في بلادهم (٣) ويقول هنرى دى كاسقوى : إن أحد علاج يستأصل به العرب وأضنى سيف يقتلون به هو « الحمر » وقد جربنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه فتضايف نسلهم ، ولو قبلوا لأصبحوا أذلاء كتلك القبيلة التي شربنا خمرنا وتحملت إذلالنا (٤) يقول المارشال ليونى (كروس المغرب) وعيد الحماية الفرنسية في مراکش : إن فرنسا تعد العدة لإنشاء جيل جديد لا صلة له بالمحاضى . هذا الجيل تصنعه وتنفقه على الإيمان بها

ففيهما ويقدرها ، وبذلك يتم لها من طريقه وضع يدها على البلاد (٥) يقول روم لاندو: إن الصهيونية في أوروبا بالمرصاد لما يندر من الانصاف عن الغرب والاسلام ، ومن هنا فقد خشي بعض المؤلفين تعطل كتاباتهم ، فأغفلوا أثر العرب والمسلمين وأفضليتهم على التاريخ والحضارة (٦) يقول هاملتون جب: إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم في تفكيرهم كراهية الاسلام والحقد عليه (٧) يقول م. كويك في كتابه الاسلام والدولة البريطانية: إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الاسلام وقد ارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم (٨) ويقول لويس ماسينيوس عن كلمة والتجديد: لقد جردنا المسلمين باسم مدنيتهما وصاروا لا يعرفون إلا ما نقصده بكلمة والتجديد ، التي سمعوها ، لقد دمرنا كل ما هو خاص بهم ، فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأديانهم ، والمسلمون ليسوا من السذاجة حتى يعتقدوا بكرم أخلاقنا وقد تحققت بالشواهد أننا نرغب في أن نقيم ضغفنا .

(٩) ويقول جوستاف لوبون: إن حرية التفكير في الغرب تختفي لدى الأوروبي عندما يمتد فكره إلى بحث فكر العالم الاسلامي ، حيث لا يزال هو المفهوم الناتج من الحروب الصليبية وهو عميق الأثر في النفس الأوروبية يحول دون حرية الرأي في الاسلام (١٠) قال مسيو شاتليه إن هدف بعثات التبشير تثبيت الافكار الأوروبية . قال زوير: إن الغرض من التبشير قتل الاسلام لاستعباد المسلمين . وما أعتقد أن هذه النصوص في حاجة إلى إفاضة أو شرح فهي واضحة صريحة في هدفها الواضح الصريح (إخراج المسلمين من الاسلام ليكونوا أداة طيعة في يد النفوذ الاستعماري) ومن أجل هذا الهدف عمل التبشير والتغريب في مختلف المجالات . وكان التعرض للإسلام ومحاولة إثارة الشبهات حوله عملاً جريئاً استخدمت فيه كل أساليب الخداع والتضليل ويعد بعداً كبيراً عن الانصاف والمنهج العلمي الصحيح ، وكان المسلمون يستطيعون أن يردوا بعمل عمال لولا أن المسلمين يكبرون كل الأديان السابقة ولم يعترفون بها ويكرمونها ويرون أن حقائق الاسلام الصريحة في حاجة إلى مثل هذا الاتجاه — ويقول الدكتور عمر فروخ: لو أننا تعرضنا للأديان كما يتعرض الغربيون للإسلام لوجدنا متسعاً كبيراً للدواينة) وتقوم حملة التغريب على أساس استخلاص الثمرات النهائية للتبشير ، وهي تحويل العقلية الاسلامية والنفس الاسلامية والمزاج الاسلامي تحت تأميم فرص الحضارة والقيم الفكرية الغربية والأخلاق والمعادن والأساليب المختلفة ذات الطابع الغربي الوثني وتغليبها على الطابع الاسلامي العربي الخالص . وبهذا إلحاح المستمر الذي يستمد قوته من النفوذ الأجنبي ومن الدعوة إلى التحضير والتقدم وحرية الفكر يمكن أن يتحقق التغريب ويصل إلى قته فيصبح العالم الاسلامي أمة غريبة الطابع قد فقدت مقوماتها الاسلامية في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية، وانصهرت في بوتقة الامية والحضارة العالمية . وأبرز ما ينصب عليه إلحاح التغريب هو تصوير الاسلام بأنه دين لاهوتي عبادي كالمسيحية وليس نظام مجتمع ومنهج حياة يرتبط بمختلف شئون الحياة والمجتمع والفكر . وكل المخططات التي رسمها دهاقة الاستعمار واساطين التيسير والتغريب كانت تدور حوله هذا المعنى وحده الذي يتحقق من النجاح في فرضه أمرين: (١) القضاء على وحدة المسلمين وهي التقدي السكبر في عين النفوذ الاستعماري . (٢) القضاء على مناهج حياة المسلمين وقيمهم ومفاهيمهم الفكرية والاجتماعية . وإذا رجعنا إلى جميع الشبهات التي أثيرت ، والمحاولات التي أجرت عن طريق الارشادات والمؤسسات والصحف والثقافة ،

فهي لا تخرج عن حيز هذا التحدى الخطير. ومن هنا نهرى دائماً على السنة دعاة التغريب كلية والعلمانية وهي تمنى إقصاء الدين عن المجتمع ، وإقصاء منهج الإسلام نفسه عن الثقافة العربية . وقد أشار زويمر في كتاب له : إن مبدأ (القومية المحدودة) يعد أهم عامل لانقضاء على الإسلام . وقد وضعت الأمم المستعمرة هذا المبدأ نصب أعينها ، ومن ثم انفصلت الوطنية عن الدين ، وانفصل التعليم العصري عن التعليم الإسلامى ، وظهرت دعوات الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية . وتقرير (وزارة الخارجية البريطانية ١٩٠٧) يكشف عن هذا المخطط كدفاً صريحاً حين يقرر أن الخطر ضد الاستعمار إنما يكمن في البحر المتوسط ، حيث يعيش شعب واحد لو أتيج له قدر من اليقظة والقوة ، فستحل بالاستعمار القرن الضربة القاضية ، ولذلك فقد جرى التركيز على المنطقة بكل أساليب التزيق والتغريب والاذابة في الأمة . ولقد استغل التغريب في سبيل تحقيق هدفه وسائل متنوعة ودعوات مختلفة : (١) الدعوة الإقليمية ممثلة في الفرعونية في مصر ، والفينيقية بلبنان . ولكي تعرف لماذا ركز التبشير والتغريب على الدعوة الفرعونية في مصر ، علينا أن نراجع أصول العقائد الفرعونية المستمدة من الوثنيات المختلفة . وليس الغرض في الحق هو إعادة حضارة تحجرت بقدر ما هو لإخراج المسلمين من قيمهم ومفاهيمهم القائمة على التوحيد ، والباحث في أصول الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية الغربية يجد تفاوتاً واضحاً وتداخلاً صريحاً ، حين يعلى من شأن الفرعونية إنما يراد به القضاء على قيم التوحيد وتغليب قيم الطغوس والاكليروس ونظام الطبقات والسكنة وموسيقى المعبود والقرابين وغيرها . وفي لبنان قال أصحاب الدعوة الفينيقية أنها سيكون فيها للنصرانية مكاناً أوسع . ولقد سقطت الآشورية والفرعونية والبابلية والبربرية ولم تجد مكاناً في النفس العربية الإسلامية .

(١) كما اهتم التبشير والتغريب بالطائفية وأولاه اهتمامه واحتضانه ونص عليها في المعاهدات حين أعلن حايته للأقليات . ولقد كانت هذه الطوائف والأقليات تحيا مع المجموع الكبيرة من الغالبية المسلمة قبل الاستعمار في صفاء ووقار ولم يكن بينها خلافات ما إلا تلك التي أثارها النفوذ الاستعماري عند ما أهدده له للانقضاء على العالم الإسلامى . فلما وقع الاحتلال احتضن الاستعمار هذه الأقليات ونماها وجعلها سلاحه واملأ أخطر أثر حققه هذا العمل هو اعتماد النفوذ الأجنبي على الأقليات في تعظيم الامبراطورية العثمانية تمهيداً لبطش نفوذه على العالم الإسلامى وكان للأقليات الأرمنية واليهودية على الأخص دور كبير في التأليب على العثمانيين وكان دور (الدعوة) وهم اليهود الذين أعلنوا الإسلام تقية وأقاموا في سلانيك دوراً هاماً في المخطط الذي نفذ وما تزال هذه الأقليات في مختلف أجزاء العالم الإسلامى قادرة على إثارة القلاقل السياسية والاجتماعية في كل وقت بما يمكن النفوذ الأجنبي من التدخل لتوطيد مركزه . ويظهر إلى هذا المعنى الدكتور أليس صايغ في كتاب (الفكرة العربية في مصر) فيقول : « ثم نزل الانجليز في مصر والسودان ، واحتاج الانكليز إلى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون أن يتعاونوا معهم ، وسد اللبنانيون والحوريون الفراغ ، لذلك وصفهم المورد كرومر في مذكراته بأنهم منحة من السماء وأنهم نخيرة البلاد ومنهم من الشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم والمقطف ، وكانت الصحيفتان اللتان الناطق للسلطات والاحتلال باللغة العربية فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجتا الحركة الوطنية . »

ويقول كابتن غوردون كاتنج . إن الأفليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام بغير معاملة في البلدان الإسلامية إلى أن تأتي دولة أوربية وتستخدم تلك الأفليات لقاب الحاة كما حدث في مسألة الأرمن والأراك ، ويقول بيير روندو كان في وسع الإسلام حل مشكلة الأفليات في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل ، لأن دعوته لم تقم على الفتح في الأساس ولم يكن ثمة إكراه في الدين لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى واليهود ولم يحذرهم بين الموت واعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يفرض عليهم شريعته (٢) واستغل النفوذ الاستعماري في مجال التبشير والتغريب (نظرية دارون) وعمل على توجيهها لتكون سلاحاً من أسلحة معارضة الفكر الإسلامي ومنازلته في أهم قيمه وهي التوحيد ، وقد تنبه لذلك السيد جمال الدين الأفغاني حين ألف رسالة الرد على الدهريين ، وحين وجد أن التبشير الاستعماري في الهند لم يشمر بين المسلمين لتحويلهم عن الإسلام ، فتحول عن دعوته إلى إذاعة نظرية (النيقشرية) التي تقول إن الكون مادي ولا صانع له ، وذلك رغبة في إخراج المسلمين من إيمانهم بالله . ولم يكن دارون في الحق قد قال ذلك أو تعرض للتوحيد أو اللاديان ، وليس في منطق نظريته ما يتصل بذلك ، ولكن النفوذ الاستعماري وحركة التبشير ومن وراءها قوى التغريب استغلت هذه النظرية لإثارة جو من الشكوك والريب وفلسفة النشوء والارتقاء تنافي الإسلام في جملتها ، كما أشار إلى ذلك السيد رشيد رضا ولكن الخطر هو في الآثار التي ترتبت على نظرية دارون حين حاول مكسلي وسبنسر وغيرهم استغلالها في شتوى الاجتماع والتاريخ ، وإخراجها من مضمونها للعالمى الخالص لتكون نظرية عامة تطبق على الجنس البشرى كله . ومعنى هذا أن خلفاء دارون من الفلاسفة - لا العلماء - أخذوا مذهب النشوء فنقلوه من تفسير توالد أنواع الحيوان والإنسان بعضها من بعض إلى توالد الأخلاق والشرائع والقوانين وكل أعمال البشر . وقد مضى شبلى شميل خلف هؤلاء مقلداً وناقلاً آرائهم ونظرياتهم التي لم تكن قد نضجت بعد أو تبلورت إلى اللغة العربية فأثار بها شبهات كثيرة . وقد عارضه الدكتور صروف في هذا الاتهام ووصفه بأنه ليس عالماً متخصصاً في العلوم الطبيعية ولكنه طبيب ، ويقول دكتور صروف : إن شبيل لم يدرس العلوم الرياضية وكان حاداً للذهن سريع التصور فيبادر إلى المجاهرة بما يعتقد صواباً ولو لم تكن له أدلة قاطعة على تأييده . ويقول السيد رضا إن الدكتور شبيل قد كشف له عن حقيقة خطيرة تتصل بتحويله على هذا النحو إلى الدعوة المادية بعد أن كان مبالغاً في الدين مواظباً في العبادة ، وأن فكرة التمهيط ما طرأت عليه إلا بعد سفره إلى أوروبا فقد اتى في فرنسا عالماً مادياً قال له كلمة دممت عقيدته الدينية هدماً ، ولم تكن دعوة شبلى شميل خالصة لوجه العلم أو تقدم الأمة العربية فقد سجلت له مواقف تأييد صريح للاستعمار البريطاني ، وقد أيد مد امتياز قناة السويس ، وله كتابات يقول فيها (الإنجليز يصلحون فلماذا يكرهون وأن مصر تحت سيطرة الإنجليز انتظم ربحها واتسعت زراعتها وأزرى فلاحها وبعثت فيها الحرية وفتحت لها أبواب السمحون ، وأن الفورد كرومر لا يسمح باعتداء الحقوق (البصير ١٨٩٨) وقد هاجم لإسماعيل مظهر اتجاه شبلى شميل وقال إنه اتخذ مذهب النشوء والارتقاء منسوباً إلى دارون فريضة لاثبات المذهب المادى الذى اعتنقه طوال حياته وأن حملته على الدين هى متابعة لأبى المادى وجرباً وراء غاية محدودة ، تلك الغاية هى أن يقبله الناس بدنيهم الأول ديناً آخر ، ذلك الدين هو

عبادة للمادة ، وقد أشارت بعض مصادر التعريب إلى أن الاستعمار والغزو الثقافي قد استغل نظرية دارون لحلق تيار المادية التي برزت فيه من بعد ومثله في نظريات لورنس وفرويد ودوركايم وماركس . وفي مقدمة الذين استغلوا نظرية دارون : د نيته ، الذي اتخذ من (زرادشت) مؤسس الجمهورية معلماً مثالياً وضع على أسانه ما أراد نشره من آراء قوامها الإلحاد والإباحة في كتابه (هكذا قال زرادشت) (٢) وجرت محاولات التبشير والتعريب إلى إطلاء شأن التاريخ القديم على تاريخ الإسلام أو خلط قيم الإسلام بالمعادن القديمة المتوارية ، وبصور هذا الدكتور محمد عبد الرؤوف فيقول : إن المستعمرين أرادوا أن يصدوا الناس عن مبادئ الإسلام بالمغالاة في تعجيد العادات التي ورثوها عن أجدادهم وأسلافهم وأدخلوا في روعهم أن لها قداسة حيث أنها تمثل تراث أسلافهم ، وكأن مبادئ الإسلام دخيلة أجنبية جلبها الأجانب من العرب ، وكانت المحاولات تستهدف رفع شأن العادة التي اكتسبت تدريجياً أهمية وقداسة تضارع ما للدين ومبادئه حتى ليكاد يجهل الكثير أن مجموع ما خلفه الآباء ديناً كان أو عادة وحدة غير متميزة عما حمل الاستعمار ما استطاع وبمعمل ما يستطيع نحو إيهام البعض أن لإسلام القوم إسلاماً خاصاً بهم : أي إسلام عربي أو صيني أو غير ذلك (٤) ومن أم الهناري التي أثارها التعريب لتشويه الحقائق : دعوى الأثر الذي تركته الثورة الفرنسية ، في المسلمين والعرب . وافتد أن الوقت لأن يعرف الكتاب الذين يتشدقون بالكلمات التي توضع على أفلامهم خدمة لأهداف التبشير والاستشراق والاستعمار حقيقة الثورة الفرنسية ودور الماسونية ، تلك المنظمة التي استعرت وراء الصهيونية في القيام بها لتحقيق هدف خطير هو إعلان مساواة اليهود الذين كانوا إلى ذلك الوقت يعيقون في أحياء الجيتا المنعزلة - إعلان مساواتهم بأهالي الأوطان ومنحهم حق الاشتراك في الحياة السياسية والوصول إلى كبريات المناصب ، وحين يقول الدعاة إن الثورة الفرنسية محت الفوارق التي كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسي فإنما يعنون أنها أنهت هوة اليهود وفتحت لهم الطريق إلى ما حققوه اليوم في العالم كله من السيطرة على كثير من المراكز الكبرى في مجال السياسة والاقتصاد والثقافة والصحافة والمال . وغير ما في الثورة الفرنسية إنما يعود إلى غلبة الفكر الإسلامي في أوروبا في هذه الفترة وتأثر الغربيين بمفاهيم الإسلام في الحرية والشورى والعدل والمساواة . ولقد أكرت دوائر التبشير والاستشراق ترديد القول بفضل الثورة الفرنسية على النهضة العربية والإسلامية ، وهذا القول الظاهر الخطأ ما زالت تردده أعلام دعاة التعريب والصهيبيين تأييداً لخطط الاستعمار الذي يحاول أن يروم المسلمين والعرب أن يقطعتهم لم تبدأ إلا بوصول النفوذ الغربي إليهم ، ومن الحق أن يقال أن يقظة العرب والمسلمين بدأت قبل الثورة الفرنسية بكثير وقبل الحملة الفرنسية على مصر بوقت طويل أيضاً ، وأن هذه الحملة الفرنسية لم يكن لها أي أثر في النهضة العربية أو المصرية التي كانت قد بدأت فعلاً قبل ذلك واتخذت خطواتها الثابتة . إن ربط اليقظة في العالم الإسلامي أو البلاد العربية بالحملة الفرنسية هو من كلام المبشرين والمستشرقين أصلاً وكل من يردده عن وهي إنما يؤكد هذا المعنى . والاستعمار في هذا يريد أن يخلق فهماً باطلاً هو أن العالم الإسلامي لم يبدأ نهضته ولم يستيقظ من همته إلا عندما جاء الأوروبيون فأيقظوه . ومن هنا فإن كل فضل في هذه النهضة يرجع إليهم . وهذا رأي باطل بواقع التاريخ نفسه وقد تناوله كثير من

الباحثين ، وتناولناه في كثير من مؤلفاتنا (هـ) وقد عمل التغريب والتبشير على اتخاذ الدعوة العربية سلاحاً لتزيق الدولة العثمانية فلما تمزقت ناهض الدعوة العربية وغلب عليها نزعات الإقليمية الضيقة فلما بلغت الدعوة العربية مكانها بحسبانها وحده ففكر مصدره الإسلام ظهرت الفلسفات والدعوات إلى تزيق هذا المفهوم وإحلال مفهوم آخر قوامه وحدة عربية علمانية تقوم على التاريخ واللغة وحدما . وجرى ضرب الإسلام بالعروبة والعروبة بالإسلام والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية هو مفهوم إحدى النظريات الغربية التي حاول ساطع المصري وغيره فرضها على الثقافة العربية . والقول بأن الدين ليس عنصراً من عناصر القومية ينطبق على مفاهيم الفسكرك العربي ولكنه يحتاج إلى بيان في مفاهيم الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وإذا كان يراد بالدين هنا الإسلام رغبة في عزله فإن الإسلام ليس ديناً لا هوياً تعبدياً الحسب ، ولو كان كذلك لتمكن عزله عن أى حركة فكرية ، سواء أكانت قومية أم اشتراكية أم ديمقراطية ، ولكن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، فهو بوصفه هذا يعد الأوعية الطبيعية لمفهوم الوحدة ، وما اللغة والتاريخ من عناصره الجامعة إذ ليس هناك انفصال حقيقى بين تاريخ العرب وبين الإسلام ، كما أنه لا سبيل إلى فصل اللغة العربية عن الفكر الإسلامى . والعربى هو من يفكر عربياً لا من يتكلم عربياً وما تزال اللغة هى أم الفكر وبوقتته ، ومن الأسف أن نستورد نظرية القومية من الغرب ونطبق نفس مضمون النظرية الذى طبقته شعوب وأمم تختلف في واقعها وطبيعتها ومزاجها وظروفها هنا . وهناك رأى قاطع يكاد يكون موضع الإجماع بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربى : أن الفكر الإسلامى هو فكرهم جميعاً ، وأنه ليس للمسلمين فكر مستقل عن فكر المسيحيين وإن كان هناك دين مختلف . وأمامى نصوص كثيرة كتبها كتاب مسيحيون عرب منصفون في هذا الصدد تحدوا بها تحاركة التبشير والتغريب في إثارة الشبهات حول هذه الوحدة الفكرية ، وفي هذا يقول عيسى البندك : إن العربى مسلماً كان أم مسيحياً يرتبط بالإسلام والعربية اللغة التى يتكلم بها والأخلاق التى يتخلق بها والتقاليد التى يزاولها وما يمتز به من إباء وشهامة ومروءة ، إننا نؤمن بأن كيان النصارى العرب جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب . وفي أوروبا حاول التبشير والتغريب أن يفرض مفهومها للقومية المنفصلة عن الدين حيث يوجد الدين عاملاً أساسياً في القومية : فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القومية الهولندية والإنكليزية والأرثوذكسية جزء أصيل من القومية اليوغانية والبلغارية . ومن الحق أن يقال إن التبشير والتغريب في كل هذه المحاولات يهدف إلى تزيق القوى المتجمعة ، وإحلال الخلاف محل الوحدة ، ولذلك فهو لا يتوقف عن بذل الجهد في إحلال نظرية مكان أخرى ، ولما فرض الفرعونية والفينيقية ثم تبين أن الفرعانة والفينيقيون عرباً ، عاد يذهب إلى تعزيز الإقليمية بطوايع جديدة ، ولما ظهرت دعوة العروبة حاول إلباسها ثوباً جديداً تكون فيه مناهضة للإسلام ومتافضة له ودعا إلى عروبة علمانية أو عروبة مجردة من الإسلام . وقد كذبتة الوقائع والأحداث فإن كل الحركات التحررية لمسا ولن تنفصل فيها العروبة عن الإسلام وتشهد بذلك ثورة الجزائر التى أكدت الجانب الإسلامى في كفاحها وكان الإسلام - لا ريب - هو العامل الفعال في قتال الجزائريين لحصومهم . والفكر الإسلامى حين يتقبل العروبة إنما يتقبلها بمفهومه ووفق قيمه الأساسية حيث لا خلاف بين المسلمين والمسيحيين في وحدة الفكر والتقاليد والقيم ، وإن اختلفت الأديان من جانبها العبادى وليس

الامة العربية باستطاعة أن تكون أمة منفصلة عن الاسلام تاريخاً ولغة . ولا يستطيع اللغة العربية ولا التاريخ أن يكونا بمفردهما مقوماً للعروبة دون أن يرتبطا بأرضية الفكر الاسلامي الذي انبثقت منه الثقافة العربية . وكما أثار التبشير والتغريب الالتباس بين فكرتي العروبة والاسلام أثار الالتباس بين فكرة البنائية والنصرانية (٦) كما حرص التبشير والتغريب على وضع حالات من البطولة حول كثير من الشخصيات الاستعمارية التي عملت على خدمة أهدافه ، فهناك لورنس ملك العرب غير المتوج ، وهناك غوردون بطل تحرير السودان ، وهناك ولفنجهستون وستايلي المكتشفين العالميين ، وهناك فلورانس بانتجيل وهنري الملاح وهم جواسيس أو مبشرين . ولقد كشفت صفحات التاريخ الحديثة خدعة هذه الأسماء للامة بعد أن عرفت صحف التبشير والاستعمار بتمجيد هؤلاء . والمعروف أن لورنس كان جاسوساً بريطانياً خطيراً دفع العرب إلى الانفصال عن الترك لحساب بريطانيا والصهيونية ، وكان يعلم مقدماً مدى هذه الخدعة الكبرى التي تمكشفت فيما بعد وهي احتلال الوطن العربي والحيولة دون قيام الدولة العربية الموعودة . وقد سجل ذلك في مؤلفاته وكتاباتاته . وكذلك أمر غوردون داعية تحويل السودان بالتبشير إلى النفوذ الغربي . أما هنري الملاح وولفنجهستون وستايلي فهؤلاء مبشرون كشفت هويتهم تصريحاتهم وملابسهم التي كانوا يرتدون عليها الصليب .

الفصل الثالث

التبشير والاستشراق

لا شك أن الاستشراق حركة مستقلة والتبشير حركة أخرى مستقلة والواقع أن مصدرهما بدأ في أول أمره واحداً ثم اختلفا في طريقهما ولكن التعاون والتنسيق بينهما ظل مستمراً وقائماً ومتصلاً ، وما يزال ، ويمكن أن يوصف الاستشراق بأنه المصنع والتبشير بأنه المصدر أو المورد للشئ الذي يصنعه الاستشراق . والاستشراق بعضه متصل بالنفرة الاستعمارية وبعضه متصل بالثقافات الغربية المسيحية ، وبعضه نزيه وبعضه متعصب . ومن هذا فقد كانت معطيائه في الأغلب نافعة لتغذية حركة التبشير وكانت آرائه وملقطاته ومادته ، خام يستطيع التبشير استعمالها في دعم خطته وفي إثارة هوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق خطته . والاستشراق إذا كان خاضعاً لنفوذ ديني أو سياسي فإنما هو يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررّة وبأهداف واضح فيها سوء النية في الأغلب الأعم قوامه تعصب واتهام للشرق والاسلام والعربية . ومهما صيغت كتاباته في أسلوب له طابع علمي فإنها تكشف عن عدم الحيطة وطابع الانحياز . وقد عمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً في أيدي زوابع وأصحابه . من هؤلاء : مرجليوث وماسنيون وهنري لامنس ولويس شينغو وفنسك وجولدزير وهم من أشد المستشرقين تعصباً على الاسلام واللغة العربية . ويؤكد مجال العمل واتجاهه أن يجمع بين حركة التبشير وحركة الاستشراق الخاضع للنفوذ السياسي

والدين الغربي فهو ياتمس نفى الاهداف وهي الحيولة دون وحدة المسلمين باستمرار تمزيقها والحيولة دون الالتقاء على مقومات فكرهم بالطن فيها وإثارة الشبهات حولها . وربما أعطاه كلمة الاستشراق طابعا من التكريم ، وما زالت في نظر الكثيرين تحتفظ بشيء من التقدير من حيث وجود طبقة من المستشرقين الذين يعملون في نزاهة ، ومن هنا أيضاً يمكن أن يقال أن حركة التبشير قد اعتصمت بعد الحرب العالمية الثانية بحركة الاستشراق بعد أن اسودت صفحاتها وكبرها الناس ونفروا من المتصلين بها وبعد أن كشفت الأحداث أعمالها المهيئة . ومن هنا فقد خلعت حركة التبشير أثوابها في السنوات الأخيرة واختفت وراء ستار الاستشراق ، ولذلك فبحر في أشد الحاجة إلى التنبيه والالتفات إلى الفوارق التي يجب أن تكون واضحة في تقدير الباحثين المسلمين لكتابات المستشرقين والمنصفين منهم وهم قلة قليلة - وبين المبشرين الذين لبسوا ملابس الاستشراق . وما يذكر في هذا الصدد عن المستشرق ماسينيون الذي كان قابلاً في عمله لوزارات الاستعمار قد عاد في السنوات الأخيرة من عمره فعمل جهده في معسكر المبشرين معتمداً على اسمه اللامع المحاط بقدر كبير من سمعة العلماء . وقد تبلورت في السنوات الأخيرة مراكز العمل بين التبشير والاستشراق ، فالأول قد ركز في مجال التعليم المدرسي والجامعات والهيئات الإرسالية المختلفة وأهمها دور الحضارة ورباطي الأطفال والمراحل الابتدائية بحسبانها المجال الأسهل والأقدر على صياغة الأطفال المسلمين صياغة تجعلهم مرتين في حياتهم الجامعية وفي تقبل آراء التغريب والدموية وتقبل النفوذ الاستعماري على أنه حضارة ، وتقدير فضل الغرب بمدى الأمم والشعوب وصاحب الحضارة والتمتصاته ووطنه ودينه بحسبان أن بلاده المتأخرة إنما يرجع تأخرها إلى دينها وثقافتها القديمة . هذا هو ما تريد أن تركز عليه المعاهد والجامعات والمدارس التابعة للنفوذ الأجنبي وإرساليات التبشير ، وهي دهن خطيرة يجب أن يكشف عنها في التعريف بالفارق البعيد بين الحضارة والاستعمار ، وقد حرص التبشير في مخططاته المدروسة على تلقف الأطفال قبل أن تتكون فيهم مفاهيم الإسلام بحكم البيئة الطبيعية الإسلامية . وبينما حمل التبشير في مجال التعليم والمستشفيات والملاجئ والجمعيات الأدبية وجامعات الشباب عمل الاستشراق في مجال البحث باسم المنهج العلمي ، وقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال وكرسى التدريس في الجامعة والمشاركة في المؤتمرات العلمية العامة . ومن هنا يقع التلاق والتسيق بين العاملين في دور العلم والصحافة بين الدعوة الصريحة في التبشير وبين الدعوة المستورة في الصحافة والكتاب والدراسات ذات الطابع العلمي ، وهكذا يشترك التبشير والاستشراق في العمل من خلال أم الجوانب التوجيهية الهامة في التعليم والثقافة بوسائلها المختلفة . ولم يعد عمل التبشير واضحا صريحا اليوم . بعد أن تكونت الأجيال الأولى الذي عملت ومهدت طريق المسرح والقصة والسينما فأمكن عن طريقها اليوم تقديم الآراء ووجهات النظر التغريبية في لباقة ومرورة من خلال هذه النصوص سواء من حيث دعم المفاهيم الغربية أو تحطيم المفاهيم العربية الإسلامية ، وما تزال المجلات والأفلام السينمائية ترد إلى العالم الإسلامي من مختلف دول العالم باسم التبادل الثقافي . وهذه الدول ذات المصالح الاستعمارية في العالم الإسلامي لا تقدم إلا أنواعاً معينة من هذه الأفلام والكتب والقصص التي كتبت خصيصاً لتنفذ إلى أعماق النفس العربية والإسلامية لترويج هذه المفاهيم . حتى تصبح حقائق موحى بها تصل إلى مرحلة الافتتاح بتوالي ترديدها ، وقد وصل الدكتور محمد البهي

في بحثه إلى أن التبشير والاستشراق كلاهما دعاة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي وفكلامهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القرآن بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية والتشديد بحالة الشعوب الإسلامية المحاطة والازدراء بها في المجالات الدولية العالمية . ولما كان الاستشراق معنياً بالتراث القديم فهو يستطيع أن يخدم التبشير حين يولى اهتماماً كبيراً إلى شخصيات مضطربة في الفكر الإسلامي أمثال الحلاج المهروردي وأبونواس وبهار وإعلائها . وكذلك اهتمامه بكتاب الأغاني وألف ليلة وشعر حر الخيام (وهو في الحق منسوب إليه) وذلك بالإضافة إلى ما يستطيع أن يحصل عليه من الروايات الغامضة أو المضطربة زوراً وبهتاناً التي يتصيدا من كتب المحاضرات التي كانت جماع ما يرويه القصاصون في عصور الاضطراب والضعف وتقديم هذا كله على أنه حقائق علمية يمكن استغلالها كأسلحة لإثارة الشبهات حول حقائق الإسلام والفكر الإسلامي . والمعروف أن التبشير والاستشراق لهما معاً بعد الحروب الصليبية في حضارة الكنيسة وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن إلى لغات أوروبا للرد عليه وإثارة الشبهات حوله بما يصل إلى أن يكون أداة طيعة في يد المبشرين الذين انبثوا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يجادلون المسلمين . وإذا كان لنا أن نأخذ برأى واحد من أتباع المبشرين هو فارس الشدياق فلربما استطعنا إلقاء الضوء على حياتهم العلمية . يقول في كتابه (ذيل القاريق ص ٢) . إن هؤلاء الأساتيد لم يأخذوا العلم من شيوخه وإنما تطفلوا عليه تطفلاً وتوثبوا توثباً ، ومن تخرج فيه بشيء فإنما تفرج على القسس ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو مجهل ، وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها يخطب فيها يخطب عشواء فاشتبه عليه منها رفعه من عنده بما شاء ، وما كان بين القصة والتبين حدس فيه فرجح منه المرجوح وغفل المفضل . وهكذا نرى فساد عمل الأساتيد الذين يعمل عليهم كثير من باحثينا وأساتذة الجامعات عندنا ، حتى أنهم يأخذون آرائهم حقائق مقررة ويرددونها كالببغاوات . وقد أكد الدارسون المنصفون أن أعمال البعثات التي قام بها المستشرقون إلى بلاد الشرق والعالم الإسلامي لم تكن بمئات علمية خالصة وإن قامت باسم العلم وحملت أسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وإنما هي بعثات سياسية ذهب محصولها إلى وزارة المستعمرات ، ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التي وردت إلى العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى والتي ساحت في صحراء سيناء وجزيرة العرب وكيف أنها كانت في الحقيقة بعثات سياسية حربية أرادت أن تكشف عن الطرق والمياه والسكك الحديدية ومواقع الجيوش وتحركات العدو ، وقد جاء الجاسوس (لورنس) على هيئة عالم مستشرق ، ثم تبين من بعد من هو لورنس الذي قاد العرب في قتال الترك شركائهم في الإسلام ، ثم تبين كيف خدم الاستعمار العرب بعد أن حاربوا الترك واستولى على أرضهم التي وهدم بأن يحقق لهم فيها قيام دولة عربية . من طريق الاستشراق ظهرت مختلف النظريات التي استخدمها التبشير والتفريب والاستعمار في توهين القيم الإسلامية وفتيت الشعوب العربية الإسلامية ، فمن طريق الاستشراق ظهرت نظريات السامية والآرية من ناحية والفرعونية والفينيقية والبربرية من ناحية أخرى ، وقد كانت مؤثرات الاستشراق ولا تزال لا يدعى إليها في الأغلب إلا أصحاب الولاء الواضح

لنفوذ الاستعماري والتبشير . وقد وجد في الأروام المتقدمة من كان يقف في مؤتمرات المستشرقين فيرد عليهم ويكشف اتهاماتهم ويصحح أخطائهم أمثال عبد العزيز جاويز وأحمد زكي باشا ، أما الآن فإن الأعلام الذين يحضرونها فإنما هم من يرددون ما قاله المبشرون والمستشرقون جميعاً لأنهم من تلاميذهم وأتباعهم .

(٢) الاستشراق في خدمة التبشير : إن أبسط تصوير للاستشراق وأعمقه هو أنه استخدام العلم في خدمة السياسة . ولقد يتحدث الكتاب ببساطة عن الدور الذي حققه الاستشراق في التراث العربي والإسلامي ، ونحن نقول إن مصدر اهتمام المستشرقين بالشرق والإسلام ووضع الدراسات المختلفة إنما يرجع إلى أن العالم الإسلامي واقع في قبضة استعمارهم ، فهم يدرسون تاريخه وأدبه ليدرخوا نفسية هذه الأمم ليكيفوا موقفهم معها ويعرفون من أي جهة يستطيعون إخضاعها وما هي جوانب الضعف فيها للاستفاح بها وما هي جوانب القوة للقضاء عليها وذلك بقصد أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم في كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الإسلام واللغة العربية والثقافة والتاريخ في قفص الاتهام وحلوا على أن نقف موقف الدفاع ورد المهاد : ومن أجل هذا الهدف يركز الاستشراق في جوانب معينة فهم يركزون على التصوف الفلسفي وأعلامه وإذاعة آرائهم وآثارهم وذلك غرض خبيث ولا شك فقد وصل الفكر الإسلامي إلى تصفية مثل هذه الموجات التي مرت بالعالم الإسلامي نتيجة اتصاله بالفكر اليوناني والفارسي والهندي منذ وقت طويل ، وللإسلام مفهومه الأصيل في التصوف ، فحالة الاستشراق لبعث لون معين واحد هو اللون المشبوه المتصل بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود أمر لا يقره الإسلام أصلاً وإنما يكشف عن الغرض الخبيث . ويبدو هذا الاتجاه من الاستشراق في الاهتمام بشخصيات بعينها في تاريخ الإسلام والأدب العربي : كالاتهام بالحلاج في التصوف وأبر نواس في الأدب (اهتم لويس ماسينيون بدراسة موسعة للحلاج واهتم بلاشير بدراسة المتنبي) . وفي نفس الوقت تساق إليهم وأعمال الانتقاص إلى الشخصيات الأصلية التي أضافت إلى الفكر الإسلامي إضافات هامة ولها مكانها الأصيل : كالحلة الموجهة إلى ابن خلدون والمتنبي والغزالي . وقد أصدر أولياء الاستشراق والتبشير من الكتابين باللغة العربية دراسات في هذا الصدد جروا فيها وراء أهداف الاستعمار والتغريب ، وهناك ثلاث رسائل معروفة : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لعل حسين ، ومع المتنبي لعل حسين ، والأخلاق عند الغزالي لوكي مبارك . وهي في مجموعها تريد للانهامات والشبهات التي أثارها المستشرقون والمبشرون وهناك محاولة دائمة لتصوير الفكر الإسلامي بأنه واجه الاضطهاد وحيل بينه وبين الحرية وأن هناك دأباً ، استشهدوا في هذا الصدد ، وتلك محاولة باطلة لا أساس لها ، فإن الفكر الإسلامي ظل حراً قادراً على التعبير ، ما لم يصطدم المتكلمون باسمه صراحة بالحياة ، أو الانهام ، وإلا أهداه المسلمين ، وهم يقدمون دائماً في هذا السبيل : أسماء الحلاج والسهروردي . ومن الحق أن يقال إن الحلاج ظل ممتعاً بحريته في أن يقول ما يشاء إلى اليوم الذي ثبت فيه أن بينه وبين رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة ، عندئذ قتل لحياسته لا لحرية فكره ، وكذلك الأمر بالنسبة للسهروردي . فليس هناك في الحق قضية اضطهاد لحرية الفكر في الإسلام كما حاول الذين كتبوا عن الحلاج وغيره أن يشوهوا الحقيقة . ثم إن هناك محاولات تفريعية دائمة إلى تدمير أعلام الإسلام وإحياء خصومه

والمشوهين من أسماء أمثال بشار وابن الراوندي وأبونواس والونج والقرامطة . وقد ركز الاستغراق على الأفكار الدخيلة على الإسلام ومن ذلك اهتمامه بفكرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد . وفكرة وحدة الوجود معناها تأليه المخلوقات واعتبار الكون هو الله ، وهذا هو سر اهتمام المستشرقين والمبشرين بابن عربي والحلاج . أما مفهوم الإسلام فهو أن الموجود لثانان : واجب الوجود ويمكن الوجود . وواجب الوجود هو صالها الواحد الفرد الصمد ، ويمكن الوجود هو هذه الكائنات كلها التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة . أما أصحاب مذهب وحدة الوجود فيقولون : إن كلاهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله ، وقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد : أي حلول الخالق في المخلوق واستغراق المخلوق في الخالق والإسلام يعطيه كل منهما ولهذا أنكر الإسلام فكرة الحلول والاتحاد والتجسيد . ولا يتقبل الإسلام (وحدة الوجود) لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله الفلاسفة (لا موجود في الحقيقة إلا الله) وشتان بينهما وسياق كل منهما ينتهي إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج الأخرى والنصوف في مفهوم الإسلام يبدأ من القرآن والسنة وينتهي إليهما . وهكذا فإن فلسفة وحدة الوجود والحلول والاتحاد هي مفاهيم غير أصيلة في الفكر الإسلامي ومستمدة من فلسفات وافدة وعامية وجوسية ، وهذا هو ما يعجب المبشرين والمستشرقين في الصوفية ، وهو الذي يدعوهم إلى الاهتمام بها . وقد كانت المستشرقين جولات جريئة يهاجون فيها الإسلام واللغة العربية في مؤتمراتهم . وكانوا يهدون من أمثال عبد العزيز جويش وأحمد زكي باشا وغيرهم قوى عاتية تقف في وجههم وتكشف شباهم . ولا يزال نذكر ما وقع في مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ حين نهض مسيو فولار وتحدث عن اللغة العربية الفصحى وهون من شأنها . وأعلى شأن اللهجة الدارجة وقال : إنه لا يرى أن لغة القرآن هي أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضة للناسخة التي تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية وقال إذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصع فصاحة والأصح أصلا وتركيبا فعلينا أن نرجع بالبحث إلى المصور التي صيقت ظهور الإسلام . وقال إن القرآن مديج على طراز خاص من النثر . وقد رد عليه العلامة عبد العزيز جويش باللغة الإنكليزية ودحض شهادته وألقى بيانا مطولا عن اللغة العربية والقرآن وقال : ه أن لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح والأفصح فإن محمدا الحكم في اللغة تستوجب وجود ملكة اللغة راسخة في الحس عريقة في النفس وهو ما لا يؤتى بالكسب إلا بعد انقضاء السنين الطويلة . وقد اصطدم المفكرون المسلمون بالتشهير والاستغراق وقادته عندما رشع أحدهم وهو فنسنتك رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية ليكون عضوا في الجمع اللغوي في مصر وماجم هذا الإجراء : الدكتور حسين المرأوي وقدم صورة لآراء فنسنتك في رسول الله وكشف عن اتجاهه واتجاه زملائه في النيل من الإسلام . وقال إنه إذا أراد أن ينال من الإسلام أمرا فإنه يفرض فرضا ، ثم يبحث عن الآيات التي قد تتناسب مع هذا الرأي الذي يفرضه فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفها وأنكرها إنكارا حتى يخرج بالنتيجة التي تزرع الهك في فؤاد من يطالع على أقواله من غير تمحيص ، وقال إن هذه هي طريقة المبشرين التي يتبعونها عند بحثهم في الإسلام نفسه أو في حياة محمد ﷺ أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة في القرآن ، وهذه الطريقة لم يتدعها د فنسنتك ، بل هي طريقة قديمة في أقدم ما ورد في كتب المستشرقين والغرض منها ظاهر جلي

وهو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بحجج شبه منطقية يفهمون بها عقائد المسلمين ويقللون من تمسكهم بدينهم ، وهي إحدى الطرق التي وضعها رواد الاستعمار من زمن قديم ، وكانت إحدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لا يتفهم بها المسلمون ولا يفهمون لغة قرائهم . وفي تقرير لجنة العمل المغربي يقول المستشرق سيكارد : إن الإسلام في روحه الخاصة قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغائنا ونوعاتنا فن مصاحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا . وقد نقل التقرير فقرة من كتاب برنيو الذي يدرس لفريق من طلبة أوروبا اللغة العربية حيث يقول : « أريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالي الذين حولك . . إلى أن يقول : لا تنظن أني سأعذك لغة القرآن ، هذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهي (لا تينية) العربي ، وهي اللغة المستعملة في جنة محمد وسأحب إليك دراستها في المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحواراءين . ويقول الدكتور المراوي : ويتمثل لك نتيجة عمل المستشرقين جلياً في كل كتاب علمي أو عمري أو اجتماعي يكتب شيئاً عن الشرق وعن الإسلام فإنك ما تكاد تقرأ أي هذه الكتب حتى الأفريقية منها حتى ترى إجماعاً على الجهل بالإسلام أو إجماعاً على الطعن في النبي الكريم ، وقد أنتج ذلك أن بعض المتعلمين من المسلمين الذين لم يلحوا إلماً كافياً بدينهم أخذوا يتبعون خطأ المستشرقين وينفقون أثرهم بالطعن في نفس دينهم واختاروها لنا اسماً غريباً في هذه الحالة هو حرية الفكر والتجديد في الأدب العربي ومباحث الشعر الجاهلي إلى غير ذلك من التفنن في أنواع الجهالة المشعوذة بلباس سطحي من القيم لا تكاد تلمسه حتى يتمزق ويهتك سر لابس ، إنه قليل الثقة عالة في معلوماته عن دينه على جماعة المستشرقين ، . وضرب الدكتور المراوي مثلاً بما ورد في دائرة المعارف الإسلامية في مادتى إبراهيم والسكبة ، من شبهات ومغالطات . ودائرة المعارف الإسلامية : هي في ذاتها عمل من أعمال التبشير والاستشراق لوضع الشبهات المختلفة التي توصل إليها خصوم الإسلام في ثوب له مظهر علمي ، ولذلك فإن مراجعة مواد هذه الموسوعة يحتاج من الباحثين المسلمين إلى حذر شديد . وقد عرض كثير من الباحثين لأخطاء دائرة المعارف المتمدة ، وأشار العلامة فريد وجدي إلى سيطرة البدع الدخيلة على الإسلام على مواد هذه الدائرة باستفاضة مشيرة ، فقد أمعن مؤلفو الدائرة في تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررّة . وتورد هذه (البدع) على أنها من المعارف الإسلامية بينما يبرأ الإسلام منها ، وهو ما جاء إلا ليحاربها ، وقد اعتمد المبشرون في إبراد ذلك على كتب ليست علمية قاصدين التقوية بإدخال الأساطير والبدع إلى حقائق الشريعة كأنها كلها مواد الإسلام وقيمه . ومن أم الكتب المشبوهة التي اعتمدت عليها دائرة المعارف الإسلامية كتاب (شماكل المصريين المحدثين وعاداتهم) التي كتبه إدوارد وايم اين عام ١٨٢٥ عن المصريين ، وقد كان كاتبه من الخصوم القاصدين إلى تشويه الحقائق ، ثم جاء مبشرو دائرة المعارف فنقلوا عنه خرافاته كأنها حقائق مقررّة . وكأما (شماكل المصريين المحدثين وعاداتهم) يدرس الآن في بعض المعاهد والجامعات في العالم العربي . ألفه المستشرق المبشر (إدوارد وايم لين) الذي قدم مصر ١٨٢٥ بهدف واضح هو جمع عدد من الشبهات والصور المثيرة لصياغتها على نحو يوحى بأنها أخلاق المصريين ، وتحقيقاً لهذه الغاية المأكرة فقد أغنى حقيقته وسمى نفسه منصور أفندي وتوبا بزي الأتراك وادعى الإسلام ليتمكن من عادية المسلمين

في أسرار معتقداتهم (كما يقول) وجعل يغشى المساجد وحفلات الذكر وموالد الأولياء ويستمع إلى أحاديث المعجزات والخوارق حتى يتسنى له أن يكتب مؤلفه الذي اهتمت به دوائر الاستشراق في أوروبا وثاقفته وترجم إلى اللغات المختلفة في الشرق والغرب وأصبح بتوجيه الاستعمار والتبشير ونفوذهما مرجعاً شعبياً لمن يدرس العادات والتقاليد ، كما أصبح أحد المراجع الهامة التي اعتمد عليها مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية الذين كانوا ينقلون عنه هذه الحقائق على أنها حقائق . وكذلك فعل التبشير والتغريب بكتاني الأغاني وألف ليلة إذ جعلهما من المصادر العلمية التي يعتمد عليها ، ولا شك أن من أخطر أعمال التبشير هو وضع موسوعات كاملة أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من أن يجدوا فيها ما يريدون البحث عنه في سرعة وسعة ، فيلجأون إليها دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث عما يتضمنه من حقائق أو أباطيل وذلك اعتماداً على طبيعة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالكلمة المطبوعة ومن الاعتماد على شهرة الأسماء التي وضعت على صدر هذه الأبحاث ، ومن هذه المراجع المصهورة دائرة المعارف الإسلامية والمنجد والموسوعة العربية وبروكلمان وغيرها . ونظراً لتقصير المفكرين المسلمين في وضع مثل هذه الموسوعات فإن دائرة المعارف الإسلامية هذه تجد مكانها لدى الباحثين الذين لا يمتنعون إلى بعض التعليقات القصيرة والحوامش التي وضعها بعض ذوي الفيرة للكشف عن الهبات المدسوسة في تلك النصوص . والهدف الأكبر من مثل هذه الأعمال الفاسدة إلى تفويه الحقائق هو خلق شعور بالنقص وإحساس بالازدراء من شأنه أن يحيط على نفوس المسلمين والعرب . ويصدق في هذا قول الدكتور عرفان عبد الحميد من أن هدف الاستشراق هو خلق جيل ينتسك إرثات هذه الأمة ليصير إلى حيرة واضطراب فكري فيسهل عنده غزو المجتمع الإسلامي بالفر والمبادئ والمفاهيم والتصورات الغربية . وقد أشار مالك بن نبي إلى أنه في كل قضية أو مسألة أو معضلة تواجه المسلمين فإن الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح إجابات من محاولته المستمرة لتغير مجرى التفكير الإسلامي . ولقد ينوي هذا الاهد تمام الذي يوليه المستشرقون للتراث العربي الإسلامي إلى إنصافهم ، وقد يغيب عن بال هؤلاء أن مصدر اهتمام المستشرقين بالإسلام والشرق إنما ينصب أساساً على دراسة نفسية هذه الأمة للتعامل معها بما يحقق لهم هدفهم في إذلالها وتغيير مجرى تفكيرها بحيث تصبح مستسلمة خاضعة لهم . وقد أجمعت كتابات المستشرقين على أنهم لم يخلصوا بعد من نقصهم وأن عليهم لم يتحرروا من الهوى وقد سجل بونارد لويس وجب هذا المعنى حيث أشار ونارد إلى ظاهرة التعصب الديني الظاهرة في مؤلفاتهم وأشار جب إلى ظاهرة الأحكام المسبقة على الإسلام التي لا تزال تحكم هذه الأعمال بالرغم من محاولات التحرر منها ولا شك أن زعم المستشرقين بأن أبحاثهم قد أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمي ، هذا الوهم لا يثبت أبداً أمام الصور المشوهة والمعارات الحاقدة الدفينة التي تظهر هنا وهناك من وراء الوعى بالرغم من محاولة إخفاؤها . وبجمل القول أن آراء المستشرقين منحرفة وهي منصبية على القرآن والرسول والإسلام فالقرآن عندهم صورة من الكتب الأخرى وأن له لغة في مكة تختلف عن لغة المدينة والإسلام صورة مستفانة من الديانات اليهودية والمسيحية . وإن الرسول كان راهباً رومانياً غضب على البابوية وخرج

ها . وما تزال كتابات ورسوم دانت وفرجيل وفولتير وديدرو وهي من أوائل المكتبات المبعضة ،
ما تزال تؤثر في كتابات من تبعهم من أمثال لامنس ومرجايوت ولويس شيخو وسنوك وفنسك وقد
انتقلت آرائهم إلى طه حسين وعلى عبد الرازقي ومحمود عزمي وسلامة موسى وحسين فوزي وزكي نجيب
عمود ولويس عوض وتوفيق الحكيم .

الفصل الرابع

الدائرة المرننة والدائرة الصماء

إن هناك قوى ثلاث خطيرة تعمل في مجال الفكر الغربي واتقي ظلمها على الفكر الإسلامي والثقافة
العربية وهي :

[الصهيونية — التبشير — التغريب]

وجميعها قوى استعمارية فكرية تتغنى خلف الطامعين : النفوذ الغربي والصهيوني والشيوعي ولا بد
— إزاء ذلك — من اليقظة النامية في تقويم الآراء والمذاهب ، والدعوات التي توجه إلينا كإسهام ،
ولا بد أن يكون لدينا قاعدة عربية مستمدة من مقومات فكرنا وذاتنا وعقائدنا وشخصيتنا أساساً .
وعلياً أن لا نقف موقف المبهوتين أمام ضخامة الصحف أو جلالة الأسماء والألقاب ذات الشهرة المادية
فإن أغلب هذه الشهرة التي حصل عليها المفكرون إنما صنعت لهم صنفاً لإغراء الباطل بهم ، فيسقطوا
إلى آرائهم وكأنها حقائق صحيحة ، وعليها أن نلتصق بمفهوم فكرنا في هذا ولو أن كل كلام يؤخذ منه
ويترك إلا القرآن والسنة الصحيحة ، وقاعدة الحق الذي تقبله أن يطابق د التوحيد ، ومنهج القرآن وأن
نقره عقلياً ونثق ثقة كاملة بأن قائله ليس بمن ينطبق عليهم قانون د المرح والتعديل ، أي أن يكون
اسمه نقياً بعيداً عن شبهة الولاء الثقافي والتبشير أو الاستشراق أو الاستعمار وفي ضوء هذا علينا أن ننظر
في هذه الحقائق . (أولاً) أن اليقظة العربية الإسلامية قد طلعت برا كبرها في منتصف القرن الثامن
عشر (١٧٤٠ م تقريباً) بدعوة التوحيد التي قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ومن
هذه الدعوة انفجرت كل هذه الدعوات والحركات التي أتت والتي كانت استمداداً واستمراراً لمفهوم
اليقظة ، كانت الحركات السنوسية في طرابلس الغرب والمهدية في السودان امتداداً لها ، كما كانت حركة
جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من بعدها . وعندما جاء النفوذ الفرنسي إلى العالم الإسلامي واجهته
حركة اليقظة النامية التي بدأت تعمل في مجال مقاومته بالإضافة إلى عملها في مجال تحرير الفكر الإسلامي
ولإعادة تشكيله من جديد . وقد أزهج النفوذ الاستعماري ذلك الأسلوب العنيف الذي بدأ به د الجهاد
والمقاومة : فقد واجهه المسلمون المنزود في سنة ١٧٨٥ في مقاومة مرموقة كانت تستند مفهومها من

حركة التوحيد التي قادها محمد عبد الوهاب في الجزيرة العربية ، وفي مصر واجه الانجليز أحمد عرابي ، الذي تعلم في الأزهر ، وفي القرم واجه الاستعمار الروسي الذي هبط في الجزائر واجه الفرنسيون الأمير عبد القادر الجزائري وكان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده يؤلبون عليهم في كل مكان وحمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لمواجهة الخطر الزاحف واستجاب له المسلمون خارج الدولة العثمانية والسنيون في ليبيا والمهدى في السودان إلخ . هذا هو الخطر الذي واجهه النفوذ الاستعماري الزاحف ، ولذلك فإن العمل الأول الذي اتجه إليه هو خلق قوة تؤمن به ولا مانع أن تكون معارضة له شريطة أن تحمل لواء النفاذ معه . واستطاع كرومر في مصر خلال ربع قرن تنمية هذه الدائرة التي خدمت الناس وموت عليهم بأن اتباعها من تلاميذ جمال الدين ومحمد عبده ، فلما تمت هذه الدائرة الصماء واستحدثت قوى الاستعمار على الدائرة المراتبة الأصيلة وصفاها قبل الحرب العالمية الأولى وأفسح الطريق لدائرته الصماء لأن تتولى أمور الحكم وتتصدر . واعتقد أنه فعل مثل ذلك في كل أجزاء العالم الإسلامي وكان من نتيجته ظهور : رضا شاه ومصطفى كمال وأمان الله خان وسعد زغلول . وقد استطاع النفوذ الاستعماري بدعائه ومكره إسقاط الوهابية ١٨١٨ في الجزيرة العربية وإسقاط محمد علي في مصر ١٨٤٠ وإسقاط عبد الحميد في تركيا ١٩٠٩ .

وبذلك صنف كل القوى الشابة التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر ثم مهد لعملية أسكن إمامها من بعد وهي إلغاء الخلافة الإسلامية ١٩٢٤ وإقامة إسرائيل ١٩١٨ - ١٩٤٨ . (ثانياً) أن النفوذ الاستعماري لم يقبل أن تتحرك اليقظة من خلال هذه الدائرة وحدها وفرض دائرة أخرى استعدها من معاهد الرسائل الأجنبية التي تركزت في استانبول والقاهرة وبيروت . ومن هنا فقد ظهر جيل جديد من دائرة اليقظة ، وجيل مصارع من دائرة النفوذ الغربي . وقد أطلق على الجيل الأول اسم المحافظين ، وأطلق على الجيل الآخر دعاة الحضارة الغربية غير أن هذا الجيل الذي وصف بالحافظة لم يكن كذلك إلا بمعنى إقامة النهضة على قاعدة الفكر الإسلامي وقيمه الأساسية وإخضاع النقل والاقتباس من الحضارة والفكر الغربي لهذه القيم أما الجيل الذي ظهر في الدائرة الصماء (الغربية) فأبرز دعائه فرح أنطون وبعقوب صروف وشبلي شمسيل وجرجي زيدان وأديب اسحق من اللبنانيين . ولطفي السيد وسد زغلول من المصريين وظهر في دائرة اليقظة الإسلامية العربية : رشيد رضا والكواكبي ومصطفى الفلايبي وعلي يوسف وعبد العزيز جاويز ومصطفى كامل وطنطاوي وجوهري وفريد وجدي وقد تطعم هذا الجيل بعدد كبير من الباشا- ثين المسلمين الذين أحرزوا أرقى الدرجات العلمية في أوروبا من أمثال : فريد وجدي وعبد العزيز جاويز والدكتور يحيى المدريري والدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور مظهر والسيد محب الدين الخطيب والدكتور عبد الحميد سعيد فسكل هؤلاء تعلموا في الجامعات الحديثة .

أما في المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الأولى فقد ظهر في الدائرة الغربية : طه حسين وسلامة موسى ومحمود هزمو وإسماعيل مظهر وعلي عبد الرزاق وساطع المصري . وظهر في دائرة اليقظة العربية الإسلامية : مصطفى صادق الرافعي ومنصور فهمي والدكتور محمد حسين هيكل

وحساس العقاد ولطفي جمعه وشكيب أرسلان . (ثالثاً) إن مختلف النظريات والشبهات التي بردها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب قد أوردتها لورد كرومر في تقاريره السنوية التي كان يصدرها كل عام ويجهلها رسالته إلى الجبل الجديد من المثقفين الذين كان يقدم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني . وفي هذه التقارير سجل كرومر الخطوط العامة لتهديم كل عوامل الإيمان الوطني والاعتزاز العربي الاسلامي . وكان أول من ساق الاكذوبة الضخمة التي تقول إن المصريين كانوا خاضعين أكثر زمانهم فقد حكمتهم دول الفرس واليونان فالرومان فعرب جزيرة العرب وبغداد فالجراكسة فالترك آل عثمان . وهذا بالضبط الذي كتبه كرومر ١٩٠٦ رده الدكتور طه حسين عام ١٩٣٩ ومن قبله سلامة موسى ولطفي السيد . ولقد كان كرومر وطه حسين ولطفي السيد جميعاً يعلمون أن صلة المصريين بالعرب لم تكن صلة استعمار وأن الرابطة بين العرب والدولة العثمانية لم تكن احتلالاً . وخلق كرومر فرية تقول بأن مصر لم تبق جزءاً من آسيا أو من أفريقيا أو من الشرق وهو ما رده سلامة موسى من بعد . وتحدث كرومر عن الحكومة الاسلامية ووصفها بالحكومة الثيوقراطية وهي العبارة التي ما يزال يرددتها الشعوبيون ودعاة التغريب والمبشرون وكذلك فإن كرومر هو الذي شن الغارة على الجامعة الاسلامية ورمائها بعبارات الازدراء ، ونسب إليها التعصب . وقد أشار كرومر في هذا المجال إلى أن أوروبا ستحول بكل ماتملك دون وحدة المسلمين حين قال د إني واثق من قوة أوروبا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافى هذه الحركة من الجهة للمادية وإن تكن غير قادرة على ذلك من الوجهة الروحية (تقرير ١٩٠٩) . وفي تقارير كرومر : منهج كامل الحلة على الاسلام والتشريع الاسلامي وما تزال عبارات كرومر هي نفس العبارات التي ترددها حتى الآن كتابات المبشرين ودعاة الشعوبية والتغريب ، ومن ذلك قوله : « إن الجامعة الاسلامية تستلزم السعي في إصلاح أمر الاسلام على المنهج الاسلامي والسمي في القرن العشرين في إعادة مبادئه وضعت من ألف سنة صدى لميثمة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة هذه المبادئ مناقضة لآراء أهل البصر ، وقد رد الكثيرون من كتاب المسلمين على شبهات كرومر ودحضوا اتهاماته وكشفوا عن عالمية الشريعة الاسلامية وقدرتها الخارقة على منح الانسانية في كل عصر ومصر حاجتها وحل معضلاتها وقد شهدت بذلك مؤتمرات القانون والتشريع ، وعديد من أعلام الفكر العربي المنصفين وبالرغم من تحذيرات كرومر فإن الدعوة إلى الجامعة الاسلامية استمرت ولم تتوقف وأن الحركات الوطنية والقومية في العالم الاسلامي كله إنما هي مستمدة من مفهوم الوحدة الاسلامية . وفي تقارير كرومر توجهات إلى الجبل الذي أعده لتسلم مقاليد الحكم في البلاد وفي مقدمة الأذكياء الذين استجابوا إليه : لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهي وقد كانوا لمكان الصدارة عام ١٩٠٠ قبل أن يبارح كرومر مصر فتولى سعد زغلول وزارة المعارف وأصبح مشرفاً على شئون التربية والتعليم وتولى لطفى السيد قيادة الحركة الفكرية والصحفية رئيساً لتحرير « الجريدة » ، اسان « حزب الأمة » وهو صاحب الفلسفة الإقليمية الارستقراطية المخافية للعروبة والاسلام وقيم الفكر الاسلامي نفسه وهو يحدث هؤلاء الطاعين حين يقول : لا ريب أن أحداث المصريين يبدأون يصبحون للحصول على نصيب أعم في حكومة بلادهم وإدارتها ، إن صديق المصريين أصدق من أن أتعلمهم أو أشتمهم ولذلك

أسأل نفسي قائلاً : ما الذى يروق الأحداث المصريين، فهم يريدون أن يرتقوا إلى مناصب الحكومة العالمية التى يتقلدها الأوروبيون الآن وليس عندى كلمة ضد هذه الأمنية . ثم أشار توأ إلى ما أسماه أتباع الشيخ محمد عبده الذين يشبهون في آرائهم أحمد خان مؤسس مدرسة عليسكرة وقال عنهم لأنهم يرغبون في ترقية مصالح أبناء بلادهم وأبناء ماتهم . ولكنهم مجردون من صيغة الجامعة الإسلامية ، وهكذا حدد كرومر مفهوم مدرسته وهدفها حيث قال من بعد . وبينان مقاصدهم ومطالبهم لا يتضمن معارضة الأوروبيين في إدخال تمدن الغربيين إلى بلادهم بل معاونتهم في ذلك ولهذا حقق كرومر هدفه في بناء جيل على نفس المخطط الذى رسمه الاستعمار (رابعاً) حاول كثير من الكتاب أن يصف حزب الأمة الذى تصدره لطفى للسيد عام ١٩٠٧ بأنه حزب وطنى خالص الوطنى وأنه كان خصماً للاستعمار ولقد قدمنا في منصف كتبنا الدلائل بعد الدليل على أن كرومر هو منشئ هذا الحزب ومخطط فلسفة أستاذ الجيل وأن سعد زغلول هو أبرز تلاميذ هذه المدرسة . ونورد هنا عبارة اللورد لويد في هذا الصدد من كتابه (مضر منذ عهد كرومر) الذى صدر عام ١٩٣٣ وترجمته الصحف المصرية ونشرت فصولاً منه يقول اللورد : كان كرومر يعمل على إيجاد خطة تكون الغاية فيها في رأيه إيجاد حقبة أو حائل دون حملة الحزب الوطنى وكان يعرف أن في مصر عدداً كبيراً من المعتدلين ذوى النفوذ والمكانة الذين كانوا أوسع مدارك وأبعد نظراً وكانوا يريدون تحقيق الرقى جذرياً بالوسائل الدستورية وكان كرومر يسعى بينهم لكي يؤلف منهم هيئة تنشر آرائهم . وكان من نتائج ذلك أن ألف حزب الأمة في أكتوبر ١٩٠٧ وصدرت جريدته الجريدة وكان أحد أعضاء هذا الحزب الذى ينهى عن مستقبل عظيم ذلك الرجل الذى أصبح اسمه أعظم الأسماء في تاريخ مصر الحديث وهو سعد زغلول . وكان قد اشتغل بالمحاماة وتولى قضايا الأميرة نازلى وكانت هذه السيدة هى التى شجعتة على تعلم اللغة الفرنسية التى لولاها لما اشتغل بالسياسة وكانت خطواته الثانية زواجه بابنة رئيس الوزراء صديق كرومر فهمى باشا . وكان إذن متصلاً اتصالات حسنة من هذه الناحية وكان قد انبرى بصفات تميزه من ناحية الاعتدال والهدوء وكان إذن من الطبيعي أن يعتمد كرومر وهو مقتنع بضرورة تسخير الآراء المعتدلة تم لسروره بأن يؤدى لصديقه مصطفى فهمى باشا معروفاً بترقية سعد زغلول فيجعله وزيراً لوزارة المعارف الجديدة وكان هذا العمل افتتاحاً لخطة جديدة غايتها تقوية الرابطة بين مصر وإنجلترا .

الباب الرابع

التبشير وآثاره في بناء الفكر والثقافة

- الفصل الأول : التعليم في أحضان التبشير .
الفصل الثاني : الشبهات التي أثارها التبشير .
الفصل الثالث : التبشير والفكر الإسلامى .
الفصل الرابع : التبشير واللغة العربية .
الفصل الخامس : أثر التبشير في الثقافة العربية والتراث .
الفصل السادس : التبشير والأدب العربى .
الفصل السابع : التبشير وتاريخ الاسلام .
الفصل الثامن : التبشير والوحدة الاسلاميه .

الفصل الأول

التعليم في أحضان التبشير

انخذ التبشير من التعليم أكبر أهدافه وأبعدها مرمى وأعظمها أثراً في تشكيل أجيال المسلمين والعرب الجديدة على النحو الذى يتضمن له استقلالهم لنفوذهم وتقبلهم واعتناقهم لمفاهيمه وقيمه وإذا كان التبشير بوصفه أداة الاستعمار الأولى والكبرى قد عمل في ميادين الثقافة واللغة والتأليف والصحافة فإن مكانة الأول هو التعليم على حد قول عميد المبشرين : (المبشر الأول هو المدرسة) . وقد سجل دعاة التبشير هذه الحقيقة في كثير من نصوصهم ومؤلفاتهم . ففي المؤتمر التبشيرى العام الذى عقد عام ١٩٢٤ حسبا تسجل محاضره المنشورة بوجه العمل إلى الأطفال : « في كل حق من حقوق العمل يجب أن يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فيما بين المسلمين باعتبارهم البذرة الجديدة الهادفة القطوف ليحيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب أن يقدم هذا على كل عمل سواء في الأقطار الاسلامية . فإن تنور روح الاسلام في الناضج الحديث تبتدىء باكراً من عمره ، فيجب والحالة هذه أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين إلى (الرسائل) قبل أن يتكامل نمو عقليتهم وأخلاقيهم على القوالب الاسلامية فتفسد عقليتهم وأخلاقيهم حينئذ تستعصى على المبشر . ومن الأدلة والبراهين الجديدة التي تؤيد هذه الحقيقة ما تقرروا وسجل في سجلات بعثات التبشير في الجزائر وفي شمال إفريقيا ويمكن أن يكون من القضايا المسلمة أن الجرى على قاعدة للعمل في النشء الصغير من المسلمين هو أفضل الأعمال وأعودها بالخير وحسن الثمار . وتقول المبشرة أنا مليجان : ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة ، فإن المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير (الغرب والمسيحية) ، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة أوطانهم ،

وهذا هو الهدف في الحقيقة : السيطرة على الجيل الجديد منذ مطالعته لإعداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مكان القيادة السياسية والاجتماعية والثقافية في وطنه أن يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والإعجاب والتقدير للذين طلبوه ولشئوه . ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتثقيف أبناء الأمراء والعظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم إلى التعليم في المعاهد الأجنبية وذلك لحاق هذه الطبقة وإعدادها وقد كان بإغراؤهم هجيباً لسكثهم من أصحاب ، المرا كوالعالية - حتى بعض كبار المسؤولين في مجال الاسلام - على تعليم أبنائهم وبناتهم وقد أشارت تقاريرهم إلى ذلك بما أسسته نزوع الطبقة الراقية إلى للدارس الأجنبية ، وقد أكد المراقبون للنتائج الخطيرة التي حققها التعليم التبشيري في تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الاوطان الاسلامية وما حققه من حل كثير من المشاكل ، وأهمها المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب العالم العربي ، وليس أدل على أهمية ذلك من أن الذين حلوا لواء التبشير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وحملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوروبية من تقسيم الفريسة فيما بينها كانوا من الذين تعلموا في معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الأجنبي في مصر وكافوا على إخلاص لكرور والاستعمار وهم أصحاب الصحف الكبرى في مصر (للمقطم والحلال والأمرام) إنما كانوا من هؤلاء ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان ، ومنهم من عاود الدعوة عام ١٩٤٥ إلى أن تكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى ومنهم الدعاة إلى الغامية والحروف اللاتينية وكل الدعوات التي تعمل على تعميق الاقليمية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب والاسلام بعد أن تحقق إيقاع الخلاف بين العرب والترك وترجع أهمية مدارس الارساليات التبشيرية والمعاهد الأجنبية إلى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة كليات ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل في أبواب الاخلاق وبعضها علماني محض ينظر إلى الاديان والاخلاق والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة احتقار وتشكيك ويتناوله تناول للنقد المشوب بروح الازدراء . والمعروف أن المعاهد الفرنسية تعلم منهجاً فلسفياً استعماريّاً في كل شيء ، يعرف فيه الطلبة جغرافية فرنسا وتاريخ فرنسا والسكث التي تدرس هي كتب فرنسا ولا يعرفون في نفس الوقت أي شيء عن وطنهم العربي أو عالمهم الاسلامي والمعاهد التابعة لبريطانيا تفعل نفس الشيء وكذلك المعاهد التابعة لأمريكا وقد فرضت أغلب هذه المعاهد على الطلبة المسلمين الالتزام بتقاليدها الخاصة وأرغمتهم على حضور الصلوات يومياً في الكنيسة . ولما احتج الطلبة أصدرت إحدى الجامعات سنة ١٩٠٩ منشوراً قالت فيه : إن هذه السكثية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي ثم اشتروا الأرض ، وأقاموا الابنية وأنشأوا المستشفي وجهازه ولا يمكن المؤسسة أن تستمر إذا لم يستندوا هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليجدوا تعليمًا يكون الانجيل من مادته فتعرض منافع المسيحية وعلى كل تلميذ وكل طالب بدخ مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه ، إن السكثية لم تؤسس لتعليم علماني ولا لبشر الاخلاق الحميدة ولكن من أول غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة وأن تكون مركزاً للنور المسيحي والتأثير المسيحي وأن تخرج بذلك على الناس ونوصيهم به

وفي هذا القدر كفاية عن أهداف التعليم التبشيري ، وفضلا عن ذلك فقد أشارت تقارير المبشرين المختلفة إلى أن التعليم التبشيري ما زال أفضل طريقة للوصول إلى عقول المسلمين وأن الحاجة إلى توسيع هذا التعليم وزيادة نشره تزايد وتعمق يوما فيوما من كل جهة . ويكاد يكون هناك إجماع بين المفكرين المسلمين والعرب ، وبين دعاة التبشير وكتاب الغرب من ناحية أخرى وبين خريجي هذه المعاهد من ناحية ثالثة على هذا الهدف الواضح الصريح وهو تحويل المسلمين والعرب عن قيمهم ودينهم وتاريخهم وأخلاقهم . (١) أما المفكرون والمسلمون العرب فإنهم يعتقدون أن أول هم للبشر هو هدم الاعتقاد في تليده فيصبح الطالب مستخفا بالمعتقدات . أما الخطوة الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في أرض لم تعد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي إلى أشد النتائج إقظاعة ، وهو حرض المبشرين للطلبة على المراماة فالسلوك (المصري الغربي المسيحي) هو مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمييز الطريق للراغب في النجاح المدرسي . هذا ما سجله أحد خريجي هذه المعاهد إذ قال : إن قولي ذات مرة إن لا أوافق على هذه الأخلاق في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحنى على القسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة . وقد أشار ساطع المصري إلى تصريح المارشال ليونق مؤسس الامبراطورية الفرنسية في إفريقيا الشمالية في خطبته عن اختياره عضوا في الأكاديمية الفرنسية الذي قال فيه : أعترف بأن فرنسا قد استفادت من مدارس المستعمرات استفادة كبيرة ، فإن أبناء المستعمرات الذين جندوا في الحرب العالمية قد وفروا على فرنسا بما قدموه من تضحيات بأرواحهم ملايين من الأنفس الفرنسية . ويصور جبران خليل جبران أثر مدارس الإرساليات التبشيرية في نفسه وفي جيله فيقول : في سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدفة وقد كنا ولم نزل نلهم (خبر الصدفة) لأننا جميع متضورون ولقد أحيانا ذلك الحب ولما أحيانا أمانا أحيانا لأنه أيقظ (بعض) مداركنا وبه عقولنا (قليلا) وأماننا بأن فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا بمجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأفراق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في جبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي يتناول لقمة العلم من مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذي تجرع رشقة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا ، إلى آخر ما هنالك من المدارس وما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أمريكا أو انكلترا وصية على بلادهم ، والذين درسوا بالفرنسية يطلبون فرنسا تتولأ أعزهم ، وقد يكون ميلنا إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجليل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ، ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ، ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهرأ . ومفكر آخر لعلم في الإرساليات التبشيرية هو ميخائيل نعيمة : يقول رأيه : فإذا يقول : ولقد عرفت سوريا غرافة كثيرين فلم يكن من شانها عليها دعي الخدعة أن يزعم أنورة فوق قوتها ، إلا أنهم

منذ أواسط القرن الماضي اتخذت مهدياً لغزاة ما عرفت مثلام من قبل ، غزاة جاءوها لا ليأسكوا جسمها بل يقبضوا روحها ، فقد شنوا عليها الغارة بالتوراة والإنجيل والريالات والعقائد ، فكانوا أشد قسوة عليها من كل من سبقهم ، افتتح هؤلاء سوريا باسم الدين ، كان على المبشرين أن يزينوا مدينتهم للسوريين كما لو أنها صفوة السكّال ، علموهم على احتقار مدينتهم واحتقار أنفسهم ، ومن ثم فقد صورهم الغرباء الذين أرسلوهم في حالة تقارب الحمجية فسلّهم جاهل ونصرائهم وثني وكلهم ككذبة ضد المدنية . . . أما الغربيون فقد كشفوا عن هدفهم واضحاً : قال السكّاب الفرنسي إبتين لامي : « إن مقاومة الإسلام بالقوة تزيد انتشاراً ، أما الوسيلة الفعالة لهدمه وتقويض دعاته فهي تربية دينية في المدارس التبشيرية أو المسيحية ونفث جرائم الإلحاد في صدورهم منذ نشأتهم من حيث لا يشعرون ، فإن لم ينتصروا فقد أصبحوا لا مسلمين ولا مسيحيين ، . والمستغرق ماملتون جب يكشف في جلاء ووضوح عن أهمية التعليم في خطة نفيرب المسلمين والعرب في كتابه (وجهة الإسلام) فيقول : التعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب ، والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقدار دراسته للفكر الغربي وللبداءة والنظم الغربية . إن انتشار التعليم (الغربي) سيحدث بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتمميجه ولا سيما لاقتراحه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريق . وقد ذكر الدكتور زويمر كبير المبشرين في العالم الإسلامي أهمية ما قام به الاستعمار من إخراج القرآن وتاريخ الإسلام من برامج التعليم مما أخرج ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية ناشئة مضطربة مادية الأهراس لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة ، وقد علق الدكتور واطسون على هذا التصريح بعد أكثر من عشر سنين فقال : « لأننا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية ونجد فيه الخطر الدائم : ذلك أن القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخضعهما سياسة التبهير . (٣) أما خريجي هذه المعاهد فإن أكبر حدث في هذا المجال هو موقف عبد القادر الحسيني الذي كان طالباً بإحدى هذه المعاهد وتخرج منها . فقد وقف في يوم الاحتمال بتخرج زملائه وتخرجيه ، وفي يده الشهادة التي أحرزها ، وقال إن لديه كلمة يريد أن يقولها إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس في مظهر المدرسة العلمية ولكنها في الحقيقة بؤرة لإفساد العقائد الدينية وهي تظمن في الإسلام ، ولذلك لا يصح للمسلمين أن يبقوا أولادهم فيها ، وكشف عن عدد من المكاتب المقررة التي تمس النبي والإسلام . وقال مدير السكّية إن هذه المكاتب ليست مقررة على الطلبة وإنما هي من بين أربعة عشر ألف كتاب في مكتبة الجامعة ، وبمضاهيها يشتمل على الطعن في الدين المسيحي وقد نشرت الصحف في هذه الفترة فقرات من هذه المكاتب ونصوصاً تثبت صدق ما قاله عبد القادر الحسيني . وأشار الدكتور عمر فروع في كتابه التبشير والاستعمار إلى الموضوحات التي تدرس في بعض معاهد الإرساليات ومنها ما يأتي : (٩) نصاري لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية . (٢) يقول آرنست رنهان : إن الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وقاله الويل للتلميذ الذي ينتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً ، أما كلمة الإسلام وحدها فقد تفسح للطالب المجال ليحرب حظه مرة أخرى في دورة تالية . .

(٢) التعليم التبشيري والمرأة المسلمة

لم يقف أمر التبشير عند الإرساليات والتعليم الأجنبي وحسب ولكنه سيظهر أيضاً بغاياته ومفاهيمه على التعليم الحكومي وغزا وزارات التعليم والمعارف في العالم الإسلامي كله حيث فرض على هذه الوزارات عدداً من المبشرين ، وفي مصر أولى الاستعمار اهتماماً كبيراً بالغزو التبشيري للتعليم فكانت خطط كرومر التي نفذها المبشر دنلوب ودعها رجلمان من تلاميذ المدرسة العربية هما اطلق السيد في الجريدة وسعد زغلول وزير المعارف . وقد استهدفت خطة كرومر التي نفذها دنلوب ومن بعده : د عزل مصر عن الأمة العربية وعن العالم الإسلامي وعن جذور الفكر الإسلامي المستمد من القرآن ، وقد جرى بالقس دنلوب من مدارس إرساليات التبشير الإنجيلية إلى وزارة المعارف المصرية وسرعان ما أصبح مستشارها النافذ الرأي وقد عرف عنه أنه كان إذا رأى الرأي الذي يحقق غرضه دعا إليه موظفاً مصرياً من موظفي وزارة المعارف فذاكره فيه واستدرجه لاستحسانه ، ومن خلق الموظف أن يستحسن ما يستحسنه رئيسه ، ولو لم يكن مقتنعاً به ، فإذا أعرب لدنلوب عن استحسانه ذلك الرأي اقترح عليه أن يكتب له فيه تقريراً ثم يعرض التقرير على الجهات المختصة مع التوصية بترويجه ، ثم يقال : إن الموظف المصري فلاناً هو مقترح هذا الرأي ويكافئ (خيال الظل) على الدور الذي مثله بترويجه إلى درجة أعلا . وهكذا وضعت مناهج التعليم المصري بكل درجاته وهكذا رسمت طرائق تكوين النشء في المدارس المصرية وبهذه الطريقة رسمت في وزارة المعارف المبادئ التي نفذوها ، ومنها جعل التعليم الديني صورة بنهر روح وتجهيد المدارس من التربية الإسلامية ومن تربية الرجولة ، واعتبار الإسلام احتلالاً وترديد أحاديث في بعض كتب الدراسة منها أن مصر احتلتها الفرنج ثم البطالسة ثم العرب . وتجاهل الروابط الحقيقية في الجنس واللغة وذلك جرياً على خطة دنلوب التي ترمى إلى قطع أواصر مصر بكل من يرتبط معها في اللغة أو الدين إضعافاً لها وإيهاماً لابنائها بأنهم منفردون ولا علاقة لهم بالاقطار الأخرى ، وكثير من الكتب التي كانت تدرس كانت تورد اسم العرب والإسلام في سلسلة الأمم المحتلة لمصر ولا تذكر من علاقات مصر بجاراتها قبل الإسلام وبعد الإسلام إلا الحروب إيهاماً بأن هذه الهموم والاقطار كانت أعداء لمصر ولم يكونوا وإيهاها في كيان واحد . . وقد أشار الدكتور هيكل إلى دور وزارة المعارف وهدفها الحقيقي فقال : إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى أن يتاح لها النصر السياسي إلى السياسة التي كانت تخضع لها أيام أن كان (دنلوب) مستشاراً لها مع فوارق عدد المدارس وعدد الأساتذة ، إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية والحضارة الغربية في روحها والحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون ، هذه الحضارة استعمارية عدوة للعلم على خطه مستقيم ، وهي كذلك حيثما حاربت العلم وحاربت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود هيمنة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار ، أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خبرة للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية ، وكذلك وضعت يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المفومات النفسية والخلقية والقرومية

مكتفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج إليها أداة الحكم : لاشك تعطى هذه النظرة من أحمد
أساطين التغريب ورأس مدرسة السياسة التي خدمت طوال (١٩٢٢-١٩٣٢) طه حسين وعلى عبدالرازق
وعمود عزمي ودعمت مخططاً بالغ الخطورة في طريق حرب الأمة ثمرة النفوذ الاستعماري والتبشيري
والتغربي التي رسمها لطفي السيد سنة ١٩٠٧ في الجريدة ونفذها سعد زغلول في وزارة المعارف بالاشتراك
مع دنلوب والتي طبقت تطبيقاً حاسماً مخطط اللورد كرومر في السيطرة الفكرية والثقافية على العالم
الاسلامي كل عن طريق مصر ومخافتها ، هذه النظرة لم تنفجر في نفس الدكتور هيكل إلا من خلال
عاصفة التبشير المكشوف العاتية التي مرت على مصر عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ حولت اتجاهه تحويلاً
ضخماً إلى مقاومة التبشير بالقياس الحضارة الاسلامية وسيرة الرسول على النحو الذي أشار إليه حين
قال : لقد استطاعت السياسة في هذه المرحلة أن تكشف دور التبشير في خدمة الاستعمار في ظل تحدى
سياسي هو خصومتها للحكومة صدق باشا التي تحالفت حزب الاحرار الدستوريين أول الامر ثم تخطت عنه
ومن هنا خرج الدكتور على مفاهيمه للقديمة كلها وتححرر منها ، غير أنه يمكن أن يقال - مع الأسف -
أنه حين تولى وزارة المعارف بعد ذلك بسنوات قليلة صدق حدسه في أنه لم يستطع أن يحررها من نفوذ
دنلوب ، هذا النفوذ العميق البالغ الخطر بعد أن ترك دنلوب وزارة المعارف عام ١٩١٧ . ومن الحق
أن يقال إن حملة التبشير قد كشفت آمال الاجيال في العالم الاسلامي كله عن حقيقة واقعة هي أن التبشير
قد تخفى وغير جلده ونحوط من أن يكون هدفاً مكشوفاً سرعان ما يهاجم أو يعطى ، بأن غير أساسيه
لجعلها مرة بارعة دقيقة ودخل بها إلى مجال الجامعات والمعاهد والمدارس (الاجنبية) وتلك التي توضع
لمناهجها وأساسيه ، وأنه اتخذ مجال الثقافة والمناهج عاملاً هاماً وخطيراً في سبيل تحقيق غايته - التي
لم تكن بمفهوم التبشير لنفس التبشير ، ولكنها التبشير للتغريب ، وإخراج المسلمين من قيمهم
ومفاهيمهم وخاصة في أمرين : للقضاء على الرابطة الاسلامية التي تجمعهم وأن يكون الاسلام
دين عبادة ولاهوت وليس دين مجتمع ومنهج حياة صالح للتطبيق . وقد استطاعت مناهجهم في الجامعات
والمعاهد والمدارس أن تحقق ذلك الهدف : هدف إفساد مفهوم الاسلام والعروة والقرآن ومحو التاريخ
العربي الاسلامي وإقامة مفاهيم أخرى ، وقد استخدم التعليم ، كسلاح غاية في القوة والنفوذ في
سبيل تغيير النفس المسلمة والعقل المسلم وخلق قيم جديدة تجعل من المسلمين اقباهاً للثقافة الغربية وأولياء
لها . وكذلك استطاع الاستعمار أن يحقق هدفاً من أكبر أهدافه وهو اتخاذ العلم وسيلة إلى استعباد
الافراد والامم وخلق طابع الاستكانة والاستسلام مع القبول لسلطان العرب وحضارته ونفوذه -
وفي هذا يقول المبشر الأشهر : دجيب ، إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، إن المدارس قوة
تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم الغربي المسيحي ، أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر
حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة لأوطانهم . ومن توجيهات قوله إن : جون موت ،
للمدارس الاجنبية رسالة ولرسالتها غاية قصوى هي أن تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب
وأوروبا والكنيسة . . وعن طريق المناهج التي تدريس في هذه المعاهد تتحقق العقيدة التي تتكون في نفس
الطالب .

أولاً : عندما تعرض الأديان بمرض الإسلام عرض عداء وخصومة . ثانياً : الدس على الإسلام وتاريخ الإسلام . ثالثاً : النهضة في العالم العربي تنصب إلى الإرساليات . رابعاً : ليس هناك وحدة بين هذه الأقطار ولكل منها جذوره الإقليمية . خامساً : هذه البلاد كانت محتلة بالرومان والفرس ويعتبر العرب والأتراك من قوى الاحتلال وتحمل هذه الدراسات في ثناياها محاولة لإيقاع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين والسنة والشيعة ، والعرب والترك والفرس وذلك بإثارة مرافق الخلاف القديمة بينهم وتحاول هذه الدراسات دائماً أن تعرض الحروب الصليبية وموقف شارل مارتل من المسلمين في مواجهة بلاط القسداء وتحاول أن تصور المسلمين وقد تفهقروا أمام الغرب وأن الهلال تأخر والغرب تقدم . ومن عجب أن هذه الكتب والدراسات والمناهج لم تقتصر على معاهد التبشير والإرساليات بل تسربت إلى المعاهد والجامعات الوطنية وأنها أصبحت مراجع وطنية يعتمد عليها ولذلك فقد طهرت الطالب المسلم في مختلف مراحل الدراسة وأزاعها بحيث لا يفارق من التأثير بها وقد حرصت حكومات الانتداب والاستقلال الذاتي عن طريق دعاة التبشير وأعدائهم وأتباعه على تأصيل هذه الأبحاث كمرجع وما تزال إلى اليوم عشرات من هذه الكتب موجودة في أيدي طلاب العرب والمسلمين ، بل وهناك موسوعات ودوائر معارف ومراجع أساسية ، وكلها مليئة بالأخطاء والاشبهات . وقد تعددت مدارس الإرساليات الأجنبية ومعاهده حتى شملت جميع فروع التعليم وأهمها :

(١) مدارس رياض الأطفال (٢) مدارس البنات وذلك إيماناً بأن الأطفال هم الصفحة البيضاء السهلة لتركيز مفاهيمهم . أما مدارس البنات فقد كان التركيز عليها مهما جداً باعتبارها : الأم ، التي ستخرج الأجيال القادمة فإذا صيغت بنفسيتها وعقليتها وفق مناهج التبشير والاستعمار والتغريب فإنها ستؤثر في الأجيال أسوأ الأثر والام مدرسة إذا أهدتها وتغطي المدارس الداخلية بعناية خاصة واهتمام أكبر ، حيث يفصل الطالبات عن بيئاتهن الإسلامية ويصل النفوذ الغربي المسيحي إلى مداه في كل تفاصيل تلك الحياة ، وأغلب البنات في هذه المعاهد من أبناء الأسر الراقية وقد وصفت هذه الحظوة بأنه ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أفصر من هذه المدرسة ، ويعتقد دعاة التبشير أن المدارس العالية هي أقرب الطريق إلى الطبقات المثقفة ، وأن الآراء (الغربية المسيحية) إذا اعتنقتها هؤلاء فإنها سرعان ما تسرب من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامي ذلك أن هؤلاء الطلاب الجامعيين هم من بعد قادة الرأي في بلادهم ولذلك فقد أجمعت مختلف المؤسسات التبشيرية (الإنكليزية وإيرلندية وألمانية وسويدية ودانمركية وأمريكية) على وضع النوراة في أيدي الطلاب على أنه كتاب تدريسي أساسي . أما في نطاق المدارس الأولية فقد حرصت جهات التبشير على البحث عن الأسر الفقيرة لاصطاد أبنائها وبناتها باسم التربية والتعليم واستهوا الأطفال بتوزيع الحلوى كما عمد إلى نشر المبشرات في مختلف القرى والبلاد وهم يجمعون طبقة معينة من التلاميذ هم طبقة المقراء والمؤذنين يبحثونهم في مدارسهم ويلقونهم مع المعارف الأولية مبادئ دينهم ويستغلون حداثة التلاميذ بهم كإساقطة لهم وشكرهم لهم لتفخيمهم عليهم بالكسوة والطعام والتعليم فإذا بهم يغزونهم عقلياً وروحياً ويفسدون أخلاقهم ويستنهون شهراتهم وقد حدث هذا في مصر وكشفت الصحف المصرية عن نماذج مخزية استعملت فيها أجهزة

التقويم المغناطيسي وحالة الامتيازات دون إيقافه أو معاقبة فاعليه . وقد طالت دعوى حماية هذه الهيئات عن طريق الامتيازات سيفاً مصاتاً على مختلف بلاد العالم الاسلامي وكانت مصدر صدام كبير عندما حاولت مصر إلغاء الامتيازات الاجنبية في مؤتمر مونتريو سنة ١٩٣٧ فقد طلبت كل دولة لها مراسليات ومعاهد في مصر حماية معاهدا ، وأعلنت الحكومة البريطانية أنها هي المسئولة عن سلامة الارشاليات الاجنبية جميعها .

(٢) التبشير والمرأة المسلمة

وقد عن التبشير باعداد دور خاص للمرأة المسلمة واعتبر أن العمل في مجالها من أخطر الأعمال وتلك خطته بالنص . د بما أن الاثر الذي تحدثه الام في أطفالها - ذكوراً وأناثاً - حتى السنة العاشرة من عمرهم بالغ الأهمية ، وبما أن النساء من العناصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة في التمجيد بفتح البلاد الإسلامية . وقد أشار مسيو اتين لامي منذ عام ١٩٠١ في مجلة العالمين الفرنسية إلى أنه يمكن استغلال المدارس التبشيرية في إلقاء بذور الشك في نفوس النشء المسلم وإفساد عقيدتهم وأن الوسيلة لتقويض بنيانه هي تربية بنيه في مدارس التبشير وإلقاء بذور الشك في نفوسهم منذ عهد النشأة ، ثم قال د إن تربية البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة القصد ، ووصلنا إلى نفس الغاية التي من وراءها نسعى بل أقول إن تربية البنات بهذه السكيفية هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام بين أهله ومن هذه التوصيات ما تردد من أن د تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للاسلام في داخل حصنه المنيع حدة لوداً لا يمكن للرجل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته فتبده عن الاسلام وتربي أولادها عن غير دين أبيهم . وفي ضوء هذه التوجيهات عمل التبشير فأنشأ أول مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية في بيروت سنة ١٨٣٠ وكان من أوائل عمل التبشير في مصر في أواخر عصر إسماعيل ١٨٧٠ تقريباً لإنشاء مدرسة للبنات في أسبوط كالنشر مدارس البنات في سورية والسودان وقال رجال التبشير في نتائج هذا العمل د إن التبشير يكون أنم حيكاً في مدارس البنات الداخلية حيث الصلة بالطالبات أوثق لأنهن ينفذن من نفوذ حياة بيئة غير مسيحية حيث ترى بنات مسلمات من أسر باشوات وبكوات مجتمعن تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة (المبشرة أنا مليحان) وقد أشار الدكتور هيكل عام ١٩٣٢ إلى دور الارشاليات التبشيرية في مجال تعليم الفتاة المسلمة وتربيتها وما يفرض عليهن من ضرورة أداء الصلوات ، وبما قاله أن بنات الامتياز أحد علوبه المحاسن بأسيوط وكن في إحدى مدارس التبشير قد لاحظ أبوهم عليهن قلقاً وارتباكاً أدى إلى حالة عصبية جمعت الكبري منهن تكي حين سألهما والدهما عما بهما وأخيراً قالت وبمه إلحاح . أنها لكثرة ما تسمع من الدين المسيحي ولما يشار به من عبارات موجزة ومن طرف خفي تشع وهي مسلمة صالحة تحب الاسلام ورسوله بشيء من تزعم العقيدة هو

الذي يدعوها لذلك الذي تعاني من ألم وحزن فإن الصلاة التي يؤديها التلاميذ والطلبة كل يوم وما يشعرون به من عطف الأساتذة والمعلمات إزاهم وإزاهم تجعلهم يعملون إلى دين ينافس في قلوبهم وأفئدتهم دين آبائهم وأجدادهم ويورثهم هذا القلق وينتهي بهم هذا التطاحن بين العقيدتين آخر الأمر إلى إسكات الضمير الديني إسكاتاً هو الإلحاد واللاإرادية والشك وهو الرغبة عن دينهم إلى دين معلمهم وأساتذتهم وقد كتب الأستاذ أحمد علي إلى السككية الملاحقة بها بنائه مراعاة العاطفة الدينية للطلالب فلا تجهروا كرمائنا وهن مسلمات على حضور الصلاة في كنيسة المدرسة وعلى حفظ الانجيل وحضور الاجتماعات التي تبحث في الأمور الدينية وقد أرسلت إليه الناطرة (١٩٣٢/٢/٢٧) تقول إنها تأسف لعدم إمكانها إجابة طلبه لأنه مخالف للقواعد التي وضعتها الإرسالية لجميع مدارسها وليس في مقدور مدرسة واحدة أن تسير على غير ما هو متبع في غيرها ، وكانت النتيجة أن سحب الرجل بناته من المدرسة . وهذه واقعة تاريخية نشرت على صفحات الجرائد تكشف عن مدى عذرات الضحايا الأخريات اللاتي تخرجن وتزوجن وقدن لوطن أبناء ربوا وفق مفاهيم غير مفهوم الإسلام ومدى خطر ذلك على وجود أمتنا ومستقبلها .

الفصل الثاني

الشبهات التي أثارها التبشير

إن نستطيع التخلص من نفوذ الاستعمار إلا إذا تعرفنا على وسائله وأسلحته المختلفة : الخفية والظاهرة . لقد أصبحت حرب الاستعمار للعالم الإسلامي والأمة العربية منصبة على الغزو الثقافي من طريق التبشير والتبشير الآن وسيلتان كبيرتان : التعليم والثقافة ، لقد نفّض التبشير يده من الصورة القديمة والمحاولة الأولى الساذجة بعد أن تأكد من أنه ليس من سبيل لتحويل المسلم إلى دين آخر ، ولسكنه ركز على إخراج الإسلام من مفاهيم الإسلام وقيمه الأساسية عن طرق مختلفة : (١) إهلاك شأن الثقافات الغربية وتاريخ عظماء الغرب . (٢) إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام والأمة العربية والتاريخ العربي الإسلامي . (٣) إذاعة فلسفات مادية من شأنها انتزاع الشخصية الإسلامية والعربية من الأخلاق والدين ودفعها إلى الانحلال والإباحة ، إن التبشير الآن إنما يعمل على هدم مقومات الفرد والمجتمع بحيث يصبح عاجزاً عن مقاومة النفوذ الأجنبي ، بل خاضعاً له ، متحلاً من عوامل القوة والنضال والإيمان ، متقبلاً للاستعمار والنفوذ الأجنبي تقبل تقدير وتسليم وانصهار . إن التبشير قائم وإن تعدلت مناهجه وأساليبه ووسائله ودخل في غلاف رقيق لا يكتشفه البسطاء . إن الهدف الذي عاش في نفس الغرب زمناً وتوارثه جيلاً بعد جيل هو أن تأتي الفرصة يوماً لتحويل المسلمين عن الإسلام وما تزال مخططاتهم تسعى إلى ذلك مهما غيرت أوضاعها . وفي سبيل تثبيت نفوذ الاستعمار ومن أجل خلق ركائز أساسية للوجود الأجنبي في العالم الإسلامي كانت الأسلحة هي التبشير والاستفراق

وكانت الوسيلة هي المدرسة والصحيفة والكتاب عن طريق القرية والتعليم والثقافة وكانت الغاية هي تفريب المسلمين والعرب ولذلك فقد تلاقت مختلف الدعوات في أهدافها، على النحو الذي رسمه لها عدها الاستعمار مخططها أمثال : كرومر وايتون . ونفذا : دنلوب في مجال التعليم المصري . لا فيجيري في مجال التبشير في المغرب زويمر في مجال التبشير في العالم العربي وقد صورت مؤلفاتهم المتعددة أهدافهم المصريحة وخاطبهم الواضحة وأهمها كتاب العالم الإسلامي اليوم لمجموعة من المبشرين وكتاب الإسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله لزويمر وكتاب وجهة الإسلام لجب أربعة من المشرقين وقد ركزوا على أهداف عامة : هي الحيلولة دون وحدة المسلمين والقضاء عن جامعتهم الفكرية السياسية وقد ركزوا على الوسائل المختلفة وأهمها التعليم والسيطرة عليه عن طريق المدارس الأجنبية والسيطرة على مناهج المدارس الأجنبية والسيطرة على مناهج المدارس التي تديرها الحكومات المحلية وجعلوا هدفهم النهائي هو : التفريب : يقول جب : تفريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع في كل ناحية من النواحي ، وإذا أمكن قطع صلة للتفكير والعقيدة بين الماضي والحاضر حتى إذا أمكن صبغ ماضي الشرق بلون قائم مظلم يرغب عنه أهله فقدت شعوب الشرق صلتها بماضيا ففقدت بذلك أعظم جانب من حيويتها وبقية هي لا على الغرب تتطلع إليه تطالع لإعجاب وتقديس وعادة ترى في خضوعها له شرفاً كبيراً ، هذا هو الهدف كما صوره ، فإذا أردنا أن نعرف إلى أي حد مضى العمل والمعروف أن هذا التقرير صدر عام ١٩٣١ قال لنا مستر جب : وقد بدأت المجهودات ولا تزال تبذل في هذه النواحي جميعاً بهمة لا تعرف اليأس ولا تعرف الملل وأحسب كتاب الغرب كانوا قد نجحوا إلى حد كبير في تصوير تاريخ أمم الشرق في لون قائم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين إمام محمد ألوفا من اللتين تقضت وكانوا أثنائها خاضعين لآلوان من الدالة لا يستطيعون اليوم أن يشعروا معها بمعنى الحرية . . وهكذا يتجلى أن العمل الأساسي كان ولا يزال تزييف تاريخ الإسلام والعرب ، ومن بعدها تزييف العقيدة الإسلامية ليحمل المسلمون والعرب على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم ، وأن مصدر القوة والنهضة هي في التخلي عنها . وهكذا يجعل التبشير أم أهدافه قطع الصلة بين الماضي والحاضر ، وقد وكل هذا إلى المبشرين الذين كان أبرز أدواتهم في العمل بالمدارس الأجنبية ، فإلى أي حد يرى مستر جب دور هذه المدارس والإرساليات يقول : إنه منذ منتصف القرن التاسع عشر انتشرت شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية لا سيما في تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية ، وقد كانت المدارس الإنجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية ، ماذا فعلت هذه المدارس ؟ ويجيب : هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت أذواقهم ، ولأهم أنها هلتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي فصاروا في مستقبل حياتهم قابلين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فعلها أيام الطفولة . وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإتمام التعليم العلماني تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهم التي ترمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية

التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أحدثت هذه التهمة ، ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية والسياسية إلى حد ما في أوطانهم الأصلية ، وأضعف من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هامة وقطعت بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه وقد تحققت نتائج التعليم عن طريق الكتاب والمقال والمنهج الدراسي وقد كانت كتابات المبشرين الأولى كتابات قاطعة تحمل طابع الحقد الواضح والشك العميق والخصومة الجارحة والعاطفة المندفعة ضد الإسلام وهذه مرحلة انطوت بعد أن تحققت دهائنة التبعية وأسائفة الاستعمار من أنها لم تحقق شيئاً ، بل ربما حققت ردود فعل معارضة وقضت على الأهداف المقصودة منها فقد كان المبشرون السابقون يكشفون عن هويتهم ويذكرون الأديان في مجال المقارنة ويستعملون الاصطلاحات الصريحة ، والمباراة المقتبسة من الكتب الدينية فكان المسلمون يعرضون عنها لإعراضاً ويوضع الباحثون منهم في صفوف المبشرين أولاً ولكن هذا الأسلوب قد تحول بعد تحولا خطيراً ودخل مرحلة غاية في الدقة فقد اختفت أساليب العاطفة والحاسة ، والمباراة الاصطلاحية والكلمات الموحية واختفى المبشرون تحت أسماء وألقاب تستطيع أن تجعلهم في صفوف المستشرقين أو الكتاب الغربيين المتخصصين في الدراسات الإسلامية واتسمت مؤلفاتهم ودراساتهم الجديدة بطابع أكثر مرونة ، وربما يبدأ أحدهم كتابه على نحو من التقدير والإعجاب بالإسلام وترديد عبارات الثناء على القرآن والرسول ، وربما طوى فصولاً من كتابه دون أن يكلف عن الشبهات التي يريد أن يرددها ، والأكاذيب التي ينشرها في دقة وقد استعمل هذا الأسلوب رغبة في كسبه ثقة القارئ وخداعه ، فإذا مرت الصفحات الممدودة وأحس بثقة القارئ به ، بدأ يثير الشبهات في دقة وخفاء ثم أخذ في أسلوب الاحتمال والاثام وربما نفاهما بعد ذلك ثم أوردتها مرة أخرى ، وذلك بهدف واضح هو أن لا يدع قارئه حتى يكون قد أثار في صدره مزيجاً من التحفظ والشك والحاط وزلزل قواعد الإيمان في قلبه والمبشرون ليسوا فقط هم الذين يدعون إلى المسيحية ويحاولون نقل المسلمين إليها فهذا عهد مضى ، أما المبشرون اليوم فإنما هم أذباء ومفكرون ومؤرخون يحملون أجازات من الجامعات الغربية الكبرى ويكتبون دراسات يهيئ لها التقدير والشهرة في العالم الإسلامي ، وهم حلة جميع الآراء الجريئة الخطرة التي تدوى بين حين وحين بقصد جس النبض ، ثم يبقونها صامتة شديدة ، إلى أن تعاد صياغتها من جديد وكل هذه الإفكار إنما تمثل نقاط حساسة من مخططات الاستعمار والنفوذ الأجنبي تحاول أن تأخذ طابعا من طوابع الفكر أو الوطنية أو غيرها . ولعل النجاح الذي حققته هذه الخطط إنما يعود إلى جرأة هؤلاء المبشرين وبراعتهم على سبيل كتاباتهم المليئة بالشبهات في قالب علمي يحاول أن يعطيها صورة البحث المجرد البعيد عن الأهواء . وهي جرأة وبراعة ما يزال نفتقدها في كتابتنا المسلمين والعرب الذين مازالوا يتدفعون وفق أساليب عاطفية ووجدانية صاخبة ، ومن حق أن هؤلاء المبشرين قد تلقوا هذه المناهج في دراسات مستفيضة وعاشوا سنوات تحت إشراف أساتذة متخصصين حتى أحسنوا أداء هذا الأسلوب وأجادوا مناهجه وأبرع ما في هذا الأسلوب البرود العاطفي والذكاء الذهني والتنظيم والتحليل ثم فرس الأكاذيب والشبهات برفق وتوزعها بدقة وإثارتها على نحو يحتمل الخطأ

والصواب دون القطع بها وقد تبين بوضوح أن كل الآراء التي يريد الاستعمار تداولها وانتفاها حل لواءها المبشرون عن الاسلام ، عن العرب ، عن اللغة العربية ، عن التاريخ ، وذلك بهدف :

(أولاً) هو القضاء على الوحدة الإسلامية سياسياً بإيجاد الخلافات الضخمة بين الدول الإسلامية ، عن طريق السياسة والمذاهب واللغات والثقافة . (ثانياً) القضاء على الفكر الإسلامي المستمد من القرآن والإسلام كأساس للثقافات . (ثالثاً) قيام دعوات وأحزاب وهيئات تحمل طابع الاقليمية السياسية والعلمانية الفكرية لمقاومة الوحدة السياسية والأصالة الفكرية المستمدة من المنابع .

الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير

(٢)

قدم التبشير ، عدداً من الشبهات في مختلف مجالات الفكر الإسلامي والثقافة العربية وما تزال هذه الشبهات تتردد على أيدى دعاة التغريب والشعوبية من خلفاء المبشرين . ومن الحق أن يقال أن مختلف النظريات والشبهات التي ردها المبشرون والشعوبيون ودعاة التغريب قد وضع بذرتها دهانقة الاستعمار من أمثال كرومر وليوتي وتابعهم عليها دعاة التبشير : لافي جري وزويمر ودنلوب .

وإذا راجعنا تقارير الورود كرومر السنوية التي جعلها رسالته إلى الجيل الجديد من المنقذين الذين كان يعدم لتسلم زمام الحكم من الاحتلال البريطاني ، نجد أنه قد وضع أسس هذه الحملات الضارية على الاسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية والتاريخ . فقد سجلت هذه التقارير الخطوط العامة لنهديم كل عوامل الايمان الوطني والاعتزاز العزى الاسلامى وعندما نقرأ اليوم مايكتبه خلفاء المبشرين ودعاة التغريب لا نجب لأننا أحياناً نجد العبارات منقولة بنصها . وأن معظم ما كتبه كرومر قد رده من بعد سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق وإطفي السيد ومن هذه الاتهامات :

(١) أن المصريين كانوا مستعبدين على مدى التاريخ . حكمهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك (ذكر ذلك كرومر في تقرير ١٩٠٦ وردده الدكتور طه حسين في حديث له عام ١٩٣٩) .
(٢) وصف الحكومة الإسلامية بالحكومة الشيوقراطية وهي العبارة التي ما يزال يرددها الشعوبيون ودعاة التغريب . (٣) هاجم الشريعة الإسلامية وقال : إنها مبادئ وضعت من ألف سنة لتهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة ومناقضة لآراء أهل العصر . (٤) هاجم الجامعة الإسلامية . كما استغل التبشير الحملات التي وجهها خصوم الاسلام في القديم من الشعوبيين والنجوس والباطنية فأعاد صياغتها من جديد ورددتها بحسبانها شبهات جديدة ولم يقف الأمر عند هذا بل استغلها في سبيل إثارة الإحن وإيقاظ الخلافات القديمة . كما استغل كتابات بعض خصوم الأديان ، من معسكر الغرب كسلاح لهاجمة الاسلام نفسه مع الفارق الواضح والبعيد بين مفهوم الدين وهو لاهوت خالص في الغرب ومفهوم الاسلام وهو نظام مجتمع والدين جزء منه وفي مقدمة ذلك ما كتبه أوجست كومت ونيقته وظهرها

عن حاربوا الفكر المسيحي والكثيسة وقد أصبحت هذه الآراء تنقل لتقال في مواجهة الاسلام: تعرض
ليحارب بها الاسلام. أم هذه القضايا: (أولاً): محاولة التفرقة بين المسلمين وذلك بتقسيمهم إلى
عرب وغير عرب والادعاء بأن الذين نبغوا في تاريخ الإسلام لم يكونوا عرباً، وأن العرب والمسلمين
لم يكونوا مذشئ حضارة وإنما هم مجرد نقلة لثقافة من سبقهم من الأمم وهم دائماً يرددون تساوياً يرمى
إلى تزييق الأواصر: هل الحضارة الإسلامية عربية أو إسلامية: والواقع أن مفهوم للفكر الإسلامي
والثقافة العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر لا على وحدة الجنس أو الدم وأنه كان للإسلام ولا يزال
بيئة فكرية تجمع كل المسلمين على وحدة الفكر لا على وحدة الجنس أو الدم وأنه كان للإسلام ولا يزال
الهندي وأن الساز العربي والفكر الإسلامي يعد بمثابة الجامع الأكبر ومن هنا فإن نتاج هذه الحضارة
وهذا الفكر كان نتاجاً إسلامياً شارك فيه العرب والترك والفرس وكل عربي اللسان إسلامي الفكر.
أما دور المسلمين في الحضارة فقد تولت الرد عليه أبحاث كثيرة ورد عليه الغربيون أنفسهم وفي مقدمة
الكتابات الحديثة كتاب الدكتور هونكه: شمس الله تشرق على الغرب، (ثانياً): إثارة الشبهات
حول الحديث النبوي والسنة، في محاولة الوصول إلى رأي يقول بأن يركز الاعتماد كله على القرآن، وهي
دهوة خطيرة بعيدة المدى بما لا يقع تحت النظرة السريعة. إن رفض الحديث والاكتفاء بالنص القرآني
هي محاولة لفصل بين النص والتطبيق، والتطبيق في الإسلام أخطر الجوانب وأهمها، وهذا التطبيق
المتنقل في الأسلوب، الذي اتبعه الرسول ﷺ في تنفيذ النص القرآن. ومن هنا فإن النص القرآني
لا يكفي المسلمين اليوم، ولا يحقق لهم إسلاماً حقيقياً هذا فضلاً عن أن السنة جزء من القرآن ونزلنا إليك
الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، فهذا البيان الذي يفسر للناس ويعطى، هو بإقرار القرآن جزء أساس
وفي هذا المعنى يقوله محمد أسد، إن رفض الحديث يرجع إلى استعالة الجمع بين حياتنا العاصرة المتغيرة
وبين روح الإسلام الصحيح كما يظهر في سنة النبي - في نظام واحد، ولكن يستطيع نقدة الحديث
المؤيرون أن يبرروا قصورهم وقصور بائتهم، فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة، لأنهم
إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير
السطحي أي حسب قبول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو، وهذا هو الخطر السكمن وراء
مهاجمة السنة، وإثارة الشبهة حول الحديث النبوي.

(ثالثاً) منطق القرآن ومنطق أرسطو. ويردد المبشرون والمستشرقون القول بأن الفكر الإسلامي النص
منطق أرسطو، وأن أرسطو أصبح في الفكر الإسلامي أساساً والحق أن هذا القول ما زال ادعاء يفترق
إلى الدليل، فقد أخذ بعض الفلاسفة المسلمين منطق أرسطو كسلاح لمواجهة خصوم الإسلام، وفي
الرد على دعاة اليهود والمسيحيين والمجوس لأنهم كانوا يصنعون نفس السلاح، ولكن الإسلام لم يتقبل
منهج أرسطو أساساً للمنطق الإسلامي. وقد كشف الامام ابن تيمية عن (منطق القرآن) في كتاب
له أما الغزالي فقد فرق بين منطق القرآن ومنطق الكلام، المستمد من أرسطو وقال: إن أسلوب
القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة وإن علم الكلام
علاج مؤقت ومختص بما نشأ من شكوك وشبهات ولا حاجة للطوائف السامية إليه فائدة القرآن مثل

الغذاء ينتفع به كل إنسان . (رابعاً) : ويعرض التبشير والاستقدام إلى " الجهاد " في الإسلام بمراوغة وتضليل كبيرين وقد عمد إلى إلغائه من جميع مناهج الدراسات التي سيطر عليها وفي الجزائر كان لا يسمح بدراسته وكذلك في الهند . بل إن الاستعمار عمد إلى تأييد طائفتين دعنا إلى ترك الجهاد واحتضنهما بل ربما هو الذي أوجز إلى أربابهما وهما البهائية والقاديانية وما زال كتاب التبشير والتغريب يوضعون هاتين الدعويان في صف دعوات الإصلاح والتجديد الاسلامي مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، بينما لا يرى المفكرون المسلمون هذا الرأي وربما يرون حكمه تماماً ، والمعروف أن النفوذ الاستعماري قد اعتمد على هاتين الحركتين في فارس والهند وكلا الحركتين قد اعتمدت على إلغاء أصل ثابت وخطير من أصول الإسلام وهو الجهاد ، تقريباً إلى الاستعمار وقد أتاح النفوذ الاستعماري للحركة البهائية حرية الحركة في العالم الاسلامي واهتمت الصحافة التغريبية التبشيرية في مصر بالحركة وأوتها قدراً كبيراً من العناية فكتبت عنها المقتطف والمجلة الجديدة والصور . ومن العجيب أنه عندما فضحت مخططات التبشير في مصر ١٩٣٢ و ١٩٣٣ خفت صوت التبشير وعلا صوت الحركة البهائية التي انشطت إلى العمل لتسد النفرة ، وكانت لها مراكز مفتوحة في القاهرة والاسكندرية وبور سعيد وغيرها ولها نشرات متنوعة ، وكتب يعان عنها مؤلفوها أن بهاء الله مؤسس البهائية هو رسول الله الأعظم وسفيره الذي جاء بما يحقق أسمى رغبات الانسان وتوحيد الأديان جميعاً تحت علم البهائية وأن الإسلام كان العصر خاص وعقليات خاصة أما البهائية فهي دين العصر الجديد وقد أشار الأستاذ محمد محمود بدير إلى منهج البهائية فقال إن لها أساليب تختلف عن أساليب المبشرين وإن لهم في إباحتهم الأخلاقية أكبر مبرر لهم ، والذين يمدون المبشرين بالاموال يمدون البهائية ، والحركتان تلتقيان عند نقطة أساسية : هي إخراج المسلم من عقيدته الإسلامية وجعله يشكك في رسالة محمد ﷺ وأنه خاتم النبيين وأن الإسلام هو خاتم الشرائع السارية . (خامساً) : يرده المبشرون والمستشرقون عبارة " هيمنة المعتزلة " ، وهمانون أنفسهم البالغ ويتباكون عليها بينما هيمنة المعتزلة نفسها ليست إلا مرحلة من مراحل تطور الفكر الإسلامي في طريقه إلى منهجه الاصيل مذهب أهل السنة والجماعة وموقف المعتزلة من الإسلام كوقوف الصوفية من الإسلام ، لا يمثل أحدهما الإسلام بمفرده ، والإسلام يجمع بين ثقافة العقل وثقافة القلب ومنهج المعرفة فيه لا يعتمد على القلب وحده وإنما يجمع بينهما ولم يكن المعتزلة في حقيقة الأمر يمثلون الإسلام تمثيلاً صحيحاً ، ولكنهم كانوا مرحلة من مراحل الدفاع عن الإسلام بأسلحة الفلسفات الأجنبية التي كان يجيدها أصحاب الأديان الذين كانوا يقارعون دعاة الإسلام (سادساً) : هناك صحيفة تتردد كثيراً على أقلام المبشرين ودعاة التغريب هي نقض الثقافة العربية من جانب الفلسفات والدراسات الفلسفية ، وهناك دعوة ملحة على ضرورة ترجمة الفلسفات الحديثة بحسبان أن العرب والمسلمين لن يصلوا إلى مجال الصدارة إلا إذا هزوا هذا الجانب والواقع أن المسلمين والعرب لهم فلسفتهم المتقدمة من قيمهم ومفاهيمهم . وهي تختلف عن الفلسفة الغربية أساساً من حيث أنها تقوم على عنصر التوحيد المستمد من الإسلام . ونحن نلقي نظرة هامة على الفلسفات الحديثة نجد فيها جميعاً " مادية " الأساس ، رافضة لقيم التي جاءت بها الأديان المنزلة رفضاً تاماً . وهي جميعاً تعمل على تفويض دعائم الاعتقاد بوجود (الله واحد) بنقض النظر عن البديل المقترح ، فمنها من يقترح ألوهية المادة أو ألوهية الانسان

ومنها من يجعل الغريزة محور تفسيه الوجود، وما يزال الإسلام هو الدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة التوحيد من الشوائب وبالجملة فإن هدف دعوة التغريب في الاهتمام بالفلسفات الغربية الحديثة إنما ترمى إلى تدمير العقيدة الإسلامية لأنها العقبة الضخمة في طريق سيطرة الأهواء الحديثة . (سابعا) : يخدم الميشرور ودعاة التغريب البسطاء حين يربطون بين واقع المسلمين الآن وبين الإسلام ويقارنون بين واقع الأوروبيين وبين المسيحية والحقيقة في هذا أن الأمم الأوروبية دخلت في المسيحية بين القرنين الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها طوال عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون بينما نهض الإسلام بمعتقديه في إقامة حضارة الباهرة منذ القرن الأول للهجرة ، لقد كانت الأمم الأوروبية مثل الإغريق والرومان أكثر رقباً بل كانت أرقى أمم الأرض أو من أرقاها قبل اعتناقها المسيحية وبخ فيها من الفلاسفة والعلماء رجال لم تول آثارهم قائمة . ويقول العلامة مسمر الفرنسي ، إن الغربي إذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً ، وبأى وجه يمكن نسبة التمدن الحالي إلى الدين النصراني والحال أنه ما جاء إلا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره وبأى وجه يمكن نسبة انحطاط المسلمين الحالي إلى دينهم وفي عام ٧٤٣ أي بعد مائة وأحد عشر عاماً بعد وفاة محمد كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدوني وفي عام ١٥٦٦ عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين وبذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكنت ألف سنة ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة من الأمور السياسية والحربية إلا بالعلوم والتمدن . (ثامناً) : ومن اتهامات التبشير والتغريب للفكر الإسلامي أنه فكري تجردي غيّر أن ثمرات الفقه والتشريع الإسلامي تكذب هذه الشبهة وهذا الاتهام فإن الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامي وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع في حينه ثم يتناوله بالبحث ويضع له الحلول بل إن الفكر الإسلامي قد أثبت أنه أكثر إقبالاً في الواقع من الفكر الغربي حيث تناول التشريع الإسلامي تفصيلات الحياة اليومية ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما هو الأمر في الشرائع الأخرى . (تاسعاً) : قد حاول التبشير والنفوذ الاستعماري إثارة طابع من طوابع الاستسلام والعنف في الأدب العربي وذلك بالدعوة إلى فكري مستمد من تولستوى وغاندى أساسه السلام والبعد عن العنف وهي محاولة للقضاء على مفهوم مقاومة العرب والمسلمين للنفوذ الأجنبي ، ولا شك أن هذه الدعوة غيّر أصيلة الجذور في الفكر الإسلامي والثقافة العربية . فالإسلام يقرر السلام أصلاً ولكنه لا يقبل العدوان ولا يستسلم للنفوذ الأجنبي وفكره وأدبه وثقافته تحمل هذا الطابع أساساً (هاشماً) : هاجم التبشير والاستمراق (الشريعة الإسلامية) ووصفها بأنها مستمدة من القانون اليوناني ، ومرة أخرى رماها بالجهل والتخلف . وخير ما تواجه به هذه الحملات تلك القرارات الوصل إليها علماء القانون على غير هوى أو تعصب وأقربها ما قرره مؤتمر لاهاي سنة ١٩٢٥ ومؤتمر واشنطن سنة ١٩٤٨ من أن الشريعة الإسلامية شريعة لها طابعها الخاص وأنها صالحة لأن تكون مصدراً عالمياً للقانون وتحضرنى هنا عبارة الدكتور مختار القاضي في كتابه (تاريخ القانون) حيث يقول : إن الشريعة الإسلامية تجمع بين عنصرى الاستقرار والتطور وتوافق بينهما توفيقاً دائماً دائماً وبينما نجد في هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات وتنبأ من التأويل والتغير والتبديل كنصوص الموارث

والحدود والكفارات نرى نصوصاً أخرى تبيح الشرع أن يستدع أحكاماً في غير الحالات التي جاءت بها النصوص التفصيلية ، مادام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين وأصاح مثل هذه النصوص المرخصة هي المصالح المرسله والاستحسان بالضرورة وقياس ما لم يرد فيه نص ولعل الشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة في الدنيا التي تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها أو حكماً غير مستنبط من أحكامها ، وكل القوانين والشرائع تطورت بوسائل خارجية ما عدا الشريعة الإسلامية وفي المصنوع الأخيرة حاول المستشرقون في مؤتمراتهم التي يستقدمون إليها بعض المشهورين من الأسماء العربية والإسلامية محاولة خطرة ترمي إلى استخدام نصوص الشريعة في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية وهو شر من تقليد هذه الأنماط تقليداً أعمى لأن الناس يمكن أن يعيشوا على أمل التخلص من الدخيل إذا قامت حركة أصيلة الإحياء . ويقول العلامة سائتلانا في شبهه المقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني : « حيثما نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي عندها الشريعتان الإسلامية والرومانية » . إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة تفكيرنا أصلاً . (حادي عشر) حاول جبران ومينخايل نعيمة نقل الأسلوب العربي عن أصول البلاغة القرآنية في محاولة لخلق أسلوب جديد يحوي تضميناً مختلطاً من الظلال والأضواء للصوفية الفارسية والهندية القديمة الفارقة في الأوامر والإضلال والتي تعتمد على بعض عبارات التوراة والشعر المنشور والمجازاة لاقتضاء على أصالة البلاغة العربية ولكن هذه المحاولة وتدت في مهدها ولم تحقق نتيجة ما ، وغلب منهج البلاغة القرآنية الذي حمل لوائه معاصرها المنفلوطي الذي كسب الجملة .

(ثاني عشر) : من الشبهات التي أثارها التبشير والتغريب إدخال مفاهيم غامضة على القيم الأصيلة ومن الكلمات التي تتروى كثيراً اليوم : الخطيئة ، الخلاص ، التكريس ، والواقع أن هذه الكلمات لها مدلول تاريخي وديني خاص يجب أن يكون واضحاً في تقدير الباحث أو القارئ وهي تخرج على قله . وهناك خلاف بين الفكر الإسلامي وبين الفكر الغربي في أمر الخطيئة التي ترى المسيحية أنها مصدر أساس للدين وهو ما يوصف بأن ما فعله آدم عليه السلام كان : طيئة ورثها عنه البشر ثم رأت المسيحية أن تكفر عنها وذلك بما يوصف بأنه تضحية المسيح بنفسه وهذه النظرية قد كانت بعيدة الأثر في الذهنية الأوروبية وكانت منفعة كثيراً من الملاحدة وقد ظهر الخلاف حولها في الأدب الغربي والفلسفة الغربية وفي كثير من النظريات السياسية الأوروبية وحين يمرض هذا الأمر كله على الفكر الإسلامي نجد خلافاً واضحاً فالقرآن يثبت أن آدم عاصره فخرى ولكنه يثبت بعد ذلك أن الله تقبل توبته (ثم اجتبهه ربه فتاب عليه وهدي) والإسلام يقرر بمقتضى هذا عدم ، ورائة الخطيئة ، وأن (كل امرئ بما كسب رهين) فالفكر الإسلامي يمرض على أن لا يتأثر بما هو خارج عن عقيدته . ومن هنا فإن الخلاص الذي يتمثل في مفهوم المسيحيين أن صلب المسيح قد حققه ، يكون بالطبع غير موجود مادامت الخطيئة نفسها غير موجودة ، وفي الإسلام أن المسيح لم يصلب وأن من كرامة النبي الذي أرسله الحق تبارك وتعالى أن لا يجوز عليه الصلب بين أعدائه فإن الحق الذي أرسله لا يسلبه إلى خصومه لأنه قد أرسله بجملته وحفظه من أن تناله يد العدو .

وقد تأثر الفكر الغربي بالفكر الاسلامي في هذا المفهوم وتحرر كثير من المفكرين المسيحيين من نظرية (الخطيئة الأصلية) متأثرين بالاسلام وبذلك أقرّوا بأن الجنس البشري قادر على إدراك السكّال كما في الاسلام . (ثالث عشر) من الغريب أن تدرس الجامعات في العالم الاسلامي الطب والعلوم والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون بحسبانها علوما غريبة صرفة ، دون أن تكشف لهم عن الحقيقة التي تقرر أن هذه العلوم قد بدأها أجدادهم الذين وضعوا أسسها وبنو المذهب العلمي التجريبي ، قاعدة العلم والحضارة ، بل إن تدريس هذه العلوم على هذا النحو إنما يصورهم لأنفسهم على أنهم عبید للثقافة الغربية بينما ليس الأمر كذلك ، ولعل الأمر الجدير بالنظر هو أن يدرس المسلمون والعرب وجهة نظرهم الأصلية في هذه العلوم إلى جانب وجهة نظر الغرب ، وبماضلوا بينهما ، إلا أن يدرسوا وجهة نظر الغرب وحدها على اعتبار أنها هي الحقيقة التي لا نقض لها . والواقع أن الفكر الاسلامي له نظريات كاملة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون والتربية هي أصلح لمجتمعاتنا من نظريات الغرب التي أنشأها انبعاثا من واقعها والتي تختلف مع أمزجتنا ونفسياتنا اختلافا جوهريا .

الفصل الثاني

التبشير والفكر الاسلامي

من أخطر الشبهات الفكرية التي أثارها التبشير فكرة : (علمانية الدولة) أو لا دينية الدولة وهي هدف الاستعمار الأول في البلاد الإسلامية والمحول الأكبر لحدم القيم الإسلامية وعزل الفكر الاسلامي عزلا تاما عن مجال المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية وهو هدف استعماري صهيوني أساسي يفسح المجال أمام النفوذ الاجنبي حتى لا يقف الإسلام حائلا دون مصالحهم ومطامعهم ومن الحق أن يقال إن هناك فارقا جديرا بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي يتعلق بوحدة الارتباط المعنوي في الفكر الاسلامي بين الدين والمجتمع ، حيث لا سبيل إلى عزلهما . وكل محاولة للفصل بينهما هي محاولة فاشلة ولن تتحقق إلا إذا انهدمت قوائم الفكر الاسلامي انهداما كاملا وهذا ما ليس هناك سبيل إليه . ذلك لأن أول ركائز الاجتماع والثقافة في العالم الاسلامي هو أن الاسلام دين ونظام مجتمع غير منفصلين . ومن الحق أن يقال إن المجتمع الاسلامي قد بنى والدين جزء منه لا ينفصل عنه ، وأهم سمات الاسلام وبالتالي الفكر الاسلامي والثقافة العربية أنه لا يفصل بين الدنيوي والديني والقيم الروحية فيه فهي مستقلة عن القيم المادية بل هي مكحلة لها وكل محاولة لفصل الروح عن المادة تعد عملا عقيما . ولعل من أول ما يحاول التبشير والتغريب أن يركز عليه لتحقيق هذا الغرض هو الاتجاه إلى العلوم العصرية باعتبارها الهدف الحضاري الذي يوصف بأنه عامل النهضة والتقدم ، بينما تخفي وراءها غرضا أساسيا هو عزل الفكر الاسلامي عن قيمته الأساسية . ولقد تنبه إلى ذلك رجل خبير منصف هو العلامة جوستاف لوبون ونصح بها الشباب المسلم في باريس حين قال لهم : « إن للعلوم العصرية لا تفيد المسلمين

إلا إذا اقتراع بتربيته المدنية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم ، وإن تذهب المسلمين بالمعارف المعاصرة الأوروبية خارجاً عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم يزيد انحطاطاً وفساد أخلاق ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم وقد صور هذه الرابطة بين العلم والدين في الفكر الإسلامي كاتبان غربيان هما (رنفلان وسيلوفيكس) في كتابهما الشرق الأوسط المعاصر : وإن أول ركائز الاجتماع والثقافة في الشرق الأوسط هو الدين ، الذي يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع . ففي مجتمعات الشرق الأوسط خلافاً للمعهود في المجتمعات الغربية وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع ولا انفصال هنا بين ماهو دنيوي وما هو أخروي ، والروح الدينية منبثة في جوارب الحياة كلها في مواضعها ولغاتها ولهاجاتها . ولأسنا بحاجة إلى أن نصف الدور الهام الذي يقوم به الدين في الحياة الثقافية والاجتماعية في الشرق فإن في تاريخ أي بلد شرقي ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط اجتماعي وعقلي للشعوب ، بل إنه في الواقع هو العامل المسيطر على حياة الشرق ، رجاله ونسائه ، ولا يمكننا أن ندهي وجود طائفة لها اعتبارها من أبناء الشرق لا تهتم بشئون الدين السائد في مجتمعاتها ، لهذا من المسهل على الغربي أن يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون أن يفهم الدين الذي تدين به الجماهير والتي تحاول دراسة ثقافتها ويفهم من هذا د. أميل درمنجيم ، ويهبر عنه أصدق تعبير حين يقول : إن حضارة الإسلام ترمى مثلاً أعلى رفيعاً يجمع بين الدين والدنيا والبعد عن النفعية والرهبانية إلى سواء . ولم يكن الإسلام هو مصدر تأخر المسلمين بل كان مصدر تقدمها بينما كان الموقف مختلفاً بالنسبة للغرب والمسيحية . فإن الإسلام لم يلبث في خلال قرن واحد من بزوغ فجره أن أقام حضارة باهرة بينما ظلت الأمم الغربية عشرة قرون بعد دخول المسيحية قبل أن ينهضوا وكانت الإغريق والرومان أرقى أمم الأرض قبل اعتناقها المسيحية والعرايط بين الدين والمجتمع في مفهوم الإسلام بوصفه نظام مجتمع ودين عبادة معاً واضح في مختلف كتابات الغربيين والباحثين الذين تخرجوا من المعاهد الأجنبية وأمامى كتاب الفكر الغربي في مادة عام يسجل هذه الحقيقة في بحث الأستاذ أيم عطيه ص ٤٠٨ حيث يقول : إن الإسلام في جوهره أكثر من مجرد إيمان ديني . إنه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية . الدينية منها والومنية ، فكما يحدد الإنسان في الإسلام ما يهيئ تفوقه الروحي عن طريق الإيمان بالله والتعبد له بالصوم والصلاة والوكة والحج كذلك يحدد فيه نظاماً من القيم الأخلاقية والشرائع المدنية التي تعطي أجوبة مفصلة لما يقدسه من مشكلات في المعاملات اليومية . فالإسلام نظام روحي ونظام زمني كلاهما متصل بالآخر وانعكاس له فلا مجال للفصل بينهما : ومن مبادئ الإسلام أن المسلم أخو المسلم وأن المسلمين أمة واحدة ذات رابطة روحية تشهد جذورها في التسليم بالله والاعتراف بأحكام الشريعة وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو المسلم ومن حقوق المسلم على المسلم ، فالشريعة هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين . وتبين عليها حياتهم المدنية بأكملها كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب ديني لأن وحدة الأمة روحياً منوطة بوحدة سياسياً ولذلك فالأمة في الإسلام إن تكتمل إذا لم تتجسد في دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم ، لذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الإسلام

والمدافعة عنه ضد أعدائه ويجمع بين السلطين الزمنية والروحية . . وهكذا يبدو مفهوم الاسلام واضحا في الجمع بين الدين والمجتمع . أما التبشير والاستشراق والتغريب ودعاوى كتابهم فإنها مستمدة من مفهوم خاطيء أصلا وهو خطأ متعمد ، هذا الخطأ يحول دون التفرقة الواضحة بين الاسلام وبين الأديان الأخرى فالاسلام ليس ديناً تعبدياً قاصراً على العلاقة بين الله والناس ، ولكنه دين ونظام مجتمع ، وهو منهج حياة متكامل ، ولما كان هذا هو عنصر الخطر فيه لمطالبة بإقامة هذا النظام وتطبيقه فإن (علمانية الدولة) التي تبناها معاهد الارساليات وتتمثل الآن في مختلف الأحزاب التي يتصدرها رجال هذه المعاهد ، لا تمثل مفهوم الاسلام أو مفهوم المسار الاسلامي المتكامل ديناً ودنياً ، ومادة وروحاً ، وعقلاً وقلباً . ومن مفهوم الاسلام الاصيل يجب أن تستمد جميع الحركات الاصلاحية والسياسية ، والوطنية والقومية وقد كشف جهاد المسلمين في الجزائر بصورة واضحة عن مفهوم الترابط بين الدين والمجتمع في الاسلام ، ولقد تأكد الفرنسيون أن الجزائريين كانوا يحاربون كسلمين في الدرجة الاولى وأن فرنسا كانت تحاربهم للقضاء على الاسلام ، وأن المعنى الاسلامي كان هو العامل الاول في النصر وقد اعترف كتاب الغرب بهذه الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها وهي : أنه لم نقم حركة وطنية في العالم العربي إلا وكانت الروح الاسلامية أساسها ، وأكد يجب وكثيرون أن العرب متمسكون بلغتهم وأديهم ويعنون بجد الاسلام ، كما أكد كثيرون أن العرب لن يقتنعوا عن لغة القرآن التي تربطهم بالعالم الاسلامي كافة وأن الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولا ملل ، ولن يطرأ عليها أي ضعف أو وهن ولذلك فإن الدعوة المضلة التي تنطلق تحت عنوان : تحرير الذات العربية من الاسلام ، ان تجدى قليلا ومستواجه ما واجهته الدعوات التي سبقتها . وأن الشعوبيين ودعاة التغريب الذين يتحدثون عن هذا ويظنون أنه سيحقق لهم تغييراً في مختلف علاقات الانسان بالدولة وبزوجته وأولاده لن يكون لأن الدعوة إلى علمانية الذات العربية ، وإخراج الجيل الجديد من أطر الدارين ، إنما هي صيغة امتثل الاستعمار والتبشير فترة للنكسة لإذاعتها وقد كانت المسلة ولا تزال بين كل الثورات المقاومة للاستعمار والاسلام وثيقة مستمدة من المفهوم الصحيح : مفهوم الجهاد ، ومفهوم المقاومة وقد ولدت ثورة ١٩١٩ في ساحة الأزهر وولدت ثورات المغرب في ساحة الأيتونة والقرويين وثورات العراق في ساحة النجف الأشرف . ومن هذه الاهدات أيضا ما يحاول التبشير إذاعته من أن أسباب التخلف في العالم الاسلامي إنما تعود إلى عوامل أساسية في صلب الاسلام ، وهي دعوة أعلنها كرومر قبل سبعين عاما وما زال اتباعه يرددونها وكل الدلائل تسكنها لأن المسلمين هم الذين أنشأوا المنهج العلمي التجريبي الذي يقوم على الحضارة الحديثة وأن الاسلام بدعوته إلى العلم وإلى النظر في الطبيعة هو الذي حفزهم إلى ذلك ومن خلال مفهوم الاسلام كدين ومجتمع يمكن النظر إلى قضية فلسطين أيضا ، فقضية فلسطين لا يمكن أن تعالج إلا على أساس إسلامي قوامه الجهاد على نفس الذوق الذي عرفته ثورة الجزائر وفي هذا يقول الكولونيل عبد الله التل : « إن قضية فلسطين دينية مقدسة في المقام الاول وإن أية معالجة لها لا تكون على أساس ديني جهادي مكتوب عليها الاخفاق لا محالة ، وأن هذا الايمان مبنى على تجارب عسكرية طامعها وحقائق تاريخية لمسها ووعاها .

وقال إن الوم على دعاة العلمانية ولايك ، في الوطن العربي الذين تناسوا من حسابهم الامامل الدين في قضية فلسطين وانها القضية الوحيدة التي قامت في العالم منذ ثلاثين عاماً وما زالت تقوم على أسس روحية دينية ، وأنه إذا امكن أن تعالج أى قضية على أسس مادية فإن قضية فلسطين لا تعالج إلا على أسس دينية بالدرجة الأولى وأسس مادية بالدرجة الثانية .

ويتصل هذا القول بأن الإسلام ليس له هيئة خاصة تشرف عليه ولا يقال للعالم المسلم (رجل دين) وأن وحدة الإسلام هي وحدة فكر لاوحدة جنس ولاعنصر . وأنه لا توجد في الاسلام الحكومة الشيوقراطية التي يحكم بها رجال الدين من حيث أنه منتف قطعاً في الاسلام وجود رجال الدين أو هيئة لاهوتية ما .

ومن النظريات التي يحاول النفوذ الاستعماري فرضها على المسلمين النظرية القائلة بتقبل الحضارة العربية تقبلاً كاملاً . والتي ردها طه حسين وأحمد أغايف ومن الغربيين ردها أرنولد توينبي هذه النظرية تتطلب منا إلقاء نظرة على موقف الغرب من الحضارة الإسلامية عندما حاول اقتباسها وإلى أي حد بلغ به تقبلها وتكيف وقائع التاريخ الصحيح على أن حركة النقل والرجعة من اللغة العربية إلى اللغات الحديثة بدأت منذ ١١٠٠ م إلى ١٥٠٠ تقريباً وقد سارت هذه الحركة على نحو يشهد بالقدره الفائقة على حماية (الفكر العربي الاسلامي بإقصاء دوحه وقيمة ، والانتفاع بكل ما أضافه الفكر الاسلامي دون نسبته إليه ، ثم اقتباس منهج الفكر الاسلامي التجريبي وتحويله إلى منهج عربي خالص ثم الإصرار على عدم الاعتراف بأي فضل للحضارة أو الفكر الاسلاميين وإمامانا في التعصب والحقن عمدوا إلى إطلاق اسم القرون الوسطى المظلمة ، على مرحلة نقطة الحضارة العربية الاسلامية ثم للفرز من الحضارة الرومانية التي بادت حوالي ٤٠٠ م إلى الحضارة الحديثة التي نهضت عام ١٥٠٠ م تقريباً وتجاهل فترة أكثر من ألف عام هي فترة ضياء ، الحضارة الاسلامية في المشرق وأسيابا بيننا هو فترة القرون الوسطى المظلمة للغرب وحده . وقد سار منهج الفكر الغربي على قاعدة مخالفة للأسس الاسلامية وتجاهل الأثر العربي الاسلامي وعمد إلى معارضته واتهامه والحقده عليه ونقده بتمصب . ويبدو في هذا المجال (توماس الأكوينى) علم الاسلام في نظر الفكر الغربي ، فهو الرجل الذي تصدى للفكر الاسلام وعمد إلى غرلة الفكر الغربي وتخليصه من آثاره ، وقد استطاع أن يبعد طابع التوحيد وروح الاسلام ومفهوم التكامل والوسطية في الفكر الاسلامي ، وأخذ عصارة هذا الفكر في مجالاته المختلفة (الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية) ثم نسبها إلى محصلات الفكر الغربي وبالجملة فقد عمد إلى تصفية أثر الفكر الاسلامي من الفكر الغربي نهائياً . ولا يمنع هذا من أن نذكر أنه في السنوات الأخيرة برزت حركة منصفة تحاول أن ترد للفكر الاسلامي حقه في كثير من معطيات العلوم الاجتماعية والطبيعية . ولطالما ردد الاستعمار الغربي نظرية أمانة الحضارة الموكولة إلى الجنس الأبيض . وهذه نظرة قوامها تفرقة عنصرية غالبية بين الأجناس وهي مستمدة من نظرية رومانية قديمة ، فالانسان الأبيض (لا الانسان عامة) هو تاج الخليفة وهو السيد وهو صاحب الغلبة في كل صراع ينشب على وجه الأرض

وهبارة شتا يفتك تمثل هذا المعنى الرجل الأبيض لا يغلب ، والغريون عندما يكتبون تاريخ العالم يبدأون تاريخ شعب أبيض ، هو شعب اليونان وينقلون زعامة البشر من بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطلينان وجرمان . فإذا ظهر شعب ملون وارتفع إلى مستواهم عملوا على إسقاطه تأكيذاً لنظريتهم الغالية في التمسك وهم يجهلون الغرب طرفاً والعالم طرفاً آخر على حد تعبير توينبي في رأس كتابه (العالم والغرب) ويقول لورد لويدي في كتابه (مصر منذ عهد كرومر) إن الغربيين عقلية تمنحهم إلى الاحتقاد بأن مبادئهم هي حقائق زاهية يجب على العالم أجمع أن يتقبلها وكثيراً ما يدعفهم أن يروا هذا غير الواقع والحضارة الغربية التي يريد الغرب أن يفرضها على الحضارة الإسلامية هي اليوم موضع النقد والتجريح من أهلها أنفسهم وقد تعددت الآراء التي تشير إلى قصورها في تحقيق الأمن والطمأنينة لذويها فكيف يمكن أن تحقق ذلك لغير أهلها . يقول أحد الباحثين الغربيين المتصفين : قصرت المهمة الغربية في المهمة التي أقيمت على عاتقها في الأجيال الأخيرة ، أهي المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدي إلى الوحدة الإنسانية ، لقد وقع اختيار الغرب على أسلوب حب الذات وكان اختياره له جريمة ، وكان من أثر ذلك ضياعه واضمحلال نفوذه ، لقد أراد الغرب أن يرحل العالم ولكن تحت سلطانه ومصالحته ، والعالم لا يسأس إلا بالعدل والحب والإخاء ورد الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الفاشية واعتمد عليها وعبت بالشرائع ، ومن الحق أن يقال إن وحدة الثقافة العالمية ، ليست فكرة خالصة وإنما تجوى في أحماها هدفاً مضللاً . وهي هبة خلاصة المظهر ولكنها تضمر التمسك والاحتقار للثقافات الانسانية ، وهي تمنى في الواقع سيادة الثقافة الغربية وسوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية لسيادة الغربية في الفكر وإحلال قيم للفكر الغربي ومفاهيمه محل القيم الفكرية الإسلامية كما أجمع المصلحون والباحثون المنصفون على أن الدعوة إلى العالمية في فترة كفاح الأمم لمقاومة الاستعمار هي دعوة منحرفة لأنها ستكون بمثابة انصهار لهذه الأمم - التي لم تستكمل وجودها الذاتي النفسي - في كيان الأمم الغالبة . وبالرغم من كل محاولة إلى دعوة عالمية فإن الفوارق الطبيعية والاختلافية والاجتماعية والروحية والتاريخية للأمم ما تزال عميقة الجذور ولن تستطیع قوى الاستعمار صهر الأمم الإسلامية ذات الحضارة والثقافة العميقة الجذور في بوتقة الأممية أو العالمية . ومن الحق أن يقال إن الفكر الإسلامي لا يحاكم إلى مقاييس الفكر الغربي ذلك لأن لكل ثقافة طابعها الخاص وطريقته المتميزة . إن كفاح المفكرين المسلمين اليوم في تحرير الفكر الإسلامي من سيطرة الفكر الغربي هي من أقوى المثل الدالة على سلامة الذاتية الإسلامية وقد ظل المفكرون المسلمون أكثر من ثلاثة قرون يعملون في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة . لقد كان شغل المفكرين المسلمين للشاغل هو الحيلولة دون أن يذوب طابع الإسلام الحضاري في حضارة أخرى ، هذا الرفض بالذات هو الذي مكن الجزائريين من الصمود في وجه الاستعمار الفرنسي مائة وأربعة وثلاثين عاماً وهذا الإيمان بنفسه هو الذي مكن المسلمين الهنود أن يصمدوا ولا يذكروا في وجه أغلبية ساحقة وما يزال الإسلام هو وسيلة الاحتجاج والمقاومة والإرادة القمالة وراء كل حركات التحرر والأصالة ودعوات الإصلاح والتجديد . وما يزال هو القوة التي تواجه الغزو الصهيوني في فلسطين والفكر الإسلامي لا يرفض ثمرات الفكر الإنساني بل يتقبلها على أساس قيمه وذاتيته ومن هنا فهو يفرق بين الحضارة وبين الاستعمار .

هذه الحضارة التي يفرضها الغرب على العالم الإسلامي اليوم هي حضارة استعمارية قوامها إعطاؤه منتجاتها المصنعة والحصول على خاماته بأبخص الأثمان ودون أن يعطيه مصادر الإنتاج وهو يقذف العالم الإسلامي بالجوانب الاستهلاكية التي تتصل بالترف في التجارة والشهوات في الأفلام الإباحية والعمود والحلور وأدوات التجميل والزينة وتطورات الأزياء أو القصص والمذاهب الضالة في الفكر ولكنه يحول بيننا وبين الجوانب القوية الإيجابية في الحضارة كالصناعة والأسلحة والتكنولوجيا والآلات الذرية. ويعرض أرنولد توينبي في سخرية بالغة بتركيا الحديثة حين ولت وجهها شطر الغرب ولم تأخذ منه إلا هذه القصور المدمرة للشخصية الإنسانية والمجتمعات ويقول إن تركيا قد تغربت منذ أكثر من أربعين عاماً ولكنها لم تستطع حتى اليوم أن تقدم العلم الحديث أو الحضارة أى إضافة بسيطة ويعنى هذا بالطبع أن الغرب لم يرد أن يجعل من تركيا دولة غربية فاعلة ولكنه أرادها دولة عسكرة نفضت عنها كل مقومات الفكر الإسلامي وأصبحت ذليلة على أبواب الاستجداء الأوربي، وهذا هو الواقع الحى والنتيجة الطبيعية لا هتاف تركيا نظرية تقبل الحضارة ككل خيرها وشرها. والواقع أن هذه التجربة هي موضع نظر الباحثين المسلمين جميعاً فمن في الواقع استنا في حاجة إلى أن تصرعنا هذه الحضارة وليس من مصاحبتنا كمسلمين وعرباً أن نذوب في خضمها وأن نغرقنا بتياراتها وصراعاتها ، علينا أن نقبل منها ما ينصير في كياناتنا ويزودنا قوة وفاعلية وأن نقيم ذلك على أساس من كياناتنا وقيمنا وذاتنا ونحذر من أن نمنسج وجودنا أو ندمر شخصيتنا ومقوماتنا ومازلنا نذكر قول ذلك المصلح الجليل الذي قال : «علينا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التي جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدتها عن هداية القرآن .

وفي مقابل هدف الغرب الاستيلاء في فرض حضارته ووجهت إلى الحضارة الإسلامية حملات ضارية لا يعرف في العالم حضارة هوجت بمثل ما هوجت به ولولا أنها تملك ما تملك من عظمة الأصول وثبات الجذور والاستطاعت أن تقارم هذه الحملات الطاغية الظلمة . ونحن نعرف جوهر الحضارة الغربية الذي لا يتقبله الفكر الإسلامي والذي يتمثل في تلك الصورة البشعة التي حملها التاريخ إلينا عندما أهلك توركاذا الهونينكي الأسباني ستة آلاف بالنار وأهلك الأمبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من الماسونيين وأهلك الكاثوليك من البروتستانت في مذبحه سانت بارتلمى ثمانية آلاف أيضاً أما ديوان التحقير في أسبانيا فقد قتل وحده نحو مائة ألف كما يقول (دنباح) في كتابه (تاريخ الأديان) . ولقد كانت كل محاولات التبشير والتغريب ترمى إلى تصوير الفكر الغربي والحضارة الغربية بصورة المثل الأعلى السامى الذي يقدم المجتمع الإنساني الحر الكريم ولكن الأوربيين أنفسهم أصحاب هذه الحضارة يكذبون هذه الصورة الخادعة وأمامنا عشرات الأمثلة على تقديم لما وتصويرها بالهجو والقصور عن إعطائها طابع المجتمع الحر السعيد. تقول مدام سنت بوانت : أنهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها أقيمت على عانقها، أعنى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها ، لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه وأجأ في ذلك إلى القوة الفاشية ولم يراع غير مصالحته وحدها وأبكر فضل الشرق وحجب فضل الغرب وعبت بقواعد الحضارة الحقيقية . وقال د هيربرت سبنسر ، الفيلسوف البريطاني الشيخ محمد عبده في حديث له عام ١٢٢١ هـ : لقد نحن الحق من حقول أهل أوروبا واستحوذت عليها

الأفكار المادية فذهبت الفضيلة وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفقدت الأخلاق وأضللت الفضيلة ثم سرت عندها منهم إلى الانجليز فهم الآن يرحمون الفقهري بذلك وسنرى هذه الأمم يحتبط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طاحنة . وقال جمال الدين الأفغاني : إن الثقافة الأوروبية لم تتخل قط عن ذمرائها وتمصها . وقد أشار هاملتون جب إلى هذا المعنى حين قال : إن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوروبية التي تعارض قواعد الأخلاق سيدفع المثقفين حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصيروا خاصة على مبدأ الأخلاق الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام ؟ بل إن أمامنا المثل الواضح في تحول الكثيرين من وثقوا أول الأمر بكلمات الحضارة الغربية البراقة : ثم تغيروا أنهم مخدعوا .

يقول الدكتور هيكل : إنني كنت عظيم الثقة بالعالم وبالطريقة العلمية الحديثة أنها ستؤدي بالإنسانية إلى معرفة السكون معرفة هي ملاك سعادة الانسانية فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها لبثت أنتظر نتائجها العالمية في السلام العام وحرية الشعوب وحققا في تقرير مصدها وكانت السنوات كلها توالى بعد الصلح فتفتحت عيني على حقيقة بدأت تقوى صورتها عندي حتى بلغت غاية القوة سنة ١٩٢٠ وهذه الحقيقة هي أن العالم يعاني قبل كل شيء أزمة روحية ، وإذا كان رأيي أن أدرس حياة النبي لم أجد الوسيلة لمعالجة أزمة العالم الروحية ولإنهاض الشرق نهضة تخلص منه حياة جديدة كحياة الغرب بعد القرن الخامس عشر ووجدت في دراستي للنبي العربي ودينه وأعماله والحضارة التي وضع أساسها ما خلق أمامي عالماً جديداً من عالم التفكير لم يكن ذهني متوجهاً إليه من قبل . ولقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذها جميعاً هدى وبراساً ولكن أدركت بعد لأي أني أضع البذر في غير منبته فإذا الأرض تهضمه ولا تنمض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه . وانقلب ألتس تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة مؤثلاً لوحى هذا العصر فنشأ فيه نهضة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من أسباب وبشت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو مصدر البذر الذي يفتت ويشمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وترجو .

وهكذا ندور دورة الفكر حول الفكر الغربي الذي يبرز في أول أمره مثاليًا ثم إذا به ينكشف عن حقيقة قاسية هي أن الاستعمار يقتل كل ما فيه من قيم ومثل والتبشير ينحرف به إلى عمل من شأنه أن يركز النفوذ الأجنبي ويحد الباحث المسلم نفسه أخيراً أمام ضرورة ملحة هي أن الفكر الإسلامي هو المصدر الحقيقي الذي يستطيع أن يعطي هذه الأمة عوامل قوتها وحيويتها . وأمل أم ما يتصل بهذا وهو وجه جديد من وجوه التغريب يحتاج إلى الالتفات إليه وهو ما يطلق عليه «التبادل الثقافي» . ومن الحق أن ما يسمى «التبادل الثقافي بين الشرق والغرب» . إنما هو في حقيقته «إمداد ثقافي» من جانب واحد هو جانب الغرب إذ ماذا يأخذ منا الغرب الآن ؟ هل يترجم كتبنا أو يمرض أعلامنا . الواقع أننا نحن الذين يفرقنا الغرب بمؤلفاته وأفلامه ومجلاته وإلا فما معنى تبادل الأسانفة : البديل الوحيد هو القادم من الغرب ولا بدليل له فالغرب الآن في موضع السيطرة ولذلك فإنه يفرض ثقافته فرضاً ولذلك يجب علينا

أن نحتاج أشد الحيلة فلا نتقبل كل ما يقدمه لنا بل نختار كل ما يزيد شخصيتنا قوة . والموقف اليوم هو أن الغرب خطة مرسومة في هذا التبادل ، فهو لا يقدم لنا خير ما عنده ولكنه يقدم لنا أفلاما وكتبا قد وضعها على نحو خاص ليقدمها لنا ، يستهدف بها إما إهلاك شأن ثقافته وأبطاله وتاريخه ، أو هدم مقوماتنا وخاصة الأخلاقية . ونشر سموم الإلحاد والاباحية . والهداة إلى التبادل الثقافي ثم دائما من رجال التغريب وهم يفهمون الغرض الذي يرمون إليه ولا يكفون عنه بل يقولون نحن أعطينا الغرب في الماضي ولا بد أن نأخذ منه في الحاضر . ومن حق أن يقال إننا أعطينا الغرب ولكن هل أخذ الغرب منا إلا مآراء مناسبة له دافعا له إلى القوة والنهضة ، لقد تخير الغرب في النقل والاقتراس والقرحة . بل لم يقف أمره عند هذا ، لقد صبغ كل مانقله وأعطاه طابعه وشخصيته وصهره في بوتقته وكان حقا علينا أن ننتفع بهذا الدرس وأن نطبقه . إن أصدق نظرة إلى التبادل الثقافي تحتّم علينا أن نضع قيمنا موضع الأساس ثم نتقبل على ضوءها ما يقدمه الغرب من ثقافته على أن تظل ذاتيتنا موضع القوة . أما القول بعالمية الثقافة فذلك من مؤامرات التغريب بالنسبة للعالم الاسلامي وهو في موضع التخلف والوقوع تحت السيطرة الاستعمارية ، ويمكن أن يقال بعالمية الثقافة بين الثقافات القوية كالأمريكيين والأوربيين . أما بالنسبة لنا فإن الأمر يجعلنا منصرين في بوتقة الانتمية مما يفقدنا ذاتيتنا وشخصيتنا وهو ما تسعى إليه حركات التبشير والاستشراق والتغريب جميعا ويقول البعض : « إن جميع الثقافات تتلاقح ولا تكف عن الاقتباس من الأمم ، وهو قول له ظاهر الحق ، ولكنه في حاجة إلى تحديد وتعميق : فما هي حدود الاقتباس ، إن هناك مجالين : مجال القيم ومجال الثقافة . أما في مجال العلم فلا شك في القول بعالميتها وسلامة الاقتباس فيها ، أما في مجال الثقافة المتصلة بالمزاج والذات والشخصية والقيم المختلفة فإن الاقتباس فيها إنما يجري بتحفظ وتحرز شديد ، وما ينقل يجب أن يصاغ في صورة ملائمة ، ولا بد أن يدوب في ثقافة الأمة فيصانف إليها كعامل قوة ، ينصر في أعماقها ويتشكل بها ، لا أن يحولها ويخرجها من صورتها وطابعها . إن أي أمة تقبّس ثقافة أمة أخرى لا بد أن تتخلّى عن ثقافتها ولو في حدود الحيز الذي تشغله الثقافة الجديدة وهي بالطبع ستتخلّى بهذا القدر عن شخصيتها وذاتيتها ومن ثم فهي لن تكون الأمة الأصلية ولا الأمة البديلة ، بل ستكون شيئا آخر مضطربا مهزوزا ، وهو ما يطلق عليه « الانتمية » .

الفصل الرابع

التبشير واللغة العربية

وجه التبشير إلى اللغة العربية حملة ضخمة قوامها حقيقة أساسية هي أن القضاء على القرآن : مصدر الاسلام وقانونه الاسلامي يتطلب القضاء على اللغة الفصحى ، ولما كان التبشير والنفوس الاستعماري لا يستطيعان أن يكشفوا هذه الحقيقة صراحة فإنه قد أخفها وراء كل خطوة اتخذها بهما الدعوة إلى العالمية

أو مهاجة اللغة العربية وانتفاصها أو الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . وتكشف جميع النصوص عن أن هذا الغرض الدفين الذي بين أيدينا واضح في عقل وتدين كل من تصدى لهذا الغرض ، ويبدو خطر الدعوة إلى تعطيم اللغة العربية واضحاً حينما نرى أن عدداً كبيراً من المبشرين والمستشرقين قد تصدوا للكتابة في هذا الموضوع وأقاموا من أنفسهم خداماً لهذه الغاية لا يرون بأساً في التخلي وتغيير شخصياتهم في سبيل تحقيق ما يريدون ، حتى أن د . ولهم سبيتا ، أول الدعاة إلى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة يختار أن يعيش في حي وطني دلسكي يستقي العامية من منابها الأصيلة ولا يدون إلا ما يسمعه ، ثم يدون ما يسمعه بأذنه على كم قيصه خوفاً من أن يلاحظه أحد المتكلمين فيفقد طبيعته وحرية في الكلام . وقد شغل عدد من هؤلاء الأجانب بأمر العامية واهتموا بها وألفوا عنها وفي مقدمتهم في مصر : ولهم سبيتا ، وكارل فولرس وسلدن ولور ورايم ويلكوكس وقد بدأ ذلك منذ ١٨٨٠ واستمر حتى عام ١٩٢٦ تقريباً . وفي خلال ذلك كان لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى قد حملوا هذه الدعوة ثم اتصل ذلك بالدعوة التي دعاها عبدالعزيز فهمي عام ١٩٤١ عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية ، هذا في مصر وأما في المغرب فقد تولى كولاتن ومن بعده ماسينون لواء هذه الدعوة وفي لبنان ظهر كثير من الدعاة إلى الحروف اللاتينية والعامية اللبنانية ، وقد كان هدف هذه الدعوة التي حمل لوائها التبشير أساساً لخدمة مخططات السيطرة الاستعمارية الثقافية إنما يرمى إلى تمزيق اللسان العربي في العالم الإسلامي كله وليس العربي وحده ، والقضاء على لغة القرآن كلية بإحلال اللهجات العامية محل اللغة الفصحى في كل قطر وبذلك ينفرط عقد الوحدة الجامعة التي يكون قوامها هذا الكتاب المنقول والذي حفظ وحدة اللغة العربية طوال أربعة عشر قرناً . ويؤكد الباحثون على أن اهتمام الأجانب بالعامية ولم يكن من أجل البحث العلمي ولا من أجل حاجتهم إلى معرفة اللهجات البلاد العربية التي تقتضى مصالحهم أن يعيشوا فيها ويتعاملوا مع أهلها وإنما هو من أجل القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية محلها ومن الواضح أن هؤلاء الأجانب من المبشرين والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من إداوات حول ما يصفونه ما يزال يستقي منها كل دعاة الشعوبية والتغريب واتباع المستشرقين والمبشرين من إداوات حول ما يصفونه بصعوبة اللغة العربية ، وصعوبة الحروف العربية ، واهتمام اللغة العربية بأنها لا تستطيع مجازاة العلوم الحديثة وما يطلق عليه اسم الفوارق الواضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة . ولقد يدعى بعض البسطاء لاهتمام الاستعمار والنفوذ الأجنبي باللغة العربية بغية القضاء عليها ، ولو علموا مكان اللغة العربية من الإسلام والثقافة وكيان الأمم لها دهشوا ، فاللغة هي روح الأمة ومزاجها ، وهي ينبوع ما عند الأمة من المزاج الخلق والشعور النفسى ، ولا تفكر الأمة إلا ببلغتها ، فالرابطة بين الفكر وبين اللغة دقيقة وخطيرة ، ولذلك فإن القضاء على اللغة أو تهديدها إنما يراد به القضاء على روح الأمة وإفساده . وفي هذا يقول المازنى : « إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا بالألفاظ فهي وحدها أداة التفكير فلا سبيل إليه بدونها ومن المستحيل أن تتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ معينة ، ولكل لغة أساليبها وطرائقها ، فأساليب التفكير وطريقة التصور خاضعة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ، وهذا فرق بين الانجليزى والفرنسى ، وما بين الانجليزى والهندي ، وتمتاز اللغة العربية في هذا المجال عن اللغات الأخرى بأن لها

كتاب هو رسالة السماء إلى المسلمين ، ومن هنا فهم ترابط بعد الجماعة العربية التي تتكلمها بجماعة أخرى تزيد على خمسة أضعاف من المسلمين الذين يمدون في هذا الكتاب لغة دينهم ولغة ثقافتهم ومن هنا فقد أصبح لغة العربية بهذا الوضع مكان فريد وخطير كان على الاستعمار أن يواجهه بحسم ، خيف يذهب الإسلام تذهب اللغة العربية ، ومن هنا فقد عمد الاستعمار إلى تهديد اللغة العربية ومن هنا وفي سبيل إقصاء القرآن عن ثقافات الأمم المسلمة سيطر النفوذ الأجنبي على وسائل التعليم وأدارها بلغته التي أصبحت هي اللغة الأولى في كل قطر محتل ، وجرى تهديد المعاهد الإسلامية الخاصة كالأزهر والقرويين ، وقد أشار المبشر الأكبر زويمر ، إلى خطورة اللغة العربية حين قال : إن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، وكان هذا إشارة إلى ضرورة العمل على هدم اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القرآن . وهذا هو المعنى الذي تافه إليه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في حملته على (لطفى السيد) ودعاة التسوية بين العامية والفصحى ، فقد كان الرافعي يعرف أن الهدف من ذلك هو إحلال لغة وسطى بسيطة قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يبتعد المسلمون عن لغة القرآن البليغة ويصبحون عاجزين عن فهم القرآن أو التعامل معه وهذا هو ما يهدف إليه الاستعمار ومن أخطر دعووات التبشير والتفريب تلك الدعوى التي تتحدث كثيراً عن الأدب الشعبي والفلكلور ولا يفهم سر الإلحاح في هذه الدعوة إلا حين ترى حيرة سبيتا وفولرس وولور وويلكوس في البحث عن ثقافة شعبية يريدون إسنادها إلى اللهجات العامية وبذلك يستطيعون أن يقولوا إنها لغة وشرط اللغة أن تكون لها ثقافة ومن هنا عمدوا جميعاً إلى جمع الماويل والأزجال وقد سجت هذه الدعوة في الوقت الذي كان دتلوب ، يستولى فيه على مقاليد التعليم في مصر ويضع النظام الذي يجرى به تغليب العامية والانجليزية وحين فرض دتلوب تعميم العلوم كلها بالإنجليزية واحتقر دراسة العربية وكل ما يتصل بها ثم جاء سندن ولمور بعد الإحتلال فأضاف إلى دعوة من سبقوه إلى العامية ، : العمل على كتابة العامية بالحروف اللاتينية وأزرت حملة للمقطف والجماعة من غريحي الإرساليات والمعاهد الأجنبية هذه الدعوة ورددوا آراء هؤلاء التي تلخص إغارة الشهات عن الخلاف بين لغة الكلام ولغة الكتابة وضرورة إحلال اللغة الأجنبية في التعليم نتيجة الإرتباط بالدول الأوروبية وكان سعد زغلول أول ناظر د المعارف العمومية ، هو أكبر دعاة بقاء اللغة الانجليزية لغة عامة للتعليم وقد استطاع به الاستعمار والنفوذ الأجنبي أن ينقل السهام الموجهة إلى كرومر وإلى دتلوب إلى قلب وزير مصرى عربى هو الذى يحمل لواء الدفاع عن بقاء اللغة الإنجليزية وإبعاد اللغة العربية .

قال سعد زغلول : إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبته أو اتباعها لشهواتها ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة ، إن مركز الأمة من الأمم الأخرى واحتلالها بالاجانب وإثباتك المصالح الأجنبية بالمصالح الوطنية كل ذلك أوجب تعميم العلوم باللغة الانجليزية لكي يتقوى بها التلاميذ . ويمكنهم أن يستفيدوا ويفيدوا بلادهم ويقووا على الدخول مع الأجانب في معترك الحياة . وقال إن الذين يتعلمون باللغة العربية لا يمكن أن يوظفوا في الجمارك أو البوسطة أو المحاكم المختلفة ، وقد واجهت سعد زغلول حملات عنيفة لأنه إنما كان يقول بلسان عربى ما كان يقوله كرومر في تقاريره وما يحاول

الاستعمار فرضه على مصر وقد أشار الفيلسوف على يوسف صاحب المؤيد إلى مدى الخطر في التعليم باللغة الإنجليزية وكيف أنه يؤدي إلى حصر العلم في طبقة ضيقة جداً من الأمة ويقلل الاستاذة الأكفاء ويلقى القدرة العلمية والفنية التي بلغة البلاد بل ويميت هذه اللغة شيئاً فشيئاً وقال : إن التعليم بلغة الأمة ينقل العلوم بكليتها بخلاف التعليم باللغة الأجنبية فإنه ينقل أفراد المتعلمين فقط من الأمة لهذه العلوم ، وإذا كان بالعلم حياة الأمة فهو لا يحياها إلا إذا ذاب في جسمها كالدم في الشرايين وكشف مصطنع كامل مغطط للنشور والتغريب حين قال : لما طلب اللورد كرومر تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف حدثته في مصر دهشة ورجاء وتساءل الناس لامي غرض اختار المعتمد البريطاني هذا القاضى لا كبر وأهم النظارات أهو لإصلاح شأن المعارف وترقيتها مرضاة الأمة أو هو لمحض خدمة السياسة الإنجليزية ، على أن كتبه من الناس كانوا يحسنون الظن بسعد باشا وبصدق أمانته ونياته .

وأشار مصطفى كامل إلى دفاع سعد زغلول عن اللغة الإنجليزية في التعليم المصرى ثم قال : يدهشنا من هذا الرجل جرأته على التأكيد في تعليم العلوم باللغات الأجنبية . إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف صهر رئيس الوزارة الأمين على وحيه الخادم لسياسته وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحيزة للإنجليز وذرت الرماد في العيون قائلة : إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى وعرف الناس الآن لامي غرض اختار كرومر لإدارة المعارف الأهلية رجلاً لم يدخل في حياته مدرسة ولا علم تليداً ، ولا عني مطلقاً بدرس شيء من مسائل التعليم والتربية إنه قد يمكن للبرأ أن يكون محاسباً عظيمًا وقاضياً فاضلاً ولكن لا يرام من هذا أن يكون أهلاً لإدارة شئون تربية الشبيبة وتعليمها . إن سعد باشا قد فشل فشلاً عظيماً في الجمعية العمومية لو كان وزيراً أوربياً يتكلم أمام البرلمان لكان قد استقال في المجلس ، ولكنه وزير في مصر يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته . إن سعد باشا يخطئ بهذا الاعتقاد كل الخطأ فهو كلما اعتمد على هذه الثقة ، فقد ثقة بلاده وتأيدتها له ، وإن كل التناف اللورد كرومر وإحسانه ولطفه لا يمكن أن يمحور فشلاً كذلك الفشل الذى دوى خبره في كل أنحاء مصر إلا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كفاخى ليأسفون على حاضره كل الأسف ولينخافون على مستقبله كل الخوف ! (ونقول : من الحق ان يقال أن مستقبله ظهر بعد ذلك في زعامة عامة شاملة للبلاد حيث توارى مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطنى) .

وقد أشار إلى هذا الخطر مستر بلانت في تقريره الذى نشره الواه : يظهر لمن يتحقق في شئون مصر أن اللورد كرومر وضع قانوناً لسياسة التعليم وقرر في هذا القانون أن لا يتعلم النشء المصرى الحديث إلا لغة إنجليزية وكل ما كان مخالفاً للدين الإسلامى وإلا فليبقى هذا النشء بغير علم على الإطلاق ولذا رأينا على رأس المعارف في مصر المستر دنلوب وهو رجل إنجليزى ذو شهرة سيئة لأنه عدو للمسلمين وجدو لغة العربية ويساعده في عمله رجل أرمنى مسيحي اسمه يعقوب أرئين وهو بلا ريب عمل مشين وقبيح في بلاد إسلامية وإذا أراد المصريون أن ينالوا استقلالهم ويحرروا وطنهم فعليهم

الاحتفاظ بما احتفظت به كل أمة مهضومة وهو الدين واللغة فإن الأمة التي تقبل لغة الغالب الفاتح تسجل على نفسها الدال والطاعة العياء والأمة التي تقبل دين من اغتصب بلادها تخون شرفها الوطني وأنا أنصح المصريين أن لا يسمعون إلى أقوال بعض الصحف الفرنسية في القاهرة التي تقول أن التعليم إذا كان وطنياً فلا ينبغي أن يكون دينياً على الإطلاق وأشير على مصر بأن لا تضيق على نفسها نطاق التعليم فإن الإسلام دين حق تام ولا يعرف حداً يقف عنده في سبيل التقدم الحقيقي ويمكن لمن يعرفه جيداً أن يصل إلى أممي درجات المدنية الحديثة وحل أغوص المسائل العلمية الكبرى . . ولعل أخطر مانعها خطة التبشير بالنسبة للغة العربية هو ما حاول ويلكوكس أن يدعو إليه حين قال أن العامية في مصر هي لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية فقد نشر عام ١٩٢٦ رسالة بعنوان (سوريا ومصر وشمال إفريقيا وماطة تتكلم البونية لا العربية) . زعم فيها أن اللغة التي يتعلمها الناس من حلب إلى مراكش بما في ذلك ماطة هي اللغة للسكنانية أو اللفينيقية أو البونية ، كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها باللغة العربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف سنة وأنها انحدرت إليها من المكسوس ، وهذه محاولة جريئة ومبذلة للقول بأن اللهجة العامية هي لغة قائمة بذاتها وأنها كانت موجودة قبل الإسلام والهدف من هذا هو تأصيل الدعوة إلى العامية في محاولة لاحتلالها محل لغاية الكتابة ، حيث يردد هؤلاء جميعاً العلاقة بين العامية والعربية ويقارنوها باللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة وهي مقارنة باطلة وقد رددنا على هذه الاتهامات في كتابنا ، اللغة العربية بين حاتمها وخصومها . . والمعروف أن ويلكوكس كان من أكبر دعاة العامية وأنه ترجم الإنجيل بالعامية كما ترجم بعض قطع لشكسبير وقد وجدت هذه المترجمات ازدرأ واحتقاراً كبيرين ولم يتقبلها أحد كما أجرى هؤلاء الأربعة (سينا ، فوارس ، ولور ، ويلكوكس) محاولات متعددة للدفاع عن العامية وذلك بادعاء القول بأن لها قواعد محددة وكان الهدف واضحاً من هذه الحملات المتواليه التي بدأت (١٨٧٠ - واستمرت إلى ١٩٧٦) هو ليس فقط كما يقول بعض الباحثين الذين لم ينظروا إلى الأمور نظرة عميقة : د أن الهدف هو فصل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتفتيت وحدتهم اللغوية بالقضاء على العربية الفصحى . . ليس هذا فقط بل إن الهدف أكبر من ذلك وأخطر وهو السر المكتوم في حنايا الصدور : القضاء على لغة القرآن وإحلال لهجات تصبح لغات فينطوي كتاب الإسلام الأكبر ويفقد خاصيته الكبرى وهي وحدة الفكر بين المسلمين .

ومن خلال هذه المخططات التي رسمها التبشير والاستشراق ، انبثقت دهوات افانبيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي في مصر وفهيم في لبنان (اسكندر المطوف والحوري مارون غصن) وما تزال كتابات دعاة العامية في مصر والعالم العربي إلى اليوم تستمد مصادرها ومجربها . على الفصحى من هذه الكتابات وكذلك فعل التبشير والاستشراق في كل جوانب الفكر الإسلامي هذا العمل ، فأعد ركنية أساسيه بأقلام رجاله وترك لتابعيه وخدامه الانتفاع بها وزديدها واقد قرأت في الأعوام الأخيرة رسالة أقيمت في أحد المؤتمرات الغربية عن العامية ، لا تكاد تخرج في مضه ونها عن كلام ويلور وويلكوكس ولأن كانت بحروف عربية ويتوقع اسم عربي وقد واجهت هذه الحملة ردود فعل قوية وكتب الكثيرون

يفقدون آراء لطفي السيدورد عليه مصطفي صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي، وقد الدكتور أحمد الحوفي آراء سلامه موسى، وقد عبد الوهاب عزام وكثيرون آراء عبد العزيز فهمي وما يزال يردد هذه الهدوى بعض التفريبيين في هذا الجيل من أمثال : ميخائيل نعيمة ولويس عوض وسعيد عقل وسوف لا يكون رجاءهم بأكثر من رجاء من سبقوهم .

الفصل الخامس

أثر التبشير في الثقافة العربية والتراث

لم يقف أثر التبشير عند ميدان واحد بل عمد إلى التأثير في جميع الميادين وكان أبرز هذه الميادين ميدان التأليف فقد استطاعت معاهد الإرساليات التبشيرية التي تعمل في العالم الإسلامي منذ مائة عام تقريباً أن تتحقق نتائج ضخمة في هذا المجال وأن تقدم مؤلفات وكتباً تعد الآن (وكانز هامة) في مختلف فنون البحث العلمي والأدبي والتاريخي . هذه المؤلفات الأمهات هي الآن مراجع سهلة ومصادر أساسية في يد أساتذة الجامعات والمدرسين في مختلف أنحاء البلاد يرجعون إليها ويعتمدون فيها حاجتهم دون أن يجهلوا أنفسهم في سبيل البحث ، وفي مقدمة هذه المؤلفات : الأدب العربي لبروكلان ودائرة المعارف الإسلامية التي ألفها بحمودة من المبشرين المنعصبين ضد الإسلام والقرآن وقاموس المنجد والموسوعة العربية (فرانسكاين) وتاريخ الآداب العربية للاب لويس شيخو والفتن الإسلامي لجرسي زيدان وعشرات من المؤلفات التي تضم آراء فرح أنطون . وشيل سمبل . وولي الدين يكن ولطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق . أما الكتب التي تدرس في الجامعات والمعاهد التابعة للإرساليات التبشيرية فإنها تفوق الحصر ، بالإضافة إلى عشرات أخرى تظهر بين حين وحين وتتداولها الأيدي . ولقد حارل كتابنا ومفكرنا طوال الأعوام الخمسين الماضية متابعة هذه الكتب واستعراضها والرد عليها وكان أكثر المشغولين بهذا العمل : فريد وجدي وشكيب أرسلان وزكي علوي في مجموعها كتب لا تخضع للبحث العلمي وإنما هي حملات من الحقد والافتراءات وبمجموعة من الألفاظ النابية ومحاولة لوصف الرسول والمسلمين والقرآن بأوصاف بعيدة عن الحقيقة . وهدف هذه المؤلفات تشويه الإسلام والمسلمين ، بغية قوهينهم وإضعاف وحدتهم ، وإثارة الفتن في تاريخهم وفكرهم وخلق النزعات الشمولية التي تفرقهم ونقض على وحدتهم ولجهاز التبشير مؤلفات وكتاب ، هؤلاء واضح غرضهم . ولذلك فإن كتاباتهم تسقط في نظر القارئ المنصف غير أن للتبشير اسعان بجماعة من الكتاب الاستعماريين الذين زاروا العالم الإسلامي بروح الاستعلاء والعصية وانظروا إليه بروح الرجل الأبيض عدن العالم فهاجموه ، فاستغل التبشير كتابات مثل هؤلاء للكتاب كما انتفع بكتابات المستشرقين واستغل تناقضاتهم وقصورهم في فهم بعض النصوص واستهدف آراء التابعين منهم لوزارات الاستعمار وهي آراء مفترضة سلفاً ، وقد حمل هذا كله إلى العالم الإسلامي وأذاهه بأسلوب وأسلوب ، وفق مخطط نفسي دقيق، وعلى مراحل ، فأثار به حملة ضخمة من الطعن في الإسلام والقرآن تشوه صورتهما في نفوس الناس ، وتخلق تياراً من الاستهانة الاستخفاف والكراهية له بين أهله .

ويمكن القول بأن دوائر المستشرقين إنما تمثل المصنع حيث تمثل دوائر المبشرين « السوق » التي تعرض البضاعة وتذيعها وتعلن عنها وتعاود التذكير بها في كل مناسبة وفي مقدمة كتابها : « لمن وهبى جب وفردريك بلس وليفوليان وهاربر ولافيجرى وبوليوس رشتير وماسينون . وقد أحدثت هذه المؤلفات أثراً بعيداً في تغيير مناهج الأدب العربى والفكر الإسلامى بما حاولت إثارته من شبهات حول بعض الحقائق الأساسية ، ففي مجال التفسير الإسلامى تجرى مضاربتة بالتفسير الرومانى واتهامه بأنه تابع له ، وفي مجال الأدب تجرى المقارنة بينه وبين الأدب اليونانى بهدف انتقاصه في مجال الأسطورة والمسرحية . ومن أمثلة اعتداد الكاتبين باللغة العربية على كتب المبشرين ما افتضح سره عندما أصدر الدكتور طه حسين كتابه (فى الشعر الجاهلى) وما حمله من آراء حول إبراهيم وإسماعيل عندما أراد المؤلف إنكار القرآن والتوراة وقال : إن وود وإسميها في القرآن والتوراة لا يمكن للإببات وجودهما التاريخى) فقد تبين أن هذه الآراء منقولة من كتاب المبشرين طبعته في القاهرة (مطبعة النيل للمسيحية) اسمه : ذيل مقالة في الإسلام باسم رمزى هو : هاشم العربى وهو كتاب مطبوع للمرة السادسة سنة ١٩٢٥ وهو العام الذى كتب فيه طه حسين كتابه ، وأقدم طبعة لهذا الكتاب عام ١٨٩١ . وهكذا خلق طه حسين هذه البادرة في اتخاذ كتب المبشرين مصدراً للأدب العربى وتجهد كثيراً بما أورده بروكلمان ومرجليوت وغيره عن الإسلام مسبوقاً في كتب لويس شيخو وجرجى زيدان في الأدب العربى وهما الكتابان اللذان اعتمد عليهما معظم الباحثين في الشام ومصر منذ ذلك الوقت البعيد عام ١٩١٠ وما بعدها ويتصل بهذا عدد من المؤلفات التى نشرها المبشرون في بيروت عن الأدب العربى وقصد بها إخراج الأدب العربى من روحه الإسلامية وتعزيز روحه الجاهلية . وفي القاهرة وإلى عهد غير بعيد كانت المدارس الإيطالية ومدارس القبر تدرس كتباً مثل كتاب (غاية الأدب فى لغة العرب) وهو كتاب موضوع لتعليم اللغة العربية ، ومن نماذج ما جاء به من إساءة للإسلام والعرب ما جاء فى صفحة ٢٨١ حيث يقول : وبالجمله يمكننا القول بأنه حينما حل العرب أكرهوا شعوب تلك البلاد على اعتناق الدين الإسلامى فكان الفضل الأعظم فى هذا الانقصار العظيم راجعاً إلى السيف لا إلى الحجّة والبرهان على حد قول شاعرهم أبى الطيب المتنبي : « المجد للسيف ليس المجد للعلم » . ومقالة الإسلام والسيف هم من هذه الاتهامات الكبرى التى ردها المبشرون وأكثروا من ترديدها : وذلك بالإضافة إلى عذرات الموضوعات والشبهات التى لا يتوقف ترديدها وأهمها إنكار فضل المسلمين فى الأدب والفلسفة والمجتمعات على اللغة العربية والدعوة إلى العامية ، واتهام القرآن بالوضع وبأنه مجموعة من آراء الكتبة المقدسة السابقة عليه وإثارة الشبهات حول بعض النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة ، ومحاولة جعل المؤلفات التى وضعت لتتفرد مصادر أساسية للبحث كالأغاني وألف ليلة . والواقع أن المجال الثقافى بعد الوسيلة الكبرى الثانية للتبشير بعد مجال التعليم ، وقد ركز المبشرون شبهاتهم فى قضايا كثيرة ونثروها فى عديد من المؤلفات وخاصة دائرة المعارف الإسلامية التى أشرف على إصدارها فندسك وليني بروففسال وشاخى ومايمان وهيمهم من المبشرين اللابسين طيالة العلماء فحيث تتحرك فى مواد هذه الموسوعة تجد السموم والشبهات ماثرة على نحو آخر . وفى مادة أصول ، مثلاً التى كتبها شاخى ، يحاول أن ينصب إلى القرآن الخطأ ، واتهام الرسول بالنسيان ووجود المتناقضات واتهام الرسول بأنه لم يكن يقصد

إلى خلق نظام يضبط به حياة أعباءه بل ظل القانون العرفي العربي القديم يسير في الإسلام سهو الطبيعي وهذا كله خطأ مقصود وليس مقصداً في الفهم أو عجزاً من الباحثين ، وإنما هي جراءة هادفة إلى رسم صورة مضللة من معرفة الإسلام أمام قراء دائرة المعارف الذين يعدون في معاهد التبشير والاستشراق للعمل في العالم الإسلامي . كما ضم قاموس المنجد دسائس كبيرة أريد بها إدخال عبارات جديدة فخر عربية أصلاً وتفسير بعض الإصلاحات تفسيراً مختلفاً عن تاريخ الكلمات الأساسية بل بعض المصطلحات الإسلامية قد فسرت تفسيراً خاطئاً وقد قدم كتبه من الباحثين مراجعات هامة في هذا الصدد في مقدمتها ما كتبه العلامة عبد الله كفون . ومن أهم القضايا التي ركز عليها التبشير في مجال الثقافة :

(١) الدعوات القومية والإقليمية في مواجهة الوحدة الإسلامية والاهتمام بدعوات القروية والفيزيقية والبربرية ودعوة البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد زويمر بروح القوميات وحرص زملاءه وتلاميذه على اتخاذها وسيلة للقضاء على الإسلام حين قال في كتابه (الإسلام : ماضيه ، حاضره ، مستقبله) . إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إلهاء القوميات . وقد أشاد بالتطورات التي حدثت بعد سقوط الخلافة الإسلامية واتجاه المسلمين إلى الإعلاء من شأن أسماهم الوطنية على اسمهم الإسلامي كما ركز على الدعوة الدائمة على مقاومة التعليم الديني في برامج التعليم ، وعلى إقامة الثورة ضد كل ما هو مأثور وقديم (مؤتمر التبشير ، ١٩٢٤) .

وأولى اهتمامه قضية تحرير المرأة على أنها الوسيلة إلى إخراج المرأة المسلمة من دينها وقيمها حيث يقصر المسلمون - على حد قوله - في الموازنة بين تعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العامة وبين إبعادها إسلامياً لمواجهة أخطار الاختلاط والمجتمع والمحافظة على شخصيتها سليمة أمام تيارات الإباحة الواحفة . ومن أهم ما عني به المبشرون : التركيز على جوانب الإباحة في المجتمع والاحاد والفكر ، ويقول في هذا زويمر : إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق ودولي ، وهذا يعني أن إبعاد القيم الإسلامية من مجال الثقافة يبعد من النفس المسلمة عناصر المقاومة للاستعمار ويخلق بدلاً منها روح الولاء والصداقة والتقبل للنغز الأجنبي ويرحب كثيراً بما يسمونه « كتناسخ الأفكار المصرية والحضارة الأفريقية للمسلمين » ويرون أن في ذلك قضاء هائلاً على مقومات الإسلام ، وهذا ما يدفع اليقظين من مفكرى الإسلام إلى الالتفات دوراً على التفرقة بين الحضارة والثقافة وبين العلم والثقافة وبين الفلسفة والثقافة ، فنحن المسلمين والعرب نتقبل من الغرب جوانب القوة من حضارته ونتقبل العلم بحسبانه عالمياً ولا يمكننا لا أن نتفق ثقافات الغرب ، إيماناً منا بأن الثقافة قومية منبثقة من أمزجة الأمم وأرواحها وخصائرها وقيمها الأساسية ، ولذلك فإن الغرب نفسه عندما مر بهذه التجربة حين نقل الفكر الإسلامي في أوائل عصر النهضة تقبل الحقائق العلمية وحدها ورفض الطابع الإسلامي وأحل بدلاً منه طابعه الغربي . وقد أجرى المبشرون حول هذه النقطة بالذات أبحاثاً طويلة وحاولوا فرض نظرية خاطئة هي أن على المسلمين والعرب أن يتقبلوا الحضارة الغربية متصلة بثقافتها غير منفصلة عنها ، خيرها وشرها وحلوها ومرها ، كما أشار إلى ذلك طه حسين في مصر وأحمد أغايف في تركيا ، وقد أثبتت التجربة كذب هذه النظرية وتضليلها ، وقد رفضها الفكر

الإسلامي كما عارضتها الثقافة العربية استمداداً من قيمها الأساسية التي كانت دائماً قادرة على التقبل من ثقافات الأمم وحضاراتها بالقدر الذي يتفق مع طابعها ومزاجها ورفض ما سوى ذلك ، وقد تساءل زويمر على سبيل التشكيك كما تساءل المبشرون واللامبذم في كل عصر : عما إذا كان في إمكان الإسلام مجازاة تيار الحضارة مع مبادئ القرآن وآماله . وبالرغم من الأخطار التي واجهها المسلمون في خلال السفوات السبعين الماضية من نفوذ الاستعمار العسكري والسياسي والثقافي فإنهم ما زالوا مصممين على الاحتفاظ بقيمتهم الأساسية المستمدة من القرآن ولا أعتقد أنهم سيضعفون في الأيام القادمة من هذا الإصرار ، بل المعتقد أنهم سيكونون أكثر قوة وتصميماً عليه .

(٣) مكتب التراث :

كان الغزو الثقافي والاستعماري والعسكري من أكبر أعمال حركة التبشير بالاشتراك مع حركتي الاستشراق والتغريب ، وهي حركات ثلاث تتلاقى في عمل واحد أو هي مراحل ثلاث لصورة واحدة أو وجوه مختلفة لحقيقة واحدة هي إقامة ركائز أساسية للاستعمار في عقول المسلمين وقلوبهم عن طريق الثقافة والفكر وفي مجال الدراسات العقلية والروحية ، وقد عني المبشرون منذ وقت طويل بترجمة القرآن وترجمة السنة ، والحصول على عشرات الألوف من كتب التراث الإسلامي التي تملأ الآن جامعات أوروبا وأمريكا حيث تباع فهارس المخطوطات العربية في مكتبة برلين وحدها حتى عام ١٩٣٠ ما يلا عشرة مجلدات ضخمة ومثلها في روما وميلانو والاسكوريال في مدريد والناسيونال في باريس والمتحف البريطاني في لندن ومكتبات فيينا وبرلين وليدن وموسكو . وقد بدأ العمل في التراث الإسلامي برأى مسبق وغرضي مبيت هو استغلال الشبهات والآراء المتضاربة والأخطاء في سبيل ضرب الفكر الإسلامي في نظر أهله وإثارة الشكوك حوله ، وخلق جو من الاحتقار والكراهية له ، ولذلك فقد عكف المبشرون وأهوانهم على استعراض آراء معينة ما زالوا يرددونها بعد عشرات الأعوام ويعيدون ترديدها وكلها تدور في دائرة اتهام القرآن بالوضع والرسول بأنه كردهنال روماني والإسلام مقتبس من المسيحية واليهودية ، وأن الاسلام انتشر بالسيف . وقد كانت حركة التبشير وحركة الاستشراق جميعاً في خدمة الاستعمار . ثم برزت حركة التغريب التي تعمل على صياغة الفكر الاسلامي صياغة غريبة توارثية تهدف أساساً إلى انتزاع الاسلام من حقيقته واعتباره ديناً تمهيدياً وإنكار وتجاهل ومحاربة كل رأى يقول بأنه دين مجتمع وأنه جماع للدين والمجتمع وأنه نظام حياة وذلك هو أخطر هدف يرمى إليه الغزو الثقافي ، إبعاد الاسلام عن مجال العمل في المجتمع والدولة والقانون والاقتصاد والسياسة والتربية وإحلال مفاهيم الغرب في هذه الأمور بدلاً منه وفرضها فرضاً ، وهذا ما استطاع الاستعمار أن يحققه خلال فترة الاحتلال الطويلة للعالم الاسلامي ، وهو ما تملأ الأصوات الآن إلى النظر فيه بروح الاصالة والاستمداد من الشريعة الاسلامية والقيم الأساسية لفكر الاسلامي المستمدة من القرآن . ولا شك كان القرآن ، هو أخطر الأصول التي حرص التبشير في توجيه سهامه إليها وإبعاده عن مجال التعليم والتربية والمجتمع والثقافة جملة ، فإذا عرض في بعض الجامعات عرض على أحد من أساليب البلاغة والبيان .

وكان للدكتور طه حسين في هذا آراء مثيرة استمدها من كتب المبشرين عندما حاول اتهام القرآن بالوضع ، وأنه من صياغة محمد وأن له أسلوباً في مكة يختلف عن أسلوبه في المدينة إلخ وقد أورد ذلك الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس القبان المسلمين في البرلمان قارئاً آياه من كراسة طالب في كلية الآداب

(٢) أول المبشرون الاهتمام ببعض الاعلام والشخصيات على أساس . (أولاً) الانتقاص والغرض من قدر كثير من الشخصيات ذات الفاعلية الهامة في التاريخ والثقافة أمثال : المعري وابن خلدون والغزالي والمتنبي وقد وجه بعض المبشرين انتقادات ظالمة إلى هذه الشخصيات وغيرها وتأثر بها كثير من الباحثين الذين يكتبون بالعربية أمثال لويس عوض وطه حسين وزكي مبارك . (ثانياً) ركز التبشير على الاهتمام بشخصيات أخرى وإعلاء قدرها أمثال : أبو نواس ، بشار بن برد ، الحلاج .

(ثالثاً) : أول اهتمامه بالدراسات الفلسفية الصوفية وإذاعتها رغبة في أن تكون أفكارها عاملاً في بلية أفكار المسلمين وإدخال أفكار غير أصيلة عن الإسلام ، وقد عني المبشرون والمبشرون بالمروردي وابن عربي ومذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وهي مذاهب ليست إسلامية أساساً وإنما دخلت إلى الفكر الإسلامي من الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية القديمة . وبما اهتمت به هذه الدراسات كتابة بحث مطول عن مسيليه ، الكذاب ومن الأسف أن بعض المجلات العربية قد عنيت بترجمة هذا البحث ونشره ، وبالطبع فإن مجلة (الرابطة الشرقية) التي كان برأس تحريرها على عبد الرزاق التي ترجمت البحث إنما قصدت إلى هدف محدد في مخطط التبشير والاستعمار والتغريب . وبالمجلة فإن تفويبه الثقافة العربية والفكر الإسلامي كان هدفاً أساسياً للتبشير ، كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين في نفوسهم وأهلبيهم وقومهم ، والمعروف أن القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية هي الوسيلة الأساسية للنهضة واليقظة بين المسلمين ، ولذلك فإن مخطط التبشير كان عاملاً أساسياً في الحيلولة دون تحقيق ذلك وقد استخدم في هذا السبيل عدداً كبيراً من الكتاب الذين يكتبون بالعربية وأحاط أسمائهم باللعان والبريق عن طريق الصحف الكبرى ودور النشر والمنابر البارزة في الجامعات والجمعيات العالمية الكبرى .

وعلى المجلة فإنه يمكن أن يقال إن التبشير كمخطط للاستعمار قد عمد إلى النظر إلى الفكر الإسلامي على أنه (تراث) بينما هو ليس كذلك في الحقيقة ، فالتراث عبارة لا تزال تعطي معنى القديم المتجمد بينما الفكر الإسلامي مازال حياً ، متفاعلاً مع الثقافات العربية والتركية والفارسية والهندية والاندونيسية والافريقية وغيرها . وإنما استهدف التبشير هذا لكي يوحى بأن الفكر الإسلامي شيء قد وضع على رفوف المتاحف . وفي مواجهة هذا التراث عمد إلى تحقيق عدة أهداف يندسها ويدسها كتابة من المبشرين وخلفائهم ممن يكتبون باللغة العربية ترمي إلى توهين القيم الإسلامية وتفتيت وحدة الفكر الإسلامي والثقافة العربية وإثارة الخلافات بين الشعوب الإسلامية والعربية ووضع أسفين ضخم بين العرب والترك والفرس والعمل على بثره القوى الوطنية في كل بلد عربي .

من خلال هذه الأهداف الخفية تبدو العبارات المثارة والعبارة التي تحمل طابع العلم وأسلوب البحث الجاد وهي تدس السموم وتحاول أن تسخر من هذا النص أو ذاك رغبة في خلق جو انفسى من الشك والاستهانة وعدم التقدير للقيم والاصول التي قام على أساسها هذا الفكر الإسلامى الشامخ .

الفصل السادس

التبشير والأدب العربى

وجه التبشير حملة ضخمه إلى الأدب والتراث العربى استمدت شهبانها من كتابات المستشرقين وعمل على إذاعة أنواع معينه من التراث والإغضاء عن أنواع وفنون أخرى وكان من أبرز ما عنى به إذاعة وطبع كتابي ألف ليلة والأغانى وإذاعة شعر منسوب إلى عمر الخيام . والمعروف أن بعض الكتب القديمة من التراث قد كتبت في ظروف مختلفة ، وقصد بها إلى توجية الفراغ لجامت هذه الكتب حافله بالقصص والفكاهة وضمنت خليطاً من المتعة والتسلية ، وحاولت أن تجمع العرائف وأحاديث الأندية وروايات الرواة الذين انتشروا في القرن الثالث في أنحاء العالم الإسلامى وفي عواصمه من القصاص والمداح ، هؤلاء الذين ملأوا أجواء الحياة بعشرات الحكايات التي تضمنتها من بعد كتب المحاضرات والأقاصيص ، هذه الكتب التي كتبت لغاية خاصة ، لا يجوز أن تترك دون تذكير بأنها لا تصلح وحدها كراجع علمية لدراسة عصر من العصور أو تصور حالة المجتمع الإسلامى في ضوءها . وفي مقدمة هذه الكتب : كتاب الأغانى الشهير بأجزائه ومجلداته العديدة . وكتاب ألف ليلة . وقد كان يوضع هذان الكتبان في مكانهما المعروف المعزول عن كتب الثقافة والعلوم والأبحاث الجادة لولا تلك المحاوله الذي قام بها بعض الناشريه الغربيين الذين جاءوا إلى البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر واهتموا اهتماماً كبيراً بإذاعة هذين الكتابين وإعادة طبعهما بكميات كثيرة ، وألوان فاخرة ، بالإضافة إلى ذلك الإهتمام الذي وجه إلى الشعر المنسوب إلى العلامة الفلسكى الأشهر عمر الخيام .

ولقد شكلت هذه الظاهرة في نظر الباحثين المنصفين بالإضافة إلى اهتمام المبشرين والمستشرقين بشخصيات معينة في الأدب العربى والتاريخ الإسلامى وإبرازها والعناية بها ، والحلة على شخصيات أخرى وإثارة الشبهات حولها . كل هذا شكل ظاهرة جديدة تحتاج دوماً إلى الكشف عنها والتذكير بها . فقد كان العرب والمسلمون دوماً في مراحل اليقظة والنهضة يتحركون في مجال تجديد فكرهم بحرية مطلقة ودون ضابط ، ولكنهم في مرحلة اليقظة الحديثة كان النفوذ الاستعماري قد سيطر على معظم أجزاء العالم الإسلامى والأمة العربية ومن هنا فقد حدث نوع من التداخل والضغط بالنسبة لما يبتعث من التراث وما يترجم من الآداب العربية فلم تمكن للفكر الإسلامى حريته المطلقة ولا قدرته المحررة في تقبل ما يجده موافقاً لمجارى فكره ولقيمه الأساسية ، من خلال هذا النهج جرى ذلك الضغط على نشر بعض الكتب وفي مقدمتها ألف ليلة والأغانى والشعر المنسوب إلى عمر الخيام .

(ألف ليلة)

حاولت حركات التبشير والتغريب التي رافقت النفوذ الغربي والاستعمار أن تجعل من كتاب ألف ليلة وليدة وثيقة ، لدراسة صورة المجتمع الاسلامي ولذلك فقد ترجم إلى مختلف اللغات وأعيدت حوله اهتمامات كبرى ، وذلك ضمن المخطط المدرس والمنفذ الذي يشمل الأغاني ورباعيات الخيام وغيرها من المؤلفات المملوءة بالصور الإباحية في محاولة خطيرة لإلقاء ظلال من العكس على سلامة الفكر العربي الإسلامي ومحاولة لإثارة هذه الموجة من الشك والإباحة عن بعضها من « تراث » العرب والمسلمين أنفسهم ويتميز كتاب ألف ليلة وليلة في نظرم بأنه يعطى صورة مختلفة للطبقات في المجتمع ويخلط بين الأُمم والصعولة والناجر والشرير ، وأنه لا يقف بالصورة عند مجتمع المرأة والولاة . والمعروف أن كتاب ألف ليلة ليس وثيقة تاريخية وليست له مصادر أساسية وإنما هو مجموعة من القصص الخيالية التي جمعت ورويت في ظل اضطراب المجتمع الإسلامي وضعفه ، وقد تولى ترجمته المستشرق الفرنسي غالان هام ١٧٠٤ ومن ثم انتشر بصورة مذهلة في جميع اللغات الأوروبية وأعيدت طبعاته في الإنجليزية والألمانية وغيرها وكانت الصورة التي أريد فرضها بالباطل من خلال هذا الكتاب أن الشرق يعيش في الحرمان والترف والبخور والخمر ، هي الصورة التي أغرت كثيرًا من الكتاب الغربيين بالرحلة إلى الشرق ورددت كلمات الإعجاب والتقدير ، فقد كتب جوته وبايرون وغيرهما كلمات تحمل معنى التطلمع إلى الصورة المغلفة بالضباب للشرق والتي رسمتها ألف ليلة في نفوس وعقول هؤلاء الكتاب وقد ظنوا أنها حقيقة وأن المجتمع الإسلامي كله يعيشها . وفي ظل هذه الصورة كون الغرب رأييه في الشرق ، وحاول أن يستخرج منها قواعد للاجتماع والأسرة والمفاهيم ، وكان في ذلك مخطئًا أشد الخطأ فلم يكن الشرق في حقيقته يعيش هذه الصورة ، ولم تكن مفاهيم الترف والجنس والشهوات هي التي تسيطر عليه أو توجه فكره ولقد عرف الغرب عندما زار الشرق كيف أن هذه الصورة لم تكن واقعية ، وأن قيم العرب والمسلمين كانت لا تزال حية قوية ومفاهيمه سليمة ، وذلك بالرغم من الضعف الذي كان قد انتاب الدولة والفساد الذي حل بالطبقات العليا منه أما الطبقات الوسطى والدنيا فلم يكن قد أصابها الانحراف وإن كانت قد تفوقعت وتجمدت . وعرف بالتأكيد عن طريق البحث العلمي النزيه أن « ألف ليلة » لم تكن إلا مجرد صور خيالية تمثل الأساطير والأحلام والأوهام التي تعيش في خيالات القصص ومن في مجموعها مستمدة من تراث الأساطير الشرقية والغربية القديمة ، وقد استطاعت براعة الرواة أن تخلق منها جواً عصرياً فتضم إليها أسماء جديدة . ولذلك فقد كانت محاولة دعاية التغريب المركزة على اعتبار ألف ليلة صورة واقعية للمجتمع الإسلامي العربي ، كانت مضللة وكاذبة أساساً ولا تعتمد على سند علمي صحيح وإن محاولات المستشرقين « لين » في أن يتخذ من هذا الكتاب أساساً لشرح عادات العرب والمصريين وكتابة بحث تاريخي عن المجتمع الإسلامي ليست إلا محاولة زائفة تخدم أغراض التبشير والاستعمار والتغريب والغزو الثقافي ، وكذلك كان مستر « بيرتون » ، غير منصف حين اعتبر أن ألف ليلة تستطيع أن تقدم لأهل طباع المسلمين وعاداتهم وأخلافهم وذلك على حد قوله لتسكون لديهم « الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين

الرافعين من امبراطوريتهم ، وقد كشف هذا عن الاتجاه الاستعماري وبقي أن نقول أنه بهذا الاعتماد على ألف ليلة فإن المستعمرين لم يعرفوا حقيقة المجتمع العربي الاسلامي ولم ينفذوا الى جوهره ، ولأن ألف ليلة من صنع القصص والرواة — وهم غالباً غير حائزين على قدر من الثقافة يؤهلهم لفهم مقومات الفكر العربي الاسلامي فإن ما يجرى فيها من حوار ساذج لا يمثل حقيقة الروح العربية الاسلامية ، ومن هنا . كان خطأ الويف اعتبار الاحاديث التي جرت فيها بأنها مصدر لاستخلاص قيم معينة حيث يقال بأن د حكاية الوزير نور الدين ابن شمس الدين ، هي أكثر بدائية وفيها حرية الأطفال على حد تعبير المستشرقين وعلى ضوء هذا الكتاب الملق الذي لا يعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه تقوم نظريات عربية تحاول أن تصطبغ بطابع العلم والبحث المجرد ، وأن تجد من يدافع عنها ويقبئها من دعاة التغريب والشموعية كالقول بأن العرب عاطفيون يحبون من أول نظرة . وقد بلغ الامر في استغلال ألف ليلة إلى حد أن أضاف بعض المترجمين إليها ما ليس فيها من أفدع عبارات الوصف الجنسي كما فعل المستشرق الإنجليزي الدكتور مارد روس في أوائل القرن فاختفى معالم الاصل وحول ألف ليلة إلى كتاب لإثارة الشهوة والغريزة الجنسية .

﴿ الاغانى ﴾

وكذلك كان كتاب الاغانى في مقدمة الكتب التي حرص التغريب على أن تكون مرجعاً أساسياً لدراسة الادب العربي والحياة العربية في القرنين الاول والثاني وعليه اعتمد كثير من الكتاب الذين قالوا : إن العصر الثاني الاسلامي — كذبا — كان عصر شك وبجحون . وقد حاول بعض دارسي الاغانى أن يعتبروه د مصدراً لتصوير حياة ، وجرت محاولات كثيرة للكشف عن جوانب شعبية والتعامل والخطأ الوارد فيه وأنه لا يصلح كمرجع تاريخي لتصوير الامة العربية ولا مرجعاً أدبياً لأنه اقتصر على لون واحد من الادب في عصره هو أدب الاغانى بينما حفل الادب العربي في عصره بفنون عديدة مختلفة . وأبو الفرج الاصفهاني مؤلف الاغانى ليس مؤرخاً وقد وصفه العلامة اليوسفي بأنه كان أ كذب الناس لأنه كان يدخل سوق الوراقين وهي عادة الهكاكين وهي مملوءة بالكتب فيشتري منها شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها كما ذكر عنه صاحب معجم الادباء ج ٥ ص ١٥٣ قوله : كان شأنه في معاورة الخمر ووصف النساء شأن الشعراء والادباء الذين كانوا في عصره أو قبله حيث يقدم دكاكين الخمارين وجلهم من اليهود أو الصابئة والمجوس ، وقد عرف — أى مؤلف ألف ليلة — بمعاورته للخمر ، ولم تكن له عناية بنظافة جسمه وثيابه ، كما قال عنه الصابى في كتابه الذي ألفه في أخبار الوزير المهلبى وكان أبو الفرج الاصفهاني وسخا قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه وكان الناس يحفرون لسانه ويتقون هجاءه ويصدون عن مجالسته ومعاشرته على كل صعب في أمره لأنه كان وسخا في نفسه ثم في ثوبه وفعله ، وحكى الفاضل أبو على الحسنى للتوخي في كتابه د مشوار المحاضرة : إن أبا الفرج كان أ كولا نهما وكان إذا نفل للطعام على معدته تناول خمسة دراهم فللهلا مذقوقاً ولا يؤذيه ولا ندمع له عين وبعد ساعة أو ساعتين يفصد .

أمثل هذا يصلح كتابه مرجعاً ، وإنما ننظر إلى الكتاب قبل أن ننظر إلى المكتاب . فإذا كان أميناً شريفاً نزيهاً قبلنا منه وإلا رفضناه وذلك وفق منهج الجرح والتعديل ، التي رسمته ثقافتنا العربية الإسلامية وجاء المنهج العلمي الحديث على قاعدتها . وقد أشار الدكتور زكي مبارك في كتابه « النثر الفني » إلى مكانة الأصفهاني وكتابته الأغاني يقول : « وشهرة الأصفهاني وكتابته مستفيضة ، وإنما أريد أن أخص على ناحيتين في الأصفهاني وكتابته لم أجده من تنبّه لها من الباحثين ، وهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية وسيكون لها أثر عظيم في دهوة المؤلفين إلى الاحتياط - ينرجعون إلى كتاب الأغاني يلمسون الشواهد في الأدب والتاريخ . الناحية الأولى خاصة بالأصفهاني ، تلك الناحية هي خلقه الشخصي فقد كان الأصفهاني مسرفاً أشهد الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب في تكوينه الخلق أثر ظاهر في كتابته ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إجمالاً ظاهراً يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدد والرواة ، والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وما كتبه مؤلف حديث الأربعة - يقصد الدكتور طه حسين - تكفي للإقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جر هذين الباحثين إلى الخطأ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون . ولا شك أن إكثار الأصفهاني من تتبع سقطات الشعراء وتلصص هفوات الكتاب جعل في كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإثم والفجوة وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالفسق واللعيش .

أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني : تلك هي لظن ذلك الكتاب ، ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ ، وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغزى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ، وأنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقرة إذا تأملها قارئها لم يزل منتقلاً بها من فائدة إلى مثلاً ، ومتصرفاً فيما بين جد وهزل ، وأخبرنا بعد ذلك أنه اهتم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن ، وهلل لذلك بقوله : إذ ليس لكل الأغاني خبر يعرفه . وهذه كلها شهادات باحثين منصفين في تقدير كتاب الأغاني ووزنه بميزان الإنصاف ، وهذه صورة مؤلفه وحقيقة جوهره ، ومن هنا كان علينا أن نذكر إخواننا الباحثين دائماً أن ينتبهوا إلى هذه الحقيقة ، حقيقة أن كتاب الأغاني ليس له قيمة تاريخية وأنه لا يصلح مرجعاً علمياً ، فقد كان مؤلفه منحرفاً وكان اتجاه الأغاني واضحاً أنه لا يرسم صورة المجتمع كله ، وإنما يرسم ذلك الجانب القليل المضطرب منه . وهناك رأي بأن الأصفهاني له يد في تكوين هذه الأخبار التي ساقها التخصيصات كتابته وأنه وضعها في قوالب يغاب عليها اللهو والمجون ، فهو لم يخلقها كلها ولكنه نفخ فيها من روحه .

حول كتابي ألف ليلة والأغاني وقصائد رباعيات الخيام ردد المبهثون والمستشرقون كثيراً من

الشبهات، وجرى كثير من المحاولات لفرض هذه الآثار كأنما هي مراجع أساسية يستمد منها مفهوم الحياة الاجتماعية والفكرية للمسلمين. وقد ثبت أن بعض المراسلين الأجانب في بيروت هم الذين أعادوا طبع كتاب « ألف ليلة » عام ١٨٨٨ وحفلوا بنشره وتوالى طبعاته عن طريق دور النشر الموجهة من الاستعمار والنفوذ الغربى. ثم جرت أبحاث متعددة في محاولة للقول بأن القصص الذى يضمه « ألف ليلة » بصور حياة العرب أو المسلمين بصفة عامة بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر « ألف ليلة » عن أن قصصها مأخوذة من المراجع الفارسية قبل الإسلام، وأنها لا تمثل مجال « مفاهيم الفكر العربى الإسلامى »، وأنها فى الأغلب مجموعة أساطير هندية بدأت بحكايات السباع الضواري والمرجع لها « هزأرافسانه » ومعناه « ألف رواية »، وقيل أن الجهمشارى قد ترجمها إلى العربية، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦ م القرن الثالث الهجرى فى كتابه « مروج الذهب » عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالبهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره « شهر زاد » و « خادمتها دين زاد »، وكذلك أشار النديم مؤلف الفهرست المتوفى ١٩٠٥ م إلى كتاب ألف ليلة بجلا وقال إنه كتاب الحماقة والسيئات وأشار إليه المؤرخ القرطبى، وقد كانت كل إشارات الكتاب والمؤرخين العرب والمسلمين إليه إشارات مقبحة على أنه مصدر ساقط فى أنظار البعثات وعلماء العرب على حد عبارة الدكتور ستينى كاجترجى (مجلة ثقافة الهند - يناير ١٩٦٢). ومعنى هذا أن كتاب « ألف ليلة » أصلاً كان سابقاً للإسلام، وأن مصدره أساطير هندية وفارسية، وقد ظل العرب يتناقضونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل التسلية، ويضيفون إليه حكايات جديدة، كما أضيفت إليه صور من العهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك حيث أضيفت مسامرات أهل بغداد والقاهرة، فهو مجموعة أساطير فارسية وتركية وهندية قديمة، ومن هنا يمكن تقدير الموقف حين يراد أن يكون مرجعاً من مراجع دراسة حياة المجتمع الإسلامى، بل المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه كثير من المستشرقين والباحثين ودلوا عليه تلاميذهم فى محاولة لرسم صورة ظالمة غير حقيقية. وقد أشار الدكتور (ستينى كاجترجى) إلى أن الحكايات الأصلية الواردة فى كتاب « ألف ليلة »، هى التى تسكون فى منزلتها أساسية، هذه الحكايات كانت مستعارة من الهند بواسطة الفرس، . وعندنا أنه مهما تسكن صورة الحياة التى ترسمها « ألف ليلة »، فهى ليست الصورة التى يرسمها المجتمع الإسلامى، والمرأة التى تصورها « ألف ليلة » ليست قطعاً المرأة العربية أو المسلمة، فقد غير الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة ونظرة الرجل إلى المرأة، فلم تكن قط فى مفهوم الإسلام أداة جنس أو مصدر غايات حسية إلا فى مفاهيم المجتمع الجاهلى أو الوثنى، وحتى بعد أن اضطربت الحياة السياسية فى العالم الإسلامى، فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما يسمونه اللغائية و « بنت الأصول »، والواقع أن الأدب العربى يحوى عدداً من الآثار من مثل كتاب « ألف ليلة »، كالأغاني وكتب المحاضرات والاشعار وهذه كلها لم تسكتب أساساً بروح البحث العلمى أو التاريخى، وإنما كانت جملاً لاشمار وقصص الطرفاء والندماء وكان جامعوها وكاتبوها ضعاف المكاتب بحيث لا يستطيع أحد أن يضعهم فى صف العلماء والباحثين ذوى القدر والاحترام، وإنما يقوم البحث فى مجال الفكر الإسلامى أساساً على الثقة فى الكتاب من حيث شخصيته وخلقه وعقائده، فإذا عرف

هذه سواء في شخصيته أو خلقه أو تصرفاته كان ذلك عاملاً من عوامل عدم التقدير له وبالتالي لا تكون آثاره موضع الثقة الكاملة . ولذلك فإن (الأصفهاني) مؤلف (الأغاني) وغيره كثيرون قد عرفوا بإغراقهم في حياة اللهو واللعب وبذلك ضلت نفوس الباحثين عن الثقة في كتاباتهم . ويشهد ابن الجوزي في ترجمته لأبي الفرج الأصفهاني بأنه كان من « بذاة اللسان » بحيث جعلت الناس يتعاشونه ويخشون لسانه ، وإنهم ليدكرون لنا أنه لم يسلم أحد من هجائه . ويقول مؤرخه « إنه كان من الغدابة بمكان . داس في نفسه وفي عيابه ، ولعله من هنا كان بذى اللسان ، لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعل هذه الصفات لازمته منذ الصغر » . ويقول صديقه التنوخي « إذا ثقل الطعام في معدته - وكان أكلها نهماً - يتناول خمسة دراهم فلفلاً مدقوقاً فلا تؤذيه ولا تدممه ، وأراه يأكل حمصة واحدة أو أو يصبغ بمزقة قدر فيها حمص فيسهر هج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه . » وهكذا يصط أمثال « الأصفهاني ، أمام ميزان الجرح والتعديل ، ويسقط كتابه وتسقط كل هذه السكتب التي لم يرد بها وجه العلم الخالص ، وإنما أريد بها تقديم قصص مثيرة يتلها بها الناس ويزجون بها فراغهم . ومثل هذه السكتب لا يمكن أن تكون مصدرأ تاريخياً لأنها لا تستوعب صورة كاملة للمجتمع ، بل لأنها لم تستوعب صورة كاملة للشخصيات التي تناولتها . يقول الدكتور محمد أحمد خلف في كتابه عن الأصفهاني وكتابه الأغاني : « إن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم في كتاب الأغاني وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يگوناوا من اللاهين العابثين ، وإنما أبو الفرج هو الذي يتبصع هذه الجوانب في حياتهم ويحرص عليها إن أبا الفرج قصد إلى المزحل بشهادة مؤرخه أعوام نفسية دفينه وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية . قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ ، واختار من المرويات ما جعل الخبر الذ وأمتع والقصة أشهى وأحلى ، ليكون السمر اللذيذ ولتكون الندوة المرحية » . ومعنى هذا أن كتاب الأغاني إنما قصد إلى : « إدخال السرور - مادة السمر - للتفليس وإزجاء الوقت ، وليس للحقيقة والتاريخ مطلقاً . وقد نبه كثير من مؤرخي أبي الفرج إلى أهوائه الشخصية . ويصف الدكتور محمد أحمد خلف الله (الأصفهاني) خيم وصف بأنه « حديد ، سريع الغضب بذى اللسان ، يغضب لاتفه الأشياء ، ويضيق من أيسر الأمور ، ويطلق لسانه فيمن يستثير فيه الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء » . واعتقد أن هذا شأنه وهو شأن كتابه فإنه لا يصلح أساساً كمصدر ومرجع للدراسة الجادة ، واعتقد أنه قد تأكد في اعتبار الباحثين منذ وقت بعيد أن كتب الأدب التي يقصد بها عادة إلى الفكاهة والسمر وكتب المحاضرات هي عماليجرو باحث أو عالم على أن يعتبرها ميزاناً صحيحاً يزن به رجال التاريخ أو تؤخذ منه تراجم العظماء ، أو ترسم به الصورة الاجتماعية للأمم ؛ وإذا كان مفهوم التاريخ في أحدث مذاهبه هو اعتبار الوثائق مشكوكاً فيها وباطلة أساساً حتى تثبت صحتها ، فالقول في هذه الصور الأدبية المروية بنه توثيق أكيد ، ومن خلال أسماء كلها موضع للتجريح والانتقام في علامة خلقها أو إيمانها بالتحقيق العلمي ، أو اتصالها بالشعوبيين أو الباطنية أو الواندة . وإذا كان كتاب الأغاني يقصر حياة النرف والمجون على طبقة معينة أو مجموعات من الناس فإنه بلاشك أقل خطراً من كتاب « ألف ليلة » الذي يصور المجتمع كله على هذا النحو من التحلل والانحراف

وقد كان لألف ليلة أثر جرد مبرر في رسم صورة مشوهه عن المجتمع العربي الإسلامي ، وقد أضاف المترجمون الغربيون إلى بشاعة الصورة التي يحملها الكتاب إضافات زادت بشاعة فقد أشار المستشرق الفرنسي د غالان ، الذي ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٩٠٧ م بأنه د فرنج ، الكتاب ليلائم ذوق قرائه ، وأنه ركز صورته على رفاهية الشرق وترفه ، وأنه رسم صورة الشرق الحيواني ؛ وكان من نتيجة ذلك أن كتب كثير من الباحثين وفي مقدمتهم المستشرق د لين ، كتاباً عن المجتمع الإسلامي اعتماداً على د ألف ليلة ، وأشار ديشارد بيرتون الإنجليزى في مقدمة ترجمته إلى ، أنها ترجمة تهدف إلى أن يتعرف أهل موطنه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية ليحكموا المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم ، أما رباعيات الخيام فقد أغنانا السيد مبشر الدين الطوازي بكتابه د كشف اللثام عن رباعيات الخيام ، أن نفيض في موضوع دعوى نسبة هذه الاشعار التي تلقى بالانحلال إلى عالم مسام تابه كان متخصصاً في الفلك وله في تاريخ العلوم الاسلامية مكان جلي ، ولكن هكذا أراد الشاعر الانجليزى د فيتزجيرالد ، حين نسب إليه - ظلماً وزوراً - هذه الافكار المجهولة الاصل . وجملة القول أن هذه الاشعار إنما أريد بها أن ترسم صورة مغايرة تماماً لمفهوم الاسلام للنفس الانسانية ، وقد كان للاستعمار دخل كبير في التركيب على هذه الاشعار التي جرى ذكرها على الالسنه في مختلف أنحاء العالم الاسلامى وخاصة في فارس والهند مستهدنة لشر هذه السموم بين الشباب معرضه إياهم على تناول الخمر وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعى والعمل وحتم على الاباحية والوفدة والحرية المطلقة ، وكان ذلك ضمن منخطط النفوذ الاستعماري لدفع الشرق إلى التراخي في مقاومة الغزو والاستسلام له . وقد أشار السيد الطرازي في بحثه القيم ، كما أشارت مصادر كثيرة إلى أنه ليس هناك من مصادر أكيدة تؤيد نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام وأنه لا وجود لمصدره الاصلى وإنما أسند إلى عالم عظيم شرقى وحكيم فلسفى رائع ، ومنجم لامع في نفس الوقت الذى انغمضوا فيه أبصارهم عما ثبت عنه - عن عمر الخيام - في مقولاته وآثاره التي تدل على ديانته وتمسكه بتماليم الشريعة الاسلامية وحرصه على تطبيقها في كل شئون الحياة وهم لم يكرموا عمر الخيام لمكانته في العلوم الرياضية وعلوم الفلك وإنما من أجل الاهداف السياسية في إذاعة قصائد التحلل والمجون المنسوبة إليه وأنهم لم يفعلوا ذلك لابن سينا أو الفردوسى أو الغزالى أو الونخشرى من أعلام الفكر الاسلامى ، لقد كان لعظيم الغربيين موجهاً في الواقع إلى تلك الرباعيات الخيلية التي مهدت لهم سبيلاً النيل من الاسلام وتعاليمه ودعوة أهل الشرق إلى التحلل الخلقى والحرية المطلقة والضعف والخوان . وقد أشار مبشر الطرازي - وعشرات غيره من الباحثين - إلى أنه لم يثبت أصلاً وجود نص حقيقى كتبه عمر الخيام وأن النسخة التي نسبوها إليه كتبت بعد وفاة الخيام بأكثر من ثلاثمائة وخمسون عاماً مما يؤكد أن الرباعيات موضوعة لأصل لها ، استغلها دعاة التبشير والاستعمار وساروا بها إلى كل مكان مستغلين إسماعظيا وباحثاً مسلماً كبيراً في سبيل تحقيق خطة من خطط التغريب والغزو الثقافى .

الفصل السابع

التبشير وتاريخ الاسلام

وجه التبشير إلى التاريخ العربي الإسلامي حملات عنيفة متنوعة استمدت شبهاتها من نظرات بعض المستشرقين وحرص دعاة التغريب والشمونية على إذاعة هذه الشبهات وترديدها من بعد لتشويه التاريخ الوطني والإسلامي جميعاً. وفي هذه الشبهات حول حياة الرسول وحياة الخلفاء والأبطال والفاتحين وعديد من المواقع والمواقف المختلفة مستهدفة الغرض من قدر تاريخ الإسلام والعرب ولعل الشبهة الكبرى التي توجه إلى تاريخ العرب والمسلمين هي أنه لم يرق على أساس علمي، وهي فرية باطلة، فقد عمد المؤرخون العرب إلى منهج علمي دقيق أشبه بطريقة المحدثين في التثبت والدقة والتحري. وحاولوا أن يستفيدوا من قواعد علم الحديث في الجرح والتعديل ونقد النص، ويفخر الدكتور أسدرستم في كتابه مصطلح التاريخ، يسبق المحدثين إلى هذه القواعد الجميلة التي تفوق دقة وضبط ما وصل إليه أساطين علم التاريخ وتقدمته في أوروبا وأمريكا وذلك وفق طريقة جمع الأصول ونقدها وتنظيمها، وتفسير النصوص والتعليل والإيضاح والعرض. وقد أشار العلامة د. تالينو، إلى مدى دقة العرب في كتابة التاريخ، وأنهم اتخذوا لذلك طرقاتاً بالغة الحيلة (أولاهما) ذكر عدد السنين سنة فسنة ورواية ما جرى من الحوادث في كل منها مهما كانت البلاد التي وقعت فيها كما فعل الطبري وابن الأثير وأبو الفداء. وذلك بخلاف القدماء من اليونان الذين جعلوا غاية التاريخ في حكاية الحوادث (ثانياً) العناية برواية الحوادث باعتبار سياقها على قدر الاستطاعة كما فعل المسعودي في مروج الذهب وابن خلدون وابن القفطي. ومنى حاول إتهام المؤرخين العرب بأن كتابتهم لتاريخ شيدت على أسس الطريفة الفارسية، الكاتب فيليب حتى، صاحب كتاب العرب، غير أن المنصفين من الباحثين أمثال الدكتور عبد العزيز الدوري والاستاذ محمد عبد الغني حسن أكدوا في مواجهة هذه الشبهة، أن علم التاريخ كان عربي النشأة والأصول وأن خطوطه الأساسية تمددت واستكملت قبل الترجمة من الفارسية ولذا فإن قول فيليب مني: بأن المثال الذي احتذاه المؤلفون فارسي في الأصل على طريقة (خداينامه) هذا القول مردود الدكتور الدوري: هو مردود لأننا نعرف أن كتابة التاريخ على أساس السيرة، وعلى أساس الأسر الحاكمة عرفها العرب قبل ترجمة الخداينامه. وقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول متصلة بدراسة الحديث (الغازي) من جهة ومتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين وعندنا أن اضطراب فهم الغربيين للتاريخ الإسلامي - فيما غير الهوى والمقاصب - يرجع إلى جوهر الخلاف الأساسي بينه وبين التاريخ الغربي.

والحق أن فهم المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامي يحتاج إلى نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرهم إلى التاريخ الغربي الذي يمارسونه، وأن المقاييس التي يتبعونها في فهم تاريخهم قد تختلف اختلافاً واضحاً

في التطبيق على التاريخ الإسلامي العربي ونأتى بنتائج قاهرة أو مختلفة تماماً ، وأنه لابد في دراسة التاريخ العربي الإسلامي من مفاهيم مختلفة ، باعتبار أن التاريخ الإسلامي صورة من النفسية العربية الإسلامية التي صاغته . وقد تنبه إلى هذا المعنى كثيرون ، من بينهم مستر هاملتون جب ، حين يقول : إن التاريخ الإسلامي سار في وجهة معاكسة للتاريخ الأوروبي ، على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على انقاص الامبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلاً ، فبينما خرجت أوروبا على نحو متدرج لاشعوري ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة من غزوات البرابرة ، أنشئ الإسلام أنبثاقاً مفاجئاً في بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تميز على التصديق في أقل من قرن من الزمان ، امبراطورية جديدة في غربى آسيا وشواطئ البحر المتوسط .

وراجع هذا المعنى الأستاذ تربتون ، في كتابه « الإسلام : عقائده وعبادته » ، حين قال : إذا صح في العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تحليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد وهو الاسلام وبما أثير من شبهات حول مفهوم التاريخ العربى الاسلامى ، إنكار أن العرب والمسلمين قد بلغوا مستوى اليونان وبالتالي مستوى الأوروبيين المحدثين في إدراك فكرة الانسانية ، والحق أن فكرة الانسانية ليست واضحة في أمة ولا حضارة ولادين وضوحها في الفكر العربى الاسلامى ، وقد تنبه إلى هذا المعنى « وفرد كانتون سميث » ، الذى قال إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ ، أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ويؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً ، يسهل للبشر على الأرض بمقتضاه ويحاولون أيضاً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش في كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربة أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله ، والذى ينبغي تحقيقه في واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، وأن الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضرة . ويرى الدكتور (البان وايد غراى) في كتابه « تفسيرات التاريخ » أن نظرة المسلمين نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي والقرآن ، فإن إرادتها حينئذ تنطبق وإرادة الله ولا يوجد من يعصى أوامرهم ويعم الرخاء بين البشر ومن صفات المؤمن أنه صار ، ويعلم أنه لا مرد لإرادة الله ، وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ مثلاً بالفيلسوف ابن خلدون فكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التى تعمز عملها في الحياة الانسانية وبسبب نشوء الحضارات وانقراضها . ومن الأمور التى يضطرب فيها رأى المؤرخين الغربيين العلاقة بين التاريخ والاسطورة بقوله العلامة محمد فريد وجدى : « كان القائلون بتسمحيص التاريخ في الثلاثة القرون الاخيرة من الملحدن الذين لا يؤمنون بخالق الكون ولا بالنبوات ولا بالوحي » ، فإنهم نظروا إلى التواريخ المقدمة بإسم « الميثولوجيا » ، أى علم الاساطير ، وذهبوا في تفسير هذه الميثولوجيا

كل مذهب غير مفرق بين ما يصح أن تنطبق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية والتقاليد الخرافية وبين الحوادث النبوية القيمة . وجاءت الأجيال الحديثة فرأت بنفسها من أخبار الأمم حيال التاريخ والنيولوجيا ودربت على أن تعتبر الأول خلاصة محضة من حوادث الشعوب الماضية وأن تعد الثانية حكايات خيالية تدلت من عقول ساذجة اخترعها رجال مداسون فألقوا أنفسهم متحليين من كل ما حمل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية . وتقاليده ومهية معتبرين كل ما يوجد في تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا يتفق والتاريخ المذخور ، خرافات لأصل لها في الواقع . فكان إنكار المعجزات التي أيدت المرسلين في دعواتهم الدينية باعتبار أنها تناقض العلم وتحالف قوانين الطبيعة وأن تعتبر كل هذه الأمور من الخرافات التي لأساس لها في التاريخ ، وقد نوه الكتاب الكريم (القرآن) بأهم ماضيه ومرسلين وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين وكلهم من غلاة الماديين أن من هذه القصص ما لم يرد في التاريخ وبعضه يعتبر من الخرافات وبالجملة فقد بحثوا التاريخ على ضوء المبادئ المادية البهجة التي لا ترى وجود الخالق والروح .

ومن مجال التاريخ العربي الإسلامي شهادات متعددة . أهمها مرحلة الضعف والتخلف وأسبابها وعواملها وهي من أبرز قضايا التاريخ العربي . وقد اقتضت هذه القضية بحثاً موسعاً ، وحاول المستشرقون وكتاب الغرب من غير المنصفين أن يعزو هذا التخلف إلى الإسلام والفكر العربي الإسلامي .

وقامت الشبهة في هذا على وصف الإسلام بما وصفت به المسيحية الغربية التي كانت عائقاً للتقدم والنهضة في الغرب في عهد النهضة والريسانس ، ومن هنا نقلت نفس عبارات الاتهام إلى الإسلام ، بوصفه ديناً وعلى أساس أنه هو مصدر التخلف الذي أصاب المسلمين في القرون الثلاثة السابقة لهذا القرن والواقع أن الإسلام بوصفه ديناً ومدنية لم يكن عاملاً من عوامل الضعف والتخلف ، بل كان الانفصال عن مفاهيمه وقيمه ، والجور من آفاته الواسعة الفسيحة هو في الأعم مصدر ما أصاب العالم الإسلامي من الاضطرابات . وقد ذهب بعض الغربيين إلى وصف هذه المرحلة بأسماء كثيرة ، كان أقساماً واشدها إمعاناً في التعصب ، تسميتها باسم مرحلة الانحطاط ، والواقع أن هذا الوصف لتلك المرحلة ليس منصفاً ، وأن كل الأسماء التي يمكن أن تطلق : كالتأخر والانحدار والتخلف والضعف . ربما كانت كافية لوصف هذه المرحلة ، دون أن توصف بالانحطاط الذي يتمثل في حالة سقوط النهاية ، والواقع أن الجماعة الإسلامية بالرغم من أزمة الضعف الشديدة التي مرت بها فإنها لم تسقط . وكانت أزماتها قد وقعت في ظل مؤامرة كبرى استطاع النفوذ الأجنبي أن يحيكها أكثر من ثلاثة قرون ، وإذا كانت الرابطة السياسية الإسلامية ممثلة في السلطنة العثمانية قد سقطت فإن الفكر العربي الإسلامي لم يسقط . وظل حياً قائماً متفاعلاً مع (عالم الإسلام) الذي لم ينفصل عن جذوره ، ومقوماته ، هذا بالإضافة إلى ما برز في فترة الضعف هذه من مواجهة للتحدى ورد الفعل المتمثل في القدرة على حماية التراث والفكر والمخطوطات واللغة والعلوم عن ثلاث طرق هامة (أولها) المعاهد والجامعات الإسلامية الكبرى التي ظلت حية قائمة تؤدي دورها بالرغم مما أصابها من الجور كالأزهر والزيوتنة والقرويين ومعاهد النجف الأشرف والشام والمسجد

الأقصى ومكة والمدينة وزوايا صحراء ليبيا وخلاوى السودان (ثانياً) هذه الحركة الضخمة لتأليف الموسوعات وطم مختلف فنون الفكر العربى الاسلامى إليها بجمعاً من نحو وأدب ولغة وفقه وتشميس وفلسفة ونصوص . (ثالثاً) الحركة الصوفية بمثل في تجمعاتها الواسعة وتحركاتها الضخمة في إفريقيا ، وهجرات العرب في جنوب شرق آسيا وما كان لها من الحركتين من أثر في نشر الاسلام والثقافة العربية إلى أبعد مدى ، وفي ظل هذه الفترة التي وصفها بعض كتاب الغرب بفترة الانحطاط ظلماً .

وقد عرض القضية التأخير والتخلف كثير من الباحثين وأعلام الفكر العربى الاسلامى المعاصرون مقدمتهم الامير شكريب أرسلان فقال إن أهم أسباب تأخر المسلمين هو العلم الناقص الذى هو أشد خطراً من الجهل ، وفساد الاخلاق بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، وبنوع خاص فساد اخلاق أمراء المسلمين ، والعلماء الذين اتخذوا العلم مهنة العيش ، وجعلوا الدين مصيدةً للعالم ففسدوا الفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم . ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين : الجبن والطمع بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة ، واحتقار الموت .

وقد انضم إلى الجبن والطمع ، الذين أصابا المسلمين ، اليأس والقنوط من رحمة الله . وفقدوا كل ثقة بأنفسهم حتى أصبح المسلمون في العصر الاخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والاروبي ، إلا سينتهى بهصرع المسلم ولو طال كفاحه ، وقر ذلك في نفوسهم ، لاسيما هذه الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المواقفة بالحقائق الصادقة عن الحياتيات بزعمها ، ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية بل زعمت أن الشعب في مجارة المسلمين للافرنج من علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو حرب أو سلم أو أى منحنى من مناحى العمران ، وهو ضرب من المحال ، وكان المسلمين من طينة والافرنج من طينة أخرى ، ونحن نريد أن نقول إن كل من صار على الحرب وصل . وأن المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا أن يعملوا الاعمال العمرانية التي يقوم بها الافرنج وأنه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ، واسكن على شرط أن ينفذ المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت أسباب شقاوتهم زمناً طويلاً وهي أن كل عمل عمراني في الشرق لابد أن يستعار له شركة أوروبية تقوم به وإلا فلا استطاع عمله . ويرى الامام الشيخ محمد عبده أن التأخر الذي أصاب الخلافة زمن العباسيين كان نتيجة لتسرب العناصر الأجنبية إلى جهاز الامبراطورية الاسلامية وأن تأخر العالم الاسلامى ووهن السلطة السياسية الاسلامية ليسا ناشئين من فساد الاسلام ذاته بل من تقاعس المسلمين وإغفالهم لتعاليم دينهم . وقد دافع كثير من المنصفين عن إتهام الغرب لما رمى به الاسلام والفكر العربى الاسلامى من أنه مصدر التأخر ، يقول الدكتور بيهه أمين فارس : إذا حسبنا أن الاسلام هو سبب تأخر الاقطار الاسلامية فبماذا تعمل تأخر أقطار مصرانية في البلقان وفي أمريكا الوسطى والجنوبية وفي أوروبا نفسها . وقال : إن ما قدمه المسلمون في القرون الوسطى من مآثر في شتى ميادين العلم والفكر يثبت أنه لم يكن في الاسلام - آنئذ - وليس فيه اليوم شيء أساسى معاد للتقدم لا - بل إن الأدلة تثبت عكس ذلك - أى أن الاسلام مؤات للتقدم - هي أكثر عدداً وإقناعاً .

ولما هنا في موقف الدفاع عن الإسلام أو النيل منه ، لقد حمل المسلمون تحت لواء الإسلام وفي نطاق نظمهم أعباء البشرية المسلمية والفكرية في ميادين مختلفة ، وطوال مدة غير يسيرة ، ولم تقم أمامهم أى صعوبة ، إلا عندما ابتدأوا تدريجياً يشعرون بالفنائة بما صنعت أيديهم ، . وفي محاولات متعددة لكتابة تاريخ العرب والمسلمين نجد أن المنهدين لذلك هم من غير المتخصصين ، أو من كتاب اتصلوا بدوائر الاستشراف وعن حادلو إثارة الشبهات عن طريق كتب المحاضرات وبعض المؤلفات التي كتبت للترفيه والتسلية وكتب الأدب ، وهي جميعها لم تكتب للبحث العلمي الخالص وفي مقدمتها والأغنى ، ويبدو ذلك في كتابات فيليب حتى وبروكلمان وولاس أوليري وغيرهم . وهناك من يمر على مرحلة المدنية الإسلامية خلال ألف سنة دون أن يذكرها بكلمة واحدة ، ويربط الحضارة الغربية الحديثة بالحضارة الرومانية على مسافة ألف عام بينهما . وأخطر ما يتعرض له تاريخ العرب المسلمين : والتفسيرات الخاطئة ، سواء في عجز عن الاستقصاء أو التعمص لوجهة نظر مسبقة . أو الخطأ في فهم النص . وفي أكثر من موقف حاول كتاب العرب ومن تابعهم من كتاب التغريب تصوير التاريخ العربي الإسلامي بصورة الانقراض ، وفي معركة بلاط الشهداء يتردد قول هؤلاء الكتاب عما يدعونه من المكسب الذي حققه الغرب بإيقاف تقدم المسلمين إلى غرب أوروبا بينما يرى المؤرخون المنصفون الغربيون عكس ذلك ، فهنري دي شامبيون يقول : لولا انتصار جيش كارل مارتل الهمجى على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائنها وكادت المذابح الألهية الناشئة عن التعمص الديني والمذهبي ، ولولا ذلك الانتصار اليربرى على العرب لنتجت أسبانيا من راحة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . وعبر عن هذا المعنى : الكاتب الفرنسى كلودفاريير ، وكذلك عرض له العلامة جيمس ريستد ، والمؤرخ مارك سمفون .

من مجموع لموص ما أورده هؤلاء المؤرخون المنصفون يكاد يتعمد الإجماع على أن انتصار كارل مارتل على تقدم الإسلام في قلب فرنسا هو الذى أخر سير المدنية . وأنه لم يكن كسباً بأى حال . وفي قضية حريق مكتبة الإسكندرية ، تكاد مصادر التغريب أن تتناول العرب والمسلمين بالاتهام الباطل واستغلال نتائج غير صحيحة ، وقد تابع كتاب الغرب في ذلك مؤرخون أمثال : إلياس الأيوبى وطه حسين وجرجى زيدان . بينما أنصف العرب وأيد وجهة نظرم غربيون كثيرون في مقدمتهم العلامة جيبون في كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال : إن القرية لفقها على المصلين وأبو الفرج العبري ، في كتابه (مختصر الدول) وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية فنلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها ، وأشار (جيبون) إلى راءة عمر بن الخطاب وعمر بن العاص من التأمر على حرق مكتبة الإسكندرية وأثبت أن الذى حرقها هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارهم لجيوش كلاباتمة بقيادة يوليوس قيصر وقال جيبون : لقد تأكدت من أنها حرق قبل الإسلام بماقنى عام وأن أبو الفرج بن العبري لفق هذه القرية بعد الإسلام بنحو ستائة سنة . ولم يتعرض قبل أبو الفرج ومؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريك الإسكندرية دافتيكوس ، مع توسعه في الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة ، وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر في عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة وقد طبعت وحجته في اكتفورد سنة ١٨٠٠ وهي عشوة بالخرافات والأكاذيب

وقد نقض هذه الرواية واشنطون آرفنج وفليبي وغيرهم ، كما نقضها آرنست رينان في خطاب له في الجمع العلمي الفرنسي حيث قال : إنه لا يمتد أن عمر هو الذي أحرق خزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبله بزم طويل . وكشف هذا المعنى العلامة د. اليرسيم ، في خطاب إلى العلامة كرد علي وقد شهد للعرب الدكتور غريفيي أستاذ جامعة فلورنسا وأكد أن اتهام العرب بحرق المكتبة فرية زائفة . وما تزال كتب مرجي زيدان (تاريخ التقدم الإسلامي ، وتاريخ الآداب العربية ، وتاريخ العرب قبل الإسلام) تحمل كثيراً من الأخطاء والآراء المنحرفة وقد رجعت إليها نقدرات متعددة ، وهي في مجموعها متتابعة لآراء الغربيين وخاصة متعصبة المستشرقين منهم . وما يزال كتاب (تاريخ العرب) لفيليب حتى وتاريخ (الشعوب الإسلامية) لبروكلمان من المراجع التي يعتمد عليها الباحثون وأساتذة الجامعات ، كصدر سهل ميسور بالرغم مما يحمل كل منهما في تضاعيفه من أخطاء وشبهات . وقد أشار الدكتور عبد العزيز الدوري إلى أن تسمية (فيليب حتى) لمؤلفه (تاريخ العرب) يشعر بوجهة نظر مؤلفه الخاصة ، فلم يسمه تاريخ الإسلام مثلاً وأن التسمية تبين الكتاب في استعمالها ، وقال إن نظريته إلى دور العرب الحضاري فيها مجال لإعادة النظر ، غير أنه يشعر بأن العرب هم محور هذا التاريخ وقاعدته ، وقال إن مؤلف تاريخ العرب قد وقع تحت تأثير مصادره فلم تمكن له وجهة نظر واضحة ، وأن في بعض نواحي الكتاب تلخيصاً لآراء حديثة لبعض المستشرقين وأنه لم يحاول وضع مفهوم جديد للفتوحات العربية ، وردد مع غيره من غلاة كتاب الغرب الشبهة التي تقول بأن العرب الفاتحين لم يكن لهم دأى ثقافة أو تراث فكري ، وأنهم تملقوا بحضارة الأمم التي غلبوها فنقلوا عنها ، وقال : إن شجرة الفكر (العربي) التي ازدهرت في العصر العباسي تأصلت جذورها في ثقافات اليهود السابقة في الإغريق والفرس واليونان ، وقال الدكتور الدوري : ونحن نعرف النشاط الفكري في العصر الأموي كما بان في عرف المؤلف نفسه ، وأن هذا النشاط الفكري ظهر في مراكز عربية صرفة ، وهي المدينة والكوفة والبصرة ، وأن الخطوط لهذه الدراسات وضعت في العصر الأموي . وقال الدكتور الدوري : إن المؤلف (فيليب حتى) يتابع نفس الوجهة حين يتحدث عن الاندلس فهو يرى أن سبب تأخر أسبانيا في نشوء فقه اللغة العربية والعلوم الدينية وكتابة التاريخ يرجع إلى أنه لم يكن عند الأسبان أهل البلاد من العلم والفن ما يفيدون به العرب بخلاف ما كانت عليه الحال في الشام والعراق حين دخلها الفاتحون ونسى المؤلف أن مركز الدراسات العربية الإسلامية كانت في المدن العربية الخالصة ، وليس في المدن القديمة كدمشق والإسكندرية . وناقش الدكتور الدوري ما ذهب إليه (فيليب حتى) من أن كتابة التاريخ عند العرب شيدت على أساس الطريقة الفارسية ، وأكد ما أجمع عليه الباحثون من أن علم التاريخ عند العرب عربي النشأة والاصول . وأشار الدوري إلى عدد من الأخطاء التي وقع فيها فيليب حتى ، ومنها تفسيره لانتشار الإسلام بأسباب مادية ، وقال إنه قد فاتته أن انتشار الإسلام في أدوار ضعفه السياسي كان أوسع من انتشاره قبل ذلك . ومن أخطائه قبوله لأسطورة العباسة لتفسير تسكبة البرامكة دون تمحيص . ومن وجوه تحمل الكتاب الغربيين على تاريخ الإسلام محاولة تصوير فترة ما قبل الإسلام من حياة العرب بصورة براقة زاهية . وفي هذا محاولة واضحة للالتباس من أثر الإسلام وقاهليته الواضحة في خلق الوحدة الروحية والفكرية والاجتماعية في حياة العرب .

ومن ذلك ما يذهب إليه كتاب الغرب بوصف الرسول محمد ﷺ بهفة ، الزعامة ، أو العبقرية فإن المقصود من ذلك هو نفي النبوة أو تهاويلها وهدم الإنرار بها . أما ما يتردد كثيراً من القول بأن الإسلام مشابه في أصوله لليهودية والمسيحية وأن ما في القرآن مشابه لما في التوراة فإن ذلك حق يراد به باطل ، وهي محاولة واضحة لا تقتصر الإسلام والقرآن ، ولكن الواقع يؤكد أن الأديان الثلاثة كلها مستمدة من الدين الأول : دين إبراهيم ، وأن ما للعرب من فضائل عرفت قبل الإسلام فهي البقية الصالحة من ملة إبراهيم وأن مصدر المكتتب الدجالية الأصلية كلها واحد . أما ما أخذ على جرجي زيدان فإنه قسم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار : مدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها : على أن سياسة الراشدين ليست على الإجمال بما يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك ، وإنما هي خلافة دينية توفقت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر . فأهل العلم بالعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب ، وأن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بد ، فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليس فيها أسوة للناس وأنها من مستنبات الطبيعة ، أما دور العباسيين فدحاه ، لا لأجل أهادولة عربية ، بل لسكونها فارسية مادة وقواماً . أما دور بني أمية فلأنه يمثل الأمة العربية فقد حل عليه حملة كبرى وقد وجه له هذا القدر العلامة شبلي النعماني في كتاب مطبوع ، كما وجه إليه العلامة رفيع المظم ونشره في مجلته الهلال ، وقد أشار النعماني إلى أن معظم ما رمى به جرجي زيدان العرب في كتابه منقول من الفصل الذي عقده ابن عبد ربه في كتابه : العقد الفريد ، وأن صاحب العقد حين نقل هذه الأقوال صدرها بقوله : قال أصحاب العصبية على العرب ، وهي أقوال رددتها الشموبية من الحاقدين على العرب والإسلام ودحضها النظام والجاهل وان فتية وغيرهم . ومن المصادر التي كثر الاعتماد عليها من كتاب الغريب في تصوير الإسلام والعرب : الأغاني وألف ليلة ، وقد اعتمد فيليب حتى على كتاب الأغاني وكتب المحاضرات اعتماداً كبيراً واعتبر ما جاء بهما من قصص ونوادير مصادر لنا كبدي بعض ما نسب إلى المسلمين من وقائع التاريخ لرسم صورة المجتمع الإسلامي ، والحق أن أي كاتب منصف لا يستطيع أن يعتبر مثل كتاب ألف ليلة وقصص المسامرات والمحاضرات وكتاب الأغاني أساساً علمياً للتاريخ ، لأنها ليست من المصادر العلمية ولكنها من كتب القسالية ، وبعد فهل توقفت الاتهامات لتاريخ الإسلام عند هذا الحد ؟

الفصل السابع

التبشير والوحدة الإسلامية

ركز التبشير على عدة أهداف كبرى : كان في مقدمتها هذين أساسيين :
(الأول) إبعاد الإسلام عن مجال التأثير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي باعتباره ديناً ونظام مجتمع ، في محاولة لتحويل الإسلام على أنه دين عبادة قاصر على الصلة بين الله وعباده . مباعدين بينه

وبين مفهومه الاجتماعي الاساسى فى بناء منهج حياة للأفراد والمجتمعات التى يحكمها . (الثانى) القضاء على وحده الجامعة الإسلامية ، وفكرة الوحدة الإسلامية وذلك بمخاطبة تيار قوى من الاقليميات وإقامتها على أساس التاريخ القديم ، والحيلولة دون قيام الوحدة العربية بحسبانها عاملاً هاماً من عوامل قيام الرابطة الإسلامية . ومن هنا كانت الجامعة الإسلامية أكبر أهداف التبشير منذ وقت بعيد فكان له عمله الخطير فى تحطيمها والقضاء على الدولة العثمانية حاملة لوائها وإسقاط الخلافة الإسلامية ثم أعلاء أمر الاقليميات والدعوات القومية الضيقة ، حتى اختفى فعلاً من وجه الدراسات وللكتابات التاريخية والسياسية كل ما يتصل بالعالم الإسلامى بحيث أصبح لا يوجد كاتب فى العصر الحديث يعرض لهذا العالم كقوة متكاملة وإنما تجرى الأبحاث كلها حول الروابط الإفريقية والآسيوية والعربية ، ولقد بعدت الأبحاث عن العالم الإسلامى وكل ما يتصل بالأخوة الإسلامية أو الوحدة إلا فى فترات متباعدة بعقد عدد من المؤتمرات الجامعة التى كانت تنطلق آثارها بعد انعقادها مباشرة وتعلو عليها موجات الإنليمية والقومية حتى لا تترك أثراً فى النفوس يعيدها إلى مكان الصدارة . ولقد عرض كثير من المبشرين والمستشرقين لهذا الأمر وكشفوا عن هدفهم واضحاً صريحاً من مقاومة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية : يقول لورانس براون : إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعمرك على العالم وخطراً أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير . ويقول القس سيمون : أن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر ، وتساعد على التخلص من الشعوب الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً فى كسر شركة هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين فى نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والمركز الذين هما فيها ، وإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتللاً ضد الاستعمار الأوروبى فقد استطاع المبشرون أن يظهروا الأوروبيين فى غير مظهر المستعمر فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسبباً من أسباب وجودها ، من أجل ذلك قالوا : يجب أن نحول بالتبشير مجارى التفكير فى الوحدة الإسلامية حتى تستطيع الفكرة (الغربية المسيحية) ان تغلغل فى المسلمين . ولا شك أن هذين النصين بالإضافة إلى نصوص أخرى تكشف بوضوح عن سر الكلمات الغاضبة التى يسرع بعض الكتاب ذوى الولاء للحركة التبشيرية والتغريب فى إطلاقها عندما يتحدث أى باحث عن الجامعة الإسلامية ، ومحاولة تصويرها فى صورة تاريخية رديئة . حين يجرى عرض تاريخ العثمانيين مع العرب ومحاولة تصوير العلاقة بينهما على أنها كانت نوعاً من الاستعمار الغربى .

ولقد أولى التبشير اهتمامه منذ وقت بعيد (بالجامعة الإسلامية) وتناولها بالبحث والدراسة ، وخاصة فى مؤتمر ١٩١١ بعد أن سقط السلطان عبد الحميد حامل لواء هذه الدعوة وسيطرة تركيا الفتاة من الاتحاديين أصحاب الدعوة إلى الجامعة الطورانية على أزمة الحكم وانفتاح الطريق إلى النفوذ التبشيرى والاستعمارى والصهيونى جميعاً إلى قلب العالم الإسلامى . وقد أشار القس نلسن والقس ورنر فى تقريرهما إلى أن اجتماع المسلمين بجامعة إسلامية بكل المعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ قد أصبح أمراً وهمياً لا ثمرة له غير توليد أحلام تفتاق رجال السياسة ، وأشار إلى أن مكة والطرق الصوفية هما من أكبر العوامل فى بث شعور الوحدة بين المسلمين .

ثم أشار إلى المخطط المنفذ والذي يقضى باستحالة تحقق الوحدة الإسلامية حين قال : عبثاً يبنى هؤلاء آمالهم على الجامعة الإسلامية لأن التربية الغربية المسيحية التي تقوم بها (الرساليات التبشيرية) قد انبثت في دماهم بفصل مدارس التبشير وباحتياطات استمدتها حكومة هولانده - والإشارة هنا إلى أندونيسيا - من شأنها أن تزعم آمال المسلمين . ولكنه أشار إلى هدف للجامعة الإسلامية الحقيقي حين قال : « إن العامل الذي يجمع الشعوب ويربطها برابطة الجامعة الإسلامية هو (الحقد) الذي يضره سكان البلاد للفاتحين الأوروبيين ، ولكن (الحبة) التي بثتها لرساليات التبشير ستضعف هذه الرابطة وتوجد رابطة جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبي » .

وعما يتصل بالتركيز على الإقليمية ما تحفل به الأبحاث عن تنمية (الكيان البناني) والاهتمام بالخدمة الفينيقية في ربوع لبنان حتى يقول (رجب) بتمنى الصراحة إن المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية والكنيسة ستضافر على تحقيق ميلاد فينيقية جديدة تكون النصرانية فيها أوسع انتشاراً .
والعمل من أكبر المخططات التي قادتها حركة التبشير بنجاح وحقق بها نتائج طيرة هي خططها في القضاء على الوحدة الإسلامية وإسقاط الدولة العثمانية - بحسبانها نقطة تجمع في مواجهة النفوذ الأجنبي الواحف وإلغاء الخلافة . لقد ركزت قوى التبشير على الدولة العثمانية بهدف إسقاطها وتمزيق الوحدة بين العرب والترك وتسليم الأجواء العربية للاستعمار الغربي . وقد استطاعت قوى التبشير بالاتفاق مع المحافل للماسونية لخدمة النفوذ الاستعماري والصهيوني السيطرة على حزب الاتحاد والترقي وجهاة تركيا الفتاة ، في مرحلتها المتوالتين : مرحلة حكم الاتحاديين ١٩٠٨-١٩١٨ ومرحلة حكم السكاليين ١٩١٩-١٩٢٩ .
والرساليات التي قدمت إلى استانبول وبغروت ومصر في منتصف القرن التاسع عشر قد استعانت بالقوى الماسونية في العراق والشام ومصر على تنفيذ مخططاتها ، والمعروف أن المركز الضخم للعمل كله إنما كان في سلاطيك مقر « الدونمة » وهم اليهود الذين أسلموا تقيّة وعملوا على تقويض الإسلام بالتعاون مع نفوذ الاستعمار والصهيونية . ويمكن القول بأن هذا العمل أخذ مجراه الجدي بعد عام ١٩٠١ على أثر المكافحة التي تمت بين مرتزق زعيم الصهيونية وبين السلطان عبد الحميد وانتهت بقرار حاسم من السلطان هو استحالة التفريط للصهيونية في شبر واحد من فلسطين ، وكانت الخطوة هي اقتطاع فلسطين لإنشاء كيان يهودي يمثل رأس جسر للاستعمار ، وتحقيق خطة الاستعمار التي تقررت عام ١٩٠٧ وهي إجهاد حاجز يشرى بين المسلمين في قارتي إفريقيا وآسيا .

وقد سيطر الدونمة على حركة الاتحاديين الذين كانوا أساساً يتطلعون إلى تحرير بلادهم من التأخر ومن النفوذ الأجنبي بالتماس أساليب الغرب ومناهجه في الحكم والحضارة ، ومن هذا المنفذ الدقيق استطاع مخطط التبشير أن يحطم القيم الإسلامية تحطيماً تاماً في حركة الاتحاديين ، ويدفعهم دفعاً إلى مفهوم عنصري خطير هو الهجمة الطورانية ويدفعهم دفعاً إلى تحويل الرابطة التركية إلى صراع دموي وقد ظل هذا العمل يهرى في الخفاء حيث انطلقت دعوة الجامعة الإسلامية التي حمل لوائها السلطان عند الحميد ، والتي بعثت الرعب والفرع في صفوف الاستعمار والنفوذ الأجنبي حين استجابت وحدات

العالم الإسلامي إلى اللواء الذي رفعه السلطان عبد الحميد ليس بحسبانه سلطان الدولة العثمانية ، بل به صفه خليفة المسلمين وكان هدف دعوته التجمع والوحدة في مواجهة الوحف الاستعماري هنالك شعر النفوذ الاجنبي بالخطر الماحق ، فلم يتردد الإتحاديون عمرة التبشير والنفوذ الاستعماري الاول وخريجي الإرساليات الاجنبية عن العمل على تقويض النظام السياسي القائم وتسلم أداء الحكم لتصفية الدولة في فترة لم تزد من عشر سنوات ونقلها إلى مرحلة أخرى أشد خطورة هي مرحلة الانقلاب الذي قاده مصطفى كال لتصفية الطابع الإسلامي كاية وإلغاء الخلافة وتحويل تركيا إلى دولة غربية خالصة . وهذا العمل الذي حققه الاتحاديون للمسألة الشرقية التي كانت أخطر قضايا أوربا في هذه المرحلة هو ما أشار إليه شير من المبشرين وسجله مؤتمر التبشير العام المنعقد ١٩١٠ في أدنبره وجاء بالنص .

، اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم التي أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها . ، لقد تأكد مدى الترابط الخطير بين الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية التي تقدمت بمخططات الصهيونية عام ١٨٩٦ وكان الانقلاب العثماني بالنسبة لها سبباً مهماً عملاً بعيد المدى في فتح الطريق أمام إرساليات التبشير للعمل بحرية على النحو الذي صورته دكتور زويمر كبير المبشرين في مؤتمر التبشير العام في لسنكو ١٩١١ حيث قال مشيراً إلى الانقلاب العثماني ١٩٠٨ بأنه فتح طريق المبشرين التجول في البلاد العثمانية والعربية دون موانع ، وفتحت الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين . أما الموقف الثاني الذي استطاعت أن تحققه حركة التبشير في تلك المعاهدة السرية التي ألحقت بمعاهدة لوزان التي وافق عليها مصطفى كال وحكومة أنقرة وهي تصفية الاسلام ، إسقاط الخلافة وإلغاء الحروف العربية وذلك كشرط لتحرير تركيا وجلاء القوات المحتلة عنها وكان ذلك نصراً لا حدة لحركة التبشير استطاعت أن تستغل آثاره في العالم العربي وفي فارس والافغان . وإذا كانت الدول الأوروبية قد اتفقت على أن التبشير هو الذي قام بحل المسألة الشرقية فإن التبشير هو الذي ألقى فلسطين كنمرة ناضجة في يد الصهيونية العالمية لقاتهما ، وقد كان الاستثمار والتبشير والصهيونية جميعاً يتنافسون على فلسطين منذ ذلك الوقت البعيد ، بحسبانها قوة ضاربة في وجه الحربة والكرامة الاسلامية والعربية ، فقد كانت الصهيونية هي الجسم الغريب الذي حلم به دكاميل ، وزير خارجية بريطانيا في تصريحه الشهير . وما يتحقق اليوم على ايدي الصهيونية من آثار بعيدة المدى ، إنما كان محسوباً في ذلك الوقت ، لقد كانت كل الاهداف تلتقي حول هذا العمل ، وكان روثشيلد المليونير اليهودي يساعد هذه القوى جميعاً ، واقد جاء اليوم الذي تقول فيه البرقيات إنه لولا بعض المدارس الاجنبية الكبرى في الشرق لسكان الحال أسوأ بين العرب وإسرائيل ، وإن هذه المعاهد كانت في مستوى الهدف الذي أنشئت من أجله وأنها على كل حال قد بررت تماماً كل قرش وضع فيها (إنقرأ تصريح أوتواسمان في جريدة النهار البيروتية ٢٣ / ١٩٦٨) . وإذا كانت دول كثيرة قد شاركت في تمزيق وحدة العالم الاسلامي فإن بريطانيا هي أكبر الدول عملاً في هذا المجال : مجال تثبت النفوذ الاجنبي في العالم الاسلامي والقضاء على وحدة المسلمين فقد كانت تملك فيه أضخم

لصيب من الغنيمة الهند درة التاج البريطاني ومصر والعراق والسودان ولذلك فهي تعد في مجال الغزو العسكري عن طريق التبشير أكبر مخطط ومنفذ . ويبدو هذا في مراجعة ما ذكره غلادستون رئيس وزراء بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا وهو يسك بيده المصحف ويقول لأعضاء مجلس العموم البريطاني «لأنه مادام هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد ، ومن خلال هذه الصيحة بدأت حملة الغزو التبشيري تنفيذ مخططاتها الذي برز في «تعاليم» دوفرين ، الرجل الاستعماري الذي قدم مصر بعد الاحتلال ووضع أسلوب العمل وركز على التعليم بحسبانه العامل الأساسي لتدعيم نفوذ الاستعمار البريطاني . وجاء بعده كرومر الذي فتن النفوذ الاستعماري الثقافي وأشار في تقاريره المختلفة إلى أهمية التبشير والعمل في مجال الصحافة والثقافة . وعن طريق كرومر عمل في مصر المبشر ودوجلاس دنلوب ، مستشاراً لوزارة المعارف منذ ١٨٨٥ تقريباً إلى ١٩١٩ تقريباً وجاء بعده قرم آخر من أقرام الاستعمار الثقافي . ومنذ صيحة غلادستون وضع الانجليز سياسة تعليمية وتبشيرية خطيرة الأثر تركز على إقصاء الدين عن مناهج التربية والاسلام عن مناهج التعليم والثقافة ، فهو ليس سوى عبادات وصلوات وطرق صوفية ، والقرآن يقرأ للبركة أما الاسلام كدين ومنهج مجتمع ونظام صالح للتطبيق في مجال القانون والدولة فقد إقصاه كرومر وماجحه هجومياً عنيفاً وكانت مدرسته الفكرية هي التي حكمت بعد ثورة ١٩١٩ برعامة سعد زغلول ولطفي السيد .

ثانياً : مخططات الاستشراق

مدخل إلى البحث

المقاصد والغايات التي يقوم عليها الاستشراق

(أولاً) : إذا أردنا أن نعرف ما الذي يهدف إليه الاستشراق وما هي مقاصد ذلك العمل الواسع الضخم المتصل بالتراث الاسلامي والفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية فإن وقائع كثيرة تستطيع أن تلقى الاضواء الكاشفة على هذه الغايات . لأنهم يصدرون عن ثقافتهم وعقيدتهم التي تختلف عن الاسلام من وجوه كثيرة .

ولا يستطيعون أن ينسوا ارتباطاتهم بأقوامهم وحضارتهم ونفوذهم السياسي المتمثل في الاستعمار والتمفرقة العنصرية بين جنسهم الأبيض وبين الاجناس الملونة يقول محمد كرد علي : لاني أعلم أنهم يعملون لسياسة بلادهم أولاً وأن منهم متعمقين يتخذون الاستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم في القرون الوسطى . . وهكذا تتقاسم انجماهم وأهدافهم الروابط السياسية والروابط الدينية ، ومن وراءهما وجوه أخرى في الاختلاف والانجاء ، فهناك روابط سياسية بالاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي ، وهناك ارتباطات بالمسيحية وارتباطات باليهودية وهم أحياناً يجمعون بين الهدفين والغايتين ، كما

تجدد في ماسينيون الفرنسي وجب الانجليزى فإنهما متصلين بالسكنيسة ووزارات الاستعمار . ويرى كثيرون أن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما : الاستعمار والتبشير وأنه مازال يعمل من أجل هذا الغرض الذى وجد من أجله وإن غير أساسية وجلده مرات ليتلائم مع الظروف المختلفة وخاصة بعد أن تكشفت أغراضه للمفكرين المسلمين الذين أخذوا يدحضون شبهاته . أما الاستعمار فهو يرى أن المفهوم الاسلامى السليم من شأنه أن يعطى المجتمع المسلم قوة تحول دون سيطرته واستمراره . فهو يستهدف تقويض هذه العقيدة وإحلال مفاهيم تحمل الولاء والصداقة مع الأمم المحتلة تحت اسم الحضارة أو العالمية أو وحدة الثقافة والفكر البشرى . أما التبشير فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الاسلام والتشاور حتى لا يكون منازحا أو منافساً للمسيحية في البلاد الى يحاول أن يقوم بالتبشير فيها والخطر الأكبر هو أن تصل مفاهيم الاسلام الصحيحة إلى عالم الغرب نفسه . وقد أضيف إلى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية التى تستهدف من سيطرتها على الاستشراق الحيلولة دون تجمع العرب في وحدة تقارم الصهيونية وتواجه إسرائيل ولذلك فإن مستشرقى اليهود يعملون في هذا المجال . ولقد كان الارتباط الجذوى بين التبشير والاستشراق أخذاً وعطاء ، أثره في أن كل ما أورده كتاب التغريب من العرب الذين صادتهم معاهد الغرب هو من نتاج التبشير والاستشراق . ولقد كانت أهداف التبشير واردة في أعمال المستشرقين ، ولقد وجد إنتاج المستشرقين رواجاً على أيدي المبشرين ومعاهدهم وإرسالياتهم وجامعاتهم على صورة مناهج ودراسات في مجال الدراسات الانسانية على النحو الذى ينتقى القيم الاسلامية في التاريخ والعقيدة واللغة وفي مجال الشريعة والاقتصاد والتربية . وإذا كان بعض المستشرقين يرى أن هدف الاستشراق هو تقديم أضواء على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى من أجل القدرة على وضع المخطط السياسى للسيطرة الاستعمارية والبحث عن ثغرات في الفكر الاسلامى لاثارة الشبهات حولها وتحرير القيم الأساسية وتأويل بعضها كما حاول الاستشراق بالنسبة لقضية الجهاد وقضية كون الاسلام ديناً ودولة ونظام مجتمع . ولعل أخطر ما يتصل بسمل المستشرقين هو النفوذ والقدرة على فرض هذا العمل الملى بالشبهات والزيغ على مناهج التعليم والثقافة والفكر في عالم الاسلام وكسب الانتصار له . هذا هو الخطر الحقيقى لمخططات الاستشراق ، القدرة على فرض هذا الاتهام وإذاعته وتسليمه من يد إلى يد ونقله إلى أهل التبعية للعرب من الشعوبيين وترديده في كل مناسبة وخفاق معارك حوله لتعميق مفهومه وتوسيع دائرة الانتفاع به ولقد كان الدكتور طه حسين في مقدمة الذين أعلنوا الاعجاب والتقدير لمناهج المستشرقين كما أنه هو حامل لواء الدقاع عنهم بل والدقاع من أهوائهم حين كان يقول إن هذه الحقيقة أو تلك في تاريخ المسلمين أو فكرهم مما لا يرضى عنها الاستشراق ويدعو إلى التخلي عنها ، وهذا أسلوب لا يقوم عليه إلا واحد من أهل التبعية الكبرى حتى قال بعضهم إن طه حسين ليس إلا مستشرقاً من أصل عربى كانت أمانته للفكر الغربى ولذا هب الاستشراق تفوق أمانة المستشرقين أنفسهم وكان متابعا لهم مقتنعا بما يقولون إلى أبعد حدود الافتناع حتى في تلك المسائل الخطيرة كقولهم ببشرية الرسول وبشرية القرآن ، وكانت كتاباته توحى بذلك وإن لم يعلنه جهاراً ، وكان أبلغ مافيه من ولاء وعاطفته لانبواء المسلمين تحت لواء الغرب وإنصار الاسلام في بوتقة الامة والمسيحية

واليهودية والغرب جميعاً ، لا يرى للعرب والمسلمين سبيلاً للحياة أو لنهضة إلا في هذا الانهيار وهذا الاحتواء وهذا الذوبان وقد صرح بذلك في كتبه وخاصة ما أورده في كتاب (مستقبل الثقافة) وكان يرى أن العرب قوم مستعمرون كالرومان والفرس وقد حرص على طبع الكتب التي تثبت الشبهات وفي مقدمتها رسائل إخوان الصفا ووجد ألف ليلة ووجد سيرة المجان جميعاً وخرج من دراستهم بشبهة مسمومة هي قوله إن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون وقد اعتمد على مصادر الاستشراق اليهودي في كتاب أنساب الأشراف الذي طبع في الجامعة العبرية في إسرائيل وجارام في إنكار شخصية عبد الله ابن سبأ وجارى الاستشراق اليهودي رأيه في إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأعلن أنه يشك في وجودهما بالرغم من الإشارة إليهما في التوراة والآن وقد تابع طه حسين كثيرون في هذا منهم سلامة موسى وحسين فوزي وزكي نجيب محمود وعزمي وعلى عبد الرازق ، ولقد لقيت مناهج المستشرقين في البحث والنقد العلمي قرائع كثيرة من تلاميذ المستشرقين فنهجوا نهجهم وأخذوا طريقهم فيما حاولوا من دراسات وخاصة في مجال الجامعة والثقافة والصحافة وحلوا نفس خصومة المستشرقين الدينية والسياسية للإسلام والمسلمين وكانوا أشد قسوة على أهلهم من الغربيين . وفي مختلف الدعوات الخطيرة التي أحدثت تحولات فاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين في العصر الحديث كان الاستشراق هو قائد الغيبة ثم يتبعه الكتاب الذين يكتبون بالعربية من أهل النعمية والتغريب والشعوبيين ، وكان ذلك واضحاً في الدعوة إلى العالمية التي بدأها ويلكوكس وويلدور وغيرهم وتابعتها سلامة موسى ولطفي السيد وفي الدعوة إلى الإقليمية والقوميات الضيقة والفينية والفرعونية التي بدأها فبري وكرومر وتابعتها طه حسين ولطفي السيد وغيرهم .

ومن آثار الاستشراق الخطيرة تلك التوجيهات التي يقدمها المستشرقون لأنهم وأغلب المبشرين يجمعون بين العمل التبشيري والعمل مع دوائر الاستعمار في وقت واحد وأبرز هؤلاء (جب في الاستعمار البريطاني) و (ماسينيون في الإستعمار الفرنسي) (سنوك هونجو ونجه في الاستعمار الهولندي) ومن توجيهات هذا الأخير لأمته التي كانت تحتل الملايو وأندونيسيا قوله : « يجب على الحكومات الأوروبية التي استولت على بلاد الإسلام أن تهتم في إظهار التناقض بين الإسلام والمدنية المصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهما ضدان لا يجتمعان فلا بد من رفع أحدهما : ولما كانت المدنية الحاضرة هي نظام كل شيء ولا عيب عنها لمن يريد أن يعيش . كان البديهي أن الذي سيرتفع من النقيضين هو الإسلام ، وقد خلق الأمير شكيب أرسلان على هذا التوجيه الخطير فقال هذا المشرق الهولندي وكرومر من قادة الاستعمار في العمل على إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام المصرية وإثبات كونه نظاماً قديماً قد بلى ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبغي أن ينبدون الإسلام ظهرياً وينبذوه تسكون أوربا قد تحصنت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعي الذي لا يجيز للإسلام أن يخضع لأمر لم يكن على غير دينه . إنهم يتوجسون خيفة من الحكم الذي يوجب على المسلم أن لا يطاع غير المسلم إلا ريثما يتيسر له نفس طاعته وما هناك من أحكام الجهاد ومن وجوب تضامن المسلم مع أخيه بما جعل الإسلام بناءً واحداً ولا ريب أن الاستشراق قد استهدف من محاولاته تزييف الفكر الإسلامي الوصول إلى غاية أساسية وهي إخضاع المسلمين لحكم الاستعمارين سواء كانوا بأنفسهم أم باتباعهم

ولذلك فإن أكبر ما يركز عليه هو هدم قاعدة الترابط بين الدين والدولة في الاسلام وهدم قاعدة الجهاد وهدم قاعدة القرآن كمصدر أساسي للتشريع وهدم الشريعة الاسلامية كمصدر أساسي للقوانين وفصل الفكر الاسلامي الحديث عن الفكر الاسلامي العام تحت أسماء الثقافات العربية والفارسية والفكرية وغيرها وإسقاط الخطر السكّان في تأثير التاريخ الاسلامي بيطولاته وأجاده بإثارة الشبهات حول وقائع التاريخ الاسلامي وحجب جواثب عظمتة وقوته وإيجابياته وإعلاء شأن الخلافات والصراعات والفرق ومظاهر الانقسام والنفسوخ وكذلك العمل بالخداع على استسلام الفكر الاسلامي المعاصر للفكر الغربي تحت دعوى وائقة بأن الفكر الاسلامي الاصل قد تأثر بالفكر اليوناني وأنه لم يكن للمسلمين حضارة مستقلة وإنما كانت حضارتهم جزءاً من حضارة الغرب التي بدأت باليونان وانتهت بالإنجليز والفرنسيين . وهكذا نجد أن الهدف الأساسي واضح وهو محاولة دفع هذه الأمة الإسلامية عن النهوض وحجبها في دائرة الزبوف ومحاولة احتوائها في دائرة التبعية العلمانية والاممية ،

(١) يدرس الاستشراق خصائص الفكر الإسلامي بروح مسبقة قائمة على أحكام متعارضة تستهدف القضاء على روح الاسلام وهو في سبيل ذلك يحاول استغلال الثغرات الموجودة في المراجع العربية القديمة ليخرج منها استدلالات وتخریجات جديدة تتفق مع مقاصد الاستشراق الأساسية وهم يعمدون إلى تصيد النصوص لتأييد الفكرة المسبقة القائمة في نفس الباحث أساساً والإغضاء عما يعارضها أو يضادها . كذلك فإن اختيار المخطوطات التي يقومون بإحيائها له غاية واضحة ضمن غططهم هذا ، فالتراث مسروق أساساً ، وهم يخفونه ولا يمكنون أهله من الإطلاع على بعضه ، وينشرون منه ما يتفق مع أهدافهم واتجاهاتهم المتأثرة بالكنييسة والاستعمار والصهيونية .

يقول الدكتور حسين المرأوي (متحدثاً عن المستشرق فنسك) إذا أراد أن ينال من الاسلام أمراً فإنه يفرض فرضاً ثم يبحث عن الآيات التي قد تتناسب مع هذا الرأي الذي فرضه ، فإذا وجد آية تدحض رأيه حذفها حذفاً وأنكرها إنكاراً حتى يخرج بالنتيجة التي تزورع الشك في فؤاد من يطلع عليها من غير تمحيص . هذه طريقة المستشرقين التي يتبعونها في كتاباتهم عن الاسلام نفسه أو عن حياة محمد ﷺ أو عندما يريدون أن يستقصوا مسألة في القرآن وهي طريقة قديمة في أقدم ما ورد في كتب المستشرقين والفرض منها ظاهري جلي هو تزويد جماعة المبشرين والمستعمرين بمجيج شبه منطقي يوردهون بها الشك في عقائد المسلمين ويحولون بها دون تمسكهم بدينهم وهي لأحدى الطارق التي وصفها رواد الاستعمار منذ زمن قديم وكانت لأحدى وسائلهم مع تقوية اللهجات العامية حتى لا يتفهم المسلمون ولا يفهموا لغة قرآنهم ويقول المستشرق (سيكاو) إن الاسلام في روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزواتنا فمن مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطاننا .

(٢) لا ريب أن التهم على القرآن الكريم والرسول ﷺ هو أكبر مقاصد الاستشراق ولأنه يخدم كلا من الفايئين السياسية والدينية فقد ركز المستشرقون معظم أبحاثهم حول هذا الموضوع .

وكانت وجهات نظرهم مشوبة بالهوى حين يقارنون القرآن بالكتب المقدسة لا ينتمون إلى قارق بعيد المدى وهو أن القرآن كتاب موثق لم يتصل به أى تغيير أو تحريف بينما أصاب الكتب المقدسة التحريف والتغيير . فالمقارنة بينهما باطلة . كذلك فإن القول بأن هناك تشابهاً بين ماورد في القرآن وماورد في الكتب المقدسة فإن ذلك لا ينقص من قدر القرآن ، لأن مصدر الكتب السماوية واحداً وهو من عند الله ولكن القرآن هو الذى احتفظ بالنص الربانى الاصيل بينما حرفت الكتب الاخرى ، هذا فضلاً عن أن القرآن فيه بيانات إضافية لم ترد في الكتب المقدسة السابقة له .

(٢) يعمل الاستشراق على المكسب من الدراسات الاسلامية من أجل تحسين وسائل التبشير وتجنب الثغرات ومعرفة الجواب التى يستطيع أن يثير الشبهات منها في وجه المسلمين . وقد صور هذا المعنى في وضوح وصراحة كاماين المستشرق هو مان استنجل أ كبر في كتابه (عقائد الاسلام) حيث يقول لنا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعدة عقائدنا المسيحية بناء على فهمنا العميق للتعاليم الاسلامية وفهمنا لنفسية المسلم المتدين وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما يستخدمه من أوله حتى اليوم . وحتى نبنى من جديد دفاعاً جديداً عن العقيدة المسيحية ، دفاعاً يضع في حسابه روح الاسلام والتطور الفكرى للمسلمين فيما يتعلق بعائدهم خلال مايزيد على ألف عام وقد جرى هذا الاتجاه في ظل الحطة الذى عمل الاستشراق لها منذ وقت بعيد وهى أن يضع لكل مسألة أو قضية أو معضلة لإجابة مستمدة من محاولته المتعمدة لتغيير مجرى الفكر الاسلامى وإخراجه من هدفه الحقيقى وغايته الاساسية .

(٤) البحث عن العوامل الاجنبية التى كثرت في آداب الامم الاسلامية والبحث عن الفكر اليونانى في دراسات الفلسفة وعلم الكلام والتوسع مع المغالاة في تصوير أثر الغرب في الفكر الاسلامى، ومحاولة القول بأن هناك حضارة واحدة وأن حضارة الإسلام وافد من روافدها ، وتسمية مراحل التاريخ الادنى بأسماء أوروبية والسيطرة على مناهج البحث وأساليبه وخاصة نظرية النقد الادبى ونظريات الاجتماع والاقتصاد والسياسة . هذا مع أن هذه العوامل الاجنبية لم تكن إلا على هامش الفكر الاسلامى الذى تشكل منهجه اساساً بالقرآن الكريم واكتمل في حياة الرسول، حيث اكتملت أصول العلوم الاسلامية قبل توجه الفكر اليونانى .

(٥) المبالغة في العمل لإيقاع الشك في أصالة الفكر الاسلامى وإلى الادعاء بأن كل ما قدم من جرائب بنسائه إيجابية إنما جاءته من الفكر الوافد بينما العكس هو الصحيح إذ أن الفكر الوافد لم يقدم للفكر الاسلامى شيئاً ذا بال فقد كان قد تكامل قبل ذلك وأن كل ما قدمه الفكر الوافد هو عبارة عن شبهات أمضى المفكرون المسلمون قرنين كاملين في الرد عليها ودحضها وتحرير الفكر الاسلامى منها ورده إلى أصلاته .

(٦) يكشف الاستشراق عن غلبة الهوى والغرض حين تعنى نهاية شديدة بال شخصيات الموصومة

في الفكر الاسلامي أمثال ابن الراوندي ومسيلمة الكذاب والملاح والمهروردي وبشار بن برد وأبي نواس. ويعمل من شأنها بينما يتجاهل الشخصيات السوية ولا شك تجد هذا الاتجاه واضحاً في مختلف المجالات التاريخية. في دراسات بركلان ولا مافس وفي مجال الشريعة الاسلامية في دراسات جولدسيهر وشاخس وفي مجال الأدب ودراسات جب ولويس شينخو وبلاشير بيوك في السيرة وتاريخ النبي في دراسات مرجليوث وفنسلك. بل نجد كثيراً من المستشرقين يهتمون بمسائل فرعية متناثرة يتصيدون منها شبكات فيجمعون بينها ليجهلوا منها كياناً متكاملًا. كذلك عن الاستشراق بدراسة الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفصح ودراسة الحركات المضادة للإسلام بما أسماه دراسة إسلامية، وحين يركزون الاهتمام بالتصوف الفلسفي - وهو بما يخرج علماء المسلمون عن أصول الفكر الاسلامي لاختلافه مع الأصول الأصلية للتوحيد - تدل وجهتهم على الهدى والغرض ذلك أن الإلحاح على هذه الدراسات والأصرار على نشرها وإذاعتها وطبع كتبها في أفق الفكر الاسلامي بعد أن تجاوزها هذا الفكر وحدد موقفه منها لاريب تدل على سواء النية والهدف المقصود والغرض المبيت. ويومي إلحاح الاستشراق على التصوف إلى هدم الفواصل الكبرى التي تضع الاسلام ذاتيته الخاصة بما يؤدي إلى إنصهاره في أتون ما يسمى بالتصوف البشري بما فيه من ممارسات للتوحيد وما فيه من مسموم كوحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ وغيرها.

(٧) التركيز على العاميات والعناية بدراساتها واعتبارها اللغة المستعملة، وإثارة الاهتمام بالبلغ بها ويستمدون من هذه العناية القضاء على اللغة الفصحى والقرآن ولاريب أن وراء العاميات نوايا استعمارية وتبشيرية واستشرافية تستهدف القرآن بالذات وتعمل على توسيع الفجوة بين اللغة الفصحى والعامية لتزريق الوحدة العربية وابتناء آداب عامية تجعل من العسير الارتفاع إلى مستوى اللغة الفصحى وبذلك يعجز المسلمون عن فهم القرآن الكريم الذي يرتفع إلى مستوى عال من البيان.

(٨) التوسع في بيان الفروق بين الشرق والغرب وإنكار تقدم العرب والمسلمين واتجاههم إلى مستوى الغربيين ومحاولة إعلاء الغرب واعتبار الشرق تابعاً له في الحضارة والثقافة والقول بأن منهمجهم في البحث وأسلوبهم في الثقافة هو الأسلوب الوحيد الذي يجب أن يخضع له الشرق وأن تاريخ العالم هو تاريخ الغرب وحده، وأن على الشرق أن يتبع أسلوبهم في البحث العلمي وطرائقهم في التفكير مهما كانت مختلفة ومتباينة ويغلب عليها الهوى.

(٩) يبدو مكر المستشرقين وذكاهم في تقديم كتب رئيسية عامة يرجع إليها الباحث السريع فلا يحتاج إلى الأصول الأساسية قدموا للباحثين كتباً في التاريخ الاسلامي والحضارة والامة من قواميس ودوائر معارف مكنت المثقفين من الحصول على المعلومات للامة في سرعة ويسر وهي مطبوعة طباعة جيدة فأغنت الباحثين عن مراجعة الكتب الاسلامية الأصلية، لقد وجد المثقفون والباحثون في آن واحد كتب الاستشراق حيث لم يتيسر لهم مراجعة المطولات من المصادر الاسلامية وقد أمكن أن يقدموا من خلال هذه الكتب وجهات النظر المضطربة الغازية التي تحقق أهدافهم في تمزيق وحدة الفكر الاسلامي

ونقله إلى مستويات إقليمية وإثارة السعوم والشبهات . (١٠) في خطة الاستشرآق تمزيق الجبهات الواحدة إلى أكثر من جبهة ومن ذلك محاولة خلق تصور بوجود أكثر من إسلام ، القول بأن الإسلام يتشكل في كل مجتمع بصورة خاصة سواء من طريق المجتمعات أو العصور التاريخية أو المذاهب (إسلام لأفريق أو أسيوى) (إسلام شيعة وسنة) (إسلام عصر الخلفاء وعصر الأمويين) الهدف تفريق وحدة المسلمين الفكرية والادعاء بأنهم لا يلتزمون على عقيدة واحدة . والهدف هو تفريق المسلمين لصالح الاستعمار . والمعروف أن المسلمين مهما تفرقوا في مجتمعات وكانت لهذه المجتمعات عادات وتقاليد أو اهتمام بمنصر الوطن أو الأمة فإن ذلك لا يؤثر في القيم الأساسية العامة التي هي أعلى عند المسلمين من الوطن أو الأمة ، والتي هي بمثابة الاطار العام للذكر الاسلامى الذى يربط هذه المجتمعات بوحدة أساسية شاملة ، كذلك فإن اختلاف مذاهب المسلمين إلى سنة أو شيعة أو غيرها فإنها لا تزيد عن الاختلاف في الفروع مع وحدة المسلمين جميعاً في الأصول العامة وليس الأمر في هذا شديداً بالاختلاف بين السكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس فذلك خلاف يصل إلى الأصول العامة في العقيدة .

(١١) يحاول المستشرقون أن يصوروا الدين بأنه جملة من التقاليد والعادات ، في محاولة لإحلاء شأن هذه التقاليد وإعطائها قوة السيطرة في المجتمعات بما يعجب الأخلاق التي هي جزء أصاصى من الدين والتي هي من الأسس الثابتة التي تختلف مع العادات التي تشكلت في المجتمعات نتيجة عادات وثنية سابقة والتي قضى عليها الإسلام .

(١٢) أهداف المستشرقين :

(أولاً) إقناع قومهم أولاً بعدم صلاحية الإسلام لم كنظام حياة وذلك بإثارة الشبهات حول جزئيات عقائده وتاريخه ولعل هذا هو أخطر الجوانب التي قام من أجلها الاستشرآق والتبشير وذلك على أثر ما حدث بعد انتهاء الحروب الصليبية وعودة المحاربين إلى أوروبا وما حلوه من صورة باهرة لمعاملات المسلمين لهم ولسماحة الإسلام مما اعتبرته الكنيسة معارضة لوجهة نظرها التي دفعت بها حملاتها الصليبية وادعائها المضال عن المسلمين ولذلك فقد عمدت الكنيسة إلى إغراس الأسنة المنصقة ومحاولة ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه ومحاولة انتقاص مفاهيمه وذلك هدف غربي خالص مصدره خشية الغرب من اقتحام المسلمين لفكرهم وبلادهم وكسب أنصار لهم ، ومن هنا كانت الحملة المضادة بالتبشير في محيط المسلمين ومحاولة نشر شبهات الاستشرآق في المدارس والصحف والكتب للأغفافية . وقد استغل الاستشرآق كراهية أوروبا التي جاءت بعد السيطرة التركية على أجزاء من أوروبا خلال ثلاثمائة سنة تقريباً وما صاحبها من كراهية وتعصب عمل الاستشرآق على تعميده وتغذيته بالشبهات والباطيل بهدف حجب الإسلام عن أوروبا والحيلولة دون نفاذه إليها (ثانياً) تأييد الاستعمار وخدمته في تحطيم العوامل التي تحول بين المسلمين وبين الاستسلام للغزو الاستعماري والنموذ الغربي وهي تأويل مادة الجهاد وتحطيم وحدة الدين والدولة في الإسلام وعزل الشريعة الاسلامية عن التطبيق في المجتمع الاسلامى وإحلال أنظمة قانونية واقتصادية تربوية وسياسية لتحل محل النظام الإسلامى بالقوة .

(١٣) فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة بنشويته تلك الأصول وتقطيعها من لها من مصادرها وأصولها وهدم المقومات الأساسية للكيان الفردي والاجتماعي والنفسي والعقلي للمسلمين ومن شأن هذا أن يفتح الباب إلى الاستسلام أمام الاستعمار وثقافته وفكره من ناحية ، والتأثير في نفوس المسلمين وزحزحة عقائدهم بما يفتح للتبشير المسيحي طريقاً إلى تحويل بعض ضعاف العقيدة إلى ملاحظة وأتباع . إن (العلاقة الجذرية بين التبشير والاستشراق) يجمعهما الحقد على الاسلام والتعصب والنزعة الاستعمارية .

(١٤) لم تتوافر في المستشرقين شروط العلماء المتخصصين المنعمقين ولم يتوفر في الاستشراق القول بأنه منبج وفلسفة له مفاهيم أساسية وثابته ذلك أنهم أقاموا مفاهيمهم وكتاباتهم على الرأي المسبق المصبوغ بالهوى والتعصب وهدم الانصاف والرغبة في الاهتمام بالفرق والشخصيات المنحرفة والمذاهب الضالة وإنكار أعظم ما يؤمن به المسلمون وهو الوحي والنبوة . وأهم وجوه الخلاف هو خطأ المقارنة بين المسيحية والاسلام أو بين القرآن والتوراة والانجيل لما بينهما من فروق في التفهيمات التي طرأت على الكتب والرسالات السابقة للاسلام طوائفها عن طائفتها الأصلية . وكذلك الاعتماد على اختلاف المصادر وتضارب الروايات . ومن إخطائهم وضع مسلمة وأسس مفترضة حسب الهوى والفرض ثم البحث عن نصوص تؤيدها . ومنها غلبة الهوى على مقاييس النقد التي وضعوها ثم فضلاً عن إخضاع النصوص للفكرة التي يرفضونها والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص . وتعرفهم لهذه النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات حين لا يحدون مجالاً للتحريف وتحكمهم في المصادر التي ينقلونها منها .

(١٥) نقطة الخطأ التي ينطلق منها المستشرقون في البحث هي : إنكار الوحي مما يصل بهم إلى القول بأن القرآن من عمل محمد ﷺ وأنه متأثر بالتعاليم اليهودية والنصرانية . وأنه اعتمد على الحضارة الرومانية وأن القانون الاسلامي متأثر بالقانون الروماني . وتركز أبحاثهم جميعاً حول هذه الشبهات ففهم من يتحدث عن التأثيرات الخاصة بالتوراة أو بالانجيل . ويرجع هذا إلى عدم قدرته على التحرر من الهوى والعجز عن استيعاب خصائص العصور الاسلامية ومقومات الاسلام ، ولاريب أن أموراً كثيرة يعجز المستشرق بتكوينه النفسي ومصادره العقلية عن فهم هذه المعاني وخاصة منها ما يتصل بالهجرة ومفهوم الاسلام كوطن وجنسية ومن حيث أن الهجرة مبدأ التحول من الجماعة إلى الفردية ، فإن المؤرخ توينبي يعتبر الهجرة مبدأ التدهور في تاريخ الرسالة المحمدية .

ثانياً : دوافع الاستشراق

يجمع المستشرقون في دوافعهم : بين الدافع الديني والدافع الديامي وكلاهما مما يشكلان تحدياً واضحاً يرمى إلى استدامة سيطرة النفوذ الغربي على البلاد الإسلامية وهم يستجيبون لغاياتهم ومطامعهم ولا يندسون عواطفهم .

يقول الدكتور هيكل إنهم متأثرون بالنصرانية الأوروبية تأثراً يجعل أكثرهم ينظر إلى الأديان نظرة
تأوها الريبة ويجعل الأقلية المتمسكة بمسيحياتها يتأثرون بما كان بين المسيحية واللم من نضال فيخضعون
في بحوثهم الإسلامية لمثل ماخضع له أمثالهم في بحوثهم المسيحية أو بحوثهم الدينية بوجه عام . ويشهد
الباحثون إلى أن أهم واثع الاستشراق تلك المصالح المرتبطة بالشرق ، وأهداف التوسع في الميدان
الاقتصادي والتجاري . ويقول الدكتور حسين الموارى : إن المستشرقين هم طلائع المبشرين وهم الذين
يهدون السبيل لتشكيك المسلمين في عقائدهم كما أنهم يهدون المبشرين سبيل الطعن في الإسلام وفي نبية
ويزودونهم بأنواع شتى من الشهوة العلمية باسم الاستنتاج التحليلي . أجمع الباحثون على أن المستشرقين
يحملون على (أولاً) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه أو
يقبلونه من النصوص : (ثانياً) تحريف النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم
العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف : (ثالثاً) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها فهم ينقلون مثلاً
من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث ، ومن كتب للتاريخ ما يحكمون به في تاريخ اللغة ،
ويصححون ما ينقله الدميري في كتاب الحيوان ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ . (رابعاً) وضع
مسلمات وأسس مفترضة حسب الهوى والبحث عن نصوص تؤيدها . (خامساً) جمع ما تفرق من
شبهات لإعطائها صورة كاملة : مثال ذلك ما قام به المستشرق الألماني ولهم هو رقباخ من جامعة بون
من جمع قطع ونقف وشطائر من كتاب الإصابة لابن حجر على أنها كتاب الردة لابن حجر والكتاب ألفه
أبو زيد وثيمه بن موسى بن الفرات المتوفى عام ٣٧٠ وهو فارسي الأصل وقد ضاع هذا الكتاب وإن
كان ابن حجر قد أشار إليه في بعض المواضع فما كان من المستشرق ولهم إلا أن جمع هذه القطع على
أنها تراجم الأشخاص الذين أرتدوا عن الإسلام ، ولا يعمل مثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى
لأنه لا يتفق أساساً مع البحث العلمي الصحيح ولكن الهدف هو جمع أسماء المرتدين عن الإسلام .

ومن أهوائهم : شبهة القول بأن العرب كانوا قبل البعثة الإسلامية على حضارة ونهضة وأن دور
النبي ﷺ لم يزد على أنه نهض بهم فنهضوا والحقيقة أن العرب كانوا قبل الإسلام قبائل متفرقة متصارعة
والإسلام هو الذي وحدهم في أمة ودفعهم إلى آفاق النهم والتوسع . من أساليب الفكرة المسبقة
بالهوى والفرض القول بأن القوامطة وهم الذين انقضوا على الدولة الإسلامية بالتآمر وتعاونوا مع
خصوم المسلمين هم : طلاب عدل وإصلاح وهم الذين دجروا عندما امتسكوا بإرادة الحكيم أن يحققوا
أى منهج يمكن أن يصورهم بأنهم دعاة حق بل انكشف باطلهم وزيفهم : ومن المفكره المسبقة بالهوى
القول باختلاف الشعوب وأن هناك إسلام الهند وإسلام تركيا وإسلام مصر وهذا القول ينكشف
زيفه عندما نجد أن المسلمين جميعاً في مختلف أجزاء الأرض مجتمعون على الأصول العامة للعقيدة
والشرعية الإسلامية وأن الخلاف هو في الفروع . ومن الفكرة المشبهة بالهوى : الادعاء بأن المجتمع
الإسلامي مجتمع مضطرب واعتمادهم في ذلك على قصص ألف ليلة أو شعر أبي نواس وبشار .
كذلك عمد الاستشراق إلى إحياء التراث الباطني المجوسي والمنوصي لتقديم مستهدفاً من ذلك أن يحل
أصالة مفهوم الإسلام ولذلك ركن على إحياء كل المخطوطات القديمة التي تحمل هذه السموم وخاصة

ما يتصل بالاحاد والاباحية وما يتصل بوحدة الوجود والحلول وكل ما له صلة بالجنس والكشف . من الأدب القديم أمثال كاتبة ودمته ورسائل إخوان الصفا وشعر بهار وأبي نواس ومن الصوفية الحلّاج وابن عربي ومن ذلك قولهم بتأثر الثقافة الإسلامية بالفكر الاغريقي والفارسي ، والغرض من شأن العرب وإضمار لغة القرآن وإحياء النزعات القديمة كالفرونية والفينيقية والآشورية وأمثالها ورفع لواء الدعوات إلى الانسلاخ من الماضي والتراث والتهوين من شأن فريضة الجماد والتشكيك في ترابط الدين والدولة والدين والأخلاق . ولا ريب أن أخطر ما يقع في المجتمع الاسلامي هو اعتبار كتب المستشرقين مراجع أساسية في التاريخ أو اللغة أو السيرة أو الفقه وخاصة في الجامعات والمعاهد العالية . أو في دراسات المبعوثين إلى الجامعات الغربية والذين يقعون دائماً تحت سيطرة الاستشراق والأساتذة اليهود والصهيونيين والمتعصبين من الغربيين (ومعظم الدراسات الاسلامية بالجامعات الاوربية والأمريكية مركزة في أيدي اليهود ، والهدف هو تلقين المبعوثين (الاسلام) من خلال فهم المستشرقين له ومن خلال شبكاتهم وأباطيلهم . حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم واحتلوا مراكز التوجيه الثقافي والتعليمي فرضوا ما تلقوه في الغرب من سموم باسم التجديد والحريّة في البحث . وتنكشف آثارهم واضحة في عدة مجالات :

(١) إضمار لغة القرآن . (٢) الدعوة إلى اتخاذ الحضارة الغربية المثل الأعلى للمسلم .

(٣) دعوات الانسلاخ من الماضي والتراث . (٤) دعوات الإقليمية والتجزئة (الفرعونية والفينيقية) . (٥) فهم التاريخ القائم على البحث عن التناقضات (٦) تشويه تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الاسلامي بالإدعاء بأن المصادر الاغريقية . وقد كان هذا الخطر ولا زال متمثلاً فيما يحاول أتباع المستشرقين في الجامعات وهو أثر للثقافة والصحافة من إسباغ الثقة والتقدير على أعمال هؤلاء المستشرقين بما يؤدي إلى الإعجاب بأرائهم وللتسليم بها واحتشاد في الجامعة المصرية منذ نشأتها مجموعة منهم كانت آراءهم حجة لا تقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدّمة بيننا هي مجموعة من لزوف والسهوم التي لا تثبت الحقيقة العلمية .

ثالثاً : نماذج من أخطاء الاستشراق

ترجع أخطاء الاستشراق في الأغلب إلى عوامل عدة (١) ضعف الملمّة الادبية في فهم النصوص العربية (٢) جهلهم بحقائق التراث الاسلامي وعدم اطلاعهم عليه في بنابيعه الصافية .

(٣) انخداعهم بالأسلوب العلمي المزعوم الذي يدعون به (٤) وقوعهم تحت تأثير أهواء وانحرافات فكرية . (٥) تتبعهم الأخبار الساقطة والمبتورة والمهتبه فيها . (٦) فهم النصوص على غير حقيقتها . وهم يعملون على استقطاع النصوص ، وقالب المحاسن إلى سيئات والتشكيك في كل عهد إيجابي بهدف تحطيم روح الأمة وإخضاع المسلمين بإضمار الثقة في مقوماتهم العقلية وإضمارهم بحاجة إلى الأمم الغربية .

(١) ومن أساليب المستشرقين في تحريف النصوص : كأن يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرتبة النظرية أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة وهكذا تتطور للفكرة أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف لأن تصبح حقيقة مقررة . أشار إلى هذا الأستاذ خوجه كال الدين في كتابه المثل الأعلى في الانبياء وهو بصدد الحديث عن تجربة واقعة اشترك فيها جماعة من المستشرقين يقول : جاء الدكتور (فيجانا) بقصة غواما أنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منها بعض أجزائه ، يريد بذلك أن يرمي القارئ أنه ربما ضاع شيء من القرآن وكان فيجانا قبل هذا يشكك في صحة القرآن فباء بالفشل الذريع لذلك تراه الآن يحاذر أن يجازف برأى يبد أنه وضع العربية أمام الجواد لإقامة البرهان على أن هذا الأمر لا يعني الآن لأنني أحب فقط أن أبين للناس عادة هؤلاء الدعاة وطريقتهم الغفلة في خلق (قبة من حبة) وقد ضربت المثل بهذين السعدين بنوع خاص لأنهما فرسا رهان في هذا الميدان . يشير الواحد إلى فكرة ما ، ولكن يرحى الثقة إلى القارئ يحاول أن يصوغ فكرته في عبارة تنطوي على الجذر وهو يعلم تمام العلم أن زميلا له من حملة الأقلام سيتقدم ليعتصم ما بدأه هو من إنكار وسيلة تتحول بها إشاراته وتلميحاته الخفية إلى مرتبة الحقائق الثابتة (فيما هو ظاهر) ولا يكي أزيد الأمر إيضاحاً أذكر أن الدكتور فيجانا نفسه شديد الارتياح في قدم هذه الترجمة السريانية المزعومة وإنما أنقل للقارئ ما قاله بنصه ونصه ، ونحن أشد الناس إدراكا لخطورة ما أشرنا إليه آنفاً من قدم الترجمة السريانية ونرجو أن يكون ما حرصنا عليه من دقة التعبير رادعاً قوياً كما يقول المثل السرياني لكل عالم عربي أو سرياني سواء كان مسلماً أو مسيحياً يحاول أن يتهمنا بعدم الحذر أو التسرع في الحكم ونحن الآن أمام نص سرياني لا نعرف على وجه الدقة صفته وكنهه وقد ذكرنا أسباباً تجعل على الاعتقاد بأن لم يصدر عن (بارسالي) ولكننا لا نستطيع الجزم في ثقة بوقت خطه بالضبط . والآن أنقل لأمره كلام (مرجليوت) في مقالته (اختلاف القراءات في القرآن) قال : لم يتعرض حتى شهر يناير في هذا العام إلى نقد أي نسخ قديمة للقرآن ، وقد عثر الدكتور فيجانا على نسخة سريانية عريقة في القدم ووصفها في لشرة مكتبة جون وايلاند وله فضل السبق في هذا الأمر وقد لفت المؤلف نفسه النظر في كتابه (محاتف من ثلاثة مصاحف قرآنية قديمة) إلى وجود اختلافات ذات بال في المخطوطات القديمة ، يقول خوجه كال الدين . إن الإنسان ليحاول في فهم المعيار الأدبي الذي يتوخاه المؤلف فيما يكتب عن الإسلام فالأمر الذي يشك في قدمه نفس الشخص الذي عثر عليه يصبح أمراً عريقاً في القدم عند مرجليوت في أقل من عام . وتعتبر الجملة الأخيرة فيما اقتبسناه عن كلام مرجليوت مفتاحاً لسر المؤلف الحقيقي فإن العناية التي قامت على تلك المصاحف المزعومة قد تخلى عنها صاحبها لأنه قطع الأمل منها . ولكن ما هو ذا آخر يقوم فيذكرها بعبارات لا ليس فيها ولا لبها ولا نبي لا توقع أن يقوم ثالث يكتفي باقتباس هذه العبارة من كلام مرجليوت (اختلافات ذات بال في المخطوطات القديمة) وبذلك تصبح حجة في التدايل على عدم صحة القرآن في الكتاب المقدس .

هذا هو الأسلوب الذي يلجأ إليه هؤلاء الخذاق في استغلال الجماهير فليدير مرغليوث الأمر قبل أن يقدم على أمر جديد ، أليس قد وضع في يد الخصم سلاحاً يحارب به القرآن ، إن ما كتبه فنجانا قد يفتنى وليكن اسمه سوف يحتج به في تأييد هذه الزعم الذي لم يقله فهل يليق بمرغليوث أن يستعمل عبارة (عريضة في القدم) مع أن الدكتور فنجانا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأي ،

رابعاً : تزييف للنصوص

من أبرز أخطاء الاستشراق تزييف النصوص . فقد اتجه كثير من المستشرقين إلى تزييف النصوص لإثبات الافتراضات التي قدروها : وأمامنا محاولة المستشرق الأشهر (هاملتون جب) حين نقل نصاً من كتاب حجة الله البالغة للشاه ولي الله الدهلوي ج ١ ص ١٢٢ حيث قال الدهلوي إن النبي ﷺ بعث بعثة تتضمن مائة أخرى ، فالأولى إنما كانت إلى بنو إسماعيل هذه البعثة تستوجب أن تكون مادة شريعتهم ما عندهم من الضمائر وسنن العبادات ووجوه الاعتقادات إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً ، نقل جب هذه العبارة تاركاً ما قبلها وما بعدها ، العبارة مغمورة في كلام طويل من حولها وذلك ليحاول أن يستشهد بالدهلوي على ما ذهب إليه من انقطاع الصلة بين محمد وبين دين إبراهيم .

هذا الذي انتزعه جب له تكملة جاءت بعد ذلك مباشرة يقول الدهلوي : اعلم أنه ﷺ بعث بالحنيفية الإسماعيلية لإقامة روحها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) ولما كان الأمر على ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسننها مقررّة إذ النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها بل الواجب أن يقرروها لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الاحتجاج عليهم وكان بنو إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل فكانوا على تلك الشريعة إلى أن وجد عمرو بن لحي فأدخل أشياء برأيه السكاسد فضل وأضل ، وشرع عبادة الأوثان وسبب السوائب وبحر البحار فهناك بطل الدين واختلط الصحيح بالفساد وغلب عليهم الجهل والشرك والكفر فبعث الله سيدنا محمداً مقيماً لروحهم ومصلحاً لفسادهم إلخ ولا ريب أن (جب) وقف على هذا للنص وتجاهله وتغافل عنه واستند على الدهلوي في نص آخر سابق له بأسطر يؤدي به فكرة تتعارض تماماً مع ما جاء به الدهلوي .

(٢) من أخطائهم سوق الخبر مقطوعاً عن مصدره ومصبوغاً بصيغة التعميم . ومن عاوماتهم اتخاذ أخبار الآحاد التي لم تثبت مصدراً لوضع قاعدة بينما لا توضع القواعد إلا نتيجة لأخبار متعدد صدورها في اتجاه واحد وثبتت مصادرهما . ومن هذا نرى فون كريم وجوله زهير بقولان إن المسلمين بحثوا في موضوع غريب وهو هل تنكح العجم نساء العرب في الجنة . والمهدف المسموم من وراء أمراد مثل هذه الأخبار معروف وذلك هو إيقاع الخصومة بين العرب والعجم من ناحية والقول بأن الفتوحات الإسلامية لم يكن وراءها إلا محاولة للسيطرة العربية والموضوع كما أورده المحدث في كتابه السكامل لا يرحى بمثل هذه النظرية فإن الذين بحثوا هذا الموضوع لم يكونوا غير أعرابي واحد جاء من

الهادية وسمعه الأصمعي يقول للآخر أئزى هذه المعجم تنكح نساءنا في الجنة فقال : أرى ذلك واقفاً بالعمل
للصالح : وهذا الخبر قد رواه المبرد وضمف بثبوته أى أنه شك فيه ولكن المستشرقين كيف يتركونه
من دون أن يمتدوه ظاهرة عامة ويستخلصوا منه قاعدة مريضة :

(٣) من أعمال المستشرقين : د الزوير ، وقد كشف الأستاذ محمد إبراهيم خبير الخطوط عن أنه
في سنة ١٨٥٠ قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أم وثيقة تاريخية إسلامية تم العالم الإسلامي
كله ومضت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقة أحد . هذه الوثيقة هي
كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث به النبي في العام السابع من الهجرة ضمن
السكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقيصرة والعظماء . يدعوهم فيها الرسول إلى الدخول في دين الله ولم
يقف المسلمون على أثر هذه السكتب الثمانية إلا السكتب الذي لرسوله النبي محمد إلى المقوقس حاكم مصر
والذي نقلت صورته كتب التاريخ منذ أوائل القرن العشرين . هذا السكتب قد تبين للأستاذ محمد إبراهيم
الذي حصل على صورة منه من دار الآثار النبوية في استانبول واستخدم خبرته في الخط العربي وقراءة
بعض السكتب التاريخية والإسلامية القديمة أنه خطاب مزيف . وأنه في ذلك العصر لم يمكن تنقيط
الحروف مستعملاً بل كانت مهمة ولم تستعمل إلا في أواخر القرن الأول الهجري .

تزوير كتاب النبي محمد إلى المقوقس

منذ أكثر من ١١٧ عاماً قام أحد المستشرقين الفرنسيين بتزوير أم وثيقة تاريخية إسلامية .
وبقيت الوثيقة المزيفة مكانها طوال هذه السنين دون أن يكتشف حقيقة أحد رغم أن كثيراً من علماء
الدين والآثار رأوها أكثر من مرة ولم يكتشفوا التزوير الذي كان واضحاً بها . الوثيقة هي كتاب
النبي محمد ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر الذي بعث به النبي في العام السابع من الهجرة ضمن
السكتب الثمانية المرسلة إلى الملوك والقيصرة والعظماء يدعوهم فيها إلى الإسلام .

في عام ١٨٥٠ كان المستشرق الفرنسي (ايتان بارتلي) يزور أحد الأديرة في صعيد (أنخم) فلاحظ
نظرة مغلف بالجلد وعليه حروف وكلمات بالخط السكوفي استعان بالمستشرق الإنجليزى (بلين) لحل
رموز هذه الأحرف وأعلن الإثنان أن الورقة ربما تكون خطاب النبي محمد إلى المقوقس حاكم مصر
ثم حملها المستشرق الفرنسي بارتلي إلى الأستاذ اعرضها على السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين . نشر
بعد ذلك في الصحف الفرنسية أن المستشرق الفرنسي بارتلي عثر في ديسمبر سنة ١٩٥٠ على رق بال
قرب دير أنخم فيه أثار كتابة عربية وأن الرق كان ملصقاً بأوراق أخرى قبطية على جلد ، كتاب قديم
فاضطر لفصله باستخدام الماء ولكنه إزداد تهوؤاً إلا أنه احتال في حفظه وتسويته تسوية صحيحة ولكنه
لم يحد عليه من الكتابة إلا كلمات متقطعة وأحرفاً مبعثرة وتبادر إلى ذهنه أنه خطاب النبي محمد إلى
المقوقس ولما عاد إلى السكتب التاريخية القديمة المكتوبة بحبر مشابه لما كان يستعمله العرب قام بإضافة
بعض الحروف والكلمات التي زالت عندما اضطر لفصل الرق بالماء ورده إلى نحو ما كان عليه من قبل

ويقول محمد إبراهيم أستاذ الخط العربي في حديث إلى محمد حسين شعبان أنه بعد أن سافر في رحلة قصيرة إلى تركيا وزار دار الآثار النبوية في استنبول وقام بنقل صورة خطاب النبي محمد إلى المقوقس عكف على دراسة هذا الخطاب المدعى لاستخلاص الحقيقة مستخدماً خبرته وفنه في الخط العربي وقراءة بعض الكتب التاريخية الإسلامية القديمة وخلاصة الرأي قوله : تبين من الوثائق التي بين أيدينا من الخطوط القبطية المقطوعة إلى العربية ما يؤكد أن الخط الذي كتب النبي إلى المقوقس لم يكن هو المستعمل في عصر الرسول لأن الكتابة العربية في أول عهدها كانت متشابهة ولم تكن هي الكتابة الكوفية كما هو شائع لأن مدينة الكوفة التي نسب إليها الخط الكوفي لم تكن قد أُنشئت بعد بل تم إنشاؤها في عام عشرين للهجرة ومن ثم فلم يكن ظهور الخط الكوفي إلا بداية تطور جديد للخطوط التي سبقته منذ عصر النبي وورد في الرسالة كثير من الأخطاء كوضع النقط فوق الحروف والنقط في ذلك العصر كانت مهمة ولم تستعمل إلا في أواخر القرن الأول الهجري .

الباب الأول

صفحات من تاريخ الاستشراق

(١) الاستشراق غربياً . (٢) الاستشراق يهودياً

الفصل الأول

الاستشراق غربياً

بدأ الاستشراق د نصرايياً ، يصدر عن الكنيسة التي خفيت أثر الإسلام في نفوس أهل أوروبا بعد عود بقايا الحملات الصليبية التي عادت تحمل إلى الغرب صورة رائعة عن سماحة الإسلام والمسلمين ثم لم يلبث الاستشراق أن تحول استعماريّاً ، في خدمة الدول الاستعمارية وخاصة إنجلترا وفرنسا وهولندا وحين أن العدد الأكبر من المستشرقين كانوا على صلات وثيقة مع الكنيسة وفي نفس الوقت مع وزارات الاستعمار . ويمكن أن يوصف الاستشراق في هذه الفترة بأنه استشراق د غربي ، غير أن نوعاً آخر من الاستشراق مالمبث أن ظهر : ذلك هو الاستشراق اليهودي الذي قام به أمثال مرجليوث وبرنارد لويس ، وجوليه زيهير وأمثال جارودي وردنسون في السنوات الأخيرة . ولا ريب أن الاستشراق اليهودي كانت له أهدافه وغاياته التي قد تتفق مع أهداف الاستشراق الغربي وقد تختلف عنه والمعروف أن الاستشراق اليهودي قد عمل ومارال يعمل في خدمة أهداف الصهيونية ويحمل لواء فكرها ومفاهيمها في محاولة لتزييف مفهوم الإسلام وفرض مفهوم اليهودية للتلودية . وقد تطورت أساليب الاستشراق مع هذا الزمن الطويل ، ولكن هذا التطور لم يكن إلا محاولة للخداع وتغطية الغايات الحقيقية وتجنب أساليب المواجهة ، غير أن هذه الأساليب وإن بدت تحمل طابع الاعتدال أو الترفق في المواجهة إلا أنها مازالت تستهدف إثارة الشبهات وبث السموم . وآية ذلك مايقوله المستشرقون المحدثون أنفسهم : فيقول د هاملتون جب : لقد قامت في صفوف المستشرقين في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين بدلا من السطحية التي صبغت دراساتهم السابقة ولكن رغم ذلك فإن التأثير بالاحكام التي صدرت مسبقاً على الإسلام والتي اتخذت صورة تقليد منهجي في الغرب لا يزال قوياً وبحوثهم لا يمكن إغفالها في أية دراسة لهم عن الإسلام . ويقول برنارد لويس إن آثار التعصب الديني الغربي لا تزال ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة وراء الحواشي المروصصة في الأبحاث العلمية . ويقول الباحثون إنه رغم أدعاء المستشرقين بأن أبحاثهم أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الأهواء والأخذ بأسباب البحث العلمي

وما عليه النزاع العلمية فإن الصورة المشوهة والحقد الدفين مازال قائماً وخاصة في تصور القرآن وتصور الإسلام وتصور الرسول . ذلك أن الصورة التي شكلها الاستشراق إنما استمدتها من مصادر كنسية بيزنطية وأسبانية كتبت إبان الصراع الشديد وخلال الحروب الصليبية وحملات بطرس الناسك . وقد ظلت هذه الكتابات مصدراً لكل كتاب الغرب وفنانيه سجلها دافني وفرجيل وفولتهيم وديدرو وقد ركز الاستشراق الغربي على عمليتين أساسيتين :

أولاً : إثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله وكتابه وحول تاريخ الإسلام . ثانياً : إغلاء شأن الجوانب الضعيفة والمضطربة كالتصوف الفلسفي والفرق المعارضة للإسلام وشعراء المهجاء والغزل الجنسي وشخصيات الرنادقة والشعوبيين أمثال : أبو نواس وبشار وابن الراوندي والحلاج وابن عربي . وقد حُرف عن أبرز هؤلاء المستشرقين اتصالهم بالكنيسة ودوائر الاستعمار في نفس الوقت وخدماتهم المزدوجة للعاجين بمفهوم أن الاستعمار هو المنطلق الطبيعي للتبشير وإفساح المجال أمام الإرساليات وإعداد الأجيال المسلمة إعداداً يجعلها خاضعة لبرامج التغريب والذو النعاني فليس هناك في الواقع خلاف بين الهدفين المتكاملين . واقد كان من أخطر أعمال الاستشراق : العمل على فرض السيطرة على الجامعات ومجامع اللغة ودوائر التعليم والثقافة واستقطاب المفكرين المسلمين لآراء الغرب في محاولات دائبة للسيطرة على مناهج البحث وفرض نظريات النقد الأدبي ودراسات الاجتماع والاقتصاد . كما تمت السيطرة على دوائر المعارف وخاصة دائرة المعارف الإسلامية والمنجد والموسوعة الميسرة وهي جميعها موجودة الآن في أيدي باحثينا وشبابنا وكلها مائة بالسموم . وقد ضمت دائرة المعارف الإسلامية عند صدور ما عدداً من مقاصد المستشرقين أمثال : هوار ، فولوس ، برتولد ، زترستين ، هورفيس ، بكير ، مارسي ، باسي ، وغيرهم من الهولنديين والفرنسيين والألمان وأغلب هؤلاء مسيحيون متعصبون أو موالون للصهيونية أو يهود ولهم دراسات معروفة من قبل عن الإسلام استهدفوا فيها إثارة الشبهات وإلقاء بذور الشك حول مفاهيم الإسلام وقيمه الثوابت ، ومن هنا فقد أصبحت دائرة المعارف الإسلامية حصيلة جامدة ومختصرة لكل السموم التي وزعها هؤلاء المستشرقون على مئات من الدراسات . كذلك فقد سيطر المستشرقون على مجامع اللغة ، ومثلاً فإن مجمع القاهرة الذي أنشئ عام ١٩٧٣ ، هم جب (لندن) فيشر (لينبرج) نلينو (روما) ماسينيون (فرنسا) فنسنك (لندن) وكلهم من مقاصد المستشرقين ومن الذين يجهلون بين العمل في دوائر الاستشراق الكنسي والاستشراق الاستعماري . وفي الجامعة المصرية كان حشدهم الأكبر ، وكانت آراءهم حجة لا تقبل الجدل وكتبهم مراجع مقدسة . (٢) إذا أردنا أن نلم للإمامة مريعة بأعمال الاستشراق الغربي (المسيحي الاستعماري) لنتعرف على الوجهة التي يقصد إليها فإننا نجد هذه الاتجاهات : نجد (ديلاس أوليري) مؤلف كتاب الفكر العربي ومكانه في التاريخ المترجم إلى اللغة العربية يضع نصب عينيه التفرقة بين الشعوب السامية والآرية في الأصالة والحلق والتفكير ويبالغ في دعوى تأثر الفكر الإسلامي بالفكر الإغريقي .

والعرب في نظر أوليري ليسوا إلا مجرد نقلة للتراث الإغريقي الذي لم يكن لهم فضل الاتصال به مباشرة وإنما قدمه لهم السريان .

وغير من الذين يرددون دعوى العنصرية فيقول إنه لم يحمل الثقافة العربية رجال من دم عربي محض بل موالى من الشعوب التي فتح العرب بلادها. ويسرف أو لهدى في تصوير تأييد القرائح الإغريق المترجم فيراء الأساس الذي تشكلت وفقاً لمقتضياته الحضارة الإسلامية وهو رأى باطل ويتجاهل الأساس الاصيل للثقافة والحضارة الإسلامية وهو القرآن وللهنة كذاك فإن أوله لا يفوته أن يتم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان على صلة بمعلمين من الفساطرة (لسان الذي ياحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) . أما المستشرق أرثر جفوى فقد كان اهتمامه بالبحث عن عمل من أعمال خصوم الإسلام ليحدثه ويبعثه ويشهد عن طريق إعادة طبعه الشبهات ولذلك فقد قام على نشر كتاب عنوانه المصاحف وهو الكتاب الذي ألفه عبد الله بن داود السجستاني وهو من آثار التشكيك التي أنكرها العالم الإسلامي منذ صدورها .

ويقوم هذا الكتاب على فكره التشكيك في القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة عثمان وفي الادعاء بأنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة في موطن مختلفة ينوه بها مؤلفه ويورد عليها أمثلة وعندما صدر هذا الكتاب لم يحفل به علماء القرآن والمتملكون المسلمون ، وبقي طموراً في أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة حتى فكر المستشرقون في نشره ، وتولى ذلك المستشرق أرثر جفوى ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامز التي تؤيد غايته من نشر الكتاب . أما المستشرق بلييف فهو يرى أن مسيلته وتعاليمه سبقت القرآن ومحمداً ويصل في مغالطته إلى حد قوله أو مسيلة كان معاصراً أسبق ومعلماً وحليفاً فيما بعد لصاحب الشريعة الإسلامية ، وإن مواظمة تكاد تسبق السور المسكية ، ثم يقول إن القرآن قد اشترك في وضعه أناس من جزيرة العرب وخارجها وليس من تأليف شخص فرد (يعني النبي) إذ أنه يجد مادته شديدة التنوع والاختلاف وكذلك ديباجته .

أما المستشرق يوسف شخت فهو يتابع أستاذه اليهودي (جولد سيهر) في النقص من شأن الشريعة الإسلامية ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية وهو ادعاء مكذوب تصدى له كثير من الباحثين . ومن أكاذيبه وأهالية الادعاء بأن للفكر الإغريقي فضلاً على الحضارة الإسلامية ، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم (سيدير - درابر - سارطون) وغيرهم أن الإسلام هو الذي أدخل إلى الغرب المنهج العلمي التجريبي وأن الحضارة العالمية مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذي هو أساسها الاصيل . وقد اهتم (إدوارد وايم اين) برسم صورة للمجتمع المصري في سنوات طويلة والقول بأن هذا هو المجتمع الاسلامى المصرى . وقد عمد إلى جمع كل الخرافات والاساطير والتقاليد وقد كان من أعماله ترجمة ألف ليلة وليلة ليتخذها ذريعة لتصوير المجتمع الإسلامى القديم في حين أن هذا الكتاب لا يمثل إلا مجتمعا جاهلياً سابقاً للإسلام واهتم كونيوس فان ديك بالتركيز على المترجمين السريان والنصارى ودراساتهم ومحاولة نسبة الفضل في الترجمة إليهم لا للعرب ولا للمسلمين والقول زوراً بأن هذه الترجمات هي التي أعطت الفكر الإسلامى مصادره . وعن (أستانلى لين بول) بتشيويه تاريخ المسلمين في المغرب وصور نضالهم في مواجهة الغزوات البحرية الأوروبية بأنه عمل من أعمال الفرصنة وله

كتاب أطلق عليه فرسان العرب وفيه فصل عن الغارات البحرية التي كان يقوم بها عرب شمال إفريقيا ودأ على الغزوات الأوروبية النصرانية على الإسلام والمسلمين في الأندلس خلال القرون ١٦ و ١٧ و ١٨ وكان معظم قادة هذه الحملات من سلالة المسلمين الذين نفوا من أسبانيا . وعنى (نولدكه) بالهجمات العامية الحديثة وبذل مجهوداً كبيراً في دراستها كما اهتم بالنحو العربي في محاولة لتصويره متأثراً بالنحو الفارسي وهي نظرية باطلة حاول هذا المستشرق الترويج لها . وعنى المستشرق (جلارزا) بأن يصور المسلمين والغرت كأتباع للفلسفة اليونانية وأنهم لم يعرفوا إلا ما ترجم من أرسطو وأفلاطون وقال إن الفلسفة الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية . أما سيديو فإنه حاول التقليل من شأن الدور الذي قام به المسلمون في مجال الحضارة والعلم .

وأنكر (برتلو) المكتبة اللاتينية الكيماوية التي تحمل اسم جابر ابن حيان ليجرد أن أصولها العربية فقدت وقد تصدى ابرتلو علماء راسخون وأوضحوا أنه كان مخطئاً تماماً بل لقد اتهمه البعض بالجهل والتحيز والعمد . وقال جورج سارتون إن أى شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقاً في اكتشاف أن هذه المكتبة اللاتينية ترجمة عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية سواء أ كانت لجابر أم لغيره من العرب .

وأنكر دوزي تأثر شعراء التروبادور بالشعر الأندلسي وقد أثبت كثير من علماء الغرب فساد وجهة نظر دوزي وصحة هذا التأثير . أما جيوم فيفترى على الرسول لإفتراءات لا توجد في أى كتاب سيرة ويدعى أن لديه بقايا من سيرة ابن إسحق . واهتم بلاشير بالمتنبى من أجل التشكيك في نسبه وتقديم حكاية نبوة المتنبى وقد نظر إلى شعر المتنبى بعين الغربى المتعصب فلم يفهم مداه من ناحية البلاغة فضلاً عن أنه أراد الغض من شأن هذا الشاعر الذى جده الأدباء العرب لأنه يمثل بطولة العرب ومقاومتهم للظلم : والمعروف أن أغلب شعر المتنبى كان في مدح سيف الدولة الذى هاجم الغزو الرومانى ويخطئ المستشرق كريتيتو في ترجمة الأسفار للملا صدراً فيتهم أن المقصود بالأسفار السياحات واذلك اختار كلمة (Voyage) والحال أن مقصود المؤلف من كلمة أسفار جمع سفر ومعناها الكتاب ومقصود المؤلف من الأسفار الأربعة المكتب الأربعة لا السياحات الأربعة كما فهم المستشرق المذكور . ويرغم سدرسكى أن جانباً عظيماً ورد في القرآن والتفاسير والسير من الأخبار يرجع إلى (الإجابة اليهودية) والأناجيل والتوراة الموضوعة وقد أشار الدكتور بشر فارس إلى فساد هذا الرأى وقال إن بين النصوص الإسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مصافات وإن اتفق لبعضها أن تتقارب .

وحاول (كارل نلينو) أن يبنى الحقيقة التي تقول بأن قريشاً كانت أفصح العرب وله في ذلك مقالات واسعة ترمى إلى التشكيك في هذه الحقيقة ويقول إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول . وهو من أوائل المشككين في وحدة اللغة العربية في الجزيرة ومحاولة القول بأن هناك لغتين ، هما لغة الجنوب وهي النظرية الباطلة التي ردها كثير من الباحثين واعتمد عليها الدكتور طه حسين في التشكيك في وحدة اللغة العربية .

وقد أولى الجاهلية نهاية فائقة واهتم بها من باب الدعوى بأن العرب كانت لهم حضارة قبل الإسلام وأن ماجاء به الإسلام لم يكن أمراً ذا باله . أما لويس شيخو فأخذ على نفسه أمراً غاية في الصعوبة هو تنصير بعض شعراء الجاهلية ممن لم يكن لهم من النصرانية حظ كما فعل بالسموول وقوله إن بنى غسان نصارى وهو قول لا يسلم به الماطلون على أخبار العرب في عهد الجاهلية لأن من غسان من كان على الوثنية ومنهم من دان باليهودية وطائفة كانت على النصرانية ومن نصرم من شعراء العرب الاخفس بن شهاب وأمرؤ القيس ، وأمية بن الصلت وحسان بن مرة كما نصر عدة قبائل وبطون مثل كندة ومذحج وطوى وتغلب . أما هنرى لامنس فقد كان عمله هو تحريف النصوص وتهويها والتلاعب بالعبارات للظعن في العرب والمسلمين لم يقصد الكشف عن الحقيقة بل الدس والتضليل ومن هدفه التشكيك في تاريخ ميلاد الرسول المجمع عليه ٧٠٠ هـ وحاول أن يرسم صورة مشوهة لفاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى موثوق ، كما اندفع في أهوائه ونسب إلى الرسول الخداع والتضليل ، وأكثر الباحثين الغربيين قد انتقدوا لامنس وفضحوا مغالطاته وحذروا من الاعتماد عليه وقد وصف أكثر غلط مارجليوث بأنه يرجع إلى الزحكم في الاستنباط القياسي الجزئى ويبان أسباب الحوادث . وقد كان لامنس حريصاً على إيقاع التناقض بين نصوص القرآن بين الأحاديث النبوية بهدف التشكيك في الاستناد على الحديث كمصدر وثيق ، أما محاولة بروكلان فهي للقول بأن المصادر الأصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية فقد حاول كل منهم أن يتخصص في جانب من جوانب الشبهات المثارة : قال كارنونا إن القرآن في مكة من وحى النصرانية وفي المدينة من وحى اليهود .

وقال مرجليوث : إن الإسلام معناه الذل والخضوع . وقال توينبى : إن اللغة العربية لغة دينية .

وحاولت إتهامات المستشرقين أن تقول بأن القرآن فيه تعارض وتضارب وجرت أبحاثهم وراء كل الشبهات حول لغة القرآن وهل هي لغة قريش أو لغة التميمي الجاهلي . نزول القرآن هل باللفظ أم بالمعنى ، المحكم والمتشابه ، النسخ والمنسوخ وهناك محاولة للقول بأن العرب كانوا أمة قبل الإسلام وكانت لهم حضارة وأن دور الإسلام فيهم لأهمية له . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة قبل الإسلام ولم تكن لهم حضارة ولم يكونوا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام ولم يكن لهم أدب إلا قصائد العصبية وسجع الكهان .

(٢) وقد ركز الاستشراق العربى (المسيحي الاستعماري) على دراسة :

(١) الحركات المضادة للإسلام والتوسع فيها (٢) النعتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ (٣) النصوص المتناقضة والاهتمام بما كان منها مفرداً شاذاً مغالفاً للاجماع .

(٤) محاولة إعلاء الحضارات الشرقية القديمة . (٥) للبحث عن الأثر اليونانى والمباليغنى تحديده وإكباره وجعله كأنه هو كل شيء (٦) التوسع في بيان الفروق الجوهرية بين الشرق والغرب ، في محاولة لغرض من شأن أمم الشرق والإسلام ورميها بالتخلف .

(٧) الاهتمام بالمذاهب الكلامية والفرق والتصوف والزندقة ، وهم يركزون دائماً على الاتهام ؛
لاتهام الأدب العربي والشرعية والفكر وغيره بأنه إما فارسي الأصل أو يوناني الأصل . والهدف الأكبر
هو تصوير الإسلام في صور التعززة والضعف والصراع بين المذاهب المختلفة وتحديد بعث الفرق
القديمة حتى لا يلتئم جمع المسلمين . واقد حمل المستشرقون كل بذور السموم والدعوات الهدامة التي
انتشرت في عالم الإسلام فهم الذين حملوا مفاهيم القوميات والإقليميات بهدف تزييق الوحدة الإسلامية
ومن أبرز هؤلاء (لبون كامون) الذي كتب عن الترك والمغول القدامى ، وفبري المستشرق اليهودي
الذي عمل في الآستانة ودعا الأتراك إلى الخروج من الوحدة الإسلامية ، ومن أم الذين حملوا لواء الدعوة
إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية : ويلسكوكس ، وولور ، وسيتا ، وماسينيون وغيرهم وهم أصحاب
دهوى أن هناك لغة عامية غير العربية هي البونية ، ومنهم جماعة للسياسيين الذين عملوا على تزييق البلاد
العربية وإثارة الصراع فيما بينها أمثال لورنس وفيلبي ، وهم أصحاب المحاولة المضللة التي تقول بأن نصارى
لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية وليس المسلمون . ومن أعمال الاستشراق (سرقة) المخطوطات
الإسلامية من الشرق وهي جريمة بدأت منذ عام ١٣١٩ م قام بها القناصل والرحبان واستولوا بها على
كل المخطوطات الموجودة في المساجد والأرباب وقد جمع أحد الرحبان (زانسي) سنة آلاف مخطوط
من الشرق نقلها إلى ميلانو وقد توالت بعثات الاستعمار والغايات كان إلى العالم الإسلامي لجمع المخطوطات
وكان الهدف هو حبس التراث الإسلامي في مكتبات الغرب واتخاذ سلاحاً ضد المسلمين ، فهم يبرزون
الكتيب التي تثير الفتن : كتب الخلاف المذهبي والتصوف الفلسفي والشبهات ويخفون كتب العلوم فيأخذون
نظرياتنا وينسبونها إلى أنفسهم وعلمائهم ويحرمون أصحابها . إنها إن معظم الكتيب التي جردها المستشرقون
وأعادوا ابتعاثها كانت تستهدف إذاعة آراء معينة وقيارات مضللة ولذلك فإنه لا يمكن القول بأن هذه
الكتيب قد طبعت أو حققت لخدمة الأدب العربي أو اللغة العربية ومن هذه الكتيب : ألف ليلة وليلة ،
تهافت التهاافت لايح رشد ، اسباب الاشراف البلاذري ، أخبار الحلاج ، الاغانى ، رسائل اخوان الصفا
الخ .

ثانياً : المستشرقون في حملة الحقد والتعصب

من أبرز المستشرقين الذين لهم دور خطير في توجيه حركة الاستشراق الغربي لويس ماسينيون
وهاملتون جب وهنري لامنس وجوستاف فون جردنباوم وكريستيان سنوك هرنجورنجه . أما لويس
ماسينيون فقد كان يعمل في وزارة المستعمرات الفرنسية وقد حمل لواء الدعوة إلى الحروف اللاتينية
واهتم اهتماماً شديداً ببعث التراث الصوفي الفلسفي الذي لا يعترف به الإسلام بمثلها في الحلاج وكتابه
الطواسين ودأب على ذلك أكثر من أربعين سنة وقد كان ماسينيون قاسماً مشتركاً على الجامعة المصرية
القديمة والمجمع القوي وألقى أكثر من أربعين محاضرة حول المذاهب الفلسفية في الإسلام ، ولم يقف
لهتمامه بنشر سموم الحلاج ، بل اهتم بآب سبعمين وأب الحسن النستري وروزبهان البقلي كما اهتم بمذاهب
الباطنية وما تفرع منها واهتم بالفراطة والنصيرية ودرس المصطلحات الصوفية .

وكتب في دائرة المعارف الإسلامية ، مواد القرامطة ، التصرف ، الزنج ، ومادة زنديق ، وزهد وحاول أن ينسب الإنجازات الإسلامية في الفلك إلى الغرب فكتب مأسماه غيوم (مجلان) وهي الكواكب التي اهتدى بها مجلان عندما دخل المحيط الهندي وبواسطتها استطاع أن يتم دورته حول الأرض والمعروف أن الملاحين العرب قد اكتشفوا هذه النجوم قبل (مجلان) بزمان طويل وكانوا يهتدون بها في الملاحة ويسمونها (البقر) .

وقد أشار الباحثون إلى نشاطه الكبير بالتعاون مع تلاميذه في نشر العامية في المغرب والجزائر وتونس ومصر وسوريا ولبنان . ومن تصريحاته المشهورة قوله . لم نبحت في الشرق إلا عن مفتعنا ولقد همرنا كل ما هو خاص بهم فدمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأديهم . والفرقيون ليسوا من السذاجة حتى يمتدوا بكرم أخلاقنا وقد تحققوا بالشواهد أننا نعمل على أن نستقيم ضعفاء .

ولما هبط دمشق في أوائل الاحتلال الفرنسي كان مما قاله المجمع العلمي إن إعمال الإهراب بلسر تعلم اللغة العربية على الأجانب ويكون في الوقت نفسه تمهيداً يليق بمؤسسة كالجمع . وكرر دعوته عام ١٩٢٨ في أندية الشباب العربي في باريس غير أنه لم يجد آذاناً صاغية بل وجد رداً عنيفاً ومعارضة شاملة وكان الدكتور زكي مبارك من أبرز الذين حملوا عليه وعارضوه فقد كتب في جريدة المساء القاهرية من باريس في ٢٧ فبراير ١٩٢١ تحت عنوان ماذا يريد بعض المستشرقين باللغة العربية قال :

إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام وسيلهم إلى ذلك أن يقتنعوا بعض الأتذال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت في عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدينة جديدة ، وأنه لا يليق بالرجل المعصرى أن يكون متديناً لأن البيانات لم تكن إلا لمداية الرعاع . ومن المحزن أن هذه الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف فإنهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ولاكنى لأفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً في التقرب إلى اللغة العربية والإسلام أن يزعم أن لغة العرب لا يستطيع وعى العلوم الحديثة ولا يمكن أن ينتشر بها التعليم الحديث وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أتباعهم في المستعمرات الفولسية فيما يزعمون ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلوا للغة المستعمرين .

ولقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين (يعنى لويس ماسينيون) يخطب في بيروت وكان من همه أن يبكى سمومه في الشباب السوري فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تنفجر إلى لغات عديدة كما تنفجر اللغة اللاتينية ، فيما سعادة الشرق العرب ، إذن حين تصبح اللغة العربية إلى مثل صارت إليه اللاتينية فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة وهذا هو الفخار الذي يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق . ومن نوع ذلك الخاط ما زعم المستشرق المغرض عن الحروف العربية فقد ألقى محاضرة في الكونجيس دي فرانس أبان فيها أن لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية ، إن القوم يريدون تقطيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية ليسلي قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر

الأدبية والروحية وفي ذلك تيسير لمهمة الدسائس الذين يريدون قتل الشرق باسم العلوم والآداب ، ا.م. ومع هذا الدور الخطير الذي قام به ماسنيون فإننا نجد من يكتب عنه بعد وفاته في المجلات العربية معجداً ومكرماً : هذا الرجل الذي لم يدع نحلة من النحل الغالية كالقراطة والنصيرية والاسماعيلية والحركات الصرية إلا بشرها وأعاد نشرها .

٢ - هاملتون جب

عمل هاملتون جب في دوائر الاستعمار وكان من أبرز المستشرقين الإنجليز الذين يخدمون أهداف الاحتلال البريطاني ، وقد عرف بقيادة أخطر حركة من حركات الاستشراق وهي حركة التغريب التي تولى إعداد دراسة خطيرة عنها مع أربعة من المستشرقين تناولت العالم الإسلامي كله ، في محاولة لفحص مدى ما وصلت إليه محاولة تغريب الإسلام والمسلمين وقد طبع هذا الكتاب وتوجع إلى اللغة العربية تحت اسم (وجهة الإسلام) . وتناول الوسائل التي تعمل على إحقواء الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي وركز على التبشير في مدارس الإرساليات ونائير الاستعمار في مناهج المدرسة الوطنية وأشار إلى الدور الخطير الذي تقوم به الصحافة وكيف يتقدم على قيادتها العلمانيون والمتفرنجون وأولياء الثقافة الغربية حتى تظل تؤدي عملها الخطير . وأشار إلى الدور الذي قام به التغريب في تنحية الإسلام عن عرشه من حيث هو قوة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها وكيف أن القوانين الوضعية الغربية عملت على تقليص ظل الشريعة الإسلامية في مجال الحياة والمجتمع . وأشار إلى التصدع الذي أصاب الجامعة الإسلامية والوحدة التي كانت تؤلف بين وحدات المجتمع الإسلامي بعد سقوط الخلافة التي كانت تعد حجر الزاوية في بناء هذه الوحدة وإن كان جب قد أشار إلى أن زوال الخلافة لم ينل من وحدة المجتمع الإسلامي . ومن أخطر السموم التي أثارها جب في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام) هو ادعاؤه بأن الإسلام جاء ليضفي الصفة الدينية على تلك الأحيائية العربية القديمة التي تسجتها الأعراف والبيئة بعد أن لم يستطع محمد عليه السلام التخلص منها ويقتصد بالأحيائية : تلك العقائد الروحية الخرافية كالإيمان بالسحر والتنجيم والكهانة .

وقد عرف هاملتون جب بأنه واحد من المستشرقين الذين هرفوا بمنهج محدد قوامه وضع فرضيات مسبقة يعبر بها عن غاية له ثم ينطلق فيبحث لها عن شواهد وأدلة ويجعل طرائق بحثه كلها خاضعة لسلطان تلك الفرضيات وإن جب كما يقول الدكتور البوطي وضع أمام القارئ جملة من الدعاوى والمزاعم العجيبة بأسلوب من التقرير الثابت دون أن يمد بيته ويبنها أي خيط أو شريان من المؤيدات أو البراهين العلمية ، خلاصة هذه المزاعم أن بنية الفكر في الإسلام إنما هي معظم ما كان لدى العرب في جاهليتهم من العقائد الغيبية والطقوس الشكلية النابعة عن عقيدتهم بالأرواح (الأحيائية العربية) فقد تأمل محمد ﷺ فيها فغيره ما أمكن تغييره ثم عمد إلى الباقي مما استعصى عليه التخلص منه فذكاه حلة الدين والإسلام ثم لم ينس أن يدعم جملة هذه العقائد والرموز بهيكل من الأفكار والمواقف

الدينية الملائمة ، وهو قد سار (جب) إلى هذه الآراء من ثلاث فرضيات . أولاً : فرض أن محمداً لم يكن نبياً ، ثانياً : فرض أن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التي ابتدعوها من أنفسهم . ثالثاً : فرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية وإن كل ماجاء منها في القرآن والأخبار مجرد وهم . وأنه في سبيل تأييد هذا الرأي الباطل نقل عبارة مغمورة من كلام طويل ولا ريب أن الإسلام جاء في جوهره ثورة جارية على كل إحيائية عربية كانت أو غير عربية قديمة أو جديدة وأنه يجب التفرقة بين ما هو عادات اجتماعية وما هو طقوس دينية .

وغير صحيح ما ذهب إليه (جب) من أن القرآن يعتمد على لغة الشعر ، إذ أن القرآن يلح على ناحيتين متكاملتين : ناحية القلب ويتحدث حديثاً موجهاً إلى العاطفة والعقل معاً ولا ريب أن السحر والجن حقيقة إن إسلاميتان لا ريب فيهما . ولكن ذلك لا يعنى خضوع المسلمين للسحر والجن أما الحجر الأسود فهو رمز إسلامي وليس بمعبود لذاته وقد سجل هذا المعنى عمر بن الخطاب حين قال :

إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، وهو في دراساته عن الأدب العربي استعمل أسلوبه في انتقاص الفضل والنقص من قدر الجوانب الإيجابية وركز على السلبية والوفاة وشعره بالكشف أمثال بغداد وأبو نواس والحلاج وابن عربي وحاول أن يصور اتصال الأدب العربي بالأدب الفارسي على أنه تأثير وتبعية .

٢ - سنوك هو رجرونيجه

عمل (سنوك هو رجرونيجه) مستشاراً بوزارة المستعمرات الهولندية في المسائل الإسلامية والعربية وقد استطاع أن يدخل مكة في زى طبيب عالم ويقضى بها خمسة أشهر درس خلالها المجتمع العربي هناك بين وصول قوافل الحجاج ورجوعها وفي عام ١٨٨٩ أصدر كتاباً عن مكة في مجلدين وصف المجتمع العربي في مكة (الأسواق - العبيد - الأماكن المقدسة - البيوت - الأعياد) .

كما درس الإسلام في جزائر الهند الشرقية وعين ١٩٠٧ مستشاراً في الشؤون الهندية والعربية لحكومة هولندا وكتب عن سياسة هولندا إزاء الإسلام وهو في خطته السياسية يريد أن يستبق النفوذ الهولندي في بلاد الملايو أساساً وعلى ضوء ذلك ينصح حكومته بالتخفيف من عمل جمعيات التبشير في تنصير المسلمين ويحذر حكومته من أخطار التمصب والانقطاع فيوصف بأنه من أقل المستشرقين تمصباً غير أن النظرة الفاحصة لتقاريره وكتاباته تكشف عن خبيثته . يقول : يجب على الحكومات الأوروبية التي استولت على بلاد الإسلام أن تجتهد في إظهار التناقض بين الإسلام والمدينة العصرية وإقناع ناشئة المسلمين بأنهم ضدان لا يجتمعان فلا بد من رفع أحدهما ، ولما كانت المدينة الحاضرة هي نظام كل شيء ولا مندوحة عنها لمن : يريد أن يعيش ، كان من البديهي أن الذي سيرفع من النقيضين هو الإسلام .

قال شكيب أرسلان : هذا المشرق المولدى وكرومر (الإنجليزى) من قادة الاستعمار يريدون إظهار عجز الإسلام عن امتصاص الأحكام العصرية وإثبات كونه نظاماً قديماً قد على ولم يعد صالحاً للحياة على أمل أن الفوج الجديد من المسلمين الذين لا غنى لهم عن الحياة ينبذون الإسلام وينبذه تكون أوروبا قد تخلصت من أكبر خطر يحيق بها وهو الحكم الشرعى الذى لا يجوز للمسلم أن يخضع لأمر لم يكن على غير دينه . ولقد كانت محاولة سنوك دائماً ترمى إلى دعوة الدول الأوروبية المستعمرة أن تتفاهم وتتفق على موقف موحد تجاه الإسلام حتى لا يتم تضامن بين المسلمين وقول أحد مؤرخيه إنه هو وييكر ومارتن هارتمان يتفقون على العداوة المسلمين والتشكيك في ثورتهم على الإصلاح والتحذير من خطرهم على المستعمرات الأوروبية . ومن أقواله : إن الإسلام دين الكراهية والحرب ويجب أن لا نسمح له بالسيادة على العالم المتحضر . ولا ريب أن الاستشراق الأمريكى هو امتداد للاستشراق الغربى وإن كان في أغلبية استشهراقاً صهيونياً يهودياً نتيجة سيطرة اليهود على مراكز البحث في الجامعات الهامة أمثال كولومبيا وهارفارد ، ويريستون ، وما تشجان وبروز عدد من المستشرقين الأمريكين ذوى النحلة الصهيونية أمثال جوستاف فون جرنباوم ، وفرانز زنتال ، وفيليب حتى . وهناك بعض المستشرقين المعتدلين أمثال جورج سارتون وتشارلز آدمز وقد قام الاستشراق الأمريكى بإرسال بعثات أثرية إلى بلاد العالم العربى الإسلامى ، وأبدت اهتمامها بحضارات آسيا وأفريقيا ودياناتها . ولا تخلو محاولات الاستشراق الأمريكى من العمل على إحتواء الفكر الإسلامى والتعليم والثقافة وقد كان لها دورها القديم منذ إنشاء الجامعة الأمريكية في العالم العربى وخاصة في القاهرة وبهروت وإستانبول ،

٤ - جوستاف فون جرنباوم

أما جرنباوم فإنه يدرس الإسلام من منطلق التفوق الغربى والحضارة الأوروبية وتنظيم كتاباته مشاعر التعالى على الانحسار والاشعوب الأخرى ، وتدور دراسات جرنباوم في فلك واحد هو إثبات فضل الحضارة الهيلينية على الحضارة العربية الإسلامية وهو حين يتحدث عن الإسلام يستعمل مصطلح (المحمدية) لأنه لا يريد أن يعترف بالوحى والرسالة وينسب الإسلام إلى محمد ﷺ . ويمثل جرنباوم ذلك التيار الجديد الذى يحاول أن يرد نهضات الأمم إلى مصادر ثلاث تاريخ الاغريق وتاريخ بنى إسرائيل وتاريخ روما ويحاول جرنباوم أن يقيم نظريته على قاعدته أن بغداد وارث الحضارة الرومانية وبذلك يجرد الإسلام من ذاتيته الخاصة والدور الذاتى الذى قام به في مجال الحضارة والذى يختلف اختلافاً كلياً من مفهوم الاغريق والرومان تماماً . وإن كان الإسلام قد استهفي في خير ما في الحضارات القديمة التى يمكن رد أغلبها إلى الفراعنة والفينيقيين وهم عرب أصلاً .

ويخطئ جرنباوم حين يحاول أن يرد تراث الإسلام إلى تعاليم المسيحية واليهودية من ناحية المعرفة والتاريخ اليونانى من ناحية الفكر التجريدى فإن الإسلام قد أقام فكراً جديداً على أساس

التوحيد الخاص يختلف بل ويتعارض مع مختلفات الفكر البشري والوثنى والإباحى والمادى الذى كان معروفاً قبل ظهوره . ولا ريب أن هذه المحاولة من جرباوم هى محاولة ضالة متعصبة ، كما يقول فاروق خورشيد حيث يحاول تفهيت معطيات الحضارة الإسلامية إلى جزئيات صغيرة ورد هذه الجزئيات إلى حضارات أخرى وشعوب أخرى بحيث يصبح كل ما فى الحضارة الإسلامية مقتبساً من الآخرين .

الفصل الثانى

الاستشراق يهودياً

منذ وقت بعيد جرت المحاولة على ظهور استشراق يهودى يتفق مع الاستشراق الغربى المسيحى فى الوجهة العامة من الهجوم على الاسلام ولكنه يختلف فى القاس جوانب معينة تخدم قضية الصهيونية ويستهدف القضاء على الوجود العربى فى فلسطين وماجاورها ويميل على تزييف الحقائق الخاصة بالاصول العامة للحنيفية السمحاء التى حمل لواءها ابراهيم عليه السلام وما يتصل بأمر النبيين الكريمين : إسماعيل وإسحق ، وقد ظهر فى أفق الاستشراق اليهودى : مرجايوث وإسرائيل ولفسون وإيفى بريل وجولد سيهر وبرنارد لويس ومكسيم رودلسون وجار وردى ومير بيرجر ولم يتوقف الأمر عند هذا بل لقد استطاعت اليهودية استقطاب عدد من المستشرقين الغربيين لخدمة مفاهايمها منهم الفريد جيوم وجرونيانوم ولا ريب أن اليهود فى الإسلام شبهات خاصة تتصل بموقفهم من النبى والاسلام وأنهم هم صناع الإسرائيليات القديمة والمتجددة ، وقد نشطوا فى السنوات الخمسين الأخيرة لتجديد ما كان يردده اليهود فى الماضى منذ أول الدهوة ولحم فى التاريخ الحديث مواقف تكشف هذا المخطط الخطير منها ما يردونه عن قضية الصلاة إلى بيت المقدس ، حتى أن زويمر زعيم التبشير المسيحى وزع منذوراً فى الأزهر محاولاً إثارة هذا الموضوع تحت عنوان (لماذا لا نعود إلى القبة القديمة) ونجد أن طه حسين كان من أوائل من ألقى بذور الشك حول ابراهيم وإسماعيل حين أعلن أنهما شخصيتان وهميتان وإن ورد اسمهما فى القرآن . واليهود هم الذين علموه ما أذاعه فى طلبة كلية الآداب من أن القرآن مكى ومدنى وأن القرآن المسكى جاف وأن المدنى رقيق والسرى رفته هو اتصال النبى باليهود بعد الهجرة فى المدينة وهذا من مسموم الاستشراق اليهودى أعلنه طه حسين فى محاضراته فى كلية الآداب فى القاهرة وتبين من بعد أنه بما دونه واحد من أخطر المستشرقين اليهود هو جولد سيهر فى كتابه التريعة والقصيدة فى الإسلام ومن العجيب أن طه حسين نشر هذا الكتاب للمستشرق اليهودى عام ١٩٤٦ بعد أن تولى إدارة دار الكتاب المصرى أى بعد أن أذاع هذه الآراء بأكثر من عشرين عاماً ومن محاولات الاستشراق اليهودى تلك الرسائل التى ألفها إسرائيل ولفسون عن اليهود فى جزيرة العرب وعن اللغات السامية تحت إشراف الدكتور طه حسين ثم تولى تدريسها فى دار العلوم ، وقد استطاع اليهود

التحكم في مختلف وسائل النشر والإعلام في العالم العربي تحكما مكنهم من بث أفكارهم وآرائهم في مختلف دوائر المعارف العالمية والصحف والدوريات ومن هذه المحاولات التي يدعون إليها ما يتصل بالتاريخ القديم وما يتصل بالأوضاع الحاضرة في البلاد العربية في محاولة لتصوير الدرب أمام الغرب بأنهم أقل درجة في الحضارة وأنهم أي اليهود أحق منهم بأرض فلسطين وهم يقرمون بتزييف مجموعة من الحقائق التاريخية الصحيحة للتمويه بأن لهم حقاً تاريخياً في هذه المنطقة ، ومن أبرز هذه الدعاوى قولهم بالنظرية السامية سواء في اللغة أو التاريخ وهي التي يستمدون من وراءها الادعاء بأن اللغة العبرية أخت اللغة العربية وأن لليهود أبناء عمومة العرب وكلها محارلات باطلة ومضللة وأن اليهود يذخرون الصهيونية وأن عبد الله بن سبأ الذي أحدث الفتنة في عهد عثمان ليس شخصية حقيقية وإنما هو شخصية وهمية .

وقد استطاع الاستشراق الصهيوني تجميد عدد من كتاب الغرب ومستشرقيه لخدمة أهدافه كأنكر من تجميد عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لحل لواء هذه الأفكار ، وتمثل اتهامات الاستشراق اليهودي في عدة شبهات . أولاً (القول بأن المسلم معناه في الأصل الخائن ، وتعليل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلمة .) ثانياً (الادعاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام كانت تنتابه النوب العصبية وذليل ذلك ما كان يصيبه من الجهد خلال نزول الوحي مع أنه عليه السلام لم يعرف في تاريخه كله أنه كان يصاب بمثل هذه النوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها ،) ثالثاً (الزعم بأن الرسول عاشر بعض النصارى واليهود فاستفاد منهم كثيراً من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير التي لم تكن معروفة للعرب مثل : ذاق الموت ونفخ في الصور ، وفي آذانهم وقر ، وهو ادعاء مسبق رده مشركوا مكة الذين قالوا : إنما يعلمه بشر ، وقد بكتهم القرآن فقال : (لسان الذين ياحدون إليه أجمعى وهذا لسان عرب ، مبین) (وما كنت تتلون من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون) رابعاً (الادعاء بأن محمداً ما كان رسولا ولا نبياً فزعم للعرب في تحسس الأخبار والإسراع بنقلها بطرق لم يوفق أحد من المتحضرين حتى اليوم إلى كشف سرها ،) خامساً (أن محمداً صادق الفراسة نقاداً للرجال إذا لقي أحدهم انكشف له سره واقتضت أمامه خفايا صدره وعرف كيف يستعمله ويحتذبه إليه .) سادساً (ما كان من بلاغ النبي ورسالاته لم يكن وحياً بوحى وإنما هي أنباء وروايات يجند لها جواسيسه ورجاله أو حقائق يبلغها حذقه وفراسته .) سابعاً (تزوج الرسول بالسيدة خديجة طمعا في ثروتها . وهي أكذوبة لا تتفق مع ما عرف عن رسول الله من زهد في الدنيا وأنه لم يورث أعباءه الوهيد بما خلفه بل جعله لعامة المسلمين بقوله (نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة) ثامناً (الزعم بأنه أنشأ جمعية سرية واختار أبا بكر الصديق رئيساً لها لجعل يروج لها ويتفانى في نشرها فكانوا يجتمعون في بيت الأرقم وأنهم كانوا يجتمعون سرّاً للصلاة وقد حاول (مرجليوث) تشبيههم بالماسون وأن هذا الجمع قد اتخذ له رموزاً منها (السلام عليك) . (تاسعاً) الزعم بأن النبي نظر في تماثيل النصارى واليهود فأخرج منها ما لا يقبله العقل وأنه وحده بين إله اليهود والنصارى وجعلها واحداً .

ولا ريب أن هذا القول باطل من أساسه ، والحقيقة أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه وأن النصرانية واليهودية حرفتا هذه العقيدة . على هذا النحو حاول الاستشراق اليهودي تصوير الإسلام ورسالاته ونبيه ، وهو ما أورده مرجليوث في كتابه (محمد وظهور الإسلام) ورد عليه الشيخ عبدالعزيز جابوش فوصف كتاب مرجليوث الذي ظهر عام ١٩٠٥ بأنه لم يؤلف كتاباً بالإنجليزية أشد تحاملاً على النبي منه فقد حاول أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة وأنه يشكك في أساسها ولم يأل جهداً في نقض ما أبرمه التاريخ . ويصور الشيخ عبدالعزيز جابوش الذي كان أستاذاً بجامعة أكسفورد كيف يتعامل مرجليوث بالنصوص التاريخية فيقول : لئن كنت مدعواً معه في بعض المنازل فلما كنا على المائة سألتني بعض الحاضرين : هل سبق لي أكل لحم الجوزور فأجبت : إنى لا أذكر ذلك ورعاً اتفق لي هذا وأنا صغير فلما سمع الأستاذ مرجليوث هذا الكلام قال : كيف ذلك وعلى كل مسلم أن يأكل لحم الجمال ولو مرة واحدة في حياته ، عند ذلك أجبت وأنا دهش مما قال : يا سيدي : لئن أعرف أن قواعد الإسلام خمس أما هذا السادس فلا أهرقه ، بيد أني استدعيح الأستاذ عفواً أن يذكر لي مأخذ هذا الحكم فقال ورد في صحيح البخاري أنه قد جاء أحد اليهود إلى الرسول وقال له إنى جئت أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله فأجلسه وأمر له بلحم جزور ومن هنا استنبط المستر مرجليوث أنه يجب على كل مسلم أن يأكل لحم الجوزور وأن هذا من العقائد الإسلامية التي يتهدم الدين بانهدامها . فلما فرغ قلت له : إن مع وجود هذا الحديث في البخاري فالذي يفهمه المسلم الذي يفقه اللغة العربية منه أحد أمرين : فإما أن يكون الرسول أراد أن يقدم لذلك اليهودي شيئاً من الطعام لأنه ضيفه في بيته وإما أنه أراد أن يتحنن إيمان اليهودي بإطعامه شيئاً مما حرمة الله على بني إسرائيل في التوراة من أجزاء اللحم . ثم قلت الآية المفيدة لذلك فهي الأستاذ ولكن لم يخص قوة المسكبة وشدة الغناد التي عليها الأوروبيون ولا سيما المستشرقون منهم . ويهتم الاستشراق اليهودي بإثارة مسائل ترتبط باليهود كخراج اليهود من خير وقصة قبيلة بني قريظة التي تعاونت مع المشركين يرمي الأحزاب ناقضين العهد الذي قطعوه على أنفسهم ، ويقف مرجليوث موقف العداء أمام الغزوات التي قام بها الرسول لاقتلاع الوجود اليهودي ويصفها بأنها حرب انتقامية مع أن وقائع التاريخ تثبت تأمر اليهود وحكم النبي وصبره عليهم وإعطائهم الفرصة لإثبات حسن النية في نفس الوقت الذي كانوا يراصلون مؤامراتهم وتعاونهم مع كل القوى المعادية للإسلام ، ويصل مرجليوث إلى أبعد حدود التعصب والحقنة والتجرد من كل أصول الفهم للثرائع الإسلامية البشرية وأنظمة الدول حين يقول أن محاولة أحدهم تتل رسول الله لا يصح أن يكون سبباً يتذرع به للانتقام .

ومن أجل محاولة هدم اللغة العربية كانت محاولة الطعن في الشعر الجاهلي ، هذه النظرية التي تلفها تابع الصهيونية الدكتور طه حسين والذي قال بما قالت به اليهودية في شأن إبراهيم وإسماعيل وفي شأن عبد الله بن سبأ ، والذي ادعى أنه كان لليهودية أثر أدبي وحضارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام .

(٢)

وقد تابع مرجليوت على نفس الطريق في الاستشراق اليهودي «جولد سيهر» الذي نقل الدكتور طه حسين رأيه في القرآن المدني والقرآن المكي وبعد جولد سيهر من أكبر الدافقين على الإسلام وبعد كتابه (العقيدة والشريعة) في الإسلام مثلاً لهذا التشويه الذي حاول به تمزيق الحقائق الإسلامية والذي يمثل تزويراً قاحلاً وتحريفاً خطيراً لسمعة الإسلام بأسلوب مخالف كل المخالفة للدقة في النقد ومناقض أشد المناقضة للتمحيص في الاستنباط العلمي على حد تعبير الأستاذ محمد المنتصر الربسوني .

ويضيف جولد سيهر إلى مفهوم الاستشراق اليهودي عدة شبهات. (أولاً) القول بدشيرية القرآن أي أنه ليس وحياً إلهياً وأن القرآن لم يأخذ خطأ واحداً في التعبير عن مدلول القضايا التي ساقها . وأن أسلوبه متباين بين البيتين المسكية والمدنية وأنه كان في المرحلة الأولى سجع وفي المرحلة الثانية سجع مجرد من الاندفاع العاطفي ، (ثانياً) أن الثقافة الهلينية كانت صاحبة الأثر الأول في تطور الإسلام .

(ثالثاً) أن الإسلام كان مزيجاً منتخباً من الفكر اليهودي والمسيحي . (رابعاً) استقبال الرسول لبنت المقدس في الصلاة كان استرضاء لليهود . (خامساً) إن قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن مفتعلة وأنها نزلت في المدينة لإرضاء لليهود والواقع أن القرآن يتحدث عن إبراهيم في أكثر من موضع في القرآن المكي وأهمها سورة إبراهيم . (سادساً) الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني . (سابعاً) أن الإسلام قام على السيف . (ثامناً) الحديث النبوي من صناعة الصحابة والتابعين . (تاسعاً) الجيوش العربية أخرجها القحط والجوع . (عاشرأ) إنكار عالمية الرسالة، ولاريب أن هذه الشبهات كلها ليست جديدة وقد كشف كتاب المسلمين فسادها ولكن الاستشراق اليهودي يركز على جوانب معينة يحاول عن طريقها مواجهة مأسجة القرآن عليهم من تزيف وتحريف وإفساد لاتجاه رسالة الإسلام منذ جاءت على يد إبراهيم عليه السلام ولسانه وما حاولوه لينتقلوا برسالة موسى عليه السلام التي جاءت على طريق الله الصحيح إلى محاربتهم العنصرية التي حرقت التوراة ووقفت موقف المعارضة بما أنزل الله على عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ .

فهم يحرفون تاريخ إبراهيم عليه السلام تحريفاً يؤيدون به دعواهم الباطلة في أن يجعلوا وعد الله له ولذريته (إسماعيل وإسحق) قاصراً على أبناء إسحق وحدهم وينكرون رحلته إلى مكة وبنائه للمسكية والبيت الحرام مع ابنه إسماعيل ويدعون أن الوعد لابناء إسرائيل وحدهم ، ومن ثم فهم ينسكرون عالمية الرسالة الإسلامية ويتهمون الإسلام بأنه قام على السيف ويحرفون موقف الرسول والمسلمين من الصلاة إلى بيت المقدس إلى عهد ذلك من القضايا التي ينهرونها بمفهوم التعصب والخصومة .

(٣)

ولا يقف الاستشراق اليهودي عند تزيف تاريخ الإسلام بل إنه يعتمد إلى مهاجمة واقع العرب القائم

باعتبارهم هم العدو الموجه لهم وخصمهم الأول، ويركزون على انتقاص الوجود العربي ووصفه بالتأخر ويحاولون خنق خصومة بين العرب وبين أهل الغرب، ويتزعم هذه الدعوة كثيرون من كتابهم وفي مقدمتهم المستشرق برنارد لويس منحه الجامعة الصهيونية الدكتوراه الفخرية تقديراً لجهوده في خدمة الصهيونية ولعل أخطر أبحاث برنارد لويس : هو بحثه عن المساواة العنصرية في الإسلام في محاولة لتصوير الإسلام بأنه دعوة عنصرية معتمداً على بعض نصوص مقتطعة من سياقها من كتاب الأغاني وبعض كتب المحاضرات كالمجلد برنارد لويس في الاستدلال على نظريته بأحاديث مكذوبة عن الرسول وبعض الأمثلة السائرة التي لا يمكن أن تكون سنداً علمياً صحيحاً وهو في سبيل تأييد رأيه يطل قيمة الأحاديث الصحيحة التي جمعها ثقافة المس .

ولاريب أن موقف الرسول من بلال وصهيب وسلمان الفارسي معروف وكذلك موقفه من حادثة أبي ذر مع بلال ومن قوله لا إله إلا الله على عجمي ولا لا يبيض على أسود إلا بالنقوى .

وقول الرسول : إن الله قد أذهب عنكم مهيبة الجاهلية وتعظما بالآباء . وقوله ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية . وركز برنارد لويس على تصوير العربي بصورة مهينة وحاول استعلاء العالم الغربي على العرب بالإدعاء بأنهم شعب من الهمج وأن اليهود أحق بأرض فلسطين وصحراء فلسطين منهم لأنهم متقدمون وهو في بحثه عن العربي في مقدمة كتاب (العرب في التاريخ) يدور وياف ليحاول القول بأن العربي هو البدوي لا غير فيقول : أن العرب بالنسبة لمحمد ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء وقد استعمل القرآن هذا النص (أي العرب) على التخصيص في هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى .

ولاريب أن برنارد لويس يكشف بهذا القول عن تعصبه وعناده ذلك أن القرآن فرق بين لفظ عربي ولفظ الأعراب . وهو في هذا يحاول لصق صفة البداوة بالعربي حتى يظل الغربيون ينظرون إلى العرب هذه النظرة وفي لسان العرب وتاج العروس أن لفظ عرب اسم جنس يطلق على هذا الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء كانوا بدوا أم حضراً وأن هناك تفرقاً بين عربي وأعرابي، وأن ذكر الأعراب تحديد لسكان الصحراء الرحل وقد جاء في القرآن هنر مرات وأنه لا يجوز أن يقال المهاجرين والأعراب وإنما هم عرب لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن (أورد هذا التعليق الأستاذ جلال مظهر) .

(٤)

حاولات الصهيونية منذ وقت باكر تركيز دعايم الاستشراق اليهودي في البلاد العربية وفرض مفاهيمها من خلاله . وقد فتح الدكتور طه حسين هذا الباب واسماً حين ألقى العديد من محاضراته عن أثر اليهود في الأدب العربي ودورهم في الجزيرة العربية وتبعه في هذا نهضة اليهودي لإسرائيل وانفسون

كما عمل في هذا الميدان بمثابرة شديدة خريجوا مدارس الاسراليات التابعة للبروتستانت والذين يؤمنون بدعوى اليهود من ان لهم حقاً في فلسطين ويعطفون عليهم وفي مقدمة هؤلاء رجال الصحافة منهم أمثال صروف ونمر ومكاريوس وتقلا وزيداني وسركيس وغيرهم الذين كانوا قد انبثوا في مختلف أنحاء البلاد العربية وبدأ الحديث عما يسمى إذ ذاك (إحياء الآب العبرانية ونشرها) ولقد شهد الحق السيد بنلا عن الجامعة المصرية افتتاح الجامعة العبرية في القدس كما احتفل موسى بنميدون في الأوبرا المصرية في تنظيم حشد له أعلام الأدب والصحافة والجامعة وكان لإنشاء كرمي لدراسة ما أطلق عليه اللغات السامية في الجامعة عملاً من أم الأعمال في نشر اللغة العبرية وآدابها وخلق المقارنات بينها وبين اللغة العربية وكذلك ظهر أمثال هلال فارسي ومراد فرج وإبراهيم شمس يدعون إلى إحياء الفكر اليهودي سينبؤا وغيره ويتحدثون عن تاريخ اليهود في جزيرة العرب ومصادر التاريخ الإسلامي وانضم إليهم إسماعيل آدم أحمد واتسع نطاق البحث حول ما أسماه طه حسين (المستعمرات اليهودية في الجزيرة العربية) التي أثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والأدبية لجاهليين من أهل الحجاز وكتب مراد فرج : ما أسماه الشعراء اليهود العرب (١٩٣٩) جمع فيه عدداً من الشعراء القدماء وكان ذلك في مجال الاستشراق اليهودي مما لا لكتاب الشعراء الفصاري العرب الذي ألفه لويس شيخو .

وعقد في موناكو بإيطاليا مؤتمر اهتمت به الصحافة المصرية اهتماماً كبيراً أطلق عليه مؤتمر ثقافات البحر المتوسط وبرزت في هذا المؤتمر الدعوة السامية في الدين واللغة . وتمددت كتابات الأدباء عن آثار (ماكس نوردر) خليفة هرتزل فكتب عنه المازني والعقاد وإسماعيل مظهر عديداً من الفصول وتمددت الكتابات في الأهرام والمقطم وصحف دار الهلال عن اللغات السامية وعلمك يهودا وعن عدد للفرجات التي نقلت إليها التوراة في متابعة مستمرة وقد عمل في هذا المجال كثير من الكتاب العرب الماسون أمثال محمود هزمي ، وفيلكس فارس وأمين الريحاني في خبث واستدراج وبدأ اهتمام الصحف بأمثال أميل ليفوفيج وفرويد وكارل ماركس . وبدأ طابع العطف على الصهيونية من خلال الحديث عن اضطهادهم في أوروبا وحلت نفخة كاذبة بالقول بأن اليهود أبناء عمومة العرب وأن اليهود يدافعون عن السامية إزاء الآرية التي هي أساس الحضارة الغربية وأن الثقافة السامية هي مزيج من الثقافة العربية والعبرانية ، بدعوى أن هناك ما يسمى بالحضارة السامية العربية اليهودية التي سادت التفكير الآري في أوروبا . ولاريب كانت هذه دهاوي باطلة فلم يكن لليهود أي أثر في الفكر الإسلامي الذي دخل أوروبا ولم تكن العبرانية أخت العربية ولم يكن لليهود ذلك الدور الذي خلعه عليهم طه حسين في الأدب العربي والحياة العربية قبل الإسلام وإذا كان لهم دور فهو دور النقل من الفكر الإسلامي والأدب العربي ، ووجدنا أمثال جاستون زناهرى وقدمى كوهين يدعون إلى ما أطلقوا عليه (الجامعة السامية) عام ١٩٢٩ وتقول الأبحاث المتعددة التي نشرت عنها أنها ترمي إلى إنهاء اتحاد سامي يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والإقيا نرس الهندي وإيران وتركيا وبين هذه الولايات المتحدة في الشرق الأدنى توجد ولاية يهودية كبيرة تسع أبناء إسرائيل والدعوة إلى اتفاق العنصرين العربي واليهودي .

وقد انزاق كثير من الكتاب والوعاء إلى تقبل هذه الدعوى ومن هؤلاء فيصل بن الحسين وأحد زكي باشا شيخ العربية وغيرهم من خدعهم القويبة الصهيونية الذي لم يستطع أن يستمر طويلاً والذي كشفت الحقائق عن فسادهم وعن العدوانية الضارية التي بدأت بها الصهيونية رحلتها في الأرض العربية . كذلك جاءت كتابات دوزي ومارجليوث وصوريني لتناول صلة الإسرائيليين بالعرب في الجزيرة العربية وفي أرض كنعان في مغالطات وادعاءات باطلة ترمي إلى القول بأنه كان لليهود وجود في الجزيرة العربية ، وتنكر الحقيقة الواضحة وهي أن اليهود هاجروا من الشمال إلى الجنوب بعد أن حطم الرومان هيكل سليمان للمرة الأخيرة عام ٨٠ ميلادية .

وقد حاول دوزي أن يثير دعاوى باطلة ليس لها ما يؤيدها من دليل مثل ادعائه أن الحكمة حديثة العهد من عصر إبراهيم وإسماعيل وادعائه إلهية القوى بين اليهود وأهل مكة وغير ذلك من كاذب الدعاوى التي استخدمت لحساب الصهيونية ، وأنه مهما كان يوجد في جزيرة العرب من فول يهودية هربت منذ هجوم بوختنصر عليهم إلى أرض الجزيرة العربية فإن ذلك لا يمثل (وجود يهودي) أصيل في بلاد العرب ، وإنما عاش اليهود في الجزيرة العربية غرباء معزولين ، ولم يتركوا أسلوبهم في الغدر والحيانة والإيقاع بين القبائل والطوائف ، ولذلك كانوا موضع الكراهية والاحتقار حتى جاء رسول الله إلى المدينة فأكرمهم وعقد معهم هدناً بالآمان ولكنهم لم يتركوا أسباب خيانتهم فسرعان ما تعاونوا مع خصوم الإسلام وآمروا مع قريش ضد المجتمع الإسلامي ، بل إنهم تأدروا على الرسول نفسه لقتله والقضاء عليه في أكثر من مؤامرة مما حمل النبي إلى إجلالهم .

ولذلك فإن كل ما ألفاه الاستشراق اليهودي من القول بارتباط اليهود بالعرب وتعاونهم قبل الإسلام وبعده كان من أضاليل التاريخ التي جرت محاولة لإذاعتها بالباطل في عملية خداع واسعة وكاذبة . وقد وجدت هذه المحاولة مواجهة ضخمة من حركة اليقظة الإسلامية كشفت زيفها وحضت شبهاتها وسومها ، أولاً : تبين أن ما كتبه إسرائيل ولغزسون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) هو بمثابة حلقة من حلقات الدعاية اليهودية التي نشرتها الصهيونية في العالم العربي وأنه لم يكن بحثاً علمياً بالمعنى المفهوم . ثانياً : تبين كذب دعوى الاستشراق الصهيوني في القول بأن اليهود تأثروا ، الأدب العربي ، وأنهم قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب وأنهم انتحلوا شعراً لإثبات سابقة لهم في الجاهلية . وقد كشف الدكتور فؤاد حسنين حقيقة موقف اليهود على هذا النحو الذي يدل على أنهم سرقوا من كل الحضارات وكانوا عالة على كل المدينيات فقد نقل اليهود من بابل وأشور وشريرة حورابو ومن مصر الفراعنة الكثر مما وضعوه في سفر التثنية ولما عاد اليهود من السبي البابلي نقلوا معهم من العرب البابليين الفراعنة الكثر مما نجد في كتابهم المقدس ، ومن المعنيين السبأيين نقلوا العمارة وهندسة الري والتجارة وقصة ملكة سبأ ، والدور الذي تلعبه في تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد . والتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطفلة من حكام فلسطين أو فرجاً من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية

فوجدوا أهلاً وسهلاً لهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل ببشرى وواى القرى، والتي وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التي مرت بهم منذ ووال دواتهم ولغتهم المقدسة تذوق اللغة العبرية وتجدد بها حتى أصبح من المؤلف لدى اليهودى أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرية والسكلدانية واليونانية خالط ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فإكان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر فغير نزلهم بين العرب هذه الأوضاع بأخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر وواى القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأولون بأدب عربى ويتطعمون بطباخ عربية، وقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصراعها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الصغراء والنساء فى بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض علماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم .

ويحدثنا التاريخ اليهودى أن الإسلام أحسن معاملة اليهود، وحتى أولئك الذين اضطروا للحناء والراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام وأتباعه فقد قطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم الله وجهه ، الأراضى الواسعة بالقرب من السكوفة وعلى ضفاف الفرات بما دفع المؤرخ اليهودى الشهير جريتر إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم فى كتابه تاريخ اليهود فقال إن تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة فى التاريخ اليهودى : لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين - وهذه هى العدالة - أرضاً أخرى بالقرب من السكوفة على الفرات حوالى ٦٤٠ م : حقاً رب ضارة نافعة أن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

وهكذا نجد أن العرب هم الذين أمدوم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطاً لا شرقياً ولا غربياً ولا سامياً ولا هندية ولا أوربياً، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى ورفعوا مستواهم الأدبى فكانهم من خلق ملكة أدبية . وهكذا نجد أن كل شبهات اليهود ودعاواهم باطلة بالدليل والبرهان . وأن كل محاولاتهم فى احتواء عدد من الكتاب الذين يكتبون بالعربية لم يحقق لهم شيئاً ذا بال وأن الأمر قد انكشف عن فساد كل هذه الدعاوى . وقد أشار الدكتور حسن ظاظا إلى أن الصهيونية حاولت احتواء عدد من أمثال ولغفسون، شادة ، برجستراسر، جويدي ، كراوس، شاخس ، وغيرهم ، كما تلتذ عليهم عدد من الأساتذة العرب من أمثال على الضائى ومراد كامل ويحيى ناهى وغيرهم بما يدله دلالة قاطعة على ما بين الاستشراق والصهيونية من صلات يراد بها النفاذ إلى الفكر الإسلامى . واقد كان للدكتور فؤاد حنين صلة بالدراسات الصهيونية ولكننا نرى أنه كشف زيفهم فى بحثه الذى أوردناه الآن .

وقد ذكر الدكتور اسماعيلوفيتش فى أطروحة عن الاستشراق : أن أكثر المستشرقين الذين قاموا

بدراسة الأدب العربى القديم والحديث هم اليهود :

ليفى ، وفنسال ، وبول كراوس ، وإسرائيل وانفسون ، كما أشار إلى أن أغلب هؤلاء : بريل ودوركايم وجوله زهر ومرجليوث وبرنارد لويس وردونسون وغيرهم كانوا أساتذة لعدد من أعضاء البعثات العربية إلى الجامعات الغربية مثل طه حسين ومنصور فهمى وزكى مبارك ومحمود عزمى .

وإذا كنا قد أثرنا إلى دور الاستشراق الصهيونى فى مجال الجامعات فإن دوره كان أكثر قوة فى مجال الصحافة فقد كان جرجى زيدان واسكندر مكارىوس ويعقوب صروف وفارس نمر من أعيان المحافل الماسونية ولا كثرهم كتابات ومؤلفات وقد أصدر مكارىوس مجلة اللطائف فى أول أمرها مجلة خالصة ثم حولها بعد الحرب العالمية الأولى لخدمة الاستعمار البريطانى والحلفاء وتأيدهم ونشر صور انتصاراتهم وكانت تطبع منها مئات الألوف وتنتقل بالطائرات لتوزع على معسكرات الجيوش المتحالفة . وكان داود بركات رئيس تحرير الأهرام أكثر من ثلاثين عاماً من أقرام الصحافة ودهاقين الاستعمار وأولياء النفوذ الفرنسى كما كان فارس نمر وصروف وخليل ثابت من أولياء النفوذ البريطانى واسكنهم ومعهم جرجى زيدان يعملون لغاية أكبر وأبعد من النفوذين الفرنسى والبريطانى ذلك هو النفوذ الصهيونى ، وهو دس السموم الخطيرة ثم يدعون بعض الكتاب المصريين ليجرونها بأسمائهم مؤيدى التبشير وطارفين بحجريات الأمور بالنسبة لترجمة التوراة ونشرها ، وبالنسبة للدعوة إلى مأسسة اللغات السامية أو الجامعة السامية أو الروابط بين المسيحية والصهيونية ذلك لأن أغلب هؤلاء كانوا من المتخرجين فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ذات الاتجاه البروتستانتى الموالى للصهيونية .

وإذا التفتنا إلى أثر الاستشراق اليهودى وجدنا أن رسالة طه حسين عن ابن خلدون وضعت تحت إشراف مستشرق يهودى هو دوركايم وأنها عملت على النيل من هذا الرائد العظيم وتوجيه الهمم والشكوك إلى عمله العظيم وأن رسالة منصور فهمى وضعت تحت إشراف مستشرق يهودى هو ابنى بريل وكان قد اتخذه من تعدد زوجات النبى منطلقاً للإتهام وقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية هذه المحاولة بالشجب والتفنيد وعرف منصور فهمى خبيثة المؤامرة بعد وقت ، ويتصل بهذا المخطط تلك الكتابات المؤيدة والمحبذة للبهائية التى كانت قد استقرت فى فلسطين لخدمة أهداف الصهيونية وكذلك فى الحملة على السلطان عبد الحميد الذى قاوم إغراءات ومطامع الصهيونية ثم ظهرت مقالات الهلال عن الحل اليهودى للمعضلة الصهيونية ثم الحملة على العرب التى وجهها أحمد أمين ونوفيق الحكيم .

وكان للتراث دور فى هذا المخطط أبرزه : إعادة طبع جزء واحد من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى للاعتناء عليه فى إثارة قصة عبد الله بن سبأ على النحو الذى كتبه عنها طه حسين فى كتابه : (الفتنة الكبرى) قام للامهد الشرقى بالجامعة العبرية بالقدس بنشر الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف ، وقد كان اختيار هذا الجزء وحده دون سائر الكتاب موضع الإشتباه . ولستكن الأمر تبين تماماً بعد أن كتب طه حسين معتمداً على كتاب البلاذرى منكرأ وجود شخصية عبد الله بن سبأ لأن البلاذرى لم يرددها فى هذا الجزء وقد كشف الأستاذ محمد محمود شاكر هذا الادعاء وأشار إلى أن البلاذرى ربما ذكر أمر عبد الله بن سبأ فى أى جزء من الأجزاء الأخرى .

(٥)

وفي السنوات الأخيرة عمدت الصهيونية إلى السيطرة على مؤتمرات الاستشراق وفرض وجهة نظرها ورجالها وقد شاركهم في هذا الاستشراق الروسي ، وقد أشار أحد الباحثين الذين حضروا مؤتمر المستشرقين الذي عقد في كبردج ١٩٥٥ إلى هذه الظاهرة الخطيرة فقال : ذلك المأزق التي وقعت في مؤتمر المستشرقين المنعقد في أغسطس ١٩٥٥ بمدينة كمبردج على أن الاستشراق أخذ ينحط فقد أثبت فيه يهود مغرضون وروسيون متصليون جاءوا لابتس الدعاية الرخيصة . وقد كثر الأعضاء اليهود الذين جاءوا من مختلف البلدان يحملون في قلوبهم التعصب الإسرائيلي المنافي لأخلاق العلماء ، وقد زعم أحدهم أن قصر الحمراء الذي شيده ملوك بني نصر في غرناطة هو من صنع اليهود ، ولما توقف لليهودى في دعواه تبين أنه على قوله من فرض الحياك مدفوعاً إلى ذلك بسقطة التعصب . أما مهولة المأزق التي أتبع لها أن تعمل في مؤتمر المستشرقين هذا فهي أكاذيب يوسكو على صدر الإسلام وادعاءها أن مسيلة الكذاب كان له تأثير مباشر في آيات القرآن وأنه كان قبل استاذاً ثم خليفة لخاتم رسل الله إلى غير ذلك من السفساف التي تحول بها مؤتمر المستشرقين إلى بيئة لا يليق بمن ينتسب إلى العلم أن يتعاون معها ، ويتصل بهذا تهديد الصهيونية لعدد من المستشرقين الغربيين لخدمة أهداف الصهيونية وأمامي في هذا الصدد الفريد جيوم وجوستاف فون جرينباوم . أما الفريد جيوم فقد استخدمته الصهيونية في تأليف كتاب يهد به على كتاب (حج) المحمدية ومع أن كتاب حج لا ينصف الإسلام وإنما يرفع عن نبي الإسلام بعض الاتهامات فقد أثار غضب اليهود والكاثوليك أكثر من غيرهم وقد نشرت دار النشر اليهودية (بنجوين) كتاب جيوم مرين ولم تدر كتاب حج .

وقد أعطته إسرائيل وساماً من الحكومة الإنجليزية ، يقول الدكتور عبد الجليل شلي أنه تخرج من أكسفورد واتصل بقمم الدراسات اللاهوتية والعبرانية فيها ويبدو أنه من ذلك الوقت صهر في بوتقة يهودية وأصبح لا يهودياً فقط بل صهيونياً أشد تمصباً من الصهيونيين وأذن لليهودية من اليهود ، ومن مؤلفاته كتابة الأحاديث النبوية وأثر اليهودية في الإسلام . ومن تاريخه أنه كان عضواً في مجمع اللغة في دمشق والقاهرة وبغداد وأنه كان مدرساً في الجامعة الأمريكية في بيروت وقد عمل طوال الحرب في المخابرات الإنجليزية بالشرق الأوسط إلى جانب عمله في مدارس التبشير وتلاميذه كانوا يعملون في الكنائس الشرقية . ويقول الدكتور عبد الجليل شلي أنه يجرى في ذلك المخطط الذي يقوم به اليهود والذي يرمى إلى تحطيم الأديان كافة ، ولأن اليهودية نفسها ديانة غير منتشرة لا تقبل بين أفرادها من ليسوا من سلالة اليهود فكثيراً ما يبدأ اليهودي بنقل اليهودية وتحطيمها ولكن هذا مجرد قناع يتذرع به إلى البيانات الأخرى بينما هو مصر على دينه وعنصره وهذه الحركة أصبحت معروفة ويظهر أنها نشأت مع موجة الفكر المادى منذ القرن الثامن عشر أو نتيجة لها . ولكن مما لا ريب فيه أن هناك تركيزاً أقوى على عاربة الإسلام فهذا التركيز ليس إلا نوعاً من الأسلحة الصهيونية . أما جوستاف فون جرينباوم فإنه يختلف عن المستشرقين الغربيين الذين يردون أصول الحضارة إلى الأصلين الإغريقي والرومانى فإنه يصنيف

إلى ذلك أصلاً ثالثاً هو تاريخ بني إسرائيل . ولا ريب أن التقسيم قدا اعتمدته فريزر في دراسة الحرافة والفلكور والأساطير القديمة ولكنه لا يكون صحيحاً في دراسة الحضارات ذلك أن اليهود كانوا حالة على الحضارة اليونانية بشهادة كل الباحثين والمؤرخين أمثال جوستاف لوبون وتوينبي وغيرهما . ويحاول جرونيام أن يربط بين المسيحية وبين التوراة ويدعى أنها مقدمة طبيعية ومسلم بها الإله بل وهو ادعاء باطل واقد ثبت أن هناك عشرات التناقضات بين الكتابين ولكن اليهود عمدوا منذ وقت بعيد إلى الربط بينهما وإلزام البروتستانت والإنجيليين بهذا الربط وجعلوا في ذلك مادة في دراسات الجامعات والمعاهد حتى يتمكنوا من احتواء الأجيال الجديدة من المسيحيين إلى دعواهم ومفاهيمهم الواثقة .

والمعروف أن الحضارة العالمية القائمة الآن ذات مصادر إسلامية وأن المسيحيين والأوربيين هم الذين قاموا على تميمتها أما اليهود فلم يحضروا هذا العصر ولم يشاركوا في هذا العمل فقد كانوا مطرودين إذ ذاك من أوروبا فلما عادوا أنشأوا عليه عصر التنوير وهو عصر قام على أساس العلمانية المادية في النظرة إلى الأشياء وإخراج أوروبا من الدين بعامه إلى الفلسفة المادية وأن اليهود ليس لهم دور حقيقي في الحضارة إلا السيطرة عليها وإنشاء المذاهب الاجتماعية التي يرمون بها تصوير الإنسان بصورة نداء الجنس في فلسفة فرويد أو نداء الطعام في فلسفة ماركس . وهكذا نجد أن محاولة جرونيام باعتبار اليهودية أصلاً للحضارة أ كذوبة ضخمة دحضا كتاب الغرب ، واقد كان جرونيام خادماً للصهيونية جرياً مع كبار رجال الاستشراق اليهودي يحاول أن يحجب الحضارة الإسلامية عن دورها الأصيل وهي محاولة تبوء الآن بأشد الفشل بعد أن ظهر من مفكرى الغرب من يقررها ويؤمن بها ويعتذر عن مؤامرة الصمت التي قام بها الغرب ضد إعلان فضل المسلمين . ونستطيع أن نشهد إلى مخططات الاستشراق الروسى الذى احتفل بالذكرى التسعين لأقدم الجمعيات الاستشرافية التي تأسست ١٨٨٢ للقيام بنشاط في هذه المنطقة منذ ١٨٥٨ حيث أنشئت لجنة فلسطين حيث كانت روسيا تقوم بابتداع الوسائل لكي تقدم في القدس مأوى ومستشفيات للحجاج وإنهاء عصر البعثة الأرثوذكسية الروسية . وبواسطة اللجنة الاستشرافية الفلسطينية من إنشاء أكثر من مائة مدرسة في أقطار الشرق الأوسط كان يطرأ حسب تقدير رسمى ١٠ آلاف تلميذ . كذلك فقد كونت الجمعية أفواجاً من المستشرقين الروس اللامعين الذين اهتموا بالتاريخ والآداب العربية ، وفي ١٨٩١ نظمت بعثة أثرية إلى سوريا وفلسطين لدراسة الآثار القديمة وارتبطت أعمال الجمعية الفلسطينية الروسية ارتباطاً وثيقاً بالدراسات العربية في روسيا أمثال ستروف وكراسكوفسكى ، وبور تشيف ، تولستوف ، يلينو نغساليا ، وكان من أهم أعمالها بحث تأييد الهداية المصرية في نظرية التوحيد في الكتاب المقدس . ومن أبرز المستشرقين اليهود الماركسيين : جارودى وردنسون . ويحاول هذا الاستشراق اليهودى الماركسى تفسير الإسلام تفسيراً ماركسياً في محاولة تنفض من طوابقه واتجاهاته ، في نفس الوقت الذى يدعى فيه جارودى وردنسون أنهم أصدقاء العرب ، غير أن كتابة ردنسون في كتابه عن الإسلام والماركسية تبدو مسمومة عنيفة التمهصب والحق لا أنها تجمع بين الحق اليهودى والحق الماركسى ، وهو يصل في حقه إلى أن ينفي نفياً كاملاً أى علاقة بين الإسلام والحياة الاقتصادية المسلمين ويدعى أن القرآن حيادى بالنسبة للاقتصاد ، وأبرز أخطائه هو

الحائط بين عقيدة الإسلام وواقع المسلمين اليوم ، وتجاهله للحقيقة ومغالطته التي تقوم على أن واقع المسلمين ثمة عقيدتهم ودينهم ، وأن الإسلام قد طبق في فترات متعددة فكان كأروع ما يكون في نظام الاقتصاد والاجتماع وإن نفشى الربا في المجتمع الإسلامي خلال العصر الحديث إنما كان نتيجة لسيطرة اليهودية العالمية على الاستثمار والاوضاع السياسية التي ظهرت في ظل الاستعمار البريطاني والفرنسي والهندي في العالم الإسلامي ، وفي هذه المرحلة حُجبت الشريعة الإسلامية عن التطبيق ولا ريب أن هذه المرحلة لا تكون موضع محاسبة الإسلام عن فساد المجتمع وهي كما يقول بعض الكتاب بمثابة بقعة ظلام في محيط نوراني . ولا ريب أن نظام الإسلام الاجتماعي والاقتصادي كان مثلاً عالياً في بناء المجتمع الرباني الذي ما زالت البشرية تنطلق إليه عندما قام على العدالة والأخاء والرحمة وهو ما تعمل الصهيونية والماركسية معاً على الجيلة دون قيامه . وبالمجمل فإن محاولة الاستشراق الصهيوني ترمي إلى تزييف وقائع التاريخ الإسلامي والعربي القديم وذلك بالسيطرة على دوائر المعارف العالمية والجامعات من أجل فرض نبوءات العهد القديم وفي سبيل فرض هذه النصوص من التوراة المكتوبة بأيدي الاحبار، والتلود يرمم للاستشراق اليهودي دوره في تزييف الوعي الإسلامي وهم يركزون على العرب كأمة وقوة قائمة ويحاولون تهديم قيمها ومفهومها وتاريخها ويفسدون علاقتها بالغرب لتحقيق هدفهم في السيطرة على العالم الإسلامي وتركيز نفوذ امبراطورية الربا وخدمة أهداف الاستعمار الغربي والروسي على السواء ويرى الاستشراق الصهيوني أن تمزيق الأمة العربية فكرياً ولغوياً وجغرافياً هو من أكبر الاهداف التي تقضى على وحدة العالم الإسلامي ، مما يمكنهم من السيطرة على فلسطين في طريق وثوبهم الى ثروات العالم الإسلامي وقد حوى البروتوكول ١٤ الذي وضع عام ١٩٠٥ في بال مادة التآمر على شعوب العالم والسيطرة على الجويم باسم ملك داود .

الباب الثاني

سموم الاستشراق في الفكر الإسلامي

أولاً : الإسلام	ثانياً : الرسول	ثالثاً : القرآن	رابعاً : اللغة العربية
خامساً : التراث	سادساً : السنة	سابعاً : الحضارة .	
ثامناً : الشريعة	تاسعاً : الإدارة	عاشراً : التاريخ .	

الفصل الأول

الاستشراق والإسلام

كان موقف الاستشراق من الإسلام موقفاً مستمداً من الفهم الديني الغربي أساساً وهو فهم قاصر ومحدود ومغلوط في نفس الوقت لأنه مأخوذ من التفسيرات التي قام بها الأحرار والرحمان لدين الله الحق، وهي تفسيرات تحول دون فهم الإسلام ديناً خاتماً للأديان المتباينة أو مصداقاً لما بين يديه من الأديان ذلك لأن هذه التفسيرات فصلت نفسها عن الإسلام بينما جاء الإسلام في كتب الأديان السابقة مرحلة تالية لها وجاءت رسالتها مبشرين به وبنييه ، ومن هنا فقد نظر الغربيون إلى الإسلام على أنه شيء معارض لما يعتقدون وما هو معارض ، ونظروا إلى أنه مأخوذ من كتبهم وما هو كذلك وإنما التفسير الصحيح هو أن الأديان كلها من عند الله ، وهي متكاملة كالمرحلة يسلم بعضها إلى بعض حتى يكون الإسلام ختامها فالأصول العامة لدين الله في العقيدة واحدة ولذلك فلا عجب أن تلتقي فيه الأديان كلها وإن اختلفت في الشرائع والنظم ، ومن هنا يثير المستشرقون الشبهات : شبهات مصدرها هذا الالتقاء في الأصول وإن تبين بعد أن وجه المقارنة مفقود من حيث أن القرآن كتاب سماوي وغيره من الكتب قد أصابها التحريف .

(٢) ويذهب المستشرقون إلى فهم الإسلام فهماً مادياً خالصاً فهم ينكرون الوحي وينكرون النبوة وينكرون المصدر الرباني للقرآن وهم في ذلك يصدر عن مفهومهم المحدود للأديان الأخرى حيث يوصف الإنجيل بأنه من كلام الرسل وحيث تحتفظ المفاهيم في العلاقة بين الألوهية والنبوة . ويحاول المستشرقون تحليل معجزة الإسلام البكاسحة في الانتشار السريع في العالم وفي الجزيرة العربية بتعطيل بحال الحقيقة ويقال من حقيقة ذلك الأثر الذي أحدثه دين الله الحق في البشرية وخاصة في الشعوب المغلوبة التي حررها الإسلام من ظلم الرومان فيصورون ذلك بأن العرب كانت جاهلة ولها حضارة وأنها

كانت مستعدة للنهوض فلما جاء الرسول ﷺ قادها إلى النهوض فهضفت . وهذا التعليل لا يصور الحقيقة أساساً فضلاً عن أنه يقلل من أهمية الرسالة الإسلامية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، وبين أيدينا تاريخ الدعوة الإسلامية وكيف قاومها العرب ثلاثة عشر عاماً كاملة حتى اضطر الرسول إلى البحث عن بيئة أخرى تكون أكثر قابلية لدعوة الله وقد وجد ذلك في يثرب بعد أن عاند أهل مكة عناداً شديداً وعارضوا دعوة الله معارضة بالغة ولم يكونوا في حقيقة حياتهم مستعدين على النهوض الذي يعين على النهوض بل كانوا يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويمدون البنات ويشربون الخمر ويقتلون ويرنون فلم يكونوا على أى وجه على صورة من صور الاستعداد للنهوض ولكن الإسلام هو الذي نقلهم هذه النقلة السريعة الخطيرة إلى الإيمان بالله وربهم على التضحية والبذل حتى إذا ما انطلقوا فتحت أمامهم أبواب الممالك وتقبلهم أهلها رضاء بهم وثقة في هداهم ورحمتهم . ولقد أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً للجاهلية وحياة البداوة قبل الإسلام ، واهتم بالوثنية العربية ، وحاول أن يتخذ منها منافذ للدس في عتبات الحضارات وخاصة في مجال الشريعة ، فحاول أن يصور الجاهلية بأنها عصر البطولة كما عبر عن ذلك هاملتون جب ، مستهدفاً لإظهار بعض جوانب القوة والغنى في حياة الجاهلية ، ولا يجب أن تكون في الحياة الجاهلية جوانب قوة وهى بقية مما تركته الأديان من آثار خلقية واجتماعية وخاصة دين إبراهيم وإسماعيل الذي ظلت بقاياها قائمة في نفوس كثير من العرب حتى جاءت الرسالة الخاتمة . ولقد حاول الاستشراق إعلاء الجاهلية واعتبار الإسلام اقتباساً منها وخاصة ما حاولوا التشكيك فيه مما يتصل بآثار صلة المسلمين باليهود في المدينة ، كما أولى الاستشراق اهتماماً كبيراً بالأديان السابقة للإسلام وبالفلسفة والمناذرة بالذات في طريق الإدعاء بأن المسلمين عرفوا عن طريقهم شئ من المكتبة القديمة .

(٣) ومن أخطاء الاستشراق ما يذهب إليه هاملتون جب في كتابه (بنية الفكر الديني في الإسلام) حين يقول أن الإسلام جاء ليضفي الصفة الدينية على تلك الأحياء العربية القديمة التي نسجت الأعراف والبيئة بعد أن لم يستطع النبي عليه السلام أن يتخلص منها، ويقصد بالاحيائية القديمة تلك العقائد الروحية الخرافية كالسحر والتنجيم والكهانة . ولا ريب أن المستشرق جب قد اتخذ نفس طريقة الاستشراق التقليدية في أن يقدم فرضيات مسبقة ثم يحاول البحث عن نصوص وقرائن لكي يضعها موضع القطع واليقين لا يبالى في ذلك تزيف الأدلة أو نقصها أو نقل شطرها وترك شطرها آخر كما فعل فسيا نقل في تأييد رأيه هذا من كتاب حجة الله البالغة لشاه ولي الله الدهلوى، بينما لم تبعده الشطوط بعد ذلك عن نفى ما ذهب إليه . وقد ذهب جب إلى هذه الآراء من خلال افتراضه أن محمداً لم يكن نبياً ، وأن ما كان لدى العرب من بقايا عهد إبراهيم وإنا هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التي ابتدعوها من عند أنفسهم وقال أن تقديم الكعبة ليس أثراً من آثار دعوة إبراهيم وإنا هو شئ نسجت البيئة العربية فسكان تقليداً، وفرض أن الجان ليست إلا مخلوقات وهمية وأن ما جاء عنها في القرآن والأخبار مجرد وهم ، وتعتمد تحريف الكلم عن مواضعه فنقل عبارة مغمورة من كلام طريل . وتبدو غلبة الهوى على الاستشراق في معارضته للحقائق الكبرى البارزة، وحيث ينتصر المسلمون في جميع معاركهم وأعدادهم أقل من أعداد عدوهم بمراحل كثيرة يحمى مثل الجنرال جلوب في كتابه الفتوحات العربية الكبرى ليظهر شبهة تخلف المسلمين من

ناحية الفن العسكري بينما هرف المسلمون بالافتقار في مجال العسكرية وأساليب الحرب وقد اعترف لهم المنصفون بالفن العسكري المتطور والقيادات الاستراتيجية والتكتيكية على أعلى مستوى . بل لقد انفردت الحروب التي خاضها المسلمون والعرب أيام الفتوحات الأولى بمزايا سبقت أو أنها بعصور (علم الحرب : لمنه شفيق) فقد قفز المسلمون في العصر الأول بفن الحرب قفزة هائلة على أية قوة سبقتها وقد بقيت أرقى من أي قوة بعدها حتى جاء نابليون : ولم يكن في الجهاد الإسلامي جانب الفن العسكري وحده وإنما كان إلى جانب ذلك الإيمان والحفاصة التي تقوم على الرغبة في الاستفهام .

(٤) ويحاول بعض المستشرقين أن يثير شبهة الترابط بين الدنيا والآخرة في الاسلام بأنه انصراف عن الدنيا فيقول قرن جرونيوم : أن الاسلام يدعو المسلمين إلى الانصراف عن الدنيا ومظاهرها ويدعوهم إلى تركيز العمل من أجل الآخرة وتعيمها المقيم ، وهذه النظرة إلى الحياة يكون كل ما فيها عرض زائل بما فيه العلم والأدب والسياسة والاقتصاد أما الجوهر فهو عبادة الله من صوم وصلاة . ويرد على هذا الدكتور ابراهيم أحمد رزقانة فيقول : أن هذا التفسير لتخلف المسلمين لا يتفق مع روح الاسلام : فالاسلام لا يغلب العبادة على العمل بل إنه يغلب العمل على العبادة . والمسلمون كانوا قادة العالم وكانوا وراء النهضة الأوروبية الحديثة زودوها بالزاد العلمي الذي لولاه لما قامت هذه النهضة ثم كان رد الجويل أن استعمرت أوروبا العالم الإسلامي وعمات على تخلفه ومنعه بالقوة العسكرية من أن يسير الركب العلمي والاقتصادي ، فالتخلف فرض على المسلمين من أعدائهم وليس من دينهم ولعل المسلمين في المستقبل القريب يقدمون الدليل على أن التخلف ليس من صفات دينهم بل إن دينهم هو دائماً سبب كل تقدم . ذلك أن الاسلام يدعو إلى الربط بين التمسك بالدين وبين القوة الدينية برباط وثيق ويعتبر التمسك بالدين دعامة للتقدم في العلم والعمل والاقتصاد والسياسة . وإذا كان هناك انحراف في التطبيق فليس معنى ذلك أن العيب كامن في المسلمين أو أن التخلف أصبح نمطاً حضارياً ثابتاً عند المسلمين كما أراد جريناوم أن يقول ، بل إن تخلف المسلمين عرض تاريخي لا يلبث أن يزول بزوال أسبابه ، وأكبر دليل على ذلك أن المسلمين شاعرون بتخلفهم ، ولو كان التخلف نمطاً من أنماط حضارتهم لما شعروا به . المسلمون في مختلف أنحاء العالم يتكلمون عن التخلف ويكادون يقفون على سبيله الرئيسي بانصرافهم عن الاسلام وهو الانصراف الذي أغرام به الاستعمار الغربي ومدى استعداد المسلمين للنقل من الحضارات الغربية ، وقد حرص كتاب الغرب على دفع المسلمين إلى النقل من الحضارات الأخرى وتباكيهم على أن المسلمين لا ينقلون قبل أن يستوثقوا من أن ما ينقلوه لا يتعارض مع أصول دينهم ، ٥١ .

(٥) تحت جناح الهوى ومن وراء مشاعر التعصب طالع المستشرقون مستقبل الاسلام وحاول السكندر منهم القول بأن الاسلام لا مستقبل له . أعلن ذلك مرجايوت منذ عام ١٩٠٤ (لامنس) منذ عام ١٩٣٠ وكذبته الأحداث وتدفق الاسلام في قوة فانتعش نطاقه في إفريقيا وجنوب شرق آسيا وظهرت دول إسلامية جديدة في باكستان وأندونيسيا وغيرها وعاش الاسلام بعد أن ذهبت الخلافة وكانوا ينتبئون أنه سيستطاع سقوط الدولة العثمانية وكانوا يدعون أن الاسلام لا يبقى وإذا ترك لنفسه إذا ما احتك بالقدن الحديث فإنه يموت لا محالة ، واتصل الاسلام بالحضارة الحديثة طويلاً وتحداهما

وكشف عن زيفها وتحرر من كثير من محاولات احتوائها له وسيطرتها عليه وتحددت الفكرة الإسلامية مستمدة قوتها من منابعها الأولى . وقالوا أن التبشير المسيحي الغربي سوف يقضى على الإسلام ، وعجز التبشير بكل قوته وماله وموارده أن يخرج مسلماً واحداً عن دينه إلا من كان بطبيعته غير صادق الإيمان بالله ودخل المسلمون أفواجا في دين الله في بلاد لم يكن الدولة للإسلام فيها نفوذ وفي نفس المناطق التي ينفق فيها التبشير المسيحي الملايين ويبنى المؤسسات وليس المسلمين فيها نفوذ ، ولكن الإسلام كان دائماً القادر على كسب النفوس بالفطرة والبساطة ، وبالرغم مما ذهب إليه المستشرقون من أن الغرب غالب على الكيان الإسلامي فإن آثار هذا الاستغراب قد أخذت تنقاص وقد تنبه المسلمون إلى منابعهم الأولى وإلى شريعتهم يطالبون بتطبيقها وأن الإسلام يتصاعد الآن بحيث يكشف عن جوهره في مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية بعد أن انكشفت المناهج الغربية عن فساد كبير وتخلف كبير كان دائماً . وعندما كان مرجليوث يتحدث عن الإسلام كان يردد قول برايس السياسي المؤرخ من أن الإسلام لم يبق من عمره إلا قرنان وأن عدد أهله لا يقلون عن مائتي مليون نفس . وقد تضاعف عدد المسلمين الآن حتى بلغ ألف مليون في أصدق التقديرات . وقد اتسع الإسلام خلال هذه الفترة بالحسنى والاقناع ومن تحت حراش الاستعمار ومن خلف مدافعه فعاد مرة أخرى إلى أوروبا واقتحم أمريكا ولم يبق مكان في القارات الخمس لم يرتفع فيه مناره ويهتف باسم الله أكبر ، يقول مرجليوث المستشرق اليهودي : لا يخلو قول القائلين بسرعة زهاب الإسلام من وجه يستدعي النظر ، وجعلوا الله هو الحق الباقي على وجه الأرض وأن البشرية تتقدم الآن يوماً بعد يوم وبالعالم لتعرف ربها وتحتطم كل الأساطير والالوهام والتفسيرات الباطلة ، وأن الإسلام قد تحرر من كثير من نفوذ الدول العظمى السياسي والعسكري وبقى يقاوم نفوذها الاقتصادي والثقافي . وحين يرى (لامنس) أن الخلافة الإسلامية وسقوطها سيكون بعيد الأثر على مستقبل الإسلام تكشف الأحداث عن زيف هذا التوقع وأن المسلمين قد أقاموا بعد سقوط الخلافة قوائم وحدة ولقاءات ومؤتمرات تعالج قضاياهم ، كما وقع التقارب بين السنة والشيعة على نحو أذهل المراقبين الذين كانوا يظنون أن دعوات الإقليمية والقومية الطيقة والفرقة المنهجية ستقضى على وحدة المسلمين العسكرية وتنقسم ثقافتهم وعقائدهم وقد وجد المسلمون حلولاً صحيحة لمعضلات الخلاف بين العرب والإسلام وبين الفرعونية والعروبة وبين الفينية الإسلامية والإسلام . وقد كشفت التقديرات عن زيادة عدد المسلمين في السنوات الأخيرة زيادة كبرى على نحو يجعل لهذا التفوق للبشرى آثاراً بعيدة المدى في قوتهم ونفوهم مستقبليهم . وكذلك فقد عاد التعليم القرآني بتوسيع من جديد بعد أن توقف تحت تأثير المناهج الدراسية الغربية والعلمانية وقد تأكدت المسلمين حقيقة لاسبيل إلى تجاوزهم أن التقدم في عالم الإسلام لن يكون إلا في إطار الشريعة الإسلامية وفي محيط مفهومها الجامع بين العلم والدين والروح والمادة والدنيا والآخرة .

الفصل الثاني

الاستشراق والرسول

كانت شخصية الرسول ﷺ محور المخطط المسموم الذي حمل لوائه الاستشراق في مراحلہ المختلفة ، سواء في مرحلة التعبير الجارح أو في مرحلة المدارة الكاذبة . يقول الأستاذ كامل هياذة : ظل الأوروبيون في العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر يتناقلون أسخف الأساطير عن الإسلام ويوجهون إلى مؤسسه أبشع المسبات والشتائم . ثم يرى أن الاستشراق قد أعلن من بعد ذلك نظاهره بالتححرر من التعصب الديني وادعى أنه يريد معرفة سيرة محمد كما يروها المسلمون أنفسهم ، وفي هذه المرحلة أخذ بعض الكتاب الغربيين منذ القرن ١٨ يتحاشون التهجيم على شخص الرسول ويحاولون التزام العدل والإنصاف في الحكم عليه ، ولكنه يشهد بأنهم لم ينفذوا هذا الالتزام ويقول : ولا بد من الاعتراف بأن أكثر المستشرقين ظلوا دوماً يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها . ونجد من يمرض حياة الرسول من وجهة النظر المسيحية (غليوم بوستل) ومنهم من يستقي معلوماته من المصادر الكنائسية (ميشيل بوديه) ومنهم من يقصد إلى التبشير بالمسيحية من خلال عرض سيرة الرسول (هوينجر) ومنهم من اختار ما يعتقد أن فيه مجالا للطعن ، ثم أضاف إليه الأساطير السخيفة والمزاعم الرقعة ، وفي الاستشهاد بالآيات وجه اهتمامه إلى الآيات التي فيها ذكر للمسيحية فادعى مخالفتها لما ورد في الكتاب المقدس .

(٢)

وقد ركن المستشرقون على حلة مواقف في حياة الرسول ، منها التقائه بالراهب ببحيرا وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة : وقد زعموا أن الرسول عليه السلام التقى ببحيرا الراهب وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن . والمعروف أن لقاء النبي ﷺ بالراهب ببحيرا كان في سن التاسعة أو الثانية عشرة ، وهذه سن لا تسمح ب تلقين أو تعليم ، فضلا عن أنها لا تمكن من استيعاب المسائل الدينية بحيث يمكن أن يلقها الرسول من بعد على الناس . وعمه الذي صحبه في هذه الرحلة لم يكن يفارقه البتة فكيف تسنى لبحيرا أن ينفرد بالطفل ليعلمه ؟ وبالرغم من أن هذه الحادثة لا أهمية لها فإن المستشرقين يركزون عليها ويجمعون على معرفته بورقة بن نوفل ويصورون ورقة كداعية إلى النصرانية مع أن ورقة كان موحداً وهو الذي تنبأ للرسول بأنه النبي المنتظر الذي ينشر به المسيح عيسى بن مريم ، ولو كان محمد قد أخذ من ورقة لروج ذلك أهداؤه من المشركين واسار خبره في الناس جميعاً . أما قس بن ساعدة فقد كان موحداً ومؤمناً بالبعث . (٢) يتعرض المستشرقون لعدد زوجات الرسول كي ينفذوا إلى الطعن في شخصية الرسول والتشكيك في رسالته الخالدة وتصوره بصورة الميل إلى إشباع الجنس مع أن الرسول ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين لغايات تتعلق بالدهوة : أما في الفترة الأولى من عمره فإنه ﷺ قد اقتصر على زواج واحد هو زواج السيدة خديجة رضي الله عنها . (٣) ويتعرض المستشرقون للوحى ويصورونه بصورة الأمراض النفسية والعقلية ، وهم في ذلك عاجزون عن تصور هذه العلاقة التي تقوم

بين النبي المبعوث المرسل وبين سيدنا جبريل الملك الذي يحمل الوحي من الله إلى قلب النبي فمجزوا عن فهم هذه الأحاديث التي تكلم فيها النبي عن حالة الوحي وما يكون له من أثر عليه وصورها على ذلك النحو الباطل . (٤) ويحاول بعض المستشرقين الادعاء بأن النبي كان قادراً على معرفة حاجته من صورته وتحديات بيئته وأنه صورها على صورة منهج إصلاحى فهو عندهم مصلح أو داعية إلى الحرية أو العدل الاجتماعى أو غير ذلك مما يروى به الودعاء والمصلحين . ويقوم هذا التصور على عجز عن فهم الوحي ورسالة السماء أو إنكاره . ونرجع ذلك الخطأ إلى عدة أسباب أبرزها :

(١) حرص بعض المستشرقين على تحريف النصوص وتشويهها والتلاعب بالعبارات للطمع في العرب والمسلمين . (٢) عدم القدرة على التجرد من التعصب الدينى . (٣) القصد إلى الهدس والتضليل (ومن أشد هؤلاء تعصباً وانحرافاً مرجليوث ولامنس) . وقد أخذ على مرجليوث وهو الذى ألف كتاباً ضخماً عن سيرة النبي ﷺ ، كما أشار الباحثون إلى أن أكثر أخطائه ترجع إلى التحكم فى الاستنباط والقياس الجزئى وبيان أسباب الحوادث وقلة عدم فهم اللغة . كما أخذ عليه عدم فهم النبوة . أما لامنس فقد عمل على تحريف النصوص وحرف تاريخ ميلاد الرسول . وحاول أن يوسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء دون أى مستند تاريخى موثوق . وقد انتقد أكثر المستشرقين (لامنس) وفضحوا مغالطاته وحذروا من الاعتماد عليه . ويقول محمد كامل عياد : إن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الدينى . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فمهم فاشلهم فى فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم فى النظرة التاريخية .

(٢)

ومن نماذج كتب المستشرقين المليئة بالأخطاء والشبهات كتاب المستشرق (ز . ف . برودلى) الذى ترجم إلى اللغة العربية دون الاعتناء بإجراء التصحيح اللازم لأخطائه (١) بسبب برودلى إلى النبي ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبي بأنه (وارث الهاشميين حراس أصنام الركبة) . (٢) زل قدمه فى سيرة النبي وأزواجه الطاهرات . (٣) إدعائه اعتماد الرسول من الرهبان فى رحلاته البعيدة والمتعددة ومن الوعاظ فى سوق عكاظ . وأبرز ما فى كتاباته (غلبة الروح التبشيرية) على كتابته عن النبي والقول بتأثره ببعضها وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل . (٤) إدعائه كثرة رحلات النبي إلى الشام والعين وفلسطين وآسيا الصغرى وفارس . وكل هذا غير صحيح فإن رحلات النبي بإجماع المؤرخين إلى الشام لم تزيد على المراتين أو الثلاث ولم يهتتم مع بحيرا إلا فى المرة الأولى . وهكذا نجد أن كتابات المستشرقين حول سيرة الرسول مغلوطة معروفة ، سداها الهوى ولحمها التعصب ، وقد أشار (إتيان دينيه) فى كتابه عن سيرة الرسول إلى هذا المعنى حين قال : إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النبي ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شئ جديد ، بل إذا أمعنا النظر فى الآراء الجديدة التي جاء بها المستشرقون (فرلين ولانجلز وألمان وبلجيكيين وهولنديين) لا نجد إلا خطأ وخبطاً .

وعلى الاحتمال فهم قد حاولوا إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام .
(أولاً) بإيراد أحاديث غير ثابتة أو موضوعة . (ثانياً) بعرض الأخبار الثابتة بطريقة تعطى عكس المراد (ثالثاً) بإيراد مواضع مشكوك فيها أو آراء من كتب بعض رجال الدين المحدثين .
(رابعاً) إسقاط أجزاء من الأحاديث لتصويرها بصورة محرقة . مثال ذلك ما أورده مرجليوث في حديثه : إنما حجب إلى في دنيا كم الطيب والنساء ، وإخفاء باقي الحديث ، وجعلت قرة عيني في الصلاة ، حتى يظهر شخصية الرسول مشفوفة بأمور الدنيا .

الفصل الثالث

الاستشراق والقرآن

وقف الاستشراق من القرآن الكريم موقفه من الإسلام والرسول : موقف الخصومة والإنكار . وهذا طبيعي بالنسبة للاستشراق المسيحي الغربي وبالنسبة للاستشراق اليهودي ، ذلك أن القرآن وقف من التوراة والإنجيل الموجودين في أيدي الناس موقفاً واضحاً هو أنهما بما كتب البشر وليس بما نزل من عند الله . كذلك فإن القرآن هو الذي قدم تلك الحقائق المغايرة لما جاءت به التوراة المكتوبة بأيدي الأخبار والإنجيل المكتوب بأيدي الرهبان وخاصة في التوحيد الذي هو طبيعة دين الله الحق دون التعدد ونبوة المسيح عليه السلام وإنكار ألوهيته وفي رفع عيسى دون قتله أو صليبه ، وإنكار قضية الخطيئة والفداء ، وإنكار قضية شعب الله المختار إلى غير ذلك من القضايا . وقد أقام القرآن الحجج في أمور كثيرة اختلف فيها الرأي وخاصة في نبوات موسى وعيسى وداود ولوط وما ورد في الكتب القديمة من صور لهم مغايرة لما كانتهم كأنبيا ورسل الله تعالى مكرمون معصومون .

وعندما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة نجد أن هناك إجماعاً على الوقوف في وجه القرآن وإنكار مصدره الرباني والقول بأنه من عمل محمد ﷺ . ويحیی هذا الرأي تمصباً ضد القرآن ونبيه أو عجزاً عن فهم الوحي في تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية ، أو في التشابه مع موقف الفكر المسيحي الذي يرى أن الإنجيل ليس كتاباً من السماء وإنما هو من عمل الرسل . والشك في إلهية القرآن هو ما رددته المستشرقون وتأثر به كثير من الكتاب والباحثين العرب أمثال طه حسين وزكي مبارك وغيرهما . ثم هم يذهبون إلى القول بأن النبي استقى مادة القرآن ولا سيما قصصه من الأخبار والرهبان الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم في مكة . ولكن هذه الشبهات سرعان ما تنبذ عندما نقارن بين روايات التوراة والإنجيل ورواية القرآن لقصة من القصص ، حيث يبدو عكس الخلاف ، نجد في القرآن صياغة على نسق طالع من البيان والحكمة وبيانات أعمق وأوسع ، هي تارق بين البيان الرباني وبين القصص البشري ، فالقرآن يتميز بالصدق المطلق ويتميز بالغماس العبرة والبعد عن التفاصيل الاسطورية ، ويرتفع عن سذاجة

العرض ، إلى قدر من الحسنة يتفق مع النظم القرآني الذي بدأ به دخول البشرية في عصر الرشد الفكري وعصر الرسالة الخالدة . وما يردده المستشرقون ليس جديداً فقد رددته في كل عصر خصوم الاسلام وقيل في عهد النبي نفسه عرض له القرآن وأشار إليه وكشف ديفه وكان مهركوا مكة يزعمون أن القصص التي جاء بها القرآن إنما تعلها محمد من نهراني أحمى الانسان كان ؛ بل قد رد القرآن على زعمهم في سورة النحل . ويردد هذا المعنى جولد زيهر المستشرق اليهودي : وبلا شبهة في كتابه معضلة محمد وذهبهم وجيهم يشهدون إلى ما جاء في العهد القديم أو الإنجيل . ويشهدون إلى رحلات النبي إلى الشام وغيرها ويردون إليها ما ورد في القرآن من قصص (ثانياً) حاول جولد زيهر ونولكه الإدعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة محمد ﷺ فيدعون أن اسم الرسول قثم أو قثامة ثم أبدل وصار محمداً لتيسير وطع الآية (وإبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) . ولقد كان الرسول ﷺ اسماً كثيرة ولقد انقط هذا الاسم عما جاء في الروايات التي تروى من محاولة جمعه عبد المطالب في إطلاق اسم قثم عليه قبل اختيار اسم (محمد) . وتشهد روايات المستشرقين المبجلة إلى ما كان محمد له النبي ﷺ في حالة الوحي فيصرون هذا بأنه ثوبات من الصرح ، فيقولون أنه كان عليه الصلاة والسلام يفقد وعيه ويسبل منه العرق وتعتبره التشنجات وتخرج منه الرقوة فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلا على أتباعه ما يروى أنه وحي من الله .

ولاريد أن مسألة اتصال البشرية في الرسول بالملائكي في جبريل إبان الوحي من الأمور الخطيرة التي تحدث عنها العلماء والباحثون والتي يمجو عنها مفهوم العلم المادي فإذا أضيف إلى ذلك التعصب والتحيز والتمس العيب للبراء كانت على هذه الصورة التي يرددها بعض متعصبى المستشرقين .

(ثالثاً) ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة في أوائل بعض سور القرآن وقال نولكه أنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في مصحف واحد ، وهو استنتاج باطل وساذج ، وذهب أدوارد جوسفر إلى أن هذه الحروف المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للحوار ولا ريب أنها لو كانت أسماء للسور لوجب أن توضع قبل البسملة لا بعدها . ولو كانت كذلك لعرضا المفسرون الأوائل وأشاروا إليها . وواضح أن المحاولة ترمي كلها إلى هدف واحد هو اعتبار هذه الحروف المقطعة ليست من الوحي وأنها عمل متأخر عن زمن الرسول والواقع غير ذلك تماماً وأن هذه الحروف هي من صلب القرآن وأن هذه الحروف قد وردت على لسان النبي ومن صميم الوحي . وقد أدهى لويس جاردي ، والأب قنواني في كتابهما (فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام) أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن في خلافته فقسمه إلى سور وآيات ورتب السور وواء بعضها حسب طولها فأطولها أولاً ثم مادونها طولاً وهكذا . وهذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس وارداً بالتحقيق ذلك لأن ترتيب سور القرآن أمر توقيفي تم في عهد النبي ﷺ ولم يحدث تغيير له أو تبديل له من بعد . ولقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيباً آخر يختلف عن الترتيب القرآني الأصيل ومنهم وليم موير ، وويل ورودويل وقد باءت محاولاتهم بالفشل وهناك من حاول أن يهكك في لغة القرآن ذاتها وحاول أن يرميها بأنها لا تنسج بالعصمة ، وأسند في ذلك إلى بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة حاول

بها المارة العجبة بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبي فيما بينهم عليها ، ولا ريب أن هذه محاولات باطلة لا يعتد بها .

(رابعاً) : هناك محاولة القول بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل وإنما هو محاولة للإصلاح اتجه إليها النبي نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقى عند قومه في عصره وأنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكي يرغب المعارضين في الإصلاح ومن ذلك الحديث عن المطففين والهمزة اللزة ونبيه عن قهر اليتيم ونهر السائل ، وأن محمداً قد تأثر بالوضع الاجتماعى في مكة تأثراً شديداً . ولا ريب أن هذه المحاولة باطلة في أساسها ، إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذى جاء به القرآن وحياً من الله إلى رسوله محمد ﷺ ، حين يدرس دراسة عميقة فإن الباحث المنصف يجد فيه منهجاً متكاملًا جامعاً ربانى المصدر بما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو ، وهو في قدرته على البقاء غصاً طويلاً مع تغير الأزمنة والبيئات وعطائه المتصل في كل عصر وبيئة ، وعدم اصطدامه بالمتغيرات والتحولات يؤكد كذب الإدعاء بأنه من صنع بشر . ومهما قال المستشرقون في تأثر النبي بتعاليم اليهود والنصارى - وهو ما لم يحدث لسبب أساس هو أن النبي كان لا يعرف القراءة والكتابة - فإن التوراة والإنجيل لم يرد في أحدهما مثل هذا النظام الذى قدمه القرآن وأن القرآن في مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معها فضلاً عما قدمه من مناهج : منهج المعرفة ومنهج السنن الكونية وسنن الحضارات والأهم فإن ذلك كله لا يوجد منه شيء في كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمد قد أطلع عليهما . (خامساً) : فساد القول بأن القرآن أسهل السجع والثقافية كما يقول لويس مارييه فإن في القرآن أساليب متعددة وأسلوب السجع واحد منها ، والقرآن له طابع خاص معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثير بسجع السكبان في الجاهلية ويختلف عن الشعر كناية حتى قيل عنه (والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة) .

(٢) كانت ترجمة القرآن من خيوط المخطط الذى بدأه الغرب المسيحي بعد الحروب الصليبية تحقيقاً لتوصية لويس التاسع ، وفي محاولة لتحطيم الرأى العام الذى أخذ يتكون في أوروبا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك في الشرق والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام في التعامل مع الغزاة ، وعظمة الإسلام في الأداء الحضارى ، مما أزعج الكنيسة ودفعا إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن وتفسيره على النحو الذى يثير التكذيب لرسوله والتشكيك في سلامته ، يقول أحد الباحثين أنه بعد الفارة الصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوربيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة الإسلام ومقوماتهم وطرق معيشتهم تأثيراً مدوساً في الصليبيين وعند ذلك قامت الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل العسكرية في محاربة الإسلام وفي مقدمة هؤلاء بطرس المحرق سنة ١٢٥٦ الذى أوفد إلى أسبانيا وسنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا وعلى سياسة الذين يرون أنه لا مهرب إلى مسكافة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومن أجل معرفة آراء الخصم جيداً تقرر ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ، وتمتد أول طبعة لنص القرآن تلك التى نشرها باجانيث في البندقية ١٥٢٠ وقد أحرقت جميع نسخها في الحال بأمر من البابا بولس الثالث . ثم أصدر البابا اسكندر الرابع

أمراً بمنع طبع نص القرآن وترجمته وحتى عام ١٦٦٧ لم يحسر القس الألماني إبراهيم ميكلان على طبع ترجمته التي نشرت ١٦٩٤ والتي قال في مقدمتها إنه من الضروري أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافئته وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية في الشرق . وهكذا نجد أن المنطلق في ترجمة القرآن كان لحساب التبشير والاستشراق على أساس إعطاء الغربيين القدرة التعرف على الجوانب التي يستطيعون منها مهاجمة الإسلام ومجادلة المسلمين . ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا هذه الوجهة وهذه الطريقة وكانت منطلقاتهم جميعاً الادعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذي جاء منه القرآن ، وماذا اقتبس محمد من التعاليم اليهودية وأن الإسلام من بنات أفكار محمد وأن القرآن من نصميم محمد . هكذا نجد كتابات بوهل عن مادة محمد في دائرة المعارف الإسلامية وتويني في بحثه أثار يخ ووارنر وجايهر وبوري كلهم يهرون في طريق واحد لا يصدر عن أسلوب دلي ولكن عن هوى وتمصّب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد وأن الرسول أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بهما ، ويقول بروكلان إن النبوة كانت أمراً يتوقّعه الرسول والذي كان يكلمه هو صديق له . واتفاق المستشرقين في ذلك كله ليس عفويّاً بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير محمد أسد حين يقول : يظهر من بحوثهم وكان الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع من للبحث العلمي بل أنه منهم يقف امام قضائه . وقد رد مفكروا الإسلام على هذه الشبهات جميعاً وزيفوها ، وبما قالوا أنه لو كانت التوراة والإنجيل مصادر للقرآن كما يزعمون لكان اليهود أعرف الناس بهذا وهم من هم خبئاً وحقداً على كل نبي ورسول ، ولقد كانت صداقتهم للمشركين فرصة لمساعدتهم في الطعن بوحى القرآن وبما يشابهه للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة . بل لقد شهد بعض كتاب الغرب بفساد رأى الاستشراق . يقول العالم أرقست في كتابه (الإسلام والمسيحية الحقيقية) أن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الأناجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، أن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودي المسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريق التجسيم وأن بولس هو واضع ذلك المزيج من القصص والاحاديث المتعارضة ومن هنا فإن هناك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتباً (لوقا . متى . يوحنا . مرقس . برنابا) . ومن هنا جاء القرآن مخالفاً لهذه الأناجيل والتوراة مادة وأسلوباً .

أما الذين يدعون بأن للقرآن مصدراً من الإنجيل والتوراة فإنهم يجهلون ما أورده القرآن من أصول جديدة لم ترد في الكتابين ومن تفصيلات في بعض الأحداث لم يعرفها اليهود والنصارى . فقد أخبر القرآن بأشياء ما كان يعلمها أحد حتى أهل الكتاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن كفالة زكيا للسيدة مريم بعد ولادتها . كذلك فقد أخبر القرآن بأشياء كثيرة تحققت تحقّقاً تاماً بعد الإخبار بها . منها إخباره عن انتصار الروم بعد انخراطهم . وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ وأن دولة الروم كانت محتلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها السكرة والغلبة ومع ذلك فقد أخبر القرآن بانتصار الروم في بضع سنين ، والبضع مابين الثلاث والسبع . كذلك فإن القرآن أخبر بأمور ما عرفت إلا في العصر الحديث وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها

إلا المسلمون ، ولم يرد بها أى إشارة من علم فى النوراة أو الإنجيل . ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط
الجوى فى أقاليم الجور (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً
حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وكذلك الإخبار عن امتواز الأرض عند نزول المطر عليها (فإذا أنزلنا
عليها الماء اهتزت وربت) . وفى القرآن أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول ﷺ لأنها تحوى معانيه
على تصرف من التصرفات . وما كان للرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه ، وذلك فى أمر إطلاق
أمرى بدر . وفى مسألة الأعمى . وفى مسألة الصلاة على المنافقين . وفى مسألة زهنب بنت جحش . أما
الزعم بأن النبى أخذ من النوراة والإنجيل وتأثر بأسلوبهما فأبسط الرد عليه أنه ما فى القرآن مخالف
للتوراة والإنجيل مخالفة تامة . وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية وذلك شأن مريم وهى ومعارضة
القرآن للتثليث والصلب والخطيئة . أما الزعم بأن النبوة أمر كان يتوقعه الرسول ويرغب فيه وبأن
النبى كان له صديق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقاً بأن النبى كان يرجو أن يكون النبى
المنتظر ولو كان لدونه المحدوثون والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن الصلت بل لقد صرح القرآن (وما
كنت مرجو أن ياتى إليك الكتاب إلا رحة من ربك) وقد شهد أعداءه جميعاً بالصدق وخاصة أبو جهم
ولو كان شيء من ذلك صحيحاً لكان كفار قريش أدرى به من (بروكلمان) ومن شايعه وكان يكون من
أعكبر الحجج بين يد المشركين والمنافقين واليهود ، كذلك فقد برا القرآن الرسول من أن يكون
له من يعلنه (ولقد علم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان
عربى مبين) . كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر فى قضية المفردات الأجنبية التى التقطها
المستشرقون ليلزموا القرآن بأن عربيته ليست كاملة ، فهذه الكلمات التى تبدو أجنبية وهى ليست كذلك
إنما جاءت عن طريق الاشتراك فى أصل اللغات العربية القديمة أو اتصلت عن طريق النقل والتعريف
بالتجارة والأسفار والمجاورة واستعملت فى اللغة استعمالاً جارياً وفق قوانينها ، ولهذا استعمالها القرآن
وخطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن كلمات غير عربية وغير مفهومه
عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربياً مبيناً ليكلفهم بعد هذا كله شيئاً لا يفهمونه (أحد
نصيف الجناني) .

وقد أثبت حديد من الباحثين أن الكلمات الأجنبية التى أوردها بعض المستشرقين كانت فى أصلها
عربية نقلت إلى هذه اللغات الحبشية والسريانية والفارسية ثم عادت إلى عربيتها مرة أخرى . وقد أشار
إلى هذا المعنى الإمام الطبرى حين قال إنه غير جائز أن يتوهم ذى فطرة صحيحة مقر بكتاب الله من قرأ
القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن قارى لا عربى وبعضه نبطى لا عربى وبعضه
حبرى لا عربى بعد ما أخبر الله تعالى فى ذكره عنه أنه جملة قرآناً عربياً ، بل إن الله تبارك وتعالى نفى
عنه العجمة ونفى أن يكون بعضه أعجمياً وبعضه عربياً (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا
فصلت آياته) .

الفصل الرابع

الاستعراق واللغة العربية

كانت حملة الاستعراق على اللغة العربية مرتبطة بمصلته على القرآن الكريم ، وكان الهدف واضحاً وهو خلق فجوة بين بيان القرآن وبين لغة الكتابه ولذلك فقد توالى دهورات المستشرقين إلى العاميات والحروف اللاتينية ، قام ماسينيون المستشرق الفرنسى بذلك في المغرب وسوريا وقام بذلك مرجليوث المستشرق البريطاني اليهودى في البلاد العربية ، وكان التركيز على دمهق من كلا المستشرقين السكبرين وكان الهدف أنه إذا حلت اللغة واستعجمت الاسنة انقطع الطريق إلى الإسلام وتمزقت الأواصر ، ولقد تجمعت شبهات الاستعراق حول اللغة العربية في أمور عديدة :

(أولاً) : رميها بالقصور وعدم الكفاية العلمية . (ثانياً) صعوبة النطق وصعوبة الكتابة .

(ثالثاً) ارتفاع مستواها عن فهم الناس . (رابعاً) التفاوت بين طريقة النطق وطريقة الكتابة . وكان لويس ماسينيون من أخطر الدعاة إلى الحروف اللاتينية واتخاذها أداة لكتابة اللغة العربية وما كان يدعو إليه (إهمال الإعراب) على اعتبار أنه ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب وقد دعا ماسينيون رجال الجمع العلمى في دمشق إلى اتخاذه وسيلة للتجديد وكرر دعوته في أندية الهباب العربى في باريس وقد وجدت دعوته رداً عنيفاً ومعارضة واسعة كذلك فقد بذل مرجليوث جهوداً واسعة في محاربة الحرف العربى والعمل على استبداله بالحرف اللاتينى وركز دعوته على دمشق كما فعل ماسينيون كما حاول مرجليوث دعوة الإيرانيين إلى تغيير الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية وقد عارض الإيرانيون هذه الدعوة وشجبوها واحتفظوا بالحروف العربية أساساً للغتهم الفارسية وقد جاء دور المستشرقين في مقاومة الفصحى لغة القرآن بعد دور المبشرين : واهم ويسكوس ، وويلور وسبيتا ، الذين بدأوا حملتهم إلى العامية ثم جاء المستشرق فنسلك فنشر رسائل عديدة مكتوبة بحروف أوربية في اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة المقتطف أصحها (أجرومية مصرى) كتبها على هذا النحو :

(بل لسان المصرى وممها أمثلة) يقصد : باللسان المصرى وممها أمثلة .

(٢) تعددت محاولات المستشرقين للوصول إلى اغراضهم ، خاصة على طريق مجامع اللغة العربية التى اشتركوا فيها ومنها دعوتهم إلى كتابة القرآن بلغة العصر في محاولة لاقتضاء على النهج الذى كتب به القرآن منذ عهد النبى ﷺ والذى وضع على النحو الذى يضمن الاستجابة لكل اللهجات العربية ولكل القراءات المنزلة وقد رد الامام أحمد بن حنبل رداً حازماً على هذه الدعوة منذ قديم وقال إن القراءة يجب أن تكون على ما كتبه الصحابة فقد نزل القرآن على سبعة أحرف وإن الكتابة جهات

موافقة لهذا فلو نفهت الكتابة اضاءت هذه اللغة . (٢) حاول الاستشراق الغمز لعلوم النحو والصرف والاداء بانها من عوامل صعوبة اللغة العربية ؛ وهذه أيضاً من مؤامرات الاستشراق ذلك أن حماية اللغة العربية تتطلب المحافظة السكاملة على ما هو مقرر ومنقول من الأصول والقواعد السليمة في علمي النحو والصرف وعلى ما هو محدد مقبول في علوم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع دون السماح بما يؤدي إلى اللحن أو مسخ الأسلوب العربي المبين والهدى الجمال والرائعة والجل والأساليب التي تتنازعها اللغة العربية .

(٤) حرص الاستشراق بعض اهلانهم من رجال التغريب إلى اطلاق تلك النغمة التي تقول أن العربية هي لغتنا ولنا الحق في القبول منها والرفض والتغيير وهي نغمة مبطلة لأن اللغة العربية ليست ملك المصريين أو السوريين أو العرب هيماً وإنما يشاركهم فيها سبعة مائة مليون من المسلمين تعد اللغة العربية بالنسبة لهم هي لغة الثقافة والفكر والعقيدة ومن هنا فإن هذه الدعوى التي قد تصلح في اللغات الأوروبية القومية لا تصلح بالنسبة إلى اللغة العربية التي لا يملكها للعرب وحدهم وليس لهم حق التصرف فيها تصرف الوارث القاصر . إن محاولة القول بأن اللغة العربية لغتنا ونحن أصحابها ولنا حق التصرف فيها قول مردود ، يردده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمي .

(٥) كذب الواقع دعوى المستشرقين من القول بأن عيوب اللغة العربية وجود لغة الكتابة ولغة الكلام وتبين من البحث العلمي الدقيق أن جميع لغات العالم تنقسم بهذه السمة وإن أرق اللغات الأوروبية تختلف فيما بين الكتابة والكلام ولكن هذه المسألة قد تقصر وقد تتسع حسبما ينتشر التعليم الذي يرفع الأمم من لغة الكلام إلى لغة الكتابة ولذلك فإن الدعوى إلى إنزال لغة الكتابة إلى لغة الكلام هي عمل مضاد لطبيعة اللغة وتطورها .

(٦) عندما يتحدث المستشرقون عن ضعف اللغة العربية أو جودها فإنهم ينتكرون لمصدر هذا الجود أو الضعف وهو ما قام به الاستعمار في سبيل الحيلولة دون امتداد اللغة العربية وتغليب لغة المحتل عليها وتشجيع اللهجات العامية على النحو الذي حال بين اللغة العربية وبين التطور والنمو . وقد رسم دعاة الاستعمار من أمثال دالوب سياسة التعليم على أساس أن تحول بين اللغة العربية وبين أن تصبح الأداة الثقافية لآبناء الأمة المتطلعين إلى أن ينهلوا من معين التقدم العلمي فإذا أصابوا قسطاً من علم أودعوه في قوالب أجنبية متضاربة منها ما هو مشدود بولائه الثقافي باكسفورد أو كمبردج بترانجاتهما التقليدية، ومنها من لا يؤمن بالفكر السريفي الواضح الرقراق ومنها من اعجه كلية إلى الأسلوب الألماني الموهل في التحليل وقد حرم الاستعمار التعليم بلغة الأمة حتى لا تنقل العلوم بكتبتها إلى تلك الأمة في حين تلقى العلوم عن طريق اللغات الأجنبية بحيث نقل بعض من أفراد الأمة إلى تلك العلوم .

(٧) كشف رجال اللغة عن فضاء المقارنة التي حاول المستشرقون عتدها بين اللغة العربية وبين اللغة اللاتينية ، تلك المحاولة التي يستهدفون بها وضع اللغة العربية في معجم اللاتينية وتحويل اللهجات المصرية والسورية والعراقية إلى لغات وهو ما لا يتحقق مع وجود القرآن الكريم الذي هو العروة الوثقى لوحدة اللغة العربية .

والواقع أنه لا يوجد أى تشابه سواء من ناحية التاريخ أو الأوضاع أو التحديات بين اللغتين : وأن اللغة اللاتينية إنما تقلصت وانفسخ المجال أمام لهجاتها لأسباب سياسية منها السكاش الدولة الرومانية وتقلص نفوذها السياسى ولأن الدين المسيحى كان عاملاً مساعداً على انتشار اللهجات العامية لأن التبهر بذلك الدين بدأ بين العوام فن الطبعى أن تكون الدعوة له باللهجة العامية بينما كانت الدعوة إلى الإسلام عن طريق القرآن نفسه ببلاغة القرآن هي روح الدعوة إلى الإسلام ومن هنا قطعت العربية على السريانية والقبطية والعبرية والحبشية والآرامية .

(٨) إن اللهجات المحلية والعامية واللغة الوسطى، والحروف اللاتينية كلها من مؤامرات الاستشراق وهي التي تسربت إلى دعاة التغريب حتى نرى واحداً مثل الدكتور محمد كامل حسين يقول : أدعو إلى قتل الفصاحة وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير ، وهو قول يدل على العجز عن فهم علاقة اللغة بالعقيدة أو فهم تاريخ الإسلام وعلاقة العرب به وهي كلمة من كلمات استعمال مفهوم عصر للعلوم ولغة العلوم وهو تيار مهمما بلغ من سلطانه فلن يستطيع أن يقضى على سلطان العقائد والفكر وعلى المفهوم الاصيل بأن المسلمين هم حملة لواء البيان الذي ارتقى بالبشرية من الأساطير الساذجة والعاميات إلى عصر الرشد الفكرى والأخلاق والإيمان وكلها ترتبط ارتباطاً أساسياً ببلاغة القرآن التي جاءت قسمة لتمعلى النفس الإنسانية اشواقها ومطامعها . ولاريب أن هناك دعاة للغة العربية مصدرها عجز المستشرقين عن فهم اللغة العربية ومصطلحات البلاغة والبيان ، وهي عدوى سرت إلى دعاة التغريب وإلى أولئك الذين يعادون القرآن والإسلام فهم يعادون النصيحى ومن هؤلاء من يدعوا إلى كسر اللغة العربية وكسر عمود الشعر العربى ولاريب أن الذين يشجعون اللهجات العامية هم أعداء الإسلام الذين يهجمون ابعاد المسلمين عن كتابهم الكريم واضعاف شأن للفكر الإسلامى وتبديد قوى المسلمين الذين يوحدهم الإسلام وكتابهم الواحد كتاب لغتهم الواحدة وقد أصدر مؤتمر العالم الإسلامى قراراً تاريخياً عام ١٩٤٩ بوجوب اعتبار لغة القرآن لغة عامة للمسلمين فى جميع أنحاء العالم والعمل على نشرها وكتابة لغات العالم الإسلامى بخط النسخ العربى .

(٩) حمد الاستشراق إلى إفساد اللغة العربية على النحو الذى نجاهه فى كتاب المنجد من إدخال مصطلحات غير عربية إلى صميم النص العربى ، وما نجاهه من خطأ فى تفسير بعض المصطلحات العربية : مثل محاولة تفسير كلمة (الطلاق) بقولهم أنهم الذين أدخلوا فى الإسلام كرهاً ، وتفسيره كلمة (ع م د) بأنه غسيل الولد بماء العمودية فى حين أن العمودية ليست كلمة عربية وإنما هي كلمة قبطية تتعلق بمعوزيت بالذال المعجمة يقول الدكتور مصطفى جواد أن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نجينا على ثلاثمائة وأربع وعشرين منها ونحن لم نقرأ فيه إلا عند الحاجة .

الفصل الخامس

الاختشراق والتراث

وقف الاختشراق من التراث الإسلامى موقفين متعارضين :

(١) موقف التنكر لقيمة هذا التراث وتصويره بأنه متخلف وأنه لا يستطيع أن يعطى المصرد الحديث شيئاً نافعاً ، وينكر أنه كان لهذا التراث فضل على الحضارة الحديثة .

(٢) بعض الجوانب الضعيفة والمختلف عليها من هذا التراث وخاصة ما يتعلق بالفرق السياسية ودهوات الباطنية والونج والقرامطة وغيرها من الجوانب المضطربة والتي لا يتفق مع جوهر الإسلام . ولقد أنكر بعض المستشرقين نسبة المكتبة اللاتينية للكنيسة التي تحمل اسم جابر بن حيان إليه لمجرد أن أصولها العربية فقدت ومنهم المستشرق برتو ، كذلك أنكر المستشرق دوزى الحقيقة التي اعترف بها المؤرخون المنصفون من أن الشعر الفرنسى (التروبادور) قد تأثر بالشعر الأندلسى الإسلامى وقد تصدى له علماء راسخون مثقال لمبادر وسثيل وأوضحوا أنه كان عطفاً ومتعمداً وقال جورج سارطون أن أى شخص يعرف العربية لا يعطيه مطلقاً فى اكتشاف أن هذه المكتبة اللاتينية ترجعت لمكتبة عربية إذ تبدو الأساليب العربية واضحة فى الترجمة اللاتينية وأثبت ربهرا وينكل بما لا يدع مجالاً لذلك أن شعر التروبادور متأثر إلى حد بعيد بالشعر العربى الأندلسى وبالموسيقى العربية ولولاها لما ظهر التروبادور . وقد يقال أنهم مستشرقون ينكرون ومستشرقون يعترفون . ونقول : أن حركة التغريب لا تنقل لنا إلا وجهات نظر المنكرين والمعارضين والمنتقسين اثرائنا فى محاولتها الدائبة النقص من شأن كل ما يتصل بالإسلام وتراثه ، وأن هؤلاء المنصفون فى الأغلب علماء لا دخل لهم بدائرة الاختشراق ومن مثل هؤلاء العالم درابر الذى كتب فى منتصف القرن التاسع عشر معلقاً على أسلوب الإنكار الذى يتخذه الأدب الأوروبى إزاء الأدب العربى وقال أنه آسف لهذه الطريقة التى عمد بها الأدب الأوروبى إلى التحايل (لإخفاء أفضاله العرب العلمية علينا) وأشار سديو إلى ذلك فقال : يحاول الأوربيون التقليل من شأن الدور الذى قام به العرب ولكن الحقيقة ناصعة مشرقة ، ليس أمامنا من سبيل إلا أن نضفي عليهم الشرف الذى يستحقونه إن عاجلاً أو آجلاً . ولقد أشار جارودى إلى ما أطلق عليه (مؤامرة الصمت) التى استمرت أكثر من ثلاثمائة عام تقريباً والتي تهمع على التنكر للتراث الإسلامى وآثاره فى النهضة العلمية الحديثة .

(٢)

وفى الوقت نفسه عمدت حركة الاختشراق إلى استخدام التراث الإسلامى (استخداماً سيئاً) ، فقد

بدأت المؤامرة على التراث منذ وقت بعيد وهي ترمي إلى الإيقلاع عليه بأى من وسائله إلى دوائر الغرب ثم كانت محاولة إبراز الجوانب الضعيفة منه والمعقدة والمتضاربة والمتصلة بالخلاف والصراع بين الفرق الإسلامية وكل ما يتصل بما يشكك في العقيدة الإسلامية وخاصة دعوات الباطنية والقرامطة والحلاج وابن عربي والهروردي حتى يكف ماسليون أربعين سنة على إحياء آثار الحلاج وإعادة طبعها ويجري طبع كتب ابن عربي وابن سبعين وغيرهما. في نفس الوقت الذي يجري فيه التجاهل تماماً للكتب الإيجابية الإسلامية والرد على النوادق والباطنية مما كتب الغزالي وابن تيمية وابن القيم. وكذلك نجد أن الاستشراق قد استخدم التراث استخداماً خاطئاً: أبرز ونشر وأذاع كل ما يفرق وأخفى كل ما يجمع وأحيا كل ما يتصل بالشبهات والفرق، وأغفل غيره: فقد جرى المستشرقون على إحياء أنواع معينة من التراث ليست من خيرها وفي مقدمتها النصوص الفلسفية وخلافات المذاهب وتضارب الآراء وأبحاث الاعتزال والباطنية وكل هذا ليس من صميم الفكر الإسلامي ولا كنهم قصدوا من ذلك إحياء تلك الشبهات وإعادة طرح الخلافات القديمة في أفق الفكر الإسلامي لتزيق المسلمين شيئاً ومن ذلك اتهامهم بالأدب المكشوف مثلًا في بشار وأبي نواس وألف ليلة واللاهاني والنوادة أمثال ابن المقفع وابن الروملي وكل عمامهم في مجال التراث يستهدف طرح مفاهيم من شأنها أن تراحم مفهوم الأصالة في الإسلام اتريفة وتفسده. ومع ذلك فقد وجدنا من يقول: سوف نرى عندما تخرج إلى النور تلك السكود المرددة في دور الكتب الأوروبية أن تأخير العرب الخالد في حضارة المصور الوسطى كان أجل شأنًا وأكبر خطراً مما عرفناه الآن.

الفصل السادس

الاستشراق والسنة

إن موقف الاستشراق من السنة هو موقفها من القرآن وسيرة الرسول، تماماً، فإن السنة هي جزء من حياة الرسول وهي تفسر القرآن فلا بد أن تنالها الشبهات وتصل إليها السموم وهوامل التزييف. ويقول العالم الفرنسي (إيتان دينيه) أنه من المدهش أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول أو يدرسون سنته وقد صرح في مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد) أنه من المتعذر بل من المستحيل أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلفة. وأنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد ﷺ مبلغاً غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من انبائهم لأساليب النقد البريئة ولقواين البحث العلمي المحايد. وقد عرض إيتان دينيه لسكثير من اتهاماتهم النبي ورد عليها واتخذ من لامنس مثلاً واضحاً على صحة ما ذهب إليه وحكم به وقال لقد اخبرت (لامنس) لأن شهرته العلمية خدمت السكثيرين فأحسنوا الثقة به مع أن ما حاقه من أدلة وبراهين في كتبه أغابها من قبل القوبة على القارىء والسكذب على الحق والتاريخ.

قال لامنس أن النبي ﷺ كان يكره الوحدة وأكده (دينه) أن النبي كان يتمدد في خار حراء بنفسه ليستجمع ذهنه ومعموره منصرفاً كل الإصراف عن هذا العالم المادى . وحكم لامنس على النبي بأنه كان نؤوماً ، والقرآن يهمد للنبي (أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلث الليل ونصفه وثله) . واتهم لامنس النبي بأنه كان أكلوا وبين إيمان دينيه أن عمداً كان زاهداً في الطعام وملذات الدنيا . وحكم على لامنس بمجنوحه وانحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن النبي وأصحابه لم يسل أحد منهم من غواته وطعناته أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام أب جهل وأب لب والمنافقين وأعداء الدين فإنه يهيد بهم ويهدمهم . والمعروف أن إيمان دينيه قد آن بالإسلام وهو من أمثال القورد هدل و (ليوبولد فايس) محمد أسد وعبد الكريم جرمافوس . وهناك منصفون لم يعلنوا إسلامهم أمثال : كارليل وهنرى دى كاسترى الذى يقول أن العقل يختار كيف يتأن أن تصدر الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فمكر بن الإنسان عن الايمان بمثلها لفظاً ومعنى ، لقد أنى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته والقرآن الذى نزل على محمد لا يزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها .

(٢) وتتركز شكوك المستشرقين في السنة حول تأخر تدوين الحديث . فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذى بدأ في المائة الثانية للهجرة أعطى فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا في الحديث وفي وضع احاديث لخدمة أغراضهم . يردد هذا جولد زيهر ودوزى وسبرنجر . وقد شك جولد زيهو في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول ، ويرمى من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور وهو يرمى أيضاً إلى رسم السنة كلها بالاختلاق والوضع على السنة المدوين وهو يزعم أن هؤلاء المدوين لم يجمعوا من الاحاديث إلا ما يوافق هواهم ، ويرى سبرنجر في كتابة الحديث عند العرب ، أن الشروع في التدوين وقع في القرن الهجرى الثانى وأن السنة انتقلت بطريق المشافهة ، أما دوزى فهو ينسك نسبة هاته (التركة المجهولة) من الاحاديث إلى الرسول . وقد رد عليهم دكتور صبحى الصالح في كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) كارد عليهم كثيرون وكشفوا زيفهم . وجهة الرأى في هذا ما أورده الدكتور مصطفى السباعى حين قال : حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله وحرصه للتابعون وتابعوا التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتنقيته من شوائب التحريف والتزويد ومقام به علماء السنة من جهود جبارة في تتبع الكذابين والوضاعين وفضح نواياهم ودخائلهم وبيان مآزده في السنة من احاديث مكذوبة حتى جمعت السنة في كتب صحيحة وأصبحت النقاد يحققون وتحيصاً ثم خرجوا من ذلك بالاعتراف بصحتها والتسليم بها ، وإذا أمعن النظر في ذلك كله ايقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخطون في أودية الأوهام وهم متأزون بأوهامهم ونقصهم في الحكم على حقائق يعتبر العبد بها في نظر الحق المنصف إسفافاً وتلاعباً بالعالم واخضاعاً للحقائق التاريخ إلى نظريات الهوى والبعس . ولعل من الحرافات التى جرى ورائها المستشرقون وأتباعهم فرحين بأنهم التقطوا شيئاً ما أطلق عليه دميراج ابن عباس ، والكتاب مكتوب لا يتداوله إلا عامة الناس وليس له سند يربطه به لا رواية ترقى

إلى مستوى الحسد، وقد احتفل به المستشرقون وقلّروا بينه وبين الكرميدين الإلهية. وليس أشدّ تمصّباً من مستشرق مثل أندرسن الذي أسقط أحد المتخرجين من الأزهر في رسالة عن حقوق المرأة في الإسلام لآله برهن على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة. وقد لحص الدكتور مصطفى السباعي بمدجولة ضخمة مع المستشرقين في جامعات أوروبا أشرنا إليها في كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) أهدافهم على هذا النحو. (أولاً) إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم. (ثانياً) تحريف النصوص في كثير من الأحيان تحريفاً مقصوداً. (ثالثاً) إساءة فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف. (رابعاً) تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها: ينقلون من مكتب الأدب ما يحسبون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحسبون به في تاريخ الفقه. فهم يصحّحون ما يقوله الدميري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ.

الفصل السابع

الاحتشراق والحضارة الإسلامية

وجهت حركة الاحتشراق إلى الحضارة الإسلامية كثيراً من الاتهامات والشكوك والشبهات، فهم لا يطمقون اسم الحضارة الإسلامية عابها بل ينسبونها إلى العرب حتى يشهروا الخلافات ويوقعوا بين المسلمين والعرب، يقول رينان: أن الحضارة العربية - حضارة سطحية ظاهرة أنتجت عقولاً أوروبية ومنابعاً يونانية فارسية هندية غوطية، وحيثما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة في البلاد العربية فلا بد من إرجاعها إلى عقلية آرية وإنتاج غير سامي. ويرغم (يوسف شنت) أن أحد أركان المدنية الإسلامية راجع إلى المدنية الأغريقية في آخر مراحلها فلم يكن العرب يشتركون في تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلبغتهم ودينهم. أما المواد الأخرى فإنها مأخوذة من ذلك التراث الذي تركه اليونان والذي قد توطد في البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر، ثم جاءت الدولة العربية فأكلت توطن العلوم والآداب الأغريقية في الشرق الأدنى. ويقول ماسينيون أن كبار رجال الحضارة والآداب لم يكونوا ذوي دم عربي محض بل كانوا موالى مستعربين. وقد رد كثير من كتاب العرب على هذه الاتهامات ويقول الدكتور جواد علي: أن هذه النظريات لا قيمة لها أبداً إذ لم تدعم بالنصوص والبراهين. كما أن الاستشهاد بمحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة وإن استطيع أن أجعل من الأمة الجرمانية مهيمنة بربرية مادية خاملة لم تنهض إلا أخيراً بالاستناد إلى النصوص الجرمانية نفسها المجموعة من المصادر والمنابع عن التاريخ الجرمانى، ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك في تاريخ أى أمة. واعتقد أنه لو كانت الأمة العربية قوية في الوقت الحاضر لكانت النظرة على حكمها تماماً. ويقول: أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة عنصرية وقد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الإسلام بصرف النظر عن أجناسهم فإن القرآن

واللغة العربية والتوحيد كانت هي العناصر التي شككت القدر الذي صنع الحضارة واقد جاءت حضارة الاسلام بعد حضارات العبودية الفارسية والفرعونية والرومانية وعبادة الفرعون والقيصر لتقدم للبشرية الإخاء البشري والعدل والرحمة والسباحة وترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الإنسان بالإنسان وذلك هو جوهر الحضارة الإسلامية ، وقد قامت على التوحيد الخالص وبذلك فهي تختلف أشد الاختلاف عن الحضارات اليونانية وغيرها وعن الفكر اليوناني وغيره ، ولكن هذه الحضارة استطاعت أن تظهر في بورتقتها ما كان موجودا في العالم من علوم ومعارف بعد أن امتحنتها واستصغرتها في بورتقة التجريب الذي هو المنهج الذي صنعه المسلمون وقدموه للبشرية وقامت عليه الحضارة المعاصرة . وأن ما وجدته المسلمون لدى اليونان لم يكن سوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطيء ، فضلا عن الأساطير والتنجيم والخرافات التي استبعدوها المسلمون تماما . واقد حاول المستشرقون اتهام العرب والمسلمين بأنهم أحرقوا مكتبة الاسكندرية وهي دهي باطلة كذبها المؤرخ البريطاني جيبون وكثير من المؤرخين الذين تبين لهم أن مكتبة الاسكندرية احرقت قبل الإسلام وقد أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان واتم احراراق الجزء الباقي بطارقة الاسكندرية قبل الإسلام . وقد كذب الدكتور بطار رواية يوحنا النحوي وقال أنه مات قبل دخول عمرو بن العاص إلى الاسكندرية بأربعين سنة أو الثلاثين على الأقل وأن أبا الفرج روى عن يوحنا النحوي فإذا سقط البطل سقطت الرواية . كذلك ذكرت دائرة المعارف الفرنسية أن مجموعة المؤلفات التي كانت بالمرابيوم قد احرقتها للنصارى في القرن الرابع الميلادي .

ويقول الدكتور عمر فروخ ان محاولة المستشرقين إنما تهدف إلى أن لا يصل الاسلام صحيحاً إلى أهل الغرب فيؤمنوا به فهم يعملون على رد الإسلام وتشويهه بتقديمه مهلهلا وأن كتاباتهم مشوهة واحكامهم مزيفة قوامها الجهل والسطحية والتمصب ، وأنهم يهدفون إلى اقتناص الحجج القاطعة لتقدم إلى المبشرين حتى يستغلوها في الجمدل ، وقد أشار إلى ذلك كرادى فرحين قال : أن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظلة إلا نسبوها إليه وقد رد ما زعم هؤلاء الكتاب والشعراء المرتزة من الغربيين يهاجون للعرب ولم تكن مهاجمتهم إلا تنهماً باطلة بل متناقضة . وإن المستشرقين لا يرجون من تفضيل الآداب الغربية على أمثالها في تاريخ العرب إلا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق إلى الرضا بالخطوط المدنية الغربية .



الفصل التاسع

الاستشراق والشرعية

لما كانت الشريعة الإسلامية هي الغاية الكبرى من الإسلام فقد كان لا بد للاستشراق من توجيه الشبهات إليها ومحاولة البحث عن تناقضات يستطيع من خلالها أن يصل إلى هواه، وقد وضع حقد المستشرقين على الشريعة الإسلامية فيما كتبه كوفن وريثان وكلامون وجائو وجولدزيير ومرجايوت ولامنس، وقد حاولوا إيهام المسلمين بأن الشريعة الإسلامية سبب تأخرهم وأنها عائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم، وأناروا الشبهات حول نصوصها وهرضوا لما اسماه تطور الشريعة بتطور العصر وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت عن الشرائع الوضعية التي تحتاج في كل عصر إلى تغيير مع روح العصر بينما الشريعة الإسلامية شريعة ربانية منزلة قد وضعها الشارع الأكبر معقولة لقيام مجتمع الأمن والسكينة وجعلها ذات أطر واسعة وافية وقادرة على تقبل تغيرات العصور والبيئات، وهي من أجل ذلك لا تحتاج إلى تطور لأن أسسها الثابتة راسخة البنيان ثم هي راسخة قادرة بعد ذلك على تقبل المتغيرات . ولقد حاول الاستشراق الادعاء بأن الشريعة الإسلامية جماع ما كان لدى العرب من الأعراف وهو ظن كاذب ودهوى باطل فندها علماء الإسلام وكذبوا ما ذهب إليه أمثال شاخس وغيره . وكانت من أخطر مجادلاتهم الادعاء بأن الشريعة الإسلامية مأخوذة من القانون الروماني وهي أيضاً دعوى ظاهرة البطلان وآية ذلك أن مؤتمر القانون الدولي في لاهاي عام ١٩٣٧ قرر أن للشريعة الإسلامية نظام قانوني مستقل غير مأخوذ من التشريع الروماني وبذلك أقر تمثيل الشريعة الإسلامية في محكمة العدوى كنظام، ومن تلك الفبهات التي أنارها الاستشراق دعوى الفحل بين الدين والدولة واقول بأن الإسلام دين عبادي لا صلة له بنظم المجتمع، وهي محاولة لتصوير الإسلام على هيئة المسيحية الغربية، بينما الإسلام في جوهره وطبيعته دين ومنهج حياة لا سبيل إلى انفصالها ولقد كانت محاولة فصل الدين عن الدولة هي إحدى محاولات النفوذ الغربي الذي فرض على المجتمعات الإسلامية استعمال القانون الوضعي . واقد كانت محاولات الاستشراق لضرب الشريعة الإسلامية عاملاً هاماً يرمي إلى الحيلولة دون تطبيقها في المجتمع الإسلامي . أما محاولة الربط بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني فقد كشف علماء المسلمين عن فروق حقيقة بين الشريعة والقانون، أبرزها أن الشريعة لم تفرق بين الروح والجسد ولم تهمل إحدهما بحسبان أن الإنسان مركب منهما جميعاً وأن الفقه الإسلامي قiem على أساس العبادات والمعاملات والعقوبات بينما قسم القانون الروماني على أساس الأشخاص والخصومات، وأن أساس القانون الإسلامي مستمد من كلام الله المنزل بالوحي أما أساس القانون الروماني فستمد من مشيئة الإنسان، وأن خلاصة القانون الإسلامي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بينما بني الرومان أحكامهم إما على أوامر رئيس الحكومة أو العرف العام وقد أهملت كتب الفقه الروماني المسائل العمومية كالأمور الدستورية وأحكام

القانون الروماني وجعلتها من أمور العيانية بينما الإمام عند فقهاء المسلمين هو أمام صلاة الجماعة كما هو أمام دولة المسلمين، وفي القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد والخطأ ولا توجد هذه عند الرومان، وكذلك الدية والقصاص عند المسلمين وكذلك الحدود التي تتعلق بالقتل والزنا والسرقة والقتل وشرب الخمر والارتداد، بينما الزنا والقتل وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومان ومن ثم فلا عقاب عليها. وليست هناك مشابهة بين التشريعية الإسلامية والقانون الروماني في الزواج والطلاق فالإسلام لا يعرف إلا قسماً واحداً من الزواج وهو عقد يجمع الزوجين برضاها بينما يوجد عند الرومان أصناف عديدة للزواج الجائز يعتبر أكثرها عند المسلمين كالزنا. وقانون الوراثة وتقسيم التركة عند المسلمين يمايز ما عند الرومان، وكذلك نظام القضاء وأدوات القصاص، والقانونان مختلفان حتى في المعاملات المالية، فمثلاً الربا غير محرم عند الرومانيين وحتى أساس التجارة يختلف بينهما فالبيع عند فقهاء المسلمين (عقد برضا المتعاقدين) وهو عند الرومانيين عقد يتعلق بالمال. ويقول الدكتور محمد حميد الله أن الفقهاء المسلمين ما كانوا يعرفون اللغة اللاتينية التي كتب بها القانون الروماني ولم تترجم هذه القوانين إلى العربية قبل أوائل القرن العشرين، ومن المعروف أن المفتي عند الرومان هو موظف الدولة، أما عند المسلمين فالفقيه لم يكن أبداً إلا رجلاً من عامة الناس تعلم وتفقه فأفتى ودون كتب الفقه. وفيما أورده شاخت وجرونييه وجولد زيهل من القول بأن التشريع الإسلامي المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الإسلام كان مستقماً من النظام القبلي وأن العقوبات في الإسلام كانت تحت السلطان القبلي فقد زيف الباحثون المسلمون هذه الشبهات وكشفوا عن مصدرها المتعصب الحاقد الذي يمكن في صدور أهل الاستشراق الغربي والصهيوني. يقول الشيخ محمد أبو زهرة: هل كان في النظام القبلي أن الفرد يقتل بالفرد وأنه لا يسأل غير القتال وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل فزعم القبيلة يقتل به العرب، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد، بل إن السيد يقتل إذا قتل عبده، وهل كان في حكم القبيلة جلد لزانى بمائة جلدة أو الرجم وخذ الخمر بثمانين جلدة أو أربعين وخذ القذف بثمانين جلدة؟ وهل كان في حكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته على النصف من عقوبة الحر؟ وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده؟ لقد أغفل (شاخت) كل الحقائق وقال في كلمة واحدة: إن حكم الإسلام في العقاب لا يمتد إلى حكم الأعراب. وفي شأن الطلاق الذي جاء به الإسلام، هل هو ما كان متبعاً في الجاهلية وهل حقوق المرأة كما قررها الإسلام هي التي كانت في الجاهلية أو عند الرومان؟ هل كان للمرأة عند العرب أو الرومان إرادة في تزويج نفسها والولاية الكاملة على مالها، هل المرأة كان لها كيان كامل عند الروماني أو عند الفرس أو عند البدو. هل أقر الإسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب وعند الرومان، وهل نظام الولاية على النفس والمال هو ما كان عند الرومان؟ الإسلام قد اعتبر الولد حراً في التصرف في نفسه وماله بمجرد بلوغه البلوغ الطبيعي والرومان كانوا يعتبرونه في ولاية أبيه ولو بلغ الستين، حتى يمنحه الأب حق التصرف، هل نظام الميراث كما قرره الإسلام سبق برأى في شرح من الشرائع؟ ويشهد فاباوزن وتبعه آخرون من المستشرقين أمثال كايثاني

وببكر ديل وجردهمان شبهة أن العرب لم يعرفوا سياسة المال ونظام الضرائب لما فتحوا البلاد ويرى فلهاوزن أن العرب كانوا يحبون من البلاد التي فتحوها أتاوات إجمالية وأنهم اتبعوا النظام الفارسي الروماني الذي كان سائداً في تلك البلاد في جمع الضرائب واستعملوا نفس أسماء ونظم الضرائب التي كانت مستعملة في اليهود السابقة ومن ضربية الأرض (الخراج) وضريبة الروموس (الجزية) ويرد الدكتور بدوي عبد الطيف على هذه الشبهات فيقول: من الحق أن الآراء التي ذهب إليها فلهاوزن ومن تابعة من المستشرقين خطأ إلى خطأ وذلك لأن العرب عرفوا سياسة المال ونظام الضرائب الحقيقية منذ قيام الدولة الإسلامية ولم يطلبوا أتاوة معلومة ثابتة من البلاد التي فتحوها إلا في حالات قليلة معينة، وأنه كان هناك منذ البداية أنواع من الضرائب المحددة لها قواعد وشروطها ولها نظام جبايتها وكيفية تحصيلها، وأنها كانت تزيد وتنقص حسب الظروف والملايسات وأن خطة العمل في الجهاز الضريبي سادت في دقة ونظام في جميع الأقطار وبخاصة في مصر وأن مركز الخلافة كان شديد الرقابة والإشراف على الإدارة الضريبية وأجور الضرائب، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن العرب عرفوا النظام المالي والمعاني الاصطلاحية المتصلة به منذ الفتح الإسلامي وأن أقوال العرب من المؤرخين والفقهاء كصادر تاريخية وتشريعية هامة جديرة بالثقة والاحترام وأنه يجب التحويل عنها ولا سيما إذا علمنا أن ما جاء بها يكاد يتفق مع ما جاء من شواهد البردي وغيره من الوثائق التاريخية المادية، وما يدل على أن نظرية فلهاوزن في حاجة إلى إعادة نظر حين تناول النظم الإسلامية بالدراسة، ذلك أن العرب عرفوا نظام الضرائب الحقيقية في الفتح الإسلامي الأول ماثبت من أن ضريبة الروموس (الجزية) لم تكن موجودة في مصر في العهد البيزنطي المتأخر وإن كانت موجودة في فترة أسبق وذلك يعني أن العرب استحدثوا ضريبة الجزية لما دخلوا مصر فاتحين أيام الخليفة عمر بن الخطاب وأنها كانت ضريبة حقيقية لها نظامها وسعرها الخاص، فرضت على أفراد بأعيانهم وأعطى منها آخرون حسب قواعد ثابتة فرعية لقد حدد عمر بن الخطاب وقت أداء هذه الضريبة (الجزية) بما يتفق ومصالح الدافعين وكان وقت تحصيلها في نهاية العام الزراعي حين تحين الغلات ويأتى وقت الحصاد شأنها في ذلك شأن الضرائب الأخرى كالخراج والزكاة، كذلك نص الخليفة صراحة على الأشخاص المسكفين بدفع ضريبة الجزية فأوجبها على الذكر البالغ الصحيح والعقل بشرط أن يكون له مال يدفع منه فافترض عليه وأعطى منها النساء والأطفال والشيوخ لأن الحرب لاتعان عليهم، ولا يدفعها العمى والمقعدون إلا إذا كانوا أغنياء. وكذلك الفقراء والمساكين والأرقاء والضعفاء ولم يكن يطالب بها الرهبان إذا كانوا في عزلة عن الناس أما إذا اختلطوا بهم فتموخذ منهم لأنه لا يؤمن خطرهم وشرهم، فهذا وغيره من الحجج الدامغة التي يطول ذكرها، وهذا يدل على عدم صحة فلهاوزن ونظريته وكذلك يدل على خطأ من كانوا بعده وساروا على دبره، وأن العرب عرفوا منذ قيام الدولة الإسلامية النظام المالي والنظام الضرائبي في الإقاليم المختلفة وأن الإسلام عامل أهل البلاد المفتوحة على أساس إنساني كريم فأباح التمتع بكل ما فيه من خير ومزايا ولم يقم أمام أحد أي حاجز من الدين أو اللون أو الجنس أو اللغة. وقد أجاد المستشرقون طبعاً أمهات كتب الخراج فاشتر كتاب الخراج لسكلى من يحيى بن آدم والإمام أبو يوسف

يقول عبد الله مختار (مجلة المجمع - دمشق - إبريل ١٩٦٨) وكان هذان الكتابان قد طبعا عدة طبعا قبل ذلك بالعالم العربي وأوروبا والطبعة الحديثة التي طبعت ١٩٦٣ خير أمينة والواضح أن ددف هؤلاء في تقديم نصوص فقه الخراج بصورة مشوهة كانت غاية تقديم أسس نظرية واثقة يمكن استخدامها للنيل من عدالة تشريع الخراج في الإسلام ، فقد حاولوا تفسير وترجمة تلك النصوص الواضحة بشكل يخدم أغراضهم بعد تزيف تلك النصوص وقد حاول المستشرقون تفسير التطور في النظام الخراجي بين ما كان في عهده الأول وبين ما كان بعد أن أفاء الله عليهم ووسع عليهم وفتحت بلاد القرم والروم ودخل أهلها ضمن إطار المجتمع الإسلامي ، حاولوا تفسير هذا بما يتفق مع ما يحملون من آراء مسممة ، وفي سبيل ذلك استخدموا التناقض الظاهري بين أحكام الشرع الخراجي وبين الوثائق المالية الخراجية للوصول إلى الزعم بأن هناك تضارباً حاداً بين التشريع وواقعه الحال . وبأن أهل العهد عاشوا أحقاباً طويلة من الاضطهاد والاستغلال . ولو فحص هؤلاء المستشرقون تلك الوثائق الخراجية وأحكام الخراج النظرية لتبين لهم بأن هذا التناقض الظاهري لم يقمارض مع روح التشريع الإسلامي ولتبين لهم بأن ذلك لم يكن إلا استجابة لحكم التشريع في التخفيف عن أهل الذمة وهذا ما أثبتته الوثائق الخراجية نفسها . وقد أشار الذين نشروا كتب الخراج حديثاً إلى مضمون الاصطلاح المميز للتشريع الخراجي (عفو - فضل - طاقة) وفسروه بشكل يفقد التشريع روحه العادلة . ويفضي إلى الجمع المطلق وقادم إلى ذلك الفهم عدم إمكانهم متابعة الأحكام العامة التي وهدمت من الناحية النظرية فقط في مسائل خراج البلاد المفتوحة عن طريق الصلح أو عن طريق الحرب والقوة وهو ما أدى بهم إلى التضارب في الرأي .

الفصل التاسع

لاستشراق والاداب

أولى الاستشراق الادب العربي امّا واضحاً وتخصّص فيه أمثال :

مارجاليوث وكلمان هوار ، وجب وولينو ، وبروكلمان وريجييس بلاشير وكراشوفسكي . وقد أهلى الاستشراق الفكر الباطني وإخوان الصفا وأعان تأثر الادب العربي بالفكر الفارسي وبالادب اليوناني .

أما مارجاليوث ، فقد فرض فرضاً في الشعر الجاهلي نشره في يوليو ١٩٢٥ في إحدى المجلات الاستشراقية ، وفي خلال عام ١٩٢٦ نشره طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) ولم تختلف وجهة نظر المستشرقين في الادب عن وجهة نظرهم في سائر العلوم ، فالغربيون منهم أمثال بروكلان يقول في كتابه عن الادب العربي : إن القرآن محاولة للقول بأن المصادر الاصلية للقرآن مأخوذة من النصرانية ، وجولد سيجر يقول بأن هذه المصادر مأخوذة من التوراة ، ويحيى من يقسم القرآن بينهما فيقول إن

للمكي نصراني والمذنبى يهودى لمجاورة المسلمين في مكة انصارى نهران ومجاورة المسلمين في المدينة ليهود غطفان، وقد ركز الاستشراق في مجال الادب على الادب الشعبي والعاميات والاهتمام بشعر الغزل والمجون واعتبار ألف ليلة والافغانى من مصادر البحث الادبى . وقال تولدك ومولر أن قالب الشعر من القوالب الشعرية وأنه تأثر بموعظة المبشر المسيحى على لسان المبشرين العرب في جنوبى الجزيرة .

واعتماد رجال التغريب من اتباع المستشرقين على تطبيق نظريات الادب الغربى على الادب العربى وهو نظريات مادية تقوم على مفهوم أن الإنسان خاضع للبيئة والعصر وأنه مجبور وليس له إرادة ، وأنه حيوان ماضى يخضع للجنس أو لقمة العيش . وكان أبرز التراث الذى حققه الاستشراق : معلقة لبيد ، ومقامات الحريري ، وكليلة ودمنة والمعلقات السبع ودويان امرئ القيس والطواسين للجلاح وألف ليلة ورسائل إخوان الصفا وكلها أعمال لا تشي بطابع الادب العربى الحقيقى المستمد من القرآن والسنة . وفي الشعر عمدوا إلى إحياء بشعار وأبى نواس والضحاك . ويطلق جب على عصر الجاهلية : العصر البطولى ويرفض المستشرقون مصطلح العصر الجاهلى إسماعيل ليعبر ما قبل الإسلام ، ويحاول المستشرقون تزييف عصر ما قبل الإسلام على أنه عصر استنارة وحضارة ويسمون عصر الإسلام عصر التوسع ليثبتوا أن الإسلام لم يقم بأى تغيير حقيقى وإنما جاء متابعاً لما قبله ، وفي مجال اللغة يرون بأن اللغة العربية لغتان : شمالية وجنوبية . ويركز جب ونيكلسون وغيرهم من مؤرخى الادب العربى على الإشادة بدور الثقافة اليونانية في المنطقة وأثرها ، ولإيها يردون كل ما في الادب العربى من كلام ، وإلى الثقافات الفارسية واليونانية يردون كل أمور النحو والبلاغة . ويقول جب : إن الذين رفعوا لواء الفكر والفن في العصر العباسى هم من أصل مسيحى أو نصف مسيحى ، وهناك الاهتمام الواضح بالمتنوعة وهم يردون الاعتزال إلى الفكر اليونانى ويهتمون بانتصار البويعيين والشيعة ، ويرى جب أن ذلك نتيجة الخيرة الحليزية ، ويهتمون بالموشحات والمقامات ويطلقون على العصر المملوكى عصر الانحطاط . مع أنه حافل بالموسوعات : المقرئى وعربشاه والسيوطى ، ويكشفون عن إساءة تامة وتمصّب كامل العصر العثمانى ويربطون النهضة العربية الحديثة بالحلة الفرنسية وأثر الإصلاحات .

ويركز جاك بترك (في كتابه مختارات من الادب العربى المعاصر ١٩٦٤) على ما يسميه النهضة التى بدأت في بيروت ١٨٨٠ (بطرس البستاني واليازجيان وجرجى زيدان . ويقول إن المجموعة المستنيرة بدأت من الافليات ثم انضم إليها بعض المسلمين ، ويعنى نهاية وافرة بجيل المهجر : جبران واعمية ويرى أن طه حسين هو الذى قام بدور البطل في حل لواء النزعة العقلية في أدب البحر المتوسط والواقع أن رؤياه لم تكن صادقة فقد تأثر بأدب كان مفروضاً على عصره ولم يكن تابعاً منه حين اهتم بالهجر الحر وبكتابات لويس عوض وحسين فوزى ونجيب محفوظ وصعيد عقل ، وعين جعل مصدر العمل الادب العربى : مجلة شعر ومجلة حوار . وقد كشفت الدكتوراة بنيت الشاطىء في مقدمة أطروحتها عن الغفران هدم فهم واحد منهم هونيكلسون لبيان العربى وقاله إن فهمه للنصوص فيه أخطاء كثيرة بعضها حين يمكن التجاوز عنه أما السكترة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهمه للنصوص العربية .

(راجع مقالنا الاستشراق والادب في كتابنا خصائص الادب العربى)

الفصل العاشر

الاستشراق والتاريخ

جرت محاولات الاستشراق حول تزييف تفسير التاريخ الإسلامى وإخضاعه لمناهج وافدة تفسره مادياً أو اقتصادياً أو تخرجه عن منهجه الأصل ومفهومه الأساسى ، وبذلك تبدو صورة التاريخ المسلمين مزقة مضطربة ، وبذلك يفقد الهدف الأصل من دراسته والغاية المثلى من التعامل معه . ولما كان التاريخ عاملاً هاماً من عوامل بناء الأمم وتربية الأفراد فقد كان حرص الاستشراق على إفساد هذه الغاية وذلك ببعث الجوانب المضطربة والروايات الخلافية وصور التناقض والخصومة وكلها صور لا قيمة لها فى بحر التاريخ الإسلامى العريض الجياش المليء بصور البطولة والحيوية والقوة ، والذي كان قادراً على العطاء الدائم للأجيال المتجددة . ويستهدف عرض الاستشراق للتاريخ إلى إثارة الالتباس بين القيم المتكاملة بين العرب والإسلام وبين الموجات العربية التى خرجت من الجزيرة العربية إلى الآفاق تحت اسم الفرعونية والبابلية والفينيقية حتى تصطرح هذه الدعوات مع العروبة والإسلام . وكذلك العمل على تجميد الحضارات القديمة السابقة للإسلام مع التركيز على الحركات المضادة للإسلام والتوسع فى دراسات الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسيق ، ويقوم هذا العمل على أساس دراسة الروايات المختلفة والنصوص المتعارضة وضرب بعضها ببعض لإثارة الشبهات ولإرباب أن الهدف من بعث دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية إنما يستهدف تمزيق وحدة المسلمين والغرض من شأن الإسلام .

وهكذا تبدو صورة الإسلام فى كتابات الاستشراق مليئة بالسموم والالتباسات العقلية والتاريخية وأن نظرة إلى كتابات بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية لتوحى بهذا الهدف فهو يدين كل الحركات الإسلامية الصحيحة ويعلى من شأن الزنج والقرامطة والباطنة ، أما روزنتال فإنه يصور التاريخ الإسلامى على أنه سلسلة متصلة من الحكام الطغاة وأن التاريخ الحضارى للإسلام كان تسكراً مسجلاً للأفكار ، وأن التاريخ الدينى كان بقايا متحجرة متجمدة تناقلتها الأجيال بعضها عن بعض . وهناك الغرض بصلاح الدين والتكلم عن شجاعة الصليبيين ، والقول بأن المصريين لم يعرفوا الاستقلال وكانوا تاريخهم كله خاضعين للرومان والفرس والعرب فلماذا لا يخضعون للانجليز ، وكذلك اتهامهم المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية . ويحاول الاستشراق أن يصور الإسلام وقد قام بالسيف وأن المسلمين المجاهدين كانوا يطمعون من وراء الحرب إلى الغنائم ، كما يحاول القول بأن العرب بدؤوا بالخلاف بين العرب والأعراب .

وهناك محاولة للقول بأن العرب قبل الإسلام كانت لهم حضارة وذلك في محاولة لإعلاء الجاهلية بأنها عصر البطولة واعتبار الإسلام امتداد لها والاهتمام بالفساسة والمناذرة . وكذلك التشكيك في عالمية الرسالة الإسلامية وإثارة الشكوك حول السكتب التي بعث بها النبي عليه الصلاة والسلام إلى الملوك والوعم بأنها وضعت في صورتها الأولى بعد قرن من حياة النبي . وإذا راجعنا كتابات الإستفراق لتاريخ الإسلام وجدنا من يحاول استغلال الثغرات الموجودة في المراجع العربية - كما يقرر الأستاذ محمود بسيوني - لينخرج منها استدلالات وتخريجات جديدة تنفق وهوى أصحابها وأن هذه السكتب وإن اصطنعت المنهج العلمي في دراستها إلا أننا لاستطوع أن نطعن إلى ذلك كل الاطمئنان . ولذلك تعتبر بعض المراجع الأوروبية في التاريخ الإسلامي مراجع قاصرة قصوراً بقدر قيمة هذا العصر الهام من عناصر الدراسة التاريخية فالمستشرق حينما يحاول أن يكتب التاريخ الإسلامي ينظر دائماً من وجهة نظره الخاصة كأوربي، فخذ مثلاً دين بول، في كتابه مصر في العصور الوسطى، وستجد حتى عنوان الكتاب يعبر بوضوح عن هذا القصور، فالوضع الطبيعي أن يقول مصر الإسلامية أو حتى العربية لأن تعبر القرون الوسطى قد اقترن في أذهان الأوروبيين خاصة بالتدهور والانحلال والإضططاط في حين أن هذه الفترة التاريخية كانت فترة ازدهار الوطن الإسلامي والغربي مما فيه مصر، ومن ناحية أخرى تفسر بوضوح تعليقات لين بول الحاطنة للحوادث فهو كإنسان لا يؤمن بالإسلام ولا يستطيع أن يضع أسباباً لحدث تاريخي عظيم مثل فتح المسلمين لمصر غير تلك الأسباب المادية التي تقفز إلى ذهن الأوربي إنسان العصر المادي ولا يستطيع تحليله القاصر أن يصل إلى أغوار الحقيقة العميقة الجذور، وإذا أخذنا ما كتبه (بوردلي) عن الرسول عليه السلام نجد نفس القصور مع تعمق أكثر للطنق . وهكذا نجد أن التفسير الغربي للتاريخ، عاجز عن فهم أبعاد التاريخ الإسلامي الذي يقوم على عنصرى المادة والروح مما متكاملين وعلى عنصرى الشهادة والغيب مجتمعين . أما التفسير المادي للتاريخ فإنه يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام فهو لا يرى أن هناك قوماً أخرى كالدين والخلق والإيمان يمكن أن تكون دافعاً من دوافع حركة التاريخ ويتجاهل القوى المعنوية للأمم والشعوب . والتاريخ الإسلامي لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية الجامعة المتكاملة للحياة الإنسانية وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمي . ومع الأسف فإن بعض العرب يطبقون هذه المذاهب ليفسروا بها تاريخ أمتهم فيخطئون أشد الخطأ .

ذلك أن روح الفكر الإسلامي وحضارته وتاريخه تقوم أساساً على وحدة الكون وانسجام الطبيعة، وذلك على أساس أن الإسلام هو النظام الجامع المتكامل الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد في نظام الدين والسماء والأرض في نظام الكون ويسلكها في طريق واحد هو الطريق إلى الله، وأن الإسلام والاسلام وحده هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غير متنافسة، ومن هنا فإن تطبيق منهج المستشرقين في فهم التاريخ يحول بين الباحث المتطلع إلى الحقيقة وبين هذه الحقيقة ويجعل نتائج البحث مضطربة فامضة، وقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من كتاب الغرب يقول الدكتور تريتون : إذا صح القول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تحليل بعض الظواهر

التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدار وسقوطها فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلم وحدة العرب وغلبيتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلم الصحيح لهذه الظاهرة الفردية : هذه الظاهرة هي الإسلام، ويقول البيان وايد غراي : إن نظرة المسلمين إلى التاريخ نظر بنائه فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله . ويقول وليفرد كانتولي ميميت : إن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، فهو يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، فالمسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو سامع لها بالمرور ، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله ، فإن المسلم حين يضحى بنفسه في سبيل أن هناك نظاماً إلهياً يراد أن يطبق في واقع الأرض وهذا قائم في حسه وهو يضحى حتى يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الإمام .

الباب الثالث

خطط الاستشراق : بين التحول والثبات

اولاً : طريقة المستشرقين في البحث . ثانياً : مواجهة المستشرقين في مؤتمراتهم .
ثالثاً : وقفة في وجه الاستشراق . رابعاً : دراسات المستشرقين . خامساً : الاستشراق في جملده .

الفصل الأول

طريقة المستشرقين في البحث

عندما بدأ الدكتور محمد حسين هيكل ترجمة كتاب حياة محمد للمستشرق أميل درمنجم في السياسة الأسبوعية ١٩٣٢ علق الدكتور حسين الهوارى على هذه الفصول فقال : وكأنى بالاستاذ يعجب بما في الكتاب وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلاف بين الاسلام والنصرانية مع ما يفرضه من حسن النية في المؤلف والمحافظة الدينية والأدبية في الناقد إلا أننا رأينا القلدين يسيران في ذلك الطريق الذي رسمه قديماً جماعة المستشرقين للبحث والاستقصاء في حياة النبي العربي مما يجب أن نلفت إليه نظر الباحثين والكتاب إلى هذا العصر الذي طغت عليه أفكار جماعة المستشرقين حتى أخذنا نقتبع آمارهم في كتاباتهم عن الشرق بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة أن حجر الأساس في مباحث المستشرقين عن النبي الكريم لا يخرج عما لحظه الاستاذ هيكل بقوله : «والواقع أنه منذ الساعة الأولى بل من قبل أن ينزل جبريل بالوحي كان محمد أشد ما يكون نفوراً من الوثنية التي نشأ ونشأ أهله في قريش فيها ، وأشد ما يكون ميلاً لهذه المعاني الروحية التي يتحدث عنها النصارى واليهود والمنهثون من أهل الكتاب في أنحاء شبه جزيرة العرب بمن كان يتصل بهم أثناء ذهابه إلى الشام وإلى اليمن في القوافل قبل أن يقوم في تجارة خديجة وبعد أن قام فيها ، وهذه المعاني المتوثبة فيه منذ صباها إلى السككال هي التي دفعته إلى تحننه في كل عام بفارحراء شهوراً أو أكثر من شهر ، ثم قوله : «هذا الاتصال بأهل الكتاب وكتبهم هو الذي أدى بمحمد كما قدمنا لينصح إلى الذين اتبعوه بعد أن أمضهم أفى قريش أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية فإن بها ماسكاً لا يظلم عنده أحد ، فالذي نفهمه من ذلك أن قدامايم أهل الكتاب كانت قد انفتحت نظر سيدنا محمد إلى السككال الروحي والمثل الأعلى وجعلته يتحدث في الغار . وهذه هي طريقة المستشرقين في البحث والنشر ، ولذلك هبنا قديماً أن تناقش هذه المسألة وبرهنا على أنهم يستنتجون من ذلك أن مصادر القرآن هي هذه الكتب التي استفاد منها النبي محمد في سياحاته ، وضرربنا مثلاً بما يقول المدهو مرجليوت في كتبه من الهديان والتعصب

الأعلى المقوت وهل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية ولأن النجاشي العادل كان مصدر هذه المسيحية المجردة من التعصب لأن الصلة بين الإسلام والنصرانية جعلته يغيثهم ويمنع جوارمهم ، وهل حقيقة كانت الحبشة متمتعة بتلك المدنية والحضارة التي وصفها لنا درمنجم وزعم منها أنه عطف على المسلمين لتقواه وورعه ولما بين النصرانية والإسلام من صلة لا تتجاوز ما شبه النجاشي بخط يرسمه على الأرض يعود في يده . تاريخ الحبشة في هذه الفترة غامض وأغمض تاريخ في العالم فكيف إذن يمكن أن نعمل هذه الرواية أساساً لمسألة هامة كهذه وكان لابد لنا من الرجوع إلى التاريخ الإسلامي نفسه وتتبع آثار هؤلاء المهاجرين وإذا فعلنا ذلك نجد (درمنجم) شأن المستشرقين ، ينشر هذه القصة بصفة معقولة الحقيقة فلم يكن الدافع للنجاشي ورعه وتقواه ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الديني الذي صورده لنا الكتاب بقوله أن النجاشي قال بعد اقتناعه الديني (ليس بين دينكم وديننا أ كثر من هذا الخط) بعد أن أخذ عوداً وخط به على الأرض ، بل الدافع الحقيقي هو أن هذا النجاشي كان عادلاً وهذه الحالة هي التي ذكرها النبي في حديثه لأصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة (لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق) ولم تكن هذه هي الهجرة الأولى بل كانت الثانية وقد عاد من هاجروا أولاً بالخبر اليقين في بلاد الحبشة فإذا كان سبب عدله النجاشي ؟ كان سببه على ما رويته عائشة أم المؤمنين أن أباه كان ملكاً على قومه ولم يكن له ولد إلا هذا النجاشي وكان للنجاشي عم له من صلبه وإنما عسر رجلاً فتأمر القوم على والده النجاشي وقتلوه وولد عمه ليوطد الملك له يافئ عشر ولياً للعهد ، وقام هذا العم ملكاً فباع النجاشي في سوق للنخاسة خوفاً منه لحزمه وعزيمه وشاء ربك أن يصعق هذا العم بصاحقة من السحاب يوم باعه ، وابتلى أولاده فلم يجدوا بينهم من يصلح للملك فأرجعوا هذا النجاشي ثانية وولوه أمرهم فاشتهر بالعدل والعطف على الضعيف وحماية من استجاره . ومن هذا يتبين أن هذه الحادثة كانت مصدر عطف النجاشي وعدله ولم يكن للمعاطفة الدينية أثر في تصرفاته وإلا لجازت عليه حيلة عمرو إذ قال له إن الإسلام يعتبر السيد المسيح عبداً . وهناك نقطة ثانية هي تلك الآية العريضة التي اقتبسها درمنجم من سورة يونس وهي (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المهترئين) فقد استدل بها درمنجم على أن الله تعالى رضى للناس الإسلام ديناً (مع بقاء الأديان التي سبقت وحدة مندجة في هذا السكال الروحي اندماجاً أشار إليه القرآن في قصص أصحاب هذه الأديان وما جاء به من الحق من عند ربهم وأشار إليه) حين أراد أن يثبت محمداً في أمر ما جاءه (اعترف بأنني لم أفهم شيئاً من هذه الجملة ولكن أنكر صراحة أن محمداً يحتاجه أي شك فيما جاءه وأن يثبت من صحته من يقرءون الكتاب قبله ، وإن هذا المعنى لا بعد ما يكون ما تخفى الصدور ومن أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وإذا صح ما زعمه درمنجم لانهدم صرح الإسلام والقرآن من أساسه ولذلك قال ﷺ (لا أشك ولا أسأل) . إذن فالمقصود بهذه الآية ليس كما جاء على لسان درمنجم أن يستشهد الله على صدق ما أنزل من يقرءون الكتاب ، وأن يلجأ نبيه لاستشارتهم ، بل المقصود على ما نرى أن أمثال هذه القصص وردت في الأديان السالفة لا أكثر ولا أقل وأن النبي لم يكن متصلاً بأهل الكتاب الآخرين لينقل عنهم . على أن هناك نقطة أخرى لم تطرح على بساط البحث وهي أن الدين الإسلامي بنصوص القرآن هو دالة إبراهيم والكعبة هي البيت الذي بناه وتذكره في التحيات في

الصلاة فكيف إذن لم تبحث الصلة بين هذا الدين وباقي الأديان؟ ولماذا لا يكون هذا الدين هو الوحدة التي يبحث عنها أولئك الذين يريدون إزالة الفوارق والمعادوات الدينية وامتداد الحروب الصليبية من ههناها الأول إلى اليوم في وسائل مقنعة من التبشير أو دور المستشفيات والمدارس؟ ولماذا لا تدع الأديان جانباً ونزيل هذه الخلافات بالاخلاق وحسن المعاملة التي هي الهدف الأكبر لجميع الأديان؟ إن في التناخي والمحبة لآلاف سبيل غير العريضة في البحوث الدينية التي تمس صميم العواطف والنفوس وتعمل الأديان في التقريب بين الأديان بفرض أن الصلة بين محمد وأهل الكتاب هي التي هيأت له سبيل السكال في التفكير قبل البحث، وهذه مسألة ذات خطر يجب على من يذكرها أن يقيم الدليل عليها، فنحن نعلم أن محمداً كان سلبياً في كل ما يختص الأديان قبل بعثه ولم تبد منه بادرة تعرف بها تلك الصلة، وفوق ذلك فإن بعثه بعد أربعين حجة من عمره تنافي تماماً أن صلته بالأديان الأخرى هي التي هيأت له طريق السكال الروحي وإلا لكان في نزق الشباب واشتغال الصبا أو القذهب بتلك الأديان وسيلة لإعلان ذلك السكال والتفكير، على أننا لا ننكر أن تلك الصلة وجسدت بأظهر معانيها بعد البعث وبعد نزول القرآن فوجدنا فيها ما لا يعزز رأى درمنجم ولا كل المستشرقين الذين هم على شككته من حسن النية أو غير شككته ممن يستغلون العلم بالماديات والطعن الجارح في الإسلام، وحسبك بالاختلاف البين في رأى الإسلام والنصرانية عن السيد المسيح دليلاً على ذلك. وأبعد من ذلك فإن المدهور (مرجايوت) يدعى أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ويتخذ آية من القرآن دليلاً على ذلك (اقرأ وربك الأكرم) وهذا يدل على مبالغ الانعكاس للنفس والفكرى من أمثال هؤلاء المفكرين، وإذا أردت أن تعرف كيف كانت الصلة بين محمد ﷺ والأديان التي سبقته وأنها لم تحصل إلا بعد البعث فارجم إلى حديثه مع هدى بن حاتم الطائي وفكر في تلك الروعة التي تملك عليك مشاعرك إذ تجد النبي يسير معه سواء بسواء ويدعوه إلى منزله ويجلسه على وسادة ويجلس الرسول على الأرض ثم يتحاورن. ففي مثل هذه الحادثة تجد السماحة والمودة، ولو أن تلك الحجج لم تأت إلا بعد الإسلام بما أنزله القرآن من تفصيل ولقي وإثبات فيما يختص بالأديان الأخرى، ولو كانت الصلة قبل البعث لوجدنا روحاً أخرى تشيع لأحد الأديان قبل الدعوة للإسلام نفسه. والآن هل استفاد الشرق والإسلام من مباحث المستشرقين الذين آمنوا في البحث والتنقيب والنشر والحداثة؟ في رأيي — وعلم الله أني لست ذا غرض إننا خسرنا كثيراً ولم نستفد شيئاً ولو أن أمثال درمنجم وغيره يريد حقيقة الدفاع عن الإسلام والشرق لكانوا أول من يعلن الحرب القلبية والكتابية على أبناء جلدتهم من المبشرين الذين ضجت منهم السماء والأرض وكانوا أول من يتكون ستر السياسة الاستعمارية التي تفرق بين الأديان تفرقاً يعلمه سكان البلاد الإسلامية عامة من أقصى الشرق لأقصى الغرب، ولوجدنا لمسلمي روسيا من يدافع عن حريتهم وينقذهم من ذلك المذاب الذي يحيق بهم من كل جانب. أما ما خسرته الشرق من نشر هذه المباحث فهو دخول أنواع التشكيك في كل ناحية من نواحي التفكير الديني والأدبي وطغيان تلك الأفكار على الهرق التفكير مما جعله يعتمد على غيره في أم ما يختص بمباحثه وتاريخه ودينه ونحن نزع أن الشرق قوى برجال الفكر والثقافة ولم يعد في حاجة إلى الاسترشاد برأى المستشرقين فيما يختص بمناخه ودينه وزباً بأنفسنا وكرامتنا — أن نتعلم حياة نبينا من فهم من لا يتبع دينه.

كنت أفهم أن معنى الدكتور هيكل بذلك النقد الطويل المربض لو أن درمنهم أسلم واقتنع وسجل لنا أسباب اقتناعه وإسلامه البريء . إذا لكان في قوله عبرة وذكري : أما أن يكتب بمثل ما قدمنا فيبلغ الظن أنها صناعة قلبية ومعلومات تسجل لا أقل ولا أكثر . لقد خسر الشرق في تتبعه لآراء المستشرقين أن فقد كثير من ثقتهم في البحث والتعبير لينخرج ما تكون لنا كتباً ومباحث مبتكرة في التأليف القومي والغوي والديني ونحن أحوج ما نكون للخصية المستقلة والتفكير الحر المستقي من مصادرها المتعددة المكسدة في المكتب بما لم تمسها يد باحث حتى اليوم .

الفصل الثاني

مواجهة المستشرقين في مؤتمراتهم

منذ وقت بعيد ، والمستشرقون يستغلون مؤتمراتهم لينفثوا سموهم في الهجوم على الفكر الإسلامي واللغة العربية، غير أن رجال حركة اليقظة كالوا لهم بالمرصاد، وهذه صورة تاريخية ننقلها هنا لتصور كيف كان هذا الموقف من الإستشراق قديماً وكيف كان الفكر الإسلامي قادراً على الردع والدحض لتلك السموم . ففي ٢٠ أبريل ١٩٠٥ بمدينة الجزائر عقد مؤتمر المستشرقين وكان البحث عن اللغات في العالم الإسلامي ووقف المسيو فولار لحصر بحثه في التهجيم على اللغة العربية وقد نشرت جريدة الظاهر التي تصدر في القاهرة محضراً عن اجتماع المؤتمر في العدد المؤرخ ٦ مايو ١٩٠٥، قالت أن المسيو فولار حصر بحثه في تفرقة اللغة العربية الفصحى عن اللغة الدارجة على ألسنة الناس بين متحضرى البلاد العربية ثم استطرد إلى تمييز الفصحى والمقابلة بينهما ورد الذي فسد من كلام العامة إلى أصله من كلام الأفصح أو الفصحى، وفي كلامه خبط خبطة شاذة مؤلة للمسلمين في العالم كافة تؤذهم في إحساس نفوسهم وعقيدة شرعهم وإجماع كلمتهم ، أجل تهور هذا الأستاذ فقال في أثناء كلامه أنه لا يرى أن لغة القرآن هي أفصح لغات العرب أو اللغة العربية المحضنة الناصحة التي تتخذ قاعدة من بين اللغات العربية ، وإذا أردنا أن نطلب اللغة الأنصح فصاحة والرفع أصلاً وتركيباً من بين اللغات العربية وجب أن نرجع بالبحث إلى العصور التي سبقت ظهور الإسلام وكان عهداً السنة ٥٠٠ من بعد المسيح، فإننا نجد الكلام البليغ والأسلوب الصحيح الفصحى الذي لم يكن سواء بعد عند العرب بليغاً فصيحاً . وقال أن القرآن مديح على طراز خاص من النثر متأخر الآيات متفاصل ما بينها بمشابه السجعات ، وأن من قابل بين هذه السجعات التي تخللت كلام القرآن وقوافي المنظومات التي صبغت قبل ظهور الإسلام وجد هذه أمكن في اللفظ وأجزل وأهرق في لغة العرب ووجد تلك ضعيفة رخوة أقرب في أغلبها إلى لهجة العامية منها إلى اللهجة المجذبة الفصحى .

وقد انبرى له من عارضه وخطاه ، واحتدم الجدل وكان الأعضاء في المؤتمر من المسلمين المصريين شاهدين لم يكنوا على علم باللغة الفرنسية فلم يفهموا موضوع البحث ولا لمحة مما قال ، فكفوا صلتين وارفضوا عقد الجلسة وقد استهين بالقرآن وأوذيت عقيدة الإسلام في الإيمان بأن القرآن كلام الله يجل عن أن يدانيه في فصاحته وبلاغته كلام بشر فضلاً عن أن يماثله أو يفضله . وفي الجلسة التالية تصدى له أحد العلماء وقال أن الوميل فولار قد أساء إلينا أعظم إساءة ونحن هنا في مجمع علم وأدب وأخلاق . بأى وجه يسوغ له انتهاك حرمة ديننا فيتلاهب المؤتمر بالقرآن الكريم والحط من شأن لغته بينما لا يخاطر بخاطر أحد من المسلمين أن يتعرض لجدال في التوراة والإنجيل أو غيرها من الكتب المقدسة عند الأمم حفظاً للآداب؟ فكيف نرضى أن نضعوا قرأتنا في معرض البحث والمنافشة ، أن مافعلتموه كشف عن تعمد التصفية لديننا والتضليل لعقيدتنا ونحن لانسكت عن ذلك . ومن أين لكم وأنتم الاغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح والأفصح منها فإن صحة الحكم في اللغة تستوجب وجود ملكة راسخة في الحس عريقة في النفس وهذا مالا يؤتى بالكسب إلا بعد قضاء السنين الطوال في مواولة الدرس وتتبع كل شعب من شعاب اللغة ومخالطة أهله ونسبه كلامهم وبلهجتهم إلى عاداتهم وطباعهم ، والمقارنة بعد ذلك بين أهل الشعاب جميعاً في الكلام واللهجات وما وضعت له من أغراض وعادات ، فإذا تم ذلك لاجنبى عن اللغة أمكنه أن يميز الفصيح من اللغات وأن يبدى رأياً ، وذلك يستحيل أو يصعب أشد الصعوبة أن يتم خصوصاً في اللغة العربية التي لا تحصى أجيالها ولا تنال أمانتها إلا بارتداد طويل الحق . وهذا أمر لا يتسنى إلا للأهراب والعظماء والبلغاء الذين يحضوا اللغة العربية محض اللبن وأن على العرب أن يعرفوا ما هو أفصح الكلام وأبلغه في لغتهم وقد عرفوا فأصبحت حكمته من هنوا باللغة وكلامها بمن شهدوا الجاهلية والإسلام معاً ثم من حضروا الإسلام وجاءوا بعده ، إن كلام القرآن معجز لم يأت وإن يأت مثله أحد في فصاحته وبلاغته لفظاً وتركيباً . وأزيد أن العرب في أيام عربانها ومستعربها اعترفت لفريش أنها أعلى القبائل كعباً في البيان فلما نزل القرآن أدهشت فريش وأخذت المعروفون بقوة المعارضة منهم في تحديه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وأقرت نفوسهم على أن القرآن معجز للبشر .

وفولار هذا هو المعروف باسم فولرس الألماني الذي كان يومها مديراً لدار الكتب المصرية والمتحدث في الرد عليه هو الشيخ عبد العزيز جاويز الذي كان يحضر المؤتمر مع الزعيم محمد فريد والذي كان أستاذاً بجامعة كبرج في ذلك الوقت ، وقد بهر جاويز السامعين بحديثه الذي وصفه محمد فريد ببلاغة العبارة وجزالة المعنى .

الفصل الثالث

وقفة في وجه الاستشراق

من المقطوع به أن الإستشراق من خلال هدفه ومهمته قدم للفكر الإسلامي العربي أشياء كثيرة نافعة لا يمكن إنكارها ولا تجاهلها وذلك في مجال إحياء التراث والتبويب والفهرسة . ولنا على ذلك تحفظان : (الأول) أن التراث الإسلامي العربي سرق من البلاد بأساليب متعددة يمكن الرجوع إليها فيما أشار إليه كثيرون ومن بينهم الدكتور بنت الشاطيء في كتابها (تراثنا) وبعض الأبحاث الأخرى . وكان انتقال هذا التراث إلى أيدي دوائر الاستشراق واحداً من أخطر التحديات لأنه أصبح حجة علينا لا لنا ، وأصبح إحياءه يجري على النحو الذي يختاره الاستشراق لا وفق إرادتنا الخاصة، وكل ما حاولناه في السنوات السبعين أو الثمانين الأخيرة لا يمدو قطرة من بحر ، هذا فضلاً عن أن محارلاتنا كانت تطبعها طوابع ليست لها أبعاد التقدير الكامل وإنما كانت تجري في مجال الإحياء للأدب أو الشعر أو غيره مما هو ليس الأهم من التراث .

(١) (التحفظ الثاني) : أن المستشرقين جروا على خطة إحياء أنواع معينة من هذا التراث، في مقدمتها التصوف الفاسق وعلم الكلام وأبحاث الاعتزال والباطنية وكل هذا ليس لنا ولكنه علينا والمقصود به طرح خلافات سياسية قديمة أفسدت فكر المسلمين ومزقتهم شيعاً في الماضي ثم تلاشت بعد أن تغلب عليها المنهج الاصيل الذي أقامه المسلمون تحت اسم : مذهب أهل السنة والجماعة .

(٢) عن المستشرقون بجوانب معينة من التراث وأولوها اهتماماً كبيراً منها دراسات الحلّاج التي عني بها ماسنيون ودراسات عن السهروردي وبشار وأبي نواس وأخرى عن ألف ليلة وكنية ودمنة وما يتصل بابن الراوندي وإحياء الأغاني وكل هذه الدراسات فيها شبهة طرح مفاهيم من شأنها أن تحطم مفهوم الإسلام الاصيل أو تزييفه .

(٣) كان المستشرقون في العصر الماضي يقفون من رجالنا موقف التلاميذ أمثال أحمد زكي باشا وأحمد تيمور وعبد العزيز جاديش، ويراجع الباحثون مناقشات عبد العزيز جاديش في مؤتمر المستشرقين في الجزائر عام ١٩٥٥ رداً على أحد المستشرقين عن القرآن واللغة العربية . ثم انفجرت الحطط فأصبح مثقفونا في جامعات أوروبا تلاميذاً للمستشرقين في دراساتهم وجاء بعضهم إلى مصر من بعد فأهل على من شأن الاستشراق (تراجع مقدمة طه حسين - كتابه عن الأدب الجاهلي) ومن المعروف أن طه حسين وزكي مبارك ومنصور فهمي ومحمود عزمي كانوا تلاميذاً لمستشرقين يهود هم دور كايم وليفي بريل . والآخر هو الذي حرض منصور فهمي على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول بأسلوب استشراقي .

(٤) خطأ الرأي الذي يردده المستشرقون ويتابعهم فيه طه حسين وزكي مبارك من أن العرب كانوا أمة لها حضارة كاملة ومجتمع منظم قبل بعثة الرسول ونزول الإسلام . والواقع أن العرب لم يكونوا أمة ولا شيئاً مذكوراً إلا بالإسلام وشعرهم يشهد بأن كلمة العروبة لم ترد فيه إطلاقاً وإنما وردت كلمة القبيصة فالإسلام هو الذي جعل العرب أمة .

(٥) الكتابة عن الاستشراق من وجهة نظر إسلامية أو عربية يقتضى الاعتماد على مصادر أصيلة وعلى الكتاب الموثوق بهم وفي مقدمتهم : مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا ومحمد عبده والدكتور محمد محمد حسين ومحمد المبارك ودروزة والدكتور حسين الحواري والدكتور محمد الهبي والدكتور عمر فروخ وعبد العزيز جوايش . ثم تأتي بعد ذلك كتابات المستشرقين عن الاستشراق لتكون موضع المناقشة ، أما أن تكون كتابات المستشرقين هي المصدر لدراسة الاستشراق فذلك مما يتعارض مع المنهج العلمي . فإذا جاء بعض الكتاب ممن تبعوا المستشرقين نشأهم في ذلك شأن المستشرقين أنفسهم تؤخذ آراؤهم بحذر .

(٦) الحملة التي شنّها الاستشراق على الدولة العثمانية حملة ظالمة وقد قامت أساساً منذ يرمها الأول إلى اليوم لحساب الصهيونية العالمية وجاءت على أثر الموقف الشريف الكريم التاريخي للسلطان عبد الحميد في وجهه « مرتزل » ومطلب السماح لليهود بالإقامة في فلسطين (راجع في هذا بحث أحمد الشقيري وأحمد طربين عن القضية العربية) . ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة وثائق متعددة تكشف الكثير من هذه الحقائق ، وهذا ولا يمكن إصدار حكم تاريخي على الدولة العثمانية كلها ويجب مراعاة مرحلة القوة ومرحلة الضعف . أما في الفترة الأخيرة فهناك أمران واضعان تمام الوضوح أمام الباحث : يحاول المستشرقون وأتباعهم طمس حقيقة طمس ويدخلون الواعد منهم في الآخر لإدخالاً غريباً هما : مرحلة السلطان عبد الحميد التي انتهت عام ١٩٠٩ ومرحلة الاتحاديين التي بدأت في نفس العام وانتهت بنهاية الحرب العالمية الأولى . المرحلة الأولى هي مرحلة المقاومة الصامدة برفع رايات الجامعة الإسلامية في وجه الاستعمار والصهيونية ، والثانية مرحلة الصراع الدموي وتسليم فلسطين لليهود وقتل العرب والقضاء على الدولة العثمانية بإدخالها في الحرب العالمية وتسليم طرابلس الغرب للإيطاليين .

(٧) لا ريب أن الأدب العربي هو من صنيع الإسلام ، فلم يكن للعرب قبل الإسلام أدب بالمعنى العلمي لهذه الكلمة إلا قصائد الشعر وسجع الكهان أما الأدب العربي فقد أقامه القرآن وإن كان قد انحرف من بعد على أيدي الشعوبية الفارسية .

(٨) إن أي محاولة لتصوير فلسفة الاستشراق لا تعدو ما أورده الباحثون المنصفون من أنها محاولة للاستعمار الغربي لدراسة العقيدة العربية الإسلامية والذهنية العربية الإسلامية بقصد الانتفاع بذلك في التعامل معها والسيطرة عليها وتدمير مقوماتها التي أعطتها القدرة على التماسك والصمود .

(٩) من الخطر السكبي في مناهج العلم تصوير الحركة الاستشراقية بأنها حركة علمية بمفهوم البحث

العلمي المنهجي القائم على الوصول إلى الحق . فالاستشراق في شطريه = عاملاً مع الكنيسة أو عاملاً مع وزارات الاستعمار - لا يستطيع أن يخلص إلى الحق ، وإنما هو يؤدي دوره في إثارة الشبهات وتقديم الزاد الكافي لدراسات التبشير ومهادد الإرساليات لحلق تيار زائف مضلل . وإذا كان الاستشراق د علم ، كما يحاول البعض أن يقول فإن شرائط المنهج العلمي القائمة على البحث المتجرد والإنصاف ؟ ومن الحق أن يقال أن المستشرق إنما هو واحد من ثلاثة إما مقصّل بالكنيسة أو بالاستعمار وفي كليهما لن يكون منصفاً فإذا كان غير ذلك فإن هناك من عجزه عن فهم البلاغة العربية ما يعوقه كثيراً عن تفهيم الحقائق والوصول إليها . ونحن نعرف كيف أن بعض المستشرقين فسر الآية القرآنية : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) بقوله : إن كل إنسان يأتي يوم القيامة وفي رقبة حمامة وهناك عشرات من مثل هذه الأخطاء أوردها العقاد في كتابه (ما يقال عن الإسلام) . والمقالية الغربية التي ينبثق عنها الاستشراق لا تقبل بأى حال ظاهرة الإنصاف للعرب والمسلمين والقرآن وعمد الإسلام وصدق أحدهم حين قال : (إن كراهية العرب والإسلام إنما يرتفعها الأوروبي مع لبنان أمه) .

(١٠) أن هناك محاولة لتقديم الاستشراق إلى مرحلتين : مرحلة عقديّة ومرحلة أخرى جديدة يطلق عليها اسم مرحلة علميّة . أما العقديّة فهي تلك المرحلة التي هاجم فيها المستشرقون الإسلام بعنف وخرافة . ولو أنها وصفت بأنها (سياسية) سيكون ذلك أصح وأصدق (والمفكرون المسلمون يعرفون جميعاً أنه في العقدين الآخرين قد تراجع الاستشراق عن أسلوبه القديم المباشر واستعمل أسلوباً أشدّ مكرراً وأسوأ سببلاً ، وهو محاولة الدخول في الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى يخدع القارئ . ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يشهر شبهات خفيفة ، متتالية في إطار هذا التقدير العام الكاذب . ولقد اتّبع لهذا كثير من الباحثين المسلمين اليقظين وأشاروا إلى خطورته ، وحذروا من الانخداع له . وغالباً ما يكون هذا الأسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودي إلى ساحة الاستشراق : برنارد لويس . رود تسون ، جارودي ، م بهجر) . ولا ريب أن الاستشراق في المجال العقدي يعمل على هدم الأمة العربية واللغة العربية والحضارة والتاريخ .

(١١) لم يكن الإسلام غامضاً أمام الفكر الأوروبي ، بل كان معروفاً ، وقد كشفت الحروب الصليبية لمن جاءوا إلى الشرق سماعة المسلمين والعرب ، وعرفوا قدر الإسلام وعظمته ، ولكن الذين عادوا إلى أوروبا وتحدّثوا عن ذلك جرت المحاولات لقتلهم والتخلص منهم (راجع أبحاث الحروب الصليبية) .

(١٢) أن أضخم صيحة كانت تصدر من الفكر الغربي هي صيحة (المنهج العلمي في البحث) وفي مختلف مجالات الدراسات التي اتصّلت بالإسلام والعرب كان هذا المنهج العلمي مسوخاً وقائماً على الأحكام المسبقة علينا بالتمسك بالحقد والكراهية بما يدلّ دلالة أكيدة على أن القيم في الفكر الغربي هي قيم خاصة ومحلية ولا تنطبق على الناس جميعاً . فالمعروف أن المنهج العلمي التجريبي قد أنشأه المسلمون ولكن الأوروبيين نقلوه وظلّوا أكثر من ثلاثمائة عام ينكرون ذلك وفي نفس الوقت يهاجمون الإسلام الذي هدام إلى هذا المنهج .

والمنهج العلمي في المعرفة هو من نتاج الإسلام أيضاً، قد كان الإسلام منصفاً مع الأديان السابقة له فقد ناقشها في سماحة ولم تتم أحكامه على الهوى أو الرأي المسبق وشهادة هاملون جب للمسلمين في هذا معروفة . أما الأوروبيون فيما نرى من كتابات المستشرقين عن الإسلام والعرب فإننا نرى أنهم تجاوزوا الحق إلى التعصب والكرامية والحقد وعدم الإنصاف .

(١٣) هناك رأى بأن الاستشراق قد يستطيع أن يتحرر مع الزمن وكيف يمكن للاستشراق أن يتحرر من ايدولوجيات الغرب ، وهو وليدها ومن صنعها وخادما والمرتبطة بها ارتباطاً جذرياً وعضوياً وليس عنده باب واحد مفتوح إلى الحق أو الإنصاف أو للنظرة العلمية الصحيحة يستطيع أن ينفذ منه.

(١٤) حاول الاستشراق أن يهدي الغرب إلى فهم النفسية العربية الإسلامية والعقلية العربية الإسلامية ولكنه هجر حقيقة عن فهم هذه العقلية وهذه النفسية فقد قفلت أهواء وآراءه المسبقة وبذلك فشل الاستعمار نفسه في التعامل مع العرب والمسلمين . أما رحلات الاستشراق فقد كانت سرية خاطفة وكانت تحمل معها شعور الاستعلاء والحقد ، (نموذج ذلك في هانواتو وغيره) .

(١٥) لا ريب أن بحوث جولد زهر وسنوك ورجنية ويوسف شاخنت في الشريعة الإسلامية ليست علمية وهي تقوم على أساس فكر مسبق وهدف واحد يرمي إلى انتقاص أصالة الشريعة الإسلامية والفض من استقلاليتها . وقد عارض آراء هؤلاء كثيرون منهم العلامة (محمد الغزالي والشيخ أبو زهرة) .

الفصل الرابع

دوايات المستشرقين

تناول المستشرقون جوانب كثيرة من الفكر الإسلامى بالدراسة ولا ريب كان التراث الإسلامى هو أبرز ما تناولوه وعالجوه بالبحث والتقصي من دراسات الفكر الإسلامى المتعددة ونحن نقدر لهم فضاهم في تبويب التراث وإعداداه وفهرسته وتحليله واسكتنا حين تنقهي وجمة نظرم في كثير من القضايا فهي غالباً ما تكون : اضية لأحد أمور ثلاثة : أما محاولة فهم الإسلام على أنه دين لاهوتى خالص كالمسيحية بهذا الإسلام دين ومنهج حياة ، وأما أنهم تأثروا بوجمة نظر السياسية الاستعمارية فخصعوا لها ، وأما أن أدواتهم البيانية والفكرية قصرت عن فهم طبيعة الإسلام والفكر الإسلامى الجامعة التي تربط بين الثابت والمتغير والروحى والمادى والديوى والاخرى ، وأغلب ما تجيء أخطاؤهم في فهم الوحى والنبوة وعدم القدرة على التفرقة بين الألوهية والنبوة ولذلك فإن أغلبهم ينسون القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ ويعتبر بعضهم الرسول مصلحاً اجتماعياً غير أن موزف الاستشراق من التراث الإسلامى ليس موقفاً سليماً من ناحية الحرص الواضح لدى المستشرقين على الاهتمام الجوانب الضعيفة والمضطربة من هذا التراث وخاصة جوانب الخلاف بين الفرق والاهتمام بالنصوص الفلسفية ومحاولة إبراز الأثر

الأجنبي في الفكر الإسلامي نتيجة الاتصال بالفكر اليوناني والتمويل في هذا الاتصال إلى حد القول بأنه أهم معطيات للفكر الإسلامي . لقد تشكل الفكر الإسلامي أساساً قبل الاتصال بالفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي وإن العلماء المسلمين حالوا دون سيطرة هذه المترجمات على جوهر الفكر الإسلامي وردوها وجردوا معطيات الإسلام منها ولم تكن تلك الجوانب التي هي موضع اهتمامهم إلا محاولات لاحتماء الفكر الإسلامي . ولكنهما لم تنجح ولم يلبث الفكر الإسلامي أن استعاد أصالته حين تشكل مذهب الجماعة واستهفي كل ما كان وافداً ، وأساغ الصالح منه وتخلص من كل ما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص . لقد أولى الاستشراق اهتمامه البالغ للتسوف والفلسفة وعلم الكلام والاعتزال والباطنية وكل هذه جزئيات من صورة لم تكتمل ولا يجوز لها أن تنفصل عن الصورة العامة للكلية للفكر ، وقد عكس في مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الإسلامي نزعة الاعتزال ثم نزعة التصوف الفلسفي ولكنهما لم يلبثا أن سقطا صريعين وثبت تعارضهما مع جوهر الفكر الإسلامي الجامع الأصيل الذي لم يقبل استعلاء النزعة العقلانية التي جاء بها الاعتزال أو النزعة الاشراقية الحديثة التي جاء بها التصوف الفلسفي وكل المحاولات التي ينيرها الاستشراق الآن لإعادة بعث هذا الركام وإحيائه إنما تمثل هدفاً ما كراً من أهداف الاستشراق من ورائه حركة التغريب والغزو الفكري التي تحاول تزييف حقيقة الفكر الإسلامي وجوهره الأصيل . وفي مجال التراث نجد عناية كبرى ، وبالحلج ، الذي وقف المستشرق د لويس ماسنيون ، حياته على جمع آثاره ، وبالسهروردي وبشار وأبي نواس وكلها شخصيات موصومة مضطربة لم تكن بالتأذج الكريمة أو العالية في التراث الإسلامي ، بل إن الاستشراق أولى اهتماماً كبيراً بشخصيات هاجت الإسلام وخاصمت رسوله ، كابن الرواندي ومسيئة الكذاب وقدم عنها وعن غيرها دراسات واسعة نشرت باللغة العربية وإن أي مراجعته لدائرة المعارف الإسلامية لتكشف عن هذا الاتجاه الرامي إلى إدخال شبهات الإسلام كمادة أساسية فيه ، ونجد هذه المحاولات واضحة في جميع فروع التراث : القراءات وكتابة القرآن وسيرة الرسول ، وفي مجال التاريخ والشرعية الإسلامية وفي مجال اللغة والأدب . ويبدو أن جماعة المستشرقين قد فتشوا كتب التراث الإسلامي القديمة بغية اقتناص الروايات المضطربة والناقصة والمحرفة واستغلوها لإثبات وجهة نظر مسبقة واستعانوا بكتب الأدب والروايات والاشعار والف ليلة وغيرها لتكون مصادر لسانيدهم بينما هذه الكتب لم تكن في الأساس مصادر علمية للغة أو التاريخ . يحرفون الكلم عن مواضعه ، وليست دائرة المعارف الإسلامية وحدها هي التي توصف بالانحراف بل إننا نواجه ذلك في قاموس المنجد (الذي تجده موضوعاً الآن في أيدي جميع الباحثين العرب وهذه شهادة عالم له صلة بدوائر الاستشراق هو الدكتور مصطفى جواد الذي يقول إن أغلاط المنجد لا يمكن لأحد أن يستقصيها وقد نبه على ثلاثمائة وأربعة وعشرين منها واغاب أخطاء المنجد هي محاولة تفسير المصطلحات اللاهوتية الخاصة تفسيراً عربياً عاماً . وإربما كانت الأحداث ، لا النصوص أكثر أهمية في الكشف عن الأهداف : ألف أبو زيد وثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى ٢٣٧ هجرية وهو فارسي الأصل كتاباً باسمه كتاب (الردة) وقد ضاع هذا الكتاب وبقيت منه قطع قصار ذكرها ابن حجر في كتابه (الإصابة) فإذا المستشرق الألماني دكتور د ولغام هو نزباخ ، من جامعة بون يستدل هذه القطع

من كتاب الإصابة وقد فصلها وضبطها وشرحها . وأقامها كتاباً تحت اسم كتاب (الردة) الضائع . وتشمل هذه القطع على تراجم الأشخاص الذين ارتدوا عن الإسلام أو دافعوا عنه أيام الردة وقد رتبها المحقق على القبائل فبدأ بأسد وخطفان وفزارة ، ثم انتقل إلى طي ثم هوازن وعامر بن صعصعة ثم سليم ثم عيسى ثم تميم ثم حنيفة ثم ربيعة ، وهكذا سابع هذه القصاصات والبطائر من كتاب الإصابة ووضع مقدمة لها ، وأمضى في تحقيق النصوص سبع سنوات كاملة . فأدّ هدف الاستشراق في هذا العمل إلا «تزيير والحقد . ولقد يقال أن الاستشراق في السنوات الأخيرة قد خفف من حدته وأدخل أساليب العلم وتحرر من الأهواء ، ولكن الواقع المشاهد غير ذلك ، والدكتور أحمد السمان عميد كلية الحقوق بدمشق وقد اشترك في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٦٠ يقول : «بدأ المستشرقون يلقون محاضراتهم وكانوا كمن يلقى البارود في القار ، والحق أنهم لم يخرجوا عن سمات هؤلاء الاستشراق من الأجانب فأهدافهم يرم أن سلكوا طريق هذا العلم أن يهدوا مواضع التشكيك وأن يخلقوا أساطير تذهب مذهب الحقائق العلمية لينالوا من الفكر الإسلامي ، وكانوا يلقون من العالم أسماء مصغية عليها الجبن والسكوت ، والجمل الاستسلام ، وقد فوجئوا بجمل جديد تعلم علومهم وقرأ مصادرهم ، وتفوق عليهم بتفهمه روح العربية وبتجرده من النزعات المهذبة للعلم ، وكان يمثل البلاد صفوة من الشباب المسلم المتخرج في كبرى جامعات العالم وكان الصدام عنيفاً وكانت الغلبة للحق : ويذكر الدكتور السمان نماذج من عناوين البحوث .

(١) ايتسكهاوزن (جامعة ماتسجان) أنه لا يوجد فن إسلامي . (٢) بوسان (جامعة نايبلي) أن للشعر الإسلامي شعر فجور وفسق (٣) جروينبارم تحدث عن ما أسماه المفارقات التي انفصل بين المسلمين وقاله أن ما يفرقهم أكثر عما يجمعهم . ويقول الدكتور عبد الكريم زيان :

« من سلم منهم من الهوى وسوء النية أوقعه جهله بمعاني الإسلام بأباطيل وافترادات ، والقليل منهم جدا من سلمت كتاباته من الهوى وأقل القليل من سلمت كتاباته من سوء النية والجمل ويحب عدم اتخاذ كتاباتهم مصدراً للمعرفة الإسلامية ، ونحن مستعرضون هنا على وجه السرعة تلك المحاولات عملة في أبرز القائمين بها :

(١) مرجليوث : الإسلام

أشار الاستاذ خوجة كمال الدين في كتابه للمثل الأعلى في الانبياء إلى أسلوب الاستشراق فيقول : إليك بيان الطريقة التي دأبوا عليها في نقد الديانات الأخرى ، يشير أحدهم إلى فكرة ما من طرف خفي وبليبه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ويأتي ثالث فيرفع هذا الحوار إلى مرحلة النظرية أما الرابع فيخلق من النظرية حقيقة وهكذا تتطور الفكرة : أربعة أطوار أو خمسة إلى أن ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقرر ، وبخاصة إذا كان الأمر بمس أحد الديانات أو المذنبية التي يتوفرون على تقديمها ، والاستاذ مرجليوث جولات خاصة في هذا الميدان . وإليك المثل : « جاء الدكتور « فيجانا » فقدم قصة فخاها أنه أثر على ترجمة سريانية للقرآن الكريم سقط منا بعض أجزائها يريد بذلك أن يرم القاري أنه ربما

ضاح شيء من القرآن وكان فيجاءنا ، هذا قد حاول قبل ذلك أن يفكك في صحة القرآن فباء بالفشل التدرج لجاء مرجليوث فالتقط الخيط فأشار إلى أن (فيجاءنا) هو على نسخ مزبانية عريقة في النسخ وأما إلى وجود خلافات ذات بال في المخطوطات القديمة ، وهذه العريقة في القدم التي أشار إليها مرجليوث لم يمر عليها إلا أقل من عام ، ولكنه يحاول أن يضع في يد الخصم سلاحا يحارب به القرآن ، هل يليق بمرجليوث أن يستعمل عبارة (عريقة في القدم) مع أن فيجاءنا نفسه لم يقل ذلك بل يرى خلاف هذا الرأي . ومرجليوث هو أول من أثار الشك في الشعر الجاهلي . وقد أشار في بحثه (الذي نقله طه حسين دون أن يغير إليه في كتابه الشعر الجاهلي) إلى أن الذي يقرأ على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ثم نحلة هؤلاء الواضعون المزيّفون اشعراء جاهليين - يقول الدكتور ناصر الدين الأسد الذي ناقش ذلك في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) أن الدكتور طه استقى أكبر مادة لبحثه من مرجليوث . ومرجليوث آراء خصيصة الإسلام والنبي أوردها كتابه محمد وظهور الإسلام عرضا لها في كتابنا (الإسلام والثقافة العربية) وكلها تدور حول شبهات النقل من اليهود والنصارى والتفسيحات للباطلة للنصوص وفق مفهومه اليهودي البالغ الكره للإسلام .

(٢) جولدسيهر : الشريعة الإسلامية

تخصص هذا المستشرق اليهودي في إثارة الشبهات حول السنة والفقه والشريعة الإسلامية وفي قيمة الأحاديث النبوية وذلك بالقول بأن السنة بدأ تدوينها بعد وفاة النبي بتسعين عاما وفي قوله في كتابه (العقيدة والشريعة) أن التوحيد الإسلامي ينطوي على غموض ، ومن ذلك قوله : أن الشريعة الإسلامية تأثرت بالقانون الروماني في بداية تكوينها ، وقد غشى آراؤه كثير من الباحثين في مقدمتهم مصطفى السباعي ومحمد الغزالي وسليمان الندي ، وجولدسيهر يحاول في بحل رأيه أن يصور الفقه الإسلامي وكأنه من صنع الصحابة والتابعين ، وقد كشف الباحثون عن أن جولدسيهر كان مدفوعا في كتاباته بفرض سياسي خاص هو إظهار أن التشريع الإسلامي قابل للثورات الغربية . ولقد صودرت لجولدسيهر مغالطات وانحرافات كثيرة أراد بها المغالطة في الحقائق الأساسية ومنها أنه حرف قول الإمام الزهري : (إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث) إلى لفظ (أحاديث) وذلك لفتح الباب أمام شبهة كبيرة كذلك فإنه إنهم الزهري بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى لإرضاء لعبد الملك بن مروان مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزهر . وقد كشف محمد أسد وليفورد ناس ، للمير في محاربة السنة ، قال : إن الهدف هو إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لحياة رسول الله والمسلمين وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته . ويقول : لكي يستطيع نقد الحديث المزيّفون أن يبرروا قصورهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة إلتزام السنة لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ أن يتناولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وبطريقة تفككه هو ، وبذلك تنتهي تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام على أنه نظام خلقي وعمل ونظام شخصي واجتماعي إلى التهاافت والإندثار .

(٣) لامنس : الإسلام وتاريخه :

ويعد هفوى لامنس من أشد المستشرقين تعصباً على الفكر الإسلامى ، وقد بالغ فى التعصب على الإسلام حتى أعلن البعض للشك فى أمانته العلمية وقالوا : إنه لا ينمى هواطفه فيما يكتب من النبى والإسلام وأنه كان داعية ولم يكن عالماً ، وقد عرف بتهكمه على النصوص العربية كما وصف يارهاقه للنصوص وتحميلها أكثر مما تتحمل . فإذا وجد فى الإسلام موضعاً للفضل ذهب بنفسه إلى مصدر غير إسلامى ، وقد تعصب لامنس للأمويين ، ومصدر إعجابه بهم أن دولتهم كانت فى تفسيره لا دينية ، ولأنهم أقاموا ملكهم فى الشام وتأثروا بالمدينة القديمة التى قامت فى ربوعه . يقول دكتور زكى محمد حسن : إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين عامة وللعلميين وللعباسيين خاصة ، وأنه كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجميلة ، وأنه كان فى خصوصته يعتمد على السفسطة والمغالطة ، وقد كتب لامنس عن الإسلام وعن الرسول وعن بنات النبى . وهو فى كل هذه الكتب يتم رواة السيرة بأنهم محقرهون ولكنه لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم إذا استطاع أن يبلخ فيها معلناً على الإسلام ، وهو حين يروى رواية أو حديثاً فيه مصلحة الشيعة لإتهمهم بوضعه ، حين يرى رواية تملى من هان السنيين ألقها بكتابتهم ، حتى أنك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب كل هذه العناصر التى قامت عليها السيرة وليخرج عليك هنا وهناك بأرائه للفرضة . وهو حين يتكلم عن السيدة طائفة لا يهد فى مفردات اللغة للفرنسية إلا كلمة تشبه كلمة (عظيمة) فى اللغة العربية . وللمستشرق لامنس تلك القرية الضخمة التى دحضها كثير من الكتاب المسلمين ، وهى نظرية تفكيك الحكومة الإسلامية التى قامت يوم « الصقيفة » واستمرت طوال عهد الشيخين (أبى بكر وعمر) فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية على النظام المعروف فى التاريخ الرومانى . وهو يتم الصحابة الثلاثة أبى بكر وعمر وأبا عبيدة بأنهم تآمروا على احتكار الحكم بعد وفاة النبى وأن المؤامرة قد نهجت إلى حد بعيد ، وقد بين الأستاذ عبد الحميد العبادى فساد هذه القرية الكاذبة .

(٤) جب : الأدب العربى :

فى كتابه عن الأدب العربى الصادر فى سنة ١٩٦٣ يعتبر القرآن من كلام « محمد » ﷺ . وهذه ظاهرة يشترك فيها بروكلمان ونيكلسون وغيرهما ، فالمستشرقون يعارضون المفهوم الإسلامى القائم على النبوة والوحى . وهو يطلق على العصر الجاهلى اسماً غريباً فيسماه (العصر البطولى) وقد رفض المستشرق مصطلح (العصر الجاهلى) وعصر ما قبل الإسلام ، وكذلك فعل نيكلسون فى كتابه للتاريخ الأدبى للغرب ، ويعصر المستشرقون على وصف عصر الجاهلية بأنه عصر اسقنارة وأنه تمهيد للرسالة الإسلامية ، ويثيرون الشبهات حول اللغة العربية فهى هندم لغتان لا لغة واحدة : شمالية وجنوبية . وقد تابهم فى ذلك الدكتور طه حسين ويسمى عصر الإسلام الذى هو تحول خطير فى التاريخ العربى بعارة عصر التوسع ارتباطاً بفكرته عن عصر بطولة الجاهلية . كذلك فإن جب يأخذ بالشبهة ويرى لنثر الفنى العربى قارى الأصل وينسب بلاغة عمر وعلى وعبد الله بن عباس وغيرهم . ويشيد « جب »

بالثقافة اليونانية ويحاول أن يضيف إليها كل ما في الأدب العربي من تقدم . ويرد إلى الثقافات الفارسية واليونانية كل أمور النحو والبلاغة العربية . مع أن النحو والبلاغة وغيرهما من هذه الفنون قد تم تشكيلها قبل الاتصال بالفكر اليوناني وقبل عصر الترجمة ، أما الفلسفة فإن (جب) يعتبر الفلسفة العربية فلسفة يونانية المصدر ، ويقول إن الذين - فعوا لواء الفكر والفن في العصر العباسي هم من أصل أعجمي أو نصف أعجمي ناسياً أن القرآن الكريم هو الذي شكل عقليات المسلمين جميعاً . من العرب والترك والفرس . ويقف وقفة اهتمام لزاء أي نراس وبشار . والمستشرقون يبعثون ترائها ويعيدونها إلى الحياة حتى تفشو عبارتهما الإباحية والهجائية في العصر الحديث . وكذلك يولي الاهتمام بالحلاج في مجال التصوف . أما المعتزلة فهو يوليهم اهتماماً كبيراً ويشرح فكرهم شرحاً مستفيضاً ويعتبرهم من أتباع الفكر اليوناني ومن أكثر ما أعطى من الفكر الغربي للإسلام . كذلك أولى (جب) اهتمامه بانتصار البويعيين وقال إنه نتيجة الخيرة الحليونية ، وكذلك الاهتمام بالموشحات والجمع والمقامات ، وقد ناقشنا هذه القضايا كلها بتوسع في كتابنا وخصائص الأدب العربي ، فليرجع إليه من يشاء .

(٥) نيكلسون : اللغة :

من أبرد أخطاء المستشرقين عجزهم عن فهم النص والبيان العربي وقد أشارت الدكتورة بنت الشاطي إلى عجز (نيكلسون) عن فهم الغفران لأب العلاء ، وقالت إن فهمه للنص فيه أخطاء كثيرة بعضها يمكن التجاوز عنه ، أما والكثرة الباقية فتعرض صوراً غريبة لفهم هذا المستشرق للنصوص العربية . يقول في الغفران ما نصه : (وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا القلب أول هو من النبوة أي المرتفع من الأرض) وغاب عن نيكلسون أن الحديث هنا عن المثنى ولقبه فمعجز عن فهم هذا الاشتقاق . ونظراً لالتباس الأمر عليه فقد أومأ أن الحديث عن شخص آخر هو (القطريلي) فليس بينه وبين النبوة صلة ما . وتقول : إن هناك أخطاء كانت في الأصل العربي صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى فهم مفهومة ولا صحيحة فغيرها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ولا صحيحة وأخرى لم تنشأ من صعوبة العبارة في الغفران أو تحريفات النص وإنما نشأت عن عدم فهم الأسلوب العربي وعدم الانتهاء إلى الأشخاص الذي يتحدث عنهم أبو العلاء .

وبعد أن أوردت الدكتورة بنت الشاطي عديدًا من أخطائه (يستطيع القارئ أن يجدها في مقدمة كتابها عن الغفران) قالت : أقصد أن أنبه قومي إلى واجبه في حمل هذه الأمانة - أي أمانة تحقيق التراث - بعد أن أدعو علماء العربية إلى نشر تراث لهم هم أول به وأقدر على فهمه .

(٦) ماسنيون : التصوف :

اهتم لويس ماسنيون بأمرين : الدعوة إلى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية ، وقد أذاع دعوته هذه في كل مكان ذهب إليه وقد ووجهت بالرفض والمعارضة . أما اهتمامه الأكبر فكان بالترويج للتصوف الفلسفي والكرام المتهاضة للتوحيد الإسلامي كوحدة الوجود والحلول ، وقد ركز على الحلاج

أكثر من ثلاثين عاماً حيث جمع كل ما يتعلق بأخباره وآرائه وأذاعها من جديد . والاستشراق اهتمام واضح بمجانب معينة من التصوف ، هي كل ما يتصل بمعارضة فكرة التوحيد وخاصة الحلول والاتحاد ، وهي الأفكار المستمدة من الأصول المسيحية واليونانية ، ولذلك يولى الاستشراق اهتمامه بالحلاج وابن عربي والسهورودي وابن سبعين وغيرهم .

(٧) شاخت : الشريعة الإسلامية :

تابع شاخت أستاذه جولد سيهر ، في الحملة على الشريعة الإسلامية ، وكانت دعوته أن الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأسرة والوراثة مستمدة من النظام القبلي الجاهلي . وقد رد على آرائه المرحوم الفيض محمد أبو ذهرة وكان بما قاله : هل قرر الإسلام ما قرره البدو والرومان من ثبوت النسب ؟ هل أقر الإسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب والرومان ؟ هل نظام الولاية على النفس والمال كما كان عند الرومان ؟ والإسلام قد اعتبر الولد حراً في التصرف في نفسه وماله بمجرد البلوغ الطبيعي والرومان كانوا يعتبرون ولاية أبيه قائمة ولو بلغ السنين حتى يمنحه الأب حق التصرف . هل نظام المهادن كما قرره الإسلام سبق به أي شرع من الشرائع ؟ وفي العقوبة : هل كان الفرد يقتل بالفرد وأن النفس بالنفس ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس ، فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد وليست متساوية بحكم القبائل العربية ، فزعم القبيلة يقتل به الوف ، وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحر بالعبد ؟ وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده ؟ إلخ إلخ . وكرامية المستشرقين للشريعة الإسلامية واضحة : كوفين ، رينان ، كلامون ، جانو ، جولد سيهر ، موجلويوت ، لامانس . وقد حاولوا إيهام المسلمين بأنها سبب تأخرهم وحائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم وأماورا القبيات حول نصوصها المحكمة .

نهاية الاستشراق أو بداية مرحلة جديدة

واليوم نجد تصريحات جديدة تقول بنهاية الاستشراق ، فقد أعلن مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين الذي عقد في العام الماضي أنه تقرر أن يطلق على مؤتمر الاستشراق القادم (مؤتمر العلوم الانسانية) وبذلك ختمت جولة ضخمة بدأت بعد احتلال الجزائر ٨٢ . وامتدت على مدى مائة وخمسين عاماً ، وقد وصفت جريدة الموند الفرنسية هذا التحول بأنه موت الاستشراق ، وكان جاك بيرك قد أدلى بتصريحات خلال العام الماضي عبر فيها عن ما سماه « انتهاء زمن الاستشراق » ومن المصادفات المعجبة أنه خلال العام الماضي نوقشت في جامعة الأزهر رسالة ضخمة عن حركة الاستشراق للدكتور أحمد اسماعيل أزرقتش ، وقد عقدت مؤتمرات استشرافية كثيرة في الأعوام الأخيرة تناولت الأدب العربي والمصطلحات العامة ، كما أعلنت إسرائيل تكريمها للمستشرق (برنارد لويس) الذي هاجم البلاد العربية ووصفها بالانصرية وحيث يوجد اليوم جناح ضخم من الاستشراق اليهودي قاده رندسون

وبرنارد لويس وهو يركز كل اهتمامه بقضايا فلسطين وإبراهيم وإسماعيل والقدس واليهود وهكذا .
ومن آثار هذا الاستشراق تلك الدعوى التي أثارها الدكتور طه حسين حول إنكار إبراهيم
وإسماعيل بالرغم من إشارة التوراة والقرآن لهما والنصوص الخاصة بمروية إسماعيل ورابطته بإبراهيم
وما يتصل بذلك من دور العرب والمسلمين من ميراث الأنبياء . كل هذا يجعلنا في حذر دائم عما يكتبه
المستشرقون وما يكتب عنهم ، ونحن إذاء تحول الاستشراق إلى ميدان العلوم الإنسانية نخص بأن الخطر
أصبح أهدق قوة وعمقاً وأن الاستشراق يغير جلده ليدخل في مرحلة جديدة أكبر خطراً .

خاتمة البحث

التبشير + الاستشراق = التغريب

التغريب في أبسط مفهوم هو حل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والخضوع لنفوذه
وسلطانه وتقبل الاحتواء في بوتقته بحيث لا يجد لنفوذه وسيطرته أى معارضة فهي ترمى إلى فرس
مبادئ التقبل والولاء والخضوع للغرب في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وتفكيرهم
وحتى تحذف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية ، ويستهدف تخنيق ذلك لإيجاد شعور بالنقص في نفوس
المسلمين والشرقيين عامة ، وذلك بإثارة الفجوات وتحريف التاريخ الإسلامى ومبادئ الإسلام وثقافته
وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أصله وانتقاص الدور الذى لعبه الإسلام في تاريخ البشرية ومحاولة إنكار
المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل في ما حوى هذه الأمة وتراثها مع توهين القيم وتقطيع
أوصال الروابط والغنى من مقدرة اللغة العربية . والتغريب هو ثمرة المخطط الذى دعا إليه لويس التاسع
وتابعه فيه عشرات من دهاقين الاستعمار والنفوذ الأجنبى بقصد السيطرة على العالم الإسلامى عن
طريق إخضاع الفكر الإسلامى لنفوذ الغرب الفكرى ، وذلك بتمسيحه أو تهويله أو بلطفته ، وكل
هذه القوى تستهدف السيطرة عليه . الهدف الأكبر هو الحيلولة دون قيام وحدة فكر هى مقدمة
لوحدة الأمة الإسلامية وخلق جو من البلبلة للعقول والنفوس بطرح عشرات من المذاهب والدعوات
سواء فى ميدان السياسة أو ميدان الإجماع أو ميدان الاقتصاد أو ميدان العقيدة بما يمزق الأمة الإسلامية
عنصرياً وثقافياً . والتغريب هو هدف النفوذ الأجنبى ، سواء أكان هذا النفوذ استعماراً كالأستعمار
الغرب ، أو سلطاناً اقتصادياً أو عقائدياً أو إيديولوجياً ، والعالم الإسلامى الآن يتأرجح بين قوى ثلاث
تحاول أن تحتويه وتسيطر عليه هى الاستعمارية الغربية بمفهومها الديمقراطى الليبرالى والشيوعية الماركسية
والصهيونية التلويديّة التى تسيطر على الفكر الاجتماعى ، ومن ثم فقد اتحدت كل من هذه القوى وسياتها
فى مؤسسات التبشير والاستشراق .

وإذا قلنا إن هدف التغريب الأكبر هو حمل المسلمين على الانصياع فى الأمية والنضاء على حضائهم
ضد الاحتواء ، وتمزيق وحدة الفكر والقضاء على الإصالة الذاتية التى تميزهم عن الأمم الأخرى لما
علو لنا فهم الهدف الحقيقى . وحركة التغريب دعوى كاملها لها نظمها وأهدافها ودعائها تخدمها مؤسسات

كثيرة أهمها مؤسستان : مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستشراق . وقد ركزت مؤسسة التبشير على المدونة والجامعة من طريق الإرساليات والسيطرة على المفاهيم الدراسية واختصت شأن الزمن والعلم . وركزت مؤسسة الاستشراق على الصحافة والثقافة عن طريق الكتاب والصحيفة . وكانت مؤسسة الاستشراق هي المصنع الذي يصنع الشبهات والأكاذيب . وكانت مؤسسة التبشير هي التي تحمل ذلك إلى عقل الشباب وقابه عن طريق مناهج الدراسة . .

٤ - أول من استعمل كلمة التغريب : المستشرق جب في كتابه (وجهة الإسلام) الذي أصدره في الثلاثينات واشترك معه فيه : ماسنيون ، كايغهاير ، برج ، كولونل قرار ، وبذلك انكشف أمامنا بوضوح ذلك الهدف الذي عرفناه منذ وقت بعيد بأنه محاولة احتواء هذه الأمة في فكرها لتتكون خاضعة للغرب . والحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها أن العالم الإسلامي واجه هذه المحاولة بمعارضة شديدة وعزيمة وأنه لم يستسلم مطلقاً للاحتواء ، ولم يلبس في الصمود إزاء المحافظة على شخصيته وفانيته وقيمه الأساسية وإن كان النفوذ الغربي الذي كان ممثلاً في السلطان السيامي والعسكري استطاع فرض القانون الوضعي بدلاً عن الشريعة والتعليم المصري بدلاً من التربية الإسلامية ، وحاول في مختلف وجوه الثقافة واللغة والفكر محاولات ضخمة ، وكانت أخطر المحاولات فكرة القوميات والإقليميات الضيقة التي استهدفت تمزيق الأمة الإسلامية إلى أقطار .

٥ - عمل التبشير على تحقيق هدف النفوذ الأجنبي وهو إخراج المسلمين العرب من القيم التي تدفعهم إلى الصالة ومقاومة النفوذ الأجنبي وعدم الانصياع في الأمية والعالمية وإقامة مجتمعهم الخالص المستمد من قيمتهم وتاريخهم ولغتهم ودينهم ، فإذا استطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب في بوتقة العالمية وصهرهم في بوتقة الثقافة العالمية وإخراجهم من ثقافتهم وقيمهم ، لم يعد هناك مجال لهكهم بصورة خاصة ، عندئذ يصبح التغريب وقد حقق أكبر انتصاراته . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم ، على أن الهدف من التبشير هو إنشاء عقلية عامة وتحقق كل مقومات الفكر الإسلامي وإبعاد العناصر التي تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه .

وقد كانت خطة المبشر شاقة موحدة وذات مراحل ، وقد تأكد مدى التماسك بين القوى ذات النفوذ الأجنبي وبين مؤسسة الاستشراق ، وكشفت الوثائق عن أن وزارات الاستعمار تستخدم المبشرين داخل البلاد العربية والإسلامية .

٦ - عمل الاستشراق هو في أدق تعبير : استخدام العلم في خدمة السياسة ، ومن هنا فقد كانت مادته مصدراً مؤثراً لمؤسسات التبشير تستعملها في دعم خططها وفي إثارة عوامل الخلاف وتأليب القبيات بما يحتمل هدف مخطط التغريب . وقد عرف أن الاستشراق يدرس القضايا من وجهة نظر مسبقة وبأحكام وقدرة وبأهداف واضحة ، أساسها خدمة النفوذ الاستعماري وقوامها النهب والانتهاك للفرق والإسلام والعربية ، ومهما عينت كلماته في أسلوب له طابع علمي فإنها تنطوي على عدم الحيدة

وعلى الانحياز الواضح ، وقد عمل كثير من رجال الاستشراق في مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً في أيدي المبشرين ، ومن هؤلاء مرجليوث وماسنيون وهنري لامنس ولويس شيخو وفستك وجولز زيهير ، وهم من أشد الاستشرفين تعصباً على الإسلام واللغة العربية . ولقد حاول البعض القول بأن الاستشراق عمل خالصاً لوجه العلم ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا حرص على التركيز على الجوانب الضعيفة والروايات المدخولة والشبهات المسمومة ، ولماذا ركز على الجوانب الانهزامية بالباطنية والونج والقرامطة وعلى الشخصيات المنحرفة : كالحلاج والسهروردي وأبونواس وبشار والرازي والراوندي . لقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية مؤامرة التخريب المتخفية وراء التبشير والاستشراق منذ اليوم الأول . ولقد فهم كل منهما إهابه وجعله في سبيل زيادة التخفي والتخادع ، ومع ذلك فقد استطاع الفكر الإسلامي أمقب مؤامراته وشبهاته بالنقض والتزييف على ذلك المدى الطويل دون توقف .

عملت حركة اليقظة على مواجهة التبشير والاستشراق الغربي والماركسي والصهيوني وحملت قوائم المدافعين عن الإسلام بأسماء أهلام أبرار عاشوا حياتهم مدافعين عن الحق ، كاشفين عن الزيف ، جهلاً بعد جيل .

وكانت حركة اليقظة الإسلامية قادرة على المتابعة وكشف الزيف من خلال حلقات التخريب المتوالية أو المتجددة على مدى امتداد العالم الإسلامي كله وحظيت مدرسة اليقظة في الهند وباكستان بقدر وافر (المردودي والتدوي) وفي مصر والشام والعراق والمغرب توالى ظهور هؤلاء الأبرار ، وما تزال كتاباتهم تكشف الزيف وتواصل تصحيح المفاهيم .

ولعلنا في هذا الكتاب قد تابعنا هذه المواجهة الصريحة القوية التي ما زالت صامدة في وجه التخريب كاشفة عن زيفه وشبهاته وسمومه .

الرسالة الثانية

المؤامرة على تاريخ الإسلام

مدخل :

كان تاريخ الإسلام هدفًا من أخطر أهداف الاستشراق والتخريب والتبشير والغزو الثقافي في العصر الحديث منذ بدأت الحملة الاستعمارية على عالم الإسلام والعرب من خلال الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي والهولندي ، ذلك لأن الاستعمار كان يستهدف استدامة سيطرته على الأمة الإسلامية من خلال تهريب تاريخها وتدمير مقومات فكرها أساساً ، ولذلك فقد بدأت المؤامرة على تاريخ الإسلام منذ وقت باكر وامتدت لتسلك سبلا مختلفة وأبعاداً واسعة . ويمكن القول أن المؤامرة على تاريخ الإسلام تعمل في حقول عديدة أهمها :

(أولاً) التركيز على المناهج الدراسية وإفسادها . (ثانياً) إثارة الشبهات حول الخطط والمواقف والدول والحكام . (ثالثاً) تحريف النصوص وإعلاء الروايات الضعيفة . (رابعاً) تهديد إسرائيليات القديمة وإعداد إسرائيليات جديدة . (خامساً) إفساد مفهوم فريضة الجهاد وتأويله . (سادساً) الدعوة إلى تحرير التاريخ من ارتباطه بالأمة ومقوماتها . (سابعاً) إثارة التعارض والتضارب بين القيم المتناقضة كالعروبة والإسلام وبين الفرعونية والآشورية والفينيقية وبين العروبة . (ثامناً) ابتعاد الأساطير وإطاعة صياها في داخل التاريخ الإسلامي وسهدة الرسول . (تاسعاً) محاولة تزيق التاريخ الإسلامي إلى تراويح مستقلة لأنظار مختلفة . (عاشراً) إذكاء روح القومية بمفاهيمها الضيقة والمنصرية للقضاء على الروح الإسلامية . (حادي عشر) محاولة تصوير المؤامرات التي قامت بها الفرق الضالة كالقرامطة والويع والباطنية على أنها دهوات عدل أو حرية . (ثاني عشر) محاولة اعتبار التاريخ الحديث في الأنظار العربية المختلفة تاريخاً مصرى أو سورياً أو عراقياً أو مغربياً منفصلاً عن أصوله العربية والإسلامية . (ثالث عشر) إفساد الرابطة العميقة بين الحنيفية دين إبراهيم وبين الإسلام ، سواء من الناحية التاريخية أو العقيدة أو الارتباط بين الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ومصر والمغرب . (رابع عشر) محاولة إحياء علاقة مقطوعة بين ما قبل الإسلام وما بعده عن طريق إحياء الفكر الرواني القديم ، سواء في الفرعونية أو الفينيقية أو اليونانية أو الفارسية .

(خامس عشر) محاولة تفسير التاريخ الإسلامي والمعاصر وفق مذاهب غريبة وافدة كالنفسيم الغربي المسمى والتفسير الماركسي . (سادس عشر) محاولة تصور القرن الهجري الثاني على أنه عصر شك ومجون عن طريق اعتبار بعض الشعراء المجان وهم قلة معزولة يمثلين مصرهم فيما يتجاهل الباحث عشرات العلماء والفقهاء والاصوليين والمفكرين .

(سابع عشر) إعلانه شأن الشخصيات المنحرفة في الفكر والسلوك من شعراء مجان أو مشهورا فتنة أو اضطرابات وإخفاء البطولة عليهم أمثال أبو نواس وبشار والحلاج والسروردي .

(ثامن عشر) إنكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ هدماً لآثره الواضح في تمزيق وحدة المسلمين .

(تاسع عشر) محاولة تفسير البطولة الإسلامية وفق المذاهب الغريبة اعتقاداً على موروثات البيئتين والعرق بينما يقاس أبطال الإسلام على مفاهيم الإسلام نفسها التي شكلتهم من جديد . (عشرون) اتهام الدولة العثمانية بأنها دولة مستعمرة استعمرت بلاد العرب واتهام السلطان عبد الحميد بالاستعباد بينما وقف السلطان عبد الحميد موقفاً مشرفاً في مواجهة مؤامرات الصهيونية وعاهلاتها الاستيلاء على فلسطين .

(واحد وعشرون) محاولة القول بأن نهضة العرب لم تبدأ إلا بوصول الحملة الفرنسية إلى مصر ، بينما النهضة العربية الإسلامية قد بدأت قبل ذلك بأكثر من خمسين عاماً بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وعلماؤهم الذين دعووا إلى التوحيد .

(٢)

تشكل عنصر المؤامرة من عدة عوامل أساسية :

(أولاً) تحامل الغرب وخصوصته للإسلام ، من حيث الخلاف بين المسيحية والإسلام ومن حيث سيطرة الغرب السياسية والعسكرية عن طريق الاستعمار على أرض الإسلام ومحاولة استدامة هذه السيطرة بتقوية تاريخ الإسلام . (ثانياً) محاولة القول بأن تاريخ الإسلام لم يستطع أن يحقق مفهوم الإسلام ومنهجه ، وهذا يعني هجز الإسلام فن إقامة مجتمعه الأصلي . (ثالثاً) خلق عملية تمزيق ، وحدة الفكر الإسلامي والأمة الإسلامية والتاريخ الإسلامي إلى قوميات وإقليمات تختلف فيما بينها وتتطارب . (رابعاً) القضاء على ذاتية الإسلام والأمة المتميزة التي أنشأها والعمل على صهرها في بوتقة العالمية وأن تكون الأمية حتى لا يكون للأمة الإسلامية ذلك الوجود الواضح المستقل القائم بنفسه . (خامساً) المحاولة دون انتقام المسلمين والعرب بتاريخهم : لإجهاياتهم وسلبياتهم من حيث هو طاعل القوة وإيجاد الثقة في إجهاياتهم والتعريف على الأخطاء لتفاديها بالنسبة لسلبياتهم .

(سادساً) محاولة تصوير المسلمين بصورة الأمة العاجزة عن أن تحمل لواء الحضارة وقيادة البشرية ، وإيجاد الخلاف بينها وبين الأمم الغربية وإفساد العلاقات بإثارة شبهات ترمي إلى تصوير المسلمين بصورة التعصب أو دهاء العنف أو الحرب .

(٣)

كان التاريخ الإسلامي من خلال مفاهيم الرسائل الغربية والمعاهد الوطنية في حالة حصار على نحو يستهدف إفساد تصور الناشئين لأمتهم وتاريخها وعقيدتها من خلال محاولة تصويرها على هذا

النحو المضطرب الغريب . أما في معاهد الاساليات فإن الطريقة التي تهرى عليها هذه الجامعات لمور تعليم طلبتها أن يبحثوا التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقرار بل لا بد من تطبيقه على نوااميس الاجتماع . م ٦١ (ديسمبر - يناير) المقتطف ، والهدف من هذا هو فتح الطريق أمام إثارة عهرات الشبهات في تاريخ العرب والاسلام من شأنها أن تحمل عقل الشباب على الانتفاص والاحتقار لبنى أمتهم ، ذلك لأن التاريخ في تقدير العلم المنهجي الصحيح ليس من العلوم الرياضية والطبيعية التي تحاكم إلى منهج التجريب الذي يطبق على الماديات . ولا ريب أن الغربيين لا يطبقون هذا المنهج في دراسة تاريخهم ولكنهم يدفعون به إلى شباب المسلمين والعرب الذين يدرسون عندهم لأنهم يعملون لتشكيلهم على كراهية أمتهم واحتقار تاريخهم بإثارة الشبهات حوله .

أما في المدارس الوطنية فإن تاريخ الاسلام يدرس وفق أسلوب مفتعل من التشويه والتحقير من شأنه أن يسوده في أعينهم ويصرف أنفسهم عنه . وذلك منهج صنعتته أيد استعمارية وغربية منذ وقف بعيد في أبان الاحتلال ، ومع ذلك فقد استمر حتى الآن دون أن تكشف زيفه وتصادره القوى المتحررة . ومن أبرز عوامل الفساد في هذه المناهج : (أولا) تقديم التاريخ الاسلامي على صورة صراع بين القادة أو تضارب بين القوى المختلفة بإبراز رواية الخلاف والصراع والنشاحن دون غيرها . وهذا الأسلوب متخذ في تاريخ الاسلام وحده وليس مستعملا في تاريخ الفراعنة مثل الذي يدرس على أنه صورة طالية من الامجاد . ومن ذلك محاولة التوسع في مسألة الخلاف بين معاوية وعلى وتصوير الأمويين على أنهم فئة تسلطت بفاهيم الجاهلية وأعلنت الفرقة ، وأن العباسيين فرس تغلب عليهم روح البذخ والتبذير . وأن هناك تنافساً واضحاً على السلطة بين الوعاه ، سواء في العصر الأموي أو العباسي أو في تاريخ الأندلس . وهذه المنطلقات الحاططة كلها لعرض تاريخنا في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات موضوعة وفق منهج مسموم مأخوذ أساساً من جرجي زيدان وفيليب حتى وبروكلان ودائرة المعارف الاسلامية ، وهو يستهدف في جلته حجب بطولات التاريخ الاسلامي وصفحاته المضيئة عن شباب المسلمين والعرب ، ويرجع هذا إلى أن هذه المناهج والكتب المقررة قد وضعت في ظل الاحتلال وبقيت حتى الآن تحمل روح الكراهية والخصومة للاسلام وصفحاته المفسرة . فهي تحجب هذه المعطيات وتبرز وجوه الصراع والخلاف والفرقة ، والافتتال بين المسلمين ، وقد حاولت هذه المناهج الاهتمام بوقائع صغيرة عادية تحدث في تواريخ كل الأمم ، وإبرازها على أنها خلاقات جسيمة وهي ليست كذلك في الحقيقة لأن بعضها مكذوب وبعضها قليل الأثر بمجوار الإجابيات الضخمة الأخرى المنكورة والمحبوبة ، وهي تستهدف تفتيت وقائع التاريخ وتزييفها حتى تحول دون إعطاء المنظور الكامل والفكرة الجامعة التي تكشف الحقيقة ، وهي خادعة لأنها حاولت أن تظهر أشياء غير صحيحة . مثال ذلك محاولاتها لإطلاق اسم الكشوف الجغرافية على رحلات المبشرين المسيحيين الذين سبقوا رحلات الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا بينما تؤكد الحقيقة التاريخية أن ما وصل عنده الأوروبيون كان قد سبقهم إليه الرحالة العرب بمئات السنين ودونوه في كتبهم .

كذلك فإن من أخطر محاولات تشويه التاريخ الإسلامي : تجهيزته . ومحاولة تصويره على أنه تاريخ إقليمي مصري أوسوري وهو هدف أصيل من أهداف الاستعمار . وحين تعرض لنموذج من هذه النماذج وهو كتاب (التاريخ السياسي للدولة العربية) للدكتور عبد المنعم ماجد نجدده محموراً بافتراءات متعددة على الإسلام وهو كتاب ظل يدرس في كلية الآداب طيلة خمسة أعوام كاملة (ولعله لا زال يدرس) ومن أبرز أخطائه ما يأتي : (أولاً) قوله (ولجأة وفي سن الأربعين تملك محمد موهبة النبوة) . (ثانياً) : يقرر أن الوحي كان يتم في المنام فيقول أنه كان ينزل عليه وهو نائم . (ثالثاً) : أن النبي كان ينمض ببعض الآيات التي أملاها ويأتى بأخرى غيرها . (رابعاً) : النبي وإن كان مرسل إلى العرب إلا أنه اعتبر نفسه مرسل إلى كافة الناس . (خامساً) : قوله إن رسالة المسيحية رسالة عامة وليست كاليهودية مخالفاً نص القرآن (ورسولاً إلى بني إسرائيل) وقوله في نص لإنجيل متى (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة) . (سادساً) : كتب قصة البعث والحساب بعبارات توحى بالسخرية والشك . (سابعاً) : الوكأة في الإسلام ليست نوعاً من التضامن الاجتماعي كما في وقتنا وإنما يفسرها بأنها حصة على الففقة والرحمة واستغلال في الجهاد ونشر الدين . (ثامناً) : ينفي المؤلف أن الإسلام عالج نظم الحياة بنصوص صريحة (والواقع أن الإسلام لم يدع أنه بني مجتمعاً غاية في التنظيم) . (تاسعاً) : يذكر أن الإسلام حارب الربا لأن معظم القائمين به كانوا من اليهود وكان التشريع الإسلامي يقوم على الأغراض الشخصية وينسك المؤلف آثار التسامح الإسلامي في تحرير الشعوب من عمالها مخالفاً آراء جميع المؤرخين العرب ويستقني برأى يوحنا اليفنوس الذي انفرد بذكر مقاومة الأقباط في مصر لفتح الاسلامى مدة اثني عشر عاماً دون مناقشة أو دليل ليخلص من هذا إلى أن الفتوح الاسلامية كانت قائمة على السلب والنهب واتباع شهوة سفك الدماء .

(من تقرير الاستاذ على عبد العظيم إلى مجمع البحوث في الأزهر ١٩٧٢/١٢/٢٠) .

ونحن حين نراجع بروكلمان أو جرجى زيدان أو دائرة المعارف الاسلامية أو فيليب حق وكل كتب هؤلاء تستعمل كمصادر لسكتابات مؤلفي كتب التاريخ نجد عشرات من مثل هذه السموم تركوها على المثالب التي تستهدف سوء القصد وسوء الفهم . وتحاول أن تصور القرآن بأنه دين عبادة وأن الإسلام دين صلاة وصوم وحج وهي تقدم حياة الرسول لأبنائنا منقطعة الصلة من حياتهم ودينهم . وتقتل دائرة المعارف الإسلامية بمجموعة إفتراءات كاذبة واتهامات جاحدة على الإسلام دينه وقرآنه وتقوم على تصوير الإسلام وكأنه من صنع النبي محمد وكذلك نجد بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) يفسد السم في الدمس ويعرض بالظمن والقدح لحلفاء المسلمين وحكامهم وقد حاول جرجى زيدان تصوير الخلفاء بصورة الحكام المتنازعين على السلطة والخلافة ، وأن الأمويين فئة تسلطت على الرقاب فأقصت الموالي والأعاجم واعتمدت مبدأ الاستعلاء القومي والعرفي وأن العباسيون فرس غارقون في الابهة والبلذخ . أما جواب القوة والبطولة والمجد فإنها محجوبة تماماً حتى ليبدو تاريخ الإسلام وكأنه مجموعة من الدسمائس والمؤامرات فضلاً عن أنه تاريخ دول ، وعلى الجملة فإن محاولة كتابة تاريخ الإسلام

التي تمت في العصر الحديث والذي عرفتها المعاهد الوطنية ومدارس الإرساليات تصور التاريخ الاسلامي :

(١) مليئاً بالذمائم والمؤامرات (٢) محشواً بالفساد والتطرف . (٣) مقسماً بالانشقاق والتخزق فضلاً عن تحريكه في إطار صورة ضخمة من الخلاف المستعمر بين الحكام والفرق والاسر، (عبدالله سالم) وقد أشار الاستاذ يوسف المش إلى هذه الظاهرة في كتابه تاريخ الاسلام فقال : لقد حاول الكثيرون أن يصنعوا تاريخنا بكترة الفتن والحروب والمكاييد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال هوائه العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح . وأن كل مافي الأمر أن هناك تفاعلات في المجتمع الاسلامي العربي كانت تأخذ طريقها ولا بد أن تأخذ طريقها في ذلك المجتمع وأن هذه التفاعلات سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وهي تفاعلات تحدث في كل أمة بل أن الاخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب . وتاريخ الأمم مزيج بالحرب والفتن والاضطرابات أكثر من التاريخ العربي فهذا تاريخ فرنسا وألمانيا منذ الثورة الفرنسية ، وأن تاريخهما مليء بالحروب : حروب الثورة الفرنسية ، حروب نابليون ، حروب ١٨٧٠ ، حرب ١٩١٤ ، حرب ١٩٣٩ ، كل ذلك في مدى لا يتجاوز قرناً ونصف قرن والضحايا التي وقعت في هذه الحروب تتجاوز أضعافاً مضاعفاً ضحايا الحروب في تاريخنا بأجمعه . ولا ريب أن مرجع هذا التشويه والفساد في طريقة عرض تاريخ الاسلام هو تسليم الامة تاريخها إلى أعدائها وهدم قدرتها بعد أن تسلمت إرادتها على أن تصحح هذا الوضع وأن تكشف هذا الزيف وهي تعلم أن التاريخ الصحيح مصدر أساسي في بناء الشباب وإعدادهم ولا ريب أن تاريخ الاسلام مليء بالمطولات حافل بالإنجازات ، وأنه قوة فعالة تستطيع أن تعد المنقذين بإرادة دافعة تحول بينهم وبين مركبات النقص في النظر للأمم الغربية لأن أمتهم قدمت إلى البشرية خير ما قدمت أمة ، ولأن أمتهم وإن كانت تمر اليوم بمرحلة من مراحل التخلف فإنها في طريقها إلى القوة والتمكين ، وأن دورة الحضارة قد مكنتها من العمل والتأثير في البشرية كلها خلال ألف عام كاملة ، فإن كانت قد جاءت بها بعد ذلك مرحلة تخلف فتلك طبيعة الأمم ودورات المجتمعات ، وأنها منذ وقت قد دخلت مرحلة اليقظة وقطعت أشراطاً واسعة في طريقها إلى النهضة ومن حقها أن تعرف تاريخها معرفة صحيحة . وأن تعرف دورها الحقيقي في عالم البشرية وعلاقتها الطبيعية بين مختلف الانجناس والفرق والدعوات .

(٤)

حاول الاستشراق في العصر الحديث أن يقدم تصوراً مضطرباً لتاريخ الاسلام على النحو الذي يستهدف تزييفه أو إلتقاصه في نظر أصحابه ، فلما استجاشت حركة اليقظة الاسلامية ظهرت عشرات المؤلفات عن الاسلام والرسول تصحح هذه الآراء وتفسد الحطة التي قام بها الاستشراق الذي أحس بأن هدفه قد أصيب بالاثام والشك ، فكان لا بد من خطة جديدة لمعارضة كتابه المسلمين

لتاريخهم على النحو الذي عمد إلى كشف زيف الاستشراق ودحض شبهات التعريب وإعادة مكانة الخلق بأمة تسمى إلى استعادة مكانتها في العالمين وترد عليها خطراً يهددها من خلال الاستعمار نفسه وأثره في الفكر وهو محاربه تصويرها بأنها أمة قد خضعت للإستعمار وأصابها التأخر نتيجة دينها وعقيدتها ومحاولة إتخاذ تاريخها - بالتزوير والإفساد - وسيلة لتبرير هذا التخلف والتأخر . هنا لك جاءت موجة الاتهام لكتاب التاريخ الاسلامي الحديث وتصويره بأنه يعتمد إلى إستثارة حساسة للقراء وبعث الفرور . يقول الدكتور نبيه أمين فارس - أحد رجال الإرساليات الغربية والجماعات الوافدة التي تدورس التاريخ المسلمين على أنه من العلوم التجريبية ١٠ إن المؤلفات الحديثة في التاريخ العربي بصورة عامة تبحث في هذا التاريخ بحثاً أقرب إلى السطحية منه إلى الدراسة العميقة ، وأن هذه المؤلفات تستثير حساسة القراء وتبعث في نفوسهم الفرور . ويدعو نبيه أمين يونس (ومن وراءه حركة التعريب إلى معاملة الاسلام معاملة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وأن يوضع الجانب الإلهي موضع البحث الواقعي أي أن يبحث كما تبحث أية حقيقة اجتماعية أو فكرية أو وجدانية ومعنى هذا الذي يدعو إليه أصحاب المؤامرة على تاريخ الاسلام : أن يحاكم تاريخ الاسلام والاسلام نفسه إلى المذهب المادي الذي لا يعترف بالالوهية أو الوحي أو النبوة والذي ينظر إلى رسالات السماء على أنها ظواهر اجتماعية قام بها أفراد مصالحون مستثمرون في مجتمعاتهم . حاولوا لإيجاد منهج لإصلاح وتغيير ، ولذلك فإنهم يتصورون الأنبياء والرسول أبطالا ودعاة للحرية والإصلاح الاجتماعي لحسب ، كانوا يعملون على النهوض بأمتهم ، ولاريب أن هناك فوارق بعيدة وعميقة بين رسالات السماء وحركات الإصلاح . ويرمى نبيه أمين فارس وغيره الدراسات التاريخية في العالم العربي الاسلامي بأنها بتأثير المؤرخين العرب القدماء سائرة على منهجهم متبعة طريقهم في البحث والمعالجة . وأن هذا هو سر هجرها عن أن تحقق الهدف الذي يرمى إليه ، فهو يريد إخضاعها للمناهج الغربية الوافدة التي صنعت في غيبة هذا التاريخ ، والتي صيغت للأمم والتاريخ وبيئة مختلفة ، دون أن يقدر بأن كل تاريخ له منهجه في الصياغة والنقد مبايناً لغيره من الأمم والعقائد ، وأن المنهج الغربي في دراسة التاريخ لا يصاح لتطبيق على التاريخ الاسلامي لأنه يقوم على أصول مادية صرفة ، وعلى إنكار الالوهية والنبوة والبعث والجزاء ، والمسلمون يؤمنون بالالوهية والنبوة والبعث والجزاء ويعملونها أساساً في النظرة التاريخية إلى الحياة وفي حركة التاريخ ، كذلك فإن المنهج الغربي في التاريخ يفسر حركة المجتمعات تفسيراً مادياً صرفاً ، سواء أكان ذلك التفسير اقتصادياً أم جنسياً . وأنه يهمل ويحجب عوامل أخرى لحركة التاريخ يعترف بها التاريخ الاسلامي منها البطولة الفردية وعوامل العائد والاديان وأثر الإيمان بها . فإذا أخضعنا تاريخ الإسلام المنهج الغربي الذي يوصف بأنه منهج علمي وعصري وحديث فإننا نكون قد انتقصنا الآثار الحقيقية لحركة التاريخ الاسلامي ولاريب أن خطه كتابة التاريخ الاسلامي لا تغني بالأسر الحاكمة والشخصيات المشهورة من خلفاء وقواد إلا بالقدر الطبيعي مع الاهتمام الاصيل بالتاريخ الحضاري والآثار الاجتماعية والاقتصادية ويركز نبيه أمين فارس على العصر الجاهلي وعلى علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات السابقة والمعاصرة ومهدفه من هذا واضح وجلي ، ذلك أنه يريد أن يصور الإسلام بأنه إمتداد للجاهلية أو ثمرة لها وهذا افتراض زائف وشبه استنرافية مردودة ومدحوضة ، كذلك فإن محاولة الغرب تصوير الحضارة

الإسلامية بأنها ذات صلة بالحضارات السابقة والمعاصرة إنما يرمى إلى اتهام هذه الحضارة بأنها ليست حضارة متميزة وأنها جزء من حضارة للغرب اليونانية الرومانية الغربية الحديثة وليس هذا القول صحيحاً على إطلاقه ، وإنما تتميز الحضارة الإسلامية بأنها جاءت بمنهج رباني خالص يحمل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان مجتمعة ومن تحرير عقله وروحه من الوثنية وعبادة غير الله . وأنها هي التي حطمت في البشرية الوثنية والعبودية السائدة في فارس والروم والفراتة ، وفي غير هذا الحضارات التالية تأخذ من الحضارات السابقة في مجال التقدم والإنشاء والعلوم التجريبية وهذا يسرى على الحضارة الإسلامية في جانبها المادي ، أما جانبها المعنوي والفكري وهو ما يطلق عليه أسلوب العيش ، فالإسلام له منهجه الخاص ونظامه الاجتماعي ومفاهيمه الخاصة . أما محاولة القول بوضع التاريخ الإسلامي في مكانه من التاريخ البشري العام ، فهي في نظر التبشير والتغريب أن التاريخ البشري هو تاريخ الغرب وحضارتهم القائمة الآن ، والتي توحى كل الدلائل بأنها مهيمنة وأن حضارة الإسلام وتاريخه تقف في الظل لأن قوماً مستعبدون وواقعون تحت سيطرة الغرب والاستعمار ومن هنا تأتي دعوى وحدة التاريخ البشري المسمومة التي تريد أن تضع التاريخ الإسلامي في مكان محدود بالنسبة لذلك التاريخ القديم المتعدد الصور ، أو التاريخ الحديث الذي تتمثل فيه عظمة الأمم الغربية ، وهنا يبدو أن موقع التاريخ الإسلامي متضاداً ، ولكن أسلوب القياس الصحيح والنظر المنصف في التاريخ لا يقرآن . تدرس الأمور على هذا النحو ، وإنما يدرس تاريخ الإسلام بإثارة العجيبة الذي أحدثها في البشرية ، وبذلك للتوسع الضخم الذي حققه في أقل من قرن من الزمان فنقل العدل والسلام والرحمة إلى عالم البشر من الصين إلى حدود فرنسا وكشف عن الناس المظالم والعبودية والفساد ثم قدم للبشرية بعد ذلك المنهج التجريبي في العالم الذي صنع الحضارة المادية الحديثة .

(٥)

وكذلك نجد أن هناك محاولة خطيرة من وراء كتابات التغريب والاستشراق ترى إلى قطع علاقة التاريخ بالامة ومقوماتها والتحدث عن تاريخ بشري أو عالمي ؛ ولارباب أن محاولة تحرير التاريخ من ارتباطه بالامة ومقوماتها من شأنه - كما يقول الاستاذ شبلي العيسوي - أن يكون دعوة شعوبية ، ذلك إنما تتطلع إلى بناء أممنا فلا بد أن يكون التاريخ سلاحاً من أسلحتنا في هذه المعركة ، ولذلك فإن محاولة التغريب في تقديم صورة قوامها الإستهانة والسخرية بأجناد الامة الإسلامية وتاريخها من شأنها أن تدفع شباب هذه الامة إلى احتقار هذا التاريخ ومن ثم فهو لا يستطيع أن يحمل أمانة بناء الامة . وليس معنى هذا أن تقدم الجوانب الإيجابية وحدها وتحجب الجوانب السلبية . ولكن المطلوب أن تقدم الجوانب السلبية بروح الانصاف وبمبدأ عن أساليب السخرية أو الاحتقار أو الانتقاص ، ولارباب أن وضع الأمور في مواضعها الصحيحة من شأنه أن يوجه المثقفين إلى معرفة الاخطار التي أحاطت بأممهم من قبل حتى يتحرروا منها ، ولكن تقديم هذه الجوانب يجب أن يكون معكوماً بإعطاء الصورة الكاملة لهذه الامة في مجال تقدمها وبطولاتها وعظمتها للبشرية وإقرار الدور الكريم الذي قامت به في

الجال الإنساني لا أن يتخذ هذه السبلات سبيلا إلى الغض من قدرها ومكانتها . وأن من أخطرها تدعو إليه مناهج التغريب في كتابة التاريخ الإسلامي هو : إجهاد التضارب بين حلقات التاريخ : الوطنية والقومية والإسلامية العامة وهي حلقات متداخلة ليست منفصلة عن بعضها البعض وليس بينها خلاف أو صراع ، ولكن بينها لقاء وتجاوب وتكامل لأنها تستمد أصولها من القرآن والإسلام ، والعرب هم جزء من تاريخ الإسلام فهم الذين حملوا لواء حركة الانتشار والتوسع وقد انصهروا في الأمم والأجناس وتشكل من هذا اللقاء ما يسمى الآن الأمة الإسلامية وأن للقيم الإسلامية هي التي شكلت للعقيدة الإسلامية وهي التي صنعت الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولذلك فإن وصف التاريخ بأنه عربي أو الحضارة هو تجاوز أراد به الاستئراق والتغريب الفصل بين العروبة والإسلام ومن شأن هذا اللقاء بين الدوائر الثلاثة (الوطنية - العروبة - الإسلام) أن يحول دون وجود ذلك الصراع الذي عرفته أوروبا بين أوطانها وقومياتها ؛ وأن للقومية في الفكر الإسلامي مفهوم مختلف عن مفهوم الغرب وأن العروبة شيء آخر يختلف عن القوميات الغربية .

(٦)

هناك محاولة خطيرة أخرى في طريق المؤامرة على الإسلام : هي إهلاك التنظير القومي لتاريخ الحديث في إطار الأمة العربية على نحو يفصل هذا التاريخ عن تاريخ الإسلام العام وعن الأمة الإسلامية ، يقود هذه المحاولة دعاة القوميات والإقليميات ، أمثال قسطنطين زريق وساطع الحصري وميشيل عفلق . يقول قسطنطين زريق : إن هذا التيار هو التيار الصاعد المتضخم يوماً بعد يوم سواء أ كان عربياً شاملاً أم إقليمياً محصوراً . ولكن الذي لم يذكره الكاتب أن هذا التيار دخیل وأنه وافد وأنه قد تركز في المجتمع الإسلامي نتيجة الآثار التي رتبها الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية السياسية والاجتماعية وأنه لذلك تيار مصنوع وليس فيه من الأصالة ما يمكنه من الحياة والنمو ، ولقد امتد بحكم الضغوط والوسائل وجرياً مع التيار الغربي المثلث له والمنقول منه ولكنه لم يستطع أن يحقق نجاحاً ما ، ذلك لأنه لا يتفق مع طوابع الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي وأن تجربته قد فشلت تماماً في أن تملأ شأن الهم والعرق والعنصر على وحدة الفكر والثقافة والعقيدة التي شكلت المجتمع الإسلامي .

ولاريب كانت فكرة القومية وفكرة الوطنية من الوسائل التي اتخذتها الأقطار الإسلامية والعربية في مواجهة الاستعمار والاحتلال ولكنها لم تكن في تقديرها مناهج أساسية أو ثابتة أو وجهة دائمة لأن هذه الدعوات هي في حقيقتها حلقات في عقد متكامل : الوطنية مرتبطة بالقوم والعنصر ، ولكنها كلها لا تنسب في الدائرة الواسعة الأممية الجامعة : جامعة الوحدة الإسلامية في الفكر والثقافة والعقيدة التي لا ترفض دعوات الوطنية والقومية في نطاقها المحدود ، وعلى النحو الذي يحقق التعارف ، الذي دعا إليه الإسلام وبحيث لا تخلف الصراع ولا الخصومة ولا العزلة ولا الانفصال بين الوحدات

الوطنية والقومية : عربية أو إسلامية تحت لواء لا إله إلا الله . هذا هو مفهوم الفكر الإسلامي للدعوات القومية ، والتاريخ القومي الذي ليس إلا قطاعاً من التاريخ الإسلامي ، والذي لا يمكن أن ينفصل أو يستقل أو يتجزأ بحيث يكون تاريخاً قومياً منفصلاً عن التاريخ الإسلامي للعام الجامع ، والمعروف أن العروبة جزء من الإسلام لا ينفصل عنه لأن الإسلام هو الذي أعطاهم مفهومهما وطابعهما . فهي لا تستطيع أن تستقل بالانفصال أو الاستقلال ولا تستطيع أن تكون تاريخاً منفصلاً بالنسبة للعصر الحديث أو تحاول أن تقرر التاريخ العربي القديم على أساس القومية والمعروف أن النوعة القومية نزعة مستحدثة جاءت من خلال التحدي الذي قام به الاتحاديون في تركيا حين أعلنوا دعوة للثورة في بلادهم وحاولوا تفرق العرب فخلعوا العرب على اتخاذ مفهوم القومية لحماية وجودهم وكيانهم ولتقويم ولكن العرب لم يعرفوا مفهوم العروبة بمثلاً لمفهوم القومية الغربية القائمة على الصراع والحكومة بين القوميات المختلفة كذلك فالعرب لم يعرفوا تاريخاً خاصاً مستقلاً بهم ولا وجوداً منفصلاً عن التاريخ الإسلامي أو الوجود الإسلامي في تاريخهم كله إلا بعد أن اشتعلت دعوة الثورة الوطنية في الدولة العثمانية على أيدي الاتحاديين بهدف تزييق الوحدة الإسلامية الجامعة بين العرب والفكر والتي استهدفت إسقاط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة وتوزيع الأجزاء العربية بين الدول الاستعمارية وفتح الطريق للصيرنية إلى فلسطين .

(٧)

وهناك التيار الاقليمي والوطني وهو مكتابة تاريخ فطر من الأفطار منفصلاً عن التاريخ الإسلامي العام ، وقد حرص الاستعمار على خلق هذا اللون من كتابه التاريخ الذي يستهدف إعلاء شأن الأفطار التي فصلها الاستعمار عن بعضها البعض بعد أن كانت وحدة تامة . وقد جرى هذا الاتجاه في البلاد العربية بعد انتزاع الاستعمار لأجزاء من الدولة العثمانية كصر والحدودان وتونس والجزائر ثم بإنهاء الدولة العثمانية نفسها عام ١٩١٨ واحتلال سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق . أن علاق هذه التاريخ الاقليمي منفصلاً عن دائرة الوطن العربي وعن دائرة العالم الإسلامي ثم تقرر هذا الاتجاه بعد ظهور الدعوة إلى العروبة ، ظلت كثرأ من البلاد العربية تمل من شأن تاريخها الاقليمي في كلتا مرحلتيه السابقة للإسلام والتي جاءت في عصور الاحتلال كالفرونية والمصرية في مصر والفينيقية واللبنانية في لبنان والسريانية والسورية في الشام والبربرية والمغربية في المغرب . وقد جاءت هذه الدعوات من مناطق طبيعي هو مقاومة الاستعمار غير أن القوى التخريبية حاولت أن تجعل من هذه الدعوات محاولات لعزل الأفطار عن أصولها العربية والإسلامية وربطها بتاريخ سابق للإسلام وقد جرت محاولات للبحث عن أصول يمكن تحقيق هذا الخطط غير أن المحاولات كلها هجرت عن أن تجد ما يمكنها من دعم الارتباط بين العصر وبين ما قبل الإسلام ولذلك فقد سقطت هذه الدعوات ، غير أن بعض خصوم الإسلام ما زالوا يحددون هذه المحاولات دون جدوى .

وهكذا نجد أن مناهج الإرساليات وكتابات الاستشراق قد حرصت على أن تخرج للمسلمين والعرب من أصول تاريخهم ومن مفاهيمه وأن تزدري تراثهم ، ومن ثم تشكلت مدرسة التغريب من هؤلاء الذين حلوا ولواء الاستشراق ومناهجه إلى المدارس والكتليات والصحافة والمطبوعات الثقافية باللغة العربية ، تحمل الشبهات والشكوك والتي تطلعن في العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ومقدمة هؤلاء : جرجي زيدان وفيليب حتى وطه حسين ونبيه أمين فارس وقسطنطين زريق وقادة هؤلاء هم : جولدسيهر ومرجليوث ولامنس .

ولقد كان الاستشراق وجهات مختلفة في تسميم آبار التاريخ الإسلامي وفق الغايات التي تتصل بأهداف الاستعمار أو الشيوعية أو الصهيونية .

ولكل وجهة هدف معين يرمى إليه من إفساد مناهج دراسة التاريخ وإلقاء على الهدف الذي يستطيع أن تحققه أبحاد التاريخ الإسلامي في بعث الأمة الإسلامية وإحياءها ودفعها إلى التفكير في الأرض .

الباب الأول

تاريخ ما قبل الإسلام

من الخنيفية الإبراهيمية إلى الخنيفية المحمدية

- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) الخنيفية السمحاء . | (٧) الشك في التوراة . |
| (٢) الجاهلية . | (٨) إسماعيل والتوراة . |
| (٣) اليهودية . | (٩) العروبة وليست السامية . |
| (٤) اليهود في جزيرة العرب . | (١٠) مؤامرة السامية . |
| (٥) اليهود في المدينة . | (١١) الغرب والمسيحية . |
| (٦) مبررات النبوة . | |

الفصل الأول

الخنيفية السمحاء

يمكن تقسيم رسالة السماء إلى مرحلتين : المرحلة الأولى التي بدأها نبي الله نوح الذي دعا ربه ألف سنة إلا خمسين عاماً ووقع الطوفان في عصره . ومن بعده توالت رسالات السماء على النحو الذي أشار إليه القرآن (منهم من قصصنا عليك ومنهم لم نقصص عليك) وتبدأ المرحلة الثانية بنبي الله إبراهيم عليه السلام الذي وصف بأنه أبو الأنبياء وخليل الله والنبي الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، والرجل الذي كان أمة . والنبي الذي ابتلاه ربه بكلمات فأثمن لجعله للناس إماماً ، ومن عقبه خرج جميع الأنبياء والرسل من بعد حتى تمت رسالة السماء بخاتم النبيين : محمد ﷺ . وإبراهيم عليه السلام هو الذي حمل زوجته وإبنه إسماعيل إلى بلاد العرب فأسكنهم في مكة فلما شب إبراهيم رفعها معاً القواعد من الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قياماً للناس ، وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكنه كان خنيفاً مسلماً . وفي إبنه : إسماعيل وإسحاق ، انحصرت رسالة السماء ، بدأت في إسحاق حتى انتهت بالمسيح عيسى بن مريم ، ومن نوح إسماعيل جاء محمد ﷺ . ولا ريب أن الإسلام هو الدين الأقدم الذي أوحاه الله للبشرية كلها لحرفه رؤساء الأديان وأخرجوه من مضمونه فكان الله تبارك وتعالى يرسل المرسلين لتخليصه عما أدخل إليه وشرع الله لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك

وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما عدوهم إليه . الله يجنبى من يشاء ويهدى إليه من يئيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . ومن هنا فإن دراسة الاسلام يجب أن تبدأ بإبراهيم عليه السلام حيث تشكل هذه المرحلة كلها في إطار واحد (من إبراهيم إلى محمد) مروراً بإسرائيل وأنبياء بني إسرائيل وخاتمهم السيد المسيح الذي جاء بالإنجيل متممًا لرسالة موسى وقصدياً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد) ولا ريب أن الحنفية السجاء هي التي شكلت هذه الأمة للوحدة التي انتشرت منها رسالته ورسالة أبنائه والتي امتدت من العراق إلى مصر إلى المغرب ، من خلال مختلف الموجات التي قذفت بها الجزيرة العربية خلال أكثر من ثلاثة آلاف عام وآخرها المرحلة العربية الاسلامية . ويرى الدكتور إسحاق راجي الفاروق : أن رسالة إبراهيم وتوابعها قد شكلت تياراً ثقافياً ذا خصائص معينة نشأ من ذلك المادى البعيد وجعل يفصح محتواه شيئاً فشيئاً وخطوة خطوة على أيدي الآشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والعمانيين وغيرهم ، على أن هذا الافصح قد بلغ ذروته ثلاثاً تعاقبت ، كانت كل ذروة منها تزيد الرسالة جلاء حتى بلغ الأمر اكتماله وكاله عند الذروة الثالثة . أما الذروات الثلاث فهي اليهودية والمسيحية والاسلام : هذا التيار الثقافي الواحد المتصل الذي كان من أخص خصائصه هو أنه يحمل رسالة إلهية خلقية هو ما يطلق عليه الدكتور الفاروق لاسم العروبة ويطلق عليه لاسم « العروبة الحنيفية » وقام ما يمكن أن يسمى قيار الحنيفية التي تكاملت بالاسلام ورسالة محمد وذلك في مواجهة التيار المسموم الذي حمل لواءه المفكرون الذين يتحركون في إطار اليهودية والتلودية والصيونية ، فقد أطلقوا على هذا التيار الحنفي الإبراهيمي الاصيل اسم : « السامية » . يقول الدكتور الفاروق : خلال قرون طويلة قبل الاسلام لم ينقطع أهل هذه الرقعة من الأرض عن الاتصال بالالهية اتصالاً يباغون فيه الرسالة ولقد هيأتهم ظروف حياتهم للاضطلاع بهذه المهمة السجاءية .

هذه الظروف جعلت من أرضهم صحراء وجعلت لهم موقعهم المتوسط بين العالمين ، فقد جعلت بلادهم ممراً للرائح والغادي من الغزاة . وإذا كانت تلك العوامل الخارجية التي تهدم بالفناء شيئاً مفروضاً عليهم ولا قبل لهم بتغييره ، فإنهم لم يجدوا مناصاً من تغيير أنفسهم من باطن بحيث يجعلونها كفتنا لهذا الخطر الداهم . وابشوا ألوف السنين يحملون فقر بيئتهم في كبرياء لراهد الذي لا يلبث أن يناديه المتنادي إلى الحق حتى يهب للدهوة مستجيبا . ويرى الدكتور الفاروق أن المرحلة الأولى تبدأ بهجرة إبراهيم عليه السلام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وهي التي جاءت بداية خط طويل من النبوات التي بلغت ذروتها في العقيدة اليهودية والمرحلة اليهودية التي تمتد إلى مولد المسيح . والمرحلة الثانية هي مرحلة رسالة السيد المسيح . والمرحلة الثالثة هي رسالة محمد ﷺ : (الرسالة الخاتمة) .

وهكذا نجد أن الحنيفية السجاء هي منطلق الفكر الرباني في خلال هذه المرحلة كلها (١٧٥٠ قبل الميلاد + ٦٥٠ بعد الميلاد موعده رسالة محمد ﷺ) . أي أنه خلال ٢٤٠٠ سنة تقريباً عند مبعث محمد وإلى الآن ما يصل إلى ٢٨٠٠ سنة) من الحنيفية السجاء : دين إبراهيم وإسماعيل الطالقات الدهوتان التي جاء الاسلام وهما قائمان : اليهودية والمسيحية ، والذي وجد المسلمون أنفسهم منذ اليوم الأول في

جدل وحوار معهما (النصرانية في نهران واليهودية في المدينة) ومن ثم فتح باب الحديث عن مفهوم الإسلام الموجود اليهودي والنصراني ومدى صلاته برسالة الله الحقبة الأولى التي أنزلت على موسى وهيسى وما أصاب هذا المفهوم من انحراف في التفسير ، وما يتصل بموقف المسلمين من الغرب الذي عبرت إليه المسيحية وأقامت ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية ولأوروبا كلها من بعد وإلى اليوم . من هنا نجد منطلق الخلاف في التفسيرات والشبهات التي تثار حول الإسلام أو محاولة القول بأن بينه وبين اليهودية والمسيحية من صلات على النحو الذي تحدث عنه المستشرقون اليهود والنصارى . وفي مقدمة ذلك ما يتصل بإنكار الاستفراق الغربي (المسيحي واليهودي) هجرة إبراهيم وإسماعيل إلى الجزيرة العربية وكون إبراهيم وإسماعيل رسولين مبلّغين إلى العرب وما يتصل بهذا من إنكار التوراة لرحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية ، ولارباب أن في ذلك الإنكار مساوقة مع هدف التوراة الذي حملت لواء التلويدي والصهيوية من بعد وهو إنكار حق العرب في إمامة إبراهيم وصهرها في ابنه إسحق وخده أبى اليهود وذلك بمحاولة مضلة تحت اسم « شعب الله المختار » . يقول الكاتبان الفرنسيان : (جاك لرومال ومارى لوروا) تطبيقاً على نص التوراة الذي يقول : « إن الرب أوحى إلى إبراهيم بالذهاب إلى فلسطين قائلا له : لنسلك أعلى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير : نهر الفرات » .

يقول الكاتبان : إن هذه الآية لو صحت فإن هذا الوعد ينصب على ابن إبراهيم لإسماعيل أبى العرب يقول الدكتور إسماعيل راجى الفاروقى : إن التوراة صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد النصرانية ، أما القرآن الكريم فقد قدمها في قالب يؤكد (الخيفية) ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين ، فالتوراة يرما ما قدمت الحقائق من وجهة نظر الخيفية إلا أنها غيبت نفسها على مرور الزمن ؛ وهذا دليل على أن الخيفية أو الخهر التاريخي كما قاله القرآن : هو الحق فوجود الخيفية في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم . « إن النصرانية تمثل حزبا أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات واتباع نظام أخلاقي يقضى بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في أى قبيلة أو شعب أو أى أمة أخرى ، أما الخيفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كدوى رسالة يحملونها إلى البشر أجمع ويحققونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا وبإهداء الذين ينصرون معهم عن طريق المصاهرة والمواخاة انتمهم وثقافتهم ورسالتهم . لذلك جاءت التوراة بعد بلورتها النصرانية تقول بأن إبراهيم هاجر لأن يهره أمره بذلك ، ولما كنا نتمتع السكوت على أمرهم - وه فهو تقول أنه أمر تلقائى عرفى أى لا سبب له فاقه في نظرها فضله لأنه هو ، ولقد فضل ذريته ، بل قطع عهداً (لاميثاقا) والفرق بين العهد والميثاق أن الأول ذو اتجاه واحد أى يلام وجهة نظر واحدة (على نفسه بتفضيلها مهما حصل إلى الأبد حتى تمثلته كإله هذا العنصر من دون الناس . أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله له الجميع لا قدرة وقهر أبى حبا ورحمة وجاء يؤكد أن هجرة إبراهيم لسبب وجهيه ، هو التوحيد وأن الله أعطى له ميثاقا بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات والأرض وأنه تعالى سيماقبه أشد العقاب بل سيستبدله وقومه إذا لم يحققوا هذه الأمانة (مجلة كلية

الأدب م ١٩٥٩/٢١) . ويقول : كانت التوراة كتاباً إلهياً عزيزاً إلا أن اليهود حرقوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلهية ومراميها الأخلاقية العالية فجعلوها منها كتاباً تمصيباً عنصرياً حتى اسم الإله بدل فبدل أن يدعى باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية : (إله إبراهيم ويعقوب وإسرائيل) فحسب ، ادخل (عزرا) الحقد والتشفي والكراهية والانتقام فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب بل ويخلق القصص اختلافاً لتجديد العنصرية اليهودية بها ، ليس الله بل عزرا هو القائل : (إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتخربون جميع مرتفعاتهم ، تملكون الأرض وتسكنون فيها لأنني أعطيتكم الأرض لكي تملكوها ، تهزمون مذابحهم وتقطعون سوارتهم لأنك أنت شعب مقدس) . ويقول الدكتور الفاروقى : إن عزرا بكل حق هو مؤسس الدين اليهودى كما نعرفه الآن ولا عجب أن اعقبه اليهود بإنبا لله ، وهو الذى اكتملت التوراة بعمله مسحة الوثيقة لآله بعمله هذا بعث الحوية اليهودية .

وقال : إن عدم إتمام عملية التحريف من قبل عزرا هو الذى جعل العلماء يستكشفون عزرا ، فالحنيفية لا تزال باقية فى التوراة لها آثارها وبالرغم من التحريف العزارى الذى جاء مضاداً لها .

الفصل الثانى

الجاهلية

يقول عمر رضى الله عنه : (إنما ينفق الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية) فعرفة التاريخ السابق للإسلام ضرورة لفهم الإسلام نفسه والإسلام هو الذى أطلق على هذا التاريخ تعبير (الجاهلية) وهى جاهلية قريية وجاهلية قديمة أو أولى ، ولما كان الإسلام هو خاتم رسالات السماء فقد كان من الضرورى أن يتعرف أممه على رسالة السماء منذ بدأت لأنهم مكلفون بالإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب التى سبقت والتى هى فى مجموعها رسالة واحدة هى (الإسلام) والدعوة إلى توحيد الله وإن اختلفت باختلاف البيئات والعصور ، فقد أرسل الله تبارك وتعالى رسله وأنبيائه للبشرية منذ نوح إلى محمد ﷺ وقد كانت هذه الرسالات إلى كل أمة برسول منها إلى أن وصلت البشرية إلى مرحلة الرشد الفكري الذى أهلها لأن تتلقى الرسالة العالمية الخاتمة للإنسانية كلها وهى الرسالة التى حملها نبيها محمد ﷺ بكتابه الخالد المعجز (القرآن) . وحين جاء القرآن كانت البشرية تعرف أدياناً منوثة انخرقت عن طريقها وأدياناً بشرية ، ومن الأولى اليهودية والمسيحية ومن الأخرى الديانات المجوسية وغيرها وكانت هناك الوثنية التى ليست منها ولكنها انحرافت ، وكانت تتمثل فى صورة ضخمه فى بلاد اليونان ومن بلاد العرب وفى قلب جزيرتهم جاء إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل يحملون لواء الحنيفية

السمحاء حيث أقاما القواعد من الكعبة البيت الحرام ونشأ في قلب جزيرة العرب في أم القرى ومن حولها وحول الكعبة دين الحنيفية السمحاء الذي امتد في اسماعيل وأبنائه من بعد والذي ظل قائما في نفوس الكثر حتى جاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة الأديان ومتصلة الأسباب بالهدوة الإبراهيمية .

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) . ومن ثم فإن تراث النبوة التي عرفتها هذه المنطقة العربية كلها بدأ بإبراهيم عليه السلام وختم بمحمد عليه الصلاة والسلام وفيما بينهما كانت النبوة والرسالة قد امتدت في بيت إبراهيم . امتدت في ولديه اسماعيل ونسحق ، ثم امتدت في فرع اسحق في يعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداد وسليمان وجاء عيسى عليه السلام ختاماً للنبوات في بني إسرائيل ثم جاء محمد ﷺ من العرب ومن فرع اسماعيل ختاماً للنبوة والرسالة جميعاً . ولا ريب أن بني إسرائيل قد عجزوا عن حمل رسالة الله تبارك وتعالى على وجهها الصحيح وأنهم قد حرفوا كتابية التوراة والانجيل فاستحقوا أن تنتزع منهم الرسالة إلى من هم أقدر على حملها .

(٢) الوثنية العربية

انحرف العرب بعد رسالة التوحيد الحنيفية التي قام عليها إبراهيم واسماعيل إلى الوثنية والشرك فالوثنية العربية ليست وثنية حقيقة الجذور كالوثنية اليونانية ولكنها كانت أميل إلى الشرك فقد كان العرب يتخذون الأصنام على أنها وسائل وشفاعات تقربهم إلى الله . ويقول المؤرخون أن الذي سنع بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يطمئن من مكة طاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تمطيا للحرم وصباية بمكة حينما حلوا وضعو وطافوا به طوافهم بالكعبة وجرور الزمن نسي الناس الملة في تقديس الحجارة على أنها أثر الكعبة وذكرى لها فانتقل التقديس للحجر نفسه وتطور الحجر إلى صنم ولكن بقيت فئة تتطلع إلى دين التوحيد : دين إبراهيم عرفت تلك الفئة بالاحناف ودينهم بالحنيفية وكانوا قد اعتزلوا الأوثان وعافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على النصب لعهد الله وعرف من الاحناف زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل ولم تمكن الحنيفية امتداداً أو تقليداً لليهودية أو النصرانية بل لم يكن لها بها صلة أو وشيجة (وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين) . وكانت الوثنية تشويهاً لدين إبراهيم وتحريف له وخروج عليه وليست الوثنية في حقيقتها ديناً ولكنها انحرفاً عن الدين المنزل . كذلك فقد عرفت الجزيرة العربية اليهودية والمسيحية . وكذلك عرف العرب عبادة الكواكب وفي هذه الفترة أصاب فريضة الحج هذا الانحراف الوثني فكانوا يذبجون الذبائح لا يطعموها للفقراء ولكن ليأطعموا بها جدران الكعبة . وكانت صلاتهم عند البيت د مكاء ، كما وصفها القرآن . واتخذت قبائل العرب في الجزيرة العربية عدداً من الأوثان كاللات والعزى ومناة والشمس والقمر والشمري والنجم (الثريا) ويزد وسواع ونسر ، ولم يكونوا يؤمنون بها من دون الله بل كانوا يشركونها مع الله تبارك وتعالى ويتخذونها وسطاء وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى : (ألا الله الدين

الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما مبدم إلا ليقربونا إلى الله زافى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) . وقد واجه القرآن ودعوة الإسلام ظاهرة الشرك هذه مواجهة صريحة بالإضافة إلى مواجهة كل أسباب الوثنية وأنواعها من عبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر وعرض الإسلام لفساد كل الانحرافات التي عرفت في الأديان قبل الإسلام وخاصة ما يتصل باليهودية والمسيحية ، وهاجم الإسلام الوثنية وتعدد الآلهة ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد . وحين دخل الإسلام مكة فاتحاً كانت السكينة التي بنيت لعبادة الله الواحد الأحد تزعج بالأصنام إذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنماً غير الأصنام الأخرى التي كانت في جهات متفرقة . وكانت عقائد الوثنيين والمشركين من أهل مكة ممزقة منهارة فقد عبدوا الكواكب وزعموا أن الملائكة بنات الله ، وقال صاعد في طبقات الأمم أن حدير كانت تعبد الشمس وكفانة القمر وتميم الدبران ولحم وجذام المشتري وطى سهيلا وقيس الشعرى العبور وأسد عطار .

الفصل الثالث

(٣)

اليهودية

لم تدم للمملكة اليهودية سوى ٧٨ سنة انقسمت بعدها إلى شطرين متنازعين تحطم الأول عام ٧٢٢ ق . م على يد الآشوريين وتحطم الثاني ٥٨٦ ق . م على يد البابليين وفي منفي اليهود في بابل بين ٥٨٦ ، ٥٣٨ ق . م تفجرت العنصرية عن الحقد والكراهية للعالم وانبتت جذور الصهيونية بمعنى الانطباع السياسي والديني إلى العودة إلى أرض الميعاد وعاد اليهود مرة أخرى إلى فلسطين . ثم كانت ثورتهم على الإمبراطورية الرومانية التي قضت على وجودهم وأبادت جوهرهم عام ٧٠ م ثم حرم عليهم الدخول إلى القدس وتفرق أكثر الباقين من اليهود في الأرض وجاء جماعة منهم إلى بلاد العرب لاجئين ، وكثروا في منطقة تمتد من يثرب إلى خيبر إلى تيماء ، وكلما وقع الصراع بين المذاهب المختلفة في أرض فلسطين بعد المسيحية كانت جزيرة العرب هي المساوى لأولئك المضطهدين لأن شبه الجزيرة لم تكن خاضعة للروم . إن التحريف الذي قام به اليهود للتوراة قد نقلها من المفهوم الرباني الذي يصل مراحل دعوة السماء من لدن نوح وفي إطار الحنيفية السمحة التي جاء بها إبراهيم حتى تتم رسالتها ، إلى مفهوم العنصرية الغالبة التي تفرض دسيادة عنصر اليهود تحت اسم د شمع الله المختار ، وهذا هو التحول الخطير الذي نقل دين الله المنزل بالحنيفية السمحاء الممتدة من إبراهيم وإسماعيل وإسحق في أبنائهما إلى تلك العنصرية التي تجعل من الله تبارك وتعالى إلهاً خاصاً لليهود وتجعل من رسالة الرحمة إلى الناس ، عملاً مقصوداً على قوم وحدهم دون البشر جميعاً ، بل وتجعل لهم الحق في السيطرة على الأمم المختلفة واستغلالها رسلها ما تملك تحت اسم الجويميم .

ويرى الباحثون أن هذا التحول من الحنيفية إلى النصرانية قد تم في فترات سابقة للسبي البابلي ولكنهم يركزون على أن التحريف في التوراة نفسها وقع أبان السبي البابلي ؛ ويؤكدون — كما أشار إسماعيل راجي الفارقي — أن التوراة التي بين أيدينا هي الكتاب الذي هجمه هوردا حوالي عام ٤٣٥ قبل الميلاد وقد أحصى الباحثون مجموعة من الشكوك في مقدمتها تغيير اسم الإله ومنها ما أدخله الكهنة إلى التوراة ولا سيما هوردا ومنها الطقوس التعبدية التي لم تكن من أصل الديانة . وأبرز الانحرافات هي مسألة إبراهيم عليه السلام ووعد الله له ولغيرته فقد بنى اليهود نظرية تفوقهم على البشر وانفرادهم عن الناس وأدخلتهم على جميع المخلوقات في نظر الخالق على هذا التصور الباطل بأن الاختيار لم يكن للخليق فقط بل لأبنائه وسلالته وهم يملنون أن هذا الاختيار لم يكن أخلاقيا وليس له علة .

وهذا ما كشفه القرآن الكريم عن زيفه في قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدى الظالمين ، فالرسالة وجهت إلى بني إسرائيل على طريق الحنيفية السمحة فإن أقاموا عليها كانوا من أهل الوعد الإبراهيمي وإن عجزوا عنها وتخلفوا فقد سقطوا ونقل الحق تبارك وتعالى الرسالة إلى غيرهم ، إلى الفرع الآخر . فرع إسماعيل وفي هذا يقول القرآن : (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ، للنساء (٥٠ : ٥٤) وهكذا نجد أن الانحراف الذي وقع فيه بني إسرائيل بعد أن أعطاهم الله الملك أكثر من ألف سنة ما بين (إسرائيل وعيسى) فقد أثبتوا عجزهم عن حمل الرسالة على النحو الذي رسمه الحق تبارك وتعالى وانحرفوا عن الحنيفية إلى النصرانية ولذلك نقل الله الملك من فرع إسحق إلى فرع إسماعيل . ولقد كان اليهود يعرفون صفة النبي المنتظر ، وكانوا يسمون به في دعايمهم ، فلما جاءت الرسالة إلى محمد بن عبد الله عارضوه لأنه ليس من فرع إسحق وخاصموه خصومة شديدة . ولاريب أن هذه القضية هي أخطر قضايا العصر الذي نعيش فيه فإن الصهيونية العالمية تحمل في دعواها لواء هذا الوعد على النحو الذي زيفه اليهود في التوراة وتابعوه في التلمود وفي بروتوكولات صهيون وحين جعلوه قاصرا على فرع إسحق وأولاد إسرائيل . وحرروا منه فرع إسماعيل وإسماعيل هو الابن الأكبر لاسيدنا إبراهيم . وأسكروا رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة وبناء الكعبة من أجل تزييف هذا الوعد . وتلك القضية تتمثل اليوم في تحد خطير : حيث استطاع اليهود تزييف دوائر المعارف العالمية وكان من عملهم الخطير فرض العهد القديم على المسيحيين الغربيين وربطه بالإنجيل ، العهد الجديد ، واستطاعوا السيطرة على مناهج الدراسة في أكثر بلاد العالم الغربي وفي الجامعات ومناهج الدين وفرض هذا الارتباط بين التوراة التي كتبها الأحرار وضمها إلى الإنجيل من أجل الإقناع بهذا الوعد وقد نتج عن هذا أن اتباع البروتستانتية يتابعون الصهيونية في هذا المفهوم كذلك فنحن نجد هنا في أفق الفكر الإسلامي تلك الدهوات التي انتشرت منذ الثلاثينات حين أطلق بعض أتباع التغريب صيحة التشكيك في وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من وجودهما في التوراة والقرآن . وكانت هذه علامة مبكرة على وجهة الدهوة الصهيونية نحو تزييف قضية إبراهيم وإسماعيل .

اليهود في جزيرة العرب

كذلك فقد توارثت في أفق الفكر الإسلامي شبهات كثيرة تحاول أن تجعل لليهود في جزيرة العرب دور في الأدب أو الاجتماع . فقد ظهرت في الثلاثينات كتب ودراسات حول هذا الموضوع كتبها طه حسين وإسرائيل وانغسون وغيرهما في محاولة لخلق فضل وهمي لليهود واليهودية على اللغة العربية وآدابها لإبان إقامتهم في الجزيرة العربية قبل الإسلام مندمجهم إليها هاريين من وجه الرومان في فلسطين سنة ٧٠ وما بعدها . وكان هذا العمل يجرى في إطار الدعاية الصهيونية التي كانت تريد أن تضع الشرقين بما أقدموا على تسجيله في دوائر المعارف وكتب التاريخ الغربي بما يبرر دخولهم إلى فلسطين . والواقع أن التاريخ في أحداثه المتصلة منذ بزغ فجر الضمير تؤكد أن اليهود كانوا حالة على حضارات مصر وبابل وأشور ولما عاد اليهود من السبي نقلوا معهم عن العرب البابليين الشيء الكثير مما نجده في كتابهم المقدس وكل أورده من الآداب إنما جمعه من الأساطير التي كانت سائدة في تلك العصور أما الحنيضة فباعتبارها إطار النبوات فقد حملت فكراً ونشراً وأدبا وفلسفة وحكماً وأمثالا عرفتها البيئة العربية الممتدة من بين النهرين إلى الشام فصر . يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجود إلى حياة أفضل مكنته من التحكم في مصائر السكون فأطلق العرب الأخطار من عقابها وحررها من جود رجال المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك للتدود وتعالجه كما انكشف سلطان الكنيسة وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الديني وبعث النهضة العلمية . ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادؤهم الإنسانية التي أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملاً من عوامل التفرقة والتعيز العنصري والخط من القيم الإنسانية ، أن العرب يؤمنون سواء في الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشري . فالدين الإسلامي الذي ثبت أسس هذه المبادئ يقرر في صراحة ووضوح أنه ليس لعرب على عجمي فضل إلا بالقوى ، ولذلك نجح العرب في تحقيق ما صر عنه اليوناني والفلسفة اليونانية أهى مذهب الإنسانية . إن هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب ولم تعرفه أوروبا إلا في العصور الوسطى وعلى يد العرب وبعد أن تملذت أوروبا على العرب في العصر الإسلامي حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم ندانهم فيها للشعوب الأخرى ، كما شرع الإسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرتهم من الظلمات ، ويقرر الدكتور محمد فؤاد حسين أن نفراً كثيراً من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهوداً يؤمنون بأن العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود ، والتاريخ اليهودي يحددنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين أو فروعاً من اضطهاد اليونان والرومان فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وحلاً ، فهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل بشرب وخيبر ووادي القرى وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون

التي مرت بهم زوال دوائهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المؤلفين لدى اليهودي أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والسكندانية واليونانية لحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية . فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة فالعربي معجب بلغته معنى بها نثراً وشعراً حريصاً على المحافظة عليها فصيحة نقية . أخذ اليهود عن جهلهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو فينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرم في لغة هي لغة أهل الحجاز ، نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً ، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب اليهود لفلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح في استطاعتهم التحرير في اللغة العربية ، ولم يقف أثر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله ، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين وأبان قيام دوائهم وحياتهم لغتهم العبرية المقدسة وقد حبيت هذه الظاهرة إلى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقاً صحيحاً . فدفنهم هذا إلى التفكير في أعجام أسفارهم وإعرايها مقلدين العرب وثاقبين عنهم ، وتأثر اليهود بالعرب أيضاً فأوجدوا ما يعرف في الأدب العربي بالشعر العبري الحديث أو (البيوتيم) ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر حيث استشهد كيانهم بالشعر العربي وأخذوا ينسجون على منواله . كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع إلى اليهود ولغتهم . فقد وضع يهوذا ابن تبون مثلاً كتابه المشهور (حكم العرب) وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيراً من أمهات الكتب العربية سواء في الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية وليس هذا بمستبعد ، فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة الممول (الجيتو) فقد فتحوا أمام اليهود دور العلم على مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم ، لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء أو أنسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوروبيين ما انتهت إليه معرفتهم ، وهكذا نجد زيف تلك الدعاوى التي حاول الاستشراق اليهودي وأتباعه أمثال طه حسين وإسرائيل ولندسون وغيرهما شطبها في أفق التاريخ الإسلامي الحديث من خلق دور وهمي لليهود في جزيرة العرب ، وقد فصلنا هذا في كتابنا (عن طه حسين في ضوء الإسلام) .

الفصل الخامس

(٥)

اليهود في المدينة

هدمت (القدس) التي يطلق عليها إيلياء ، أو أورشليم مرتين من أجل مؤامرات اليهود : ٥٩٧
قدم حيث سحقهم بنو خنصور وساق من بقي منهم إلى السبي البابلي الذي لم يستمر أكثر من خمسة وأربعين
عاماً سمح بعده كورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عام ٥٨٣ ، ثم كانت الضربة الثانية الماحقة عام ٧٠ م
على يد تيطس الروماني ، ومنها نشر اليهود إلى مختلف أطراف الأرض وإلى الجزيرة العربية ، وهذه
هي الهجرة الكبرى لليهود ، كما تصورها كتب التاريخ في القرن الأول الميلادي بعد تشكيل
الرومان بهم جزاء مؤامراتهم وانتقامهم ، وقد قصد إلى أرض الجزيرة بنو النضير وبنو قريظة حيث
ساروا إلى الجنوب في اتجاه يثرب ، فلما بلغوا موضعاً هناك على ملتقى طرق القوافل أقاموا فيه . وتؤكد
أبحاث التأريخ ودراسات العالمين السكجيين محمد غره دروزه (تاريخ الجنس العربي) والدكتور جواد
على (تاريخ العرب قبل الإسلام) فساد النظرية اليهودية المطروحة التي تقول إن يهود الحجاز من قبائل
عربية تهودت وتؤكد الدلائل أن يهود الجزيرة العربية من بني إسرائيل . وخطاب القرآن الكريم لم
يدل على أنهم من نسل أولئك الآباء الذين آذوا أنبياء الله موسى وداود وعيسى ، وقتلوا يحيى وغيره
من الرسل ، وعندما نزلت الرسالة الإسلامية على محمد ﷺ كان اليهود يهودون في أحياء وقرى خاصة
بهم وكانت لهم لغتهم العبرية التي يتخاطبون بها فيما بينهم ولهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم ، ولم يكن
في الحجاز في ذلك الوقت قبائل عربية تهودة ، وإن كان لا يبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب
دخلوا في دين اليهودية . وكانت معظم معاملات اليهود في المناطق التي أقاموا فيها سواء بالعالية بوادي
بطحان أو في منطقة مهزور على بعد بضعة أميال من المدينة تقوم على المراهنات ومعاطى الربا ، ولهم
سيطرة تامة على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها ، ولهم تحكمهم في الأسواق التجارية ، وهذا
ما حطمه الوجود الإسلامي في المدينة بعد الهجرة ، وكان واحداً من عوامل تأثرهم على الإسلام . ولا
رغب أن اختيار محمد بن عبد الله للنبوّة والرسالة الخاتمة كان علامة على الطريق الذي أعده الله للبشرية
ارتباطاً بالحنيفية الإبراهيمية وتحرراً من الانحراف الذي أحدثه اليهود ثم النصارى برسالة التوحيد الحق
وكان يعني هذا من الله بعد أن امتحن بني إسرائيل ألف سنة بالنبوّة والملك وأنزل فيهم التوراة والوحي
والإنجيل ، قد نقل منهم الأمانة إلى فرع لإسماعيل وإلى العرب وأورثهم ذلك الميراث الذي جاءت به
النبيات وجعلهم المؤمنون بكل ما أرسل الله من نبي وما أنزل من كتاب : (قولوا آمنا بما أنزل إلينا
وما أنزل إلى إبراهيم) الآية .

وكان هذا التحول من بني إسرائيل إلى فرع إسماعيل تأكيذاً للحقيقة الإبراهيمية وإحياء لها ودعماً وتأكيداً لتحرير اليهودى الذى ركزت عليه توراها بالعنصرية فى اصطفاء يهود لإبراهيم اصطفاءً بدون سبب وجعل هذا الاصطفاء كيثاق أو عقد ذى اتجاه واحد أسمته الميعاد . ولقد كشف القرآن من سيده إبراهيم جواباً عديدة لم تعرفها المكتبة القديمة ومنها توحيد إبراهيم وتطعيمه للأوثان التى كان يقدسها أبوه وأهله ، حيث لم يذكر فى أى أثر قبل القرآن الكريم ، فالقرآن هو مصدرها الأول والآخر ، ومن هنا فقد انتصرت بالإسلام الحنيفية على العنصرية . ومع هذا الموقف العنيد الخصم الذى وقفه اليهود من النبى بعد الهجرة ، ومن الإسلام كان موقف الرسول ﷺ والإسلام منهم كريماً غاية الكرم فقد عقد الرسول ﷺ معهم أمناً وأحسن معاملتهم وقصد إليهم أكثر من مرة يدعوهم إلى الإسلام . وفى البخارى عن أبى هريرة : بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال اطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدارس فقام النبى ﷺ فنناداهم : يا معشر يهود : أسلموا تسلموا فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم . فقال : ذلك أريد ثم قالها الثانية فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ثم قال فى الثالثة : اعلوا أن الأرض لله ورسوله ، وأن أريد أن أجلبكم فن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله . ولقد قامت مجادلات دنيئة عديدة بين اليهود والنبى قصدوا بها إخراجهم ، وقد أجاب الرسول ﷺ على أسئلتهم ومجادلاتهم بما يدحض حججهم . ثم انضم اليهود إلى أعداء المسلمين وكانت لهم مواقف غاية فى التأمر بالمسلمين فأجلاهم الرسول عن المدينة ، وقد استمر الرسول ﷺ فى معاملته الحسنة لليهود : ثم أجلى عمر نصارى العرب عن نجران ويهود الحجاز من الجزيرة العربية تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ . روى أبو عبيدة رضى الله عنه أن آخر كلام قاله رسول الله ﷺ هو وصيته بإخراج يهود الحجاز ونصارى نجران الذين من جزيرة العرب ، وقد أحسن عمر إخراجهم واختار لهم أرضاً جديدة بين الهام والعراق . يقول الدكتور محمد فؤاد حسنين : إن التاريخ اليهودى يتحدث عن إحسان الإسلام لمعاملة اليهود ، وحتى أولئك الذين اضطروا للنبى والخلفاء الراشدين إلى إجلائهم من قلب الجزيرة العربية تأمينا لرسالة الإسلام واتباعهم . أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام على كرم الله وجهه الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات بما دفع المؤرخ اليهودى الشهير (جريتر) إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم فى كتابه (تاريخ اليهود) فقال : إن تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابع للنبوة المحمدية وأبان حياة الرسول صفحة ناصعة من التاريخ اليهودى وقال : لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين وهوض اليهود المطرودين - وهذه هى العدالة - أرضاً أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى ٦٥٠ م . حقاً رب ضارة نافعة ، إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها .

الفصل السادس

(٦)

ميراث النبوة

استعاد الروم بيت المقدس عام ٦٢٩ م من الفرس ودخل هرقل القدس وفي أبان ذلك حمل إليه دحية الكلبي ، كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام : (أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين) وكان النبي ﷺ قد أورث ميراث النبوة كلها : تحقيقاً لانطلاقة الإسلام بأمة العرب إلى خير أمة أخرجت للناس واستكمالاً لرسالات الأنبياء جميعاً . ففي ٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة وبضعة أشهر أسرى بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس ، حيث صلى بالأنبياء إماماً وكان ذلك مقدمة معراجه عليه الصلاة والسلام إلى السماء إلى سدرة المنتهى حيث تلقى أمر الله تبارك وتعالى بفريضة الصلاة ، وكان النبي ﷺ قد صلى بعد هجرته إلى المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وما زال بيت المقدس عند المسلمين هو القبلة الأولى ، ولما كان مفهوم الإسلام هو الترابط الكامل بين رسل الله وكتبه من نوح إلى محمد ﷺ ، ولما كان الإسلام كما جاء به محمد ﷺ هو الإسلام الذي جاء به كل نبي وكان محمد هو دعوة إبراهيم وسيد ولد إسماعيل فهو صاحب الميراث الحقيقي لإمامة إبراهيم عليه السلام . (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) . وهكذا عاد الإسلام بالدين الحق إلى صفاء الأول وإلى طريقته الحق الذي حرفته اليهودية والمسيحية فعزلت عن ميراث إبراهيم (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ولم تمض إلا سنوات قليلة من هجرة رسول الله إلى المدينة حتى فتح المسلمون مدينة القدس عام ١٥ هجرية ٦٣٦ م وتسلمها عمر بن الخطاب من البطريرك صفرونيوس وكتب العهدة العمرية لأهلها النصاري من أهل إيلياء ، وكان أخطر نصوصها التي أصر النصاري على إدراجها (النص القائل : ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود) . وترى كثير من المصادر أن (القدس) هي هدف الرسول في أسرته : (سبحانه الذي أمرى بعبدته إيليا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) . وما كانت غزوة حنين وغزوة خيبر وغزوة أسامة بن زيد التي أنجزها من آياتنا إنه هو السميع البصير . وما كانت غزوة حنين وغزوة خيبر وغزوة أسامة بن زيد التي كان عليها مفروساً أمام المسجد قبل التحاق رسول الله بالرفيق الأعلى إلا علامات على الطريق الذي سلكه الفتح الإسلامي ، فإنه لم تمض بعد ذلك إلا القليل حتى تدفقت جيوش المسلمين إلى الفرات ومن ثم إلى فلسطين وهزمت جيوش القيصر هند (أجنادين) في يوليو ٦٣٤ م ١٣ هجرية واضطر القائد البيزنطي (ارطوبون) إلى الحرب إلى القدس ، وجاءت معركة اليرموك (أغسطس ٦٣٦ م) ١٥ هجرية فانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً وسقطت كل المدن الحصينة واحدة بعد أخرى في أيدي المسلمين ثم سلبت (بيت المقدس) إلى المسلمين صلحاً شريطة أن يحضر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ليأسرها . قال الطبري :

فتحت لإبلياء وأرضها على يد عمر في ربيع الآخر سنة ستة عشر . ومنذ تسلم المسلمون بيت المقدس وهو لا يزال في أيديهم إلا في فترات قليلة : المرة الأولى أبان الحروب الصليبية والمرة الأخرى بعد احتلال إسرائيل للقدس عام ١٩٦٧ .

الفصل السابع

(١)

الشك في التوراة

إن المحاولة اليهودية التلمودية التي استهدفت تزيف التوراة وتزييف وعد الله لإبراهيم وإلى اعتمدت عليها الصهيونية الحديثة في دعواها بأن لها في أرض فلسطين حقاً قد كشف البحث العلمي عن فسادها من ناحيتين ، من ناحية تحايل النص التوراتي نفسه ، ومن ناحية نتائج الكشوف الأثرية فقد أثبت التحايل العلمي أن التوراة المعاصرة قد كتبها الأحبار وليست هي كتاب الله المنزل من السماء . وأيدت الكشوف الأثرية ما أورده القرآن وكذبت ما ذهبت إليه التوراة وخاصة فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل ورحلتهم إلى الجزيرة العربية ونبوة إسماعيل وعشرات من هذه القضايا التي زيفتها التوراة والتلمود . يقول الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي : إن هناك مجموعة من العلماء (فون جران ، كوهن ، ويلهاوزن) في أواخر القرن الماضي دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القرآن الكريم بحثاً وراء ما يلقى الخوف على (العهد القديم) الذي كان يدرسون به بقصد تفهمه تفهماً عالياً نقدياً تحليلاً ، وفي دراستهم للقرن الكريم تشبهوا بالمبدأ القرآني القائل بأن بني إسرائيل تلاعبوا في كتابهم المقدس ولأنهم حرموه ماذفين منه ما حذفوا ومضيفين إليه ما أضافوا لطمع غير خلقي في نفوسهم ، فزعزع هذا المبدأ ما نشأوا عليه من إيمان بأن التوراة هي نفسها في كل حرف من حروفها من صنع الله وأخذوا عندئذ بدلاً من الحيرة في تفسير النزعات المختلفة التي تنم عنها تصورات التوراة يبينون مختلف الأيدي وراء هذه النصوص فراحوا يبحثون في أصولها وعن الأحوال التاريخية التي أدخلت على المواد في التوراة تحت ظروفها فكانت علوم التوراة النقدية التي عرفها القرن الأخير .

هذه هي بداية نقد الكتاب المقدس وعنها تفرعت العلوم النقدية جميعاً ونشأ علم الآثار القديمة ونشأ علم التاريخ القديم ومنه ويلهاوزن وعلماء العهد القديم يقيمون النظرية تلو النظرية والتفسير التوراتي تلو التفسير ويهدمون ما حققه أسلافهم من قبل تبعاً لمكتشفات الآثار التي أخذت تتزايد بشكل عظيم سنة بعد سنة وتماشياً مع ما كانت تجلو عنه هذه المكتشفات من حقائق تاريخية . ومع أن المبدأ القرآني بقي وأكده مبدأ هذه العلوم كلها فهي جميعاً بكل ما حققه من تقدم للفكر الإنساني تعتبر حواشي علمتها المعقولة الغربية والهاب العلمي الذي لا يعرف الكلل على القرآن الكريم حيث لم يتقدم أحد من الدارسين المسلمين لدراستها حتى الآن . ويصل الدكتور الفاروقي إلى حقيقة أصبحت واضحة الآن في بيئة الغرب

وهي أن الإيمان بأصل التوراة الإلهي قد زرع والنسب ، وبهذا أكمل القرآن الثورة العقلية التي أشعلها الإسلام على اللاعقلية في القرون الوسطى ، لم يجر علماء العهد القديم اتخاذ نصوص التوراة كأنها محقة فيما تقوله من الأنبياء إلا بالإثبات العلمي ، وهنا جاء علم الآثار يقدم دلائله فأثار فلسطين ورأس شمخ وتل الحريري في دارالشمخ ثم آثار العمارة وغيرها في مصر وآثار بابل وأشور في شمالي العراق وجنوبه كل هذه لها علاقة رئيسية بالتوراة والتاريخ اليهودي القديم .

(٢)

إبراهيم والتوراة

أخذ العلماء على التوراة التي نزلت على موسى أنها تروى تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح بدعوته ، ومعنى هذا أن التوراة الموجودة في أيدي الناس ليست هي توراة السماء ، وتبين أن من التوراة ما كتب على أيام المملكة الإسرائيلية ، ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، ومن هنا جاء ما فيها من تعارض . وما يؤخذ على التوراة أنها لم تأت بذكر لذهاب إبراهيم إلى الحجاز ، وسكت المصادر اليهودية سكوتاً متعمداً — كما يقول عبد الحميد السحار — عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، ثم هناك سكوت متعمد عن كل النهضة الدينية في جزيرة العرب ، لم تذكر شيئاً عن هود أو صالح لأنهما من أنبياء العرب ، كأنما لم يكن عاد وثمود هناك على مقربة من فلسطين . ولقد حدد بطليموس موقع عاد وثمود وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وأثبت فهاب إبراهيم إلى مكة وإقامة قواعد البيت يقول الاستاذ السحار: لعل ذلك يرجع إلى أن اليهود كانوا يحسبون منافسة دينية مع العرب ، وكانوا ينعون عليهم أنه صار لهم (بيت محرم) منذ إبراهيم بينما لم يصبح لهم هيكل في بيت المقدس إلا في أيام سليمان بن داود . كذلك فقد تعمد كهان اليهود أن يهزجوا أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه فراحوا يهزجون أكلوبة أن بنى إسرائيل هم شعب الله المختار ، ويؤكدون على ذلك في كتابهم المقدس . ولو أن إبراهيم لم يقيم ببناء بيت الله بمكة لما كانت له رسالته ، فما ورد عنه في العهد القديم لا يجهله من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل ، إنه رجل يتجول في مصر وسورية ليست له دعوة محددة كل هذه أن يحافظ على حياته وإن ضحي بشرفه . وفي العهد القديم ينسب إلى إبراهيم الهوان ويسكت عن بناء بيت الله المحرم ، لأن ذلك البناء سيرفع من شأن أبناء عمومته أبناء إسماعيل . لم يكتفوا بأن يهزجوا أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه بل عمدوا لأن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعوا أن الذبيح هو إسماعيل ، مع أن التقاليد كانت تقضي بتقديم الابن الأكبر قرباناً لله .

الفصل التاسع

(٢)

اسماعيل والتوراة

سكت اليهود وهم يعيدوا كتابة التوراة في المنفى متعمدين عن تاريخ اسماعيل وذريته ، وفي العصر الحديث أخذ مؤرخوا الصهيونية في إثارة الشبهات حول وجود اسماعيل ، وجرى طه حسين في مجرام فرغم أن وجود إبراهيم واسماعيل أسطورة من الأساطير . يقول الأستاذ عبد الحميد السحار : إن سرجون نون في العصر الفيكتوري هو الذي اكتشف العاصمة الآشورية الجديدة التي بناها سرجون الثاني في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد فأصبحت آشور فجأة ملء الأسباع وزخرف المجلات المصورة في كل من انجلترا وفرنسا بصور تمثل مناظر الحرب والفتح الهيب لم يكن يعرف عنه حتى ذلك الوقت إلا بعض لمحات في التوراة وبيانات غير واضحة . وقام هنري لايرد بالتنقيب عن نمرود وتكشفت حضارة بابل وأشور ، ولما كان بنو اسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وأشور وقد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ المنطقة إذ ذلك فقد سجل الآشوريين ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بني اسماعيل من مناوشات وحروب . أعلنت ألواح الطين التي كتبت بالخط المسماري والتي وجدت في أطلال بابل وأشور ونيينوى وبلاد ما بين النهرين ، أن بني اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناء الإثني عشر صاروا قبائل قوية تناوى بابل وأشور ومصر والإغريق والرومان . وأثبتت الحفريات والنقوش أن اسماعيل عليه السلام كان يمشى في الأحواض وكان صادق الوعد نبياً وهكذا كانت الكشوف الأثرية قد حررت التاريخ البشري من الويف الذي حاول دسه اليهود ، ومن المزايعم التي حملوها دوائر الممارف المختلفة وحاولوا غرسها في عقول الشرق والغرب لتسكون أداة إلى فرض مؤامرتهم .

(٢) كذلك صححت الكشوف الأثرية ما رددته كتب التاريخ من أخطاء حول النبط وكشفت عن أن دولة النبط كانت قبيلة نابت بن اسماعيل ، وقد امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق ووصلت إلى حدود بلاد النهرين ، وقد عرفها المؤرخ اليهودي بوسيفوس في القرن الأول الميلادي ، فقد عثر على نصوص نبطية في التبراء وكانت تعرف من قبل بسلع - عاصمة ملكهم بوادي موسى والحجر والملا ونيينوى وصيدا ودمشق وطور سيناء والجرف واليمن ومصر وإيطاليا . وكانت كتب التاريخ تذكر أن النبط جيل من العمم ينزلون البطانح بين العراقيين . أما النبط الذين ورد ذكرهم في كتابات بوسيفوس فهم أبناء نابت بن اسماعيل ، وقد أطلق اسم النبط على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات حتى تتصل بحدود الهام إلى البحر الأحمر ، وهما من مناطق أولاد اسماعيل . وقد عرف مصر التوحيد قبل أخفانتون : عرفته يوم جاء إبراهيم الخليل إلى مصر ويوم جاء يوسف وجاء

أبره يعقوب وإخوته واستقروا في الدلتا وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، وذلك قبل أن يدهو
أخناثون إلى عبادة الشمس ، ولم يكن أخناثون أول من عرف التوحيد كما قيل ، بل كانت دعوته نكسة
بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل ويعقوب بل ردة عن التوحيد وتكشف الوثائق والأحافير أن إسحاق
ويعقوب ويوسف وموسى لم يكونوا هوداً بل كانوا مسلمين موحدين (أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل : أنتم أعلم أم الله) والواقع التاريخي ينفي
كونهم يهوداً فقد كانوا مسلمين على ملة إبراهيم ، والأسباط هم اثني عشر رجلاً من أبناء إسرائيل ينتسبون
إلى يعقوب (إسرائيل) حتى صار ملك إسرائيل داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا فأرادت قبيلتهما
أن تستأثر بالفضل وحدهما فانقسمت إسرائيل بعد موت إسرائيل ٩٣ ق م إلى دولتي يهوذا وإسرائيل
ومنذ ذلك الوقت بدأت اليهودية . وكان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل يهوذا وكان يوسف سبطاً من
الأسباط مثل يهوذا وكان موسى من نسل (لاوى) ولم يكن من نسل يهوذا . وقد عرف بنو إسماعيل
وبنو إسرائيل ذلك لكنهم الروحى الذى جاء به إبراهيم وكانوا يدعون الله رب العالمين حتى عرف قبيلة
(يهوذا) هذا التعصب المقيت بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن من هدام أمم وأن لى
يبحث رسولا إلا منهم وإن يبعث في الأميين رسولا . وقد فرق القرآن بين بنى إسرائيل وبين اليهود
فلم يأت ذكر لليهود في القرآن قبل ملك سليمان وقد ذكر الله بنى إسرائيل بنعمته التي أنعم بها وبالهدى
وبالكتاب ولم يذكر اليهود بخير . ذلك بأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار وقصروا
الخير على أنفسهم دون الأميين . (وقالوا : إن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) . وما طرأ
على التوراة من تغيير بعد أيام المثنى وكيف بدلت صفات الله إلى صفات (يهوه) إله اليهود القاسى
المستبد (سبحانه الله عما يصفون) وكيف كان اليهود من أوائل الشعوب التي نادى بالفرقة المنصرية
بعد أن كان إبراهيم يدعو إلى العالمية وإلى الأخوة البشرية . وجاءت كلمة (أمى) في القرآن نسبة إلى
الامة والامم رداً على مزاعم اليهود فقد قالوا إن الله اصطفاهم على العالمين ولن يبعث في الأميين رسولا
لجاء القرآن يدحض هذا الوهم : (هو الذى بعث في الأميين رسولا) . (ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا
في الأميين سبيل) . (الذين يتبعون الرسول النبى الامى) . وهم الذين كتبوا التوراة بأيديهم في أرض
الأنبيى فحملوا أنبياء الله كل نقائص البشر وجعلوا نوحاً شارب خمر وإبراهيم كذاباً وابنتا لوطاً سكرتا
أبيهما . ورموا داود بالزنا ، وملكوا كتاب الله بأساطير الشعوب ، وكان الطبرى من أكثر المزرخين
الذين نهلوا من التوراة التي كتبها أحبار اليهود في بابل دون تحييص . وقال الإمام على : من حدث
بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين جلدة .

وكان بنو إسرائيل عرباً كما كانوا بنو إسماعيل ولكن اليهود بعد أن انقسمت عليهم بنى إسرائيل
إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفصلوا عن أصلهم العربى بتأسيس (جنس)
لا سند له من التاريخ فأطلقوا على أنفسهم : اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق . وطاش
بنو إسرائيل بين (الكنعانيين) وأخذوا العبرية عنهم وكانت بينهم وبين الكنعانيين أصحاب فاسطين
الأصليين حروب . وتعبد اليهود إقصاء الكنعانيين في توراتهم التي كتبوها في الماضي بعد عصر موسى
بمئات السنين من جدول أنساب (سام) لأسباب دينية وسياسية مع أنهم يملكون حق العلم ما بينهم وبين

الكنعانيين من الطلقات العنصرية والافروية واشتد التعصب بين قبائل بني اسرائيل بعد أن صار ملك اسرائيل إلى داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا ، وقد ظهر ذلك التعصب بوضوح في إصحاحات الانبياء التي دونت في المنفى فلم يرد اسم موسى في أشعيا (لأن موسى من اللاويين ولم يكن نسل يهوذا . يقول وارد دورانت في كتابه (قصة الحضارة) وأكبر الظن أن للزامير ليست قلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي بزمان طويل ، ويقول : إذا ما وضعنا إلى جانب هذه للزامير (نشيد سليمان) لاح لنا في الحياة اليهودية من عنصر شهواني دنيوي ، ولعل كتاب العهد القديم قد أخفوه عنا ولستنا ندري كيف غفل أو تناقل رجال الدين حما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وصفها بين قول أشعيا والمطباء . كذلك ظلم اليهود سليمان وذموا أنه مات كافراً بالله ، وجاء القرآن لينصف داود وسليمان وينسل عنهما وعن أنبياء الله أدران من كتبوا الكتاب بأيديهم : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) . ولقد حمى على اليهود الأمر فقتل قلوبهم ونسوا دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم في المنفى ونسوا الحياة الأخرى التي كانت دعوة جميع الانبياء وحسبوا أن الإنسان يثاب على أعماله في الدنيا وإذا مات ذهب إلى الهاوية (كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة إبراهيم الرسول وبعده) ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلاتهم مع القدر ، إن مشكلة الإنسان وقدره وتصرف الإله معه على هذه الأرض لا حل إلا إذا آمن الإنسان بأن حياته على الأرض تتبعها حياة أخرى ترفع عنها كل المظالم وتصحيح كل الأخطاء ، واليهود كانوا يؤمنون بالدهرية وبأن حياتهم الدنياهي كل حياتهم ، ومن هنا جاءت الهيرة والقلق والشك والعذاب : (أفن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقبه كن متعناه متاع الحياة الدنيا) .

هذه هي الحقائق التي توصل إليها البحث العلمي بعد الحفريات والآثار التي كهفت في السنوات المائة الأخيرة وكلما تدحض نظريات اليهود التلمودية ودعواهم وتؤيد القرآن الكريم ، ولقد استطاع الأستاذ عبد الحميد جودة السحار رحمه الله أن يصل إلى ما قدمناه من نصوص وأوردها في كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وهي إضافات هامة للباحثين في عصر ما قبل الإسلام وهي تكشف عن الويوق والسحوم والشبهات العديدة التي قدمها الاسقذراتي والتفريب والتي هي سائدة الآن في أفق البحث العلمي في تاريخ الإسلام في الجامعات والمعاهد .

يقول الأستاذ السحار : اندثرت الحضارة التي قامت في جزيرة العرب بعد الخليل إبراهيم إلى أن بعث محمد رسول الله . وقد بدأت بطن الأرض تد أسرارها في هذه المنطقة وستكشف الأيام القادمة عن حقائق مذهلة وتوضح أثر تلك النهضة الروحية التي بشا الخليل وذريته والتي ظلت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ولم تعرف الشرك بالله إلا قبل بعث محمد بثلاثمائة سنة . لقد أشرك بنو اسرائيل بالله وموسى بينهم ، وعبدوا آلهة الشعوب في كل العصور ، أما بنو إسماعيل فقد ظلوا حول الكعبة ، فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين إبراهيم ولم تقع نكسة الشرك فيهم إلا بعد أكثر من ألف سنة من بعثة الخليل ، وظلت مكة إبراهيم في الخفاء منهم إلى أن بعث محمد ﷺ ليعيد شريعة إبراهيم (ثم أرحمنا إليك أن اتهم مكة لإبراهيم حنيفاً وما كان من للمشركين)

ومسكدا نجد أن البحث العلمي الأصيل قد أنكر التوراة الحالية وأن الكهوف الأثرية قد كشفت زيف الدهوى الصهيونية وأن كلامها قد انتهت سلامة الحقيقة الإبراهيمية الحنيفية وفساد المنصورية التلودية .

الفصل التاسع

العروبة وليست السامية

لا ريب أن فكرة د السامية ، التي طرحها البحث الغربي الحديث في إطار دراسات العرب قبل الإسلام من الدعوات الخطيرة التي أريد بها انتقاص الدور الإبراهيمي الذي قامت به الحنيفية بمثلة في إبراهيم وإسماعيل في الجزيرة العربية وامتدادها في حواش الشام والعراق وإعلاء هذا الدور بنسبته إلى مجهول هو (سام) الذي لم تذكره غير التوراة المكتوبة بأقلام الأحبار ولا ريب أن الصهيونية التلودية ، حين أرادت أن تخطط لدهوتها في أوائل العصر الحديث وفي ظل إهداد بروتوكولات صهيون أرادت أن توجد أصلا تجعل نفسها منه فرعاً مسارياً للغرب وموازيًا لهم بقصد اذهاء نوع من القرابة ولكي تصرف هذا المجد كله عن الإبراهيمية والإسماعيلية والعرب وتنسبه إلى سام بن نوح ، هذا هو المخطط الماكر الذي لا بد أن يكون قد عرفه العالم النحساوي (أوغست لودولف شلوسر) عام ١٨٧١ حين تحدث عن جنس مشترك لهذه الشعوب التي عاشت في المنطقة العربية وأطلق عليه الجنس السامي وأخذ هذه التسمية من التوراة (التكوين : الإصحاح العاشر ١/١٢) أخذها من اسم سام بن نوح . والواقع أن كل موجات الهجرة التي تدافعت من جزيرة العرب إلى أطراف المنطقة الممتدة من العراق إلى أقصى المغرب كالباليين والكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين هي موجات عربية وأنها تدفقت بعد بناء الكعبة وقيام الأمة الإسماعيلية التي تشكلت من إسماعيل بن إبراهيم وقوم جرم في ظل البيت الحرام في مكة فربطت بين الجنوب والشمال وبين القطاعين : قطاع قحطان وهدنان فيما بعد .

ولا ريب كانت مختلف الحضارات التي ظهرت في هذه المنطقة هي حضارات عربية : يقول عبد الحميد جودة السحار : كانت حضارة بابل عربية وحضارة العموريين عربية وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة عمود عربية وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة ولكن بعض العلماء رأوا أن ينسبونها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بني إسرائيل منذ أيام خابيل الرحمن إبراهيم فأطلق العالم الألماني سار تيسر اسم السامية نسبة إلى سام بن نوح وصادف ذلك هوى في نفوس الآخر فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية وتبعهم الكتاب العرب .

ومن هنا نرى أن هناك مؤامرة صهيونية عن طريق الاستشراق تستهدف حجب هذا التاريخ العظيم ،

وأن هذه المؤامرة تجري في نطاق التوراة المكتوبة التي سكنت هن ذكر ذهاب إبراهيم إلى الحجاز ، وعن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية وبناءه للكمبة ، وذلك جرياً مع الهدف للتلووه الذي يوصى إلى إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه . يقول السحار : حرم اليهود أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه بل وأرادوا أن يسلبوا لإسماعيل كل فضل فزعوا أن الدبيح هو إسماعيل . ثم من الصباح القبائل تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل شماله وجنوبه والاقطار المغربية في شمال أفريقيا ثم انسيح القبائل الذي استمر بمسح الموجة الإسلامية الأولى من الجزيرة إلى جميع الأنحاء وإلى سواحل أثيوبيا والصومال دون انقطاع . فكل ما تقدم يبرز بوضوح أن كل العناصر إنما كانت من سكان جزيرة العرب الأصليين القدماء ومنهم هاجر منهم إلى الاقطار المجاورة ، فالعرب قبل دور العروبة الصحيح وبعده جنساً واحداً لا سبياً وأن التفارق في اللغة والأفكار والعقائد والتقاليد ظل قائماً بين الباقيين في الجزيرة والنازحين منها في مختلف الأدوار . كذلك أشار الأستاذ دروزه إلى أن القول بأن لغة أهل جنوب الجزيرة غير لغة شمال الجزيرة ليس صحيحاً بمعناه الإجمالي وكل ما في الأمر تنوع في اللهجات واختلاف في المسميات .

(وهذه الشبهة مما أثاره طه حسين في كتابه العصر الجاهلي والأدب الجاهلي وإسرائيل ولفنسون تليذه في كتابه « اللغات السامية ») . يقول : أما الاشتراك الفعل فقد كان قائماً على ما تدل عليه نقوش الجنوب والشمال ، وقال إن غالبية سكان الهلال الخصيب ووادي النيل كانت وظلت تحت لايها وتطعم بالهجرات المتوالية من الجزيرة العربية والتي لم يكن سميها ينقطع إلى دور العروبة الصريح ثم دور الإسلام والتي تمثل في وحدة العروبة الهائلة وطابعها الذي يطبع هذه البلاد وسيظل يطبعها إلى الأبد ما دام وادها الجزيرة وتظلها راية القرآن . ويقول : لقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة (٢٣٠ ق م — ٦٤٠ م) وجاء منهم إليها وبخاصة اليونانيون الآلاف المؤلفة واستقروا فيها ونشروا لغتهم وثقافتهم ، وقد جمع بينهم دين واحد هو المسيحية قرابة أربع قرون ، وترجمت اليونان الكتب المقدسة وصارت لغة عبادة وطقوس لفرق كثيرة من النصارى ، ومع ذلك فإنهم لم يسقطوا أن يفرضوا طابعهم وصيغتهم بل كان جمرة أهلها يرونهم غرباء وينقبضون عن معاشرتهم بل واعتبروهم أنهباً . وكذلك شأن الفرس الذين كانت لهم السيادة على العراق أكثر من ألف ومائتي عام (٥٣٨ ق م — ٦٤٠ م) وكان لديهم وثقافتهم انتشار واسع حتى لقد مجسوا كثيراً من أهل البلاد ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم وصيغتهم في حين أن الموجات العربية الصريحة التي جاءت إلى الهلال الخصيب في حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا أخذت تفرض طابعها على البلاد وتمزج بأهلها القدماء بسهولة ويسر ، ثم جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل فأخذ الفاتح يهتد بينها وبين السكان السابقين ، ولم تكده تهمض بضعة أجيال أو قرون حتى توطدت السيادة في هذه البلاد لطابع العربي الصريح وغدا شاملاً عاماً ، وليس هناك من تعليل لهذه الظاهرة التي تكررت في عهد الإسلام بما كان من سيادة الترك على هذه البلاد قرابة أحد عشر قرناً (٢٠٠-١٧٣٢) وما كان من دحوف تركية كبيرة إليها واستقرارها فيها .

ولا ريب أن هذا كله يؤكد ذلك الترابط الذي أقامته الحنيفة السمحاء التي مدت أجنحتها هذه القرون المتوالية على هذه المنطقة الواسعة من العراق إلى مصر إلى أفريقيا ؛ وهذا مصداق وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام والذين ساروا على طريقه حتى جاء الإسلام ليبدد هذه الموجات كلها وقد شكلت ذلك المهاد الواسع الذي استقبل دعوة الحق وحقق قيام هذه الأمة الوسطى : الذي كانت خير أمة أخرجت للناس . ومعنى هذا أن (الحنيفة العربية) وليست (السامية) هو الإسم العلمي الصحيح ويصدق هذا إذا علمنا (إن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة في كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم منذ ألفين وخمسمائة سنة واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستعربين في داخلها وتخومها الشمالية جزئياً ثم كلياً منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك بما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التي تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منها منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك هي اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلاً أو كثيراً عن اللغة الفصحى على ما تدل عليه آثار وأسماء وأعلام ، ونفوس السبئيين والحجريين والنبطيين ولندسريين والحيامين والموديين والصفويين العائدة إلى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بمسده ، وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطورها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بأمدها . كذلك فإن (الحنيفة العربية) هذه ظلت متصلة لم تقطع بين قدماء الجزيرة وقدماء النازحين فيها وبين الواقع الراهن الممتد إلى ألفين وخمسمائة عام ويصل بين قديم العروبة وحديثها ، وقد قال بهذا جبهة من علماء العرب وباحثيهم (أنظر جواد على ج ٢ ص ٢٨٧) .

وهكذا تلتقي الدراسات الحديثة في أوردة محمد عزه في ذروة كتابه الجنس العربي ، وما أورده هبة الحميد جوده الصحار في كتابه (محمد رسول الله والذين معه) وما أشارت إليه الدكتور بنف الشاطيء في كتابها (الإسرائيليات والغزو الفكري) . وذلك في مواجهة تلك الهبة التي طرحتها الاستشراق والتعريب لإفساد تاريخ الحنيفة الإبراهيمية العربية الممتدة من إبراهيم عليه السلام إلى محمد ﷺ ونسبة فضلها وآثارها إلى جذر قديم لم يرد في العراق وهو (سام) الذي التقطه القفريون التلموديون من التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار ولا ريب أن محاولة السامية ترمي فضلاً عن ذلك إلى تمويه الإقليمية المصرية والسورية والبنائية والعراقية ، وأن تلقى في أذهان سكان وادي النيل والجلال الخصيب ، وشمال أفريقيا ومن الصلة بين أصولهم القديمة وبين العروبة وتجهلهم يعتبرون العرب الذين جاءوا هذه المرة تحسب راية الإسلام (خرافة) كسائر الخرافة الذين طرأوا عليهم ووطدوا حكمهم في بلادهم بالقوة وحسب وكون ما هنالك من فرق هوانهم أعطوهم دينهم ولغتهم حتى بالرغم من السيل الذي أخذ يتدفق من جزيرة العرب على هذه الأقطار في دور العربية المصرية وقبل الإسلام وبعده بدون انقطاع ويغمر مدنها وقراها وصحاريها وبرادها استعمرها وأهلها كان يجري قبل دور العروبة المصرية والذي قد تفوق أعداده أعداد سكانها أضعافاً ، والذي يتمثل في كل ناحية من أبحاثها وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلاً هاملاً .

(٢)

اللغة

ولا ريب أن الأبحاث التي أجراها علماء اللغات والآثار قد كشفت عن حقيقة أساسية لا سبيل إلى إنكارها، وهي أن هذه المنطقة من جزيرة العرب ووادى النيل والحلال الحبيب وأثيوبيا متشابهة ومشاركة في الفكر واللغة والعقائد والتقاليد منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد تقريباً. وأن ذلك يرجع أساساً إلى أصل واحد مشترك غير أنهم أخطأوا حين نسبوا هذا الأصل إلى سام بن نوح وهو أصل بعيد جداً، والحقيقة أن النسبة الحقيقية إنما تركز في إبراهيم عليه السلام. يقول الأستاذ محمد عزة دروزة: لقد أصبح أمر النسيان الموجات من جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة لها منذ أقدم الأزمنة وكون الكلد والاشور والآكدين في العراق والكنعنا والعمور والآراميين والعبرانيين في جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادى النيل شماله وجنوبه، ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هؤلاء المصاحين في القرون التاريخية من الحقائق التي لم تتحمل جدلاً ولا سباً أن جزيرة العرب ظلت ترسل موجاتها إلى هذه الأقطار دون القطاع قبل دور العروبة الصريح، أى قبل أن تغزو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب إسماعيل، ثم في دور العروبة الصريحة قبل الاسلام، ثم منذ الاسلام إلى اليوم بما سجلت أحداثه القديمة نفوس المصريين والاشوريين والكلدانيين وأسفار العهد القديم وكتب اليونان والرومان القديمة وما قرره علماء الآثار والتاريخ. ويقول عبد الحميد جوده السحار أن الأحافير والآثار التي قام بها علماء أجنبية قد كشفت عن تقارب اللغات العربية القديمة هذا الأكادية في الآرامية والمنطق بحيث تشترك كل لغة وما جاورها. ولا يلحظ الانتقال من لغة إلى لغة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية (أورد هذا البراهين في كتابه عن أحافير فلسطين) وقد أكد غير واحد من الباحثين أن إبراهيم كان يتكلم العربية وإن لم تكن العربية التي نزل بها القرآن أو التي تتكلمها اليوم، وكانت اللغة في اليمن والعراق والشام والحجاز لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية هذه الأيام، ويستشهد على ذلك الأستاذ السحار بالآية الكريمة: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس).

الفصل العاشر

مؤامرة السامية

إن المؤامرة التي دبرتها الصهيونية التلودية هي طرح نظرية السامية ، لقضاء على الصلة التي قامت بين الحنيفية الإبراهيمية والرسالة المحمدية فأصبحت تشكل تاريخ ثلاثة آلاف عام على طريق التوحيد الحالي بدأ به ثم انحرف ثم عاد إليه مرة أخرى . كان الهدف متعدد ، يرمى أولاً إلى الغض من العربوية الحنيفة التي تشكلت في هذه المنطقة الواسعة بالهجرة واللوجات البشرية المتواليات الخارجة من قلب الجزيرة إلى أطرافها ، ومحاولة القول بأن العرب واليهود من جنس واحد ، ومحاولة القول بأن اليهود في الجزيرة العربية هم عرب يهود وليسوا من الذين هربوا من مقتلة تيطس عام ٨٠ ميلادية وما بعدها ، ومحاولة القول بأن العرب وبنو إسرائيل أولاد هم تربطهم أواصر الرحم والقربى المشدودة إلى عرقهم السامي الذي توغل جذره في أعماق بلاد العرب . ولذلك فقد كان من مخططات الصهيونية التلودية التي بدأت من خلال الفكر والثقافة في أوائل هذا القرن ، خلق هذه الدعوى العريضة ودعمها وفرضها على مناهج الدراسة في الجامعات حيث نشأت دراسات باسم اللغات السامية والأديان السامية وما إلى ذلك من دعوات قام بها يهود في الجامعات ثم ورثها من هم أتباع الاستشراق اليهودي والتلودية : إسرائيل ولفنسون ، يوسف شاخيت تحت مظلة الدكتور طه حسين .

تقول الدكتورة بذات الشاطئ : ليست غريباً وقد سيطرت فكرة السامية على المؤرخين الأوروبيين أن تابع العلماء هذه المقولة الإسرائيلية لما بدا لهم من ظواهر التشابه المدعى بين العرب وبنو إسرائيل وجهها الاستشراق إلى تأصيل القرابة المدعاة مع التركيز بوجه خاص في أول أمر على الحجاز مهد الإسلام وقريش صفوة العرب العدنانية وفيها نسب نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام وعلى اليمن منزل العرب القحطانية الصحيحة العاربة . (وكذلك أخذت اللغة العبرية مكانها في اللغات السامية ، اختاراً للعربية بما كلف علم اللغات فيما علنا المستشرقون - من أن أما ذات لغة واحدة كانت تسكن البقاع الواقعة بين القفقاس وجنوب بلاد العرب ، وذلك درسي اللغات السامية أن لغات تلك الأمم وهي العبرية والفنيقية والسريانية والآشورية والكلدانية والعربية ، وثمة القرابة متحدة الأصل . وفي مسمى الآن صدى باقي من صوت معلنا اليهودي الدكتور يوسف شاخيت وهو يكشف لنا في كلية الآداب بجامعة القاهرة عن أسرار فقه لغتنا العربية ويظهرنا بما في جمعبته من حيل لغوية أفنتنا بأن العربية ليست إلا مقلوب عبرية وأن العرب إنما أخذوا اسمهم من عربيه التي هي في العبرية بمعنى الصحراء ووضعت يدها أيدينا محاطرات لسلفه اليهودي (إسرائيل ولفنسون) أبي ذؤيب فيما كنا نسميه - ألقاها على الطلاب الذين سبقونا بحجرة في كتاب (تاريخ اللغات السامية) ليقرأها أفواج من الطلاب الذين لم

يسعدكم الحظ بقاء المعلم إسرائيل أب ذؤيب والنذلة عليه ، تقرأ هذه المحاضرات فتري اليهودية اختلطت فيها بالعربية . ولطول ما ألمع في تقرير وحدة أصلها السامي ، فأنكاد نميز فيها الحد الفاصل في تصور هذا المعلم الفقيه بين السامية واليهودية ولا بين اليهودية والعبرية . (راجع كتاب الدكتور بفت الشاطيء : الإسرائيليات في الغزو الفكري) . وهكذا واليهود في إسرائيل يعدون الجامعة العبرية ويعيدون لإحياء اللغة العبرية بعد اختفائها إلى سنة كاملة ، تخدم يقيمون هذه الدائرة الخطيرة من التآمر على العرب والعربية والإسلام في محاولة لا تقول كذباً وتضليلاً بأن العبرية أخت العربية أو أن اليهود أبناء عم العرب ، وتلك قضية لها أبعادها الدقيقة في داخل دائرة الحنيفية الإبراهيمية على مدى هذه القرون المتطاولة ، ولا يمكن أن تقدم بهذه الصورة التي يتضح فيها عنصر الخداع والتآمر . وقد دخل إلى هذا الميدان كثيرون من جنود الصهيونية التلمودية . كتب روزي : كتابه (صلات بين العرب وبني إسرائيل) تحدث فيه عن ملامح متشابهة بين قريش واليهود ، وكتب مارجاويث كتابه عن بني إسرائيل ومكة . ذهب فيه إلى أن الموطن الأصلي لبني إسرائيل كان بلاد اليمن ، ومنها خرجت هجرات إلى شمال بلاد العرب ، ودأله بعض ألفاظ التثنية من لغة سبأ البائدة تشبه ألفاظاً عبرية وبعض عادات دينية . والوجهة المبتغاة هي : تأصيل القرابة المدعاة بين العرب واليهود مع التركيز على الحجاز مهد الإسلام وقريش صفوة العرب العدنانية وعلى اليمن مغول العرب القحطانية . . والتاريخ الصحيح والوقائع الجلى تثبت أن اليهود ما كان لهم وجود في جزيرة العرب ، وإنما جاءوها من الشمال هاربين من تيطس الذي قتل منهم أرحلاً كبراءة في القدس . كذلك فقد جرت إعدامات كثيرة مضللة كالتقول بأنهم واضعوا شريعة هورابي وأن لهم أثرهم في حضارة بابل مع أن الحقيقة الأكيدة هو أنهم انتهبوا من مختلف الأمم والحضارات مظاهر ادعواها لأنفسهم وأنه لم تكن لهم حضارة حقيقية لأنه لم يكن لهم وجود ثابت يمكن من قيام الحضارة .

وانتد أسرع للصهيونية التلمودية وألقت بهذا الركام كله الذي صنعته في إطار الدعوة إلى الدولة اليهودية وبروتوكولات صهيون ١٨٩٧ فأصق بأول الفرق التي هجرت إلى أوروبا في عصر النهضة (طه حسين ومحمود عزمي ومنصور فهمي وهيكسل وسلامه موسى وأمين الخولي) فسرعان ما أعلن الدكتور طه حسين في أول محاضراته في الجامعة إسقاط إبراهيم وإسماعيل وإنكار وجودهما وإنكار رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية وبناء الكعبة . وكان هذا أول السهام المسمومة التي وجهتها الصهيونية التلمودية إلى التاريخ الإسلامي . ثم أسقط بعد ذلك عبد الله بن سبأ اليهودي وأنكر وجوده . ثم قدم إسرائيل ولفنسون الذي ادعى دعواه للعريضة المضللة بالروابط بين العرب واليهود وبين العربية والعبرية في محاولة زائفة لتقيد الطريق للصهيونية العالمية في قلب عالم الإسلام . والمعروف أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية جرت عملية احتواء ضخمة لدوائر المعارف العالمية بطرح مساحلات خطيرة عن وعد إبراهيم وحق شعب الله المختار فيه وإنكار إبراهيم وإسماعيل ، وقد طرحت هذه المفاهيم في دائرة المعارف الإسلامية التي كتبها المستشرقون اليهود والصهيونيون ، والتي ضمت عشرات من الشبهات حول تاريخ الإسلام وأصوله وفي مقدمتها مؤامرة السامية وآثارها في علم الأجناس وعلم اللغات وبدأت المصطلحات

التفريبية تفرض على التاريخ الإسلامى ، فبرزت عبارة تاريخ العرب وحضارة العرب وتحريك هذه المصطلحات فى دائرة ما أسماه (بالسامية) ومضت الصهيونية التلودية فى التآمر ضد التاريخ الإسلامى فدعت إلى تجديد الحديث عن الثورات والمؤامرات التى وقعت ضد الاسلام ودولته وأطلق عليها اسم حركات العدل . ووقف طه حسين فى معهد التربية ١٩٤٧ ليتحدث عن الزنج والقرامطة على أنهم طلاب عدل وهم المتآمرون على الاسلام والمتصلون بالمجوسية والباطنية لهدم دولة الخلافة . وليس هناك من شك فى فساد هذه الدعوة إلى السامية وإلى تقسيم الجنس البشرى إلى ساميين وساميين وآريين ، واتخاذ مصدر ذلك التوراة التى كتبها الاحبار فى منفى بابل ، ولقد وضعت هذه الدعوى منذ وقت بعيد تحت أضواء العلم الصحيح فتبين بطلانها لأن القرون البشرية أكثر من ثلاثة ولأن ثلاثة نفر من أبناء رجل واحد لا يمكن أن يخرج منهم أجناس ثلاثة متباينة بمثل هذه السرعة التى تخيلها أولئك المؤرخون . كذلك فإن رأى الصحيح هو أن الشعوب التى سكنت بلاد العراق والشام ومصر وإفريقيا قد خرجت كلها من شبه جزيرة العرب فى أزمنة متعاقبة وفى موجات متلاحقة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة وفى إطار الدعوة الابراهيمية الخفيفة ، وأن آخر هذه الموجات هى الموجة الاسلامية المهدية ، وأن كل هذه الشعوب ذات الاسماء المختلفة هى عربية حثيفة ، وأن كل هذه اللغات إنما ترجع إلى اللغة الأم : اللغة العربية التى نضجت قبل لغة النبی محمد وآلته جاء القرآن فاستصفي أجود لهجاتها : لغة قريش فنزل بها . كذلك فقد ثبت كذب الدعوى المبجلة التى ساقها الاستعراق اليهودى الصهيونى التلودى وحمل لوائها الدكتور طه حسين بإيقاع الخلاف بين عدنان وقحطان : لغة وجنساً . وقد ذهب الباحثون إلى فساد هذه المحالة الداخلة فى مؤامرة السامية فهى جزء منها وفى إنكار لإبراهيم وإسماعيل والرأى على أنه لا توجد فوارق واسمة بين الحميرية والعدنانية أو أنهما لغتان متميزتان وأن الخلاف بينهما لا يزيد على اختلاف اللهجات بل إن العلماء يصلون فى تقدير الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى إلى أن هناك عوامل عديدة قربت بين لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين ، واستمر عمل هذه العوامل إلى ما قبل ظهور الاسلام ويقول متسانلاً : لا فكيف كان يفهم ولادة رسول الله ﷺ على الين لغة أهل الين وكيف فهم رسول الله ﷺ لغة وفد الين الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدي الرسول : والواقع أن القحطانية والعدنانية هما فى الأصل لغة واحدة والخلاف بينهما ليس إلا خلافاً فى اللهجات.

الفصل الحادى عشر

الغرب والمسيحية

نزلت رسالة الاسلام بعد المسيحية بستة قرون . فى عام ٦٢٠ تقريباً من التاريخ المسيحى أنزل الله تبارك وتعالى رسالته ووحيه وقرآنه على سيدنا محمد ﷺ وكانت المسيحية إذ ذاك قد سيطرت على الدولة الرومانية فى الغرب بعد أن انتشرت فى مصر والشام وإفريقيا . وكانت أجيال معاصرة لمولد الرسول وموعد رسالته تعرف أنه قد أطل الناس وقت رسالة عام النبيين ، فقد كانت التوراة المنزلة

والإنجيل المنزل ببشران برسالة محمد ﷺ وكانت كتب القدماء نصف ذلك العصر حتى أن كثيراً من آمن رسول الله كان يعلم ذلك ، ومن هؤلاء بلال الحبشي الذي سعى إلى الجزيرة العربية بحثاً عن رسول الله الذي أوشك عصره . وكان اليهود يستفتحون باسم الرسول محمد على أديانهم ، وقد ظل الكثيرون من آمنوا برسالة عيسى عليه السلام معتمدين بالجبال مؤمنون بالله رباً وبه نبياً جيلاً بعد جيل ينتظرون النبي الخاتم حتى جاءت البشرية بنبو محمد ﷺ فأمنوا به حسبما جاءت الآيات في الإنجيل للنزل ، وقد كانت المفاهيم المسيحية الصحيحة التي حل لواها أريوس ومدرسته من بعده تؤمن بأن عيسى عليه السلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وأنه جاء مكملًا لهذه الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام ومبشراً برسول من بعده اسمه أحمد . واقد فصل القرآن الكريم في مختلف القضايا والخلاقات والتفسيرات والتفسيحات التي طرأت على طريق الله الحق وأعطى المسيحية حجمها الحقيقي ودورها الطبيعي فليست المسيحية ديناً عاماً وإنما هي فرع من الدين الذي أنزل على موسى ، أرسل الله بها عيسى مصداقاً لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم ومصححاً للانحرافات التي طرأت على دين موسى عليه السلام . فدعوة المسيح تركّز على المعنويات حيث تركّز اليهودية على المادة وتعترف المسيحية بالآخرة حيث تنسك اليهودية البعث والجزاء وتدعو إلى التفرق بالإنسانية إزاء ظلم اليهود وطعناتهم وتدعو إلى التواضع والمحاسنة في مواجهة استعلاء اليهودية وخطورتها وتدعو إلى (الله) رب العالمين لا رب الجنود فقط حيث يعبد اليهود إلههم (يهوه) ويرون أنه إلههم وحدهم . وكذلك فدعوة عيسى تدعو إلى العفو عند المقدرة واليهود لا يعرفون إلا المفاضة والربا ، وتدعو إلى احترام الحق العام بترك ما يقصر ليقصر وما لله لله ، واليهود لا يحرمون إلا حقوق طائفتهم فقط . هذه المعاني التي جاء القرآن بها نجد علماء الغرب لا يقبلون بها إلا بعد أربع عشر قرناً فيقول الدكتور جادو الأستاذ بكلية جيتون بكامبرج : « أن يسوع ظهر لمعاونه بصفة نبي تابع لكنيسة اليهود لا مضاد لها وأيده بعض القسوس وخالفه رئيس الشمامسة . وأن المسيحية ظهرت في أحضان البيئات الإسرائيلية مخالفة لتعاليم اليهودية حيث تركّز اليهودية على المادة بينما تركّز المسيحية على المعنويات والإعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة » . ويرى كثيرون أن السيد المسيح قد عبر عن حجم رسالته حين قال : لا تظنوا إني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل (متى : ٥ : ١٧) . ويقول الدكتور راشد شماس كارليل إن قراءة الكتاب المقدس أثبتت أن المسيح ليس إلهاً ولم يدع الألوهية . وأن المسيح الأنجيل ومسيح بولس شخصان لا يتفقان . ويرى الكثيرون من الباحثين الغربيين أن المسيحية لا تعتبر ديانة مستقلة عن اليهودية إلا من حيث أنها حررتها من الانحراف الذي طرأ على اليهودية وأن المسيح عيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل .

(٢) وهكذا نجد أنه بظهور الإسلام تمهد الحديث عن دين عيسى عليه السلام ورسالته في إطار الواقع الذي تحركت فيه المسيحية إلى الغرب وسيطرت على عالم الغرب وفق المفاهيم والتفسيرات التي حوتها من وضعها الصحيح إلى وضع آخر مغاير لذلك تماماً . ومن الحق أن يقال إن المسيحية لم تتمكن من أن تكون ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية إلا عام ٣٥٢ تقريباً وأن روما لم تلبث أن سقطت

في برائن غزو القوى المغيرة عليها عام ٤٥٠ تقريباً . وعندما جاء الاسلام في القرن السابع كانت الدولة البيزنطية هي التي تحمل لواء المسيحية ، ثم لم تلبث كنيسة روما أن سيطرت على أوروبا سياسياً ودينيّاً . وعند نزول الاسلام كانت هناك فرقتان مختلفتان في المسيحية : فرقة رأيا قائم على التفريط في حق المسيح عليه السلام فتذهب إلى إنكاره تماماً ويقول أنه شخص غير تاريخي وأن صورة المسيح التي تريد الكنيسة أن تنقشها في عقول الناس وقلوبهم إنما هي صورة مزورة ورثها الناس عن الوثنيات القديمة وأن كل ما في المسيحية له أصل في ديانات الوثنيين التي جاءت قبل المسيحية بألوف السنين . والرأى الثاني قائم على الإفراط في حق المسيح عليه السلام ورفعته إلى منزلة الألوهية ، لجاء الإسلام ليصحح الوضع ويضع الأمور في نصابها فيعترف للسيد المسيح بالوجود التاريخي وهنزه وأمه عليهما السلام من الصفات المربية ويحفظ له المسكاة التي وضعه فيها الله عز وجل وينفي عنه تلك الصفات والتفسيرات الباطلة . فالمسيح هو نبي الله ورسوله إلى بن إسرائيل وكنيته ألقاها إلى مريم ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ، ويعارض الإسلام تلك الدعوات الثلاث التي جاءت في تفسيرات الكهان : الصلب والتعليق والخطيئة ، فالمسيح في نظر الإسلام رسول الله إلى بن إسرائيل خلقه أولاً كما خلق آدم عليه السلام ثم اصطفاه بعيداً عن التجسد والحلول . (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يا كلان الطعام) - (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) - (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) .

ويرفض الإسلام نظرية الأبوة رفضاً تاماً ويقيم بدلاً منها مفهوم (العبودية) فكل أنبياء الله عبيد لله . ويقرر القرآن أن عيسى عليه السلام لم يصاب وإنما شبه للذين حاولوا صلبه وأن الله رفعه إليه فالإسلام يقرر في وضوح وقاكيد أن المسيح لم يقتل ولم يصاب . (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه) كذلك فإن الاسلام ينكر أن هناك خطيئة أصلية وقع فيها البشر كلهم نذيجة عصيان (آدم) عليه السلام أو أن السيد المسيح صلب فداء للبشر وتخليصاً لهم من الخطايا . فسأله آدم والخطيئة والفداء قال بها بولس تفلأ من الأديان البشرية حيث يقول : إن الله لم يغفر لآدم خطيئته بل إن غضبه لم يقف عند حد آدم بل تناول كل ذريته من بعده فغضى عليهم أن يعيشوا في الخطيئة أبداً وأن يلاحقهم الموت بالتالي . ويقرر الاسلام أنه لا خطيئة أساساً وأن آدم أخطأ واستغفر وغفر الله له . (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . كما يقرر أنه لا تزر وزرة وزر أخرى ، وأن خطيئة أى فرد من البشر لا تنسحب على الآخرين . وأن الله تبارك وتعالى قادر على أن يرفع عن البشر لأصرهم والأغلال التي في أعناقهم بفجر حاجة إلى وساطة أحد ودون أن يصير رسوله وعبد عيسى عليه السلام إلى ما صورته التفسيرات المسيحية إبناً لله يتجسد وينزل إلى الأرض (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) . وهكذا نجد أن الاسلام قد صحح دعوة عيسى عليه السلام ووضعا في مكانها بين دعوات الأنبياء ورسالات السماء المتوالية من نوح إلى محمد . ولقد حفظ الاسلام المسيحية ورسمها في أنقى صورة وجمل الاعتراف بها جزءاً أصيل من عقيدة المسلم ، كما اعترف بعيسى

عليه السلام ومعجزة ولادته وكرمه وكرم أمه المذراء مريم ، وكشف عن أن كلمة الله قد تمت حقاً وعدلاً برسالة محمد ﷺ التي هي كلمة الاسلام الأولى التي ألقاها الحق تبارك وتعالى إلى كل نبي ورسول ، وأعلن أن الدين عند الله الاسلام ، وأن من يبتغ غير الاسلام ديناً فليقبل منه . ونزل القرآن حافظاً وكاشفاً ومقرراً لكل ما جاءت به رسالات الله تبارك وتعالى ، ومهيئاً على جميع المكاتب السابقة ، فقد وعد الله بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) بينما استحفظ القائلون بالاديان السابقة على كتبهم . وبهذا قرر الإسلام وحدة الانبياء من لدن نوح إلى محمد ووحدة الرسالة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) . وإن السيد المسيح رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وأعلن أنه لا يتم إسلام المسلم إلا بالإيمان بكل أنبياء الله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

وفي محيط هذه القضية كلها قرر الاسلام : أولاً : إن الملة هي ملة إبراهيم عليه السلام الذي أعطاه الله الوعد والإمامة وجعلها فيه وفي عقبه من الصالحين : (إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي) . ثانياً : إن المسيح عبد الله ونبيه أرسله إلى بني إسرائيل مكملًا للرسالة وليس إلهاً ولا ابن الإله (تعالى الله عن أن يكون له ولد) وإن المسيح لم يصلب ولكنه شبه لهم ، وإن خطيئة آدم ليست خطيئة للبشرية ، ولكنه من عمل آدم الذي تاب منه إلى الله فغاب الله عليه . ولا ريب أن مفهوم الاسلام الاصيل الذي طرحه القرآن قد كانت له آثاره البعيدة المدى في عصر النبي وبعده . فإن وفد نصارى نجران حين حضروا إلى مسجد الرسول بالمدينة وأقاموا لديه أياماً يتحدثون إليه في هذه الأمور وغيرها ، فإن الله تبارك وتعالى قد أوحى إليه أن يدعوهم إلى المباحة بشأن إصرارهم على مفاهيمهم في المسيح والمسيحية وعدم تقبل مفاهيم الاسلام : (فن حاجك فيه من بعد ما جارك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبذل فتجعل أئمة الله على الظالمين) . فلما دعاهم الرسول إلى المباحة ترددوا وتراجعوا والسحبوا . ومع ذلك فقد ظلت المسيحية مضطردة في مفاهيمها وتفسيحاتها عنصرية الاسلام من أجل هذا الخلاف ، ولقد تدفق الاسلام وتلك شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي والجنوبي ودخل للناس في دين الله أفواجا ، في هذه المنطقة التي سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية بيلينيته ووثنيته ثم بمسيحيته أكثر من ألف عام . وانطوت منها الفتنة السريانية في سوريا والمسيحية في مصر وخليج الفرية وبدا كان البحر الأبيض المتوسط مجال صراع واسع ، حاولت فيه المسيحية اقتحام أرض الاسلام مرات وخاصة في الحروب الصليبية ثم في الحملة الاستعمارية الحديثة التي سيطرت على أغلب أراضي الاسلام والتي حملت لواء التهريب والاستفراق والتبهر في محاولة تعريف تاريخ الاسلام ومفاهيمه . ولكن الاسلام لم يقف من المسيحية إلا موقف السباحة والكرامة كما وقف من عيسى عليه السلام وأمه الصديقة ، ولا أدل على ذلك من اليهود التي كتبها الرسول لأهل نجران ، والتي كتبها عمر لأهل إيلياء (بيت المقدس) وسماح المسلمين لأهل الكتاب (يهوداً ومسيحيين) بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في الوقت الذي قامت فيه المسيحية الفرية بقتل ٧٠ ألف مسلم في بيت المقدس ومئات الألوف في الأندلس .

كما أحل الإسلام للمسلمين طعام أهل الكتاب ، كذلك فقد حرصت كتابات الغرب أن تجعل لواء التعصب والكراهية والحقد للإسلام فهي لم تعترف بدور المسلمين في تحضير أوروبا وإبكار دور المنهج العلمي التجريبي الذي أنشأه المسلمون . كذلك فقد حاولت أن تصور تأخر المسلمين في هذه المرحلة بأن مرجعه إلى الإسلام :

يقول الكونت كاتيان : د من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جليلة إلى المسيحية ، إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يبق أي دليل على نهضتها أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب والعجم فإذا يكون مصدر غربي آسيا وأوروبا في القرون الوسطى المظلمة أو لم تحمل النهضة العروستانية التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين لحجب وجه الحقيقة . ولا ريب أنه كان من عوامل الخلاف بين الفكر الغربي وبين الإسلام تلك الحواجز التي حالت دون النظر الصحيح . (أولاً) عقيدة المسيحية في الألوهية والنبوة . (ثانياً) خصومة الكنيسة للإسلام وتحريضها على الحروب الصليبية . (ثالثاً) الصلة التي قامت بين الغرب والدولة العثمانية خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة . يقول م . ر . ح . كونت : إن الكثير من الغربيين شبوا على كراهية الدين الإسلامي وارتضعوا ذلك في لبنان أمهاتهم ، ويقول : بينما شب المسلمون جيلاً بعد جيل على الإيمان بموسى وعيسى وعلى حب المسيح ومريم والأديان والكتب السابقة جميعاً . ولا ريب أن الخلاف الأساسي بين الإسلام والمسيحية ناشئ من اختلاف مفهومهما لله فإن التوحيد الخالص هو أساس الإسلام والتثليث هو أساس المسيحية وعن ذلك جرى الاختلاف في تفسير الحياة والعقيدة والمجتمع ، كذلك فقد رفض الإسلام فكرة الأبرة والرهانية وفكرة طلمية المسيحية . ويقرر الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي إن المسيحية الغربية هي التي أنفست لتفسيرات على النحو الذي خرج بها عن الأصل المنزل . ولا ريب أن المسيحية استطاعت أن تدمر الوثنية وأن تمهد للإسلام وأن تعد للبشرية لدين الانسانية حين دعت إلى كسر عنصرية اليهودية ومبادئها ، وإعلاء مبدأ الرحمة والأخوة البشرية والأخلاق غير أنها حين قضت على المادية لم تستطع أن تتوسط ومالت إلى الرهبانية وجاء الإسلام كما يقول الدكتور الفاروقي ليرد الأمور إلى طريقها الصحيح إلى الخلفية الابراهيمية القائمة على التوحيد والرحمة والأخاء البشري ، ومن هنا ولإصالتها ولعظمتها انتشر بنفس السرعة الخاطفة في مختلف المواقع العربية التي كانت المسيحية مسيطرة عليها وفي الأندلس استقر سيمائة عام . جاء الإسلام مذكراً ومؤكداً لرسالة الله الحق (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب) . (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله) جاء للفضاء على حد الاقتراء وسوء فهم . جاء بكتاب على إملاء يكون نصه بمثابة الصخر الذي لا تتغير بتغير المفاهيم والثقافة . وهذا هو السبب التاريخي لقداسة لغة القرآن وحروفه ،

حصر القرآن في اللغة العربية ، حصر مبادئ التفهم بلا خوف مما حدث للكتب السابقة من تعريق أو ترويم أو تفريس ، معلناً أرلية طاعية الدين وجوهره . كذلك كشف الاسلام حقائق جديدة جاء الاسلام ارتقاءً وتقدماً على ما سبقه من رسائل إلهية وإن اتفق معها في جوهر الرسالة بفتوحات جديدة في الدين والأخلاق . أهمها الميزان الأخلاقي وثبات القيم . لقد عجزت المسيحية عن العالمية التي حاولت أن تقوم بها لأنها ليست ديناً عالمياً بل ديناً مكلاً لأديان بني إسرائيل . جاء الاسلام بعالمية مبنية على الأخلاق والارادة : « بناء الأمة » (كنتم خير أمة أخرجت للناس) : تحقيق الخير والعدل . تحقيق الإرادة الإلهية حيث عجزت المسيحية واليهودية عن تحقيق الإرادة الإلهية أو إنشاء المجتمع الرباني . جاء الاسلام يقول بالآخوة العالمية تحت القانون الأخلاقي (أخوة عالمية مبنية على القانون الأخلاقي) . يقول تاريخ الأديان : إن الاسلام جاء بمنهجية جديدة لم تكن مألوفاً وإن كانت أصولها راسخة في الروح العربية وهي الدعوة إلى الله عن طريق تربية الأخ لأخيه الأصغر ، . ولا ريب أن هذا العرض يفسر الأخطاء والعقبات التي حاول التخريب والتبجح والاستشراق إثارها في أفق الفكر الاسلامي ويرسم الخلفية التاريخية لموقف الغرب من الاسلام : ودعوته وتاريخه .

الفصل الثاني عشر

ما قبل الإسلام

هناك تلك المحاولة المسمومة لتزييف التاريخ الاسلامي بالقول بأن العرب قبل البعثة كانت أمة مهينة للحضارة والملك وأنه لما جاء النبي عليه السلام نهض بهم فنهضوا ووجههم إلى الفتح والسيطرة فوصلوا بعد زمن قليل إلى ما يريدون، يردد هذه الشبهة أغلب المستشرقين وكتاب الغرب ومنهم هاسنيون ومرجليوث وغيرهما ، وهم تطفئ في نفوسهم تلك الأحقاد التي تظلمت ؛ لأن الاسلام استطاع في أقل من قرن من الزمان أن يمتد من الصين إلى حدود فرنسا ، ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة بطلاناً شديداً لأن العرب قبل الاسلام لم يكونوا متحضرين على ذلك النحو الذي جعلهم مستعدين لاستقبال الاسلام فقد قاوموه مقاومة شديدة امتدت في مكة ثلاثة عشر عاماً ، واضطرت الرسول إلى أن يتخذ بمنة أخرى لنشر دعوته . ولو كانوا على استعداد سابق للحضارة أو الملك لما وقفوا موقف العناد والخصومة الشديدين على هذا النحو الذي وقفوه من الدعوة الاسلامية ولجروا تلك الحرب العنيفة التي حاربوا بها الرسول . يقول الأستاذ محمد فريد وجدي : « إن قريشاً وهي أرقى القبائل لغة وفهماً ومكانة لم تقبل دعوة النبي إلا رجلاً ونساء لا يربو عددهم على بضع عشرات وأن أتباع الأوابين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا إلى بلاد الحبشة وأن النبي لبث على هذه الحالة من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة فلما أحست قريش من النبي الهجرة اعتزمت قتله وترصدت له ، ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره .

كل هذا ينطق بـأن فصيح أن قريشاً وهي مظنة للنجاسة والفهم من العرب في ذلك العهد لم تكن قد استمدت للملك ، فإن المجتمع الذي يقاوم الداعي للتجديد والنهوض بهذا النفوذ ويصر عليه ثلاث عشرة سنة لا يرداد بعد هذا عناداً وتعصداً . هذا المجتمع الذي يقاوم الداعي بهذا النفور العظيم وينتهي أمره معه إلى الخضوع له كرهاً لا يهتبر أنه استعد لإقامة دولة ، فلو ترك وشأنه لبقى على ما كان عليه ، ولو أن قريشاً وهي أقرب العرب إلى الحضارة قابلت دعوة (محمد) بصدر رحب وأحاطها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وإبطال وئذيتهم لساخ أن نقول : إن محمداً لم يعمل أكثر مما يعمل البناء ، وجد أحجاراً منحوتة ومواد جامزة فأقام بها قصراً فخماً ، أما وقد أراد أن يجعل محمد مركز دعوته يرب لائق يسكنها الأوس والخزرج ، وهما من مهاجرة اليمن ، وليس لهم أقل ميزة بين العرب . ولم تكن لمجتبى الفصيحة المنتحلة ، ولا جماعتهم بذات القوة والمنعة ، بل كانوا أسوأ ما يكون عليه قبيلتان من القناحر وتنازع البقاء . أما وقد أراد الله أن يتخذ محمد رجلاً هاتين القبيلتين أنصاراً لدعوته ومدينتهم عاصمة لدولته بعد أن خذله أقوم العرب لهجة ، وأقربهم للنهوض مطية ، فقه أمكن كل ناظر أن يقدر عظمة روحه العلوية ، إذ تولت أبعاد القبائل عن فطنة التأهل للنهوض ، وأفلها وسائل لتقويم دورها ، فصاغ منها نواة تصلح أن يجذب إليها مواد البناء والاكتمال وأن تحييها وتخرجها من مجدها القديم . وأن تؤلف فيها مجتمعاً فتيماً ملوفاً حياة وقوة يصلح القيام بنفسه ، وللإحداث أكبر حدث في العالمين ، إن هذه الآية من آيات التاريخ البشري لا تسمح لباحث باسم البحث العلمي أن يتجاهل أمرها .

والواقع أنه البحث العلمي الغربي لا يستطيع أن يستوعب أبعاد فهم التاريخ الإسلامي لأنه يضدر عن مفهوم النظرية المادية أو المنهج التجريبي وكلاهما يعجز عن تقدير ما سوى المادة أو الاقتصاد من العوامل المعقدة التي تعمل عملها في التاريخ ، وبذلك لا يستطيع التصور العربي أن يرى أن الإيمان الذي ملا قلوب هذه الجاهة الصغيرة التي أنشأها الرسول ورباهما وكونها في مكة والتي تدافعت تحمل لواء الجهاد والفتح والتوسع إلى إقامة الأرض قد استطاعت في هذه الفترة القليلة أن تسيطر من حدود الصين إلى حدود فرنسا في فترة لا تزيد عن ثمانين عاماً بلغت أقل من ذلك الامبراطورية الرومانية في ثمانمائة عام . وإن ما يوصف في الجزيرة العربية بأنه حضارة لم يكن إلا ذلك اللون من التراث المادي الذي حققته رحلتا الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن ، ولما كان هذا المجتمع لم يكن مؤهلاً قبل الإسلام ليحمل حضارة لأنه كان وثنيًا غارقاً في الفساد الاجتماعي مضطرباً أشد الاضطراب ، ولذلك فإنه عارض دعوة الحق إذ جاءت . وخاصم كلمة الحق عندما نزلت على رسول الله من أمه ، لأنه أحس بأن كلمة التوحيد سوف تغير نظامه الاجتماعي المتطاوّل بالربا والثراء الفاحش والارف والشرك والخمر وواد الأولاد ولعب الميسر والزنا . وإن هذه الصورة لمجتمع الجاهلية الواضحة معروفة في كتب التاريخ القديم ولكن كتاب الغرب يحاولون أن يفضوا من تلك الممجة الحارقة التي حققت هذا الفتح الذي ركز كلمة الله في الأرض حقداً أو حسداً محاولين أن يبرروها على هذا النحو الواثق .

إن الرسول ﷺ قد أنفق ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة إلى المدينة يدعو القبائل في مكة وما حولها

وما ترك قبيلًا إلا عرض عليه كلمة التوحيد فلم يجد إلا المعارضة والخصومة ولم يجد أنصاره إلا الإيذاء والقتل ، فكيف يمكن أن توصف الحياة في بلاد العرب في هذا الوقت بأنها حضارة مستعدة لأن تجد قائدًا يدفعها إلى النهضة .

الحقيقة أن الإسلام أنشأ الحضارة من الكلمة الأولى (لا إله إلا الله) وأنه بنى هذا المجتمع لبنة لبنة وفرداً فرداً هذه الجماعة الصغيرة هي التي شككت في يثرب المجتمع الإسلامي .

ولذا كان بعض الباحثين يحاولون أن يقدموا صوراً رائعة الحياة في الحياة الجاهلية من القوة والبطولة ومن الشعر والأدب الإنساني ومن المثل العليا . وجوانب للمعرفة وصور الخلق الرفيع ، وهذا أمر لا سبيل إلى إنكاره ، وليس غريباً أن يكون في الجاهلية لأنه ميراث النبوة ومهراث الخنيفية السمحاء التي حل لواها إبراهيم وإسماعيل ، وكل ما وجد في التراث العربي قبل الإسلام من خير وإيمان وخلق وإبل وكرم فإنما هو بقية الخنيفية ، ولقد ظل أولئك المؤمنون بالخنيفية يتوارثون إيمانهم بالله حتى جاء رسول الله ﷺ وكان يطلق عليهم اسم (الخنفاء) .

الباب الثاني

تاريخ الإسلام اليوم

- أولاً : الإطار الذي تحرك فيه تاريخ الإسلام .
ثانياً : كتابة السيرة .
ثالثاً : الجهاد والفتح .
رابعاً : الخلاف بين الصحابة .
خامساً : ثورة الونج والقرامطة .
سادساً : مسألة الموالى والعرب .
سابعاً : المروبة والإسلام .

الفصل الأول

الإطار الذي تحرك فيه تاريخ الإسلام

عند ما أنزل الله الإسلام في شبه جزيرة العرب في مكة على محمد بن عبد الله كان ذلك علامة على أن البشرية قد دخلت مرحلة الرشد الفكري الذي يؤهلها لتلقى رسالة عالمية شاملة قوامها معجزة للبيان القرآني الخالدة الباقية على الزمان ، بعد أن كانت رسالات الأنبياء والرسل للأمم مختلفة وعصور متباينة . وبذلك فصل الزمن بين رسالة الإسلام وبين الأمم السابقة له . بحيث يمكن القول أن دهر ما قبل الإسلام كله كان بمثابة تمهيداً لدخول البشرية إلى عصر الدين الخاتم : دين الإنسانية كلها بعد أن مرت بمرحلة التمهيد لرسالة الخالدة بالهدوة إلى الله الواحد الأحد متمثلة في أنبياء الأمم وكتبها فكان الإسلام هو رسالة الله تبارك وتعالى منذ خرج الإنسان ألقاها إلى الرسل جيلاً بعد جيل حتى أصبحت البشرية مؤهلة لتقبل منهج الحياة الثابت بثبات في شريعة الإسلام التي أصبح على كل صاحب دين منذ نزلت أن يدخل في دين الإسلام كما بشرت به كتب السماء التي سبقت القرآن : التوراة والإنجيل وذلك ليظهره على الدين كله وليصبح كتابه (القرآن) مهيمناً على كل كتاب : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) ومن هنا فقد قدم القرآن للمسلمين صورتان كاملتا الأبعاد :

١ - صورة الكون كله « المتناهي » ، منذ خلق الله الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو الغيب كلها التي وراء المنظور من سموات وجنة ونار .

٢ - صورة التاريخ البشري كله منذ خلق آدم وأمره في الجنة ونزوله إلى الأرض وامتداده في ذريته ونزول الأنبياء والرسل داعين إياه إلى الله بصفة عامة ثم لإيضاح المرحلة التي بدأت بالحنيفية السمحاء به إبراهيم عليه السلام الذي جعل الله النبوة والكتاب فيه وفي أبنائه إلى يوم القيامة والذي

جاء منه موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل والأنبياء ، وبذلك تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . قدم القرآن للمسلمين هذه الصورة الشاملة للتاريخ القديم ليبدل المسلمين على الطريق الذي يسهرون فيه على هدى الله : طريق النبوة : (يريد الله أن يهديكم سنن الدين من قبلكم) لقد كشف القرآن للمسلمين تاريخ البشرية وكيف قامت حضارتها وأممها وكيف سقطت . وقدم لهم صورة الحدث الضخم : حادث الطوفان ثم ما أصاب قوم عاد وثمود وقوم لوط ومدين وكيف تحطمت حضاراتهم عندما انحرفوا عن طريق الله الذي رسمه للبشرية (الملك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . كذلك دعا القرآن المسلمين إلى النظر في تاريخ من سلف من بنى آدم : (وقد خلق من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان طاعة الكافرين) . وحذروا من التبعية ومن البطانة ومن السبل المتفرقة حتى يستطيعوا أن يستوعبوا عبرة التاريخ في العصور السابقة ويراجعوا الحياة وهم قادرون على النظرة الواسعة ذات الأبعاد المختلفة . يقول الأستاذ علال الفاسي :

للتاريخ في نظر الإسلام مرحلتين لا بد من الوقوف عندهما . (أولاً) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ، ولم يكن محمد بدءاً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تهمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تجد وتضلع لتفتح آفاق التقدم الإنساني فكان لابد أن يبعث الله الرسول الخاتم : وكانت مهمة النبي أن يضع الناس في جو الرشاد المبني على العقل والروح والقلب والجسم ، ومن هنا فإن كل ما سبق من عمليات التاريخ كأنه يهدف لغاية واحدة هي وجود الرسول نفسه ، وبذلك يصبح الماضي وكان ما قبل التاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الإسلامي والبشرية كلها ، مخاطبه ليسير وفق ما يرشد إليه ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع . كذلك فقد دعا الإسلام للبشرية إلى الوعي بالتاريخ الماضي والقائم جميعاً وصولاً إلى الحتمية الوحيدة وهي الحياة الآخرة : التي تكون هذه الحياة الدنيا منطلقاً ومجالاً للعمل ، وتكون هي المقر الأخير بالحساب والجزاء . هذه هي الغاية من فهم التاريخ وفهم الميثاقين بقياماً معاً : الاستعداد للمرحلة الأخيرة بالعمل في هذه الدنيا في ضوء عبء التاريخ الماضي والنهاية الحتمية للكون والإنسان ، وكيف يمكن أن تكون الحياة الدنيا في ضوء هذا الفهم آمنة مليئة بالسكينة والخير والهدى لأن البشرية تسير في طريق الله وتعمل على إقامة المجتمع الرباني . هذا الإنسان الذي أعطاه ربه القدرة على الحركة والإرادة والمسئولية الأخلاقية ليكون له من وراء ذلك الجزاء ، هذه الإرادة مسئولة في حدود قدرتها وحريتها وما قدمت من عمل ، ومن هنا فإن للإنسان دوره في صناعة التاريخ وبناء المجتمعات وإنشاء الحضارة وله أيضاً مسؤوليته عن الوجهة التي يتجه إليها في هذا العمل . (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) . وهكذا نجد أن الإسلام حين جاء فتح صفحة جديدة للبشرية من حيث طلبة الرسالة وخلودها . ودعا الأمم القائمة إلى الدخول في دين الله :

لأنه هو الدين الحق الذي قامت عليه السموات والأرض فقد خلق الله الإنسان الأول آدم ومنه أرسل الله أول أنبيائه نوح . (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) . أعلن الإسلام وحدة الدين ووحدة البشرية والتوحيد الخالص لخطم الوثنية والأصنام وعبادة غير الله . وقدم للبشرية منهج الإخاء الإنسانى لخطم العبودية والإذلال ومظالم الفرونية والقيصرية ودعا المسلمين إلى النظر في السكون فأنشأ المنهج العلمى التجريبي الذى هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم ، ولقد استطاع الإسلام لأنه الفطرة والحق وضياء النفس البشرية الاصيل أن يوحف فى خلال قرن لا يزيد حتى سيطر على ثلاث قارات : آسيا وأفريقيا وأوروبا من حدود الصين إلى نهر اللوار فى قلب فرنسا وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق وغلب على اللغات والأديان ، ونقل العالم كله إلى نور التوحيد ونفذ بأشعته إلى قلب أوروبا محررها من الوثنية والرهبانية ، وأدخلها إلى عصر النهضة . وكان الإسلام هو العامل الأكبر الذى أدخل العالم كله إلى العصر الحديث .

(٢) ولا ريب أن الإسلام هو الحد الفاصل بين القديم والجديد وأنه هو الحادث العظيم الذى غير مجرى التاريخ العالمى كله ، ومنذ أن نزلت آياته إلى اليوم وهو يعيد الأثر فى كل أحداث البشرية وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولستأ نحن المسلمين الذين نقول هذا فيؤخذ على أنه تجاوز فى تقدير الأمور ولكن كتاب الغرب هم الذين يعترفون به ، فيقول هنرى بهرن مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) إن الإسلام هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة عمرتان من ثمار الإسلام وإن ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدى إلى هذا التحول فى التاريخ هو قول خاطئ . فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة اليبس إلى السادة فما كان يحظر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تناوى روما وتقضى عليها . أما المسلمون فكانوا يمتدحون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تضرعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم . ولقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا فى نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما إلى بيزنطة وأصحاب حياتها العقلية والمادية شئ من الركود والفساد ، ولكن لم تسكد نهب (ثورة الإسلام) ونهبر ركائبه إلى أراضى اليونان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوروبا حيث قامت الممالك التى كتبت تاريخ أوروبا فى العصر الوسيط وأبان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوروبا فلم تقع فيه فى تلك العهود إلا موقعة (بوآنيه) التى انتصر منها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولاً ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ، وظل البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوروبا الحديثة والثورات الفكرية التى تخضعت عنها الحضارة الراهنة ، وهكذا نجد أن الإسلام قد غمر العالم كله ، غمر الهامى الشرقى والجنوبى البحر الأبيض المتوسط فأدخله

في السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا حتى أخرجت القبائل التركية من وراء النهر وواصل زحفه إلى الصين ، وفي الغرب اقتحم الأندلس ووصل إلى نهر الغوار ، ثم لم يلبث أن اقتحم أوروبا من البلقان حتى وصل إلى أسوار فيينا .

(٣) كذلك كان الإسلام عامل الانقطاع الحضارى بين الحضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود ، فبعد ألف عام تقريباً عاشتها هذه المنطقة التي انداح فيها الإسلام : (المنطقة العربية) (الهلال الخصيب والشام ومصر وأفريقيا) في أيدي اليونان والرومان ، لم تلبث بعد سنوات قليلة لا تزيد على قرن من الزمان أن تحولت تماماً إلى رسالة التوحيد ففسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة وأقبلت على الإسلام إقبالاً تاماً ، مع أن الإسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه وإنما أقام حكمه العادل وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة في حياتهم الدينية وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل في مختلف المجالات في سماحة ورحمة ، غير أن هذه الطوائف العربية المهددة سرعان ما انصهرت في البعثات التي طاشت فيها ولم تستعل عليها استعلاء سلطان أو استعمار ، وإنما تأخدت معها وأصبحت أليها ، ومن ثم فقد دخل الناس في دين الله أفواجاً ، من عرفوا أن ذلك الحكم السامع العادل الذي حررهم من مظالم الرومان هو من عند الله ، لذلك فقد دخلوا الإسلام الذي كان موجوداً في أعماقهم وضمائرهم منذ رسالة الحنيفية الإبراهيمية التي جدها محمد ﷺ واتصل بها بعد أن انحرفت في مرحلة ما بينهما . ومن هنا فإن الانقطاع ليس إلا عن المرحلة القليلة التي تعثرت فيها الطريق من الحنيفية إلى النصرانية وكان هذا أمراً طبيعياً في التاريخ فصر العربية قد انفصلت عن مصر الفرعونية انفصالاً تاماً لأن مرحلة الفرعونية انحرفت عن الإبراهيمية ، وكذلك فإن سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية ، وإن العراق العربي قد انفصل عن العراق الآشوري والبابلي وبالإسلام عادت سبيلها الأولى إلى الربط بين الحنيفية الإبراهيمية والحنيفية المحمدية . وحين جرت المحاولات في العصر الحديث لإعادة البلاد العربية إلى تاريخها قبل الإسلام بإحياء الفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية ، فطست هذه المحاولات فعلاً ذريعاً لأنها كانت تجرى ضد تيار التاريخ .

(٤) كذلك فإن رسالة محمد قد غيرت كل أساليب الحياة وظهرت أسلوب الهدوء إلى الله فقد توقفت منذ رسالة محمد أسلوب الآيات ، التي عرفت في رسالات الأنبياء الأولين من المعجزات والحوار كعصى موسى أو ناقة صالح أو إحياء عيسى للنوق فقد أذن الله تبارك وتعالى أن تدخل البشرية عصر الرشد الفكري فتخطب بمعجزة البيان القرآن الذي تهدى الله الجن والإنس أن يأثروا بمثله ، وقد عجزت الجن والإنس وما يزال التحدى قائماً ، وأعلن القرآن موقفه من الآيات (وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) . كذلك جاء القرآن بهنج يسمح لكل الناس كل الطوائف ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم في العصور الماضية ، وكان ذلك لهاذا بأن للبشرية أصبحت مؤهلة وراشدة . فألقى الإسلام زواج الأخت وزواج زوجة الأب وقتل الأبناء خشية إملاق . فكان أن رفع الإصر ووضع الأغلال بما كان من عدم مؤاكلة الخائض وقطع اللباب النجسة وللقصاص حتى في الخطأ ، وقد خفف الله عن هذه الأمة كل ذلك وأباح مشروعية الدبة

(كتب عليكم القصاص في القتلى) كذلك عفا الله عن حديث النفس ما لم تعمله الجوارح ، وأباح الصلاة للمسلمين في كل مكان وكانت تباح في أما كن مخصوصة ، وأباح لها العمل كل الأيام ما عدا ساعة الصلاة من يوم الجمعة وأعطى الرحمة الخاصة للأمة المحمدية ومنحها صفة الأمة الوسط وأن قومها هم الهداء على الناس : وهكذا جاء الإسلام بشريعة صحيحة رحيمة خالدة للعالمين بعد أن انتهى عهد الشرائع المؤقتة والخاصة بأسم بعبثها والموقوتة بأجال طويلة أو قصيرة ، ودعا الأمم كلها إلى الدخول في دين الله أفواجا . وبذلك اكتمل في الشريعة الإسلامية : الثبات والحركة فاحتملت على عناصر الثبات والاستمرار والحدود والضوابط اللازمة لحماية المجتمع الإنساني وعناصر الحركة والتجديد والتعبير المناسب للمصور والبيئات . وهكذا ارتفع الإسلام بالشريعة الربانية درجة أخرى عما كان في شريعة التوراة وشريعة الإنجيل لجمع الله بين العدل والإحسان ، وبين الروح والمادة ، وبين الدنيا والآخرة ، وجعل جزاء الحسنة مضاعفاً إلى سبعمائة ضعف وجزاء السيئة سيئة مثلها . وجعل العفو درجة أعلى من درجة العقوبة . (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم لموعظهم للصبرين) . وأعطى الشريعة صيغة الالتزام الأخلاقي وأعطى الإنسان حرية الإرادة مرتبطة بالجواب الآخرى .

(هـ) وقد أثبت الإسلام قدرته على البقاء والاستمرار والتقدم ، فما دخل في أرض وخرج منها ، وما استطاعت الالتزامات أن تقضى عليه أو تجعله ينهار ، وظل محتفظاً بذاتيته الخاصة الواضحة عن غيره من النحل والأديان ، ذلك لأنه قام على أنه دين عبادة ومنهج حياة ، وأنه وضع تعامله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية في صيغ كلية وأصول عامة وأطلق للمجتمعات حرية رسم طريقة الحركة والتفاصيل في ضوء متغيرات العصر والبيئة دون الإخلال بالأصول العامة والحدود الثابتة . ولقد ظهر الإسلام المجتمعات التي دخلها ، حررها من الوثنية ورفعها إلى مجال العزة والكرامة والنظافة والطهارة ، يقول أحد الباحثين الغربيين : « متى دخلت قبيلة من القبائل الوثنية في الإسلام اختفت عنها في الحال عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الإنسان وتقديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظافة ، وشعروا بالمعظمة واحترام النفس وصار كرم الضيوف عندهم من الواجبات الدينية ونذر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافي للعفة وفوض اختلاط الجنسين وصار طهارة المرض من الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل وحل العمل والمكد محلها وتغلب النظام والرياسة على العشاق وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد وعظم الشعور بالإسمانية واللعطف والأخوة ودخل الرق وتمدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويظفقه . » وألقى الإسلام التفرقة العنصرية والتعصب ودعا إلى الأخوة البشرية والمساواة أمام الدولة وأمام الله وعرف الأئمة الإسلامية بالأئمة الوسط ليس فقط في تزيين الفرد من المجتمع ولا المجتمع من الفرد لحسب وإنما في السلوك الخلق بين الإفراط والتفريط . وتقوم المسئولية في الإسلام على أساس أن الأصل في الإنسان الخير على خلاف ما تقول به أديان أخرى من أن الإنسان خلق خاطئاً وخلاف ما جاءت به التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان في أول أمره دنساً فهو من أجل هذا محمول على أن يتخبط في سلسلة من التمهص بينما يقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاماً .

ولقد كان الإسلام منذ اليوم الأول دعوة عالمية للبشرية كلها وآيات القرآن الأولى في مكة تشمل هذا ، فهو دعوة خاصة إلى أهل مكة ودعوة عامة للعالمين ؛ وصلة الإسلام بإبراهيم صلة جذرية بدأت مع بدأ الدعوة في مكة ولم تكن بما جاء بعد الهجرة إلى المدينة ، ودليل ذلك أن السور التي تسجل هذا كله مكية نزلت بمكة . وقد قام الإسلام على قاعدة (لا إكراه في الدين) ولذلك فهو لم يقم دعوته على الإكراه أو الفتح ، وإنما أقامها على الحجة والبرهان ولم يتعرض للنصارى واليهود بل حافظ على كياناتهم ومقدساتهم وسمح لهم بممارسة الحياة العامة دون أى نوع من أنواع الضغط أو الإرهاب . ومن أجل هذا طبع الإسلام حياة معتنقيه وما زال يطبعها وسيظل يطبعها إلى ألوف السنين ، وإن أى حركة فكرية أو اجتماعية تتجاهل هذه الحقيقة البديهية ، فبى تتجاهل الإطار الطبيعي لحركة الفكر والمجتمع الإسلاميين .

(٥) إن أكبر ما أعطى الإسلام : الفكر والذكر والبيان والعلم في سبيل معرفة الله تبارك وتعالى وآثاره في السكون والإنسان والمجتمع والحياة . لتعرف على نوايس الله في السكون وسنن الله في المجتمعات ، تلك هي أعلى درجات الرشد الفكري الذي دخلت ساحته البشرية بالإسلام . الارتفاع فوق طفولته البشرية بالنظرة السامية ذات الأبعاد التي تربط الأزل بالأبد والدنيا بالآخرة ، وتستمد أول حركتها من نقطة والتوحيد ، الخالص لتعود إليه في نهاية الجولة لا تنفك عنه ، ومن هنا كانت معجزة الإسلام هي معجزة بيان وفكر وأصالة . ولذلك جاء القرآن معجزاً في بيانه ومضمونه فدعا إلى الحوار والبرهان والتفكير والنظر في السكون : (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) .

(٦) وبالجملة فإنه منذ ظهر الإسلام وكل حدث في العالم والبشرية مرتبط به على نحو من الأنحاء فلم يزل منذ ذلك التاريخ عاملاً مؤثراً في الأحداث لأنه قدم للبشرية الدين الأول من جديد وأقام عالماً خالصاً مستقلاً متديناً بنظرته الربانية إلى الحياة وأسلوبه الإنساني في العيش وحضارته القائمة على العدل والإخاء وفكره القائم على التوحيد .

لقد حمل الإسلام إلى البشرية في مرحلة استرشادها : العدل والإخاء والتقدم وأكد المساواة وعدم التفرقة العنصرية وحث على طلب العلم وأكد أن العلم فريضة ، ثم قدم منهاجاً كاملاً تلتقي فيه غايات النفس ومطامعها العالية ويتم به بناء الفرد وبناء الجماعة متكاملين مترابطين دون أن ينقص عن قدر أحد منهما شيئاً . ولقد أعطى الإسلام القائم على التوحيد : أعطى الجماعة الإسلامية شحنة ضخمة من القوة والایمان وحب الاستشهاد والتضحية دفعت المسلمين في أقل من قرن إلى السيطرة على القارتين آسيا وأفريقيا وإلى الامتداد من الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا ، ثم كانت جولة الإسلام في توسعه وامتداده حين دخل أرضاً جديدة في جنوب شرق آسيا وغرب أفريقيا فافتتح قلوباً جديدة فأضاف إلى معتنقيه الأول عدداً مضاعفاً ، ولقد كان الإسلام على مدى التاريخ : عامل القوة وعامل المواجهة لكل ما أصاب المسلمين من أخطاء وتحديات وأزمات ، وفي العصر الحديث كان مصدر كل حركات التحرر التي قامت بها

الغروب ، فقد انطلقت النضالات الوطنية كلها من تحت راية لا إله إلا الله والله أكبر وتحت اسم الجهاد في سبيل الله . ومن أبرز قوانين الإسلام وسننه التي لم تتخلف قدرة هذا النظام الفاتكة على تهديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلها انحراف هذا الفكر أو أصابته دخائل تحول بينه وبين جوهره الأصيل ، وبذلك كان دائماً كيئافاً حياً قادراً على الحركة والنمو والامتداد متمكناً من التجدد كلما أصيب أحد أطرافه بعطب . ومن هنا كانت قدرته الفاتكة على التوسع والاستقرار في مختلف البيئات والتكيف مع عديد المجتمعات . ومنذ أن برغ نفسه إلى اليوم لم يتغلب عليه متغلب من الدعوات أو الأمم وإن امتحن أهله بالآزمات والشدائد فكانت الألا يخرجون منها حتى يعودوا إليه .

ولقد كشف الإسلام عن قدرة كاملة على الحركة والنمو والتوليد والاخذ والعطاء - كل ذلك داخل إطاره الثابت الأصيل ومع احتفاظه بذاتيته فهو يواجه المؤثرات الأجنبية حين تفرض عليه فلا يخضع لها ولكنه يستفيد منها ويتقبل الصالح لنموه دون أن يدها تحيطر عليه أو تغير ملامحه أو تحول طريقه أو تحتويه .

لقد جاء الإسلام حاكماً على الأمم والمدنيات ولم يهـ محكوماً فهو ليس مطية فلولاً للحضارة الحديثة وليس خادماً للمجتمعات أو الدعوات والمذاهب بل هو نظام مستقل كامل جامع لمقوماته الأصيلة التي قد نقشابه في بعض مظاهرها مع دعوات أو أديان ، ولكنه في مجموعه لا يخضع ولا يستسلم ولا يحتوى . والمسلمون يرون أن كل وسائل الأمم وأدواتها في النهوض والتقدم بمثابة عن (مواد خام) يأخذون منها ما يشاءون دون أن يقرهم هذا على معارضة أصل من أصول نظامهم ، وهذه المواد من شأنها أن تنصهر في بوتقة الإسلام فلا تنصهر وتتحول في إطاره ولا تتحول به .

(٧) وفي هذا الضوء الكاشف لهذا الإطار تسقط تلك المفاهيم التي حاول طرحها أهل الكتاب في إطار الإسلام دون أن يتبينوا ذلك والبعد ، الذي اعتمد به الإسلام عن حدود ما وقعت البشرية قبل نوره . ومن هذا نعرف تلك الصلات بين الإسلام وبين اليهودية والمسيحية وبين كتاب القرآن وبين التوراة والانجيل (الأصليين الموجودين وليس الآن في أيدي الناس) لا ريب أنها صلة المصدر الواحد : الحق تبارك وتعالى الذي أنزل الدين والوحى والنبوات ولكن : هناك في القرآن شيء يجعله مهيئاً على الكتب وفي الإسلام أشياء تجعله ظاهراً على الدين كله . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : مثل ومثل الأنبياء من قبل كرجل بنى بيتاً فجعله وحسنه إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فكان الناس يطوفون بالبيت ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين .

الفصل الثاني

كتابة السيرة

كانت سيرة الرسول ﷺ باعتبارها رأس التاريخ الإسلامى هدفاً من أم الأهداف التى ركز عليها الاستشراق والتغريب والتفسير المادى للتاريخ . ولا ريب أن مولد محمد بن عبد الله وبعثه هو من أبرز الأحداث الفاصلة التى غمرت مجرى التاريخ الإنسانى كله ، وكانت علامة على عصر جديد هو عصر الإسلام الذى أزال عصور الجاهلية وأقر الرسالة الخاتمة ، فكان هو خاتم المرسلين وكتابه خاتم الكتب ودينه خاتم الأديان السماوية . ولا ريب أن جهاد النبي في سبيل تثبيت دعائم هذا الدين واحتمال عدوان الكافرين والمنافقين من أقوى المواقف التى لا يستطيع احتمالها إلا الأنبياء المؤيدون بالروح . ولقد قارب قريش رسول الله ثلاثة عشر عاماً وأدانت من المؤمنين وقاطعتهم واضطرتهم إلى حياة قاسية في الشعاب وضيق الخناق عليهم ، آذتهم حتى نصرهم الله بالهجرة إلى المدينة بعد أن آمن الأنصار وبايعوا الرسول وأيدوه ، فاستطاع بعد سبع سنوات أن يعود ظافراً إلى مكة ، ومنها كانت له القبائل في الجزيرة كلها حين آمنت بدين الله الحق ، وبايعت رسول الله وأتم الله نعمته ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وتحقق قانون النصر الذى رسمه الله لرسالات السماء : (حتى إذا استبأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبروا أتاهم النصر) .

وبذلك برز الإسلام العرب من جاهلية ضالة عمية ، وأخرج البشرية كلها من الظلمات إلى النور ، فأنشأ الرسول على هذه المبادئ ذلك الجيل المعجوب من الصحابة الذين حملوا راية الإسلام ففشروها في آفاق الأرض في سنوات قليلة فامتد من حدود الصين إلى قلب أوروبا . هذا الأثر الخطير الذى قسم البحر الأبيض المتوسط إلى حضارتين ، وأزال أثر ألف عام من نفوذ اليونان والرومان من هذه الأرض المستعمرة الممتدة من العراق إلى الشام إلى مصر إلى أفريقيا حتى وقف (عقبة بن نافع) ودفع حافر فرسه في المحيط وقال : درب لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لأذهب مجاهداً في سبيلك . . هذا الأثر الخطير هو الذى أثار حول الإسلام ورسوله تلك الحملات الضخمة التى حملها الاستشراق والتبشير سواء أكان مصدرها مقايضة خاطئة على أساس التفسير المادى للتاريخ . أو حقداً وكراهية نتيجة خصومة الكنيسة أو خصومة الغرب الذى كان يعتبر هذه الأرض ملكاً له باحتلال الرومان لها .

ولقد ظل الآوربيون في القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر يتناقضون أسخف الأساطير عن الإسلام وظل أكثر المستشرقين يقصدون تفويه الحقيقة وطمسها عن الرسول ﷺ وتدنير السمات حول عدد من القضايا أهمها القول بأن القرآن من تأليف محمد وأن الحديث النبوى من صنع

الفقهاء وأن الشريعة مقتبسة من الديانات الأخرى وأن التشريع الإسلامي متأثر بالقانون الروماني وأن الفتوح الإسلامية ليست إلا مطامع في الغنائم وأن فقر العرب هو الذي دفعهم إلى الخروج لالتماس كنوز المدائن ودمشق وأن الحجاج والجزبة هما اللذان اضطرا الالذمين إلى اعتناق الإسلام وهذا كله زيف لا يثبت أمام الحقائق التاريخية الصحيحة . وهم يزعمون أن الرسول عليه السلام التقى بالراهب بجهرا وتلقى عنه التعاليم الدينية مدة من الزمن مع أن لقاء الرسول مع بجهرا كان في سن التاسعة أو الثانية عشرة ، ومن الطبيعي أن الطفل في هذه المرحلة المبكرة لا يمكن له بحال أن يستوعب المسائل الدينية فضلا عن أن هذا اللقاء - إن كان صحيحاً قد حدث - وهناك شكوك كثيرة حول صحته لم تستمر إلا ساعة أو بعض ساعة ، وقد كان النبي في صحبة عمه فكيف تسنى لبعيرا أن ينفرد بالطفل ليلقنه . كذلك فهناك شبهة القول بأنه تلقى من ورقة بن نوفل مفاهيم المسيحية وورقة بن نوفل لم يدع إلى المسيحية ولمكنه هو الذي قال حين سمع بنزول الوحي على محمد ﷺ أنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . ولو أن محمداً ﷺ أخذ من ورقة لزوج ذلك أهداؤه من المشركين ولساو خبره ، كذلك فإن القرآن قد كذب ما تردد من أنه تلقى شيئاً من إيفين الرومي الذي كان يصنع السيوف وكان الرسول يتوقف عنده أحياناً ، ولقد دحض القرآن هذا حين قال جل شأنه : : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر : لسان الذي يلحدون إليه أجمعي وهذا لسان عربي مبين .

وهناك شبهة القول بأن فكرة عموم الرسالة لم تكن في أول أمر الرسالة وإنما جاءت بعد ، وأن هذه الفكرة برغم كثرة الآيات والأحاديث التي يؤيدها لم يفكر فيها محمد بنفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب وأن محمد لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم - هذه الشبهة التي أوردتها (موير) في كتابه عن الخلافة ورددها كثيرون يدحضها أن الآيات المبكية منذ أول الدعوة حملت فكرة عالمية الإسلام وعموم الرسالة وأن ما جاء في القرآن المبكي كله يثبت أن القرآن جاء مهيمناً على الكتب السماوية وأن الإسلام إنما جاء ظاهراً على الدين كله . وهناك من المستشرقين من شكك في عام ولادة النبي وقد ادعى هنري لامنس أن ولادة النبي كانت عام ٥٨٠ م خلافاً لجميع الآراء التي تتفق على أنه كان عام ٥٧٠ م .

كما اتصل هذا التشويه ببیت النبي لحاول لامنس أن يرسم صورة مشوهة للسيدة فاطمة الزهراء دون أن يقدم أى مستند تاريخى موثق . وتعرض آخرون إلى زواج الرسول كي ينفذوا إلى الطعن في التعدد وفي شخصية الرسول وإثارة ظلال حول ميوله الجنسية وفاجهم أن الرسول لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين وأنه إنما فعل ذلك من أجل تثبيت قواعد الدعوة ، وهناك من يحاول أن يستغل حديثاً ضعيفاً وصف فيه النبي بأن قوته تعادل قوة أربعين رجلاً ومنهم من يتحدث عن زواجه بعائشة ويصفها بأنها العروس البكر ومنهم من يتحدث عن زواجه بزینب بنت جحش ، وكل هذه محاولات تستهدف النيل من الرسول الكريم وتدور حول إعطاء صورة خاطئة تماماً عن شخصية النبي بإيراد أحاديث غيـر ثابتة أو موضوعة . أو عرض شبهات كهـمارة الغرائيق الملأ التي يدعون أن الرسول ردها واعتمدوا

في ذلك هل أقوال باطلة أو إيراد مواضع مشكوك فيها أو الوصول بالنصوص الناقصة والمبتورة إلى وصف الرسول بأنه كان قاسياً أو كان ناقضاً لليهود والمواثيق . وهناك شبهة القول بأن القرآن وما جاء به النبي ما هو إلا مزيج منقخب من معارف وآراء دينية سابقة جاءت بها اليهودية أو المسيحية وأنه تأثر بها ورأى أنها جدرة بأن توقف قومه وأن النبي محمد ما هو إلا وجيل مصلح ذكي استوعب معلومات عصره واسقها في أسلوب جديد واقد رد القرآن على هذه التشبهات في قوله تبارك وتعالى : (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل نزله روح القدس من ربك بالحق) . وهناك فرية برنارد لويس المستشرق اليهودي في كتابه « العرب في التاريخ » التي يزعم فيها أن محمداً كان يستقبل في صلاته بيت المقدس استرضاء لليهود وبعد ما رفضوا الإيمان به والتعاون معه تحول بصلاته إلى السكينة في مكة .

والمعروف أن الرسول ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس بأمر ربه وأنه كان يقلب وجهه في السماء متطلماً إلى هداية الله تبارك وتعالى لوجهة البيت الحرام وقد استجاب الله له ذلك وأثبت القرآن الحكمة من الأمر فقال تبارك وتعالى : [وما جعلنا القبلة التي كنت عليها (أي قبلة بيت المقدس) إلا لنعلم من يقبض الرسول من ينقلب على عقبيه] . أما القول ببشرية القرآن أي بأنه ليس وحياً إلهياً فهذه من التهم المبطلات التي لم يتوقف القول بها والتي يجتمع عليها المستشرقون النصارى واليهود ولكن اليهود هم الذين يركزون على هذه الفرية ليقولوا بأن قرآن مكة كان مختلفاً عن قرآن المدينة وينسبون أثر ذلك الاختلاف إلى اتصال الرسول بيهود المدينة وهذه كلها هبهات ردودها وسائرهم فيها أمثال الدكتور طه حسين وغيره . ولا ريب أن المستشرقين إما يعضمون للتفسير المادى الذى ينكر الوحي كلية وإما أنهم يضدرون عن مفهومهم المسيحي في نسبة الكتب المنزلة إلى الحوارين على النحو الذى كتبت به كتبهم .

ويشير العلامة إيتان دينيه في كتابه عن سيرة الرسول إلى هدف المستشرقين من التحريف فيقول : أن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة الرسول لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويحصون مزاعمهم حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ومع ذلك لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد ، بل إننا إذا نعمنا لنظر في الآراء الجديدة التي جاء بها هؤلاء المستشرقون فرلسمين وإنجليز وألمان وبلجيكيين فلا نجد إلا خلطاً وخبثاً . . وكذلك نجد أولئك الذين يرون أن محمد ﷺ كان داعية إلى الإصلاح الاجتماعى يهدف إلى تفيير الأوضاع الاقتصادية أو إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المستضعفين لذلك نراه يفرض طريقة معينة لمساعدة المحتاجين ويستعمل فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوى . وهكذا نجد اختلاف وجهات النظر في رسالة النبي ناتج من تبعية أولئك المستشرقين لمذاهب مختلفة بين النظرية المادية والتفسير الاقتصادى للتاريخ أو تفسير البطولة بالدعوة إلى الإصلاح وتجديد المجتمعات وكل هذا يختلف اختلافاً عميقاً بين ما يقولون وبين ما كان عليه ﷺ .

إن الشيء الذي يجهلونه هو النبوة والوحى ورسالة السماء، فالنبي ليس بطلا ولا مصلحاً اجتماعياً ولا زعيماً وإنما هو رسول الله يختلف في أسلوب دعوته وحياته عن كل هذه الصور التي يدور حولها فكر الباحثين الغربيين . ويعجزون عن فهم النبوة وتأيد الله فهمهم عن تفسير القدرة الفائقة التي انتشر بها الإسلام بعد وفاة النبي ولذلك فهم يحاولون أن يفسروا ذلك تفسيراً مادياً وألله يصدر عن عجز بفهم المعجزة أو يصدر عن حد في ذلك التعبير الخطير الذي لا ينطبق على قوانينهم القاصرة ، فيقولون أن العرب كانوا متحضرين وكانوا مستعدين للنهضة ولديهم كل أدواتها فلما جاء محمد قام بهم فقاموا ، وهذا كذب وتضليل تؤكد الحياة الاجتماعية في الجاهلية تماماً وآية ذلك أنهم صاروا الداعى وضيقوا عليه وأساءوا إليه ولم يقبلوا دعوته خلال ثلاثة عشر عاماً كاملة ، واضطروه إلى أن يبحث على أرض أخرى ينشر فيها دعوته .

وجملة دعاوى المستشرقين التي تبطلها الحقائق : قولهم أن القرآن ليس وحيّاً من الله . وإنما الله الرسول وأن الرسول عاش في فترة مزدهرة من الحضارة في شبه الجزيرة وأن الرسول نقل ما في قرآنه من أهل الكتاب أو تعلمه من الآخرين وكما شبهات مبطلّة زائفة دحضتها الوقائع الثابتة والحقائق العلمية ولقد صدق كارليل حين نعى على قومه هذا وقال : « لقد أصبح من العار على كل فرد متمدين في هذا العصر أن يصفى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمد خداع مزور وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة أما أنا فلا أرى مثل هذا الرأي أبداً » .

ويقول محمد كامل عياد : أستطيع أن أقول بأن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد ﷺ بسبب تعصبهم الديني . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فھلھم في فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم في النظرة التاريخية فقد انصرفت جهود الباحثين والكشف عن المنابع والاصول التي انتبست منها الديانة الإسلامية . وهذا يعني أن أحرار المستشرقين على محاولة رد الإسلام إلى الأديان السابقة له قد حججهم عن عن معرفة حقيقية . وكانوا في ذلك ظالمين أو متعصبين ، ذلك أن دين الله واحد ولكن الإسلام جاء ليصحح الانحرافات التي اندفعت فيها تفسيرات رؤساء الأديان لأديانهم فخرجوا بها عن الأصول الربانية لها . هذه الأصول التي جاء الإسلام ليحدثها ويكشف زيف المزيفين للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله . وبالجملة فإن الاستشراق قد عجز عن فهم كلا الأمرين : النبوة والوحى .

(٢) وحين تفتقل إلى كتابة السيرة في الأدب العربي الحديث نجد أن الشبهات التي أثارها الاستشراق الغربي واليهودي والتفسير المادى للتاريخ قد ألقي ظلالاً كثيفة على كتابة السيرة وخاصة فيما كتبه هيكل وطلح حسين وعبد الرحمن الشنقراوى وفيما ترجم من كتب عن الرسول إلى العربية . أما الدكتور هيكل

فقد بدأ بترجم كتاب محمد لأميل درمنجم ، ثم تحول عنه إلى التأليف وقد وجهت إلى الطريقة التي اتخذها كتكثير من الانتقادات منها أنه أنكر معجزات الرسول فيما عدا القرآن وأول أسراء الرسول ومعراجه ، وحاول أن يدعى أنه وقع في منام الرسول ، وبذلك خالف الأصول الأصلية لسيرة الرسول وجرى مع المستشرقين شوطاً وخضع لكثير من مفاهيمهم التي تختلف مع مفاهيم الاسلام الأصلية. ومنها ما يراه درمنجم من تأثير محمد ﷺ بكتب اليهود والنصارى قبل البعثة . ولقد حاول الدكتور هيكل أن يبرر أسلوبه هذا في كتابه السيرة بأنه أراد مخاطبة غير المسلمين أو مخاطبة الذين لم يتصلوا بالثقافة الاسلامية في معاهدنا من المدارس في المعاهد العلمانية وغيرها بدعوى تقريبهم إلى الاسلام ، ولكن الأسلوب الذي اتخذه الدكتور هيكل لم يجد تقبلاً صحيحاً وغلب أسلوب السيرة الأصلية الذي يرى في الرسول محمد ﷺ نبياً يوحى إليه ، له شخصيته النبوية الخاصة التي تختلف عن شخصيات المصلحين والأبطال والقادة والزعماء والتي عرفت صفحاتها عشرات من المعجزات . ولقد كشف كثير من الباحثين فساد المنهج الذي عرفته الثلاثينات عن إنكار المعجزات وتغليب روح العلمانية على السيرة وعلى فهم الاسلام ، وهو أسلوب تورط فيه كثيرون من أمثال محمد فريد وجمدي ومحمد مصطفى المراغي وتابعه هيكل وكشف عنه شيخ الاسلام مصطفى صبري في كتابه موقف العلم والعالم من الله عز وجل . غير أن أسلوب الدكتور هيكل على الرغم من نقصه وقصوره فإنه يختلف عن منهج طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) الذي أعاد فيه لإحياء الاسرائيليات والأساطير القديمة التي خُلع منها هذه المسيرة الرسول فأعاد إضافتها مرة أخرى إليها . قال هيكل : أخالف طه في اتخاذه النبي وعصره مادة لأدب الأسطورة ، ومن رأي أن لا تتخذ حياة النبي مادة لأدب الأسطورة إنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثراً ما ، والنبي وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي قلعة من هذه الحياة ومن أعز قلعاتها عليها وأكبرها أثراً . اعلم أن هذه الاسرائيليات قد أريد بها إقامة (ميثولوجية إسلامية) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتفكيك المستعمرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الاسلام ونبيه ، وقد كانت هذه غاية الاساطير التي وضعت في الأدب الأخرى . من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام ، . ويرى كثير من الباحثين أن ما قاله طه حسين في هامش السيرة لا يعدو ما قاله في كتاب الشعر الجاهلي ولكن بطريقة أكثر مكرراً .

ولا ريب أن أسلوب العلمانية الذي اختطه هيكل وأسلوب السخرية الذي اختطه طه حسين كاف وأسلوب تفسير البطولات الاسلامية بالوراثة التي اختطه العقاد بمثابة المقدمة للمحاولات التي قدمت من بعد لتفسير حياة الرسول تفسيراً مادياً خالصاً على النحو الذي اصططنه عبد الرحمن الشرفاوي . فككتاب محمد رسول الحرية يحاول أن يكتب عن الرسول الكريم على أنه زعيم من زعماء الحرية ولذلك فهو ينكر الوحي لإنكاراً تاماً خلال كتابه كله ، فضلاً عن أنه يجري مجرى طه حسين في التفسير المادي ويحاول أن يصور الرسول على أنه مصلح اجتماعي وأن هدف رسالته اقتصادي يرى إلى إخراج الفقراء

من الفقر وبذلك يتخذ سيرة الرسول تعبيراً للمقاميم الماركسية ، فطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوي لا يريان في رسالة الإسلام إلا جائباً واحداً هو أنها ثورة فقراء ، وبذلك تخرجان عن مفهوم الرسالة الجامعة التي لا يمكن أن توصف بأنها ثورة لأنها رسالة خالدة والثورة موقفة متصل بمصر أو بيئة في حالة من أحوال التغيير ، وليس الدين آمنوا برسالة محمد هم الفقراء وحدهم ، وليس الهدف هو معالجة قضية الفقر وحدها . وينظر عبد الرحمن الشرقاوي إلى أمر الإسراء والمعراج على أنه منام ، كما يرى أن لقاء النبي لجبريل أول مر في غار حراء هو منام أيضاً . فهو يصور الرحلة إلى السماء التي وقعت بانتقال الرسول من مكة إلى بيت المقدس ومن بيت المقدس إلى السموات الملا على أنها رحلة في المنام وعلى أن الوحي بالرسالة هو أيضاً من الأحلام . وهو حين ينسكركلوة الوحي ينسكركلوة القرآن فلا يذكرها وينسب كل معاني القرآن إلى النبي وينسب قصص القرآن على أنها تجارب للنبي ، وهناك أيضاً محاولات الادعاء بأن النبي كان رحالة وأن ما جاء به كان نتيجة تجاربه لا بوحى من ربه ، وهو يسترسل في ادعاء أن محمداً كان رحالة معنياً بما عند الرومان والفرس ، ولا ريب في فساد هذا الادعاء وكذب القول بأن النبي جاب البلاد العربية شمالاً وجنوباً وأنه كان معنياً بما عند الرومان والفرس ، ولا يوجد ما يدل على ذلك في المصادر الصحيحة . أما ما ترجم من كتب عن الرسول إلى العربية فإننا نأخذ على المترجمين تركهم سوءات الكتاب الغربيين دون دحضها . ومثال ذلك كتاب المستشرق (ر.ف. بودلى) الذي ترجمه السحار وفرح تحت اسم (الرسول) فقد نسب بودلى إلى النبي ﷺ عبادة الأصنام ووصف النبي بأنه وارث الهاشمين حراس أصنام الكعبة وزل قدمه في سيرة النبي وأزواجه الطاهرات وادعى استمداد الرسول من الرهبان في رحلاته البعيدة للمتنوعة ومن الوعاظ في سوق عكاظ .

وادعى أن النبي تأثر ببهجرا الراهب وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل وله إدهاءات كثيرة برحلات النبي إلى الشام واليمن وفلسطين وآسيا وآسيا الصغرى وفارس ، وكلها غير صحيحة . فإن رحلات النبي إلى الشام لم ترد على المرتين أو الثلاث ، وهو لم يجتمع مع بهجرا إلا في المرة الأولى حيث كان في صحبة عمه أبي طالب وكان في الثالثة عشرة من عمره ، أما بهجرا فقد اعترف بنبوته النبي ومات قبل البعثة ، أما ورقة فكان موحداً ولم يعرف عنه دعوة إلى النصرانية . وأما قس بن ساعدة فقد كان موحداً مؤمناً بالبعث . أما أمية بن أبي الصلت فقد كان مثل قس في العقيدة ويعلم أن نبياً يبعث من العرب ، ولم يردده عن الإسلام إلا الحسد بعد بعثة النبي .

وهكذا نجد أن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تلاق ما هي جديرة به من دراسة تاريخية أصيلة . في مواجهة تحديات الاستشراق والتفريب والماركسية .

الفصل الثالث

الجهاد والفتح

كان تركيب الاستشراق والقوى التغريبية يستهدف أساساً ضرب القيم الأساسية للإسلام المتمثلة في فريضة الجهاد التي كان لها الطابع المتميز الواضح المختلف عن أساليب الحرب والقتال التي عرفتها البشرية قبل الإسلام : فقد كان (الجهاد الإسلامي) عملاً وقائياً أساساً ولم يكن عملاً عدوانياً ولا حربياً بالمعنى المعروف ، فالمسلمون لم يتحركوا إلى الجهاد إلا عندما وقف العدو في وجه دعوتهم ومنعهم من تبليغها وحال دون مسيرتهم لإذاعة كلمة الله إلى العالمين . هذا المعنى كان وما يزال غير مفهوم تماماً وعلى وجهه الصحيح في دائرة الغرب التي عرفت مفهوم الحرب والقتال على غير هذا النحو . ولذلك كانت أكبر الشبهات التي وجهت إلى تاريخ الإسلام : فرية انتشار الإسلام بالسيوف والدعوى بأن الإسلام استولى على هذه البلاد التي دخلها عن طريق الحرب والقتال ، وهي فرية يرددها بعض الغربيين من المؤرخين في محاولة لإثارة الشبهة حول طبيعة الإسلام وجوهر عملية الفتح التي قادها المسلمون ويستهدفون من ذلك الطعن في الإسلام والتغليل من شأن اندفاعته وإثارة القبار حول أسلوبها الذي يختلف اختلافاً كبيراً عما فعل ملوك أوروبا حين اقتحموا بلاد الغال وفرضوا المسيحية بالقوة على أهلها وقتلوا وشنقوا وأسالوا الدماء . لقد كانت حركة التوسع الإسلامي حركة واضحة الدلالة : إنها تستهدف صد القوى المعادية المتسلطة التي تأمرت على الإسلام في الجزيرة العربية وحاولت أن تتجمع لفتك به وهي القوى التي لم تكن إلا مقلطة مكروهة من أهل تلك الأقطار المسيطرة بأساليب القهر والعنف والظلم ، ولذلك فإن قوى الإسلام الفاتحة لم تكن تستهدف أكثر من تحرير هذه الشعوب من ذلك النفوذ الظالم دون أن تفرض على هذه الأمم دين الإسلام بل تركت لها حرية العبادة وأعطتها الفرصة الكاملة وأقامت لها جواً من السلام والرحمة والعدل . ثم كان أسلوب الحكم الإسلامي نفسه في سماحته وعدله ورحمته هو الذي دفع هذه الشعوب التي استقبلته بالحماسة والفرحة لأنه خلاصها من الظالمين - دفعها إلى اعتناقه والدخول فيه ، وموقف كتاب الغرب من هذه القضية وغيرها يختلف باختلاف التيارات ، فإن الدول التي استعمرت العالم الإسلامي (الفرنسيين والانجليز والهلنديين) كانوا حريصين عن طريق الاستشراق أن يفضوا من قدر الإسلام وعظمته ليمهدوا لسيطرة نفوذهم وإخضاع الأجيال الجديدة للإعجاب بمحضراتهم والتفكير لعقيدتهم وتاريخهم ، وكان هناك تفسير مسيحي مصدره التبشير وهو موارز للتفسير الاستعماري مرتبط به ، يستهدف الانتقاص من قدر الإسلام حتى لا يجد ذلك في النفس الغربية إعجاباً وتقديراً ، ثم جاء التفسير الماركسي للتاريخ ، وهو تفسير مادي لا يرى في الفتح والجهاد إلا صورة الدافع الاقتصادي الذي جرى عليه في تفسير وقائع التاريخ كله ، ومن ثم فإنه يرى أن المسلمين خرجوا من جريبتهم من أجل الرزق وبحسباً وراء الثروة وطمعاً في الغنائم ، وهذا التفسير لم يخدع أحداً ، فقد عرف المنفقون جميعاً أن الاقتصاد عامل من العوامل المحركة للتاريخ ولكنه ليس

العامل الوحيد وليس العامل الأكبر وأن هناك عوامل أخرى كثيرة حركت التاريخ وكان للإيمان والعقيدة أثرها الكبير في حركة التاريخ وفي حدوث كثير من التغيرات الضخمة والتحولات الخطيرة البعيدة المدى ، كذلك فإن من يقرأ تاريخ الإسلام ويعرف القليل عن هذه العقيدة يعرف أن ذلك التحول الخطير الذي أحدثه الإسلام في سبعين عاماً لا يقاس بالمقاييس المادية وأن المسلمين الذين خرجوا من ديارهم وتركوا أهليهم وذرواتهم وماتوا في سبيل كلمة الله لم يكونوا طلاب غنى أو مال وإنما كانوا يؤمنون بفكرة عميقة امتلكت عليهم أنفسهم فباعوا أنفسهم وأموالهم وقدموا أرواحهم رخيصة من أجل تحقيقها وصاروا الدولتين الكبيرتين في أوج مجدهما وهم الأقل عدداً وجنداً وما كانوا ينظرون إلى هذا الأسلوب المادي من حساب النفوذ المادي فقد كانوا يؤمنون بأن تأييد الله لهم سوف يجعلهم أكبر من عددهم أضعافاً مضاعفة وأنه سيحقق لهم النصر لأنهم خرجوا في سبيل غاية عليا وفي سبيل إحقاق كلمة الله وتحرير الأمم والشعوب من ظلم الظالمين وإخراج الناس من عبادة الفرد إلى عبادة الواحد القهار . واقد جاء التفسير اليهودي للتاريخ أيضاً فكانت وجهة نظره بما لا يقنع العقل المتطلع إلى الحقيقة لأنها أفاضت رأيها على الحوى والمطمع والتؤييف للحقائق لإقرار فكرة ليست لها في الفطرة الإنسانية قبلاً ولا في العلم الصحيح مكاناً ، هي فكرة السيطرة العرقية باستعلاء العنصر والدعوى باسم شعب الله المختار وتؤييف وعد الله لإبراهيم وأمه وقصره على إسرائيل وحده وإنكار إسماعيل وفرعه كله . ومن هنا نرى أن التفسيرات الوافدة كلها للتاريخ تحمل أهواء وتسوقها أغراض ، وتقدم شبهات وزيف ونظريات لا تنبت كثيراً أمام الحقيقة . وقبلنا نجد في كتابات مؤرخي الغرب روح الانصاف الكاملة ، لأن اختلاف العقائد ووجهة الثقافة والغايات من شأنه أن يحول دون اعتناق مفهوم الإسلام وتفسيره الصحيح إلا لفئة من الذين آمنوا بالإسلام نفسه أمثال : محمد أسد وإتيان دينيه وهيدلبريك جرمانيوس ، ومع ذلك فإن هناك جزئية من الانصاف نجدها في قول أرندل توينين الذي نرى الإكراه في الدعوة الإسلامية وأنكر أسطورة انتشار الإسلام بالسيف حين قال : من الميسور أن تسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلواً في تهسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية ، إذ لم تكن للتخبر ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تجهداً بين الإسلام والجزية وهي الخطوة التي استحدثت أثناء الاستنارتها ،

ويعترف أرندل توينين بأن الإسلام حرو ساحل البحر الأبيض من نفوذ استمر ألف عام قبل الإسلام فأصبح وكان لم يكن . يقول : حرر الإسلام ساحل البحر الأبيض المتوسط من سلطان أغريق روماني مسيحي من سوريا إلى أسبانيا عبر شمال أفريقيا ، وكانت تلك البلدان تحت الحكم الأغريق والروماني نحو ألف من السنين منذ فتح الاسكندر الأكبر الامبراطورية الفارسية وإسقاط الرومانيين لقرطاجنة ، وذلك بين القرن الحادي عشر والسادس عشر قبل الميلاد . وتلك هي القصة التي يلوكمها المختصون في الغرب من كتاب الاسكندر القابع للتابع للنفوذ الاستعماري ، أو كتاب التبشير التابعين للكنيسة وهي دعوى باطلة وزائفة حين يقول أحدهم : رد ما أخذه الإسلام من المسيحية . .
والحق أن المسيحية لم تكن في هذه المناطق وإنما كان هناك للنفوذ اليوناني والروماني المختص

المسيطر بالظلم والاستبداد على هذه المنطقة التي لم تكن ماسكا له يوماً ، هذه المنطقة القائمة على ساحل البحر المتوسط من سوريا إلى المغرب لم تكن ماسكا للغرب ولا جزءاً من وطنه ، وإنما كانت عربية منذ آلاف السنين قبل الاسلام انداحت عليها موجات الهجرة المتلاحقة التي خرجت من الجزيرة العربية وتوالت والتي كانت بمثابة توسيد للموجة العربية الاسلامية الكبرى التي انقضت مع جذورها الفينيقية والفردوسية والآشورية والآبيلية والبربرية جميعاً . والحقيقة التاريخية تقرر أن العرب منذ عهد جاهليتهم يرون أن حدود جزيرتهم من الشمال هي جبال طوروس ، ولكن مؤرخي اليونان والرومان حاولوا بعد السيطرة على سوريا أن يجهلوا أحدها مشارف الشام فقلدهم من جاء بعدهم من العرب والفرنجة التي كقبوا تاريخاً غير منصف ، والمعروف أن مساحة الجزيرة العربية وحدها إلى مشارف الشام كساحة انجلترا ثمانى مرات ، توالت موجاتها بالشام والعراق ، ومنهم السومريون الذين أقاموا حضارة باذخة وهم الذين أنشأوا مخازن حبرب فلسطين بالزفت والتي تعود كما قدر العلماء لعشرين ألف عام . أما الذين حلوا في مصر من هذه الموجة فقد حصروا اللغة الهيلوغرافية في المعابد والهيئات الرسمية ونشروا لغتهم بين الشعب قبل أن يعرف الناس اسم سام وحام ثم اتصلوا بالجزيرة الأم بقناة حفروها بين النيل والبحر الأحمر منذ أربعين قرناً ، ومنهم دولة حكمت القسم الشمالى من العراق قبل أربعين قرناً ، أما الموجة العربية الثانية فقد اتجهت إلى الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا : كلدانيون وأثوديون وأشوريين وسوريين وسريان وأراميون . وجاءت موجة أخرى بعد سد مأرب نحو الشام ومصر والعراق وشمال أفريقيا ومنها مناداة العراقي وغساسنة اللعام وغيرها من القبائل كريمة ومضر وبكر وتغلب ، وحتى أواخر العترة وهؤلاء هم الذين واجهوا الاحتلال الرومانى ثم الرومى والفارسي والحبشى قبل الاسلام . ولما دخلت الموجة الاسلامية مصر والسودان وشمال أفريقيا وجدت العربية سابقة لها ولكن حين دخلت فارس والهند والصين والتركستان لم تجد جذورها فعاشرت لغة للدولة ثم انسحبت بانسحابها . ولا ريب أن هذا الواقع التاريخى يدعنه تلك الشبهة التي ترددها كثير من كتب التاريخ عن هذه المنطقة التي وقعت تحت النفوذ اليونانى الرومانى ألف عام ثم حررها الإسلام بأن أعادها إلى أهلها وإلى طبيعتها الأصلية ، والواقع أن كتب التاريخ التي بين أيدي طلبتنا وشبابنا لا توضح هذه النقطة وتتغافل عن أن تكشف حقيقة الرومان وأنهم كانوا أجانب عن سكان المنطقة التي انتشر فيها الاسلام وأن وجودهم هذا كان استعماراً غاشماً ، وأن الرومان تأمروا على الدعوة الاسلامية وهي في قلب الجزيرة وحاولوا محاولات متعددة لقتل الرسول ﷺ وتجميع الجموع لاسحق الدولة الصغيرة قبل أن تستكمل قوتها . ومن هنا كان إهداد النبى لبعث أسامة قبل أن يختار الرفيق الأعلى وحشد كبار الصحابة فيه علامة على أهمية هذه الثغرة .

وكذلك فإن رومية تركت في أفريقيا آثاراً لا تمحى ، وكان من تلك الآثار أنها تسكنت اللاتينية ستة قرون وأنشأت للكنيسة آباءاً عظاماً — على حد تعبير مجلة الشرق — مثل القديس أوغسطينوس ، ومع ذلك اضطلعت فيها كل تلك الآثار الرومانية والمسيحية وبسط الإسلام نفوذه واكتسح ميرات الامبراطورية الرومانية خلال ألف عام في سنوات قليلة وسوط على اللعام ومصر

والمغرب كله وأصبح البحر الأبيض المتوسط قاصلاً حقيقياً بين حضاريتين ودينين .

(٢) إن القول بأن المسلمين هاجروا إلى المدينة أو خرجوا من الجزيرة لأن الصحراء مجدبة ، هو دعوى مبطلّة ورأى فاسد ، ذلك أن خروج المسلمين من مكة إلى المدينة حين هاجروا إنما كان عن إرادة حرة ولم يرض على أحد منهم أن يترك ماله وثرواته وآله وداره إلى مصير مجهول في يثرب ، وإنما جاء ذلك بدافع الإيمان العميق الذي ملا هذه النفوس ودفعها إلى التضحية بكل ما تملك في سبيل إعلاء كلمة الله . هؤلاء المؤمنون أنفسهم أصحاب الحجارة هم الذين تدافعوا تحت رايات الجهم — اد يطلبون إحدى الحسينين : الموت أو النصر من أجل تركيز رايات الإسلام في الأرض وإبلاغ العالمين كلمة التوحيد فلم تسكن الغنيمة في تقديرهم في الأولى ولا في الآخرة ، وإنما كانت الفكرة المؤمنة والمقيدة الصاعدة القوية التي هي عامل أساسي في تفسيه التاريخ عجز عنه الذين قالوا بالتفسير المادى أو التفسير الاقتصادي أو التفسير الجغرافي وهو عامل أشد قوة وأعظم أثراً من كل هذه العوامل ، لأنه هو العامل الاصيل في تغيير أوضاع المجتمعات والذي أعاد رسم خريطة العالم ، وقد هب المسلمون عن هذا المعنى حين قال قائلهم : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ومن هنا قلب المسلمون موازين التقديرات في الحروب وحققوا النصر بالقلّة المؤمنة ذات العدة القليلة على الكثيرة الكاثرة حيث أصبحت فئة قليلة تغلب فئة كبيرة بإذن الله لأنها حيث تقاس قلتها وكثرتها إلى العدة والعدد مجيء . عامل الإيمان فيضاهف بجانب القلة العددية فترجع كفتها ، وفي مختلف الممارك التي عاضها المسلمون كانوا ، القلة ، العددية بالنسبة لأعدائهم ، فقد كانوا في بدر ألفاً أمام ثلاثة آلاف ، وفي اليرموك ثلاثة آلاف أمام مائة ألف ، وبهذه الأعداد القليلة انتصر المسلمون على قوى امبراطوريتي الفرس والروم وهي تملك الأعداد الضخمة والإمكانات الفائقة ، ولو كان المسلمون طلاب غنيمة لجزوا عن أن يقتحموا آفاق الأرض معركة بعد معركة ولتذهبوا بمتاع الدنيا وحرصوا عليها ، ولسكنهم بشهادة التاريخ نفسه تدفقوا دون توقف حتى بلغ قائدهم المحيط الأطلسي وغرس أقدام فرسه في الماء ونظر فلم يجد في الأفق علامة على أرض أخرى فقال : يا رب لو أعلم أن وراء هذا الماء أرضاً لحضته مجاهداً في سبيلك ، وصدق عبد الله بن رواحة الذي قال : ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة . وصدق رسول الله ﷺ الذي رسم هذا الطريق واضحاً : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، والحق أن إيمان المسلمين بفريضة الجهاد هي العامل الأول في حركة انتشار الإسلام وحايته والدفاع عنه ، ولا يمنع هذا من أن هناك عوامل كثيرة تاريخية واقتصادية واجتماعية ومادية كانت وراء أحداث تاريخ الإسلام في مختلف مراحلها غير أن العامل الأول والأكبر ظل هو الإيمان بفريضة الجهاد لنشر الإسلام وحايته والدفاع عنه . ولقد كان الإيمان بأن الموت واهب الحياة هو عدة المسلمين في مجال النصر وهو العامل الأول في معاركهم ، وقد كان هو مصدر اليقين في تحقيق النصر ، حيث كانت الغنيمة أو غريزة

حب السيطرة أو غلبة القبلية أو الدم هي مصدر التحرك عند عدوم وخضهم . فقد كانت حروب خصرم الاسلام قبل الاسلام وفي مواجهته إنما تقوم على الشهوات والأهواء والمطامع يهددها حب المغنم والسلب والنهب وبذلك أوارها حب القسفي والانتقام ثم هي تقوم في حركتها على التخريب والتدمير ونقض العهود والمواثيق . ولكن الاسلام جاء ليعلم البشرية كيف يكون الجهاد عملاً في سبيل الله وكيف يكون مأذوناً به حين يحال بين الدعوة وبين انطلاقها وحين يظلم أهلها ويخرجون من ديارهم ثم كان أسلوبه الكريم الرفيع الذي يعلو على الانتقام والتخريب ونقض العهود حيث لا مغنم ولا مجد شخصي للملوك والقواد . ومن ثم تنقصر الحرب في الاسلام إلا في حالتين اثنتين : الوقوف بالقوة المادية في وجه الدعوة السلمية أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن ربهم أفراداً وجماعات . والهدف هو أن يكون الاسلام دين البشرية لا عن طريق الاكراه ولكن عن طريق الدعوة . وفي أسلوب الجهاد الاسلامي ومفهومه للحرب يمكن سر الانتصار ويمكن سر ذلك التوسع الذي أذهل غير المسلمين من دارسى الحصار والتاريخ نظراً للوقت القصير الذي تم فيه لنصر المؤزر الكاسح . فقد كان الهدف ربانياً وحمله اللواء لا مطعم لم في الدنيا وكانت الحرب غير عدوانية بل دفاعية ، وقد اقتصر على دفع الظلم ورد العدوان والدفاع عن النفس والمال والعرض والأهل والدين .

ولما كانت الحرب من فطرة الناس فقد ذهب الاسلام فسكرتها وحصرها في أضيق الحدود .

(٣) كذلك نجد أن الذين ركزوا عن الأسباب الاقتصادية في الفتح الاسلامي كانوا واهمين وكانوا يهدفون إلى التقليل من شأن تلك الانطلاقة القوية المؤمنة أو تفسرها تفسيراً مادياً منكرين أثر الاسلام نفسه كعقيدة في بناء هذه النفوس ودفعها إلى الجهاد في سبيل الله وتقديم أرواحهم رخيصة من أجل غاية معنوية عالية . وقد ردد هذا الرأي فيليب حتى في كتابه (تاريخ العرب) وذهب إليه مستشرقون كثيرون منهم كيناني وبيكر ، بل إن توماس أرنولد صاحب كتاب الدعوة الاسلامية الذي عرف بالانصاف لم يستطع أن يستوعب الحقيقة فقال : « يعتبر توسع الجيش العربي على أصح تقدير هجرة جماعية نهيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجردة وتحتاج بلائاً أكثر خصباً كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظاً . ولم يكن هذا في الواقع إلا ترديداً لما قاله رستم لجيوش المسلمين حين قال : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أقم فيه إلا طيق المعاش وشدة الجهد ، ولكن قادة الفتح المسلمين دحضوا مقالته وكشفوا له عن الوجه الحقيقي لأمهم ، حين قال ريمي بن هامر (إن الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام) ولم يصدق أرنولد حين قال : إن البلاد كانت ملكا لجيران أسعد حظاً فإن الرومان لم يكونوا في الحقيقة يملكون الأرض ولكنهم كانوا مستعمرين ، بل إن التقدم الاسلامي نحو الشام كان تقدماً في المنطقة العربية الفسائية ولم يتجه إلى ما وراها إلا بعد أن حشدت الامبراطورية الرومانية حشودها لقتال العرب فاضطر المسلمون إلى مواجهة هذه الحشود في اجنادين عام ١٣ هـ .

وكما تأمرت الدولة الرومانية على الحدود الشمالية للجزيرة العربية على النحو الذي دفع النبي إلى موالاة إرسال حملات مؤنة وتبوك وبعث أسامة فلان عمال فارس كانوا يتحضرون لقتال العرب

وسحق انطلاق الإسلام ، فلما انتصر العرب على الفرس اكتفوا بضم العراق والعرب ومنع الخليفة عمر جيوشه من دخول إقليم فارس واعتبر الجبال الفاصلة بين العراق وإيران حداً طبيعياً ، ولكن الفرس أخذوا يجهدون جيوشهم لإزالة المسلمين ، وأمام هذا التهديد تقدمت الجيوش ففتحت فارس كلها كما فعلت في الجبهة الرومية أمام التهديد الروماني ففتحت الجزيرة وفتحت مصر ، وهذا كله يؤكد أن الفتوح الإسلامية كانت حركة سياسية وحركة اضطرابية اندفع إليها المسلمون بحق حماية النفس وهي حين انتصرت في الحرب لم تصطب بالهعوب وإنما أتاح لها الحرية الدينية والحكم العادل الذي كانت تفقده ولذلك فإن الشعوب استقبلت الفتح الإسلامي في كل مكان بالفرحة الغامرة امتخليهم من مظالم الحكم الروماني الظالم والفارسي المستبد ، ويصور بترل في كتابه فتح العرب لمصر جانباً من هذه الحقيقة حين يقول : إن كثيراً من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من عصيان لصاحبها إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله ، ونسيت ذلك في ثورتها وحروبها التي كانت تذهب بين شعبها وأحزابها ، ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا به واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته . وجماعة أخرى رأوا أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساورونهم بالفاتحين في شرف محلمهم ويجهلمهم إخوانهم في كل شيء ، يسهم لهم في النى ولا يفرض عليهم الجزاء ولا سبياً وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً وحطم يقيهم باضطهاده .

والمعروف أن الفتح الإسلامي لم يكن في مواجهة أهالى البلاد وإنما كان في مواجهة المحتلين والمستعمرين وم الدولة الرومانية .

(٣) لقد كان الفتح الإسلامي ، واذجاً فريداً ، لم تكن غايته ضم البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين وإنما كانت غايته إعلاء كلمة الله ، فسكها وطبوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الإسلام فإن قبلوا به واتبعوه انصرفوا عنهم وعدوم إخواناً لهم ، فإن لم يقبلوا أعطوهم الحرية في أمور دينهم وتمددوا لهم بالامن الداخلى والخارجى لم يكرهوا أحداً على الإسلام . ولم يعمد الفاتحون المسلمون إلى إفناء السكان الأصليين أو إجلائهم ، ولا يقيمون المستعمرات أو يضعون الحواجز بينهم وبين سكان المدن التي انتقلوا إليها سكانها المقيمون من قبل والمهاجرون الوافدون إليها سواء في الاعتبار الانساني أو الحقوق القانونية . كما اتسمت الفتوح الإسلامية بالسرعة الباهرة ، فقد سرت في أقطار آسيا وأفريقيا وأوروبا وهرع الناس إلى الفاتحين من كل جانب يتقبلون نظامهم . ولعل أبلغ عبارة في وصف الفتوح الإسلامية ما قاله الامام ابن تيمية حين قال : إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ولكنهم نقلوا الأمم إلى الإسلام ، فهو بذلك نسيج وحده في تاريخ البشر لا يشبهه فتح ولا يدانيه ولا يقاس به ، فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله وينشرون دينه ويبذلون في سبيل الله دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجله ديارهم وأهلهم ، لا يبغيون علواً في الأرض ولا فساداً ، وهم في فتوحهم لا ينفردون ولا يثلون ولا يجهزون على جريح ولا يحاربون امرأة ، ولا يتعرضون لعاجز ولا يمسون معبدأ ولا يحرقون داراً .

والحق أن الأمم لم تعرف فاتحاً أرحم من العرب كما قال جوستاف لوبون حيث لا إكراه في الدين
وحيث من شاء فليؤمن ، ومن شاء فغير ذلك فله ذلك بعل حريته . ولقد كان الاسلام في فتوحه
وحكمه قائماً على حرية العقيدة بعيداً عن القهر والغلط ، ويصدق في هذا ما أثبتته الشيخ محمد عبده حين
قال : لم يمد في تاريخ الفتوح الاسلامية إن كان له دعاة معروفيون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم
العمل على نشره ويقفون مسامح على بث عقائده من غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة
من هدام ومخاسنتهم في المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد جملة المغلوبين فضلاً وإحساناً
عند ما كان يهدمها الأوربيون ضمة وضعفاً . ولم يظهر في تاريخ الاسلام أفراد متعطشون للدماء أمثال
الاسكندر ونهرون وريتشارد وناپليون وإنما كان أبطال الجهاد الاسلامي رجال رحاء تمتلئ صدورهم
شوقاً إلى إنقاذ البشرية من الظلم والعبودية والانحلال .

وفي مجال البطولة والحرب كان أعلام المسلمين يتميذون بالبراعة والحنكة على نحو يرتفع ارتفاعاً
كبيراً عن تلك النماذج الغربية التي حاولت مناهج دراسات التاريخ في بلادنا أن تبرزها . وفي هذا
يقول العلامة رفيق العظم . أن من اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده أثره هينبال ، بطل قرطاجة
الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم ، فاجتاز لإيهم جبال البرية
بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ، ومع هذا فآين
هو من موسى بن نصير ومولاه طارق الذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب ، فدعوا بمالك
هينبال القديمة في أفريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل للبالغ اثني عشر ألف مقاتل مضيق سبته إلى
القارة الأوربية ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة القوط بالهمار ، بل آين هو من عبد الرحمن بن
عبد الله الغافقي ، الذي اقتحم ما وراء البرية على عهد الخليفة الأموي والساح بجيشه القليل في أحشاء
المملكة الفرساوية حتى بلغ بواتر وبورفونيا على مسافة ألف ميل من جبل طارق ، فذعرت منه
سكان الممالك الأوربية واستجاشت لقتله وصدته الجنود الفرساوية والكركون والقوط والجرمان
حتى تمكنوا من إرجاع جيشه على أدراجيه وأوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الأوربية بقوة عجاظه .
وآين نابليون الذي طبقت شهرته تاريخية الآفاق وعده الأوربيون من أشهر القواد في العالم لحروب
طويلة أصلام نارها وأذاقهم شدة أوارها ، لم تأت لدولة بفتح جديد أو خير عتيد ، من قتيبة بن مسلم
فاتح السند وتركستان ، أو عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تنازعتها أطباع الطامعين
واشرأبت إلى التحزب والانقسام أعتاق المسلمين فبادر إلى تلاقى الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على
الشدائد ببعد النظر والرأى ، فذلل صغاب الأمور وأرغم من مخالفه من الناس على الطاعة ، ثم بعد أن
استصحب لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمانينة ، أطلق للجيش الاسلامي هنان
الفتح والغارة ، نجاست خلال الممالك وجاءت شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر واثقة من نصر الله
لها وحضرة عنانته بها .

وهكذا نجد أن صفحات البطولة الإسلامية حافلة بما لم تحفل به بطولات الأمم من همد ونار قائم على الخلق والسياسة والعفو والرحمة وهو ما لم تعرفه بطولات الحرب في كل مكان ، وكانوا في حربهم لا يهتمون العهد ولا يهفرون الدمة ، تنكفأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدفاهم ، وقد أزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين ، وآمنوا الناس على ما نعمة أيديهم وما يناله جدم وسعيهم .

الفصل الرابع

الخلاف بين الصحابة

لم يستغل الاستشراق أمراً من أمور التاريخ الإسلامي كما استغل هذه المرحلة التي بدأت في أواخر ولاية عثمان بن عفان وبين ولاية علي ومعاوية ، فقد اتخذت مجالا لبسط عديد من القبهات ، ولإثارة معاصر المسلمين بتصوير الموقف على أنه نحو من انحاء الخلاف العنيف والصراع العنيف ناسين أو متجاهلين أن مؤلاء الصحابة أبطال هذه المرحلة هم صحابة رسول الله ﷺ ، والذين تفككوا في ظل الدعوة الإسلامية تفكيلا خاصاً ، فكانوا نماذج من الإيمان والبطولة والوفاء ، ومن ثم فلا يمكن أن يقام بهم المؤرخون بمقاييس السياسة ورجال الأحزاب أن يصورونهم على أنهم يصارعون للطامع والأمواء . فضلاً عن أن المسلمين نهوا عن الخوض في شأن هذا الرحيل من الرواه الأول الذين حملوا راية الاسلام وفتحوا بها الآفاق داعين إلى الله ناشرين كلمته في الحافقين ولذلك فإن محاولة الاستشراق في إفساد هذه المرحلة وإثارة القبهات حولها والاعتقاد على بعض النصوص الواقعة أو التي لم تصح إنما كان يستهدف تدمير هذه الصورة الرائعة التي أقامت دولة الاسلام ودفعته إلى حدود الصين شرقاً ، وإلى حدود فرنسا غرباً . ومن عجب أن السكذب التي شامت في أيدي الطلاب والشباب قد حملت هذه الصورة القاتمة وما زالت تحملها ، لأن الذين كتبوا هذه الصفحات كانوا من أولياء الإشراف ودعاة التغريب ، وكان خليقاً بالعرب بعد أن تحررت إرادتهم من النفوذ الاستعماري والاحتلال الأجنبي أن يعاد صياغة تاريخ الاسلام من جديد في ضوء الحقائق الصادقة والوقائع الصحيحة ، وأن تستبعد هذه الروايات السكاذبة والمشوهة والواقعة . . ونحن نعرف أن تاريخ الاسلام لم يبدأ تدوينه إلا في أوائل العصر العباسي ، وهو عصر كان لوجاه موقف من الدولة الأموية التي تربط بالأحداث منذ عهد عثمان رضي الله عنه ، كما أن لها موقفها من حكم علي بن أبي طالب وخلافه مع معاوية .

ولا شك أن صحابة رسول الله ﷺ قد اختلفوا ووقعت بينهم المواقف ، ولكن الأمر كان بفعل عوامل خارجية كثيرة ، أهمها هذه المؤامرة السبئية التي رسمها عبد الله بن سبا ، والتي يجب أن تدرس بتوسع

ويكف عن أبعادها الخطيرة، هذه الأبعاد التي امتدت إلى الأمصار الإسلامية وتحركت بعنف في أواخر عصر عثمان وخلال عصر علي وتركته بصيانتها بعد ذلك، وعبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء أمه سوداء تظاهر بالإسلام على عهد عثمان وتنقل في البلاد الإسلامية، وهو رأس المؤامرة التي أدت إلى مقتل عثمان وموقعة الجمل. بل إن ما يليق المؤرخون من تبعات على بعض الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعائشة هو بعد التبعات الثانوية، أما أقوى الأسباب التي أرثت الشعب وأهاجت الاضطرابات فهي مؤامرة واسعة منظمة محكمة سهر عليها عبد الله بن سبأ ورجاله وتمهدها في جميع الأقطار حتى أتت ثمرها المر ومزقت وحدة الصف الإسلامي.

ولقد بدأ عبد الله بن سبأ مؤامراته من نقطة خطيرة هي إدخال فكرة الوصية والرجعة إلى الفكر الإسلامي بالقول برجعة محمد ﷺ بعد موته، والوصية لعلي بن أبي طالب، وقد أراد بذلك تسميم العقيدة الإسلامية، فكان يقول: «العجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع، ومحمد أحق بالرجوع من عيسى». وقوله: «إذا كان ألف نبي ولكل نبي وحى فإن عليّ وحى محمد، ومحمد خاتم الأوصياء» (تاريخ الطبري ج ٣). وقد رحل بهذه الأفكار إلى الحجاز والبصرة والكوفة ودمشق ومصر بينها وينشرها ويجمع حوله الاتباع، وقد بع دعاته في كل مكان، وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والظمن في الأمراء. ومضى رجاله يثيرون الناس على ولائهم تنفيذاً لخطة زعيمهم ويضعون كتباً في عيوب الأمراء ويرسلونها إلى غير مصر من الأمصار، وقد نتج عن ذلك قيام جماعات من المسلمين بتحريض السبئيين وقدومهم إلى المدينة وحصارهم عثمان في داره. وكان ابن سبأ يقول: «إن عثمان أخذها بفير حق وهذا وحى رسول الله فانهضوا في هذا الأمر فخرأكوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تسميوا الناس وادعواهم إلى هذا الأمر». وأتت حركة عبد الله بن سبأ نتائجها فشلت القوى الإسلامية بعضها ببعض وحالت بينها وبين العمل لنشر الإسلام.

ولما سقطت الخليفة عثمان وضع الناس من هول المفاجعة بدأ حلقة أخرى لينجوها هو ومن معه من القصاص ثم يتحفظ لإحكام مؤامرة أكبر، وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكراته لا تذكر إلى جانبها كراته مقتل عثمان، فانضم هو ومن تابعه إلى علي بن أبي طالب حين خرجت السيدة عائشة للمطالبة بدم عثمان. ولما علموا بأن المسلمين قد تصالحوا على حل الأمور سلماً وإجراء الصلح، وإن رؤساء الجيش أخذوا يتعاضدون وأنهم إن تم ذلك سيأخذون بدم عثمان، أجمعوا أمرهم ليلا فوزعوا أنفسهم واندسوا بين الجيش ونثروا الحرب بكرة دون علم غيرهم واستطاعوا أن ينفذوا هذا القرار قبل أن يبدأ الجيشان المتقابلان فناروش المندسون من السبئيين في جيش عليّ من كان بإزائهم من جيش البصرة، ففرع الجيشان وفرع رؤسائهما وظن كل بمخيمه شراً ووقعت الحرب.

وقد سجل الطبري هذه المؤامرة (ج ٢)، فنقل عن ابن السوداء قوله: «إن عزمكم في خاظة الناس فصانعهم إذا التقى الناس غداً، فانشبوا القتال ولا تفرغوا من النظر، فإذا من أتم معه لا يجد بداً من أن يمنع ويغفل الله هلياً وطلاحة والزبير ومن رأى رأيهم عما يكرهون فابصروا الرأي وتفرقوا عليه

والناس لا يشعرون ، . . . ومن راجع أخبار موقعة الجبل في تاريخ ابن الأثير ترى مبلغ تأثير إفساد السبئين لذات البين والحيلولة دون وقوع الصاح . وهكذا خرج مضربهم إلى مضربهم ، وربيعهم إلى ربيعهم ويمانهم إلى يمانيم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فنار أهل البصرة ونار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين يقتوم وحيرتهم الصدمة ، وخرج طلحة والزبير فسألا : ما هذا ؟ قالوا : طرقتنا أهل الكوفة أيلا فقالا : قد علمنا أن علينا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه وأنه إن يطاوعنا ، واستطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم . وقال على : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه . والتحم الناس بعضهم ببعض ، وبدأت المعركة وانحسرت عن خمسة عشر ألف من القتلى وما لا يحصى من الجرحى ، وكان من قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين .

ولما قتل عثمان انضم ابن سبأ ورجاله إلى على ، فلما انكشف له أمرهم نفاهم إلى المدائن . وكان لابن سبأ مساجلات أثار فيها الشبهات مع أبو ذر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حنيفة ، ولكن كثيراً منهم كشفوا زيفه ومؤامراته . ومع هذه الآثار الضخمة حاول الاستقرار ودعاة التغريب التقليل من شأن عبد الله بن سبأ ، بل ذهب البعض إلى إنكاره تماماً ، وقد ردد الدكتور طه حسين هذه المعاني بينما تكشف الوثائق التاريخية أن ابن سبأ وهمايته كانوا يعملون لحساب دولة أجنبية هي دولة الروم (سعيد الأفغانى : الرسالة ١٩٤٥) . وهكذا نجد أن تاريخ هذه المرحلة لم تكتب بعد كتابة علمية صحيحة ، بعيداً عن كل العوامل التي أثرت في المؤرخين القدامى ، على النحو الذي صور الخلاف بين الصحابة على أنه أشبه بمؤمرات ومناورات رجال الحكم الحديث بينما لم يكن صحابة رسول الله إلا مثلاً هالياً للخلق والنبيل والفضل . ويشهد السيد محب الدين الخطيب ومن قبله القاضي بن العربي في كتابه : العواصم من القواصم إلى أن الذين تصدوا لتدوين تاريخ الاسلام في هذه المرحلة ثلاث طوائف :

(الأولى) تشدد العيش والجددة من التقرب إلى مبغضى بنى أمية .

(الثانية) طائفة ظنت أن التدين لا يتم ولا يكون التقرب إلى الله إلا بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبنى عبد شمس جميعاً .

(الثالثة) طائفة من أهل الإنصاف والدين (كالأطبري وابن عساكر وابن الأثير وابن كثير) رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخبارين من كل المذاهب والمشارب .

وقد وصلت إلينا هذه الأثرية لا على أنها تاريخ بل على أنها مادة غنية للدرس والبحث نستخرج منها تاريخنا وهذا يمكن ميسور . ويقول السيد محب الدين الخطيب : إن أحداث المائة الأولى من عصور الاسلام كانت من معجزات التاريخ ، والعمل الذي عمله أهل المائة الأولى لم تعمل مثله أمة الرومان ، ولا أمة اليونان قبلها ، ولا أمة من أمم الأرض بعدها ، أما أبو بكر وعمر وسائر الخلفاء الأربعة الراشدين وإخوانهم من العشرة المبشرين بالجنة وطبقتهم من أصحاب رسول الله ﷺ خصوصاً الذين لازموا ورأبوا وامتدوا بحميل محبته - من أنفق منهم من قبل الفتح وقاتل والذين أنفقوا من

بعد وقالوا - فإنهم جميعاً كانوا شيوخاً طلعوا في سماء الإنصارية مرة ولا تطمع الإنصارية بأن تطالع في سماتها شيوخ من طرازهم مرة أخرى إلا إذا هزم المسلمون على أن يرجعوا إلى فطرة الاسلام ، وإذا بدأ المشتغلون بتاريخ الاسلام من أفاضل المسلمين في تمييز الاصيل عن الدخيل من سير هؤلاء الأفاضل العظماء فإنهم ستأخذهم الدهشة لما اخترعه إخوان أبي أوثة وتلاميذ عبد الله بن سبأ والمجوس الذين هجروا عن مقاومة الاسلام وجهاً لوجه في قتال شريف فادعوا الاسلام كذباً ودخلوا قلعه مع جنوده خلسة وقالوهم بسلاح التقية ، بعد أن حولوا مدلولها إلى النفاق ، فادخلوا في الاسلام ما ليس منه ، والصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من حجة أهلها .

ولقد كان الصحابة أسمى أخلاقاً وأصدق إخلاصاً لله وترفعاً عن خسائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا ولكن كان في عصرهم من الأيدي الخبيثة التي عملت على إيهام الخلاف وتوسيمه مثل الأيدي الخبيثة التي جاءت فيما بعد فصورت الوقائع بغير صورتها . ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ هم قدوتنا في ديننا وهم حلة الكتاب الإلهي والسنة المحمدية إلى الذين حلوا عنهم أماناتها حتى وصلت إلينا ، فإن من حق هذه الأمانات على أمثالنا أن يدركنا عن سيرة حفظتها الأولين كل ما ألصق بهم من إفك ظلماً وعدواناً لتسكون صورتهم التي تعرض على أنظار الناس هي التقية الصادقة التي كانوا عليها ، فتحسن القدرة بهم وتطمئن النفوس إلى الخير الذي ساقه الله للبشر على أيديهم . وقد اعتبر في التشريع الاسلامي أن العطن فيهم طعن في الدين الذي هم رواه وتقويه سيرتهم تشويه الأمانة التي حلوها وتشكيك في جميع الأسس التي قام عليها كيان التشريع في هذه الملة الخفيفة السمحة ، وأوله نتاجه حرمان شباب الجيل وكل جيل بعده من القدوة الصالحة التي من الله بها على المسلمين ليتأسسوا بها لبواصلها حمل أمانات الاسلام على آثارها ، ولا يكون ذلك إلا إذا ألموا بحسناتهم وعرفوا كريم بجاياهم وأدركوا أن الدين شوهدوا تلك الحسنات وصوروا تلك السجايا بغير صورتها إنما أرادوا أن يسيئوا إلى الاسلام نفسه بالإساءة إلى أهله الأولين .

ويدعو السيد محب الدين الخطيب إلى اليقظة إزاء هذه الدسيسة التي دسها عليهم أعداء الصحابة ومبغضوهم ليتخذوها نموذجاً لأمثالها من الدسائس . وعلى المؤرخين أن يتفرغوا لدراسة حقيقة التاريخ الاسلامي واكتشاف الصفات النبيلة في رجاله فيعلموا أن الله عز وجل قد كافأهم عليها بالمعجزات التي تمت على أيديهم وأيدي أعوانهم من أحداث أعظم انقلاب عرفه تاريخ الإنصارية ؛ ولو كان الصحابة والتابعون بالصورة التي صورهم بها أعداؤهم ومبغضوهم لسكان من غير المعقول أن تم على أيديهم تلك الفتوح وأن تستجيب لدعوتهم الأمم بالدخول في دين الله أفواجا .

ويقول الأستاذ صادق هرجون : وإن العصر الذي دونت فيه أقدم مصادر التاريخ الاسلامي المتداولة بين يدي الناس لا بد من الغرض المائل عن جانب الحق في طريق إثبات الوقائع ولا سيما في هذه المرحلة التي اعتبرتها السياسة مبدأ لسلطان الأموي ، وقد كان هذا السلطان بغيضاً أشد البغض إلى

خلافتهم على ملك الاسلام من العباسيين ، وفي ظل العباسيين وظل سلاطنتهم دون ما أدركنا من مصادر التاريخ الاسلامي . . . وهكذا نعرف اتجاه الرّيح ، ونضع أيدينا على مصادر الخطر ، فلاستغراق عن طريق مدرسة من كتاب تاريخ الاسلام في خلال عصر الاستعمار وما بعده كانت تهدف إلى تزييف التاريخ الاسلامي في أعظم صفحات قوته ، وهي تصوير الصحابة في صورة قاسية من صور الخلاف بل والصراع بينما أن الامر لم يكن كذلك وأن الروايات التي اعتمد عليها المؤرخون واهية واقصة ومبتورة فضلا عن أن العوامل الخارجية منكورة ومحجوبة ومطمون فيها بالشك . وليس معنى هذا ادعاء العصمة للصحابة ، فالمسلمون لا يعتقدون بعصمة أحد بعد رسول الله ﷺ وكل من ادعى العصمة لأحد بعد رسول الله فهو كاذب ، ولكن نحن نؤمن بأن هذه الجماعة من الصحابة هم أعظم أهل الاسلام امتيازاً فقد تروا في مدرسة رسول الله ﷺ وما صدر بينهم من خلاف هو من طبيعة الأمور ولكنه لا يصل إلى هذه الصورة القاسية التي تصورها كتب التاريخ محاولة استغلال بعض الوقائع لتجسيم الأحداث وتضخيمها وإعطائها صورة مزورة .

(٢) ولقد كان الدكتور طه حسين قد تزعم هذه المحاولة لينقلها من مجال التعليم إلى مجال الثقافة لخاول الادعاء بأن القرن الثاني الهجري قرن شك ومجون . وقد كانت المادة التي اعتمد عليها الدكتور طه مجموعة من شعر شعراء متحللين منبوذين من المجتمع بينما ترك آفاقاً واسعة من أعمال العلماء والفقهاء والأدباء دون أن يدخلها في حكمه المبتور . وقد واجه العلامة رفيق العظم هذه المحاولة في تصويبه التاريخ الاسلامي اعتماداً على القصص والرواة . فقال في معارضته اتجاه طه حسين : « إن المقدمات التي استخرج منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناولها وهم معروفون مشهورون في التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفي لمثل هذا الاستنتاج ولا تنفي عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء .

ويقول العلامة رفيق العظم : « إن الأخبار الصحيحة للتاريخ الاسلامي هي أشبه بالدر الملقى بين أشواك تحتاج من يستطيع استخراجها من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الشك ، وقد عانى رواة الحديث ونقله الأخبار النبوية من تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتضويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة وانتمائها إلى صاحب الشرع ، فما بالكم بأخبار الخلفاء ووقائع الأخبار وأخبار الناس . وتحدث عما ورد من أخبار التنازع بين الشيعة الدهنية والسياسية في عصر الحنة التي مرت على المسلمين وما كتبه القصاصون فقال : نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبتها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس وهي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو ستمهم ما شئت كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك . وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الاخلاق والسياسة في المنزلة التي أنزلهم إليها الوعاون ويدوم لهم

طويلاً ذلك الملك المريض والشهرة الدائمة في التاريخ ، وتقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب الفصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب ، فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة المصور الإسلامية الأولى التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد ثم يصل العلامة رفيق العظيم إلى مقطع الأمر في ذلك الركام الذي يعتمد عليه المستشرقون ودعاة التغريب في رسم تاريخ زائف للمسلمين في هذا العصر الأول فيقول الحقيقة التي ينبغي أن نقول : إن التنازع السياسي بين الشعب الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست منه في شيء وإنما هي من وضع المتزافين أبيوت الإمارة أو الملك أو الملقبين لبعض المذاهب السياسية والدينية . ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعاتها شأن كل مؤرخ بحاله لا يأتي الكلام على هواه ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عند كل منصف أن ابن خلدون أوفق وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من الجهوليين . هذا إذا صحت أخبار الجهول المنسوبة إلى هؤلاء . ويفرق العلامة رفيق العظيم بين كتب التاريخ وكتب الفصاصين فتقول : أما القصص أو كتب الفصاصين فلها شأن آخر لأن واضعها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو أدبية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، أما البواعث السياسية والدينية فهي منفع العامة من الخوض في سياسة الخلفاء والحكام والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن أو من للعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسليية وأما كن اللو العامة ، ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ثم سياسة الخلفاء وحكامهم ، وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما تقرأ في أخبار أهل السنة والجماعة في بغداد عاصمة الملك والخلافة وكانت هذه المنازعات والفتن تفضي أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة الذي يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفع أو فهم يودع . فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من وسائل لشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأفكار .

وقد أخذ المستشرقون كتب القصص واعتمدوها في كتب لتاريخ الإسلام وأغضوا العين عن كتب التاريخ وجاراهم الجماعة فأخذ بعضهم الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات فيلهم بها العامة عن الأخبار المثيرة للمواطن أو الأحقاد فكان منها المختصر المبهر في ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشام وفتوح مصر وفتوح اليمن المنسوبة إلى الوافدي وهي ليست له ، وكتاب قصة هنتر العيسى وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وكتابها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار - وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة لأن منها نوعاً من التلهي

وترويح النفس - تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووصفها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والسكران وغير ذلك فكان فيها الغث والسمين ، ومنها الملق والفريب من الصحة ، وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجنون والتهتك والافتقار في الشهوات مغالاة تسكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذي أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم لسبب كبير يتنافى ما ينسب إليهم من أطراح رداء الحشمة والمروءة . ووصل العلامة رفيق العظم إلى الغاية فقال : إن ما نسب إلى أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، وما يفيض إلى القول بأنه عصر شك ومجون هو تلفيق قصص يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ولما سد نهما من العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذة دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لأنه مجنون لا يجوز أن يتعدى الماजन مهما تطاول إلى النيل من سواء باسم المجنون .

وإذا قرأت هذه القصص فإنما لأن فيها فسكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا حول وعصر نهضة علمية بلغت أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات السنين . والواقع أنه لا يمكن الحكم على العصر الثاني للهجرة عن طريق المجان والشكك فيه أو الأدباء والشعراء وهم قلة معزولة لا تمثل المجتمع الاسلامي تمثيلاً صحيحاً وإنما يحكم على المجتمع عن طريق العناصر الإيجابية منه والمنفعة والمصلحة ، وفي العصر الثاني للهجرة يوجد عدد ضخم من الفقهاء والمحدثين والوهاد على مرتبة عظيمة من الايمان واليقين ، منهم الحسن البصري وعمرو بن عبد ومحمد بن إدريس الشافعي ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأي وابن سيرين والشمسي ، فكيف يمكن تجاهل آثار هؤلاء في هذا العصر فيحجبون حججاً تاماً عن موازين التقدير إزاء طائفة من الشعراء المجان ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء الشعراء من أهل المجنون والفحش مرة لهذا العصر بينما يجب أهل العلم والفضل والرأى الذين أقاموا صرح الحضارة الاسلامية .

(٤) كذلك فإن الاستشراق والتبشير وحركة الغزو الثقافي والتغريب قد حرصت على البحث عن وجوه الخلاف ونقاط الضعف والروايات الضعيفة حول الشبهات والعمل على إعلائها وإذاعتها ، بل ذهب هذه القوى التي سيطرت على كتابة تاريخ الإسلام ونقده في العصر الحديث على ما يسميه الدكتور الشكمة : تمجيد الفئات التي تمردت على الشرعية أثناء مسيرة التاريخ الاسلامي وخلع صفات البطولة عليهم مثل الاهتمام بالتمرد الذي قام به بابك الخرمي أو الفوضى التي أثارها الزنج أو التغريب الذي انتهجه القرامطة . ويقول : إن بعض الاوساط أصدرت كتباً تدخل من خلالها في روع الناشئة أن جماعة القرامطة جماعة اسلامية مصلحة استهدفت إشاعة العدل الاجتماعي بين الناس وفي الوقت الذي يقول وقائع التاريخ أن القرامطة هم العصاة التي أسالت دماء المسلمين أنهاراً وقتلت النساء والشيوخ والأطفال واستباحوا الأعراض والمحارم وهاجمت مكة في موسم الحج وسرقت الحجر الأسود وطمست بشر زمزم بجثث حجاج بيت الله .

(٥) بل إن الدكتور أحمد شاذي يذهب إلى أبعد من ذلك فيرى أن الاستشراق هو الذي وضع ذلك الأسلوب المسموم الذي تسير عليه ~~كتابة~~ تاريخ الإسلام حتى اليوم . يقول : إن المستشرقين وضعوا الأسس الحديثة لكتابة تاريخنا الإسلامي وتاريخنا الوطني ، وكانوا ملتزمين بما يفهمهم وما يفهمهم كان في الغالب يصيبنا بالضرر ، وقد لام هرشنو هذا الاتجاه عند الغربيين في كتابه (علم التاريخ) حيث يقول : قلنا كان التاريخ يدرس لذاته بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبي عنه من الصوالم السياسية أو الدينية لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة في أحداث الماضي الخطيرة من حيث علمها ووضعها ونتائجها . ويقول الدكتور شاذي : اتجه أكثر المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي لإتجاهها بشتر الفتنة بين المسلمين ويضعف كيانهم ويصور لهم تراثهم تصويراً تشمئز منه النفوس فأمرؤوا في تصوير الصراع بين بني أمية والشيعة لتغفل عن تاريخ الأمويين لأن به رجالاً يمكن الافتخار بهم وماجوا تاريخ الأتراك العثمانيين ولم يدعو من وسيلة للحط منهم إلا أقدموا عليها ، وقدموا أسوأ صورة لإسماعيل وعمراني وانخدعنا بهذا وسرنا فيه إلى أبعد مدى .

(٧) ويذهب المستشرقين في النظر إلى وقائع التاريخ الإسلامي مذاهب شتى كلها عداوة وخصومة ، فمنهم من يصور الدولة الأموية بصورة مظلمة فاقمة حتى يخفى دورها الذي قامت به في نشر رسالة الإسلام وتركيز دعائمه ، ومنهم من يمدح الدولة الأموية لأن بني أمية كانوا خصوصاً للرسول ومن هؤلاء لأمس الذي اهتم ببني أمية في سوريا ، جامعا بين رفع شأنهم وبين عدائه للرسول والإسلام قلائد أمويين عنده أحفاد ألسفيان الذي حمل لواء المعارضة في وجه الإسلام وقاد الجيوش لحربه ، وهو يرى أن خلافة معاوية نصر معنوي للأمة السورية على الإسلام كقوة قهرت سوريا ، وأن معاوية التي اعتمد القبائل السورية في حكمه كان يعيد صرح السيادة السورية السابقة لأن هذه القبائل هي بقايا الفساسنة النصارى وحلفائهم . وهكذا نجد أن خطة الاستشراق في دراسة تاريخ الإسلام تقوم على التآمر والهدس والكيد وقلب الحقائق وتزييف الصعائم والتركيز على الجوانب السلبية وإهمال الجوانب الإيجابية ، وهم يهدفون من ذلك إلى الانتقاص من شأن الإسلام وأن يضموه في الظل ولا يبرزوه إلى النور حتى لا يكثر معتقوه ، وكذلك نجد محاولة الاثريين في البحث عن الآثار في العصور السابقة للإسلام فهم إنما يقصدوا من ذلك إثارة الشبهة بأن الحضارات السابقة للإسلام كالرومانية والحيثية والآشورية كانت أعظم من حضارة الإسلام . ويركزون على انتشار الإسلام وتوسعه ويذهبون الظروف والأوضاع التي حققت للإسلام هذا الانتشار السريع الواسع ، ويذهبون للشبهات حول فقر الجزيرة العربية ويذهبون أن المسلمين خرجوا منها مجنأ وراء الرزق ودخلوا الحروب طلباً للغنائم . وهناك محاولة للتقليل من قدر الصحابة والجرأة في الحديث عنهم وانتقاص قدرهم وفتح طريق الهجوم على شخصياتهم على نحو يضمهم في صفوف رجال السياسة في العصر الحديث . وقد حمل الدكتور طه واء هذه المحاولة في كتابه الفتنة الكبرى في محاولة لتعميق الخلافات التي وقعت على نحو يقتل من أقدارهم في نظر القارئ المسلم ، وكان طه حسين هو أول من فتح هذا الباب أمام الكتاب الذين جاءوا من بعده في نفس الوقت الذي لم يكن فيه طه حسين من المؤرخين أو حائراً على صفة رجال التاريخ .

وفي الوقت الذي يقدس فيه طه حسين تاريخ اليونان والرومان ويقدمه في أسلوب من الإعجاب والتقدير نجده ينكر ذلك بالنسبة للتاريخ الإسلامي ويدعو إلى إلغاء صفة التقدير عن الصحابة ويدعو إلى النظر إليهم نظراته إلى أي أناس ونحن لا نقدس الصحابة ولكن نضعهم في مكانهم الصحيح من الرسول ومن السابقة ومن تاريخ الإسلام ومن بطولات الفتح وبناء الدولة ، وبذلك لا يمكن أن تجعلهم في صف ساسة الدول في العصر الحديث ، ولا يعقل أن يكون مصدر خلافهم صراع على سلطة أو مطمح أو ملك أو هوى . وفرق بين التقدير مع النقد وبين المطمح الذي يحمل لواءه قلم الدكتور طه حسين وهو الاحتقار ونسبة الصغار إلى هذا الرعيل الكريم تحت اسم النقد العلمي بينما هو يصدر عن هوى الاستشراق والاستهراق اليهودي أساساً الذي يطمح إلى تدمير تلك الشخصيات التي أفسحت للإسلام طريقاً إلى القوة والتوسع وهو ما يملأ قلوبهم بالحقد والكراهية .

وهناك من المستشرقين من يعمل من شأن كتب معينة ويتخذها مراجع كالأغانى ، وهو كتاب طو أو كتب المأثرات ، أو ما جمعه الرواة ، كذلك فقد اتسكا السكتيون على كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة وقد كذفت المراجعات على أن نسبته إلى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ لم تصح وتبين أن كتاب الإمامة والسياسة مشحون بالجهل والغباوة كما يقول السيد محب الدين الخطيب والكذب والتزوير . كذلك فإن هذا الأسلوب الاستشراقي والتعريبي في تصيد المغفوات الصغيرة والأحداث المعدودة ذات الروايات المفقوك فيها والتي لم توثق أو يجمع عليها المؤرخون في تاريخ طويل عريض كتاريخ الإسلام اتسمت آفاقه أربعة عشر قرناً وأقام ١٧٨ دولة وشمل أمماً متعددة منها العرب والفرس والترك والهند والديلم ، لا يمكن أن تكون ذات حساب أو أهمية ، وليس هناك كمال بشري مطلق ولا بد أن توجد هنات ، ولكن العبرة بأن هذه الهنات قليلة ويسيرة وأن الأمم المختلفة قد عرفت هذه الأمواء البهريّة التي تجد طريقها في مجال الحكم والسلطان ، غير أن العبرة بأن تكون النظرة بريئة وعاجزة وبعيدة عن الحقد أو التعصب أو التماس الغيب للبراء ، ولا ريب أن النظرة للعامة المنصفة الصادقة تكشف عن أن تاريخ الإسلام تاريخ كله بطولة وسماحة وكرامة وجهاد في سبيل المثل الأعلى وأنه بمثابة نموذج طيب كريم لم تعرفه الأمم الأخرى .

كذلك فإن كتاب المسلمين المنصفين قد تعاهدوا اجتناب الخوض في الفتن التي تثار ثارها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين . هذا الاتجاه الذي عليه مؤرخو الإسلام بأن لا يعرضوا بما يسمى إلى بعض الصحابة أو يصفهم بما لا يناسب قدرهم تقدراً لكلمة الرسول عليه السلام عنه حين قال : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وما أثر عنه عليه الصلاة والسلام من كراهية انتقاصهم ، وهو الخط الذي سار عليه أكثر المؤرخين المسلمين . وقد أشار الدكتور أحمد شلبي إلى هذا المعنى حين قال : إن على المؤرخ المسلم أن يرهى الدين والوطن في فلسفة التاريخ ، فإذا تحدث عن حروب الصحابة غيرها بدون إدانة ذا كراً وجهات النظر التي لا تخرج أحداً ولا تقوض تراثاً ، وأن يتعاشى الغموات التي تضر الوطن والدين . وقال : إنني وإن كنت عازمة على اجتناب الخوض في لفتن التي تثار ثارها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضي الله عنهم جميعاً ،

لم أر بدأ من إيراد ذكرهم مع الخلفين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما جميعاً من دعاتهم الإسلام التي قامت على صروحه وأعضاء الدين الذين بان بهم صريحه ، فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يملن بذكره من هذه الفتن أثر في النفس إلا ما كان فيه حجة بالغة يجرى بها العلم أو حكمة زاخرة يحتاج إليها العاقل ويتعظ بها الجاهل .

ولا ريب أن طه حسين وجرجي زيدان قد أساء الفهم وزلا وتورطا في الخطأ حين وصفا القرن الثاني بأنه عصر إلحاد ومجون معتمدين على كتاب زائف لا يصالح مرجعاً تاريخياً أو علمياً وهو الأغاني للأصفهاني الذي لم يرسم إلا لوحة خلق مادتها من الكذب والتوبيه وصاغ مبادئها من الضلال والبهتان . وهكذا نهد من هذا العرض ما يلي :

(أولاً) أن تاريخ الإسلام كتب في العصر العباسي حيث كان الخلاف بين أصحاب الدولة الجديدة وبين الأمويين ولهم صلتهم بالخليفة عثمان وموقفه من الخلاف بين علي ومعاوية وكان بعض المؤرخون يسترضون الدول .

(ثانياً) إن بعض المستشرقين أعجب بتاريخ بنى أمية وكتب عنها على نحو من إبراز المحاسن بحجة أن هؤلاء أحفاد أبو سفيان الذي عرف بالخصومة مع النبي كما فعل لامنس وغيره ، وهؤلاء كانوا يرون أن تاريخ الشام هو تاريخ السريان القديم وتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ النصارى حتى أن مؤرخاً مثل أرنولد توينبي لا يترف بمحضارة إسلامية في الشام ، واسكن يرمي أن المجتمع السرياني نفسه الذي كان قائماً من قبل ما زال قائماً وإن تغيرت مظاهره ، وإن تاريخ الإسلام بكل معطياته وما أحدثه من تغيرات ليس إلا امتداد بمثابة العصر السرياني .

(ثالثاً) إن بعض المؤرخين أمثال جرجي زيدان عجز أن يهاجم الإسلام في عصر النبي والعصر العباسي فجعل حملته على الإسلام مركزة على عصر بنى أمية .

(رابعاً) أعطيت مسألة الموالي في عهد الدولة الأموية حجباً أكبر من حجبها الطبيعي . وقد جرى هذا المجرى بعد فهلوزن كثيرون ، أمثال أحمد أمين وغيره .

(خامساً) عمد كثير من المؤرخين الأجانب إلى التقليل من الدور الخطير الذي قام به عبد الله بن سبأ ورجاله في تغيير مجرى الأحداث وفي مقتل عثمان وما بعد ذلك من أحداث في عهد علي بن أبي طالب وقد أدخل عبد الله بن سبأ مفاهيم جديدة مستمدة من اليهودية والفلسفة الهلينية كالرجعة والوصية وغيرها . (سادساً) محاولة وضع الصحابة الأول في مقام مشابه للسياسيين المحترزين في العصر الحديث والتقليل من كراماتهم ومكانتهم بنقدهم والإساءة إليهم واحتقارهم على النحو الذي فعله الدكتور طه حسين في كتاب الفتنة الكبرى .

(سابعاً) اتفق مؤرخو الإسلام على اجتناب الخوض في الفتن وعرض تاريخ عثمان وعلي ومعاوية عرضاً منصف مع تجاوز عوامل الخلاف .

(ثامناً) فساد القول بأن العصر الثاني كان عصر شك ومجون .

الفصل الخامس

مؤامرة الزنج والقرامطة

حاولت مؤامرة إفساد التاريخ الإسلامي التركيز على ثورة الزنج والقرامطة وتصويرها على أنها حركة تقدمية وأنها تمثل العدل الاجتماعي في الإسلام ، ولقد ركزت كثير من الكتابات على هذه الحركات الباطنية التي استهدفت تدمير القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي وصولاً إلى إسقاط الدولة الإسلامية حامية النظام الاجتماعي . ولقد كانت هذه المحاولة واحدة من مخططات التبشير والاستشراق ، ولكن الصهيونية أرادت في السنوات الأخيرة أن توسع دائرة تزييف التاريخ الإسلامي لحساب أهدافها فعمدت مؤتمر بلتيمور الصهيوني في أمريكا عام ١٩٤٣ خلال الحرب العالمية الثانية الذي وصف بأنه نقطة تحول في اتجاه الصهيونية إلى تزييف التاريخ الإسلامي والعربي ، وقد حضر بن جوريين هذا المؤتمر وقاد أعماله بهارة إلى هدفها الأساسي من تنظيم ومضاهفة عمليات التزييف لتاريخ العرب وملء العالم بالمطبوعات والوسائل الدعائية عنه تمهيداً للغزو الصهيوني للندفع لأرضهم . ولقد استغلت الصهيونية مفاهيم الماركسية في تفسير التاريخ لإيجاد تصور كاذب عن الزنج والقرامطة على النحو الذي أعلنه جارودي في محاضراته المشهورة التي ألقاها في القاهرة وما كتبه أمثال محمد إسماعيل عبد الرزاق في كتابه « الحركات العربية في الإسلام » وهو مستمد مما كتبه بندلي جوزي في كتابه : « من الحركات الفكرية في الإسلام » الذي صدر عام ١٩٢٨ من القدس . وتابع الدكتور طه حسين هذا في محاضراته عن العدل الاجتماعي التي لشرها في مجلة « الكتاب المصري » .

وقد كشفت الأبحاث العلمية الصحيحة في شأن مؤامرة الزنج والقرامطة الحقائق الآتية :

(أولاً) لم تكن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان بل كانت حركة انفصالية ولم تكن تستهدف العدل الاجتماعي بل كانت نوعاً من الأخذ بالنار ، فقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتشكيل بهم ، وكان أفسى أعمال القرامطة أنهم أقاموا سوقاً للرقيق يعرضون فيه الحرائر من فناء العرب .

(ثانياً) كانت هذه الحركة التي وصفت بأنها ثورة اجتماعية بمثابة مؤامرة سياسية إذ كانت على صلة بالحركة الإسماعيلية في دور الستر ، فإن الفاطميين رأوا بعد ظهور دولتهم في المغرب أن يستغلوا بتوجيه السياسة في ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية بعد نجاح الدولة الفاطمية في المغرب العربي .

(ثالثاً) كان الحلاج المتصوف المشهور من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كانت على صلة بالقرامطة . وقد روى عنه أنه أقسم في أحد أحاديثه القدسية التي كان يرفعها لنفسه أن سنة ٢٩٢ هـ ستكون حاسمة ، وهو السنة التي شهدت الثورة الكبرى للقرامطة .

(رابعاً) ظهر التناقض بين ادعاء الحركة بالشيوع والميل إلى البيت العلوي بينما قامت بالاعتداء على الأماكن المقدسة وتجهيز أصحاب الرسول . فقد هاجم القرامطة موسم الحج وقتلوا نحواً من ثلاثين ألفاً من هؤلاء الحجاج وانزحوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج .

(خامساً) انكشفت صلات عميقة بين الباطنية وبين الصليبيين .

(سادساً) قال القرامطة باليهودية في المال والذماء وكانوا دعاة تخريب وسفك دماء .

(سابعاً) لم تصدر هذه الحركات عن منهج أسامي يبيح لها صفة البقاء ، واتخذت أساليب غاية في العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لا حد لها ، فقد حل لواء الدعوتين متأمرين ادعوا الانقساب إلى أهل البيت واستهدفوا القضاء على الدولة .

(ثامناً) صاغ القرامطة مفاهيمهم من المجوسية والتنوية والوثنية فادعوا أن الجنة هي الدنيا ونعيمها وأحلوا للناس المحرمات ورفعوا عنهم الحدود ووجهوا خصوصتهم للإسلام كدين ، وحاولوا لإحلال مفهوم الفلسفة بديلاً منه .

(تاسعاً) اتفقت جميع الدعوات المتأمرة تحت لواء الباطنية على غنطط مقها به . سواء الونج أو القرامطة أو البابكية أو الاقشين والخرمية ، واتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنظم إليها باعتناق مذهبها .

(عاشرأ) عجزت هذه الدعوات أن تحقق لمجتمعاتها أى قدر من العدل أو الخير ، وكانت نهايتها نهاية كل فرقة ، وظل الإسلام بأصوله الكبرى وعقيدته الواضحة ومنهجه الحضارى هو الإسلام ، وبقيت روحه هي روحه في أركانه وملاحه ومجتمعه واتجاهاته العامة ، ولم تفعل هذه الفرق إلا وضع المراقيل في طريق الركب السائر الجاد تحاول أن تصده وتريد أن تنحرف به وتحاول لو تحلل الناس منه من هصبية وجنسية ، أو حقد قديم موروث ، أو شذوذ واضح . (شكرو فيصل) .

وقد سجل التاريخ لهذه الفرق ما سفكت من دماء وما هدمت من أرض وما استباحات من حرمت ومع ذلك فقد جاء من يصف هذه الجماعات بأنها ثورات إصلاحية أو دعوات إلى العدل الاجتماعى وكذبوا . . .

الفصل السادس

دور اليهود في الفتنة الكبرى

خاض الدكتور طه حسين في كتابه (الفتنة الكبرى - علي وبنوه) في تاريخ عثمان وعلى ومعاوية على نحو أراد به - جرياً على منهجه - إثارة الشكوك والشبهات في محاولة خطيرة لتصوير الصحابة على أنهم رجال سياسة ، موحياً أن صراهم إنما كان من أجل الطعام والأهواء ، واعتمد في كتابته على مصادر غامضة وروايات مبتورة تاركا للمصادر الأساسية مثل شرح التهج لابن أبي الحديد ، وتاريخ ابن واضح اليعقوبي ونقل روايات الفتنة كما رواها رواةا دون أن يحقق هذه الروايات ، وكان له هوى واضح لم يكشف عنه إلا بعد أن قطع شوطاً طويلاً هو تفسير التاريخ الاسلامي تفسيراً مادياً واقتصادياً وفق مفهوم الماركسية والمذاهب المادية وإنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودي أو التهمين من شأنها ، ولم يرجع في تحقيق ذلك إلى أعلام السنة أو علماء الحديث الذين يجب أن يرجع إليهم المؤرخ في دراسة تاريخ الصدر الأول . وصور الفتنة على أنها كانت عربية اشأت من نزاحم الاغنياء على الفناء والاساطين ، ومن حمس العامة العربية لمؤلاء الاغنياء ، وكرر صفة دهرية في أكثر من موضع على نحو يوحى بأنه لا يريد أن يشرك أحداً غير العرب في دم عثمان ومهد بذلك لإنكار شخصية ابن سبأ ، فإنه لم يلبث أن قال : وهناك قصة أكثر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ولما أوردت هذا الاختلاف من فرقة بين المصلين لم تمنح آثارها بعد ، وهي قصة عبد الله بن سبأ الذي يعرف بابن السوداء .

ثم يقول : است أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ولاكنى أقطع بأن خطره إن كان له خطر ليس ذا شأن ، وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعيث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان . ثم قال : إن قصد الكتاب الذي يقال إن الرواة المصريين قد أخذوه أثناء هودتهم إلى مصر فكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها .

وقد كشف الأستاذ محمد حمزة شاكر هذا الموقف :

(أولاً) قول الدكتور (الرواة المتأخرون) فيه إيهام شديد متعمد ، فإن الطبري الذي روى قصة ابن سبأ ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد عام ٢٢٥ هـ ومات عام ٣١٠ هـ فهو معاصر للبلاذري ومن طبقة تلاميذ ابن سعد صاحب الطبقات ، وأن سيف ابن عمر الذي روى عنه الطبري هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبري والبلاذري وهو من مرتبة شيوخ ابن سعد ، فلا يقال عنه ولا عن الطبري أنهم من الرواة المتأخرين كما أراد الدكتور طه أن يرمي به .

(ثانياً) إن ذكر الدكتور طه حسين المصادر المهمة ، فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة فليت شعري ما هى المصادر المهمة التى بين أيدينا .

(ثالثاً) إن الدكتور طه اعتمد على كتاب ابن سعد الذى فى الأيدى كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر ، والدليل على ذلك فيما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ولأبى بكر فى ٣٣ صفحة . فلما جاء إلى عثمان والأحداث فى خلافته هى ما يعام الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٤ صفحة . فلما ذكر على بن أبى طالب والامر فى زمنه أفدح لم يكتب سوى ١٦ صفحة .

(رابعاً) اعتمد الدكتور طه حسين فى نفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين على أنه البلاذرى لم يذكره وهو فيما يرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً . ثم عاد فنفي أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة على نفيه ، ثم ينفي أيضاً خبراً آخر قد ذكره ورج فيه .

(خامساً) النسخة التى اعتمد عليها الدكتور طه من كتاب أنساب الأشراف طبع فى أورشليم وطبعها رجل من طغاة الصهيونية . وهى ليست كل الكتاب وإنما جزء منه . من أين عرف أنه لم يذكره ما دام ليس قد طبع إلا هذا الجزء . أفلا يكون البلاذرى قد ذكره فى ترجمة عمار بن ياسر أو فى ترجمة محمد بن أبى بكر أو فى ترجمة محمد بن حذيفة . أو أى رجل آخر ممن اشتوك فى الفتنة . كل هذا جازو ولكن الدكتور طه حسين ينفي شيئاً لا يبالي أن يمتاز كل هذا ويفضى عنه ليقول فيه بالوأتى الذى يشتميه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف . ثم كيف نسي الدكتور أن من لم يرو خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ، بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالناريخ وتحصيله له .

(سادساً) الهدف الذى هدف إليه الدكتور طه حسين هو أن ينفي عن اليهود الشركة فى دم عثمان والتعرض على قتل الإمام فركب مركباً وجرأ خالف فيه أسلوب العلماء فى تخريج الأخبار ، وكذب الرواة فى شئ بنير برهان ، وصدقهم فى شئ آخر بنير برهان . فقد بدأ حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ ، فذكر أن الرواة المتأخرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها وأنها لم توه فى المصادر المهمة ، وأن ابن سعد لم يذكرها وأن البلاذرى فى أنساب الأشراف وهو أهم المصادر فيما يرى لم يذكرها وأن الذى ذكرها هو الطبرى وعنه أخذها المؤرخين الذين جاءوا بعده .

(سابعاً) نأليه ابن السوداء لعل حقيقة لا يدفعها شك ، وقد رواها رجال لإثبات من السفين والشيعه وغيرهم منهم الشهرستاني (الملل ج ٢) وابن حزم فى الفصل ج ٤ ، وعبد القادر البغدادي فى الفرق بين الفرق ، والرسعنى فى مختصر الفرق ، والاسفرافى فى التبرير فى الدين ، وابن عبيد فى تأويل

مختلف الحديث ، وابن قيم الجوزية في الفرق الحكيمة . وجاء هذا رداً على ما أشكك فيه طه حسين من أن ابن السوداء وأتباعه ألهو علياً وأن علياً حرقهم بالنار . يقول : ولكنك تبحث عن هذا في كتب التاريخ فلا تجد له ذكراً . وفضلاً عما ذكرنا فإن اليعقوبي وهو مؤرخ متشيع يحدثنا عن أن علياً حرق أماً بالنار . ويقول ابن عبد ربه في العقد الفريد : أما الرافضة ففيها غلو شديد في علي . ذهب بعضهم مذهب النصارى في المسيح وهم السبئية أصحاب عبد الله وقد أحرقهم علي رضي الله عنه بالنار . (العقد الفريد ج ٢) وأوردها ابن أبي الجديد في شرح النهج .

(ثامناً) خلاصة المحاولة التي قام بها طه حسين ترى إلى القول بأنه ليس لهذا اليهودي الحديث عبد الله بن سبأ يد في هذه الفتنة وأن ليس لليهود عمل في تأريث ناراها ، وهو تخرج جد خطر . ويقول الدكتور ويجول إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً ، ولنتف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولتكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياساتهم وعقولهم ودولهم رجل أبل من صنعاء ، وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغياً ولا رهباً ولكن مكرأ وخدعة وكيداً وخداعاً ، ثم أتبع له من النجاح ما كان ينبغي فخرض المسلمين على خلافتهم حتى قتلوه . ثم يقول : وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس ما ظهر من الفساد والاحتلال في البلاد الإسلامية أيام عثمان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحكاماً فنظم في الأمصار جماعات خفية تستتر بالسكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة حتى إذا تهيأت الأمور وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها عربية وأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا عامة عربية . وهكذا يبين الهدف من تبرئة اليهود من الاشتراك في الفتنة وهكذا توارثت كتابات المستشرقين على إنكار عبد الله بن سبأ والصحة والتجاهل إزاء دور المنافقين واليهود في هذا الأمر . يقول محمد محمود شاكر : « يجوز في القول أن تظل يهود وأشياعاً من المنافقين وقد ظفوا يكيدون للإسلام ولرسول الله وللمؤمنين عشر سنوات كاملة يوماً بعد يوم ، فإذا لحق رسول الله بالرفيق الأعلى في عام ١١ للهجرة نزعوا أيديهم من كل كيد وبرثوا من كل حدث كان بعد ذلك في تاريخ الإسلام ، برثوا من الردة عام ١١ من الهجرة وبرثوا من مقتل عمر عام ٢٢ هـ ، وبرثوا من الفتك بعثمان عام ٣٥ هـ . فكيف غاب عن أصحاب رسول الله معنى قوله ﷺ : « أخرجوا اليهود من الحجاز أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » . . . يحدثنا أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فيقول : كان آخر ما تكلم به ﷺ أن قال : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » . كان آخر كلامه وهو معرض عن الدنيا ومقبل على الآخرة « أثن بقيت لا أدع بجزيرة العرب دينين » . وهكذا نجد كاتباً مدعياً يكتب بالعربية هو الذي يبرى اليهود ، وفي أكثر من موقف حاول اليهود أن يكلفوا كتاب العرب والمسلمين أن يعتقدوا رأياً يوافق هواهم ويدافع عنه . وقبل مسألة عبد الله بن سبأ كانت مسألة إبراهيم وإسماعيل ومسألة تبرئة اليهود من المؤامرة التي أعدها اليهود على صلب المسيح وإن لم تتم .

وكان للدكتور طه موقفه من دهوة أبي ذر : فقد أشار إلى أن عثمان أخرج أبو ذر إلى الرملة ، والصواب في رأي أبو ذر ما رواه ابن خلدون : أن أبا ذر هو الذي استأذن عثمان في الخروج من المدينة إلى الرملة . وقال : إن رسول الله أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلماً فأذن له ونزل الرملة وبني بها مسجداً وأقطعه عثمان حرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتماهد المدينة وبين المدينة والرملة ثلاثة أميال . قال ياقوت : وكانت من أحسن منازل في طريق مكة . . وقد أنهت شبهات كثيرة حول أبي ذر في العصر الأخير ، وحاولت كتابات أن تصفه على رأس الشيوعيين أو الاشتراكيين ، وجرت محاولات كثيرة لتزييف موقفه ، وحقبة موقف أبو ذر هو كما حله الإمام عبد الحميد بن باديس كالاتي على هذا النحو : أنكر أبو ذر على معاوية أن يقول ماله الله وإنما يريد أن يقول ماله المسلمين ويتهمة بأنه يريد أن يحول اسم المسلمين لحجبه دونهم ويندد بالأغنياء أن يقتنوا الأموال ، قال له عثمان : يا أبا ذر : على أن أفضي ما علي وأخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدهوم إلى الاجتهاد والاقتصاد . وكان أبو ذر يرى أنه لا يجوز إدخار الذهب والفضة بعد أداء زكاتها ، والمعلوم المتواتر عند النبي أنه كان يأخذ جزءاً من المال ويترك الباقي لصاحبه . وقد صح عنه عليه السلام قوله : ليس فيما دون خمس أواق صدقة (أي زكاة) . وقد أصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الإدخار ، ولكنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة فضل لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها .

وقد خالف أبو ذر لإجماع الصحابة بنظرته السابقة مع قيام الدليل المنطقي من النقل المتواتر والنصوص القرآنية الكثيرة المتضاربة على خلاف رأيه . وكان خلافه هذا في مسألة من كبريات المسائل ومع ذلك تركوا له حرية النظر ، ولم يلق منهم من أجلبها أي ضغط ولا أقل تحقير ، فكانوا بذلك منفذين لما جاء به الإسلام من احترام الآراء وحرية النظر والتفكير ، ولم يتعرضوا له في نظره واجتهاده إلا عند ما خضوا من بث الفتنة بين الناس ، والمعروف أنه استأذن عثمان في الخروج . أو قال له عثمان : لو اعتزلت ، وعرض عليه ما رآه أصلح له فاختار الرملة وعلى كلتا الروايتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال أنه قد نفاه كما يقول المتجننون على عثمان ، وأقطعه عثمان حرمة من الإبل وأرسل إليه أن تماهد المدينة حتى لا ترند إعرابياً . وليس صحيحاً ما نسب إليه من نفي أبي ذر . والنظر في تاريخ عثمان عليه أن يثبت وأن يتحرى حتى لا يقع في ظلم وباطل .

ثانياً : عمرو بن العاص

وتحدث طه حسين جازهاً بجرى المستشرقين فيما أسماه انحياز عمرو بن العاص إلى معاوية اعتماداً على رواية الطبري الذي قال أنه انحاز من عند دهوة معاوية له ، ولكن هناك رواية اليعقوبي الذي يقول أن معاوية هو الذي أرسل إلى عمرو يستنجد به ويضمه إليه .

وقد تناول السيد عبد الهادي الخطيب موقف عمرو ، الذي شوه المفرضون موقفه من التحكيم فقال : إن من أعظم مناقب عمرو (التي كذب فيها الكاذبون فهو حقيقته) موقفه من التحكيم بين علي ومعاوية لحقن دماء المسلمين ، فقد كان السكذابون أو هموا الناس أن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري

كان أبوه، وأن الفاتح العظيم عمرو بن العاص كان خداعاً ما كراً . وما كان الأشعري أبوه : كان ثقفاً فتيهاً عالماً . وما كان عمرو خداعاً ، بل كان كما قال رسول الله من صالح قريش . وصدق رسول الله فإن اختيار المسلمين هذين الرجلين العظيمين ليكونا حكاماً في دماء المسلمين وفي دولتهم ، كان شهادة لما بأنهما أهل لذلك ، وكأما عند حسن ظن الفريقين . فرأياً حقناً لدماء المسلمين أن يمزلا الرئيسين وأن يختار المسلمين رئيساً لهم من جديد أو لعلهما كانا يريدان لما عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكذلك وافقوا على الله والتاريخ زعم الكفاريين أن عمراً خلع علياً وولى معاوية بل خلعهما معاً كما فعل أبو موسى . وقد عتب معاوية على عمرو وأرسل إليه أبا الأحرار الذكواني يعاتبه وتبادل عمرو ومعاوية الأحاديث في ذلك والواقعة على وجهها السليم رويت عن اثنين من كبار رجال الحديث أحدهما الحافظ الدارقطني والثاني الحافظ أبو عمر خليفة بن خياط البصري أحد أوعية العلم ، ومن الذين روى عنهم البخاري . فالحكمان خلعا الأُمَيين ولم ير ليا غيها ، ولو وليا أحداً لسكان هواهما في ولاه عبد الله بن الخطاب وما يريد الكذابون بعد ذلك فإنما تقربوا به إلى عناصر معلومة ممن يكره أكثر الصحابة ويعمل على تشويه سمعتهم . وقد يكون المخترع الأول لهذه الزيادة من صميم تلك العناصر ومن أهل الغلو فيها . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال في أصحابه : (والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحد منهم ولا نصيفه) والتحقيق في مسألة الحكم قد قام به خير قيام القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه المواعظ من القواصم الجزء الثاني ص ٣٥ . وما بعدها .

وقد روى الترمذي وابن حبان في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً فمن أحبهم أحبهم ومن أبغضهم فببغضيني أبغضهم ومن أذام فقد أذاني ومن أذاني فقد أذى الله فيوشك أن يأخذه . .

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بعد حروب الردة وكان قد رجع إلى سواحل الخليج الفارسي يقول له : إني قد رددتك إلى العمل الذي كان رسول الله قد ولاك وسماء لك فيمنك إلى عمان إنجازاً لمواهب رسول الله فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذي أنف فيه أحب إليك . فقال عمرو بن العاص : أما بعد : فإنني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الراعي بها والجامع لها فانظروا أشدها وأخشاها وأفضلها فإرم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي . .

فولاه قيادة جيش من الجيوش الأربعة وهو الجيش الذي فتح فلسطين وما زال يخرج من جهاد خلافة أبي بكر وصدرأ من خلافة عمر بعده إلى أن أزال ظلم الوثنية والشرك والمبودية والاحتلال عن مصر وأدخلها في أمة محمد .

الفصل التاسع

الحكومة الإسلامية الأولى

هناك دعوى عريضة بوجهها الاستشراق إلى حكومة الصديق أبو بكر ويصفها بالتآمر والانتهاك ويوم أن أبو بكر وعمر وأبو عبيدة أقاموا حكومة ثلاثية حين اجتمعت كلمتهم في أواخر حياة النبي على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته ويتداولوه واحداً بعد واحد ، وإن اثنتين من أزواج النبي مهاجرة بذت أن بكر وحفصة بنت عمر مهدتا السبيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة نجحت إلى حد بعيد ، إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة وفاز أبو بكر بالخلافة وقد عاوناه أصحابه في الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفيء . هذا هو الانتهاك الذي وجهه أشد المستشرقين تمصباً الأب لامنس إلى الحكومة الإسلامية الأولى .

وتجمع المصادر القديمة الموثوق بها على أن شيئاً من ذلك لم يحدث كما يقول عبد الحميد العبادي : فالطبري والبلاذري اللذين استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامنس ، وأن الأحاديث التي استشهد بها الأب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم ، وهذا ينبغي أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح . إن الأب لامنس يهمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي . وقد لحظ الدكتور السهوري في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية . وقد أوردها ابن إسحق عن الزهري وهي من الأهمية بمكان . إذن كيف توفق بين عمر المؤتمر على رأى لامنس وعمر الذاهل لموت الرسول كل هذا الذهول . وبعد فإن القول بانتهاك أبي بكر وعمر قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكائها التاريخي في صدر الإسلام فزعموا أن أبا بكر وعثمان لا أبا عبيدة كما يرى لامنس قد اتهموا ببنى هاشم وغصبوم حقهم في الخلافة ، فالأب لامنس لم يرد على أن أخذ وجهة نظر روافض الشيعة وغلاتهم عن قيامه الخلافة وبنى عليها بنه الخاسر بشكل الحكومة الإسلامية الأولى وهي بعد وجهة نظر ليست لها قيمة على الإطلاق .

والحق إن نظرية الأب لامنس لا تقوم على أساس تاريخي متين :

(أولاً) لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئاً من هذا القبيل . فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامنس .

(ثانياً) أن الأحاديث التي يستشهد بها الأب لامنس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة

وخصاصهم وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح لأن معظمها بلا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية أبان العصر الأموي وصدر العصر العباسي .

(ثالثاً) أن الأب لامس يحمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي . وقد لحظ الدكتور السنهوري في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ولكنه لا يعاق عليها الأهمية التي نعلقها نحن وليبيان هذه الأهمية نثبت نص الرواية كما ساقها ابن إسحق .

قال ابن إسحق : قال الزهري وحديثي سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي . وإن رسول الله ﷺ والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات . والله يرجعون رسول الله كما رجع موسى ، ولية طعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات ، . وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي . أما المودة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لم يصبك بعدها مودة أبداً . قال : ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر . أنصت ، فإني إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، . قال : ثم تلا هذه الآية : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فإن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) .

قال : فواقة لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ . قال : وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم . قال : فقال أبو هريرة : قال عمر : د فواقة ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فمقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملاني رجلاي . وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

وللقارى يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهي تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن وهي من أجل ذلك بعيدة عن أن تكون مختلفة ، والمناسبة التي وردت في صدها لا شك صحيحة إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر على رأى لامس وعمر الداهل لموت الرسول ، كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة . وبعد : فإن القول بانتثار أب بكر وعمر قول قديم غير حديث فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكها التاريخي في صدر الإسلام . فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان (لا أبا عبيدة كما يرى لامس) قد اتهموا بئني هاشم وغصبوا حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا الوهم من شعر السيد الحميري الذي يفرض مدحاً لابن هاشم وذماً للخلفاء الثلاثة الأوائل .

روى صاحب الأغانى (ج ٧ ص ٩) قال : جلس المهدي يوماً يعطى قريضاً صلات لم وهو ول
 صدقياً بنى هاشم ثم بشارت قريش لجاء السيد فرفع إلى الربيع رقعة مكتومة وقال إن فيها نصيحة للأمم
 فأوصلها إليه فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمى محمد لا تعطين بنى هدى بنى درهما
 وأحرم بنى تيم بن مرة لأنهم شر البرية آخرأ ومقصدما
 إن تعطيهم لا يشكروا لك نعمة ويكافؤوك بأن تدم وتشتتم
 منعوا نرات محمد أحمامه وبنيته وابنته عديلة مريضا

قال وهى قصيدة طويلة قال فرمى بها إلى أبي عبيد الله ثم قال أقطع المعطاء فقطعه وانصرف الناس
 ودخل السيد إليه فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ولم نعطيهم شيئاً .
 قال الشهرستانى فى الملل والنحل فى كلامه على المفهية لأحدى فرق غلاة الشيعة : إن زعيمها المفهية
 ابن سعيد العجل كان يزعم أن أول ما خلق الله هو ظل محمد وعلى قبل ظلاله الكلى ، ثم عرض على السموات
 والأرض أن تحملن الأمانة ، وهى أن يمتن على بن أبى طالب من الإمامة فأبى ذلك ، ثم عرضها على
 الناس فأمر عمر بن الخطاب أباً بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن يعينه على الغدر به على شرط
 أن يجعل الخلافة له من بعده إلخ هاشمى ابن حزم ج ٢ ص ١٤ قالاب لانس لم يرد على أن أخذ وجهة
 نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام الخلافة وبني عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى
 وهى بمد وجهة نظر ليس لها قيمة علمية على الإطلاق .

والفصل التاسع

الموالى والعرب

لم تكن قضية الموالى والعرب قضية مثارة إلا فى محاولة المتعرضين من كتاب الغرب والاستشراق
 لتاريخ الإسلام والنظر فيه فى إطار فكرة العنصرية التى هرفت أوروباً فى القرن التاسع عشر بعد أن
 أعلن جوبينو نظريته المعروفة ، وقد جرى تطبيق هذه المحاولة فيما يسمى بالنظرة العنصرية إلى التاريخ
 العربى الإسلامى فأول بعض الباحثين تصوير أحداثه فى صورة نزاع حاد بين العرب الحاكين والشعوب
 المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم فى محاولة لإثارة الصراع بين هذه الأجناس وبعث خيوط يمكن
 أن تقصد النفوس تحت اسم العنصريات أو القوميات الضيقة وكأنها لم تكن العلاقة بهذه هذه الأمم وبين
 العرب إلا تطاحنا على السلطة وصراعاً على السيادة ، وذلك فى محاولة تشويه دور العرب الحضارى .
 وقد ترجم إلى اللغة العربية كتابين يحملان هذه السموم هما :
 (١) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : بقلم فان فلوتهن ترجم عام ١٩٢٤ .

(٢) الدولة العربية وسقوطها : بقلم ولهاوزن ترجم ١٩٥٦ . وقد حاول الكاتبان إظهار تاريخ القرن الأول الهجري وكأنه صراع دموي بين العرب كسادة وحكام وبين أهل البلاد المفتوحة ، وقد تأثر بهذا التفسير كثير من المؤرخين العرب فراحوا يطبقونه على مظاهر كثيرة في التاريخ العربي الإسلامي كما يقول الدكتور فاروق عمر فوزي في مقدمه لما كتب عن الحركة البابكية التي صورها المفرضون في صورة انتفاضة قومية ليرانية حيث قام أصحاب الدراسة بتجريد الحركة من سياقها التاريخي الشامل وحصرها في جانب العنصرية . وقد واجه المؤرخون العرب المعاصرون هذه القضية المثارة فكشفوا وجه الحق فيها على هذا النحو : إن محاولة القول باضطهاد الحكم العربي للدوال واحتوائهم أمر يحتاج إلى تمحيص ونقد وأن مراجعة وقائع التاريخ تثبت العكس ، فإن الإسلام هو الذي دعا إلى التسوية بين العناصر الإسلامية جميعاً ، بل بين البشرية جميعاً . وأن دعوة الإسلام للمساواة بين المسلمين كانت موضع تنفيذ الدول الحاكمة ، وأن هذه الدعوة نفسها هي التي استغلها خصوم الإسلام في محاولة احتواء هذه العناصر ضد الدولة الإسلامية . والمعروف كما يقول الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه (جذور الشعبوية) إن الأمويين استخدموا الموال بكثرة في الدواوين وهي عماد الإدارة المحلية واستخدموهم في الجباية والأمور المالية واسكنهم لم يسلمهم الرقاسة حيث اقتضت الإمارة وقيادة الجيوش على العرب ، ومع ذلك فقد وصل إلى مكان القيادة طارق بن زياد ومقاتل بن حيان للنبطى وبعض الأمراء مثل يزيد بن أبي مسلم أمير أفريقيا . أما في مجال القضاء فقد فتح أمام الموال حتى أن قاضي الكوفة في زمن الحجاج كان سعيد بن جبير وهو مولى . وفي مجال الضرائب المعروفة والموروثة فإن الأمر لم يتجاوز حده . أما العطاء فقد شمل بعض الموال في صدر الإسلام ، وذلك عندما كان عددهم قليلاً وكانت حاجة العرب إليهم في الفتوح كبيرة ، ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة إلى البلاد الجديدة وانتظام الجميع في الجيش لم يدع مجالاً أو ضرورة الدوال ضمن صفوفه فافتقر العطاء على العرب .

وأما مسألة الزواج فقد كانت مسألة العناية بالانساب لا تزال قائمة بين القبائل وواضحة في توزيع البنات وهي قضية لا توجب السخط أو الثورة وقد ولد اثنين من الخلفاء الأمويين أحدهما مروان الثاني من أبناء الأعجميات . يقول الدكتور عبد العزيز الدوري : إن ما يقال عن احتقار العرب للموال أمر فيه نظر ، فالموال لم يكونوا صنفًا واحداً في الأساس ، فهناك أناس من السبي أو من أسرى الحرب الذي استرقوا ثم أعتقوا ، ومؤلا قلة بين الموال وهم عند تحررهم تبقى الفروق قائمة بينهم وبين أسياهم وهم لا يرتقون إلى منزلتهم اجتماعياً ، ولكن جل الموال أناس دخلوا الإسلام ووجدوا أن المجتمع لا يزال يتألف من قبائل وأن دور القبائل كبير في الحياة الاجتماعية إذ لا كيان ولا منزلة اجتماعية خارج نطاقها فانتسب الموال إلى هذه القبائل أفراداً وجماعات ، وهو انساب ينطوي على الحلف يضمن للمولى مكاناً في المخطط الاجتماعي ، فالولاء في هذه الحالة ولا حلف لا ولاء حق ، ومع هذا الحلف يحصلون على الحماية اللازمة كما أنهم بدورهم يعززون مكان أحلافهم أو يساعدونهم مادياً ، وفي هذا الحلف شيء من عدم التكافؤ إلا أنه لا ينطوي على مهانة واحتقار ، ففي أول الأمر وافق اعتزاز القبائل بانسابهم ربط المنزلة الاجتماعية بالنسب ، وهذه وجهة قبلية لا تندمج والروح العربية السخاء التي

تجلى في الإسلام ، ولما تطور المجتمع باستقرار العرب وتعمدهم على الحياة الحضارية ضعفت الأسس القبلية واتجهت الإدارة إلى المركزية وازدادت ساطعتها ولم تبقى ضرورة لهذا الولا . لأن السلطة لم تعد تعتمد على القبائل بل على الخليفة وأمرائه فأخذ هذا الولا يتقلص بوضوح . وحين تنظر إلى فئات الموال نجد كتاب الدواوين والتجار كانوا في مكانة طيبة ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير . ومنهم الفلاحون وأصحاب الحرف وكانوا في منزلة اجتماعية متواضعة . فقد كانت القبائل تنظر إلى الفلاحة والحرف نظرة لا تخلو من استهانة ، وما نقله المستشرقون من إشارات وعبارات التقطوها من هنا وهناك لم تكن في الحقيقة شواهد صحيحة تشير إلى احتقار الموال ، وهذه القصص التي رددوها إنما تسجيل لحالات شاذة وفردية . ولقد كانت الموال منتشرة في عالم الإسلام كله آسيا وأفريقيا وأوربا ولم يكن لها مشكلة أو أزمة ، وأما مواقف الانتفاضة فكانت في منطقة فارس فقد استطاعت الشموية أن تحتوى الموال تحت اسم المساواة والعدالة لجندتهم لمؤامراتها وكان بعض الموال لا زالوا على ديارهم القديمة من الجوسية والمزدكية وإن غطوها بعمار من الإسلام ، ومن ثم استغلت في مخطط المؤامرة الباطنية ووهمت في التعامل السرية دون أن تعرف أبعاد المخطط .

الفصل العاشر

أولا :

الشبهات والزيوف المثارة

إن مراجعة كتابات التاريخ خلال هذه الفترة التي تمثل العصر الإسلامي الأول تكشف عن كثير من الأخطاء والزيوف والشبهات بهدف انتقاص الدور الذي قام به الإسلام أو الغرض من قدر النتائج الخطيرة التي حققها . (أولا) تهويل بعض الكتاب في معارضة قریش الإسلام : متأثرين في ذلك بدعيات طوائف مفرضة ذات نزعات خاصة نحو الصحابة جميعاً . لأن قریشاً والعرب هم الصحابة الذين اعتدوا بالتدريج ، فمنهم السابقون ومنهم اللاحقون وكلا وعد الله الحسنی ، ولا ريب أن صحابة رسول الله كانوا من أكل الأخوان في أفضج شعوب الأرض أحلاماً وأسلبها فطرة وأسرعها إنصافاً وأصدقها في نصرة الحق بعد الاستجابة له ، نصرتهم وحفظ أمانته والنصيحة بكل ما يملكون . (ثانياً) إن ما وقع في عصر الخلفاء الراشدين من تعاون أو سوء فهم قد حققه أعلام السنة وزيفوا ما دس فيه المعتزليون لتقويهم هذا العصر وتسوي سمعة الصحابة والإيهام بأنهم في مستوى أوضع من مستوهم الرفيع الذي رفعهم الله إليه . (ثالثاً) ليس صحيحاً ما نسب في مسألة التحكم إلى أبي موسى من بلاهة أو عمور من خدعة ، وقد كان كلاماً أعل منزلة وأبصر بدينهما من أن يكونا كما صورهما أعداء الصحابة

بأقلام مؤرخين كانوا يلمسون الحق بالباطل بحسب الأهواء . (ثالثاً) تقدير المعجزة الاجتماعية التي تمت في مصر على يد عمرو بن العاص وإخوانه بتحويل هذا الوطن إلى دين الإسلام ودخوله في أسرة العرب و اختياره لسانها وبيانها حتى صارت له الإمامة كما هو في الواقع الآن ، وهو حادث لا تعرف مصر في تاريخها أعظم ولا أعجب منه في ألوف السنين ، وقد عجز الاستعمار الغربي أن يحدده مثل هذه المعجزة في الجزائر أو غيرها . (رابعاً) وجوب المدول عن اعتبار التاريخ الإسلامي تاريخ حروب وفتن وأحداث وأشخاص وأن ينظر إليه على أنه تاريخ الدعوة الإسلامية وكيفية انتشارها وأسباب نجاحها ومن الذي أعان على ذلك وكان له أثر فيه بأخلاقه وتضحيته ، ومن الذي أساء إلى هذه الدعوة وصار في غير طريقها وأفسد على الأمة دينها وديناها ، وكيف طرأ على المجتمع الإسلامي الإنحطاط وظهرت فيه النزعات المذهبية والشعبوية وتطهير تاريخ الإسلام من الدسائس المكذوبة على أصحاب رسول الله اعتماداً على تحقيقات أعلام المسلمين وأئمتهم . ويقوم المنهج على أن تاريخ الإسلام نفسه وتطور العمل بالمبادئ التي جاء بها ، ومن هم الذين نشروا دعوة الإسلام وعرفوا الأمم بها ، ومن الذين تنكروا لها . (خامساً) التنبيه إلى محاولة الصهيونية التي تعمل على إخافة الغرب من قيام الدولة الإسلامية القوية . فهي تحاول أن تثير الهمم القديمة لترسم أمام الغرب صورة غموض صحيحة للعرب والمسلمين ، هذه الحملة بدأت بالإسرائيليات التي رسمها خصوم الإسلام في روايات الأحاديث النبوية الشريفة (وصناعة اليهود المفضلة هي تحريف الكلم عن مواضعه) وهم يحرون منذ وقت طويل على تزيف تاريخ العالم وطمس ذاكرته وقد عمدت الصهيونية إلى مضاعفة عمليات تزيف العرب والإسلام ، وقد استطاعت أن تسيطر على بعض كراسي دراسة التاريخ في الجامعات الأوروبية والأمريكية .

والهدف هو دعم النشاط السياسي ضد العرب في العالم والتوصل إلى خلق ثقافة محرمة تساعد على قنيت العرب وهزيمتهم أمام العالم . ومن أمثال ذلك دعوتهم إلى تعبئة الرأي العام الأوروبي ضد العرب بإثارة شبهات قديمة مائت وانطوت تشبه انتشار الإسلام بالسيف والقول بأن أوربا ترجع بكل مقومات حضارتها إلى جذور يونانية ورومانية وحجب الأثر العربي الإسلامي ، بالرغم مما شهد به روجر بيكون وفرانسيس بيكون ، كذلك بإعادة بحث أحاديث الحركات الباطنية مثل الاسماهيلية والقرامطة والحلاج والادعاء بأنها نماذج للديمقراطية والاشتراكية في الإسلام . (سادساً) ليس الإسلام تاريخ حروب وليس تاريخ مناورات سياسية ، وليست حروب الإسلام بمعنى الغلب ولكنها تصدر عن مفهوم الجهاد في سبيل الله وغايته السامية هي فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وإزاحة الذين يحولون دون انطلاقها لقد اندفع المسلمون لتحرير هذه الشعوب من أغلال الكسروية والفرعونية والقيصرية فزال هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده ، وهلك فرعون فلا فرعون بعده ، وتدفق السيل لأحد عشر سنة للهجرة النبوية (٦٢٤) في مروج الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس ودروع مصر والمغرب الأقصى وأودية هملابا . (سابعاً) أكاذيب المستشرقين تتمثل في سوء الفهم أو سوء القصد ، فهم يدرسون الإسلام وفي عقولهم فكرة مسبقة وفي نفوسهم إحساس بالتمصّب والحقد لذلك الدين الذي افتنح عليهم أوربا وصمد فيها خمائة عام ، فهم قد افتحموا بلادهم حاملين لواء التجارة

والتبشير والاستعمار لمحاربه وصده والحيلولة دون امتداده مرة أخرى ، وصدق الأمير شكيب أرسلان في تصوير عمل المستشرقين : هؤلاء المستشرقون إذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة نادرة في زاوية كتاب يكاد يكون محرقة أسقطوا عليها تهاافت الذباب على الحلوى وجعلوها معياراً أو مقياساً ، لا بل صهروها محكاً يمرضون عليها سائر الحوادث ويففلون ويتخافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة . (تماماً) امتد الأثر التغريبي والاستشراقي إلى مجال اليونسكو في كتاب تاريخ البشرية الذي صدر عنه مجافياً للحقائق التاريخية عن الإسلام ، ففي القسم الثاني من المجلد الثالث من كتاب تاريخ البشرية حاولت اليونسكو إذاعة الشبهات والأكاذيب الآتية : (أولاً) إن الإسلام احتفظ في ركن الكعبة بالوثن المهم لأهل مكة وهو الحجر الأسود . (ثانياً) إن الإسلام كان توفيقاً من نظريات مسيحية ويهودية ووثنية . (ثالثاً) إن القرآن مؤلف تأليفاً بشرياً وأنه ذو مراتب مختلفة في نسقه وفي طريقة تبيره . ولا ريب أن هذه الشبهات الكاذبة ليست إلا ما رده الاستشراق اليهودي والاستشراق الغربي في تلك المحاولة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام التي تقوم بها التغريب والاستشراق والاستعمار والصهيوية .

يقول الدكتور إبراهيم العدوي : إن منهج الغرب في كتابة التاريخ والذي سار في البداية على آثار مهردوت وديودور وخاصة بالنسبة لإخبار الشعوب الأخرى يعتمد على الأساطير وخدمة الملوك والقواد والسكان وأفراد الطبقات المسيطرة والقوى الاقتصادية الفعالة إلى اليوم وبالنسبة لتاريخ العرب الإسلامي وبخاصة بعد الحروب الصليبية ونشوء مدرسة الاستشراق بأهداف استعمارية وتغفلت النفوذ اليهودي الصهيوني في كل فروع الفكر والثقافة في أوروبا فقد برزت فيه النزعة إلى اقتصاص الشوارد الصغيرة المثيرة وتكبيرها مع ثبوت كذبها بالاستحالة أو ضعف الرواية ، وذلك لتكون أساساً للنظر وترويج بعض النظريات الهدامة عن العرب والمسلمين والإسلام بما يكون تأثيره فعالاً بصفة عامة في إضعاف إمكانية أي بحث عربي على أساس العقيدة . ومهما يكون مقوله مخزياً عندما ينتهي الأمر مواجهة جادة وحاشدة لعدو شرس مثل إسرائيل بما يشبه من تحالف الاستعمار مع الصهيونية . ومن أمثال هذه شبهة قيام الإسلام بالسيف ، وما يلقبه التعليم الاستعماري لطلاب المغرب من أن خروجه من الأندلس بعد قرون زاهرة هي حركة طرد للمستعمرين العرب وما بدأ يشيع في هباب العرب من شبهات مثارة عن عروبة فلسطين من حكمة ما قرأوا في الكتب العربية وسمعوا ورأوا من الأفلام الاستعمارية عن أرض المعاد وعن ملك سليمان من التهاويل .

ولقد كان تاريخ الإسلام هو تاريخ الشعب والناس والجاهل وتاريخ المؤمنين من ولاية وقضاة وفقهاء وعلماء ونحاه وشعراء وأدباء وأن الخطط الإسلامية كانت حافلة بالإخبار ناهضة بالحياة ، وذلك قبل قرون طويلة من محاولة أميل لدوفيج أن يجعل من البحار والأنهار أبطالا للتاريخ كذلك حرص مصادر التاريخ الإسلامي على ربط المؤمنين باستمرار بالجهاد الدفاع عن الدولة والشرطة والحضارة . وكشف الدكتور العدوي عن أن الهدف من كتابة التاريخ الاستعماري هو تفتيش أجيالنا على مفاهيم تاريخية خاطئة يصعب اقتلاعها ، وتقوم الصهيونية في بناء امبراطوريتها الوهمية على أساس أن معركتها

مع العرب تاريخية ، أى أنها تقوم خلالها بتزييف التاريخ العربى لصالحها ، ولذلك فإن جزءاً أساسياً من جهادنا هو اعتبارنا للمركة معه تاريخية لأن هذه للصفة الأساسية لهذا الصراع الضارى تقتضى المبادرة بتصحيح التكوين التاريخى لجهادنا وشبابنا على أساس عقائدى (تاسماً) يعجب المستشرقون ببنى أمية لأن أحدهم أباسقيان كان هو الرسول ويتحمل ذلك فيما كتبه هفرى لامنس عن معاوية ويؤيد وعبد الملك وبقية بنى أمية ويقف آخرون من الدولة الأموية موقفاً معارضاً فيصرون الدولة الأموية بأنها تعصب المفهوم الجماهيلية فى الاستعلاء بالانصر ويصرون الدولة العباسية بأنها فارسية خرجت من يد العرب . وهم لا يتحدثون عن القادة المصلحون الذين وطدوا الدول بل يتحدثون عن المتآمرين والمعارضين ويسهبون فى تفصيل حركات القرد والمعارضة ويتحدثون عن الرشيد على أنه صاحب متاع وترف ويفسدون سيرته لأنه قضى على البرامكة الذين كانوا يمدون الدولة للخروج من الإسلام ، وحين يتحدثون عن المعتصم يتحدثون عن الأتراك وينقلون ما كتبه الجاحظ عن فضاهم ويضربون العناصر ببعضها ، ضرب العرب بالترك ، وضرب العرب بالفرس ، وما كان تاريخ الإسلام قبل الإستشراق يفصل بين العرب أو الترك أو الفرس بل كان يرام أمة واحدة ، وهم يدعون أن القرامطة طلاب عدل وإصلاح وبأخذون من النصوص ما يوافق هواهم ، ففتنة الواجى فى جنوب العراق يروونها برواية النويرى لأنها توافق هواهم .

أما الحديث عن القرامطة فهوونه برواية الطبرى وبأتون بخطاب أحمد القرطلى إلى الخليفة المقتدر وهو خطاب يصورهم فى صورة طلاب عدل وإصلاح ويتلذذ أحدهم بإيراد فقرة المصمودى تصف سرقة القرامطة للسجرات السوداء ويطلقون الاهتمام والتوسع بالدول المنشقة عن الدولة العباسية (الصفارين والساكنين والطاهرين والبويهيين) ويطلقون الوقوف عندهم لأنهم يرونهم دولا فارسية ، ويبدون إعجاباً زائداً بالفاطميين لأن مذهبهم لم يلق قبولا عند جماعة المسلمين . ويشككون فيما كان فى عهد الرسول ﷺ وما كان من بعده فيتحدثون عن أن هناك فارقاً بين النى والغنيمة بين عصر النبى وما بعد ذلك وهم يسمون بلاد المغرب ببلاد البربر ، وهى محاولة لاتقاصهم ، بينما كانت عبارة (بربر) فى أساسها ذات معنى مختلف عما يستعمله المستشرقون .

وفى تاريخ المغرب يفضلون فى الحديث بين البربر والعرب ، وفى تاريخ المغرب يفضلون بين العرب والفرس حتى يقول تومبى إن هناك بعد الإسلام مجتمع فارس ومجتمع عربى ، وهم يسمون دعوة التوحيد التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب باسم (الوهابية) حتى يصوروها أمام الناس على أنها فرقة خارجة على الإسلام ، ويتحدثون طويلاً عن المترجمين وترجمة الفلسفة ويتركزون على مدرسة حران ويحققون طويلاً عند ما كتبه المصمودى عن المعتزلة دون غيره . ويبررون وجوه العنف الصليبي فى اعتداد عجيب وينقلون عبارة وليم العسوى التى تقول إن الصليبيين عندما دخلوا بيت المقدس قتلوا من أهله ألفاً وأن خيولهم كانت تخوض فى الدماء حتى صدورهما ، كذلك صوروا العلاقة بين العرب والموالى على أنها خلاف وصراع ومؤامرة .

(عاشراً) حاول كثير من المستشرقين نسبة نكبة البرامكة إلى زواج جعفر البرمكي بالعباسة أخت الرشيد بادعاء أن الرشيد قد عقد لها الزواج دون الخلوة فنجأوا أمره واتخذوا من هذه القصة طريقاً إلى تمليل موقف حاسم هو تصفية الرشيد للبرامكة وتدمير وجودهم السياسي والاجتماعي في الدولة العباسية . وقد أنكر ابن خلدون هذا الرأي وبين فسادة فقال: إنما نكب البرامكة لما كان من استبعادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واجتازوها لمن سواهم .

وقد أشار المؤرخون إلى مؤامرة البرامكة التي كانوا يدبرونها لإخراج الملك من العرب والمسلمين وقد صرح بالتهمة ابن الأثير والمسمودي والطبري وابن بدرون والاريل . وقد وصفوا البرامكة بالوئدة بمعنى إخماد الكفر أو المخالفة لما أمرت به الشريعة الإسلامية وذهب قوم إلى أنهم كانوا يضمرون الجوسية .

ثانياً : كتابات المستشرقين ودعاة التغريب

عن تاريخ الاسلام

إن كتابات المستشرقين عن تاريخ الإسلام قد ثبت اضطراب كثير منها وفساده ، وأحصيت أخطاء كثيرة لأعمال الاستشراق في مجال التاريخ :

- (١) أخطاء : دائرة المعارف الإسلامية . (٢) أخطاء : المنجد .
 - (٣) أخطاء : تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكهان . (٤) أخطاء : كتاب تاريخ العرب لفيليب حتي .
 - (٥) أخطاء كتابات جولدهسيير ولامنس ومنتجمري وات . وعقدت موسوعة تاريخ الجنس البشري التي تصدرها مؤسسة اليونسكو فصلاً عن العرب والمسلمين مليء بالشبهات والسوم والتشويهاً . وعن هذه المصادر أخذ كثير من كتاب العرب :
 - (١) جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الإسلامي . (٢) طه حسين في كتابه القضية الكبرى .
 - (٣) زكي مبارك في كتابه الفن . (٤) أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام .
 - (٥) الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد . (٦) عباس محمود العقاد في كتب العبقريات .
 - (٧) إسماعيل آدم أحمد في كتابه عن مصادر التاريخ الإسلامي .
 - (٨) عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه رسول الحرية .
- أخذ طه حسين مفاهيم الاستشراق اليهودي في إنكار عبادة الله بن سبأ وتبني شبهات مرجليوت وجولدهسيير في القرآن المدني والقرآن المدني . وإنكار إبراهيم وإسماعيل ، وأخذ هيكل شبهات وإيم مدير واعتمد جرجي زيدان في كتابه التمدن الإسلامي على مصنفات سيبيو وكريمر وجولدهسيير . ونقل نقلاً من دائرة المعارف الإسلامية . وقد استهدفت هذه المحاولة التي بدأها الاستشراق وأتمها التغريب :

(أولاً) تصوير التاريخ الإسلامى وكأنه مليء بالمسائس والمآثرات محشواً بالدعارة والترف مقعماً بالإشفاق والتمزق كما يصور الخلفاء بصورة المتنازعين على السلطة والخلافة . والوجهة في كتابات هؤلاء جميعاً تحمل طابع الإتهام ولا تقرر مرحلة من المراحل أو موقفاً من المواقف ، فالعباسيون غارقون في الترف والأمويون متسلطون على الرقاب، وحينما تصور كل مرحلة التاريخ الإسلامى بالضعف والقرق تصف حركات القرامطة والرنج بأنها حركات تقدمية ، ودعاة عدل ، وأن هؤلاء المتآمرون على الإسلام هم حركات من صميم الإسلام .

(ثانياً) فرض التقسيم الغربى لمصور التاريخ الأوروبى على تاريخ العالم كله وتصور أن العصور الوسطى التى كانت عصور الظلام في أوربا على أنها عصور ظلام في العالم كله مع أن هذه المرحلة كانت عصر نور في مختلف أجزاء آسيا وأفريقيا بفضل الإسلام . كذلك فرض المفاهيم المنصرية على الأجناس والأمم ووصف الغربيين وحدهم بأنه الجنس الأبيض صانع الحضارة ، وأن مختلف الأجناس شعوب متأخرة وهذه نظرية ثبت بطلانها .

وهكذا فرض الاستفراق والتفريب مقاييس التاريخ الأوروبى على تاريخنا ، وساكوا تاريخنا الإسلامى أساس القيم المسيحية الغربية ، كما أقحموا نظريات غريبة كانت وليدة ظروف وتواريخ شعوب أخرى وتمنحنت عنها أحوال وظروف مقابلة ، فهى لا يمكن اعتمادها أساساً لتفسير تاريخ الإسلام ؛ كذلك عمدوا إلى تجاهل الإسلام كمنخرج حقيقى لهذا التاريخ وصوروه تصويراً مجرداً من هذه القيم ومن تأثيراتها وروحها . وهذا هو تصور فيليب حتى .

(ثالثاً) يعتمد الاستفراق والتفريب إلى محاولة تصوير التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ العرب فيضع فيليب حتى تاريخ الإسلام كله تحت اسم تاريخ العرب ، ويصور بـوسقاف لوبون حضارة الإسلام تحت اسم حضارة العرب . والواقع أن هذا التاريخ ليس تاريخ العرب وحدهم وأن هذه الحضارة ليست حضارة العرب وحدهم . ولكنه تاريخ الفرس والسلاجقة والمماليك والأتراك والمغول والبربر ، وأنه صنع في إطار الإسلام وأن الحضارة قامت على مفهوم الإسلام .

(رابعاً) التوسع في مسألة الفتوحات العربية والحروب بقصد تصوير الإسلام بأنه دين سيف بينما لا تمثل الفتوحات والحروب في تاريخ الإسلام إلا مرحلة صغيرة إذا قيست بالنسبة لفتوحات وحروب الأمم والدول الأخرى .

(خامساً) يتابع فيليب حتى وغيره التفسير المادى للتاريخ فيرى ويرون أن الخفاف والفقير والغنيمة هى دوافع الفتوح والهجرة .

(سادساً) ردد مع الغربيين أن العرب الفاتحين لم تكن لهم أى ثقافة أو تراث فسكرى وأنهم تعلموا بحضارة الأمم التى غلبوها فنقلوا منها وكانوا مهرة في النقل .

(سابعاً) يذهب فيليب حتى إلى أن لكتابة التاريخ عند العرب أصول شيدت على أساس الطريقة الفارسية . وقد تبين للباحثين المنصفين كذب هذا الادعاء وأن دراسة نشأة علم التاريخ عند العرب تؤكد أن هذا العلم عربي النشأة ، وأن أصوله الأساسية قد تمت قبل الترجمة عن الفارسية ، وأن علم التاريخ عند العرب بدأ من أصول تنصل بدراسة الحديث والمغازي من جهة وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهلية بالإيام كما ظهر لدى الأخباريين (عبد العزيز الدوري) .

(ثامناً) تفسره الشعوبية بعيد كل البعد عن تحليل دوافعها واتجاهاتها فهو يراها مجرد دعوة للفسوية بين المسلمين في حين أن الحركة لها جذور عميقة في الوعي القومي والديني للشعوب الأخرى وخاصة الإيرانيين وأنها وإن بدأت بنبرة التسوية في العصر الأموي فلإنها سرعان ما انتقلت إلى تفضيل العجم على العرب وإلى مهاجمة التراث والسكبان العربي الإسلامي وكانت وثيقة الصلة بالوندقة وإن كانت قد برزت في صورة أدبية فخرية . كما أنه ردد كثيراً من الشبهات كأسطورة النباسة في تفسيره لكتابة البرامكة عن تصور (بروكلان) .

(تاسعاً) فساد مفهوم بروكلان للنبوة والقرآن فيدعى أن النبي اعترف في السنوات الأولى بالآلهة الكعبة ويردد قصة الغرائق ويدعى أنه ~~كان~~ كان يعرف مادة الكتاب المقدس والأساطير اليهودية ، وأن القرآن من تأليفه .

(عاشرأ) حاول الاستشراق تشويه موقف الإسلام من أهل الذمة ، ونجد هذا واضحاً في كتابات كثير من المستشرقين ومنهم الدكتور ا . س . ترون في كتابه أهل الذمة في الإسلام الذي يحاول الادعاء باضطهاد المسلمين لأهل الذمة اضطهاداً ذاتياً قائماً على مجرد التعصب الديني . ويدعى (ترون) أن هذا الاضطهاد بدأ من عهد عمر بن الخطاب وحاول أن يقول أن العهد المنسوب إلى عمر ليس موثقاً تاريخياً وأنه منحول وأنه منسوب إلى عمر افتراء وأن عمر استعمل النصارى في الدواوين مضطراً . ويحاول المستشرق النقاط أحداث جزئية ليفني بها هيكل تاريخياً يوحى بأن أهل الذمة في الإسلام عوملوا بتعصب ديني . والواقع أن أهل الذمة بشهادة الغربيين أنفسهم قد عوملوا أشرف معاملة وأكرمها في اليهود الإسلامية المختلفة .

(حادي عشر) حاول (ستانلي لين بول) أن يصور حركة الدفاع التي قامت بها أساطيل أسبانيا والبرتغال على أنها قرصنة . وألف كتاب سماه قرصان البربر ، صور فيه الغارات البحرية التي كان يقوم بها عرب شمال أفريقيا دفاها عن أنفسهم ورداً على غزوات الغرب المسيحي بأنها قرصنة بربرية ، والمعروف أن معظم قادة هذه الحملات هم من المسلمين الأندلسيين الذين نفوا من وطنهم في الأندلس .

(ثاني عشر) حاول مونتيجرى وات في كتابه عن تاريخ أسبانيا الإسلامية إفارة عدد من الشبهات في مقدمتها الجهاد وموضوع الأقليات غير الإسلامية .

(ثالث عشر) حاول د لامنس ، تصوير سوريا بأنها بلاد لم تكن عربية قبل الإسلام وأنها

كانت رومانية وأنت العرب تسلطوا عليها للخلاص من الحرب والفقر وأن أهل سوريا كانوا رعايا الامبراطورية الشرقية وأنهم كانوا يعتبرون بيوتايين لا عرباً . كما حاول توينبى أن يصور الحضارة الإسلامية ثمرة العصر السرياني . وتجاهل لامنس وتوينبى أن مناطق الشام كلها كانت قد غمرتها منذ ألوف السنين هجرات متعددة وضخمة من عرب الجزيرة العربية الذين أحاموا بها وعربوا هذه المناطق وخاصة الجزيرة وبين النهرين ومناطق الشام وقسم بين الفرات ووادى النيل والأردن . وأن هذه المناطق في مفهوم الجغرافيا القديم هي امتداد لجزيرة العرب وهي تمتد حتى جبال طوروس .

(رابع عشر) من أخطاء مونجمرى وات قوله عن تمتد الرسول في غار حراء بأن أغنياء مكة كانوا يتخلصون من حرامهم بالذهاب إلى الطائف ، أما محمد فإنه كان يذهب إلى غار حراء ليصطاف فيه هارباً من حر مكة وهذا إرأى ليس له رد إلا السخرية بفهم وات الأمور .

(٢) (الرد على مونجمرى وات في كتابة تاريخ أسبانيا الإسلامية) :

يقول دكتور عبد الرحمن على الحجى : كانت دمشق تزاد كلما تقدمت في قراءة كتاب تاريخ أسبانيا الإسلامية ، تزاد غرابة لشدة بعده عن الحقيقة الأمر الذي لا يظهر في عمومه أنه ناتج عن الجهل بل عن التجاهل والتعصب القديم مع تحاشي وصف الاستاذ وات بالغباء . وفي الكتاب أمور غريبة وشططاً كبيراً عن الحقائق ، وتفسيرات الأحداث لا تحمل طابعاً علمياً ، واصطفاً الأدلة التي ينبغي بها تأييد التعريفات فهو يتحدث عن (الجهاد) وله في الجهاد رأى غريب ، وإنه يكاد ياتي الهك على نوايا الخلفاء والقادة في التاريخ الإسلامي فقرأه يهمل أموراً تاريخية يلزم ذكرها في أى حديث عن التاريخ الاندلسي لأنها قد تقف ضده بينما يفصل في موضوعات جزئية أو قضايا جانبية لأنها تؤيد رأيه الذي ليس فيه إنصاف .

وهو حين يتحدث عن الأقليات غير الإسلامية في الاندلس يكاد يهمل الحديث عن النسيج الرائع الذي تمتعت به هذه الأقليات ولكنه يفصل في الحديث عن انتشار الإسلام مؤكداً خلال ذلك دوافع المسلمين التي يقر أنها ليست دوافع عقائدية ولا تبتغى إدلاء كلمة الله وانغراية هذا الأمر تعود بالقارىء إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وأنه كان بالسيف وبدوافع غير دينية تماماً .

وهو يعتبر أن دافع ذلك هو الرغبة في الحرب وإن لبست ثوب الدين فهي أحياناً لا تختلف عن دوافعها في الجاهلية وغطه للحقائق بإهماله لذكرها أو تشويهها ظاهر في هذا الكتاب .

ويُدافع (واحد) عن إحدى الفكرتين القديمتين اللتين تبناها عدد من المستشرقين وما زالتا تترددان من قبل الإيمعات في بلادنا ، ألا وهي أن الإسلام قام والبشر تحت تأثير العوامل الاقتصادية وليست الفتوحات الإسلامية إلا مدفوعة ولو في حدود هذه العوامل .

وهنا يرد سؤاله : هل للعامل الاقتصادي أى مكان أو تأثير أو اعتبار في ظهور الإسلام في مكة

على يد رسول الله، وهل كان هذا العامل هو الدافع لانتشاره في الجزيرة وخارجها . وهل هذا العامل هو الذي دفع المسلمين إلى أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم .

إن القول بأن ظهور الإسلام وانتشاره كان بسبب وبدافع العامل الاقتصادي يهدف إلى قطع صلة الإنسان بالصحاء ويلقى وحى الانبياء ، كما نشر الفكرة الأخرى : ففكرة انتشار الإسلام بالسيف إلى أنه ليس في الإسلام من المثل والذريعات ما يجذب الناس ، ولم يكن انتشاره قائماً على الاختبار ، بل كان للقوة والقهر إلى تغيير اقتصادى أثر مشارك ، فأدى إلى مجيء الإسلام وإلى حدوث الانقلاب الإسلامى الذى يعتبر أكبر تغيير وأعظم انتقال تقدمى شهده تاريخ الإنسان قاطبة . وهل اندفاع هؤلاء الحفنة من العرب من الأماصير يبشرون بالإسلام جاهلين جهادهم لإحلاء كلمة الله فى الأرض وتحميم الطواغيت كل الطواغيت هدفاً ترخص فى سبيله النفوس ، اندفعوا بتأثير عوامل اقتصادية . إن العقيدة الإسلامية لم تكن الحدث الذى عهد وسائل الإنتاج والمنافع الاقتصادية ، بل وصاحبها حسب مفاعيلها كما تكون خادمة للحياة الإسلامية ، متمشية ضمن منهاجها دائرة فى فلكها . والإسلام نظامه الاقتصادى للاستقلال ، بل إنه فى سبيل الأهداف الإسلامية تنازلت تلك الجماعات التى حملت الإسلام إلى العالم عن كافة منافعها الاقتصادية وكل الدوافع المادية وضحت بجميع إمكاناتها المالية .

الباب الثالث

التاريخ : وطني وقومي وإسلامي جامع

- (أولاً) روافد التاريخ الإسلامي .
(ثانياً) التاريخ وطني وقومي وإسلامي .
(ثالثاً) العروبة والإسلام .
(رابعاً) مصر للعربية الإسلامية .

الفصل الأول

روافد التاريخ الإسلامي

من أخطر المحاولات التي جرت في العصر الحديث وفي ظل المنهج الوافدة في كتابة التاريخ الانعطافية التي أُنشأت ثلاث روافد في الحقيقة تابعة من المجرى الأكبر ولكن الاستشراق والتغريب كان حريصاً على أن تستقل هذه الروافد وتنفصل عن المجرى الأصلي وأن يقوم لها وجود خاص : تلك هي الدعوة إلى كتابة التاريخ القومي وإلى كتابة التاريخ الإسلامي . ومن ثم نشأت دراسات تاريخية قائمة على الوطن والأرض وظهر ما يسمى تاريخ مصر ، تاريخ مصر ، تاريخ سوريا ، تاريخ العراق ، وتاريخ لبنان ... إلخ . وقد ظهرت هذه الدراسات في إبان سيطرة النفوذ الأجنبي وسطوة الاحتلال البريطاني والفرنسي ، وكان الاستعمار حريصاً على أن تقوم هذه الإقليميات في كل مجال : في مجال اللغة والتاريخ حتى تنفصل الأقطار وتنشأ أجيالها لا تعرف إلا تاريخاً محدوداً هو تاريخ قطعة الأرض التي يعيشون عليها وكأنها قد انفصلت عما يحاورها واستقلت منذ فجر التاريخ إلى الآن ، ولذلك فإن التاريخ الوطني كان في منطلقه ذاتياً في غايته فأخيراً وكانت المحاولة مضللة ، فإن هذه التقسيمات التي سميت أقطاراً إنما جاءت بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن انفصلت عن دولة الخلافة الإسلامية التي كانت تجمع أغلب البلاد العربية تحت لوائها . والتي كان تاريخها كله متصلاً منذ ظهور الإسلام .

ولقد اهتم التاريخ الوطني بدراسة الآثار القديمة حيث انبعثت الحفريات ما سمي بالفرعونية في مصر بالأسطورة في العراق وبالفينيقية في لبنان ، وقد استهدفت كتابات التاريخ الوطني رد العرب والمسلمين إلى تاريخ سابق لتاريخ الإسلام من ناحية وإعلاء هذه العناصر التي لم تكن في حقيقتها إلا موجات انطلقت من الجزيرة العربية والتي تجمع بينها وحدة الأصل .

كذلك حاول الاستعمار السيطرة على هذا التاريخ الوطني وقد أطلق عليه التاريخ القومي على أساس أن المصريين قوم والسوريين قوم والعراقيين قوم وهو إطلاق زائف .

وقد فرض الاستعمار في دراسة تاريخ هذه الأوطان على أنها بلاد لم تتحرر طوال تاريخها وذلك تبريراً لوجودها تحت الاحتلال الغرب ، وبالنسبة لمصر فقد كانت دراسات التاريخ إبان الاحتلال تعلم القصاب أن هناك تاريخ يوناني وفارسي وعربي وبريطاني ، وفي المغرب كانوا يعلمون أن تاريخ المغرب هو تاريخ روماني خلال ألف سنة ، فلما بدأت هذه الأقطار تدخل مرحلة الاستقلال وكان النفوذ الأجنبي لا يزال قائماً فإن هذه الأقطار ربطت نفسها بالتاريخ القديم السابق للإسلام في محاولة للاستعلاء بالفرعونية في مصر وبالأشورية في العراق وبالفينيقية في لبنان .

وفي سوريا عندما دخلت مرحلة الاستقلال كانت الدعوة إلى العودة إلى العروبة القديمة الجاهلية ، وقد أعلی شأن هذه العروبة القديمة حتى صورت بأنها عقيدة ، وجرت محاولات كثيرة لإعلائها ونسبت إليها بطولات وحضارات وذلك حتى تصبح منافسة لعصر الإسلام ، بل لقد حاولت أن تنسب كل أمجاد الإسلام وحضارته إلى هذه المرحلة الجاهلية ، وهذا ما أخذت به بعض الدعوات السياسية ، وينقسم التاريخ الحديث اليوم إلى تاريخ وطني وإلى تاريخ قومي ، فالتاريخ الوطني يتصل بالأرض ، والتاريخ القومي يرتبط بالجنس العربي وكلاهما جزء من التاريخ الإسلامي العام الذي تضم الحلقات الثلاث ولا يعتبر واحد منهما تاريخاً مستقلاً بذاته . ولا ريب أن المحاولات كلها كانت تستهدف قطع تاريخ الأقطار العربية عن أصولها الإسلامية وخلق مقدمات زائفة لوضعها القائم ، ولكن كيف يمكن فصل تاريخ مائة عام من حياة أمة عن تاريخها خلال أربعة عشر قرناً وكيف يمكن نقلها عن امتدادها القومي إلى الوطن العربي ثم إلى الوطن الإسلامي الكبير والحق أن محاولات كتابة التاريخ على أنه (تاريخ وطني أو تاريخ قومي) ما تزال قائمة في كثير من الأقطار وإن تحررت من التبعية الاستعمارية فإنها لم تتمكن حتى الآن من التماس الأصالة في إعادة التاريخ الوطني أو التاريخ القومي إلى مكانهما الصحيح باعتبارهما رافدين من روافد المجرى الأكبر الذي هو تاريخ الإسلام الذي يربط هذه الأقطار من ناحيتين : من ناحية البدء ومن ناحية المراحل ، من ناحية الامتداد التاريخي وناحية الامتداد الجغرافي . ومن حق الأصالة الإسلامية علينا أن نفهم وضع تاريخ الأقطار والأوطان العربية الإسلامية من التاريخ الإسلامي العام فنعرف أن التاريخ المصري أو التاريخ السوري أو التاريخ العراقي أو التاريخ المغربي ليس إلا حلقة من حلقات التاريخ الإسلامي ترتبط به ولا تنفك عنه ، ولا سبيل إلى انفصال الوطن عن الأمة ولا انفصال الأمة عن وحدة الفكر الجامعة التي شكل بها الإسلام هذه الأمة الجامعة عرباً وفرنساً وتركاً وغيرها من عناصر . الحق أنه لا سبيل إلى انفصال الحلقات الثلاث سواء في مجال التاريخ أو الفكر أو الأدب ، كذلك فليس ذلك الماضي منذ ظهور الإسلام إلى الآن مما يمكن أن يوصف بأنه منقطع أو أنه ميت بأي حال من الأحوال بل إنه ما زال يحيا في الحاضر ويمتد فيه . وعلينا أن ننقيظ إلى هذا التحدي الخطير الذي يحاول الاستشراق والتعريف تحقيقه هو قطع العصر الحديث عن الحلقات المتتابعة من رسالة الإسلام وتاريخه واللغة العربية والأدب العربي ، فتلك محاولة متصلة في كل هذه المجالات وهي مضادة للفطرة والعلم والطبيعة الأشياء . وإن يستطيع أي قطر من هذه الأقطار أن يهش في تلك الحدود الجغرافية التي تحددها أرضه أو في الحدود التاريخية التي يحددها تاريخه الإقليمي ،

فإن المنطقة كلها منذ جاء الإسلام فقد ارتبطت ارتباطاً فكرياً وتاريخياً وجغرافياً لا فواصل له من ناحية إمتداد المعصومين ولا في الإمتداد الأرضي فإن هذا العالم الذي شكله القرآن إطار (لا إله إلا الله) قد ترابط بالعميقة والفكر والثقافة والمفاهيم والقيم ، ولذلك فإن كل محاولة لردة إلى حدود ما فاصلا بين العرب والفرس والهنود والترك هي محاولة باطلة . فليس الوطن إلا بمثابة حلقة صغيرة داخل دائرة أكبر هي دائرة العروبة ، ثم إن العروبة نفسها ليست إلا حلقة في دائرة الأمم التي جعلها الإسلام على فكر موحد وعلى عقيدة واحدة ، فهي متلاقية جميعاً بفكر صراع ولا انفصال على غير النحو الذي تعرفه أوروبا والذي حاول دعاة الإقليمية الضيقة نقله إلى أفق الإسلام .

ونحن نرى أن الإمتداد التاريخي هو في حد ذاته ليس امتداداً يقوم على العنصر ولكنه يقوم على الفكر منذ رسالة الخيفية الإبراهيمية التي شكلت أهل التوحيد والتي واجهت كثيراً من التحديتات التي حاولت أن تخرجها عن جوهر الإخاء الإنساني إلى العنصرية التي فرضتها بعض تفسيرات اليهودية وغيره حتى جاء الإسلام ليربط نفسه من جديد بالخيفية الإبراهيمية ليقم هذا المفهوم الجامع المتكامل .

(٢) إن النفوذ الغربي ممثلاً في التغريب والاستشراق يعرف مدى خطر دراسة التاريخ في بناء الأمم وخاصة إذا كان للأمم تاريخاً قوياً مليئاً بماخر البطولات والمواقف الحاسمة على مقاومة الغاصب من ناحية ، ورحمة وسماحة وإخاء على النحو الذي تحفل به فصول تاريخ الإسلام ، ولذلك فقد كان (الاستعمار والصهيونية والمباركية) في جماعها كنفوذ يحاول التأثير على الوجود الإسلامي أن يعمل على تشويه هذا التاريخ في وقائعه ، وأن يعمل على تمزيقه تحت دعوات قومية التاريخ وطلمية التاريخ وكلا الدعوتين تعملان على مقاومة وحدة التاريخ الإسلامي الذي تعتبر التاريخ الحديث الآن في البلاد العربية وفي مختلف أجزاء الوطن الإسلامي جزءاً منه لا ينفصل ، سواء من ناحية الفعل أو رد الفعل ، فإن ما يمر به التاريخ الإسلامي الآن في العالم الإسلامي ليس إلا ثمرة المرحلة السابقة له وإن تاريخ أي وطن عربي أو إسلامي لا يمكن أن يدرس أو يفهم إلا في هذا الإطار الجامع ، بل إن ظاهرة الاستعمار الغربي نفسه لا يمكن أن يدرس في الأقطار التي احتلها النفوذ الأجنبي منفصلة عن تاريخ الإسلام نفسه منذ فجره وفي خلال مراحل التوالي . كذلك فإن ظاهرة الغزوة الصهيونية لا يمكن أن تدرس منفصلة عن أبعادها التاريخية والجغرافية في العالم الإسلامي .

وكذلك لم يكن في الإمكان دراسة الحروب الصليبية وغيرها من المواقف الحاسمة في تاريخ الإسلام منفصلة عن التاريخ الإسلامي العام . بل إن التاريخ الوطني لأي قطر من هذه الأقطار لا يفهم ولا تفسر أحداثه إلا إذا نظر إليها في الإطار الجامع - وقد كان هدف الاستشراق من الدعوة إلى قومية التاريخ أن يعزل المسلمين والعرب عن تاريخهم المديد المتصل وأن يغريهم بأن يدهورم إلى أن يكون لهم وجود حديث منفصل يقوم على الإقليمية منفصلاً عن العروبة والإسلام جميعاً . كذلك فإن الدعوة إلى (قومية التاريخ) التي تحمل لواءها مخططات النفوذ الأجنبي ، ليست هي الدعوة الوحيدة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي ، وإنما هناك الدعوة إلى عالمية التاريخ التي تحمل لواءها مخططات اليهودية العالمية وكلا الدعوتين تستهدف تحطيم وحدة التاريخ الإسلامي الذي أقامها الإسلام وتمزيق كيان الأمة .

حول أكثر من تيار، وإذا كانت دعوة قومية التاريخ تعنى من شأن (الإقليمية) وترفع شأن (المنصرية) فإن الدعوة إلى عالمية التاريخ تستهدف القضاء على ذاتية الأمة الإسلامية وإفساد طابعها المستقل وصهرها في أتون العالمية والائمية التي تقضى على خصائصها الخاصة ووجودها القائم بذاته، ولقد كان المسلمون حريصون دائماً على الأخوة الإسلامية الجامعة من ناحية، فهم ينكرون الإقليمية والقوميات الضيقة، ومن ناحية أخرى فهم حريصون على الاحتفاظ بذاتيتهم وخصائصهم وكيانهم الخاص أن يذوب أو يتأثر بأي مؤثر من مؤثرات الاحتواء.

(٣) وبالمجمل فإن محاولة تقسيم التاريخ الإسلامي إلى تاريخ وطني وتاريخ عربي وتاريخ إقليمي وتاريخ قومي مصري أو سوري أو مغربي الخ هو هدف ضخم من أهداف الاستعمار، وقد تخصص أكثر من مستشرق في هذا المجال، منهم من يخدم الاستعمار أو يخدم الماركسية أو يخدم الصهيونية، وقد طرح التفريب والغزو الثقافي في الثلاثينات (مؤامرة) الفرعونية والفينيقية والاشورية من أجل رد مصر والشام والعراق عن ارتباطها الإسلامي الممتد خلال أربع عشر قرناً إلى صلات قديمة تتعلق بما كشفت عنه حفريات الآثار، وقد جرى الاستشراق شوطاً طويلاً في محاولة إحياء هذه الدعوات ثم تبين له العجز المخزى عن وجود أي خيط من الخيوط التي تربط هذا الماضي البائد بالحاضر سواء من ناحية اللغة أو الأخلاق أو التقاليد، ثم تبين أن هناك انقطاع حضاري عميق المدى بين هذه العصور البائدة وبين الإسلام.

ثم تبين بدلائل قومية أن ما يسمونه الفرعونية والاشورية والكنعانية والفينيقية ما هي إلا موجات عربية متتالية تدافعت من داخل الجزيرة العربية حيث استطاعت أن تستقر في أجزاء مختلفة من امتداد الجزيرة العربية إلى ما بين النهرين في وديان العراق وسوريا وأرض النيل. كما تبين أن هذه المنطقة التي يطلق عليها الوطن العربي هي جزء من العالم الإسلامي مرتبطة به تاريخياً وجغرافياً وثقافياً وأن هناك تكامل اقتصادي واجتماعي بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي وأنه من العسير أن تمثل هذه التقسيمات السياسية الاستعمارية أي معنى من معاني الاكتفاء الذاتي.

الفصل الثاني

التاريخ وطني وقومي وإسلامي أولاً: التاريخ الوطني

جرت المحاولة في ظل الاستعمار والنفوذ الغربي إلى ما أطلق عليه تصير التاريخ ، ويعني هذا خلق تاريخ مصري مستقل عن التاريخ الإسلامي ، ويقوم على أساس أن مصر كيان قائم بذاته منذ فجر التاريخ كانت لها حضارتها القديمة ومدنيتها قبل خمسة آلاف سنة . وهي حضارة سابقة للإسلام وغير متصلة بالعرب قوامها الأهرام والمعابد والنيل ، وأن هذا الكيان قد واجه موجات الغزو الخارجي المختلفة . ثم يذهب دعاة هذا المفهوم إلى تصور أن دخول مصر في العروبة والإسلام إنما كان غزواً عربياً . وقد قال بهذا سلامة موسى وطه حسين . ثم يجرى العرض التاريخي على أساس أن مصر ظلت بعد تعريبها وإسلامها كياناً مستقلاً إلى اليوم . ولا ريب أن هذا العرض خاطئ من الوجهة العلمية التاريخية ، ولكن مبرر هذه الهدوى في نظر البعض أنها دفاع عن الكيان الوطني في وجه حملات الاستعمار الذي صور مصر على أنها ليست وجوداً وطنياً ، فاستخدم التاريخ الفرعوني وامتداده القديم ليكون رداً على هذه الاتهامات غير أن النفوذ الأجنبي استغل هذا ليكون دهوة إقليمية وانفصالية من الدائرة العربية والدائرة الإسلامية وقد تمكشفت في دحض هذه المحاولة حقيقتان :

(الأولى) أن للموجة الفرعونية إلى مصر كانت موجة عربية من قلب الجزيرة وأن اللغة المهدوغلغيفية ذات صلة وطيدة باللغة العربية في غالب مصطلحاتها وتركيبها .

(الثاني) أن هناك (انقطاع حضاري) ثابتاً وكيد وعميق بين عصر الإسلام وكل ما قبل الإسلام . ولقد جرت محاولة أخرى لكتابة تاريخ مصر الحديث على أنه تاريخ وطني ، وأطلق عليه عبد الرحمن الرافعي (تاريخ القومية المصرية) استمداداً من محاولات قام بها الجبرتي . ومضى في هذا الطريق محمد صبري وشفيق غربال وغيرهم في محاولة لحصر تاريخ مصر في حدوده التاريخية والجغرافية في العصر الحديث منفصلاً عن الكيان العرب المتصل بها من حولها والعالم الإسلامي كله .

وقد حاولت هذه الأبحاث تصوير الحركة الوطنية في مواجهة الاحتلال البريطاني الذي بدأ عام ١٨٨٢ وما قبل ذلك من إرهابات في عصر إسماعيل على أنها حركة وطنية مجردة ، ولكن المؤرخين والباحثين الغربيين وغيرهم كشفوا فساد هذا المفهوم وبينوا أن الحركة الوطنية في مصر والحركات الوطنية في طائفة أجزاء البلاد العربية والإسلامية كانت إسلامية المصدر وأن حركات المقاومة كلها استمدت

فوتها من مفهوم الجهاد الاسلامي وأن الازهر في مصر كان هو المصدر الحقيقي لحركة المقاومة والحركة الوطنية نفسها ، وأن الحركة الوطنية أيام عرابي كانت إسلامية الوجهة وكانت تؤمن بالجامعة الإسلامية ، وكذلك كانت الحركة الوطنية التي حمل لوائها الحزب الوطني إسلامية تؤمن بالحركة الوطنية داخل إطار المفهوم الإسلامي والجامعة الإسلامية التي كانت تمثلها الدولة العثمانية ، وقد كان الأمر كذلك في كل مكان وصل إليه الاستعمار غير أن النفوذ الاستعماري عمد إلى القضاء على هذا الوكيل من المجاهدين (محمد فريد وعبد العزيز جابوش وغيرهم) ليقطع الطريق أمام إعداد جيل جديد يؤمن بالنفوذ الأجنبي ويتعامل معه ولا يرفضه ، ويقبل سياسة المراحل وهو ما حقق كرومر لإيجاده بإلغاء المدرسة المتفرجة الموالية للأجنبي والمعجبة بأوروبا والحضارة الغربية ، وعلى رأسها لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم (اقرأ تفصيل ذلك في كتابنا : حركة اليقظة) . وقد كشف هذا كثير من الباحثين فأبانوا بأن زعماء السياسة في البلاد العربية كانوا يقاومون النفوذ الأجنبي فرلسياً كان أو انجليزياً في نفس الوقت الذي كانوا يعتقدون فيه الفكر الغربي ويعجبون بالحضارة الغربية ويتحركون في إطار النظام السياسي الديمقراطي الغربي ، ومع ذلك فإن الحركة الوطنية والدعوة إلى مقاومة الاستعمار كانت إسلامية المصدر وبالرغم من إزاحة الاستعمار للزعيل الأول فإن روح الحركة الوطنية ظلت إسلامية وإن انخرقت عن مفهومها الجامع وفصرت نفسها في إطار العمل السياسي والحزبي الذي كان لا بد أن يتكامل بظهور الجماعات والهيئات الإسلامية التي حملت لواء تصحيح مفهوم الحرية والسياسة ودفع المفهوم الوطني إلى التكامل في إطار الاسلام الجامع .

وبصور هذا محرر جريدة سيكتيتور البريطانية عام ١٩٣٥ فيقول : دما هي حركة القومية المصرية وما قيمتها إذا كانت تتجاهل التقاليد القومية ، ولا تظهر شعورها نحو ماضي بلادها الحر . فالمصري العصري بدون استثناء تقريباً يفضل الطاهر الكاذب الممور وهو عادة مظهر فرنسي كاذب ويؤثره على تقاليده الثقافية . ومصر بلد إسلامي متعلم وبها حركة وطنية ومع ذلك فإن وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الاسلامي والمصري يحاول اليوم بإدراكه وشموه أن ينسى طبيعة الاسلام ، فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الأدبية والثقافية في الحين الذي يستسلم فيه عن عجز وضعف إلى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية .

لقد رأى اللورد كرومر الخطر السامن في ترسيخ الشقة بين مصر الإسلامية ومصر السياسية ولهذا السبب تأتي خطة الشيخ محمد عبده تأييداً صادقا واسكن الرجال الذين يرون ما يرى الشيخ محمد عبده هم اليوم أقل عدداً منهم منذ أربعين سنة ولا ريب أن مصر السياسية تفقد تراثها شيئاً فشيئاً ، متى فاز الوطن المصري بالحكم الذاتي المطلق الذي يطلبه فإنه لا يجد لديه شيئاً من تقاليده الأدبية والفنية والثقافية تستطيع أن تستخدم هذا الاستقلال السياسي لغايتها وتروجها . إن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لا تصالح لأن تكون قاعدة تستطيع الطبقة المتعلمة أو تستمد منها أي ثبات أو تشريع له قيمته ، وقد علفت مجلة الفتح على هذه الكلمة فقالت : إن الزعماء السياسيين يتظاهرون بعدم التمسك بالاسلام تقريباً إلى الا فرج والا فرنج يبتسمون لذلك في سرهم ابتسامة الاستخفاف ، ولا يخفي على

كاتب مقالة السبكتينثر أن سياسة الاستعمار صاحبت طويلاً لإفراغ سياستنا في هذه القوالب بما لها من السلطان على مناهج التعليم والغربية وعلى حياة الصحافة التي تكون العقائد السياسية والأدبية في دروس لرائتها وبما السياسة الاستعمارية من الأساليب في ترقية من يؤيدونها من المتعلمين إلى المناصب ذات التأثير في حياة الشرق ، فسياسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الغربيين في الغالب ، وقلما يفتد عن ذلك شرق يفتغل بالسياسة .

ثانياً : التاريخ العربي

طرح حركه التغريب والغزو الثقافي مفهوم (القومية) الغربى لتدمير مفهوم التاريخ الإسلامى الجامع بين العربيه والإسلام ، ولقد كان مفهوم دعاة العربيه منذ أن سقطت الدولة العثمانية يحمل هذا الغرابط الجامع بين الإسلام والعربيه ، غير أن المحاولات لم تلبث أن دفعت لنظرية القومية العربيه التي تقوم على أساس اللغة والتاريخ والتي عرفتها أوربا في معارضة مفهوم الوحدة المسيحية الجامعة وعملاً على هدم الغرابط القائم في ظل الكنيسة الغربيه وإقامة الصراع بين العناصر المختلفة ، لاثنية وسكسونية وجرمانية . وقد اندلعت في أوربا حروباً متعددة وخلافات كثيرة وسالت دماء كثيرة ، وقد استهدف الذين نقلوا مفهوم القومية الغربيه إلى العالم الإسلامى خلق هذا الصراع بين المسلمين والعرب . ولقد حاولت حركه التغريب والغزو الثقافى ومن تابعها من الأحزاب العربيه عزل مفهوم العربيه عن أصلاته والدعوة إلى علميتها بغية القضاء على مفهوم الأصالة الذى يقرر أن العربيه ذات أرضية إسلامية أو على حد تعبير (ويلفرد كاتول سميت) الذى يقول إن تاريخ الشرق الأدنى والحديث ، يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة للملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تنمر الجهود القائمة . ولقد استغلت نظرية السلالات والعنصرية استغلالاً شديداً في تمرير الاستعمار الغربى للبلاد الإسلامية وذلك بدعوى أفضلية العنصر الأبيض صانع الحضارة . ومن هذه المحاولات ما قام به دعاة مفهوم القومية الغربيه في الغرض من الدور الذى قام به الإسلام ومحاولة إعلاء التاريخ العربى قبل الإسلام ، وقد تكشف زيف هذه للقاميم جيماً وأثبتت الوثائق والأسانيد أن الإسلام بالنسبة للعرب هو مصدر كيانهم ووجودهم فإن الإسلام هو الذى صاغ للعرب صياغة جديدة وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفسكر والثقافة ، وليس على أساس الجنس والعرق ، وكان لهم بمثابة السور المنيع الذى حرم من الموادى وحطم الطغاة ، وهو الذى دفعهم إلى أفق المجال العالمى ، وهكذا ندين أن موقف العرب من الإسلام يختلف عن مفهوم القوميات الأوروبية من دينها وعقائدها فضلاً عن أن الإسلام معارض لموجة العنصرية وإعلاء السلالات ، وهو الذى حل إلى البشرية دعوة الأخاء البشرى . إن ساطع الحضرى وميشيل عفلق وأنطون سعادة قد عرضوا ونقضوا أكثر من مائة نظرية في القوميات والأفليميات ليس من بينها نظرية واحدة عربيه أو إسلامية أصيلة ، وكلها نظريات واحدة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبينها نظريات معارضة ومتضادة ونظريات تعتمد على المشيئة وأخرى على الثقافة للعثركه وثالثة على الأرض ورابعة على اللغة والتاريخ ، وكلها يختلف مع طبيعة الفسكر الإسلامى

ومنطلقاً ومفاهيمه وقيمه . وقد تبين أن العروبة المحقة لا تنفصل عن أرضية الإسلام وقيمه وأن العروبة ليست مذهباً مستقلاً بذاته وإن تكون معارضة أو مضادة للإسلام وقيمه وأن مصطلح القومية والدين الغربي يختلف عن مصطلح العروبة والإسلام وأن بين هذه وتلك فوارق بعيدة المدى فليس الإسلام ديناً كالاديان وإنما هو عقيدة ونظام مجتمع ، وليست العروبة كالقومية فإن هناك اختلاف بين حالة الصراع للعديد الذي عرفته أوروبا بين الدين والقومية وحالة الالتقاء العميق بين العروبة والإسلام . والواقع أن التاريخ الإسلامي في مراحلها المتصلة والمجيدة خلال أربعة عشر قرناً لم يفصل بين المسلمين العرب والعرب ، ولا بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين إلا حين بدأ الاستعمار يستغل الشعور الديني لفرقة الأمة الواحدة واحتواء بعض الأفعاليات لخدمة أهدافه في حرب الإسلام ، وأن الخلافات التي وقعت بين المسيحيين والمسلمين كانت بفعل الاستعمار وأن المفاجئ من الدروز والسنة كانت من تأخير النفوذ الأجنبي ، ولقد كان للاستعمار الغربي أثره في تغذية المصيبات الدينية ولم تحدث في الدولة العثمانية تغذية للمصيبات أو فرقة بين الأديان أو بين العرب والترك إلا حين تولى الحكم فيها الاتحاديون حلفاء اليهود وعملاء المحافل الماسونية الذين شكلتهم الارشاليات الأجنبية .

ولقد عمد التغريب والغزو الثقافي إلى تحويل الحركات الوطنية إلى عقائد قومية بإعلاء المصيبات والعناصر وترسيخها في مجال الحياة القروية والسياسية مع تشكيك العرب في رسالة الإسلام والتخلص من العقائد التي تقيم الترابط بين المسلمين ، وقد وصف الدوس مكسلي هذه الدعوات المنصرية والقومية والاقليمية بأنها الأصنام الجديدة التي رفعتها الحضارة الحديثة والتي جعلت من الوطنية أو القومية آلهة تعبد من دون الله .

ثالثاً : التاريخ الإسلامي

مضت التيارات الثلاث في ظل للنفوذ الأجنبي والتغريب تعمل لتحريف مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي الجامع بين عنصرى الوطن والقومية معاً ، وذلك لخلق صراع لا يحقق الوصول إلى المفهوم الجامع وكتاب التاريخ الإسلامي لم يتمكنوا من وضع منهج جامع لأنهم كانوا يعملون داخل الدائرة المجرئة فكانت كتابات جرجى زيدان تستهدف إعلاء شأن الأمويين والنقض من شأن عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين . أما كتابات محمد عبد الله هنان فقد كانت صوراً لا تعملها وحدة ولا هدف ، لا تستهدف الدعوة إلى وحدة التاريخ الإسلامي وإن كانت تعارض مفهوم العروبة واسكنها على مفهوم المصرية ، وكانت كتابات أحمد دكي باشا تلاحق بعض القضايا المثيرة وقد قصرت كتابات عبد الحميد العبادي على سلامتها عند العصر الأول ، كذلك فإن رفيق العظم توقف عند بعض البطولات الإسلامية الأولى ، وفي مقابل ذلك جرت محاولات طه حسين في إثارة الشبهات حول ما أسماه الفقنة الكبرى حين تعرض للخلاف بين هنان وعلى ومعاوية لجمع مختلف الخيوط التي عرّض لها الاستشراق للدفاع عن وجهة نظر معينة قوامها إنكار وجود عبد الله بن سبأ اليهودي أو تبرئته من الاتهام في مؤامرة مقتل هنان .

ولقد كان الهدف الرئيسى من مختلف كتابات الاستشراق ودعاة التغريب غاية واحدة هو (إيجاد الصراع والتناقض بين العرب والاسلام ، وكان برنارد لويس قد تخصص في إثارة شبهة دهوة ممارسة العرب للمدء العرفى ضد الموالى والنووج ، بينما نجد عشرات الباحثين والمؤرخين يؤكدون المعاملة المكرمة التى عامل بها العرب الافارقة ، ويقول المؤرخ توينب : إن الحضارة العربية من الحضارات النادرة فى التاريخ التى لم تتخذ موقفاً عرقياً من الافارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتخذت موقف الاستعلاء على العرق الأبيض فى بيئته وروما . كذلك وجهت شبهات نحو مفهوم الوحدة الاسلامية دون أن تلتفت إلى أن الوحدة التى دعا إليها الاسلام هى وحدة ثقافة فكرية وعقائدية لا فكرية عنصرية ، فقد عرف الاسلام وحدة الفكر وجعلها مقدمة على كل العناصر ، فالاسلام يقيم روابط المجتمع على العقيدة والاخاء بين المؤمنين بصرف النظر عن أجناسهم أو لغاتهم أو سابق تاريخهم . وقد أكدت حقائق التاريخ أن الاسلام قطع ما قبله من عصور الجاهلية وأن ذلك التاريخ القديم قد انطوى تماماً بعد أن عاشت اليونانية والرومانية والمسيحية أكثر من ألف سنة ، فلما جاء الاسلام قطع هذا التراث وقضى على الفكر واللغة وأقام مفهوم التوحيد الخالص بدلاً منه فى منطقة واسعة تمتد من الشام إلى مصر إلى المغرب كله ، ومن ثم أصبح البحر المتوسط فاصلاً حقيقياً بين حضارتين ودينين وثقافتين .

كذلك فقد استطاعت قوى الاستعمار والتغريب أن توقع الصراع بين العرب والأتراك العثمانيين على النحو الذى فصل بينهما وكان ذلك لحساب الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى استولى على هذه المناطق العربية وكانت المحاولة التاريخية ترمى إلى تزييف العلاقات بين العرب والأتراك منذ بدأت وتصويرها على أنها علاقة استعمار بينما لم تكن كذلك وإنما كانت علاقة لقاء فى إطار الاسلام لمقاومة الغزو الغربى الذى كان يحضر لجولة ثانية بعد هزيمته فى الحروب الصليبية .

لقد كانت محاولة الفصل بين العرب والترك من أكبر مخططات الاستعمار التى تمتع عن طريق كتابة التاريخ على نحو من التزييف والتضليل فى محاولة لخلق تصور عربى منفصل عن الاسلام ، وقد حملت الارشاليات على تغذية هذه السحوم وتبناها دعاة الفينيقية والماسونية والاتحاديين فى سبيل تزييق وحدة التاريخ الاسلامى والوجود الاسلامى الجامع الذى يربط بين العرب والأتراك . وقد جرت المؤامرات نحو هذا الهدف حتى استطاعت أن تقيم خندقاً واسماً بين المعنصرين المسلمين كانت له آثار بعيدة المدى خلال أكثر من خمسين عاماً ؛ غير أن هذه العصبية لم تلبث أن ظهر فسادها ، كما تبين هدف المؤامرة من تزييق أديم العالم الاسلامى لحساب الصهيونية والاستعمار والشيوعية ، وتبين أن الوطن العربى جزء من العالم الاسلامى تجمعهم رابطة الفكر والثقافة والعقيدة وأن الدولة العثمانية حملت العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة سنة من الغزو الاستعمارى الغربى .

(راجع كتابنا : الاسلام والغرب : المجلد الثانى)

الفصل الثالث

العروبة والإسلام

في مجال تكامل العروبة والإسلام يمكن أن تقدم الحقائق الآن :
(أولاً) ليس بين العروبة والإسلام تناقض ولا تضاد بدليل أن كل إنسان يستطيع أن يكون عربياً ومسلماً في وقت واحد ، وقد اجتمعوا في الرسول ومحبيه فكانوا عرباً وكانوا مسلمين ، وأن القرآن كتاب الإسلام وكتاب العربية ، فهو الدين لمن أراد الدين ، وهو البيان والبلاغة لمن أراد البيان والبلاغة . ويقول الأستاذ علي الطنطاوي : وما الذي يبقى من العربية إن لم يكن فيها محمد والقرآن ، هل يبقى إلا المعلقات السبع وحرب البوس وموقعة ذي قار . إن هذه دائرة كبيرة ودائرة صغيرة : الكبرى هي الإسلام والصغرى هي العربية . فالعربية تنطوي في الإسلام إلا جانباً منها ، والعرب المسلمون لا يتناقضون مع أنفسهم حين يفرقون بين صفتين قائمتين ، والفكرتان من التداخل بحيث لا يظهر الخلاف بينهما ولا يستطيع الغلاة تهميد العربية من الإسلام .

(ثانياً) العروبة جزء من الإسلام بل هي نتاج الإسلام ، فالإسلام هو الحركة التي جمعت العرب كلهم على إيمان واحد ، ولولا الإسلام لبقي العرب في جزيرتهم قبائل متفرقة لا قدر لها في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وللإسلام على العرب فضل توحيدهم وفضل إطلاعهم في معارج الحضارة وفي الحياة الإنسانية وأن العرب توحدوا بالإسلام وأن الإسلام جعل منهم قوة عالمية حاملة لواء الحضارة (عمر فروخ) .

(ثالثاً) الإسلام هو التراث الحضاري للعرب مسلمين ومسيحيين ، والإسلام هو الذي وحد مفاهيم العرب وحدد مقاييسهم الأخلاقية فنقلهم من وحدة الأرض ووحدة الدم إلى وحدة الفكر والعقيدة .
(رابعاً) كانت فكرة القومية عند أمم الغرب مقترنة بالصرع واحتقار الأمم الأخرى ، ولكن العروبة تتكامل مع الدول الإسلامية وتلتقي معها في الأخاء البشري والتعارف ، وقد اعترف المستشرقون بأن الحركات القومية التي قامت في أنحاء العالم الإسلامي لم ترم إلى ما رمت إليه أوروبا من إجهاد قوميات مستقلة متنافسة ، هذا إلى أنه لم ينشب ولا ينتظر أن ينشب قريباً بين الشعوب الإسلامية منافسة اقتصادية كهذه المنافسة العنيفة التي طالما أوقدت نار الكفاح والنزاع بين الدول الأوروبية . وقد أراد الله تبارك وتعالى للأمم أن تسير في طريقها السوي وأن تتعارف بالمعنى الواسع الذي يقتضيه حسن الصلة والأخاء والامتزاج .

(خامساً) يجب معرفة الفرق بين مصطلح الدين بصفة عامة وبين مصطلح الإسلام ، فالدين بالمعنى الذي يستعمل به هو العلاقة بين الله والإنسان ، ولكن الإسلام يجمع العلاقة بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان ، فالإسلام ليس ديناً لاهوتياً لحجب ولسكنه إلى ذلك نظام مجتمع . ومن هنا فإن

القول بإبعاد الدين عن مفهوم القومية هو مفهوم غربي ، لأن الغرب أقام الصراع بين الدين والقومية ، لأن الدين لم يكن نظاماً اجتماعياً كاملاً عنده ولا كذلك العروبة فهي مرتبطة بالاسلام لأنها منبثقة منه .

(سادساً) الاسلام لا يفصل العروبة عن الاسلام كما دعا إلى ذلك ساطع الحصري ومدرسة التغريبيين ، ولا يفصل الدين عن السياسة كما دعا إلى ذلك على عبد الرازق ودعاة الشعبوية .

(سابعاً) أكد الباحثون فضل الاسلام على الوجود العربي نفسه . يقول الفريد كانتول مهميت : الاسلام هو الذي خرج بالعرب من ديارهم إلى العالم . فالاسلام سبب عظمة العرب الدينية ، والعرب هم الذين نشروا الاسلام في بقاع العرب ، ونحن نؤمن بأن العرب مادة الاسلام ، حملوا رسالة الله إلى العالمين . ولكن ليس لهم من أجل ذلك من أثر يوحى بالاستعلاء على المسلمين . كذلك فإن الاسلام هو الذي حى اللغة العربية . حتى قال أحدهم : إن الاسلام هو الدين الوحيد في العالم الذي ملا نفوس معتنقية غراً وإعجاباً ، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها اللغة التي اختارها الله لإظهار دينه ، وهي اللغة التي يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الاسلام ديناً له . يقول الرسول ﷺ : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما العربية للسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربي (رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري) .

(ثامناً) غير الاسلام موقف الأمم فأعلى رابطة الفسك والعقيدة وحال دون الاستعلاء برابطة العنصر والقراية والنسب . ودعا إلى الخروج من عصبية الجاهلية وإبدالها بأخوة الاسلام ، فلم يبق بعد الاسلام نسب ولم تصبح القرابة هي الرابطة . فلا يفرق بين المسلمين اختلاف لون ولا تبان لسان . وعندما يدخل الانسان في الاسلام يكون واحداً من جماعة له ما لها وعليه ما عليها ، ولا يفصل الاسلام عربياً على أعجمياً ، ولا أبيض على أسود إلا بالنقوى . وأدخل العجم في العربية لغة وفي الاسلام ديناً ، ففشا علماء لحول كاروا مصابيح الهدى (البخاري ، الطبري ، الموزري ، التبريزي ، الجرجاني ، الأصفهاني ، القزويني ، الفهرزبادي ، أبو حنيفة ، سيدييه ، ابن سيرين ، الزمخشري) . وكلهم كتبوا بالعربية . ويقول الزمخشري : الحمد لله الذي جعلني من علماء العربية وجعلني على الغضب للعرب . وقد أشار علماء الاسلام إلى أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بأنه دين وقومية جامعة وأنه سياسة وعقيدة . يقول الأستاذ محمد سليمان : (ولما كان الاسلام ديناً وجنسية فقد رفع الحدود بين الأمم الثلاث تدين به ، وكره أن يدعى فيها بدعوى الجاهلية ، وجعل أصحابها جميعاً إخواناً تؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلا بالنقوى . ولما لم يكن للمجموعات البشرية من رابطة تتمسك بها وتمتعهم بضرورتها فإنه هو دين التوحيد ودعوته للاتحاد ، كان لا بد للمسلمين من وحدة عامة وعصبية عامة ولسان عام . وقد نبت الاسلام عربياً وبمك على لسان رسوله العربي ، ونزل قرآنه بلسان عربي مبين . فصح لهذا أن يتزوج الفرع بأصله وأن يتحد الاسلام بالعربية وأن يكون لسان شعوبها قاطبة . وقد نهجت هذه النظرية أيما نهاج وأخلص المؤمنين العمل بها فعمدت العربية ذلك المنبسط الأسوي الأفريقي إلى حدود جبال البرنية في أوربا وذلك ما يوجب له علماء الاجتماع الآن .

لقد دعا الإسلام إلى استغراب هذه الأمم حين جعل العربية اسان العبادة بين العبد وربّه ، وأوجب على كل مسلم تعلم شيء منها يقيم به صلاته ، وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معالقاً على درس العربية وفهمها وجعل حب النبي وقومه من أصول الإسلام ، كما أوجب الحج لتكون تلك القبلة وهذا الوادي أحب إلى المؤمن من داره وبلده . وهكذا جاء الاسلام نسباً وجنسية ، فقد ربط الاسلام بين الجنس والوطن وجعل الفسكرة هي الدائرة الأوسع وأعلى من شأن الفسكرة والعقيدة عن الجنس (القومية) والوطن (الأرض) ولذلك فإن مفكرو الاسلام لم يكونوا يصعدون عن أقطارهم ولسكنهم كأولئك يصعدون عن فسكرة طالية الاسلام .

(تاسعاً) لقد كان هدف التغريب والغزو الثقافي لإحلال العروبة بديلاً عن الاسلام وإعطائها صورة العقيدة وتمزيق الوحدة العقائدية الفسكورية بالسلالات القومية والدعوات العنصرية القائمة على استقلال الدماء ، وما سبق الإسلام من تاريخ وأحداث وآثار وهي قوميات وهمة اندثرت وماتت وانقطعت عن الحياة بالاسلام ، ولم تعد بابل وأشور والفراعنة تستطيع أن تبعث في النفس العربية والإسلامية شيئاً .

(عاشراً) الإسلام وليس العروبة هو الذي حيى الوطن العربي من الصليبيين بعد أن تم تكوين أربع إمارات صليبية ، فجاء صلاح الدين السكردى المسلم لينشل العروبة من هونها التي كان في الإمكان أن تستمر ، والمماليك هم الذين حووا الأرض العربية من التتار الذين دخلوا بغداد وأزالوا الخلافة الاسلامية وجعلوها مدينة للموت والدمار . لقد قاتل المماليك الذين هم من جنس التتار لا من جنس العرب باسم الاسلام لإخوانهم في الجنس . وفي الجزائر بعد مائة وثلاثين عاماً من القضاء على السكيان الجزائري عملاً في اللغة العربية استطاع الاسلام أن يبعث الأمة من جديد ، فقد رفع ابن باديس راية الاسلام من جديد فأضاءت شعلة العروبة ، ومن هنا فقد تبين أنه حيث يسقط الاسلام يسقط العرب وأنه حيث يسقط العرب ليعدم عن الاسلام فإن الإسلام هو الذي يبقى لهم أملاً ومنقلاً .

(حادى عشر) يقول مورويهدجو في كتابه (العالم العربي اليوم) إن العروبة تعنى الاسلام ، وإن الابتعاد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه ، وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام .

الفصل الرابع

مصر العربية الإسلامية

كانت حقيقة مصر العربية الإسلامية هدفاً من أهداف التغريب والغزو الثقافي في محاولة جبارة لتزييف هذا المفهوم وإثارة الشبهات حوله ، وخلق عدد من الدعوات وفي مقدمتها المصرية الفرعونية والمصرية الخالصة ومصر العربية في محاولة للحيلولة دون قيام مفهوم مصر العربية الإسلامية الاصيل . فالعمل على تجزئة التاريخ إلى وطني وقومي كان عملاً أساسياً من أعمال الاستعمار والتغريب ، بل إن التاريخ الحديث عربياً ومصرياً يجب أن تعاد كتابته في ضوء مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي ، ذلك أن هذا التاريخ القائم كتب بطريقة مضللة ، حتى أن بعضاً من أبطال هذا التاريخ والذين لا يزال نعدم أبطالا تقوم حولهم كثير من الشبهات في خدمتهم الاستعمار والصهيونية . وقد رد كثير من الباحثين أسباب نكسة ١٩٦٧ إلى فساد كتابة التاريخ الوطني والقومي ، بل يقول البعض : أن السبب الحقيقي في النكسة يرجع إلى أن الجيلين الماضيين قد خططا لتشكيل حياة الانسان المصري تشكيلاً خاصاً وصيغه صيغة معينة لا تخدم في الواقع إلا الغرض الذي يخدم اليهودية العالمية والاستعمار والماركسية . إن أسئلة كثيرة حافلة بالشك تدور في عقول كل من يحاول الدرس على أساس سليم . ويرد البعض اضطراب مفهوم التاريخ الحديث إلى عدم وجود مدرسة أصيلة للتاريخ بدلا من الارتباط بركاب المدارس الأوروبية وفرض منهج وافد على تفسير التاريخ المصري العربي الإسلامي حتى أن بعض أساتذة التاريخ المعاصرين اعتمدوا مجتمع القرامطة مجتمعا اشتراكياً ووصفوه بأنهم أول من سار في اليسار من العرب العاربة والمستعربة . يقول الدكتور سيد الناصري : إن الذي يشجع على عملية التزوير التاريخي هو غياب الوعي القومي . فإذ لنا ندرس التاريخ على أنه قصص حاملة دون الاستفادة من دروسه الأخلاقية والسياسية على أساس منهج عصري يخدم واقعنا ومستقبلنا ويضع أمام الناس خلاصة التجارب التي تناسب مشاكل الساعة وتساهم في عملية الخلق والابتكار خاصة وإن هناك أخطاراً تهدق ببلادنا وحضارتنا ، ولا ريب أن مقطع الأمر في دراسة التاريخ الحديث والمعاصر هو أن يكون وطاء لفهم الأخطار التي تحيط بهذه الأمة اليوم ومؤشراً لاتجاه الرياح وكاشفاً لمخططات الاستعمار والصهيونية والماركسية في التأمر على هذه المنطقة الواحدة : العربية الإسلامية . وقد أشار كثيرون من الباحثين إلى الأخطار التي أحدثت بكتابة التاريخ القومي والوطني لمصر والسكثير من البلاد العربية في مواجهة تيارات ثلاث خطيرة :

(١) محاولات الاستعمار الغربي وتفسيراته . (٢) محاولات الصهيونية وتفسيراتها .

(٣) محاولات الصهيونية وتفسيراتها .

ومن هنا نجد أن تاريخ مصر والبلاد العربية يكتبه إما أمريكيون أو بريطانيون أو يهوداً وطاركسبين

وأن ما يكتبه رجال الجامعة الأمريكية إنما يكتب من وجهة نظر غربية أوروبية وما يكتبه أمثال الدكتور محمد أنيس وغيره إنما يكتب من وجهة نظر ماركسية، وبذلك فإن أجيالنا الجديدة تقرأ تاريخها الوطني (الذي هو جزء من التاريخ الاسلامي) على غير حقيقته فقد صور لها الأبطال في تاريخها تأتين وراء سحب من الدك والغموض بينما وضعت حالات التقيد والإكبار حول الذين خانوا كفاحها. ففي ظل الاستعمار البريطاني وصف زعماء مصر الموالون له بالبطولة بينما وصف الذين قاوموه بأنهم كانوا من الموالين للدولة العثمانية.

وكانت كتابات المؤرخين الأجانب ترمي إلى رفع شأن أسرة محمد علي وتبرئة إسماعيل، وتفسير الأحداث التي كانت مقدمة للاحتلال البريطاني تفسيراً توصف فيه بأنها قبول للحضارة الحديثة. كذلك فإن أسماء المجبرتي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعرابي ظلت وقتاً طويلاً تحاك حولها الشبهات لأنها قاومت أسرة محمد علي وقاومت الاحتلال البريطاني. بل إن ما كتبه المجبرتي عن أسرة محمد علي ظل وقتاً طويلاً مما يمنع إعادة نشره. وكانت الحكومة المصرية في عصر أسرة محمد علي (وفي عصر إسماعيل بالذات) تشترط في عقودها مع المطابع النص على عدم طبع الجزء الثالث من كتاب عجائب الآثار للمجبرتي. وفي السنوات الأخيرة استغل الماركسيون رفاة الطباطبائي وصوروه على أنه داعية للإقليمية المصرية، كما استغلوا المؤرخ المقرئ، وصوروا أبحاثه بأنها تفسيراً ماركسياً للتاريخ المصري.

وجاءت كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وعبد الرحمن الرافعي وأمين سميد عن التاريخ الوطني ملوثة باتجاه خاص لكل منهم، فالدكتور هيكل وريب حزب الأحرار الدستوريين خصوم الوفد، والرافعي تلميذ مصطفى كامل ومحمد فريد وخصم الأحزاب السياسية الوفد والأحرار وغيرهم. وأمين سميد كان موالياً للاحتلال البريطاني وله ولاء معه فلم تعطى أية كتابة من هذه الصورة الحقيقية للحركة الوطنية خلال الفترة التي أرختها عند ما عكس كل مؤرخ انتمائه السياسي وتبعيته، وكذلك فإن كتابات محمد صبري كانت تمثل المدرسة الفرنسية في التاريخ وكانت كتابات شفيق فريال تمثل المدرسة البريطانية في كتابة التاريخ.

أما مذكرات أحمد شفيق فكانت تمثل الولاء للأسرة المالكة وإن تحررت في بعض مراحلها من هذا الولاء وإن ظلت تمثل عقلية أحمد شفيق ربيب الدراسات الأجنبية. وكذلك كانت مذكرات إسماعيل صدقي تمثل الدفاع عن جيل من الموالين للاستعمار والرأسمالية الغربية. وهكذا نجد أن جميع المادة التي بين أيدينا ذات انتماء غربي، ولما جاءت بعد ذلك كتابات محمد أنيس وجماعة الماركسيين فإنها كانت ذات انتماء للمذهب لتفسير المادى للتاريخ. وكلا الطريقتين لا يمثلان المفهوم الأصيل للتاريخ الوطني كجزء من تاريخ الإسلام العام. وعند ما عقد مؤتمر لندن (أبريل ١٩٥٥) لمناقشة تاريخ مصر الحديث، كان المسيطرون على المؤتمر أمريكيون وبريطانيون يجمعون بين مفاهيم الرأسمالية الغربية واليهودية العالمية. وكانت أسماء الصهيونيون بارزة (ناداف هيرمان) جبرائيل باتر، جاكوب لانداد، فانيكوتش، بنارد لويس ومؤلاء جميعاً لهم مواقف ضد المصريين والعرب.

وقد أشار الباحثون إلى عشرات الكتب التي تصدر في مختلف أقطار العالم : بل إن هناك مؤلفات صدرت اشترك في كتابتها عدد من أساتذة مختلف الجامعات : الجامعة العبرية بالقدس وجامعة لندن وجامعة أكسفورد ومدرسة الفنون الشرقية والأفريقية في لندن وجامعة بنسلفانيا الأمريكية - حول تاريخ مصر الحديث بعنوان التغييرات الاجتماعية والسياسية في مصر ، والجديد في هذا الكتاب محاولة لتصوير مصر في الستينات بمصر أيام المماليك في ضوء تفسير مادي للتاريخ . ونرى الذين يعملون في حقل الدراسات التاريخية في مصر والبلاد العربية قد احتواهم أحد التيارين : التيار الرأسمالي والتيار الماركسي وكلاهما خاضع للتفسيرات الصهيونية ، ومن هنا فإنه كلما ارتفعت الأصوات بإعادة كتابة تاريخ مصر الحديث نفعر بأن الأمر أن يكون أكثر من الانتقال من التبعية الغربية الرأسمالية إلى التبعية الماركسية الشيوعية في تفسير التاريخ من خلال العلاقات الاقتصادية . وأن المدرسة التي اشتغلت بكتابة تاريخ مصر كانت محتواه في إطار حزبيتها وفي مفاهيمها الضيقة ، ومعنى هذا أن كتابة تاريخ مصر ستظل مقيدة بسلاسل فوق سلاسل الأولى دون أن يكون قادراً على تفسير تاريخ مصر تفسيراً إسلامياً أصيلاً باعتبار أن مصر جزء من الوطن العربي والأمة الإسلامية ، بل إنه عندما يعلن أحد الكتاب أن الصحافة هي مصدر خطير لكتابة تاريخ مصر الحديث فإننا نجد أن الصحافة المصرية نفسها في هذه المرحلة كانت محتواه للنفوذ الفرنسي أو الإنجليزي وأن الصحف المصرية الخالصة كانت محتواه للحرية السياسية التي كانت قد قامت على أساس مفهوم مصر المصريين ، فهي لم تكن في يوم من الأيام قائمة على فهم مصر في إطارها العربي الإسلامي ، فهي إما وطنية خالصة أو منتمية إلى العروبة والسكينة في نفس الوقت لا تتحرك في إطار المفهوم الإسلامي الجامع ، فإن هؤلاء الذين نشأوا في ظل المفهوم الحزبي والسياسي المصري كانوا يبدؤون تاريخ مصر من الحملة الفرنسية ويتحدثون عن عصر محمد علي وإسماعيل والثورة المصرية ١٩١٩ والأحزاب السياسية إلخ ، ويتحدثون عن بطولات هذه الفترة : عمر مكرم وهرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول إلخ ، وهذه الكتابات بلونها الغربي (شفيق غربال) والماركسي (لويس عوض - محمد أنيس إلخ) لا تخرج عن دائرة الإقليمية والسنخ على الدولة العثمانية والإعجاب بالغرب والتألف في إطاراته ، ولا يزيد التفسير الماركسي عن التفسير الغربي للتاريخ إلا تلك المحاولات البهيمية التي ترمي إلى الحديث عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنهم جميعاً يقفون موقفاً واضحاً من الخصومة للدائرة العربية والدائرة الإسلامية ، وهو نفس الامتداد الذي عرفته المدارس السياسية التي بدأها حزب الأمة ثم حزب الوفد والاحرار والسمديين وغيرهم ، وهو القائم على التحرك من داخل دائرة الولاء للحضارة الغربية والفكر الغربي ومخاضة الإنجليز سياسياً ومتابعة الغرب فكراً وقبول تنظيماته الديمقراطية .

ومن الحق أن يقال إن التحليل الغربي للتاريخ مفروض وناقص وأن التحليل الماركسي للتاريخ ليس كافياً فضلاً عن مادته الخاصة ، وهناك عوامل أخرى كالعوامل الاقتصادية تؤثر في حركة التاريخ وخاصة للعوامل المعنوية . وما تحدث به عن مصر هو بمثابة الصورة المكررة في مختلف أجزاء الوطن العربي ، فإذا الاستعمار الذي دفع مؤرخي مصر على اعتبار أن بداية تاريخهم هو الحملة الفرنسية هو

الذي أوم الجزائرين أن بدء تاريخهم هو عام ١٨٣٠ وهو العام الذي احتلت فيه فرنسا الجزائر . وقد انبأ الاحتلال في مصر ، كما انبأ في كل مكان ، أجيالا تنتسب إلى الاستعمار (الانجليز في السودان والعراق) والفرنسيين في (تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان) كل ما تتكون منه شخصية هذه الأقطار الحديثة من أسباب الرفاهية والتقدم المادي ، وكما حجب على الجزائرين تاريخ الإسلام الحضاري في الشرق وفي بغداد وقرطبة ذلك التاريخ الذي أفادت منه أوروبا كل الفائدة ، فقد حجب عن المشاركة معرفة تاريخ المغرب والاندلس ، وظلت كتب التاريخ وخاصة تاريخ الأدب تناول مصر والشام والعراق والجزيرة وحدها على أنها هي الوطن العربي . ولقد حرص الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الإسلامي حجب ما سوى التاريخ الإقليمي الذي لونه بلون الولاء للدولة المحتلة وربطه بتاريخ العرب يقول أحمد سيكوتوري : لقد تعلمنا نحن المثقفين الأفريقيين في مدارس الاستعمار تأريخ فرنسا وحروب القال وحياة جان دارك وما بلهون ، وقرأنا لامرتين ومسرح موليير ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسا كما لو كانت بلادا أوروبا وليست إفريقيا ، ولقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بمجلة الاستعمار .

(٢)

فتح مصر

يعد فتح مصر الإسلامي أضخم الأحداث قاطبة في تاريخ هذا القطر ، بل إن بعض المؤرخين المنصفين يصفه بأنه أعظم انقلاب اجتماعي عرفته مصر في تاريخها القديم والحديث . يقول السيد عبد الدين الخطيب : كل الذين كتبوا تاريخ الفتح الإسلامي لمصر يقفون مبهورين أمام المعجزة التي تمت لعمر بن العاص من الوجهة الحربية بل إن نتائج المعجزة الأدبية والاجتماعية والقومية أعظم من ذلك بكثير لأنها قد عجز عن مثلها أمم الأرض وأقربهم الفرنسيون في الجزائر منذ ١١٥ عاما إلى الآن مع توفر وسائل الطباعة وأدوات التأثير والضغط . يقول : وليست معجزة الإسلام في فتح مصر تنحصر في عدد الجيش الفاتح ولا ما يحمله من عدة ولا بما كان لهذا الجيش من نصر عجيب وتوفيق لا مثيل له ولكن معجزة الاحلام الخالدة في هذا الفتح هي فيما أحدثت من انقلاب اجتماعي حول لغة مصر في أسواقها وبيوتها ومعاهد ثقافتها إلى صف اللغة السماوية التي تتكلم بها اليوم ، فقد حول الإسلام نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وإيمانهم إلى حالة عجزت عقول آدمي الأمم عن أن توفق إلى مثلها أو إلى جزء منها فلم تفلح . هذا النجاح في الانقلاب الاجتماعي لم يقتصر به العرب على مصر حتى يبحث له المنتظمون عن على خيالية وأسباب وهمية ، بل سبق مثله في الشام والعراق وتلاه مثله في شمال أفريقيا والسودان ولو بقيت قيادة الإسلام في أيدي أهله الأولين واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه لوصل هذا الانقلاب بلغته وآدابه وعقائده إلى اليابان وإلى أمريكا . والواقع أن دخول مصر في الإسلام ليس كما يصوره بعض خصوم التاريخ الإسلامي بأنه فتح عربي على النحو الذي عرفته مصر بالفتح اليوناني

والرومانى والفارسي ، فإن مصر كانت عربية أساساً قبل دخولها في الإسلام ، وكانت الموجات العربية للتوالة قبل الإسلام بألاف السنين قد وجدت في هذه المنطقة وجوداً عربياً أصيلاً ، بل إن الأبحاث العلمية قد كشفت عن أن الفراعنة هرب وأن لغتهم متداخلة في اللغة العربية إلى نسبة كبيرة من حروفها ومعانيها . واقد كان دخول مصر في الاسلام عاملاً حاسماً في القضاء على العبودية الفرعونية والرومانية وإلغاء نظام الطبقات الذي كان سائداً في جميع حكومات الأسر الفرعونية ثم في زمن الاسكندر المقدوني تلميذ أرسطو وخلفائه البطالمة والرومانيين الجائرين ، أى أنه كان الإسلام شرف القضاء على هذا النظام البغيض بيد عمرو بن العاص ، كذلك فقد أعلن الاسلام المساواة في الحقوق والواجبات القانونية والاجتماعية بين أهل مصر ، وأعلنت الدولة الفاتحة عن تنازلها عن حقها القانوني في إلزام غير المسلمين بالاحتكام إلى شريعة الدولة وقضاها في الأمور المتصلة بالدين كالأحوال الشخصية .

والواقع أن الاقباط أصل مصر الأصليين كانوا يتبعون إلى التحرر من النفوذ الروماني البغيض المنسلط بأسلوبه العبودي العنيف ، ولذلك فقد حقق لهم الفتح الاسلامي هذه الحرية وقضى على هذا النفوذ ، وكان المسيحيون واليهود ينتظرون من قادة الفتح وعامة جندهم الطعن في الانبياء السابقين وفي المسيح وأمه ، فالبشوا أن رأوم أعظم حرمة لهذه الشخصيات الكريمة من أهل الديانتين وأباغ توبيها لهم حتى من بعض ما قيل عنهم في التوراة نفسها ، وكان الكهنة وعظام الكنييسة الأرثوذكسية يحسبون أن أبطال الدين الجديد سيحولون بينهم وبين استمرار رئاستهم الدينية على جماهير قومهم فمجبوا حين رأوا رؤساء المسلمين يقرون كل شيء على ما كان عليه ويحرمون معابدهم ، ووجدوا أن الرجال الجدد يكرهون الجدله والمراء ، وقد التزموا طريقة القرآن التي تقول لكل مسلم : ادفع بالتي هي أحسن وجادلهم بالتي هي أحسن ، وانقلب العدو صديقاً .

وكان الحكماء الجدد يعرضون الاسلام على المصريين ويعرفونهم بمبادئه وأهدافه بلسان الحال لا بلسان المثال . كان الاسلام الذي يعرضونه عليهم أخلاقاً يعاملون بها الناس ببساطة لا تصنع فيها ولا تكلف ولا رياء ، وإذا أخطأ جندي من جنود الفتح وجد المصري الذي يقع عليه الخطأ أبواب رؤساء ذلك الجندي مفتحة لكل صاحب ظلامة ، فأحب المصريون دين الاسلام لأنه دين الأخلاق الكريمة ولحبهم للإسلام أحبوا لغة الاسلام فعزموا على أن ينتقلوا إليه باتخاذ لغته ليوهمهم وأسواقهم ويعتداتهم فتقرب المصريون ليقروا القرآن بلغته التي أنزله الله بها وايصلوا الصلاة الاسلامية بلغة الضاد والتي اختارها الله لوحيه وكتابه وآخر أديانه ، ومنذ ارتضى المصريون لانفسهم أن يكونوا عرباً من أمة العرب أصبحوا أمة إسلامية في قلب وطن الاسلام ، وقد مضى عليهم بضعة عشر قرناً وهم ثابتون عليها رغم ما نزل بهم من أحداث .

ويصور أحد الباحثين (مصر بعد الفتح العربي) فيقول : إن جيش الفتح إثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبدأت هجرات عربية إلى مصر ، أكثرها هجرة قبائل القيسية ثم الغينية ، ونزلت بطون قيسر بالحدوف الشرقي حول بلبيس ، واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم المتلاحقة أما الاقباط فكانوا أكثرية عن الفتح .

قال المقرئ : إنهم كانوا على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم وديانتهم أجمعهم ديانة الملكية . وكان عددهم يزيد على ثلاثمائة ألف رومي . والقسم الآخر عامة أهل مصر ويقال لهم القبط ، وألسانهم مختلفة لا يكاد أن يميز منهم الحبشي من النوبي من الإسرائيل الأصلي من قصيره وكلهم يعاقبة ، وبينهم دين الملكية أهل الدولة من العداوة بما منع الزواج بينهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً .

ودارت الحرب بين العرب والروم وقت الفتح . أما القبط فكانوا هوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أمناً لبنيامين بطرك الأقباط ، خرج من بيته في الصحراء وطاد إلى كرسى بطريركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشر سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض على كل من بالغ الحلم (ديناران) واستثنى النساء والصبية والشيوخ ، وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة نحو قرن من الزمان ، واعتنى عدد كبير من الأقباط بالإسلام ، وكان من الطبيعي وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما في الآخر أن تنشر اللغة العربية بين الأقباط ليتمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم ، وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طوال القرن الأول للهجرة ، وقبل نهاية القرن عام ٨٧ - ٥٠٧ م . لجاء الأمر بالدواوين فُنسخت إلى العربية وكانت من قبل تكتب بالقبطية واليونانية وتاريخ آخر ورقة كتبت باليونانية ٨١٠١ ، وأقدم ورقة بالعربية ٨٩٠ . وظل التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون بالعربية ولا يفهمون القبطية بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية .

وفي القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند ومنعت إعطياتهم ، فانقشروا في القرى المصرية واشتغلوا بالزراعة وتزوجوا من المصريات . وفي هذا القرن امتزج الشعبين ولم يبدأ القرن الرابع حتى كانت مصر شعباً واحداً جديداً هو خليط من الشعبين العربي والقبطي يدين معظمه بالدين الإسلامي ويتكلم سواده مسلمين وأقباط باللغة العربية . واندج الأقباط في العرب واعتنقوا الإسلام .

وبعد تدوين الدواوين أخفوا يدخلون في الإسلام ويتعلمون العربية لرغبتهم في الإحفاظ بمكانتهم وأعمالهم . وقد اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم . ولما كثر دخول الأقباط في الإسلام نقص الخراج ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب عامله في مصر أيوب بن شرحبيل إليه يشكو لكثرة دخول الناس في الإسلام وما لذلك من أثر في نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه في فرض الجزية على من أسلم . فرد عليه عمر بن عبد العزيز : دقيج الله رأيك . إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً . فضع الجزية عن أسلم ، وامرئى لعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يدى . .

وقد كان دخول الأقباط في الإسلام في مصر دخولا طبيعياً يسير مع التطور المنطقي للحوادث والتاريخ في مصر بعد الفتح العربي . ولقد كان لبساطة الإسلام وبسر تعالجه أبعد الأثر في جذب

هؤلاء الأقباط إليه ، وقد شهد بهذا رأى شاهد من أهل الديانة المسيحية هو سهر توماس أرنولد قال :
والحق أن كثيراً من مسيحي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وهذه السرعة التي اعتنقوا بها
النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي ، كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال
العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون
راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلية إلى الإسلام وأن الأساس اللاهوتي لبقاء
اليهوديين حروباً منفصلاً والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها ودفعوا ثمنها غالباً في هذا السبيل
قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية ولا شك أن
كثيراً من هؤلاء تحولوا إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة وهي دين محمد .

(٢)

عروبة مصر

جرت محاولات التشكيك في عروبة مصر والادعاء بأن مصر شخصية فرعونية مسيحية ، وأن
العصر الإسلامي عارض يسير لم يغير هذه الشخصية ، وأن مصر كانت مهد الحضارة التي قامت منذ فجر
التاريخ حول البحر المتوسط ، وأنها حملت الدعوة الموسوية والمسيحية ومدرسة الاسكندرية التي
جددت المعتقدات اللاهوتية . وترتبط هذه الدعوة بالدعوة إلى حضارة البحر المتوسط التي كانت فيها
مصر امتداداً للحضارة اليونانية والامبراطورية اليونانية ثم ترمي هذه الدعوة الدولة العثمانية بأنها دولة
استعمارية ، وأن مصر قد تفرض عليها نفوذ الأتراك ويطلق على هذا الاستعمار التركي . ويدعو حملة لواء
هذه الدعوة إلى الارتباط بالغرب وحضارته مع الاحتفاظ بالقومية المصرية ذات الجذور الفرعونية .

ومن هؤلاء الكتاب لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى ومريث بطرس غالى وغيرهم وكل هذه
محاولات تحاول أن تعكس في عروبة مصر وفي أن مصر جزء من الأمة الإسلامية . فإذا أريد معرفة
صلة مصر بالعرب قيل أن مصر يمكن أن تكون (واصلاً) بين البلاد العربية كما هي قادة على أن تكون
(فاصلاً بينها) . والهدف من هذا تحقيق مطمح النفوذ الاستعماري وإبعاد مصر عن الجامعة العربية
والإسلامية وإغرائها بطموح وهي زائف أن تكون أمة فرعونية مصرية قائمة بذاتها حتى يتحقق
هدف القوى الكبرى في الفصل بين الوجود الإسلامي المتكامل بين أفريقيا وآسيا ، وهو مشروع قديم
حاولت الدول الأجنبية تحقيقه للحيولة دون قيام وحدة عربية إسلامية تضم آسيا وأفريقيا .

وقد أثبتت هذه القضية خلال العصر الحديث مرة بعد مرة . وكانت تستهدف في تخطيطها تحقيق
هدف استعماري أو صهيوني أو لدعاة القوميات الوافدة ، فالمسألة لا تدرس أبداً على وجه صحيح ،
ولأننا ندرس بهدف مسبق يرمى إلى إغلاء إحدى التيارات ، ويختلف في هذا دعاة الفرعونية القبطية
عن دعاة الماركسية عن دعاة البعث . وقد تجاهل الجميع الواقع الحقيقي الذي وصلت إليه مكانة مصر

من العالم الإسلامي والوطن العرب ، على نحو قهري تاماً على كل العوامل السابقة لذلك سواء من ناحية مفاهيم الوثنية الفرعونية أو المفاهيم الهيلينية أو الفكر الروماني ، بل إن اللغة العربية قد حلت محل اللغة التي كانت قائمة في هذه البلاد وأنه لم تعد للفرعونية أي آثار واضحة في ذاكرة الشعب المصري مما يدل على أنه حدث انقطاع حضارى ، وأن مصر أعادت تشكيل شخصيتها في إطار العروبة والإسلام . ولم يعد هناك أي تناقض بين الأطراف الثلاثة التي تتحرك فيها مصر : وطناً وعروبة وإسلاماً وهذا الذي نقول به عن مصر نقول به عن كل أجزاء الوطن العربي .

ولقد كانت لاستعملاء فكرة القومية العربية في الستينات أثرها في مخططات التغريب والغزو الثقافي كواحدة من الوسائل لتزيق مفهوم (مصر العربية الإسلامية) وإعادة مصر إلى مفهوم جزئى ، ولكن مفهوم القومية الذي طرح في البلاد العربية كان مفهوماً وافداً وكان منقولاً من نظريات غربية تختلف اختلافاً عميقاً عن الواقع في البلاد العربية وعلاقتها بالعالم الإسلامى ، وعن مفهوم الإسلام الجامع الذي يقوم على الوحدة الجامعة ويسمح بقيام القوميات في إطارها ، كما بين أن فكرة القومية قد حملت معها فكرة العنصرية وفكرة الدم والنسب والاستعملاء بها عن العنصر الآخر ، وهذا ما يرفضه المفهوم الإسلامى ، بل لا تعدو الحقيقة إذا قلنا أن الإسلام جاء لحرب هذه العنصرية (كلكم لأدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى) .

في الرد على هذه الدعاوى التي جددتها مريت بطرس غالى (١٩٧٤) يقول إبراهيم مذكور : « ليس في بلادنا من يستطيع أن يقول أن أصله فرعونى مائة في المائة ، أو شركسى ، أو عثماني ، أو يملوكى . إن مصر بالذات من البيئات الاجتماعية والجغرافية القادرة أكبر من غيرها على امتصاص عناصر مختلفة ومتعددة ، والإسلام لم يكن قائماً أبداً على أساس قومى أو عنصرى . إن كل تراث قديم لا يمكن إعادته من جديد . ولكن يمكن النظر إليه في ضوء الواقع ، فالفرعونية ، الأمة ينظر إليها في ضوء الإسلام والعروبة وأن عوامل تكوين الأمة هي : الزمن والموقع الجغرافى والثقافة والتاريخ ، والمصرية والعربية بنات عم وأخوات ، نحن في الحقيقة مصريون وهرب ونستطيع أن نلاثم بين الطرفين » .

ويحاول أمثال باهور لبيب وزكى شنوده تصور وجود مصرى اليوم قائم على الأساس الفرعونى ، وأن الأقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث هؤلاء الأجداد وقد ورثوا منهم الملاح والطبايع والأخلاق . ويرد فؤاد محمد شبل على هذه الدعاوى يقول : « إن الكتاب انزلق إلى القول بأن الأقباط هم البقية الباقية من قدماء المصريين التي وقفت أمام نواب الدهر وأنهم هم وحدهم الذين ورثوا عن قدماء المصريين التقاطيع والملاح وسائر الأوصاف الجسدية . والكتاب هنا يروج لنظرية ضالة مضللة فإنه بمجرد ٩٢ ٪ من الشعب المصرى من أصلاته الحضارية ويجعل هذه الصلة وفقاً على المسيحيين المصريين دون أن يستند على أساس ، فهل المؤلف يضمن اتصال النسب بين قدماء المصريين والمسيحيين المصريين دون سواهم . ألم تحكم مصر بالفرس واليونان والرومان أجيالاً طويلة قبل الفتح العربى . لقد وفد العرب بأعداد زهيدة وكان السكان وقت الفتح يراوحون بين ثمانية ملايين وأثنى عشر مليوناً ،

فهل يعنى اعتناق المصريين الاسلام وصيرورته على مدى الايام عقيدة أكثرتهم الساحقة ، فهل يعنى هذا زوال أصالتهم المصرية ، ولم لا يعنى اعتناق المصريين المسيحية وهى بالمثل عقيدة وفدت على مصر من خارجها زوال صفتهم المصرية وفقاً لمنطق المؤلف ، وإذا كانت المصرية ثقافة ، فلقد تقرب الأقباط بالثقافة اليونانية ، وكما أنهم يستوهبون الآن مثل المسلمين سواء بسواء الثقافة العربية ، واللغة العربية هى اليوم لغة الكنيسة المرقسية ، وهى حقيقة أن المسيحيين المصريين يختلفون فى القد والسحنة والأخلاق والمعادن عن إخوانهم المسلمين المصريين ، لأنه كما يدعى الكاتب قد تبين للعلماء والأجناس أن التشابه يكاد أن يكون تاماً بين الموميات المصرية القديمة وبين أقباط اليوم ، وبذلك يمكن القول بأن أقباط اليوم هم من ناحية الجنس سلالة مباشرة لقدماء المصريين . فهل يقصد الكاتب القول بأن مصر أمتين : أمة أصلية هى لك الأقالية انحدرت من أصلاب قدماء المصريين مباشرة وأمة دخيلة هى الأغلبية ؟

(٣)

الانقطاع الحضارى

تؤكد جميع أبحاث التاريخ المنصفة أن هناك انقطاع حضارى قام فى مصر والبلاد العربية بعد ظهور الإسلام ، وأكد توينبى أنه بحث عن الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديث ووجد أن هناك انقطاعاً حضارياً ، وأعلن أن الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم .

وقال الدكتور صبحى وحيد : تفهرت مصر تفهراً عميقاً شاملاً بعد الفتح العربى مما كانت عليه من قبل فصار أبناؤها يفكرون بالعربية لا بالهيوغلييفية أو الأفريقية ، ويشعرون شعوراً إسلامياً لا فرعونياً ولا مسيحياً ، ويتنفسون فى جو آسيا المغولية بعد أن كانوا يتنفسون فى جو البحر الأبيض المتوسط .

وأعلن خطأ الذين يقولون بأن المصريين لم يتغيروا قط وأن الذى تغير وتغير هو من هبط عليهم من الخارج ، وأن المصريين تغيروا مادياً ومعنوياً .

وأشار حسين فوزى فى كتابه سندباد مصرى : إن التحول الكبير فى حياة مصر بالفتح العربى قد فصلها فصلاً تاماً عن تاريخها السابق مع الفتح الإسلامى ، وأنه من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعاً انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى وأنها فى الواقع قد نبذت تاريخها القديم عند ما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ويقول جمال حمدان : د إن الفتح العربى لمصر كان نقطة حاسمة بين مرحلتين ، وأن هناك معارضة للقول بالاستمرارية المصرية منذ بدء التاريخ حتى الآن .

وهذا كله يعنى انقطاع مصر عن تاريخ استمر أكثر من ألف سنة بين الوثنية الفرعونية واليونانية والرومانية المسيحية . وأن الاستمرارية التي عرفتها مصر هي استمرارية الحنيفية الإبراهيمية الممتدة عبر أصول الديانتين المنزلتين على موسى وعيسى عليهما السلام ، ويمكن القول بالانقطاع في الفكر والثقافة والعقيدة ولا استمرارية في الحضارة للمادية ، وأن الاستمرارية المادية منفصلة عن الانقطاع في مجال الحياة الثقافية والروحية ، وأن مصدر هذا التغير هو التعريب والإسلام وأن القول بغير ذلك إنما يعنى تجاهل أكثر من ثلاثة عشر قرناً جمعت بين مصر والعرب في إطار الإسلام . وتؤكد المصادر كلها على وجود الأرضية العربية السابقة للإسلام في مصر والعراق وسوريا فيقول الدكتور حمدان : إن عروبة مصر الفرعونية قبل الإسلام لا تختلف في نوحها ودوجتها عن عروبة العراق الآشوري قبل الإسلام أو عروبة الشام الفينيقية قبل الإسلام ، وليس هناك فارق بين نوع العروبة شرق السويس وغربها . أما القول بأن مصر فرعونية أصلاً عربية مصاهرة هو منطق جاهل ، منطق ما قبل الإسلام ونوع من الردة التاريخية ينسبها الإبن إلى جده دون أبيه أو قبل أن ينسبه إلى أبيه ، ليس العرب هنا الآب الاجتماعي فقط وإنما هم بنفس درجة الآب البيولوجي .

ويقول الدكتور حمدان : إن الانقطاع بالمعنى الحضارى ، هذا الانقطاع ، مثل أعظم حقيقة في تاريخ مصر النقي والروحي ويمثل نقطة تحول حاسمة وخط تقسيم في وجودنا اللامادي . وهناك من يحاول أن يبالغ في جانب الاستمرارية في كياننا لا ليعبر أصالة ما ولكن ليقطع من جانب الانقطاع وبالتالي ليضخم البعد الفرعوني في تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها ويرى الباحثون : أن العروبة هي مضمون جنسي ومضمون ثقافي أيضاً قامت على الرحلات والهجرات المتوالية التي عمت حتى أواخر المغرب قبل الإسلام ، وبينما انقطعت الفينيقية والعرونية والبربرية فقد تحققت الاستمرارية العربية وإن كل الغطاء البشري الذي يعطى ما يعتبر الآن العالم العربي هو أساساً فرشاة واحدة من جذر واحد وعلى الأقل فإن الاختلاط والانصهار الدموي بين العرب الوافدين والسكان الأصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى .

(٤)

مصر الفرعونية

الدعوة إلى الفرعونية كانت تقوم على أساس أن مصر ليست عربية ولا إسلامية وهي تحمل الدعوة إلى إحياء الآثار الفرعونية والقيم الفرعونية وبمعنى الأدب المصري القديم على أساس تمجيد مصر الفرعونية والفراعين العظام والآلهة الخالدين والتبرؤ من العرب والحضارة الإسلامية والقول بأن لمصر كياناً إنسانياً وحضارياً خاصاً وأنها لا تمت إلى بقية الأقطار العربية إلا بصلات وأمية وأهمها الدين واللغة ، وكان الاستعمار يفند هذه الحركة ويشجعها ويهد لها بالعون الأدبي وسواه ليقضى على

مفهوم وحدة التاريخ الإسلامى الجامع وليعزل مصر عن الوطن العربى والعالم الإسلامى ، ولكن سرعان ما تبين عجز هذه الدعوة عن الاستمرار لأنها لا تملك من التراث الفرعونى ما يمكنها من توطيد قاعدتها للعمل ، وكان رد الفعل قوياً فى بروز الاتجاه الإسلامى الصحيح الذى يربط بين قيم الفكر الإسلامى وبين اللغة العربية ، وكانت الدعوة الفرعونية فاشلة لم يستطع دعاؤها أن يقتنعوا بها الناس . وما زالت هذه الدعوة ضد التيار على النحو الذى كتب به سلامة موسى وتلميذه نجيب محفوظ ولويس عوض . وقد دعا سلامة موسى إلى تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية ، وتبنى هذه الدعوة عبد العزيز فهمى ولكنها باءت بالفشل . كذلك فقد فشلت الدعوة إلى القول بأن مصر جزء من الشخصية الأوروبية على النحو الذى دعا إليه قاسم أمين وطه حسين وتبين أن مصر عربية إسلامية وأن هذه المحاولات إنما ترمى إلى الحيلولة دون وصول مصر إلى المفهوم الأصيل . ونحن نعرف لماذا ركز التغريب والغزو الثقافى على الدعوة إلى الفرعونية فى مصر حيث لم يكن الغرض هو إعادة حضارة تعجرت بقدر ما كان لإخراجاً للمسلمين والعرب من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن هناك تقارباً واضحاً وتداخلاً صريحاً بين الوثنية اليونانية والفرعونية والمسيحية فى العديد من النصوص ، وليست كلمة الفرعونية فى المفهوم التاريخى الصحيح إلا فلك النوع من الحكومات الاستبدادية الجائرة والأنظمة العبودية الظالمة التى عرفتها هذه المنطقة قبل الإسلام ، سواء أكانت فارسية أو رومانية أو هندية أو فرعونية ، هذه العبودية التى قضى عليها الإسلام فيما قطع من استمرارية التاريخ فى العالم الإسلامى . ونتيجة لذلك فإن هذه الدعوات الفرعونية والفنيقية والبابلية والأشورية وغيرها لم تستطع الحياة وسرعان ما سقطت لأنها ارتبطت بالظلم البشرى وبالوثنية .

كذلك فقد تسكف زيف الدعوة إلى الفرعونية التى تحاول أن تقول إن المصريين جميعاً أقباط وإن العرب غزاة وأن القومية المصرية تتطلب لغة مصرية منفصلة عن اللغة العربية وأدباً محلياً . ولقد ظل دعاة التغريب يفتنون النظرية الفرعونية ويوجهونها اتجاهاً منحرفاً للقضاء على الروابط العربية والإسلامية ، السياسية والاجتماعية ، ثم تبين من بعد أن الفراعنة الذين قدموا إلى مصر لم يكونوا إلا موجة من موجات الجزيرة العربية كما تبين أن اللغة العربية أصل للعربية القديمة المهدوليفية ، ولم تكن الفرعونية مفهوماً من مفاهيم التوحيد على النحو الذى يدعيه البعض ولكنها كانت تقوم على نظام الطبقات وسيطرة الأكلهوس من الكهنة فى المعابد فضلاً عن الخمر والخزير وتواييت الموتى والعلامات والرموز بل إن الفرعونية كانت تقوم على ثلاث إيزيس وأوزوريس وحورس ، أما توحيد اخناتون فلم يكن إلا نوعاً من الشرك وعبادة الشمس حيث تقول الأناشيد الوثنية (إشرافك جميل فى الأفق يا إله الشمس الحية . أنت واحد ولكنك تشرق فى أشكالك كشمس مضيئة) . وقد مات اخناتون من نهم الطعام . كان اخناتون معتقداً بألوهية الشمس فقد وحد الآلهة فى إله واحد هو عبادة الشمس ، ولم تكن آداب الفرعونية إلا آداب الغل والنفاق حيث يقول بتاح حطب (احن ظهرك لمن هو أعلى منك) وهى أخلاق العبودية والدالة التى حرر الإسلام البشرية منها . كذلك عرفت مصر الفرعونية قساسة الحيوانات وعبادة المعجول والكباش والأوز والعجل أبس . وعرفت تأليه فرعون حياً وميتاً ،

فقد فرض هورس نفسه إلهاً لوادي النيل وفرض عبادة نفسه على جميع المصريين ، ولما جاءت المسيحية ولأنها لا تشتمل على نظام اجتماعي فقد اضطرت أن تأخذ نظاماً لها من الوثنية الفرعونية وطقوسها وتقاليدها التي كانت في الأصل مستوردة من اليونان ، ومن هنا بدت روح الوثنية تربط بين الفرعونية والمسيحية . وبالجملة فقد كانت الفرعونية هي عبادة الفرد وعبادة الفرعون وعبادة الشمس . ولا ريب أن ما وقعت فيه الفرعونية كان خروجاً على الحنيفية الإبراهيمية التي عرفتها مصر إيماناً بالإله الواحد ، غير أن هذه العقيدة ما لبثت أن انحرفت إلى التجسد في الإنسان والحيوان والجماد فقدسوا النيل واتخذوا من السماء والشمس والكواكب آلهة حين ألها قوى الطبيعة ، وقد أخذوا من الديانة الهندوكية التثليث ففي طيبة : آمون وجوت وسخت . وفي منف : فتاح وسخت وأموزيس . وفي أمنندوس : أوزيريس وإيريس وحورس . وإلى أسطورة الثالث المقدس ترد كثير من المعتقدات المصرية القديمة .

الفصل الخامس

شبهات في التاريخ الإسلامي الحديث

ردد الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي عشرات من الشبهات والأخطاء في مجال التاريخ الإسلامي والتاريخ الحديث (عربياً وإقليمياً) يراد بها تدمير مفهوم وحدة التاريخ الإسلامي والغرض من قدرته وانتقاص بطولاته القوية التي كانت كالمشاهل المضيئة في مسيرة المسلمين :

(أولاً) من هذه الدعاوى الباطلة : الدولة الشيوقراطية ، وهي محاولة وصف الحكومة الإسلامية بأنها حكومة دينية شبيهة بما حدث في المجتمع الغربي ، ومن الحقائق الواضحة الأكيدة إن الإسلام لم يقم الدولة الشيوقراطية على المفهوم الذي عرفه البابوات في حكوماتهم ، ذلك أن الدولة في المفهوم الإسلامي تجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون في الحقوق والواجبات وبشكل الحق في ارتقاء أعلى المناصب ما عدا منصب الرئيس ، وحرية العبادة في الدولة الإسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادئ الاجتماعية في الدستور الأساسي توافق جميع الديانات وإن أعطت تشجيعاً لنمو العقيدة الإسلامية دونما تمييز المسلمين عن سواهم بمنافع خاصة ومفهوم الدولة الشيوقراطية (أي الدولة الدينية) لا يقوم في العالم الإسلامي قط . ذلك أن الإسلام ليس دين عبادة بمعنى اللاهوت ولكنه أسلوب صالح للحياة العسكرية تسوده الأصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظهر . والدولة الشيوقراطية التي تولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه في الغرب لم توجد في تاريخ الإسلام ولا توجد في شريعته السمحاء ، حيث لا تقر وجود ما يسمى رجل الدين ، فالمعلمانية والشيوقراطية لا وجود لها في الإسلام حيث يتساوى في الدولة الإسلامية المواطنون أمام القانون في الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء ، ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية

السواء ، ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية بالدولة الشيوقراطية ليس صحيحاً على إطلاقه حيث لا توجد في الإسلام سلطة للكهنة ، ولم تكن يوماً أداة من أدوات الاستبداد على نمط الحكومات الشيوقراطية التي عرفت في أوروبا ، وليس في التوحيد بين السلطين الدينية والديوية في الإسلام ما يؤدي إلى شيء من التضارب . فليس الإسلام حقائق روحية خالصة وإنما هي حقائق روحية ونفسية واجتماعية .

(ثانياً) محاولة إطلاق كلمة العصور الوسطى على العصر الإسلامي الواهر ، حيث كانت أوروبا تعيش في ظلمات هذه الفترة ، والمعروف أن كلمة العصور الوسطى على إطلاقها تعني الفترة ما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر الميلادي ، وهي الفترة التي سقطت فيها الحضارة الرومانية خلال عشرة قرون كاملة إلى أن بدأت حركة النهضة الأوروبية (الرينيسانس) وتحاول كتب الغرب أن تصف هذه الفترة بالعصور المظلمة ، وهذا المفهوم صحيح وصادق بالنسبة لأوروبا ولكنه كاذب ومضلل بالنسبة للعالم كله والفكر البشري عامة ، ذلك أنه خلال هذه الفترة ظهر الإسلام في القرن السادس الميلادي وأشرقت شمسها فعمت العالم كله وامتدت من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا وقدمت للإنسانية قيم التوحيد والعدل والإخاء كمقومات الحضارة الإنسانية كانت بعيدة المدى والآثر في الحضارة البشرية وفي النهضة التي بزغت في أوروبا بعد ذلك ، لذلك فإن إطلاق القول بأنها فترة ظلام دامس هو قول باطل ، وهي محاولة لتجاهل العصر الإسلامي الواهر وذلك وفق اتجاه الفكر الغربي الذي يحاول أن يربط بين الحضارة الرومانية المنهارة وبين الحضارة الأوروبية الجديدة كأنما ليس في العالم إلا أوروبا وحدها . ولذلك فإن إطلاق كلمة العصور الوسطى على العالم كله وعلى عالم الإسلام إنما هو إطلاق ظالم ، فالعصور الوسطى المظلمة إنما كانت كذلك بالنسبة للغرب وحده واسكنها كانت مضيئة مشرقة بالنسبة للعالم الإسلامي (الهند وفرنسا والأمة العربية والأندلس)

وقمببر العصور الوسطى تعبير غربي ينطبق على أوروبا وحدها ، فقد سقطت هذه القارة في الظلمات فترة ما بين سقوط الحضارة الرومانية وعصر الرينيسانس (النهضة) أما في العالم الإسلامي فإن هذه الفترة بالذات كانت الفترة الذهبية بالنسبة للإسلام وحضارته . فإذا أراد دعاة التغريب تعميم هذا المفهوم فإنما يراد به إنكار فضل الحضارة الإسلامية على العالم . (ثالثاً) كذلك حاول التغريب والفكر الاستعماري أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بأنها (عصر الانحطاط) وهو تعبير قاس ظالم ، وكان يمكن أن يطلق عليه عصر الضعف والتخلف ، ولقد تجرأ الضعفاء بالتخاذ هذه المرحلة أسلوباً لمحاربة الإسلام به ، أو اتخاذه سنداً لرمي الإنسان وفكره بالعصور والتخلف خاصة فيما يتعلق بظاهرة (الجبرية) التي سادت مفهوم الفكر وأثرت على مفاهيم الحياة والإرادة الإنسانية . ومن الحق أن يقال أن هذه المرحلة لها وجوه ضعفها ولها وجوه قوتها ، أما وجوه الضعف فهي تأثر الفكر الإسلامي بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية ، التي حملت مفاهيم معقدة مضطربة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المذاهب التي لا تتفق مع جوهر التوحيد . والمفروض أن يحاكم الإسلام وفكره وتاريخه إلى أصوله الأولى وإلى اتباع أعلامه الرواد ولا يحاكم إلى إنتاج فترة الضعف والجهل التي

توقف فيها الإبداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد . فالفكر الإسلامى فى جوهره الأصلى ما زال مضميناً إيجابياً مؤثراً معطياً الأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية . أما وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية (التجميع) التى قام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة الموسوعات الأدبية والفنية والشرعية والأخلاقية التى جمعت الآثار المختلفة الموزعة ، وهى عملية رد فعل لما حدث نتيجة الغزو الصليبي والتتري ، من حرق وتدمير آثار الفكر الإسلامى ، فقد عمد العلماء والأدباء إلى عملية التجميع كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الإسلامى وهو عمل نافع إيجابى يدل على القوة لا على الضعف وإن وجهه إليه النقد بأنه لم يحرر من وجهة التفسير الفنى أو التحقيق العلمى ولكن التقدير المنصف لاختار هذه الفترة وظروفها من شأنه أن ينصف العاملين فى هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على إطلاقه .

(رابعاً) حاولت الدعوات الإفليمية أن تفرح لها وجوداً أصيلاً كالفينيقية فى الشام والفرعونية فى مصر ، وهى محاولة لإثارة التاريخ القديم السابق للإسلام فى سبيل القضاء على الواقع التاريخى الإسلامى الحى ، وإثارة دعوة الإفليمية والعنصرية على أساس من أصول الأمم الشرقية القديمة قبل أن يصرها الإسلام فى بوتقتها ، وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية لرد اللبنانيين عن العروبة وللقول بأن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل الإسلام وجرت المحاولة على اعتبار أن الفينيقيين ليسوا عرباً وأنهم أبناء الإمارات الصليبية وحاول الاستعمار أن يدهوم إلى إقامة كيان خاص غير عربى مرتبط بالغرب ، ولكن الحقائق التاريخية لم تلبث أن تكشف من أن الفينيقية هى واحدة من البطون الفرعونية والآشورية والبربرية العربية التى هاجرت من الجزيرة واندمجت فى الأرض العربية شرقاً وغرباً . ولقد حاول النفوذ الاستعمارى أن يهند لهذه الفكرة جماعة الحزب القومى السورى الاجتماعى بالدعوة إلى ما أسماه سوريا الطبيعية والأمة السورية وسوريا السوريين والسوريون أمة تامة ذات حدود طبيعية ، وسوريا الكبرى وقد ردد المستشرقون هذه المعانى محاولين إثارة الشبهات بأن اللبنانيين ليسوا عرباً وأنهم والسوريون فينيقيون من أحفاد الصليبيين الذين قدموا إلى سوريا ولبنان .

وقد تصحح هذا المفهوم من بعد إذ تبين أن الفينيقيين عرب خلفوا قدموا من الجزيرة العربية — ولكن الدعوة ما تزال تعمل فى مجالات سياسية واجتماعية وثقافية — كذلك استعملت فى مصر دعوة الفرعونية بهدف القضاء على الوجود العربى الإسلامى ، واستهدف دعاة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها . وقد فشلت هذه الدعوة فى أن تهدم لها أرضية نبتت منها حيث لم تهدم تراثاً فرعونياً له قيمة دينية أو تاريخية أو اجتماعية أو عملاً مكتوباً . وتبين أن حضارة الفراعنة قد تمجرت فى الأهرامات والنماثيل والمعابد وقد نخطاها الأمن بدعوة التوحيد الإسلامى منذ أربعة عشر قرناً . (خامساً) ومن شبهات الاستشراق والغزو الثقافى محاولة التركيز على الحملة الفرنسية واعتبارها منطلقاً للعصر الحديث ، وهى محاولة باطلة زائفة بواقع التاريخ نفسه وتجاول أن توحي بأن العالم الإسلامى لم يهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأن العرب لم يهضوا إلا بعد أن

غزاهم الغرب في هقر دارهم ، والواقع أن العالم الإسلامي والبلاد العربية قد تيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمدة طويلة ، وأن هذه البقعة بدأت في حوالى سنة ١٧٤٠ م على التحديد حين انبثقت صيحة الإمام محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية بدعوة التوحيد وما كان لها من أصداء واسعة في العالم الإسلامي ، وهذا الواقع يسبق وصول الحملة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ويسبق وصول الارشاليات التبشيرية بمائة عام على الأقل ، ومن قبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء في الأزهر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الانسان مستمدة من مفهوم الاسلام حينما أخذت العهد للكتاب على الأمراء المماليك بأن لا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيود . ومعنى هذا أن القول بإعلاء شأن الحملة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستعمرين والمستشرقين التي غمرت السكتب المدرسية بفضل نفوذهم ، ونجمع المراجع الصحيحة على أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الأصلية والأم لا تتجدد من خارجها وإنما تتجدد من مصادر فكرها ومن أحماق روحها . وقد ولدت الحملة الفرنسية في مصر ما ولدته المعاهد التبشيرية في سواحل بيروت والشام ، ولدت حذراً من المدينة التي مثلوها للناس متقاربة مع تقاليدهم وولدت الحذر قلقاً ، وامتد القلق والحذر بتأثير بعض التصرفات السيئة فأصبح تمسباً كرهاً على حد قول الدكتور شكرى فيصل : حيث من المستحيل عقلاً أن تصور أن الشرق العربي كان سيظل نائماً لأن لهذا الشعب تاريخاً في الحضارة وقدماً في التمدن وجذوراً عريقة ولقد نهضت الشعوب التي هي أقل عراقة منه كالصين والهند واليابان . وعنده أنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربي أن ينهض نهضة حقيقية والشرق له تقبل ذاتي للحضارة ليس مفروضاً عليه من الخارج (سادساً) كانت الخلافة الاسلامية مدفاً من أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية في أشد مراحل الضعف وهي ترمى من الدول الأوروبية بالمواسرات من أجل تزييقها والقضاء على ما أطلق عليه (دولة الرجل المريض) استطاع أن يحمل لواء الوحدة الاسلامية وجمع المسلمين من خارج الدولة العثمانية لإقافة حاجز ضخم في وجه الوحف الاستعماري الغربي ، وقد نهجت دعوته نجاحاً قوياً أكد وحدة المسلمين الفكرية والاجتماعية والسياسية وكادت أن تفسد مخطط الاستعمار المندفع إلى السيطرة ، ويواجه الصهيونية العالمية الراحفة للسيطرة على فلسطين . ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التي ساقتها هذه القوى على السلطان عبد الحميد ورميه باتهامات متعددة أقلها الاستبداد . وقد جرى الباحثون وراء ذلك دون تبين حقيقة ما صاغه النفوذ الاستعماري من صور وهمة مستهدفاً القضاء على السلطان عبد الحميد عن طريق الجمعيات السرية الماسونية التي سيطرت في سالونيك على جمعية الاتحاد والترقي وساقتها إلى أهدافها بعد إسقاط عبد الحميد من حيث حققت أهدافها في تخليها عن طرابلس الغرب وسقوطها في برائن لإيطاليا . ومن حيث تسليم فلسطين لليهود والامحاح لهم بالإقامة فيها . ومن حيث دخول الحرب العالمية الأولى في صف ألمانيا وإيقاع الخصومة بين العرب والترك وما جرى من اقتتال العرب والترك المسلمين لحساب الدول الغربية التي سيطرت على الشام (سوريا ولبنان) وفلسطين ثم تسليم فلسطين للصهيونية العالمية ، ثم كانت الخطوة الثانية في سبيل إسقاط الخلافة (علامة الدعوة الاسلامية ودعامتها) وذلك عندما سيطر مصطفى كمال أتاتورك على تركيا وتابع بصورة أشد قوة وهنفاً مخططات الاتحاديين والماسونية العالمية .

وكانت خطوته النهائية هي إسقاط الخلافة عام ١٩١٤ ، بما فك عروة الوحدة بين المسلمين وأسلمهم
لنفوذ الاستعماري ثم وقوف بريطانيا في وجه أي دعوة للخلافة ووقوف الغرب كله أمام أي دعوة
للجامعة الإسلامية . وقد دعى أحد الماسون من علماء الأزهر إلى وضع كتاب مسخ فيه مفهوم الخلافة
وأخرج نظام الحكم في الإسلام كلية من مفهوم الإسلام وحاول أن يعان زيفاً كبيراً مفترى هو أن
الإسلام دين عبادة جرباً وراء مفاهيم الاستعمار والمساوئية وأعداء الإسلام بإنكار فهم الإسلام في
بناء المجتمع .

(صابغاً) وتتردد على السنة الكتاب كلمة الاحتلال التركي ، وتوصف البلاد العربية بأنها وقعت
تحت سيطرة الاستعمار التركي والاستعمار الغربي وإيراد العبارات على هذا النحو يقصد به تصوير العلاقة
التي كانت بين العرب والأترك على أنها علاقة استعمار أو احتلال ، وهذا مناقض للتاريخ والواقع معاً .
فالرابطة التي قامت منذ ١٥١٧ م حتى ١٩١٧ م بين العرب والترك داخل نطاق الدولة العثمانية لم تكن
في الحقيقة احتلالاً ولا شبيهه وإنما كانت محاولة من محاولات الوحدة والاتقاء بين أقطار العالم
الإسلامي في مواجهة الأخطار والتحديات . وقد جاءت هذه الوحدة على أثر ضعف قوى السلاجقة
والمماليك من بعدهم وتعرض البلاد العربية وخاصة مصر والشام لأخطار الغزو الصليبي الغربي مجده ،
وتلك التحركات التي بدأها الأوربيون مرة أخرى لاستئناف الحروب الصليبية . والمعروف أن العرب
قد تطلعوا إلى الوحدة الإسلامية العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك في مصر وأصبحوا هدفاً
لمحاولات صليبية جديدة . وقد وجدوا في العثمانيين إخوتهم في العقيدة منتعشاً جديداً للإسلام وقوة
شابة يدوية مقاتلة ، وفهم راية الإسلام عالية خفاقة وأعادت ذكرى الأبطال في سبيل إعزاز الإسلام
ولفره ، كآر حب العرب في مصر والشام بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن تقموا على دولة المماليك
لإهمالها شأنهم في المرحلة الأخيرة لخاربوا في صفوف العثمانيين .

والواقع أنه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الإسلامي
هو مظهر الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الإسلامية ،
ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الأولى يتمثل مفهوم الإسلام في نطاق الحكم
وتحركوا في إطاره ، ويشهد المؤرخون المنصفون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء الأوائل في العدل
والقسامح ، وتمثلوا أعمالهم واتخذهم قدوة وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء الأتقياء وإنشاء
الجمام والمدارس . ومن هنا فإن القول بأن الرابطة بين العرب والترك كانت استعماراً إنما هو من
النظريات المشبوهة والعبارات المدخولة التي يحاول الغزو الفكري والتبشير والتغريب إذاعتها وإقرارها
في الأذهان . أما ما كان من الخلاف بين الترك والعرب بعد قنحي السلطان عبد الحميد وفي ظل حكم
الاتحاديين دعاة الطورانية فذلك هو الخلاف الحقيقي الذي يمويه عليه خصوم الإسلام والعرب ويصفوه
بأنه خلاف بين الترك والعرب وهو في الحقيقة خلاف بين الاتحاديين أتباع المساوئية وأعداء الصهيونية
وبين العرب الذين تصدوا للرعاة في هذه الفترة .

(ثامناً) وهناك خطأ شائع وذائع : هو أن الدولة العثمانية هي التي أساءت إلى العرب وعلمت زعمائهم على المشائقي وأوجدت الفرقة والخلاف ، وكانت سبباً فيما ترتب على ذلك من سيطرة فرنسا وانجلترا على الشام بأجزائه الأربع (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) وكذلك العراق ، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وبعد أن اتفق العرب مع بريطانيا على إقامة دولة عربية نظير تأييدهم لها .

والحق أن الدولة العثمانية كلفة مهمة عامة . والحقيقة أن (حزب تركيا الفتاة) المسمى بجماعة الاتحاد والترقي والذي تولى السلطة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٨ هو الذي دمر العلاقات بين العرب والترك بدعوته إلى الطورانية ومحاويله لتريك العرب والقضاء على لغتهم وتعليق زعمائهم على المشائقي عام ١٩١٦ . والاتحاديون جماعة سرية كانت تحاول النهضة بالدولة العثمانية عن طريق الوطنية والتخلص من الرابطة الإسلامية ، وقد وقعت في برائن الماسونية فأنخرفت إلى العدل لحساب الصهيونية العالمية واستهدفت قطع تركيا عن العرب وإسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وتمعد المدة لتزريق الدولة وتسليم الأجزاء العربية وغير العربية إلى الدول الأوروبية على النحو الذي قامت به فعلاً .

أما السلطان عبد الحميد فقد كان يدعو إلى توسيع جبهة المقاومة ضد النفوذ الأجنبي ، وذلك بربط مسلمي آسيا وأفريقيا بالدولة العثمانية ، وكان موقفه من العرب مشرفاً ، وكانت إجابته في مواجهة تحديات الصهيونية لدخول فلسطين من أشرف ما قاله رؤساء الدول وزعماء الأمم عندما رفض رفضاً باتاً إغراء مرتزك بالملايين من الذهب وقال : نقطع يدي ولا أفرط في فلسطين ، إن فلسطين ليست ملكاً لبلادي ولكنها ملك للعرب .

ولكن أمثال ساطع الحمصري وجورجي زيدان وغيرهم من الباحثين المتأثرين بأغراض خاصة يطوون هذه الصفحة ويهونونها على النحو الذي لا تتكشف معه تلك الفوارق العميقة بين عهد السلطان عبد الحميد وعهد الاتحاديين ، وهم لا يميزون بين موقف السلطان عبد الحميد الذي دفع حياته وعرشه ثمناً في سبيل فلسطين وبين موقف الاتحاديين الذين سلموا طرابلس للعدو وأدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى انهزم ويفتخر عقدها .

الباب الرابع

تفسير التاريخ الاسلامى

(أولاً) تفسير ماركسى غربى صهيونى (ثانياً) التفسير الغربى المسيحى (ثالثاً) التفسير اليهودى (رابعاً) التفسير الماركسى (خامساً) التفسير الإسلامى للتاريخ (سادساً) فى مواجهة التحديات.

الفصل الأول

تفسير غربى ماركسى يهودى

حاول الفكر الغربى عن طريق الاستشراق الغربى والماركسى والصهيونى إخضاع التاريخ الإسلامى لعدد من مناهج تفسير التاريخ الغربى التى تراوحت بين : (أولاً) تفسير غربى مسيحى للتاريخ (ثانياً) تفسير غربى مثالى للتاريخ (ثالثاً) تفسير غربى مادى للتاريخ (رابعاً) تفسير يهودى صهيونى للتاريخ. كذلك فقد حاولت مؤسسات التبشير والاستشراق أن تفرض وجهة دينية ووجهة قومية ووجهة عالمية للتاريخ الإسلامى ، وحاول (ويلز) أن يعرض لتاريخ الإسلام من وجهة نظر بشرية ، وحاول (ول ديورانت) أن يعرض له من منطلق ماسونى يستهدف القضاء على الأديان والقوميات ، وحاول (توينبى) تفسيره فى ظل مفهومه للحضارة المسيحية الغربية . وجرت المحاولات بدراسة التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ العرب (كما فعل فلييب حتى) أو تاريخ الدول الإسلامية أو تاريخ الدولة العربية أو تاريخ الفتوح والحروب . والواقع أن تاريخ الإسلام هو تاريخ الأمة الإسلامية كلها التى صنعها القرآن وأقامها التوحيد وليس تاريخ الدولة السيامى ، أو تاريخ العرب أو تاريخ إقليم معين أو عصر معين ، مع عدم الخلط بين الإسلام كقرآن وسنة وبين تطبيق الإسلام أو اجتهادات البشر فى تطبيق الإسلام ، ومع مراعاة أن السلوك السيامى لقادة المسلمين وأمرائهم وحكامهم هو شئ آخر غير أصول الإسلام ، وحياة المسلمين هى ممارسات لمبادئ الإسلام وليست هى المبادئ نفسها ، وليس تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب ولا يمكن أن يوصف بأنه تاريخ عربى ، فإن العرب جزء أساسى من تاريخ الإسلام ولكن الصورة لا تتكامل إلا بدراسة المجتمع الإسلامى كله ، فارس وتوكيا والأندلس وجزر الملايو وغيرها ، وأن صورة التاريخ الإسلامى الصحيح لا تكون صحيحة إلا بتكامل هذه الأجزاء التى هى من دعائم الأمة الإسلامية .

(٢) إن تفسير التاريخ الإسلامى عن طريق مناهج التفسير الغربى عجز عن النظرة الصحيحة لحركات ووقائع التاريخ الإسلامى ، فقد قام الكتاب الغربيون الوقائع الإسلامية على ظروف

الامبراطورية الرومانية وغيرها مع اختلاف الظروف والمقاييس ، كذلك فقد كانت نظرة الغربيين إلى تاريخ الاسلام ناقصة وقاصرة لأنها صدرت عن ذلك الاعتبار الخاطئ . بأن تاريخ الغرب هو تاريخ البشرية وأن ما عدا ذلك ليس تاريخاً ولا يدخل لا في المقاييس ولا في الصورة العامة . وأشد أنواع الخطأ فكرة « الحتمية التاريخية والاجبرية الاجتماعية » التي يجرى تطبيقها على التاريخ الأوروبي . وأشد ما عجزت عنه تفسيرات عنه تفسيرات الغربيين للإسلام عجزهم عن فهم ذلك الجانب المعنوي الروحي : الوحي والنبوة والرسالة السماوية وما يتصل بها من بناء القوة القادرة بإيمانها على هزيمة القوة المادية التي هي أكبر منها عدة وعدداً .

(٣) إن موقف دراسات المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامي تحمل عاملين خطيرين :

(١) العجز عن فهم أبعاد المعنويات (٢) روح الحوى والتمصّب والحقد .

ومن ذلك موقفهم من الحركات الهدامة التي حمل لوائها جماعة من الشعوبية والملاحدة والمجوسية والمارذكية والباطنية والقرامطة الذين تأمروا بتنظيم حركات سرية لاقتلاع الدولة الإسلامية وإسقاطها تحت لسمين خادعين هما : الموالي ، و د أهل البيت ، إن النظرة الصحيحة المنصفة تكشف عن أن هذه الحركات كانت ذات هدف واضح هو ضرب الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية ومحاولة فرض تعاليم المجوسية والوثنية والاسرائيليات ، وقد ظهرت هذه الحركة بعد ترجمة الفلسفات الماينية واليونانية ، ولا ريب أن في الجمرى وراء هذه المحاولات من شأنه أن ينسكرك الدور الخطير الذي قامت به الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية من داخلها في مجال الحضارة والعلم والتقدم ، وهي محاولة لطمع التاريخ الإسلامي كجزء من طمع العقيدة الإسلامية . وإن الزاومة في حقيقتها بدأت من الجماعة التي أحسست أن نفوذها قد أزيل وسلطانها قد سقط ، ولم تكن هذه الحركات صادقة أو بئس كمن أن توصف بأنها معارضة عظيمة واسكنها كانت محاولات هدم وتدمير ، ولقد أثبت الذين قاموا بهذه الحركات فشلهم وزيفهم لأنهم حين سيطروا على الحكم لم يتمكنوا من تنفيذ المثل العليا التي خدعوا بها الناس ولم يستطيعوا أن يقدموا منها شيئاً صالحاً وإنما كشفوا عن أحقادهم الشخصية وفشامهم الذريع ، وتبين أن الدعاة اللامعين كانت لهم صلات مريبة مع خصوم الدولة .

(٤) هناك مجموعة من الأخطاء تكشف عنها المعالجة الغربية لتاريخ الإسلام منها أن علماء الغرب فرضوا التقسيم الغربي للصور التاريخية على تاريخ العالم وتعميم مقايستهم فيها ، فالعصور الوسطى مثلاً هي عصور الظلام في رأيهم ما دامت أوربا كانت في الظلام متجاهلين الحضارة العربية الإسلامية التي كانت متألفة في تلك العصور . وتاريخ أفريقيا السوداء يبدأ عندهم حينما دخلها الرحالة الأوروبيون . أما قبل ذلك فليس لها تاريخ ، وتتمدد هذه النظرة إلى الفكر العالمي فهو عندهم الفكر الغربي . وحينما يؤلف أحدهم كتاباً بعنوان (تكوين العقل الحديث) لا يتعرض حتى بسطر واحد لفكر العربي في العصر الوسيط أو الفكر الهندي والصيني وفكر بقية الشعوب . وقد تجسدت هذه النظرة في نظريات

ولدت في الغرب في أوائل القرن ١٩ وسيطرت في أوائل القرن العشرين فقصت هذه النظريات شوب العالم إلى فئات : دماء بعضها نقية زرقاء ودماء بعضها الآخر ملوثة سوداء وإلى أجناس عليا وأجناس دنيا ، وذهب الغربيون إلى أبعد من ذلك حين قالوا بأن أسباب تخلف الأمم مصدره وجود خصائص أصيلة في عقلية هذه الأمم تمنع تقدمها ومن ذلك نظرية دجيب ، من الذرية في التفكير وادعائه أنها إحدى خصائص الفكر العربي والعقلية العربية ثم تلتقي هذه النظرية الباطلة مع نظرية اليهودية التي ترى في اليهود شعب الله المختار وقد صدق المؤرخ توينبي حين أعلن أن التاريخ الغربي يفرض سلطانه على العالم ، يقول : إذا ما أردنا نحن الأوروبيين أن نسأل أ كثرية سكان الأرض وهي - لاغرية - عن رأيها في الغرب فالجواب الذي سنسمعه هو أن الغرب كان الممتدئ الأئيم في التاريخ الحديث كما أن شعوب آسيا وإفريقيا ستذكرونا بتغلغل المبشرين والتجار والجنود الغربيين في ديارهم وكيف استرقوهم وشحنوهم عبر الأطلنطي للاحتجار بهم ليعملوا أخداما وعمالا لدى المستعمرين الأوروبيين الجشعين الذين يبحثون عن الثروة..

(٥) شهد الكتاب الغربيون بروح الانصاف التي تجلعت في كتابات مؤرخي الإسلام ومفكره للأمم الأخرى وخاصة لا ديانها كما شهدوا بعدم انصاف المؤرخين الغربيين في تناول الإسلام وفكره . يقول هاملتون جب : إن المؤرخ الغربي لم يكن في الأعم الأغلب منصفاً للإسلام والمسلمين فقد أسلم بالرغم من دهور المنهج العلمي لمواظفه وأهوائه وكتب عن الإسلام والمسلمين من زاوية خلافه وتعبه ولم يستطع إحكام النظرة المنصفة وإنما وضع أمامه صورة مشوهة تكونت من خلال الخصومات السياسية والدينية تحاول أن تصور الإسلام بصورة القوة التي زحفت على أرض الامبراطورية الرومانية فانتزعتها منها بعد ألف سنة من سيطرتها عليها وكان المؤرخون الغربيون يضعون دائماً أمامهم خصومتين : خصومة الحروب الصليبية التي اقتحموا خلالها بلاد الإسلام وعادوا مزومين بعد قرنين من الزمان وخصومة العثمانيين الذين هبوا إلى أوروبا فانتزعوها أجزاء كثيرة منها ووصلوا إلى أسوار فيينا ولايفسون دخول المسلمين إلى الاندلس وهزمهم في دولة بلاط الشهداء . وهكذا يشهد رجال من الغرب بانحراف المؤرخين الغربيين في مواقع اللقاء بين الإسلام والغرب : معركة بواتيه والحروب الصليبية والاستعمار الحديث وقد اعترف بعض المؤرخين الغربيين بأن انتصار كارل مارتل على المسلمين آخر تقدم المدنية في الغرب ثمانية قرون وهو الذي أوقع أوروبا في ظلمات القرون الوسطى ، كذلك حاول المؤرخون الغربيون اتهام المسلمين بحرق مكتبة الاسكندرية حتى براهم دجيون ، واثبت أن الذي حرقها هم الرومان بمراكبهم الحربية في حصارهم للجيش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر .

(٦) عجز المؤرخون الغربيون عن تفسير سرعة انتشار الإسلام فآزال السؤال لماذا انتشرت الجيوش الإسلامية القليلة العدد على الجيوش الضخمة الفارسية والرومانية موضع دهشة المؤرخين الغربيين الذين يقيسون هذه الأمور بالمعيار المادي ، يقول أوبري : لقد حاول المؤرخون الحديثون تحليل هذه الانتصارات الواضحة والفتوحات العظيمة بردها إلى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن

تلك التفسيرات غالت حاجة عن التعليل الصحيح فكان لا بد من الرجوع إلى العامل المؤثر : الفعّال وهو الدين الجديد . إن بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الإسلام التي جاءت في هذا الكتاب هي المفتاح لحل اعظم (مسد) في تاريخ الأديان ذلك أن الإسلام جاء يدعو إلى حياة منظمة جادة ، حياة جماعية ، فقد طمّئوا الله أن يخضعوا لإرادته في كل أمر وأن يجاهدوا في حل كافة البشّر على الإقرار بقدرته ويقول م. روى : إن انتشار الإسلام أكبر خرقاً للعادة : إن امبراطورية أغسطس الرومية بعد ماوسمها بطلها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الإسلامية التي أسست في أقل من قرن . إن امبراطورية الاسكندر لم تكن في أنساعها إلا كمرأ من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، إن الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غابت وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات . .

الفصل الثالث

التفسير الغربي للمسيحي

يصدر التفسير الغربي للمسيحي للتاريخ عن طبيعة تكوين الفكر الغربي للمسيحي للتاريخ والحياة ، ومن هنا يجيء نقضه وقصوره في ذاته وانحرافه في تفسير التاريخ الاسلامي ، فالمسيحية تقدم التاريخ على شكل مأساة ، أول فصولها يتألف من سقوط الدم ومن استقرار الخطيئة في البشر ، ونسبة هذا الانحراف وسقوطه إلى الإله ، ثم ادعائهم ظهور الإله في التاريخ ومن خلال تأليه المسيح بدعوى فخران الخطيئة ، فالتصور المسيحي للتاريخ يقوم على أساس ما يسمى بالخلاص الروحي وحده ، وفي ضوء هذا المعنى خلطوا بين الألوهية والنبوة ، أو بين الألوهية والبشرية . وهذا المفهوم الذي يختلف عن مفهوم الاسلام القائم على التوجيه الحائض وعلى الفصل بين الألوهية والنبوة وعلى أنه لا توجد خطيئة تجعل من أي إنسان مسئولاً عن إنسان آخر ولا يعاقب بذنبه أو جريته فضلاً عن أن الاسلام كشف عن أن آدم أخطأ وأن الله تبارك وتعالى ألهمه أسلوب المغفرة ففقر له فليس لخطيئة آدم أي تبعه على واحد من البشر من بعده ، وإن الإنسان محاسب على عمله وحده وأنه لا تورث وأزره أخرى ، فهذا الاختلاف الواسع العميق بين مفهوم الاسلام للبشرية ومفهوم المسيحية للتاريخ لا يصلح للتطبيق على الاسلام وتاريخه ومجتمعه . ومن اضطراب المفهوم الغربي للمسيحي وللحياة والمجتمعات والحضارات اختلفت تفسيرات التاريخ بين المثالية والمادية ، وجمادت نظرات المؤرخين متضاربة: نظرة هيكل سياسية ونظرة ماركس اقتصادية ونظرة توينبي روحية ونظرة بيكل نظرة مناخ وقد ظهر في آنق الفكر الغربي تفسيرات متعددة فنظرة القديس أوغسطين إلى التاريخ أنه تاريخ كنسي يقوم على نظرة الآباء المسيحيين إلى العالم ، وبعد تفسير بلوتارك وكارليل تفديراً للباطولة في كفة صورها أما فيشر فقد كتب تاريخ أوروبا بروح يتو تونية ونظرة امبراطورية كانت تسيطر على الفكر البريطاني في زمنه .

وإذا راجعنا تفسيرات القديس أوغسطين ومن بعده البابا جريجور السابع (بعده بسبعة قرون) نجدما يحتقران الدولة والسلطة أشد الاحتقار ويعلمون عليها المملكة الأخرى : مملكة الله أو مدينته ، ثم تحول مفهوم التاريخ من بعد إلى نظرة عقلية حارات أن تصور التاريخ على أنه علم تجريبي ، وتعمل على إخضاع للتاريخ لقوانين عامة . وكان أبرز مفاهيم التفسير الغربي للتاريخ الاهتمام بالفاحية الفردية وإهمالهم الدور الذي تقوم به الشعوب في تطور الأحداث مع تمصهم للبيئة الحامية والطائفية والحزبية وإسرافهم في العناية بالنواحي السياسية دون نواحي الحياة الأخرى وترتب على ذلك تسخير التاريخ لخدمة الأغراض السياسية .

وكان للاستعمار والفساط على الأمم أثره البعيد في استغلال المؤرخين الغربيين مثل قول أحدهم

(هانس روبرت زويمر) : أن القرينة الأوروبية وحدها تمتلك الدفن التاريخي . وقد علت صيحة الأجnas : واستملى الغرييون بالجنس الأبيض ونظروا إلى علاقته بالحضارة القائمة فأنسكروا دور الأجnas وامتيازها في صناعة الحضارات القديمة على مدى التاريخ .

(٢) إن فكرة الاتحاد بين الله والعالم التي فسر بها هيجل التاريخ المسيحي فكرة غير صحيحة بالنسبة لمفهوم التوحيد الذي يقرر انفصال الخالق تبارك وتعالى عن العالم وعدم الحلول فيه ، كما لا يقر الإسلام فكرة الآله البشر أو فكرة حلول الله في الإنسان أو في النبي على النحو الذي تقوم عليه فلسفة التاريخ المسيحي . كذلك فإن مفهوم الإسلام يختلف مع فكرة الإرادة المخططة التي تفرضها النظرية المسيحية على التاريخ والواقع أن الإنسان إرادة قادرة على الفعل والحركة والتعبير وإن كانت حركتها محدودة ، داخل إرادة الله الكبرى ولكن مسؤولية الإنسان قاصرة على حدود إرادته .

يقول البان . ج . ويدجري في كتابه المذاهب الكبرى في التاريخ : إن المسيحية تقدم التاريخ كأنه شكل مأساة ، أول فصولها تتألف من سقوط آدم ومن استمرار الخطيئة أما الفصل الثاني فهو ظهور الله (جل في علاه) في التاريخ من أغراض يسوع المسيح الإنسانية وأن خلاص الإنسان جاء من خلال صلب المسيح ويقول : المنصر الأساسي في النظرة المسيحية هو الاقتناع في ضرورة ظهور الله في التاريخ في شكل إنساني من أجل خلاص البشر بعد أن غدوا فاسدين بخطيئة آدم ، هذه العقيدة في تجسيد الله تكون الفرق من حيث الأساس به ورة حاسمة بين المسيحية والنظريات التوحيدية الأخرى ويقول إن النظرة المسيحية تركيز على أساس الاتحاد بالله وتصل بهذا مفاهيم التجسيد والصلب والتنايك والفداء .

وهذه هي الأسس التي يقوم عليها تفسير التاريخ الغربي ولكنها لا تصلح لتفسير التاريخ الإسلامي الذي يقوم على مفهوم الإسلام الذي يختلف اختلافاً تاماً عن هذه المفاهيم .

(٣) انتقل التفسير الغربي التاريخي من المفهوم المسيحي المثال إلى المفهوم المادي فظهرت محاولات تدعو إلى تطبيق المفهوم العلمي المادي التجريبي على التاريخ ، وظهرت دعوات متعددة لتفسير التاريخ تفسيراً مناخياً جغرافياً ، ثم ظهرت محاولات تفسير التاريخ تفسيراً تقوم على البطولة وفي الناحية الأخرى ظهرت الدعوة إلى تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً ، أو جنسياً . وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تقوم بنفسها مستقلة عن الأخرى وتقوم في مجال التفسير المادي الخالص ودون وجود النظرة الجامعة التي ترى أن هذه العوامل كلها يمكن أن يكون مجتمعة تفسيراً للتاريخ وأن الدين والبطولة وهما من المناخ والاقتصاد كلها عوامل وفروع يمكن أن تقوم مجتمعة بالتاريخ يتأثر بالدين والقومية ويتأثر بالاقتصاد ولكن لا يمكن لواحدة منها أن تكون هي المصدر الوحيد ولا يمكن أن تكون العوامل المادية هي وحدها المسيطرة فإن الممنوبات والأديان والعقائد والمواظب الإنسانية لها أثرها العميق . وأن الدعوة إلى إخضاع التاريخ لقوانين عامة في تفسير أحداثه إنما تتجاهل أن حركة التاريخ تقوم بالإرادة الإنسانية التي تسيطر عليها عوامل روحية ووجدانية مختلفة وأنها في الاستجابة للأحداث تختلف

من موقف إلى موقف . وفي وقت ما كان الموقف كالاتي : (١) تقدم البشرية يعزى إلى العقل البشري
(٢) تقدم البشرية يعزى إلى قادتها من أنبياء وفلاسفة . (٣) تقدم البشرية يعزى إلى العامل
الجغرافي (الأجناس والمجموع) . (٤) تقدم البشرية يعزى إلى النظام الاقتصادي . ويقول
جون هرمان راندال : لقد استبدت أوربا المثل الأعلى على العالم المسيحي الموحد يعمل بإورشاد من سلطة
الكنيسة بمنزل أهل آخر قوامه دولة مستغلة مستقلة مطلقة السيادة ، انتقل المجتمع الأوربي من مدينة الله
إلى المدينة الأرضية ، من الكنيسة مدينة الله إلى المجتمع العلماني وهو المدينة الأرضية . وقد كان مؤرخو
العصور الوسطى الأوربيون لا يعترفون بدور البشر في سير حوادث التاريخ ، ويردون أن اللعبة
الرميية تدور بين الإله والعميطان أو بين الخير والشر ثم تحول هذا المفهوم إلى مفهوم معارض تماماً هو
أن التاريخ هو عمل الإنسان مائة في المائة وكلا المفهومين غير صحيح . ويظهر التفجير الفردي للتاريخ الذي
يجه القادرون ويضخم من دورهم ، ثم جاءت المدونة الواقعية في التاريخ وهي تشرح الأحداث في
هذه جبهة الظواهر الاجتماعية والمادية ثم جاء فرويد فقال إن التاريخ سلسلة أزمات نفوس أفراد
أدت إلى الانقلابات الهائلة . ويدور المؤرخون حول القول بأن البيئة هي القوة المؤثرة في حياة الناس
وبين القول بأن الوراثة هي العامل الوحيد المؤثر والواقع أن الوراثة والبيئة عاملان من جهة عوامل .
وهناك الدعوة إلى التفسير البيولوجي الذي يعتمد على أثر الزمن في الكائنات الحية من حيث النمو
والانحلال والتطور ، وهناك نظرية التحدي والاستجابة لآرنولد توينبي ونظرية وحدة الصور التاريخية
رغم تباعد العصور لتجنجلر ، والواقع أن هذه المذاهب جميعها جزئية مغرقة في الانشطارية وأن
كل واحد منها محجور عجزاً أكيداً على تصوير الإنسان وفهمه وفهم تاريخه وخاصة إذا تناولت
الدراسات من خلال المفهوم المادي وتطبيق منهج العلوم الطبيعية على الإنسان والتصرفات البشرية .

الفصل الثالث

التفسير اليهودي

نعرض التاريخ الإسلامي للتفسير اليهودي الصهيوني وهو تفسير يحاول أن يستهدف الطعن في ارتباط المائمة بين الحنيفية الإبراهيمية والدعوة الإسلامية المحمدية ومحاولة إثارة الشبهات حول هذه العلاقة الممتدة وقطع الترابط بينها وذلك بالتشكيك في إبراهيم وفي إسماعيل وفي قيامهما ببناء السكينة وإنكار الأصل الحقيقي للموجات العربية التي تدافعت خلال القرون المتوالية كالأوجه الفينيقية والآشورية والفرعونية والبربرية والحيلولة دين الربط القائم بين دعوة التوحيد كما جاء بها إبراهيم عليه السلام وبين الدعوة المحمدية الخاتمة وكيف انخرقت على أيدي اليهودية ثم جاءت التفسيرات المسيحية التي أخرجتها عن أصلها وكيف أعادها الإسلام مرة أخرى إلى أصولها الأصلية كذلك فإن التفسير اليهودي يستهدف الإدعاء بأن وعد الله لى إبراهيم قاصر على ابنه إسحق جد اليهود وحده وأنه لا ينسحب على إسماعيل ابنه الأكبر جد العرب والمسلمين ، وهي دعوى باطلة وزائفة . كذلك فإن التفسيرات اليهودية للتاريخ هي التي أنكرت أثر الدعوة الإبراهيمية الحنيفية والدور الذي قامت به في بناء التجمع العربي في مختلف أجزاء ما بين النهرين وفلسطين والشام ومصر وأفريقيا ووسدت به للإسلام . وقد جاءت الأحافير والكشوف الأثرية لتصدق ما جاء به القرآن الكريم في هذا المعنى وتزيف الدعوى الباطلة التي حاولت التفسيرات اليهودية التاويخيه أن تخدع بها الغربيين .

ولقد تبين أن صناعة اليهود هي تحريف الكلام عن موضعه بدافع الحقد على العرب والمسلمين وعلى كل الأمم التي يطلقون عليها د الجويم ، وأنهم هم الحريصون على التركيز على الشكل الدموي والوحشي والعنصري والمستغل للشعوب المغلوبة . وقد كانت وظيفتهم وهدفهم هو القضاء على الطابع الإنساني الذي عرفته البشرية بالاديان السماوية ، وإنكار الدور الذي قامت به الحنيفية الإبراهيمية وما قام به العرب منذ ذلك الوقت إلى مجيء الإسلام . ومن حقدهم نسبوا هذا كله إلى جد سابق فأطلقوا على كل هذه القصة د اللغة السامية والديانة السامية والأمم السامية ، وهي عملية خداع واسعة المدى تستهدف إنكار فضل الإبراهيمية الحنيفية ودور العرب واللغة العربية ، وقد كان العرب أبرز القوى الحضارية في العالم وهم الذين يسمونهم السكنعانيين وينكرون كل فضل لهم ، ومن هنا كانت حملتهم على العرب وتأليب الغرب عليهم وعلى المسلمين باسم القوة الخطرة التي عملت على طرد الرومان وعبرت إلى أوروبا ومحاولتهم المتصلة في تزييت كل مقومات العرب وعلى رأسها الدين كأسلوب مسموم للحيلولة دون وحدة العرب وبروزهم كقوة كبرى في المنطقة ، وهم يهرون على خطة تزييف التاريخ العالم كله على النحو الذي يحاولون

به أن يوجدوا لهم تاريخاً وأثراً حضارياً . ودورهم في السيطرة على مقارنات الأدبان وعلم الأنثروبولوجيا يستهدف هذا التوبيخ . كذلك فإن التفسير اليهودي للتاريخ يعمل على إعلاء شأن الحضارات القديمة والأديان الوثنية السابقة للمسيحية وفي مقدمتها الفلسفة اليونانية الوثنية التي يطلق عليها علم الأصنام .

(٢) حاول المتصدرون من الاستشراق اليهودي لدراسة الاسلام إثارة شبهات مختلفة حول العقيدة وحول العرب وحول الشريعة وحول علاقة المسلمين بالحركات الهدامة . وكان أبرز العاملين في هذا الميدان جولد زيهر وجارودي ورودنسون وبرنارد لويس وإسرائيل ليفنسون . أما جولد زيهر فحاول أن يرمي بأن اتصال النبي والمسلمين بالبيئات اليهودية في المدينة كان له أثر في القرآن . وردد هذا الدكتور طه حسين في محاضراته بالجامعة المصرية ، كما حمل إسرائيل ليفنسون على نشر دعوى كاذبة وإعطاء اليهود دور في الحضارة والفكر الإسلامي في هذه المرحلة . وأما برنارد لويس فقد تخصص في تشويه التاريخ الإسلامي وفق أحدث نظريات التمييز والغطاوى السياسية والحرب النفسية ، وله شبهات مثارة يرمى فيها العرب والمسلمين بالعداء العربي ضد الزنوج ويصفهم بأنهم طاملوا الأفارقة السوداء معاملة سيئة وهو بذلك يمارس الحقيقة التي اعترف بها كل المؤرخين من حسن معاملة العرب للأفارقة وأهل الدمة والأقليات جميعاً . يقول أرنولد توينبي : « إن الحضارة الإسلامية من الحضارات الناهرة في التاريخ التي لم تتخذ موقفاً عرقياً من الأفارقة بل عاملت السود على قدم المساواة مع العرب لأنها اتبعت موقف الاستملاء على العرق الأبيض في بيزنطة وروما ولقد عمد برنارد لويس في كتاباته إلى تشويه التاريخ الإسلامي في هذه الناحية بهدف إثارة الشبهات بين العرب والأفارقة وكسر التحالف التاريخي بينهم . وأما رودنسون فانه ينكر المفهوم الإسلامي في مجال الاقتصاد ويرمي الاسلام بأنه أقرب إلى النظم الرأسمالية ، كذلك بخطئه جارودي عندما يصف حركات القرامطة بأنها حركات إسلامية لإقامة العدل الاجتماعي .

التفسير الماركسي

التفسير الماركسي

حاول دعاة الماركسية اتخاذ نظرية التفسير المادي للتاريخ وسيلة لتفسير تاريخ الإسلام وتمتد النظرية الماركسية على اعتبار أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد للحروب أو العامل الأكبر في تفسير حركة التاريخ. وتقول النظرية: إن العلة الأصلية للحروب والتغيرات وتطور الجماعات ترجع إلى الحالة الاقتصادية التي تعيش فيها الأمة ، وأن أساس التاريخ هو الاقتصاد وأن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام وأنه ليس هناك قيم ثابتة لإسمها الدين أو الأخلاق أو التقاليد ، وقد أنكر التفسير المادي للتاريخ جانب المعنويات والقوى الذاتية وكل ما ليس مادياً في مقدرات التاريخ والمجتمعات وقد تعرضت نظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ إلى انتقادات كثيرة كشفت عن فسادها وعجزها عن تفسير حركة التاريخ أو تطورات المجتمعات الإنسانية : ومن ذلك :

(أولاً) : التاريخ كما يصوره ماركس ليس هو تاريخ المجتمع الإنساني بأكمله ، بل هو تاريخ المجتمع الأوروبي وحده في تاريخ أوروبا فإن الصراعات الطبقيّة ليست هي الصراعات الوحيدة في التاريخ وهناك صراعات من طراز آخر كان لها في التاريخ أهمية أكبر ، منها مجتمعات الرعاة ومجتمعات الصيد والزراعة ، وهناك عوامل لم يلتفت إليها ماركس وهي : الدين والتربية والعقيدة . كذلك لم يحفل ماركس بقوة الشعور الوطني والقومي والاختلافات والعداوات بين الأمم .

(ثانياً) : يتصور ماركس أن حاجات الإنسان قاصرة على الجوع والظمأ والثياب . بينما للإنسان حاجات أخرى عقلية وروحية وهي في العادة أقوى أثراً من حاجاته المادية . إن ماركس يتصور الحاجات الإنسانية التي هي عنده أقوى البواعث في حياة الإنسان . ويتصورها في حدود ضيقة فليس يكفي الإنسان أن يرتوي ظمؤه ويشبع جوعه ويرتدي الثياب .

(ثالثاً) : إن هذه أحداث جسام في التاريخ البشري لا يمكن عزوها إلى الأسباب الاقتصادية منها فتوحات الاسكندر وفتح العرب لآسيا وأوروبا وحرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترا ، وغزوات نابليون وذهاب جماعة المتطهرين وكما لم تكن بينها ذوافع مادية .

(رابعاً) : أخطأ ماركس في عجزه عن تقدير إرادة الإنسان الخاصة : وأنه ليس مجرد آلة في يد العوامل الاقتصادية ، فليس الإنسان مسلوب الإرادة ، أو قاصر المسمى أو مقلوب على أمره أطام

المؤثرات الخارجية أو السنن الطبيعية بل إن الإنسان نصيب كبير في القدرة على التفريق بين الخير والشر والضر والنافع . وإن للبشرية من الكفاية الفعلية ما يجعلها جديرة بإحتمال قبة أعمالهم وصنع تاريخها .
(خامساً) : عجز ماركس عن فهم دور الإنسان النبيل والبطل العظيم وأنه لا يطلب المصلحة أو يتحرى المنفعة وإنما يتعرض للايذاء في سبيل الدفاع عن حرية بلاده أو يستهدف الشهادة في سبيل التعاق بعقيدته وتاريخ البشرية حافل بهذه النماذج الكريمة على اختلاف المصور والبيئات .

(سادساً) : يقول تريتون في كتابه (الاسلام عقيدته وعباداته) إذا صح في المقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تحليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدولة وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفعل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فأروا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الإسلام .

(سابعاً) : ليس العامل المادى هو العامل الوحيد أو الأكبر في تحريك التاريخ . ليس التفاعل بين الإنسان والطبيعة والمجتمع هو مصدر التاريخ وإنما هناك دور الوحي والنبوة في حياة الإنسان ودور الإنسان في بناء التاريخ . ليس هناك جبرية للمجتمع ولكن هناك إرادة الإنسان ولكن إرادة الإنسان ليست حرة مطلقة وإنما هي تتحرك في دائرة الله ومسؤوليتها في حدود عملها : ليست العوامل المادية وحدها هي التي تحرك التاريخ ولكن هناك العوامل الروحية والعقيدة وعواطف الإنسان كما أنه ليس هناك مفهوم بطولية فردية صرفة ولا بطولية جماعية عامة وإنما هناك توازناً بين الفرد والمجتمع .

الفصل الخامس

التفسير الاسلامي للتاريخ

يقف الفكر الاسلامي موقفاً واضحاً حاسماً في تفسير التاريخ : يقيم منهجاً واضحاً متميزاً أبرز مقوماته التكامل والنظرة الجامعة ، التي تفهم التاريخ من خلال العوامل المعنوية والمادية على السواء وتقدر الانسان دوره وإرادته وهي لا تهمل الاقتران وحده أو أى عامل من العوامل المادية أساساً لفهم التاريخ ، ويستمد التفسير الاسلامي للتاريخ مقوماته الحقيقية من القرآن الكريم منهجاً لبناء الحياة والكون والمجتمعات . ويقوم هنا الفهم أساساً على وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة والتكامل بين القيم ، والالتقاء بين الروح والجسد في نظام الدين ، والسماء والأرض في نظام الكون ، ويسلكها في طريق واحد هو الطريق إلى الله .

ومن هنا فإن أى منهج لتفسير التاريخ : سواء المديحي أو اليهودي أو المادى أو الماركسي لا يصلح للتطبيق على تاريخ الاسلام وأن المنهج الوحيد الذى يصلح لتفسير الاسلام هو المنهج الاسلامي وحده ذلك أن الاسلام قد جاء وليفتح الطريق أمام الفكر لكي يفسر التاريخ على أساس طبيعة العلاقات السالبة والموجبة بين قوى الله المطلقة وبين الآراء الانسانية المحدودة التي تصنع التاريخ دونما تدخل أى قوة أرضية حتمية وإعتبار إرادة الانسان سبباً من أسباب الله في الكون . فدور الانسان في التاريخ دور واضح أصيل ، وحركته تجري داخل إرادة الله المحيطة الشاملة : وقد أعطى الاسلام للفكر الانساني صورة متكاملة من الكون والحياة والانسان وعن مهمة الانسان في هذا الكون ومسئوليته النابعة من إرادة القادرة على العمل والتعبير . والانسان هو سيد المخاوقات وهو مستخلف في الأرض ، وقده عليه الله مالم يعلم وكفّف له عن قوانين الأمم وسنن الحضارات في قيامها وسقوطها ودعاه إلى الاعتبار بما حاق بالاولين والنظر في آثارهم وهم يرون عايبها مصبحين وهم يمشون في مساكنهم وهم يشاهدون بقايا الأمم : في كل مكان يذهبون إليه في بحر ممطرة وقصر مشيد وفي رحلة الشتاء والصيف ومن ذلك قوله : ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء . . وبذلك قدم القرآن للمسلمين تلك النظرة العميقة الصادقة في آثار الأمم القديمة التي أهلكتها الله لأنها خرجت عن سنن الله . ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

وقد أشار القرآن إلى الأمم التي آمنت وكيف سعدت وعاشت آمنة (فلولا كانت قرية آمنة فنقمنا إيمانها إلا قوم يؤمنوا) كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين . وأشار القرآن إلى هلاك الأمم التي خرجت عن سنن الله : (ولم قصصنا من قرية كانت ظالمة .) (ولم من قرية أهلكتها فجاءها بأسنا بيّناً أو هم قائلون) . (وما أهلكتنا من قرية إلا ولها كتاب

معلوم) . (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً) . (وما آمنتم
قبلهم من قرية أهلكتنا) (فكلان من قرية أهلكتنا وهي ظالمة) (وما أهلكتنا من قرية إلا ولها
منفرون) (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مقرفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) . (أولم يأتهم
لبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) .

وهكذا وضع القرآن قانون بناء الأمم وموقعها من التاريخ ومن الحضارة وأسباب سقوطها وهزيمتها
وكما كشف القرآن عن دور الفرد في حركة التاريخ (ذلك بما كسبت أيديهم) . كذلك كشف القرآن
عن العمل الضخم الذي قام به الرسل والأنبياء في هداية البشرية ودعوتها إلى الحق وتحريرها من الوثنية
والجهودية والإباحية وكيف عاشت البشرية وستظل تعيش في صراع بين الحق والباطل وبين الفكر
الرباني الحق وبين الفكر البشري . كما كشف القرآن عن وحدة البشرية وكيف خلقت من نفس واحدة ،
وأبان عن أن الفوارق بين الشعوب فوارق سطحية وليست عميقة الأثر ، كما كشف القرآن عن وحدة
الدين ووحدة النفس البشرية . وأبان القرآن عن مشيئة الإنسان في صناعة الحياة وبناء المجتمع
(أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

كذلك قدم الإسلام تفسير التاريخ وقدم التاريخ القديم نفسه ، فكان أول من أعطى البشرية
فكرة دراسة التاريخ والاعتبار به وكشف عن أهمية التاريخ في حياة الأمم ودعا إلى استكناه العبرة
منه وللنظر في آثار الأقدمين الباقية على وجه الأرض لمعرفة السر الذي يكن وراء قيام الأمم وسقوطها
وقد أطلق القرآن اسم الله على مادة التاريخ ، وكشف القرآن عن أن التاريخ نواميس ثابتة ونواميس
متغيرة ونواميس غير متطورة تسير المجتمعات البشرية : (وتلك الأيام نداولها بين الناس) . (فهل
ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبل) .

وإن أقصر تغيير وأعمق تصوير لمهمة التاريخ يتجلى في دعوة القرآن الناس إلى النظر في التاريخ
القديم من خلال بقايا المدينيات والأمم الفاتحة والتي يمر عليها الناس اليوم وقد وجدوا فيها آية باقية
ليسألوا : لماذا سقطت هذه الأمم وماذا كان من شأنها عندما خالفت عن أمر ربها حتى إنهارت حضارتها
وذهب وجودها فما تجد لها من باقية أو تسمع لهم ركوا . وإن أعظم معطيات الإسلام البشرية هو
إعطائها قانون الطبيعة وناموس المجتمعات والحضارات الذي يطلق عليه القرآن اسم (سنن الله) . (قد
خلقنا من قبلكم سنن فسدوا في الأرض) ، وقد جاء الإسلام دعوة إلى أن يلتزم الناس منهج النبوة
الأول ويهدي إلى المجتمع الرباني القائم بالحق على أيدي رسل الله وأتباعهم : (يريد الله ليعبينكم ويهديكم
سنن الدين من قبلكم) .

وقد ربط القرآن في تصويره لمنهج الحياة على الأرض بين مفاهيم التاريخ والحضارة والاجتماع
وجعلها كلها مستمدة من أمر الله منطلقة إلى غايته التي أعد الإنسان لها قائمة بالحق في الحدود التي أفاضها
وفي الإطار المسموح الذي دعا البشرية إلى التحرك فيه دون الخروج منه إلى الفساد الذي ظهر في الأرض
بما كسب الناس ، وحذر من اتباع دعوة الفكر البشري الوثني الإباحي الفاسد (يريد الله ليعبينكم

ويهديك من قبلكم من قبلكم الذين يقعون الشهوات أن تملوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخالق الإنسان ضعيفا) . وجلة ما وصل إليه القرآن في فهم سنن الحضارات والمجتمعات هو الكشف عن مصدر الخطر الحقيقي الذي تسقط به هذه الأمم والحضارات والمجتمعات وهو تجاوز الناس سنن الله في الأرض وخروجهم عن الأصول الصحيحة والحدود التي أقامها بين الحق والباطل .

فالقرية التي تقف عند هذه الحدود والضوابط يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . والتي تخرج عن هذه الحدود والضوابط تكون قد كفرت بأنعم الله فيحق عليها الدمار . وهكذا يكون الإسلام هو الذي قدم إلى البشرية ما يسمى فلسفة التاريخ أو تفسير التاريخ حيث لم يقف عند عرض الحقائق بل قدم تحليل الوقائع وهو الملاحظ الذي تنبه إليه المؤرخون المسلمون ووصل إلى قمة فهمه (ابن خلدون) استمداداً من القرآن . وهو المفهوم الذي عرفه الغرب من بعد ذلك ويشهد التاريخ بأنهم ما كانوا يعرفونه قبل أن ينقله إليهم ابن خلدون . ومن هنا فإن ابن خلدون مستمد من القرآن وقد أخذ منه مؤرخو الغرب وإن كانوا قد خلطوا مفاهيمهم بكتابات أفلاطون وأرسطو . إن أخطر ما يقوم عليه التفسير الغربي للتاريخ (مسيحياً أو يهودياً أو ماركسياً) هو تجاهل حقيقة الإنسان إما بإعلانه إلى حد التقديس أو إنكاره واعتباره ترساً في آلة . وأكبر أخطاء هذه المفاهيم هو عدم التفريق بين الآلهة وبين الأحياء الأخرى العليا منها والدنيا وفساد القول بتطبيق القوانين الطبيعية أو التجريبية منه إنكاراً لروحه ونفسه وتمييزه عن المادة والحيوان ويتصل بهذا فساد القول بأن حوادث التاريخ يحكمها قانون ثابت أو أن حوادث التاريخ وأمر البشر تجري دون تقدير ، وأنها لا يعيدها نظاماً أو تعتمد على المصادفة ، ذلك أن الحياة البشرية مسؤولة الإنسان وحسابه في حدود إرادته وعمله وقدرته على التغيير . وتتكسر النظرة المادية لإرادة الإنسان وتجاهل جوانبه الروحية والمعنوية والنظرة الاقتصادية كما تنكر العوامل الأخرى غير الاقتصادية .

فليس الإنسان إله ولا نصف إله وليس الإنسان بغير إرادة وليس الإنسان خاضعاً لحتمية مجبته من المجتمع وإنما للإنسان إرادة وحرية اختيار ذات طابع محدود ، وحرية واختياره تتمثل في قدرته على أن يختار سبلاً ويترك أخرى ويتحمل المسؤولية وقد ذل الله له السكون وحافيه لمنعمته ولتحقيق استغلافه فليس الإنسان فانياً في المجتمع وليس له إرادة مطلقة غير محددة .

فالإرادة الإنسانية حرة في حدود معينة وهذه الحدود المعينة هي وحدها موضع مسئوليته . وهذا المفهوم الإسلامي يختلف مع مفهوم الفلسفة المثالية الغربية (هيغل) والفلسفة الماركسية وإحداها تراه جبرية والأخرى خاضعاً لوسائل الإنتاج . ولا ريب أن إنكار إرادة الإنسان ، من شأنها أن تهبط على فكرة المسؤولية أمام الخير والشر والفضيلة والذيلة ، ومن الحق أن السلوك الأخلاقي واجب أساسي في الإسلام والإزام متصل بحركة الحياة نفسها . وكذلك فإن الإسلام لا يعتبر وجود الإنسان في الأرض موضعاً للتأديب أو سجناً للبشر بسبب خطيئة أصلية ، أو غير أصلية ، وأن المعصية الأولى التي ارتكبتها آدم أبو البشر لا تنسحب على أحد من أبنائه وقد غفرها الله له : والإسلام في مفهومه للإنسان يختلف عن النظرية الفردية الغربية : هذه النظرية التي تحمل التاريخ من رسم أفراد معدودين ، وإن كان الإسلام

لا ينكر أثر الأفراد كعامل من عوامل رسم التاريخ بما أودع فيهم من قوة سواء في السير على الطريق الصحيح أو الطريق الخاطئ. فآثر فرعون وهو فرد لا ينكر في إذلال بنو إسرائيل وآثر إبراهيم لا ينكر في إنقاذ أمته من عبادة الأصنام. كما لا يقر الإسلام النظرية الجبرية للمجتمع لأنه ينكر أية نظرية تثبت جبرية الإنسان وتعطل إرادته حيث أنه يؤكد مشيئة الإنسان ومسئوليته عن أعماله ومع ذلك فإنه لا ينكر أثر المجتمع في سير التاريخ .

ولا يؤمن الإسلام بالنظرية الجغرافية أو الطبيعية المتعارفة التي تبالغ في إعطاء الأثر للانهار والجبال والتضاريس وأنها هي التي تدير التاريخ . أما من حيث أنها إحدى العوامل المؤثرة فذلك مالا شك فيه وفي مجال الفرد في التاريخ يحى مقام رسول الله ﷺ وهو ليس بمجال بطولة فردية ولا عظيمة ذاتية توضع في مجال المقارنة مع البطولات والزعامات ولكنها هي النبوة ، التي لها ساميتها وتاريخها ورسالتها الممتدة على طول الزمن حتى ختمت بمحمد بن عبد الله . وهو النبي الموصى إليه الذي لا ينطق عن الهوى وليس بعده أحد مقدس الذات أوله العصمة ولا يمكن أن يوصف بالعبرية التي يوصف بها أبو بكر أو عمر . والإسلام يقرر إرادة الفرد في صنع التاريخ (الاختيار) وهي إرادة حرة من ناحية تصرف الإنسان ولكنها تتحرك في دائرة إرادة الله الكبرى ومسئوليته على قدر حركتها الذاتية ولكن لا يقال أن إرادة الإنسان وحده هي التي تصنع الصورة الكاملة فإن هناك العامل الخفي الذي هو من تقدير إرادة الله الكبرى ، وهو عامل يأتي بفترة ومن غير انتظار أو تقدير محسوب وإن الإرادة البشرية قد تنطلق إلى عمل من الأعمال ولكنها لا تستطيع أن تضمن ما يصل إليه أو أنها كما يقولون بمثابة صاروخ مقذوف في الزمان يتجاوز دائماً تقديرنا وحساباتنا ، وتدعى الغاية مغايرة تماماً للهدف الأول فالانطلاق أمر يقوم على إرادة الإنسان ولكن المراحل التالية لذلك تقع في دائرة القوة الكبرى التي توجه الأحداث .

يقرر البيان وإيد غراي في كتابه تفسيرات التاريخ : إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بناء أكثر عما سبقها فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تنطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يهوى أو امره ويمر الرضاء بين البشر . ويحمل والفرد كابتول سميت موقف الدهوات البشرية من التاريخ وموقف الأديان وهو موقف الإسلام فيقول : إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ أنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ؛ يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه وهم يحاولون دائماً أن يصوغوا الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يقيس كل عمل فردي أو اجتماعي وكل شعور فردي أو اجتماعي بمقدار قرينة أو بعده عن ذلك النظام الذي وضعه الله والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل التحقيق والتاريخ في نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ومن ثم فكل عمل وكل شعور فرديا كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة لأن الحاضر هو نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر. أما الماركسي فيؤمن بجمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن

إلا بهذا العالم المحسوس بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده وكل شيء عداه باطل وللماركسي
يقع عجلة التاريخ ولا يمكن لا بوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها، وما من دين استطاع أن يوحى
إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يحاصر المسلم من غير تكلف ولا استطاع ، وأن اعتزاز
المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ... وأن الغربي لا يفهم الإسلام - حق فهمه - إلا إذا
أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً .

ويقول ويفرد كاتول سميت في المقارنة بين الإسلام والماركسية : إنه لأمر عظيم أن نقيم حياة
اجتماعية سليمة على وجه الأرض ولا شك أن الإسلام هو أجدد وأثبت تجربة تمت لتحقيق العدالة بين
الناس ، وأنه ثمة فروقاً عميقة بين الإسلام والماركسية ، أهمها أن الإسلام يرى لكل حادث ديني
مغزيين وقيسه بمقياري : أحدهما وقتي والآخر ابدى أو فردى ، والإسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ
الحاسم إلا أنه يرى أن هذا المغزى لا يذوب في خضم التاريخ نفسه بل يوجد من القيم والأنماط ما يعلو
على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن تكون في ضوء هذه القيم والمقصود
بذلك هو القيم الروحية التي لا وزن لها في الماركسية .

ويقول عبد المغنى سعيد : إن نظرية الإسلام في تفسير التاريخ أعق وأعرض من أي نظرية أخرى
لأنها تشمل الناحيتين المعنوية والمادية معا بينما ركزت الماركسية على الجانب المادى فقط . ويقول
الدكتور حماد الدين خليل : إن الإسلام ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً ماركسياً وإنما هو ينظر إلى المال
أولاً على أنه ملك لله وأن الإنسان مستخلف عليه وأن له أن يتصرف فيما يملك بروح الاستخلاف .

(هـ) يقول الأستاذ هلال الفاسي : إن ميزة التفسير الإسلامى للتاريخ هو الوعى بأن للتاريخ نهاية
وجوده يوم تقوم الساعة ويسأل كل واحد عما عمله في الدنيا وأن الجبرية التاريخية غير موجودة في الإسلام
لأن الإنسان ليس خارج التاريخ بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمنفذة وأن عمليات التاريخ
ليست دون غاية وقد أدرك الرسول ﷺ الوجود التاريخى إدراكاً كلياً ولكنه لم يكلف نفسه أن يكون
المؤرخ أو المحدث للتاريخ وإنما وضع لنا الإطار الذى علينا أن نملأه بما نكتشفه من أحداث وما نضمه
من عمليات ولم تذكر كلمة التاريخ في القرآن ولا في السنة وإن نص علينا القرآن قصصاً للآراء لا نعتبرها
تاريخاً بأوقاتها وظروفها ولكن لنتعظ بها فيها من عبرة ويمكننا أن نبين التفسيرات المختلفة للتاريخ
أو نكتشف غيرها بما نستطيعه من جهد وتأويل دون أن ندهى حتمية وهى خاص قد ينطبق على بعض
الأحداث دون بعض فنقع في آفة التعميم الذى يقع فيه كثير من الاجتماعيين والنفسيين . وللتاريخ في
نظر المؤرخين مرحلتين لابد من الوقوف هندهما :

(١) مرحلة العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول وهذه لم تكن إلا تمهيداً لبلاغ الإنسان
رشته عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل ولم يكن عهد بدعائه الرسل فقد سبقته نبوات
ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ولكنها لم توفق إلى البقاء وأصابها الانحراف

الذى يستوجب أن تجدّد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الإنسانى ، فكان لا بد أن يبعث الله الرسول الخاتم الذى يضع الناس فى جو الرشد المبني على العقل والروح والقلب والجسم . وإن كل ما سبق من عمليات للتاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه وبذلك يصح الماضى ، كله فيما قبل التاريخ ، أما التاريخ الضحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى ، والبشرية كلها مخاطبة الله وفق ما يرشد إلى تاهوس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع .

(المرحلة الثانية) هى نهاية التاريخ الديوى والوصول إلى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير أو شر ، وبهذا الامتداد التاريخى إلى ما بعد الموت يزول كل تناقض يمكن من غاية التاريخ ومن أسباب عملياته ، وفى هذا الإطار يبقى الإنسان عاملاً مختاراً لأن شغلته أن يوفق بين نوايس الكون وتعاليم القرآن وهو الذى يصنع تاريخه وتاريخ البشرية . والحقيقة الاسلامية فى أمر التاريخ هى : أن التاريخ نهاية وجوده يوم تقوم الساعة وأن خط المفاهيم الماركسية والمادية التاريخية ، وتناقضها ناتى عن تجاهل الموت والتذكر للقيم ، ولكى نعمل دلى وعلى بالتاريخ يجب أن لا نخرج من التاريخ ، فلسلس وجودنا التاريخى كان فى الإطار الذى حددته الاسلام مهما كان التفسير الذى يعطيه لعمليات التاريخ ، والإطار الاسلامى شمولى ، لأنه موضوع للعالم كله . لذلك فى الوقت الذى نحافظ على كياننا داخله نكون قد وعينا تراث الانسانية (أى كل ما ليس من الأساطير) ، وما ليس من الأساطير هو المعروف الذى وهته كل العقول لأنه من فطرة الانسان .

(٦) مشكلة الخلق ، كما يقول الدكتور عبد الحليم هويسر هى مشكلة العقدة ، فى تفهيد التاريخ ، فالمسلطون يسلبون بخالق خارج هذا الكون ذى صفات عديدة لا يمكن أن يصل العقل إلى تحديد كنهه ، لأن العقل أقل من هذا الإدراك ، أما المذاهب الوضعية والمادية والماركسية فهى تختلف فيما بينها فى أصل الخلق على أنها ترى عموماً أن المادة تتمتع بمؤهلات الخلق والوجودية ، ترى أن الانسان يبدأ الكون ومنتهاه وتعيش فى دائرة الاستعباد للذات وأصحاب الدين الانسانى الذين يقرعونهم إلهكم كزبل . والأمر الثانى هو المحرك لعملية التطور التاريخى بعد أن تنهى عملية الخلق ، فالفلسفة اليونانية لها رأيها الذى يسلب الله سبحانه خصائص الحكم فى مسيرة العالم ، وكانما خلق الله العالم وتركه يتدحرج ككرة منزلفة . وهناك الاختلاف فى العوامل المحركة لحركة التاريخ ، ويحتل العامل الاقتصادى المرتبة الأولى بل يكاد يكون الوحيد ، أما الاسلام فينتقل من إيمان بقدرة الله ، ومن إيمان بأنه مهما قيل من أسباب ظاهرة التحول التاريخى فإن الله هو الفاعل الحقيقى ، ومن أخطر المخاطر محاولة تجرييد النصوص التاريخية القرآنية من صدقها الواقعى فى موكب التاريخ بحجة أنها مجرد غرس للعبارة فى النفس البشرية (على النحو الذى قال به طه حسين ومرجليوث وخلف الله) بينما يطالبون من المؤرخ الاقتراب من (الواقعة) وصولاً إلى العبارة التاريخية الحقيقية ، وهم يفترضون الصدق فى الجيولوجيا والآثار أكثر من افتراضهم الصدق فى كلام الله ، وهم يتجاهلون أن العبارة المستقاة من واقعة مؤيضة مختلفة هى كذلك عبارة مؤيضة مختلفة .

يقول الأستاذ عبد الحميد صدقي : ينفرد المنهج الاسلامي في تفسير التاريخ أنه يتخلص من هذه الآفات فهو في المقام الاول يتوفر لديه (الرؤيا الشاملة لوقائع التاريخ) على نحو تركيبى كلى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) كذلك تضم المنهج الاسلامي في مكانه الصحيح انطلاق من جملة مستخلف في الأرض ومن جملة في أحسن تقويم ، فليس الإنسان مجرد آلة تحاول أداء عملها في ما كينة المجموع ، كما أنه ليس دمية تحركها روح العالم وليست هناك حتمية تاريخية تقود الإنسان .

فأعمال الانسان المختارة هي السبب في صنع التاريخ وهو المسئول عن كل حركة وليس مجرد ضحية لقوانين ساذجة محددة تنطبق به من مرحلة البدائية إلى مرحلة الانعفاع إلى البرجوازية إلخ .

إن هذه الاحكام المطلقة الساذجة ليست إلا أوهاماً .

والحياة في التفسير الإسلامى معنى رفيع عال لا يتوقع في دائرة الاقتصاد أو الإيدولوجيات وإنما يسمو بغاية الإنسان إلى آماد عليا ، ففضلا عن تحقيق خلافة الله في الأرض وفضلا عن تعمير الكون فالإنسان يعيش على هذه الأرض فترة اختبار كبرى يتبلى فيها بشى الوقائع المضادة ليحتل مكانه المدير به في دائرة الخلود والاقتراب من الكمال المطلق ويجب على الإنسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان أو أنه أهل للأمانة الملقاة على عاتقه وحركة التاريخ في الإسلام تشبه أن تكون دورية ولكنها ليست دورية صماء آلية تخضع لقوانين حتمية من صنع الانسان بل هي مرتبطة في دوريتها بقوانين الله وسننه في تفسير الحياة وبقوانين النمو والموت الحضارى ، وبما أن هذه الدورية موجودة (تلك الأيام نداولها بين الناس) في التاريخ فلا يمكن معها القول باضطراب النمو الانسانى والاخلاق فهذا القول نوع من الضرور فما نعتقد القدرة فليس من حقه إصدار أحكام عامة تمتد إلى الانسان كله وإنسان ما قبل هيردوت ، وما بعده وإنسان هذا العصر التاريخى والمصور التى تليه ، وليس هناك شك في أن ثمة صراعاً بين قوتين كبيرتين تسييران معاً مع تفاوتات القوة عبر التاريخ كله : قوة الخير وقوة الشر . ولكن باستثناء الصراع المريض الطويل لتسيير الحياة في داخلها على نوع من التعاون أكثر من سيرها على الصراع ، وقد يكون د الصراع ، سمة مرحلة من مراحل الأفعال يفقد الانسان فيها معناه العالمى ، لكن ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ . والله لا يتصارع مع الموجب وما يتدور من تخیلات المتشائمين من تناقضات ، فهي ليست أكثر من تكاملات ، وهي تتصل من تكاملها البسيط إلى المركب .

(١) وضع الإنسان في مكانه الصحيح . (٢) فهم المعنى الخالد لرساله على هذه الأرض

(٣) عدم طغيان جانب من حياة الإنسان على جانب آخر . (٤) ودون فقدان الانسجام بين كل الجوانب .

(٨) هل يعيد التاريخ نفسه ؟ يقول الباحثون أن التاريخ تسيطر عليه قوانين لا تقف عند حد الاثر الذى كان لها في الماضى بل إنه سيكون لها أثرها حتماً في كل ظرف مشابه يطرأ في المستقبل ، فسنى

حركة كل القوى التي ينسجها تاريخ البشرية عنصرأ واضحاً هو عنصر الإعادة والتكرار : ولاكنما ليس إعادة الأحداث والوقائع ولاكن إعادة النفسهات . وقد دعا القرآن المسلمين إلى الناس عبرة الماضي : وليس التاريخ كما يقول القرآن قصص تروى دائماً هو تحذير من المهاوى الواقعة في طريق الأفراد والأمم أو كما يصوره أحد العلماء يتول : إن سجل التاريخ هو الفئار الذى ينهى الملاحين الجدد الذين يخرون حباب الحياة عن الصغور المهلكة التى قد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الانسانى الذى لا يدرك غوره :

(أولم يسبروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمرها أكثر مما عروها) وذلك لأن الناس فى كل عصر يواجهون نفس النوع من التمهيدات التى واجهها أسلافهم فإن مواضع الخطر فى طريق الأمة هى نفسها تقريباً سواء كان العصر ماضياً أم حاضراً وكل أمة تصيبها السراء والضراء ، والارتفاع والانخفاض وأن الذين لا تطفئهم الأفراح والذين لا تنفد السعادة أتران عقولهم والذين لا يسمعون لأنفسهم بأن ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمع لهم قانون الحياة بالبقاء والنمو أما الذين لا يستطيعون الصمود أمام الشهوات وفى وجه ضربات القدر فالويل للذين ينهارون بسرعة :

(إن يمسكم قرح فقدس القوم قرح مثله) ، (إن مع العسر يسرا) .

والأم تولد وتموت : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويهرج الحى من الميت ويهرج الميت من الحى) والنهار هو السعادة والقوة والليل هو الأفول والانهار .

والعالم ينمو وائس كنهه ممتدة فى الفضاء وهو قابل للتوسع والامتداد إلى غير ما حد ، والماضى يبق والعمل فى الحاضر ، ونظام الحوادث متغير وليس ثابتاً . ويرد الباحثون نظرية هيجل فى حركة التاريخ ويرون أنه لا أساس مطلقاً للرأى القائل بأن التوفيق بين الفرضية ونقيضتها ينتج عنه نظام جديد له خواص كل منهما ، كما أن التاريخ لا يدهم هذا الرأى ، فى كثير من الأحيان يولد النقيض من الفرضية فيحطها تماماً وحينئذ يتكون ضدها ودفعها مغاير تماماً :

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع ويسع) ، وتبين هاتين الآيتين أن الله لا يعطى أمة السيطرة والقوة الدائميتين فكل حاجة من الناس تسلط مدة من الزمن وبعد مآثر هذه المدة نزول من الوجود وتقوم فوقى حاجتها أمة أخرى ، وأن السلوك هو الذى يجلب عليهم الدمار ، ويقرر القرآن أن التغيير يأتى بسبب من الداخل لامن الخارج : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومعنى هذا أن التغيير الناجح فى الفرد والجماعة لا يتحقق قاتمه إلا بتغير النفس أساساً ، ولما كان الله يمسح على الأفراد مهما أوتوا من العلم والخبرة أن يسبروا غور كل جانب من جوانب الحياة بفكر

مكون، فإنهم لا يستطيعون أن يضموا لأنفسهم منها مرتباً محبوباً تنال فيه كل ناحية من لواحي الإسلام العدل الكامل ولما كان ليس في مقدرتهم النظر إلى ما وراء فترات طويلة من الحياة فإنهم يحسرون من أن يرموا الحياة الناس منها متوازناً يفي بمطالبات كل نواحيها فالإنسان لا ينظر إلا إلى بعض من حاجات البشر ويجهل الباقي، وبهذا تصيب جواب الإنسان المهمة حيف كبير، هذا الحيف يحطم الاستقرار في الحياة وبهذا تهنّب الإنسانية في مسعاها، واسكن تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها، فهي تتأرجح بين النهايتين المتطرفتين (المعروف أن أوروبا انتقلت من الرهبانية إلى الإباحية) وبين طريق يوجد الصراط المستقيم الذي أوضحه الله تعالى وهذا وحده هو الذي يقود الإنسانية إلى طريق العلاج في الدنيا والآخرة وكل السبل الأخرى تقود الإنسانية إلى الهلاك، (عبد الحميد صدقي).

ولقد ظنوا أن الطريق الجدلي هو الطريق الطبيعي الذي تتقدم به الإنسانية، ولكن الواقع أن الصراع بين الفرضية ونقيضها لا يؤدي في الواقع إلى التقدم، وإنما هو في الحقيقة صلبة القدر القاصدة أصابت البشر جراء أحلام السيئة.. لقد مرت قافلة البشر مراراً بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخطه سبيلاً ولقد مضى تاريخ الإسلام في طريقه على صورة واحدة فهو تاريخ الصراع بين قوتين في العالم، هي الشر والخير، وهذا الصراع من شأنه أن يؤدي إلى تقوية شخصية المسلمين لكي تستطيع أن تستخدم الصفة التي وهبها الله إياهم لكي يزيدوا في سرعة نشاطهم الخلاق وفقاً لأوامر الإسلام فلهذا السلام والامم غير الإسلامية قوتان متضادتان في هذا العالم كائناً دائماً في خصام ونزاع، وكل من السلام أن تعتبر نفسها مسئولة عما يحدث من حولها وأن تجاهد من أجل إحقاق الحق وإدماق الباطل في كل حين. ويقول الأستاذ صدقي: إن هناك صفات معينة إذا نعمتها الأمة في أبنائها نالت السيطرة والسيادة، وحين تهقد هذه الصفات تنردى إلى الخضيض وإن الله تبارك وتعالى ينظر إلى الأمة التي أتبع لها أن تحكم: أمي أمة قائمة بالحق والعدل أو بالجور والظلم فإذا كانت طاقات الأمة موجهة إلى الخير سمح لها بأن تزدد قوة وإلى أقصى حد، فإنها بذلك تمنح الفرصة لكي تعرض قيمها الحقيقية، وبذلك ينتفع العالم، أما الامم التي تركز في (السيئات) فإن طاقاتها الخلاقة تبدو عقيمة وتلجأ إلى الظلم والظلمة وتفترق موارد الأرض على افناء البشر.

(٩) يقول إقباله إن المشكلة التي واجهها الإسلام كانت هي ما بين الدين والحضارة من صراع متبادل وما ينتابهما في الوقت نفسه من تجاذب متبادل ولقد واجهت النظرية في أول عهدنا المعاصرة نفسها فكان أعظم ما عانيت به أن تبحث عن مستقر للحياة الروحية قائم بنفسه: تلك الحياة التي رأى منفعتها يصورها أنه يمكن السمو بها لاهن طريق قوى عالم خارجي في نفس الإنسان وإنما يتجلى عالم جديد في داخل النفس ذاتها، والإسلام يقر هذه النظرة تماماً ويكملها بنظرة أخرى هي أن النور الذي يضيء هذا العالم الجديد المتجلى على هذا النحو ليس شريعياً عن عالم المادة بل هو متغلغل في أعماقه.

ومعنى هذا أن النظرة الإسلامية لا ترى في التاريخ على أنه نشاط من القطعة للمادة لحسب كما أنها لا ترى فيه نشاطاً من القطعة الروح فقط، وإنما هو نشاط يجمع في مضامينه هذين المنصرين معاً، كما

أن هذه النظرة المثالية الواقعية من شأنها - كما يقول الأستاذ محمد عطا الله معلقاً على كلام إقبال - لا يغير فكرته عن العالم والتاريخ من ثم فقط وإنما تجعله يساهم في تغير هذا العالم وبالتالي يصنع التاريخ ويقول إن النظرة الإسلامية تؤمر بالتاريخ منذ بدأ الخليقة إلى يوم القيامة وحدة مستقلة، واقد أشار روزميلي إلى أن الحديث عن يوم القيامة في القرآن قد جاء صريحاً بحيث أصبحت أحداثه واضحة للناس وكأنها قد حدثت في الماضي القريب رغم أنها لم تحدث بعد. والمسلم يفهم أن القرآن في حديثه عن المستقبل ويوم القيامة إنما يرسم نهاية العالم الذي يعيش فيه وهو في هذا التكامل في رسم قصة بدأ الخلق وقيام المجتمعات وتدهورها ودور رسالة الأنبياء في إصلاحها وتوجيهها الوجهة الربانية الصحيحة، لذا ما القمت منهج الله وتحركت في إطار حدوده وضوابطه التي رسمها للناس والمجتمعات والاسلام حين يقدم هذا المنهج للإنسان لا يقهره على السير عليه ولكنه يترك ذلك لارادته الحرة ويعطيه حق الاختيار في السير قدماً أو التراجع.

ويضع الاسلام قاعدة بقاء الأمم وسقوطها وتغييرها: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فترتبط بين مصير الأمة وإرادتها، وأن لكل أمة أجل وأن فساد الأمم وانحرافها يحدد نهايتها والحرية مقروكة لكل أمة لتعمل في دائرة الخير أو الشر.

(١٠) يصور الأستاذ عبد المقتي سعيد حركة التاريخ في مفهوم الاسلام فيقول: «إن الاسلام في نظريته إلى التاريخ لا يهتم بالجزئيات والتفاصيل العابرة ولا يهتم بالبطولات الفردية أو تاريخ حياة الأفراد وإنما يركز على الضوابط والاساسيات والحركة الاجمالية لمجرى التاريخ ومغزى هذه الحركة، أي أنه كان الأسبق إلى النظرة الجماعية والحركية للتاريخ عن المدارس التاريخية الحديثة التي ينفي على المؤرخين القدامي اهتمامهم البطولات الفردية والجزئيات و تواريخ حياة الملوك والحكام والقرآن الكريم في تحليته لدعوات الرسل والأنبياء لا يضطر إلى تفاصيل خاصة بحياتهم كأفراد ولا يما يقف عند حد المعبرة التي تبرز هذه الدعوات كحركات تقدمية استهدفت تحرير الإنسان من السحر والدموذة والخرافة ومن الاستغلال والتسلط الطبقى أيضاً، إن دعوات الرسل كما جاء في القرآن الكريم لم تكن بالبسيطة أو السهلة فقد قوبلوا جيماً بالإنكار والسخرية بل والاعتداء والحرب من القوى المضادة التي كانت ترى مصالحها في الاحتفاظ بالأوضاع القائمة طالما هي المستفيدة ولا تراها في التغيير أو التطور وتخشى أن يهدد مصالحها الخاصة، ومن هنا فقد وقفت ضد دعوات الأنبياء وما استهدفته من عدالة وتطوير. وقد كانت تلك الدعوات وما ينبعها من صراع تنتهي نتيجة حتمية وهي أن تنحصر الدعوة وإما أن تفشل ليصيب الله جام غضبه بكوارث الطبيعة على القوم الكافرين الظالمين وهذه النتيجة يسميها القرآن بالسنة أو القانون الحتمي فيقول: «ولن نجد لسنة الله تبديلاً» وإن تجد لسنة الله تحويلاً، هذه السنة لا تقبل التبديل أو التحويل هي قانون إلهي تاريخي سنة الله في الدين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقد خلت من قبلك سنن فسدوا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، وهكذا جاء الاسلام بمقومات نظرية علمية لتفسير (مادى معنوى) التاريخ.

(١١) يقرر الدكتور حماد الدين خليل بأن التفسير الاسلامي يتميز على التفسير الغربي بشموله وتكامله وأنه يضع اهتماماً بالغا وتقديراً كبيراً للقوى الغيبية التي تتدخل في عالم الحضور بشكل مباشر والحكمة الإلهية البعيدة المدى التي توجه التاريخ وجهة دون أخرى ، ويقول : إن فهم التاريخ لا يتم إلا بإسهام الطاقات الروحية والحسوية للإنسان في عملية التقييم .

ويقول الدكتور حماد الدين : إن تطبيق المنهج المادي العلماني الغربي في دراسة تاريخنا أحدث من الأخطاء . ولما زال ما يجب علينا أن نوقفه عند حده وأن نبدأ من جديد بتقييم تاريخنا ودراسته وفق منهج يقدم من الأدوات والإمكانيات ما يساعد المؤرخ المسلم على دراسة هذا التاريخ .

ويقول عبد الحليم فخاجي : القرآن يرشد إلى المنهج الصحيح في فهم التاريخ أي بالنظر إليه على أنه تاريخ الرسالات السماوية لا تاريخ الصراع الطبقي كما تصور الماركسية ولا تاريخ الأجناس والملوك والرؤساء والبطولات كما تصوره النظرية الغربية كما يرشدنا إلى أولوية دور الفرد المستمر في دفع حركته إلى الأمام ، وباستعراض القصص القرآني يظهر الاهتمام واضحاً بالرسول في المقام الأول باعتبار أن الرسول هو النموذج الإنساني الكامل الذي حقق السيادة على ظروفه وظروف قومه واستخدمها في سبيل غايات أسمى وأبقى .

وتأتي ظروف الزمان والمكان في المقام التالي ولهذا الظروف وزنها من خلال تفاعل الإنسان معها ولكن ليس لها الأولوية .

ويقرر التاريخ أنه لم يكن قط هناك عامل من العوامل الإنسانية أقوى أثراً وأعظم من عامل الدين وكل ما عداه من الحركات المؤثرة في حركات الأمم قائما تنفاوت فيه القوة بقدر ما بينه وبين العقيدة من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وهواطن السريرة ، هذه القوة لانضار عنها قوة العصبيّة ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الأخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المزم ووطنه أو العلاقة بينه وبين مجتمعه أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الاوطان والاقوام أما الدين فترجم إلى العلاقة بين المزم وبين الوجود بأسره ومن أنه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن .

أما التفسير المادي فليس أكثر من التسجيل لفرقات الانتكاس في حياة الشعوب بما يستتبعه الانتكاس من صراعات على كل المستويات وكان موقف الماركسية من العامل الاقتصادي بالذات موقفاً منحازاً لا علمياً .

الفصل الثاني

تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات

في مقدمة هذا البحث نقدم مجموعة من الملاحظات :

(١) أن المسلمون كانوا دائماً ينتصرون ويمتلكون زمام القوة والمنعة والتمسكين في الأرض عندما كانوا يطبقون المنهج الداعي وينفذونه كنهج حياة ونظام مجتمع وأنهم كانوا يهدمون كل ما تخلفوا عنه أو قصروا في الاعتصام به .

(٢) أن المسلمين في الأهم الأغلب خلال تاريخهم هذا كله لم يتخلفوا عن تطبيق التشريع الإسلامي في مجتمعاتهم إلا في الفترة التي بدأت بالاحتلال الغربي الحديث لبلادهم ١٨٢٠ الجزائر و ١٨٨٢ مصر وتونس و ١٩١٨ باقي اجزاء البلاد العربية ماعدا الجزيرة العربية .

(٣) أن المجتمع الإسلامي في حالة تطبيقه المنهج الإسلامي ليس حكماً على هذا المنهج بل إن المنهج هو الحكم على المجتمع الإسلامي . وقد أثبت المنهج سلامته وعطائه حين طبقه المسلمون تطبيقاً صحيحاً في عصر الخلفاء الراشدين وفي عدد من العصور خلال حكم الدول المختلفة فلا مرة بما يثار من شبهات حول دهنهوى عجز المنهج الإسلامي على تحقيق المجتمع الأمثل الذي يحقق بالفعل في الأغلب الأهم والذي كان مصدر هذه النهضة الباذخة والحضارة الضخمة التي عمت العالم كله وأقامت متاراً للمعلم والعدل أكثر من ألف سنة .

(٤) إن محاولة إغلاء شأن التاريخ السياسي القائم على أمور الحكم والولاء والخلاف بين الأمراء والفرق هي محاولة باطلة يراد بها حجب حركة المجتمع الإسلامي النابضة بالحياة والقوة والقائمة على أساس مفهوم الإيمان العميق بالله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتطبيقاً للإسلام كنهج حياة ونظام مجتمع هذا المجتمع الإسلامي المضطرب بالحوية والعمل والتجارة والبناء والذي قدم للبشرية تلك الإضافات الضخمة في مختلف مجالات المدنية والعلم ولا ينقص من شأن هذا وجود جماعة معدودة من شعراء المجون أو الفرق الضالة أو أصحاب المؤامرات ضد الدولة الإسلامية من خصومها الباطنة والمجوسية وغير هاذين هذه ظاهرة دائمة وقائمة في تاريخ الأمم كلها لا تنقص من قدر المجموع السليم المتحرك في اتجاه التقدم والبناء .

(٥) إن الخلافات التي كانت بين الفرق الإسلامية سواء في مجال السياسة الفقه أو غيرها كانت خلافات في الفروع دون أن تصل إلى القيم الأساسية التي كانت تلتقي عندها كل الجهات (هذا

باستثناء القري المتأمرة الضالة) التي كانت معزولة تماماً وكان موقفها معروفا وكانت كل هذه الجهات معادية لها . وهنا يكون التفرقة واضحة بين الفرق الإسلامية وبين الدعوات الهدامة هذه الخطوط العامة لم تكن واضحة في ذهن الذين حاولوا في المصور الأخيرة كتابة التاريخ الإسلامي أو تقييمه عن طريق المناهج العلمى مجرداً من الهوى والخصومة والهدف المسموم يوحى بهذا ويؤكد اهتمام المستشرقين إلى دراسة أمرين : (أولهما) : الخلافات في الإسلام .

(١٠٠٠) : دراسة العامل الاجنبى في الفكر الإسلامى . فى الأول يجرى التنقيب عن تلك الخلافات السياسية بين الأمراء والحكام والنوسع فيها وترك الجواب البناء القوية . أى الاتكال على التاريخ السياسى الذى يدور فى دائرة ضيقة محدودة وتجاهل التاريخ الحضارة الذى يمثل المجتمع كله والاهتمام بشخصيات معينة أو خلافات معينة ومحاربة إعلانه هذه الشخصيات أو تلك الخلافات لتوسيع رقعة الخلاف بين المسلمين وإحياء الخصومات القديمة التى انطوت وانتهت بنهاية الأحزاب السياسية التى قامت عليها . وفى الأخرى : تجرى المحاولة للقول بأن هناك تأثير يونانى أو فارسى فى الفكر الإسلامى فى مجال الفلسفة أو الكلام أو الأدب أو اللغة أو الفقه بتصيد خيوط رفيعة واهية لا يستقيم أمرها فى محاولة لإثبات (فضل) الفكر اليونانى على الفكر الإسلامى يمكن أن يرمى بأنه تبعية للفكر الوافد مع أن الإسلام حرر نفسه من آثار الفكر الوثنى القديم كله وكشف عن زيف هذا الأثر وأبان عن أصالة وقدرته على الحركة والتكامل بذاتيته الخاصة ، لم يكن : تاريخ الإسلام مطلقاً ، تاريخ صراع على الحكم أو استبداد سياسى أو فتوحات وحروب من أجل الأسلاب والطموح ، أى ، أو تاريخ فرق متصارعة وإنما تعددت المراحل بين القوة والضعف ، ولا بد أن تكون هناك سلبيات معدودة بين الإيجابيات الضخمة ، وإلا فن الذى بنى هذا المجد الباذخ والحضارة الضخمة التى عممت العالم المعروف كله إذ ذاك وتمكنت بصالتها فى كل مكان ، حتى على أوروبا التى رفضت عقيدة الإسلام لم تستطع أن تحول دون منهج الإسلام التجريبي ومنهجه فى المعرفة والفكر حتى لا نجد لغة غربية واحدة ليس فيها تلك الألوف المؤلفة من ألفاظ المصطلحات العلمية وكلمات الحضارة .

(٢) يصور العلامة غلال القاسمى التحديات التى واجهت تاريخ الإسلام بأنها قد حملت فى مجالين : (أولاً) خلق نخبة من الباحثين والرواد لدراسة اجتماعيات وتاريخ البلدان الإسلامية وغيرها فى كل بلد يراد استعمارها وقد تحمل هؤلاء وزر التكليف بالطريقة التى تقنع الرأى العام فى البلد المستعمر بضرورة تقبل التضحيات التى يتوقف عليها الاستعمار ومقدماته وإبراز أن البلدان المستعمرة فى حالة من التدهور المادى والمعنوى تستوجب الرحمة وتهيب بالبلاد الراقية لمساعدتها وجرحها إلى حظيرة المدنية والديانة المسيحية وإلى إثارة روح الطمع فى النفوس بما فى هذه الأرض المراد فتحها من خيرات وأسواق وفى هذا الاتجاه يقع تحريف حقائق التاريخ وقلب أساسه ونتائجه وتكوين أدب لا يسم قارئه إلا أن يقبل ما يجده من معلومات وأفكار مادام غير مختص .

(ثانياً) تكوين الجهاز الاستعمارى الداخلى الذى يرمى إلى تحليل الفكر الاصيل عن طريق القضاة

والمرتزة الذين يحاولون بشئ الوسائل وبالأسلوب الذي يليق بحاجتهم أن يحفروا في النفس كل ما هو أصيل من ماضٍ أو حاضر ويرفعوا كل من قبعة كل ما هو المثل الأعلى عند المستعمر فاللغة والدين وأسلوب الحياة وطريقة المعاملة وهكذا يتحقق تثبيت النفوذ الاستعماري في الأرواح والنفوس والأفكار لإدامة الإستعمار الجسماني والاستقلال الاقتصادي .

وهكذا نجد أن الاستعمار والنفوذ الأجنبي الذي خلف الاستعمار سواء أكان نفوذاً أجنبياً هزيباً أم ماركسياً أم صهيونياً فإنه قد ركز على التاريخ الإسلامي في محاولة لإفساد وجهته ولاحتوائه والحيولة بين الأمة الإسلامية وبين اتخاذها منطلق لبناء حياة حرة كريئة . وقد ركزت القوى الاستعمارية على مفاهيم بنينا ركزت محاولات الماركسية على مفاهيم أخرى وكان للهيهونية جوانب أولتها اهتمامها : وقام الاستشراق في كل جانب بالترويج لدعاوى أتباعه .

(٢) ومن أم المحاولات التي جرى احتضانها بين التيارات الثلاث : مسألة الإنجاء المنصري الذي أريد به تشويه حقيقة دور العرب الحضاري وقد قام بها المستشرقان فلان فلوتن في كتابه الدولة العربية وسقوطها وولهاوزن في كتابه (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) وقد تأثر مؤرخو الغرب ومستشرقوه بفكرة (جوبينو) المنصرية التي أعلنها في القرن التاسع عشر وحاولوا تطبيقها على التاريخ الإسلامي محاولين تصوير أحداثه على صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم وحاولوا أن يظهروا تاريخ القرن الأول الهجري وكأنه صراع دموي بين العرب وسكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا التفسير للكثير من المؤرخين ومفهم مؤرخون عرب حاولوا تطبيقه على مظاهر كثيرة من التاريخ الإسلامي فصوروا حركة القرامطة والحركة البابية على أنها انتفاضات قومية .

(٣) وهناك مستشرقون آخرون عمدوا إلى تطبيق المذهب المادي في تفسيرهم للأحداث وكان مهمهم أن يجعلوا من أسلوب الإنتاج وصراع الطبقات في تلك الفترة أساساً لظهور الحركات والمظاهر المختلفة في الشرق العربي والإسلامي مهملين كافة العوامل المتشابهة والفاعلة الأخرى من سياسية وروحية ونفسية وقومية واقتصادية واجتماعية .

وكان أبرز العاملين في هذه التفسيرات المستشرقون الماركسيون ، فوجد مثلاً المستشرق ضياء الدين نونياتوف في كتابه (أفريقيا في القرون السابع - التاسع) الذي أصدره عام ١٩٦٥ حيث كانت أفريقيا ضمن نطاق الدولة العربية الإسلامية وقد أقم تفسيره للأحداث بطابع يستند إلى المذهب المادي المعروف وسار مؤرخون عرب على نفس الطريق فكان كتاب الدكتور حسن قاسم العزيم عن البابية وانتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية مثالا على ذلك (ولاهيجب فالدكتور حسن قاسم هو تلميذ المستشرق بونياتوف ولذا ذهب في التفسير المادي .

(٤) هناك خطأ العجز عن التفرقة بين مبادئ الإسلام وتاريخ الإسلام في النظر إلى التاريخ

الإسلام ولا يرجع من يفكر أنه كان لنفر من تستموا قة السلطة بعد عصر الخلافة الراشدة مواقف تبهدم عن « منيع الإسلام » ، ولكن منيع المستشرقين يقف موقف « التوبة » ، فيخلط بين سلوك هؤلاء الحكماء وبين مبادئ الشريعة وهناك من قال إن نظام الحكم في الإسلام نظام استبدادي وسوا أن للإسلام مبادئه الواضحة التي تقيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم ، ومع أن توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) كان منصفاً إلا أنه في كتابه عن الخلافة يقع في هذا الإنحراف القبيح ويخطئ في نسبة الاستبداد إلى الإسلام حين يقول :

« والخلافة التي عرفت هكذا كانت حكماً استبدادياً يضع قوة غير محدودة في أيدي الحاكم ويطلب طاعة مطلقة من رعاياه ثم يحاول أن يبرر لماذا كانت الخلافة الإسلامية استبدادية فينسب إلى الملكية الفارسية التأثير في الخلافة الإسلامية بعد أن قضى العرب على سلطان الدولة الفارسية فيقول : ربما كان طابع الخلافة الإسلامية الاستبدادي من تراث الملكية الفارسية كما حازت الجاهة الإسلامية ممتلكاتها لأن المجتمع العربي قبل الإسلام لم يعرف قط أي تشكيل من هذه النظم السياسية ولم يتجاس مع عقيدة القرآن في تساوي جميع المؤمنين » ، ثم يحاول أن يستدل على إدعائه أن الخلافة (أي رئاسة الدولة) تنزع الاستعداد بأحاديث رويت عن رسول الله تبين أن طاعة الأئمة من طاعة الرسول وتأمراً بالسمع والطاعة (رئيس الدولة وإن ظلم ، ويركز على هذا المعنى مرجليوث وماكدونالد وموبر وقد رد على هذه الشبهة الدكتور ضياء الدين الرئيس فقال : إن الإنصاف يقتضي أن يقال أن القرآن تعامله الواضحة التي توجب تساوي جميع الناس في جميع الحقوق فإذا ما قامت رئاسة لا تتفق مع هذه التعاليم التي جاء بها القرآن فهي التي لا تنطبق عليها الصفة الإسلامية ولا يستطاع أي طاعن أن يظن الشريعة الإسلامية حينئذ في سموها وكفالتها لجميع الناس التساوي في جميع الحقوق . وإذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فإنه لا يصح القول بأن هذه الخلافة خلافة إسلامية لأنه إذا كانت قد صادمت تعاليم كتاب الله الذي هو دستور الدعوة الإسلامية فهل يصح أن يذهب إلى الإسلام ما هو متصادم مع دستوره .

(٣) ويتمثل التحيز الشديد في تفسير الإسلام في كتابات أرنولد توينبي . فقد حاول توينبي أن يصور المجتمع الإسلامي وكأنه امتداد للمجتمع السرياني وأرجعه إلى عناصر الآشوريين والفينيقيين والآراميين والإيرانيين وقال إن الإسلام هو الاستجابة الوحيدة الناجمة التي قام بها المجتمع السرياني ليرحز عن صدره طغيان الهيمنة عليه وتحديها بالكابح له . وهكذا عجز توينبي أن يفهم الأصول الجديدة التي قام عليها المجتمع الإسلامي متسكولاً من جديد على مفهوم التوحيد الخالص ، وإن الإسلام قد صهر هذه العناصر جميعها برصاغها صياغة جديدة وأنه أخرج أهل هذه المجتمعات من الوثنية إلى التوحيد ومن العبودية البشرية إلى الأخاء الإنساني . ومن أخطاء توينبي قوله إن الهجرة من القحار الإسلام واعتباره الهامة والفادائية حركتان إسلاميتان ومن ذلك دعوته إلى تبعية الشرق الإسلامي لوكب الحضارة الغربية .

(٤) كذلك جاءت فكري القومي والعالمية بمثابة تحديات أو خطران يراد بهما هدم

الرابطة الإسلامية ، فبدأ القومية يستهدف العنصرية ومبدأ العالمية يستهدف القضاء على الذاتية الإسلامية والدعوة إلى كليهما قد سارت في خط واحد من أجل معارضة مفهوم الاسلام الذي دعا إلى وحدة فكرية واجتهادية بين أمته تملو على المنصر والقومية والدم ، ولقد جاءت دعوة القومية بتعريفاتها تستهدف إجماع الصراع بين العرب والفرس والترك وهم جميعاً مسلمون ويهدف إعلاء شأن التاريخ الاقليمي وذلك بإذاعة دهرات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية وكلها موجات سابقة للاسلام وانبعاثاً لمهود مضت وقضى الاسلام عليها حين صهرها في بوتقة الوحدة الاسلامية .

كذلك فإن مبدأ العالمية الذي طرح على المجتمع الإسلامي إنما أريد به صهر المسلمين وهم في مرحلة المقاومة والمجاهدة والمواجهة للنفوذ الأجنبي في القوى العالمية للقضاء على ذاتيتهم وشخصيتهم الخاصة المتشعبة ، ولقد كانت محاولة تفهيم التاريخ الاسلامي تفهيراً قومياً من أخطر محاولات التهريب والغزو الثقافي وهي ترمي إلى وضع (الاسلام) في بطن (العروبة) أو (القومية) وهي نظرية مادية لا تلتفت لواقع التاريخ ولا تصدق في الفهم المجرد وكيف يمكن أن يوضع الاسلام وهو المنهج الرباني المنزل من السماء والذي غر وجود البشرية في إطار العروبة أو القومية وهي مفهوم بشري فضلاً عن أن العرب لم يكن لهم وجود قومي حقيقي إلا بالاسلام فالاسلام هو الذي بنى الأمة العربية وجودها وهكرها وكيانها وحركة مجتمعاتها فمن العجب أن يوضع في إطار العروبة ويقول البعض أنه إنجاز عرب .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي : إن تفهيم تاريخنا الاسلامي تفهيراً قومياً يقوم على عصبية عروبية تنبذ الصفة الاسلامية من أجل إرضاء نزعة عرقية . ومن ذلك أنهم يعتبرون قضية فلسطين قضية عربية فتتصر في إطار ضيق وقد أدى للتعبث بالقومية إلى إهمال الاخوة الاسلامية في صراعاتها ضد الوثنية والصليبية وقد تسرب هذا المفهوم من الفكر العلماني الغربي ، ومن ذلك أسميتهم الحضارة الاسلامية بالحضارة العربية ووصف الفتوحات الاسلامية بأنها فتوحات عربية ، وتسمية علماء المسلمين على اختلاف أجناسهم ونحلم عرباً وإن كان من بينهم أبي حنيفة وابن سينا والرازي والبيروني وهذا تحريف تضارفت على نسج وقائمة جهود أفراد غير عرب رضوا بالاسلام ديناً وعقيدة لهم والتفهم القومي في حد ذاته مناقض الحقيقة التاريخية ومناقض لمعوم الرسالة التي لا تعترف بالحركات الطبيعية وهي محاولة تركيز العرف على العامل القومي بينما العامل المعقد أعظم منه ولا ريب أن القرآن قد أحدث تفهيراً ملحوظاً في الألفاظ العربية والاستعمالات والأداء ، والحضارة الاسلامية هي التي جعلت للمسلمين قادة الدنيا وهي ليست حضارة العرب وحدهم . ولقد كون الاسلام رجاله عرباً وبجها تسكونها نفسياً وعقلياً فصدروا في حركتهم التاريخية على هداه وسنته . ولم يكن الاسلام منافساً للقومات الجفسيبة لكل أمة من الأمم وشخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون ، وبالعكس فقد عمل على الحفاظ على الكيان الخاص لكل أمة دون أن تتعارض مع المفهوم الاسلامي الجامع .

وكذلك فإن محاولة تفهيم القومي تزييف المفاهيم حين تزعم أن النبي محمد ﷺ إن هو إلا بطل من أبطال العرب ، وإن الاسلام مجرد تعبير عن مكان عبثيتهم واختراع من اختراعهم .

وقد تذبذب باحثون غربيون كثيرون إلى أولية الاسلام وحقق جفوره وفساد هذه المحاولة جهلهم
ويطرد كانتول سميت : إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة
لللائمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تشر الجهود.

وهكذا تجد أن النزعة القومية نزعة غير أصيلة وليست صحيحة . وإنما جرى معها المسلمون سواء
كانوا عرباً أم فرساً أم تركاً في هذه السنوات الأخيرة متابعين للتيارات الغربية في كتابة التاريخ وقد
بالغوا منها مبلغاً شديداً عندما مزقوا التاريخ الإسلامي مرتين مرة بجملة عربياً ومرة أخرى بجملة
إقليمياً وقومياً ضيقاً وكانت محاولة انتزاع تاريخ إقليم أو قطر من تاريخ الاسلام عملية شديدة التعريف
والخطأ والفساد لأنها تلتصق وسائل مصطنعة وهي عاجزة عن انتزاع جزء من التاريخ من مجرى هذا
لتاريخ الاسلام العام الذي يحمل البواهب ويحمل المقدمات ويحمل الوسائل ويحمل التحديات ويحمل
ذلك التاريخ ناقصاً وزائفاً لأنه غير مرتبط بأصوله وخيوطه العامة الممتدة إلى أكثر من أربعة عشر
قرناً . وقد كان من أخطر أساليب هذه الدعوة حجب الاخلاق الإسلامية الثابتة وإحياء التقاليد الفجعية
والعادات الوثنية المتوارثة والاستعلاء بالفرعونيات والفينيقيات على ما بها من زيف والتغنى بها بينما
لا يوجد في تاريخ العرب أو المصريين أو الشوام أو المغاربة أعظم أثراً من الإسلام الذي صنع حياتهم
من جديد فضلاً عن أن الإنقطاع الحضاري بين ما قبل الاسلام وما بعده هي حقيقة لا ريب فيها وقد
تبين أن الهدف من الدعوة إلى القومية حجب التاريخ الإسلامي كله والحيلولة دون أن يكون المضمون
الاسلامي هو عماد الحاضر والمستقبل والادعاء بأن هناك فكر مصري أو عربي منفصل عن الاسلام .
ولقد سقطت هذه الدعوات وانهارت في السنوات الأخيرة بعد أن تبين هدفها من محاولة إخراج التاريخ
الاسلامي عن طريقه الاصيل بالتفسيرات القومية أو الماركسية أو الغربية المادية وبعد أن تكلف
فساد نقل واقعباس الانظمة الغربية أو الماركسية في أفق المجتمع الاسلامي وضرورة التماس منهج
الاسلام الاصيل لمنطلق تحقيق لبناء النظام الجديد .

واقدر كان من هدف التغريب والغزو الثقافي عن طريق الارساليات والتبشير والاستشراق إشاعة
هذه المذاهب المتعددة قومية وماركسية ومادية لا تارة الاضطراب والبلبل والحيلولة دون جمع العرب
والمسلمين على وحدة تدفعهم إلى الطريق الصحيح .

وقد جرت محاولات التغريب والاستشراق إلى استخدام التاريخ في سبيل الدعوة إلى الاقليميات
والقوميات الضيقة أو إلى الشيوعية أو الشيوعية لاثارة الاحقاد والفتن أبناء الأمة الاسلامية الواحدة
ولإحياء الدعوات الباطنية والطائفية والطبقية والفرق الضالة من جديد لتزيق وحدة هذه الأمة ولهدفها
إلى التناحر والصراع ، ولقد آن للعرب والمسلمين أن يتنبهوا إلى الخطر الذي يأتمهم من محاولة تفسير
تاريخهم عن طريق واحد من هذه المناهج ، إنما الهدف هو تزيق الجبهة الواحدة ولقد كان هذا من أخطر
ما مارسته القوى الاستعمارية ما تزال تعمل به لتحقيق الفرق وبشرة القوى بالدعوة إلى الاقليميات
والقوميات وتفسير التاريخ تفسيراً مادياً أو ماركسياً وسيظل الدعوة على جمع العمل الوحدة والتكامل

الجامع . طاجرة ومضطربة ما لم تكشف فساد هذا الاتجاه وتدمغه وتلتهمس الأصالة واقد كانت التجربة واضحة غاية الوضوح بعد ذلك للصراع الطويل .

(أولاً) : لقد عجزت مناهج الشرق والغرب جميعاً عن استيعاب النفس العربية الإسلامية .

(ثانياً) : أنه المنهج الذي طرح عن القومية منهج غربي مجاني لمفهوم الاسلام لأنه يفصل العرب عن هيمم ويفصل العرب عن الاسلام ويفصل المجتمع عن روح الدين والخلق .

عصارة البحث

(أولاً) التاريخ هو صورة تحقيق خلافة الإنسان في الأرض وتعمير الكون والحياة في هذه الأرض بالنسبة للإنسان فترة اختبار يتمن فيها بشئ الوقائع المضادة ليحتل مكانه الجدير به في تطبيق منهج الله ومقاومة القوى التي تريد إفساد الأرض وتدمير المجتمعات وعلى الإنسان أن يثبت أنه على مستوى الامتحان وأنه أهل للأمانة الملقاة على عاتقه .

(ثانياً) غاية التاريخ الإسلامي الوصول إلى قيام المجتمع الرباني في الأرض والتحكيم له ، على أساس الاطار الانساني والعدل والرحمة ، والتاريخ الاسلامي هو الثروة الصحيحة للتاريخ الانساني عن طريق بناء المجتمع الرباني وعصارة تجربة النبوة والتاريخ بالنسبة للحاضر : هو معرفة الظروف التي كونت هذا الواقع ولذلك فإن علاج هذا الواقع لا يتحقق إلا إذا تعرفنا على العقبات لمواجهتها والتفهمنا للأسار الاصيل ، ذلك أن فهم الماضي ضرورة لادراك الحاضر ، وأن تكوين الوعي التاريخي ضرورة لفهم مشاكلنا الحاضرة .

(ثالثاً) ليس هناك حتمية تاريخية تقود الإنسان إلى مصيرها فأعمال الإنسان المختارة هي السبب في صنع التاريخ وهو المستول عن حركته وليس مجرد حتمية القوانين ساذجة محددة تنطلق به من مرحلة إلى مرحلة ومن هنا فالتاريخ هو حركة الإنسان في الحياة ولقد تبين فساد رأى الماديين الذين أرادوا أن يدخلوا التاريخ في نطاق العلاقة الطبيعية وزعموا أنهم يستطيعون التحكم في مجراه على هذا الأساس ووضع قواعد عامة تحكم في مجراه وتحدد اتجاهه . ذلك لأن كل جماعة من البشر تواجه الظروف الجغرافية والتاريخية والبشرية والمعاكل على نحو مختلف . ومن ثم فإنه لا يمكن التحكم في سهر التاريخ لأن مادة التاريخ هي الإنسان والانسان يتميز بخاصة الذكاء والشخصية ولما كان الذكاء لا يمكن قياسه أو التحكم فيه ولما كانت الشخصية تختار من إنسان إلى إنسان فإن من شأن هذا أن يدحض فكرة إخضاع التاريخ للمناهج المادية والتجريبية .

(رابعاً) الصراع يجري في التاريخ بين قوتين : قوة الحركة الرأبئية التي تمثل الجماعة التي سندها النبوات

وقوة النمر التي تمثل الجماعة التي صنعها الفكر البشري القائم على الوثنية والمادية والاباحية ، والصرع
سمة مرحلة الانهيار والافول ومنها يفقد الإنسان القدرة على الحركة نحو الاصله والتقدم وهو ليس
السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ كله ، أما الحياة والمجتمعات وحركة الكون كله فإنها تسير على
طريق التعاون والتكامل بين العناصر المتعارضة وليس من طريق الصراع ، وأن التقاء السالب مع الموجب
هو تكامل لا تناقض .

(خامساً) كل تفسير للتاريخ يكتفى بالتمويل على جانب واحد من النفس الانسانية فهو تفسير
ناقص ، وأن اصدق تفسير للتاريخ وهو الذي يدرك الجوانب الانسانية وينظر إلى الحياة الإنسانية
من مختلف جوانبها ، كذلك فإن تقسيم التاريخ الاسلامي على مفهوم التاريخ الغربي ومصوره تقسيم
خاطئ . وأبرز هذا الخطأ اعتبار العصور الوسطى هي تصور ظلام مع تجاهل أن العالم الاسلامي في
هذه العصور كان يحمل لواء الحضارة . ومن الخطأ القول بأن هناك حضارة واحدة هي الحضارة الغربية
وأنها امتداد الحضارة اليونانية الرومانية وكذلك خطأ تقسيم شعوب العالم إلى فئات وأجناس وإعلان
زعة العنصرية في الجنس الأبيض أو شعب الله المختار .

(سادساً) خطأ فهم الاسلام على أنه دين صلاة وصوم وحج ، أو أن القرآن كتاب عبادة وتراويل
وخطأ دراسة حياة الرسول متقطعة الصلة عن تأثيرها في التاريخ الاسلامي على مر العصور وخطأ
التركيز على المتعاطب التي تستهدف سوء القصد وسوء الفهم ، كذلك لا يمكن فهم التاريخ الاسلامي
فهما واقعياً تقنياً دون معرفة عقيدة الاسلام وشريعته ولا يمكن فهم التاريخ الاسلامي إلا بالتفرقة
والواضحة بين منهج الاسلام وبين تاريخه .

(سابعاً) ليس تاريخ الاسلام تاريخ حروب ولا تاريخ مفاوضات سياسية ولم تكن حروب الاسلام
بمعنى الغلب ولكن بمفهوم الجهاد في سبيل الله وغايته السامية .

ووحدة تاريخ الاسلام واضحة فهو متصل الحلقات يصب ماضيه في حاضره ويمهد لمستقبله وتاريخ
الاسلام لم يفقد خلال أربعة عشر قرناً عنصر الوحدة والاتصال يوماً واحداً .

(ثامناً) لقد تبين فساد التفسير المادي الذي يحاول أن ينسب عن الاسلام طبيعته الربانية ،
وتشويهه في نفوس أهله ، ولم يصدق القول بأن الفتوحات الاسلامية دوافع اقتصادية فقد حفل
تاريخ الاسلام بالقادة الذين لا يذكرهم أسمائهم ، والذين استشهدوا دون أن يعرفوا ما يورثون
والذين كانوا في معاركهم أقل عدداً وعدة وتنظيماً ومكانيات وتدريباً والذين تركوا كل ما يمكن
في مكة لقريش والذين أقسموا ما لديهم مع اخوانهم المهاجرين والذين قدموا أنفسهم وأرواحهم في
أعلى المعارك والذين ردوا الجزية لأهل حمص عندما انسحبوا منها ، والذين عبروا نهر دجلة أبان
بازدهه ولم ينتظروا نقصانه .

وليس في التاريخ الاسلامي موجه كإحدى الموجهات الأخرى في التاريخ وليس الاسلام دهوة أدت دورها أو استنفذت أغراضها وتلك هي — أذبح الفاخرة قد صنعها الاسلام ولم تصنعها اليه أو العرق .

لقد كان انتشار الاسلام هو الغز الذي أدهش المؤرخين ، وعجز عن فهمه المستشرقون ، فقد جاء دون تفوق في العدد أو العتاد وخفى سره ، وسره هو الايمان بالله الذي بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، وهو الايمان بأن الله قد ضمن لهم النصر وعدم الهزيمة فوؤءوا بنصر الله واندفعوا يحطمون القوانين المادية فأدمهوا العالمين .

الرسالة الثالثة

الدعوات الهدامة

مداخل :

افت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى الدعوات الضارة . والمذاهب الهدامة ، ووضح الأسس الثابتة لمواجهة الشبهات ، وكشف عن مخططات الاحتماء والتبعية ، وتحريف الأصول الثابتة ، ووجه للمسلمين إلى الحذر عن متابعة غير المسلمين والناس ما عندهم ، ودكتور من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .

• يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

• ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل .

كذلك كشف الله حقيقة موقف البشرية من العلم ، وكيف خالف فيه قوم ، واتمسوا منهاجاً غير منهج الله ، وكان الناس أمة واحدة فيبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . ولقد كانت محاولات الدعوات الهدامة منذ قديم جارية إلى هدفها المرسوم لإثارة الشبهات ، وتوبيخ الحقائق ، والهدم عن طريق مذاهب ، لها بريق العلوم وأسمائها . وهي في مجموعها تقوم على أساس إدخال السموم والريوف إلى الفكر البشري لنقله من ربانيته ، وطابعه الإنساني ، ومصادره التي جاء بها الأنبياء . وكتب السماء إلى تلك المخططات التي رسمتها التلودية ، منذ قديم ، وأقامتها على أساس الوثنية والمادية جميعاً .

وفي العصر الحديث ظهرت علوم تحمل هذه الشبهات ، وتحاول أن تفرضها كقررات طيبة . فقد استطاعت هذه القوى أن تدس عن طريق علم مقارنة الأديان ما يراد به تزييف حقيقة الدين وتاريخه كالقول بأن البشرية كانت وثنية ، ثم تطورت إلى التوحيد . كما استطاعت أن تدس عن طريق علم الجنس البشرية مفهوماً يقضي بإعلاء العنصرية والدماء . ويحطم قاعدة الاسلام الأصيلة القائمة على وحدة الجنس البشري وهناك نظريات متعددة تطرح لمعارضة الدين أصلاً ، وهدم التوحيد ، ومذاهب تستهدف هدم الأخلاق والأسرة عن طريق مناهج المدارس الاجتماعية ، وهناك التفسير المادي للتاريخ وهناك نظريات فرويد في الجنس ، ونظريات لبني بريال في نسبية الأخلاق .

وبالجملة ، فهناك محاولة ضخمة إلى نقل الفكر البشرى من مجال أصالة الفطرة ، ومنطق العقل ، وطريق التوحيد ، وطابع الإيمان إلى مجال الإلحاد والإباحة والوثنية والمادية وهى دعوات تستمد أصولها من مخططات بروتوكولات حكماء صهيون ، الى هى الصورة المستحدثة لمخططات التلود ، من يجب أن القرآن قد كشف عن هذه المحاولة الخفاية بأكملها ، وأبان عن تلك الجماعة التى فرضت على البشرية فكراً مضاداً للفكر الربانى المصدر ، الانسانى الطامع ، وشكلت محتوى ، ومفهوماً ، وفلسفة كاملة ، وقد جاءت الرسائل تترى لتصحيح هذا المفهوم ، وكان الاسلام هو خاتم الرسائل فى تحطيم هذه المفاهيم ، والكشف عن زيفها على نحو صريح قائم على البرهان الحق ، ودو هدى صحيح وضو ، كاشف لكل من يلتزمه ، وتجرى الآن محاولة (اليهودية التلودية) فى نطاق النهج الذى حملت الدعوة إليه على مدى العصور فى معارضة الفطرة ودعوة السماء . وفى محاولة إخضاع العالم كله للنهج الربوى : (طالية الربا) . وهو الآن يأخذ طريقه إلى النفوس التى جهلت الحق وعشيت عن نوره الكاشف .

واقعد اختار الله المسكين ليحموا الكلمة المؤمنة الربانية فى وجه هذا الباطل ، وعليهم مسؤولية محض هذه الشبهات ، وعليهم أمانة الدفاع عن الحق ، وكشف الويف ، جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، ولاريب أن هذه الدعوات الهدامة قد سيطرت على الفكر الغربى ، وأوشكت أن تحتويه ، وهى اليوم تواجه الإسلام ، طمعاً فى أن تسيطر عليه ، ولكن الاسلام بمفهومه الصحيح ، وكتابه الموثق وصموده أمام الأحداث ، ومواجهته الصلبة لكل فكر وافد ، أو مذهب زائف ، سيظل قادراً على أن يرد الخطر ، ويكشف وجه الحق ، ويبطل الباطل ، ولاريب أن الفكر التلودى الذى الوثق فكراً مراوغ براق ، يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليه داخل مناهج علمية ، ولكنه مهما خدع بعض البسطاء فإنه لن يستطيع أن يثبت أمام صولة الحق !

وإن نظرة واحدة إلى هذه المذاهب لتكشف عن أنها مفاهيم قديمة وثنية من ركائف الفلسفات الهلينية والغنوصية والجوسية ، وما يتصل بها من السحر والأساطير ، تحاول أن تصاغ فى أسلوب براق ، وأن هذه الدعوات وجدت طريقها حين عجز الدين فى بيئات الغرب عن المعاء . وحيز انفصاح الأخلاق عن الدين ، وضاعت مفاهيم الالتزام الأخلاقى والمسؤولية الفردية . هذه النظريات التى كشفت السنوات الأخيرة عن بطلانها . فقد كان لتحول الأحداث أبعد الآثار فى وجودها ، واضطرابها بما دفع أصحابها إلى إعادة النظر فيها ، وتجديدها ، فقد تصدعت الفرويدية والماركسية والوجودية والهلينية لأنها قامت على أصول غير صحيحة ، ومضت مضادة للتيار ، ومعارضة للفطرة ، وقد فات الذين طرحوا هذه المذاهب فى البيئات الاسلامية أن يعلموا أن هذه الدعوات إنما نشأت فى بيئات خاصة بها ، ومن خلال تحديات مختلفة ، ومن هنا فإنها لا تصلح لبيئات أخرى ، وأن العقيدة الإسلامية لها قيمها الأصيلة التى تعارض فصل الدين عن الأخلاق ، والتى تنكر أن الانسان مادة فقط ، والتى تفرق بين قوانين البشر وقوانين الله . وتفصل بين الله وبين البشرية والعالم وتنكر الوساطة بين الله والناس . ولا تقر إسقاط التكليف عن أى مسلم مهما بلغ من درجات الإيمان ، ولا تقبل الدعوة إلى صراح الاجيال ، أو

إطلاق الحرية من جميع ضوابطها ، أو معارضة عالم الغيب والبعث والجزاء . وترى أن هذا كله إنما يراد بالبشرية لتحطيم الجدار القوى الذي تستند إليه في علاقتها بالله والدين الحق بما يسلبها جيلا بعد جيل ، إلى السقوط في أحضان استعباد خطير . وعبودية المخططات التلويديّة المتطلّعة إلى السيطرة على العالم بعد تحطيم قيمه وأخلاقه ومقدّراته . وتلك أخطر المخططات التي تمنح البشرية والتي طرحها في السنين الأخيرة عشرات الدعوات والمذاهب والفلسفات المضلّة الهدامة . وكلها تقصد الإسلام اليوم . فهو القوة الوحيدة التي تستطيع أن تصمد في وجه الإلحاد والمادية ، والوثنية ، والإباحية ، والمسلون مطالبون دائماً باليقظة والمواجهة . والتصدى لكل القوى التي تحاول أن تفت في عضدهم ، أو تفسد مقوماتهم ، أو تحطم معنوياتهم . وأول علامات اليقظة هو فهم هذه الدعوات ، ومعرفة موقف الإسلام منها ، وهذا ما نرجو أن نحاوله في هذه الدراسة المتواضعة ،

مصادر المذاهب الهدامة

- (١) الغنوصية : الفلسفة الشرقية القديمة
- (٢) تحريف العقيدة السبئية
- (٣) المذاهب الهدامة والإلحاد
- (٤) الله في مفهوم الإسلام
- (٥) عقيدة البعث .

أولاً : الغنوصية

الفلسفة الشرقية القديمة

الغنوصية : مصطلح للفلسفة الشرقية التي كانت ذاتمة قبل نزول الإسلام ، وتقوم في مجموعها على فهم بشري ، بشكل نظرية مختلطة من عدة مذاهب وعقائد ، ومعارضة كل المعارض لمفهوم الإسلام والتوحيد القائم على أساس الفطرة . وتتألف الغنوصية — التي هي اسم على المعرفة « Gnosis » من مذاهب متعددة : منها المجوسية والمناوية والورادشية والديسانية واللردكية ، وللندائية ، والفرقوية ، وتجمع في مقاصدها :

- ١ — عبادة النار وتقديسها .
- ٢ — افتراض وجود إلهين : إله خمد وإله شر ، أو نور وظلام .
- ٣ — استباحة المحرمات ، والدعوة إلى شيوعية النساء والأموال . وإباحة تكاح الأخوات ، والاغتسال بالبول .
- ٤ — رفض الذبائح ، ورفض إراقة الدماء ، والومد في أكل اللحوم . وفي
- من الماء الطهور . ولا ريب أن الفكر الشرقي القديم الذي ظهر عن المصريين والفرس والآشوريين والبابليين والهنود والصينيين ، والذي قام على مفاهيم وثنية وثنائية ومثلثة إنما هو حصيلة التضارب الذي وقع بين الفكر الإنساني الرباني المصدر الذي جاءت به الرسالات والأديان المتهاجرة ، وبين هادولاهم

الفكر البشرى للخروج من الضوابط والحدود والقيم الأخلاقية والفرائع التي شرعها الحق تبارك وتعالى لعباده ولذلك فإن من أخطر ما يقوله باحث من الباحثين : أن البشرية بدأت وثنية ، ثم عرفت التوحيد بنزول الأديان الثلاثة : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام . وقد سجل للقرآن خطأ ذلك في قوله تعالى : وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، وقال تعالى : وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، وتمثل الغنوصية في الفكر الشرقي القديم مكانة الهلينية في الفكر الغربي الحديث . وقد قامت الغنوصية على مفهوم الإشراف والمعرفة عن طريق الروح والبصيرة ، بينما قامت الهلينية على مفهوم العقل والمعرفة عن طريق المنطق . وإن من يقرأ عصارة الفكر البشرى وحصيلة التراث القديم يرى كيف تراكم آراء وزعات متضاربة فاسدة غاية التضارب والفساد ، تقوم على الإبادة والشك ، والضلال والاضطراب .

فالدهرية : تقول بقديم العالم ، وإن العالم بلا إله ولا صانع والطبيعة تقول بأن التراب والماء والنار والهواء هي أصول كل شيء والثنوية تقول : إن صانع العالم إثنان : الخير والشر . أو النور والظلام وهما قديمان . والبرهمية : تقول بتعظيم النار ، والنهي عن قتل الدواب ، وإبادة الونا . وتقول بالتناسخ والتثليث والتجسد (التناسخ) : إنتقال الروح من جسد إلى جسد (التجسد) : إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين والفلاسفة تقول بإنكار بعم الأجساد ، ورد الأرواح إلى الأبد والصابئة تقول بعبادة الملائكة واعتبارها آلهة .

والنجوس تقول بعبادة النار ، والصلاة إلى الشمس ، ومنع الاغتسال بالماء تعظيماً له واستعمال بوله البقر بدلاً منه وقد أخذت الدهوات الهدامة من المذاهب الضالة . فأخذ القرامطة مشاهدة النساء والأموال التي دعا إليها مودك . وأخذت الباطنية إنكار البعث والجزاء . وأخذت السبئية الوصاية والرجعة وهكذا وإن أخطر ما تحمل هذا المذاهب من معارضة للإسلام : هو إلغاء التكليف ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي . والدعوة إلى إسقاط فرائض الإسلام . وإبادة ارتكاب المحرمات . والإغراق في الفئات ، والقضاء على الفوارق الواضحة بين الخير والشر ، والتقوى والإبادة ، والفضيلة والرذيلة .

وقد استعرض الدكتور على سامي النشار مفهوم الغنوصية وقارنها . فأشار إلى أن كلمة Gnosis (غنوص) إنما تعني المعرفة . غير أن الكلمة لم تلبث أن اتخذت معنى اصطلاحياً خاصاً هو : الاتجاه نحو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف . أو محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى في النفس إلقاء : وأشار إلى أن الغنوص هو عصارة مذاهب فارسية وسريانية . وأفلاطونية . وفيثاغورية . ولها اتصال بالمسيحية . واليهودية . والإرادية . واللاهوتية . يقول الدكتور النشار :

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن الغنوص استطاع أن يغزوها غزواً عظيماً ، فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين في مقدمتهم القديس أوغسطينوس . أما الإسلام فقد واجه غنوصي اليراداتية واللاهوتية والثنوية . وقد ظهرت هذه العقائد في شكل طوائف خاصة . دعيت

باسم الباطنية أو الغلاة أو القرامطة ويهيد الدكتور النشار إلى أن الغنوص استطاع أن يلقى بظله على الفلسفة وخاصة الفلسفة الصوفية فيما يتصل بنظرية الفيض . أو العقل الأول . أو النور وبعد الحلاج والسهورودى المقتول من ضحايا الغنوصية وتجاوز مفاهيم الإسلام في البحث عن مثل أعلى للحياة الإنسانية يستند على التعامل الباطنى بعيداً عن منهج الإسلام في المعرفة المستمدة من القرآن .

(١) إحياء الباطنية القديمة

كان لابد من إحياء الباطنية القديمة لأداء نفس الدور الذى قامت به ، وقد أخذت الدهرية من الباطنية القديمة تمردها على الإسلام ، وأضافت إليه ما توصلت إليه أساليب البحث من قدرة على تزيف الوقائع وطلائها بالبريق الذى يخطف الأبصار . بما يحقق نشر الإلحاد والإباحية تحت ستار العدالة والمعروف أن الباطنية القديمة ، قد وضع جذورها في ودى قديم مشهور ، هو عبادة بن سبأ . الملقب بابن السوداء الذى قال بحلول الإله في بعض عبادته ، ورجعتهم بعد موتهم الظاهرى . ومن ابن سبأ نشعت فرق الغلاة ثم تبلورت الافكار الباطنية في القرن الرابع على أيدي قول الجوسية المنهزمة ، وتسمعت إلى فرق متعددة تربطها غاية واحدة هي القضاء على الإسلام . وشريعته الخالدة .

وإن أخطر ما طرحته الباطنية - وما تزال تطرحه للمذاهب الهدامة ، هو (التأويل) الذى يؤدى إلى تعدد وجهات النظر ، وتبيان الآراء دون الاستناد إلى قاعدة معلومة وهذه تتبع الأهواء والرغبات التى يرضع منها الحق ، أو تشوه معالمه . وكان ضرر الباطنية على الإسلام أكبر من ضرر أعدائه الصرخاء وذلك أن الباطنيين أباحوا لاتباعهم جملة الممذات والشهوات ، وأسقطوا عنهم فرائض العبادات كما أباحوا لهم ، وقد تأويل أركان الشريعة قبل علماء المسلمين من مترجمات اليونان علوم الطبيعيات والرياضيات وغارضوا الإلهيات والميتافيزيقا اليونانية . وقالوا : إن لنا علمنا في هذا المجال واستنا في حاجتنا إليها .

وقد ثبت أن هذه الإلهيات ليست سوى (علم الأصنام عند اليونان) وأنها عبارة مفاهيم الوثنية القومية وقد ترجموها إلى لغة الفلسفة ، وأضافوا عليها صبغة من الفن . وما العقول والأفلاك إلا رموز للوثنية الإغريقية القديمة . وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها ، إلا عقلية توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنية تعارض التوحيد ، وتحل محل عقيدة الصفات الإلهية .

ومن خلال هذه المفاهيم عن الإلهيات اليونانية . جاءت معارضة التوحيد والنبوة ، والوحى ، والبعث ، والجزاء . وهى الأصول الأصلية للإسلام والتي يعد من يجعلها خارجاً عن الدين . وقد اتخذ خصوم الإسلام والعرب والدولة الإسلامية من إذاعة الإلهيات اليونانية وسيلة إلى هدم الدين على طريقة (الهدم من الداخل) المعروفة . ذلك أن إسقاط التكليف وإسكار المسؤولية الفردية والانزواء الأخلاق والجزاء الأخرى من شأنه أن يفتح الباب واسعاً أمام حرية الشهوات والذات والدعوة إلى الإباحية ، وعبادة الجسد . وقد كانت هذه هى الإعلام التى رفعتها الدعوة الباطنية .

بشكل عناصرها ، وتحث أسمائها المختلفة للتمعدة . وقد اتخذوا هدفهم مدخلا زائفا حين قالوا : إن التريفة قد دلست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها أو تطهيرها إلا بالفلسفة يقول العلامة أبو الحسن الندوي : وشعروا بأن الاسلام لا ينهزم في ميدان الحرب ، وأن للسلي لا تصح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية . لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوباً لا يرجع للمسلمين . ولا ينيرهم . هو الفرق بين الظاهر والباطن . عن طريق الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها فمن طريق هذه المصطلحات تقوم الصلة بين المسلمين بماضيم ومناجهم الصافية . فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعاني وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ، ومفهوم معين ، تسرب الشك والاختلاف إليها ، وأصبحت هذه الأمة فريسة لكل دهوة وفلسفة ، قالوا إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري مع الظواهر تجري الب من القشر ، وأن تصوراتها توم الجبال صوراً جليلة ، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية ، وأن من تقاعد عقله عن الفوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأهوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع . ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه . .

ولما تقرر عندهم أن لكل لفظ ومعنى شرعي ظاهراً وباطناً . وأن الباطن هو القلب استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم يقولون : للشرائع باطن لا يعرف إلا للإمام ، أو من ينوب مثابه ، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرهما ، فكلها أسنة ورموز إلى بواطن فمعنى الفصل : تجديد العهد عليه . ومعنى الظهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية . ومعنى التيمم : الأخذ لعلم من المأذون . ومعنى الصلاة : الذهاب إلى الإمام : ومعنى الزكاة : بث العلم لمن ينزكي ومعنى الحج - طلب العلم الذي تعدد رحائل العقل إليه .

وتقوم الدعوة الباطنية على قاعدتين : القاعدة الأولى : التمييز بين الظاهر والباطن . القاعدة الثانية : تفضيل الباطن ولقد تدرجوا في الاستخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، فقد كان الأئمة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا : أن الظاهر متناقض ومعوج وأنه علم كثيف وأنه تقليد محض لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر ، هم أهل الكفر بل أهل الشرك وقد تأسست الباطنية على الفلسفة اللاهوتية اليونانية . وعلى الطبيعيات وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها . وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم .

وقد أشار الدكتور زاهد على إلى هذا المعنى حين قال : لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم . وفي علم الطبيعيات ، وفي علم الإلهيات صحيحة ، لا ينطرق إليها الشك ، فاستعنا بها في إثبات دعوتنا . وقد حرص دعاة الباطنية على إغراء الناس بما يحبونه ، والتحدث إليهم عن طريق رغباتهم ومطامعهم ، وقد أورد المؤرخون خطابه زعيم القرامطة الذي جاء فيه : « أوج الناس بأن تقرب إليهم ، يكون إليهم ، وأفهم كل واحد منهم بأنه منهم ، فمن أنصفهم منه رشداً فاكشف له الغطاء وإذا ظفرت بالإنسان فاحفظ به أهل الخلافة معركتنا ، ومكنا ، وأجارات الباطنية أن تقدم مقام المصطلحات الإسلامية

التي جاء بها القرآن والتي يتفق المسلمون على معانيها : كالنبوة ، والرسالة ، والملائكة ، الميعاد والجنة ، والنار ، والشريعة . والواجب ، والحلال ، والحرام ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . فقد ابتدعوا لكل مصطلح منها مفهوماً مخالفاً للحقائق الأساسية التي تعبر عنها هذه الكلمات . وقد وصف الأستاذ الندوى الدعوة الباطنية بأنها (ثورة على النبوة المحمدية) ذلك لإنكارها المفاهيم الدينية التي توارثتها الأمة ، وتفسير الكلمات الشرعية ، والمصطلحات الدينية . حسب الأغراض والأهواء . والفصل بين الظاهر والباطن . حتى إنهم يقولون : التزويل هو الجسم والتأويل هو الروح ، والهدف كما أورده المؤرخون والباحثون واضح وصريح هو الانقضاء على الشريعة الإسلامية بمثل في دولتها ، وإنشاء مجتمع آخر أشارت إليه الإشارات والرموز في رسائل إخوان الصفا وغيرهما . ذلك قولهم : فإن ساطة تتصل بأهل الزمان جميعاً ، ويصير العالم بأسره له جسماً وآلة وجنوداً وأبداناً ، ويكون هو بمنزلة الرأس : أي العقل وقد جمعت هذه الدعوات المناهضة للملحدين ، وطلاب المغانم والملمات ومن هذه الدعوة القديمة انطلقت الدعوات الجديدة (البهائية - والشيوعية - والدهرية - والروحية الحديثة . والغرفانا - واليوجا .) وكلها تعمل على تأويل الكلمات الشرعية المتواترة تأويلاً لا يقوم على القياس والمنطق ، وتنتج إلى إنكار الحقائق الغيبية . وغاية الدعوة الباطنية : الإلحاد في العقيدة ، وإلغاء الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية المؤدية إلى الجزاء في الآخرة ولا تزال الدعوة إلى التأويل ، أو علم الباطن من أخطر الدعوات الهدامة التي تواجه المسلمين في العصر الحديث ، وغايتها رفع التكليف والضوابط ومعارضة حدود الله ، ودفع الناس إلى الشهوات والذات في صيحة خطيرة على حد تعبير أحد فلاسفة العصر : « بول هازار ، الذي يقول : « هل نترك السعادة وديعة بين يدي العالم الآخر ، إن علينا أن نقتنصها على الأرض ، أسرعوا فنحن في عجلة ، لا ضمان للقد . ولا حيرة إلا في الحاضر ، غافل من يتأمل على المستقبل ، فلنضمن أولاً رفاهية بشرية صرفة . » . وعبارة الباطنية : تعمي الثورة النهائية التي وصلت إليها المحاولات المأكورة في إنشاء صورة خادعة مغرية . ذات بريق زائف . هي القول بأن لكل معنى من معاني الإسلام والقرآن ظاهراً وباطناً . وهم يجهلون السكل لتزويل تأويلاً . يقول الدكتور أبو العلا هنيق :

« أما تأويل إخوان الصفا لآيات القرآن والحديث ، ولا سيما ما يتعلق منها بأمور الآخرة من جنة ونار ، وبعت وحشر . . الخ فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم . وهو قلب الإسلام ، وهدم عقائده . ومبادئه من أساسها . »

(٢) تحريف العقيدة السنية

إن أخطر الدعوات إلى تحريف العقيدة وإخراجها من أصولها القرآنية . بدأت مع صيحة عبد الله بن سبأ . فقد كان يقول لطائفة من الناس : (أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيهود إلى هذه الدنيا ؟ بلى : فرسول الله أفضل منه . ألم تذكر أن يهود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى ؟ وقال : إن السكل بي وصياً وعلى وصي محمد ومحمد هو خاتم الأنبياء ، وعلى هو خاتم الأوصياء .)

ومعنى هذا أن عبد الله بن سبأ نادى بمبدأين ليسا من دين الله الحق في شيء وهما من تحريف اليهودية: مبدأ الرجعة ، ومبدأ الوصاية . وفي صميم الاسلام وجوهه . لا يعرف المسلمون ذلك ، ولا يقرونه وقد أضاف ابن سبأ . قداسة خاصة إلى الإمام علي . فسماه وصياً وولياً ، ومهدياً ، وإماماً ، ونبياً ، وإلهياً . وقد روى الطبري أخبار عبد الله بن سبأ ، وكيف كانت دعوته خطراً من أكبر الأخطار التي واجهت الاسلام في هذه الفترة من خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه . وليس في الاسلام وصية ولا تناسخ . وهي كلها من الافكار المجوسية القديمة ، وقد كانت هذه الدعوى - دعوة تحريف العقيدة - من أول الصدع الذي واجه الاسلام وأن الباحث المتعمق لآثر عبد الله بن سبأ وحركته في مصر والكوفة والشام والحجاز ، ليعرف بوضوح أن هذه الآراء ، وما وراءها من دعوة إلى الانتفاض على الدولة في عهد سيدنا عثمان ، ومن ظلم أسيدنا علي ، هي مصدر تلك الفتنة التي أصابت الاسلام في تلك المرحلة من حياته ، والتي انصلت بعد ذلك بأمور كثيرة .

يقول الأستاذ محمد سعيد الأفغاني : إن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة : كعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعائشة هو بهمة التمييز من التبعات الثانوية ، أما أقوى الأسباب التي أرقت الشعب وهاجت الاضطراب فهي مؤامرة واسعة محكمة سهر عليها أبابسة خبيرون وتعمدوها في جميع الاقطار حتى آتت ثمرها ، ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحقه من التوضيح والاهتمام ورأس هذه المؤامرة ، د عبد الله بن سبأ ، المعروف بابن السوداء إلى أو من أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي التي يذكرونها لما كان عمل ابن السوداء وحده كافياً في بلوغ الغاية المشؤومة ويجمع الباحثون على أن عبد الله بن سبأ ، كان على رأس جمعية سرية مختصة غايتها تقويض الدولة الاسلامية ، والقضاء على الاسلام . وأن هذه الجمعية كانت تعمل لحساب دولة أجنبية . هي الدولة الرومانية التي انتزع منها المسلمون لسنوات قليلة قطرين كبيرين هما مصر ، والشام .

وأن ابن سبأ كان مؤسساً لعمل خطير امتد من بعد في الحركة الباطنية وفي دعوات التفریب والنزول الثقافي في مصر الحديث ذلك هو العمل الذي حاول نسب العقيدة الاسلامية من أساسها بإدخال ما ليس منها فهو الذي اختلق للمسلمين ما يسمى : بالرجعة والوصاية ، ويؤكد الباحثون على أن ابن السوداء ضرب المسلمين بعضهم ببعض وكان عاملاً من عوامل التفرقة والتمزق بين أتباع الدين الواحد وكانت دعوته لأصحابه : انهضوا في هذا الأمر لحركه . وابدأوا بالظلم في أمرائكم . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . تستميلوا الناس ، وأدعهم إلى هذا الأمر .

ولا ريب كانت دعوة عبد الله بن سبأ في تحريف العقيدة ، دساً في الدين وتفرقة في الكلمة ، واستهانة بالتاريخ ، واستخفافاً بالمقومات ، ووضعاً من شأن الله ، وإفساداً للأخلاق والاشادة بكل مذهب أجنبي ، ومن هذه النقطة بدأت حركات الهدم في الاسلام ، وبدأت مؤامرات القرامطة والونج والروادية والمقنع الحرساني وبابك الحرى والمازيار والإنشين ويضيف المؤرخين إلى عبد الله بن سبأ كعب الأحبار ، ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام . أما كعب الأحبار ؛ فهو ذلك الكاهن الذي

أسلم في عهد عمر نفاقاً وبلغ من دهائه أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أحاديث موهوبة إلى رسول الله وبما رواه كعب : الأرضون السبع على صخرة والصخرة في كف ملك ، والملك على جناح الحوت ، والحوت في الماء على الريح والريح على الهواء وفي مرحلة تالية جاء عبد الله بن المقفع الفارسي المجوسي الذي أدهى الإسلام وكان اسمه « روزبه » ، وكان من أكبر أعداء الإسلام ومن أشدهم مكرراً فهو الذي نقل إلى اللغة العربية الفكر المجوسي ، وتبعه مزدك وماني وغيرهما وكان ذلك مقدمة لترجمة تراث الإلهيات الوثنية والافريقية والفارسية .

ومن أبرز كتبه التي ترجمها كتاب « ديستاور » وهو كتاب مزدك يضم عقائده ، كما أنه ترجم كتاب (الدرر اليتيمة) في معارضة القرآن ومن أم الكتب التي ترجمها كتاب (كيلة ودمنة) وقد ضمن هذا الكتاب باباً أسماه (برزويه) وهذا الباب من أخطر الأبواب في نقد الدين عامة يتكلم فيه عن تعارض الأديان ، وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها مما يعتبر العقل وحده أهلاً وسيلة وأفضل المعرفة وليس ما يقوله خصوم الأديان اليوم وأعداء الإسلام إلا هذا الكلام نفسه مكرراً ومما بدأ بعد أكثر من ألف ومائتي سنة وكان ابن المقفع يرى إلى نشر الإلحاد والتحليل من الإسلام بالذات وقد تبين للبيروني هذا فقال في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) : وهو مصدر الكلام من كتاب كيلة ودمنة .

وبودي لو كنت أتمكن من ترجمة كتاب (سنح سنتر) وهو المعروف بكتاب (كيلة ودمنة) فإنه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم بين الفارسية والعربية على ألسنة قوم لا يؤمن بتعبرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب (برزويه) فيه قاصداً تهكيبك ضعيفي العقائد في الدين ، وكرههم للدعوة إلى مذهب المانية (أي المانوية) وإذا كان متهماً فيما زاد لم يحل منه فيما نقل) وهكذا اتفبه العالم الكبير : البيروني إلى مانوية ابن المقفع وقد تبين الخليفة المهدي من قبل هذا فقال (ما وجدت كتاباً زندقه قط إلا وأصله ابن المقفع كما قام القاسم ابراهيم اليريدى . المنوفى طم ٢٤٦ بوضع كتاب (الرد على الوثنيي العين ابن المقفع) .

ومع هذا كله فازالت آثار ابن المقفع تدور في معاهد العالم الاسلامي كنصوص ونماذج للادب العربي دون أن تبين للشباب هذه الجوانب الخطيرة حتى يضعوها في ميزان الحكم على هذا الرجل . جاءت ترجمة الفلسفة اليونانية ، وكان المسلمون قد رغبوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم انحرف الاتجاه إلى ترجمة الفلسفة الالهية تحت تأثير عوامل ضاغطة وكان ابن المقفع وحنين بن إسحق وأضرابهما من الذين حملوا لواء هذا العمل ، قد استهدفوا غاية خطيرة هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الاسلامي ، وقصة فساد عملية النقل والترجمة هذه ما تزال من القضايا الكبرى التي تناوَلها الباحثون وانتهوا فيها إلى رأي واضح صريح ، والمعروف أنه قد حدث خلط كثير بين المؤلفين . ونقلت كتب إلى العربية باسم أفلاطون ، وهي لأرسطو أو لفهره مما أحدث خلطاً كبيراً واضطراباً شديداً أما الأمر الأشد خطورة . فهو أن القسم الأكبر من النقلة كانوا من المريان والأقل القليل

من اليهود وقد نقلوا ما نقلوه وفق أهواء خاصة وأكثر النقلة لم تكن غايتهم البحث عن الحقيقة فهم إذ كان جلهم من النصارى النساطرة واليعاقبة فقد كان أكبر مهمهم الدعوة إلى شيعتهم وتزيين أهوائهم الدينية . لذلك كانوا يفترون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم الدينية وهفائدهم بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم ولقد كان للترجمة آثارها الخطيرة وكانت تبعة المأمون ، في ذلك كبيرة وبعيدة المدى فقد كان هدف المسلمين الأول هو الانتفاع بعلم الفلك - والطب - والرياضيات من حساب وجبر وهندسة وكيمياء . وهم في طريقهم إلى وضع منهجهم الذي دعاهم إليه القرآن حين قال : قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، فكان عليهم أن يراجعوا ما سبقهم من فكر في هذا المجال وأن يحرروه حتى ينطلقوا على ضوء صحيح من مفاهيمهم الأصلية وقد جروا في ذلك شوطاً غير أن هصر المأمون لم يلبث أن فتح الباب واسماً لترجمة الفلسفة الإلهية التي هي علم الأصنام عند اليونان .

ومن هنا فقد جاء شر كثير وهبت رياح سود وكان ذلك نذير سوء ومقدمة الأخطار الكبيرة التي ألمت بالمسلمين من بعد ولندع الأستاذ خليل مندورى يحدثنا في إجابته عن سؤال (أكان خيراً للعرب تناولهم الفلسفة اليونانية ؟ وما هي الفوائد التي اجتنوها ؟ يقول : لم يكن من خير في تناول العرب للفلسفة اليونانية . بل كان تناولهم الفلسفة طالع شؤم وإيذاناً لهم بحوال سلطنتهم . لم يأخذ العرب الفلسفة أخذاً جدياً إلا حين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشدج الفلاسفة وعمل على ترويحها وقد عمل المأمون على ترجمة مختلف المذاهب والنحل الدخيلة وأباح الجهر بمختلف الآراء فشاع في زمنه الشك وراج الباطل وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحة . تحمل في طياتها جرائم المذاهب المختلفة ، والنحل المتعارضة وظهرت الفرق التي كادت تواف بإراداتها وهفائدها أدياناً جديدة فكانت كل واحدة تزاحم الأخرى فلم تلبث الدولة إلا قايلاً حتى انحطت عليها جماعلة المفكرين من التمر والمغول ، فقوضت دعائمها وكان السكندر من أتباع هذه الفرق أهواناً للمغير على تحقيق تلك الغاية التي اندك بها بناء العروبة وسقط صرح الحضارة الإسلامية . ماذا استفاد العرب من هذه الفلسفة .

استفادوا الخبرة لئن قتل الوقت وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على تعاطي هذه الكأس التي يقدمها السفسطائيون للأجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها مقابل ما خمره العرب من الإيمان الفطري والاعتقاد النقي فأهملوا واجهم وتهاوتوا في دينهم وفرطوا في لغتهم والذي أفادوه من تلك الدروب التي هلك فيها اليونانيون ومن جرى مجراها من الأمم القديمة والحديثة كان إخوان الصفا عمرة الفلسفة الإلهية اليونانية والمقدنية والفارسية القديمة . فقد خلطوا عناصرها ، وأضافوا إليها شيئاً من مفاهيم الإسلام وأقاموا منها مختلفاً حاولوا به أن يهدموا الإسلام بإخراجه من مفاهيمه وإدخال مفاهيم غريبة عليه وجماع الرأي في رسائل إخوان الصفا :

(أولاً) آراء مفككة فيها عود وتكرار غريب اختلطت فيه الفلسفة التقليدية والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم ، وأسماء ألف ابلة ولبلة ، وكلمات كالية ودمنة وصفها أبو حيان

التوحيدى بأنها غرافات وتلفيفات وتزيينات وقد رد الباحثون آراءهم إلى تراث السكبان كآسرار النجوم والأعداد والفأل والوجر والسحر والعزائم والإيمان بطوابع النجوم وتأنهها وموسيقى الأفلاك ونغماتها . (ثانياً) مزجوا الاسلام بمختلف الأديان والآراء والمقائد زاعمين أن مذهبهم يستغرق المذاهب كلها ، فكأنهم أرادوا أن يضحوا ديناً عقلياً يعلمو الأديان جميعاً مغايرة لأصول الاسلام وقد تبين أن مفهومهم لله سبحانه وتعالى مفهوم فاسد وخاصة في رحمة الله وهم ينكرون البعث بالأجساد ويفسرون الجنة والنار ، والآخرة خلافاً لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص القاطعة ، وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين ويفسرون السكر والمذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً (ثالثاً) أكبر مقاديرهم تدل على سوء قصد منهم طمسوا أسماء وجبنوا عن إعلانها . ولو كانوا صادقين مخلصين لواجهوا الرأي العام في جرأة (رابعاً) استهدفت هذه الرسائل إقامة نظام جديد يحل محل الشريعة الاسلامية وهي تشتمل على عقائد الباطنية ، وإعداد النفوس والعقول لدعوة جديدة (خامساً) الدعوة إلى التأويل ومحاولة تفسير القرآن والكتب المنزلة تفسيراً باطنياً بخلاف ظاهر اللفظ والقول بأن الآيات تأويلات خفية باطنة .

هذه الدعوة إلى تحريف العقيدة أثمرت تلك الحركات الهدامة وفي مقدمتها القرامطة وحركة الزنج التي حاولت إسقاط الدولة الاسلامية وإقامة نظم أخرى تحت اسم (العدل الاجتماعي) أما محاولة إقامة نظام على النحو الذي دعت إليه رسائل إخوان الصفا فقد فشل فشلاً ذريعاً وقد تبين أن عمل هذه الفتنة كان لحساب الحركة الباطنية الذين حاولوا قلب النظام السياسي بتغيير التفكير العقلي ولإيجاد ثقافة جديدة يستفهمها شباب عصرهم .

وقد أكدت الوثائق ، والأبحاث العلمية الدقيقة أن من وراء هذه المذاهب (المانوية - والمزدكية والحرمية ، والقرامطة وإخوان الصفا ودعاة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود) غاية سياسية هي محاولة تغيير النظام السياسي الاسلامي للدولة الاسلامية والدمى إلى إقامة نظام آخر تصوره مجموعة من المستضعفين على الاسلام وجماعة من المجوسية وقدامى الحكام الممزولين والدمويين والطامعين ولذلك فقد صيغت مفاهيم هذه المذاهب من أمشاج متفرقة وشطائبا متعددة من المجوسية والافلاطونية وأفكار دعاة تناسخ الأرواح وعبدية الزهران والافينية والوثنين اليونان ، وأصحاب الفكر التلودي . مع إبراز طابع خادع من الولاء لآل البيت وأسلوب من الرمزية وأنظمة سرية يجمعون فيها الناس بخداع الهدوء البراعة ثم ينفثونهم على الحقد والخصومة والانتقام .

وقد اعتمدت (رسائل إخوان الصفا) منهجاً لهدوتهم وهي تضم فقرات موحدة تشبه إلى الوثنية وتجمع فيها بين مصطلحات متعددة من إغريقية ، وبابلية وأشورية وغيرها فهم يصدون آلتهم الوثنية كالودان . واهرمين وغازيمون إلى جانب إبراهيم وموسى وهيسى وعهد وفي الرسائل فقرات تعهد إلى عبادة الكوكب وآلهة المجوس ، وإباحية مودك في الأول والنساء والانهماك في تناول الذات . وإلحاد مانى وقوله بالتناسخ وزيف ذراشت في القول بالآلور والظلمة وتبدو من خلال هذه الفلاح

الفلسفية تلك الغاية الحياتية التي تخفيها اليهودية التلوية ومطامعها وأهوائها .
(عمر الدسوقي - رسائل لإخوان الصفا)

وقد سقطت هذه الحركة ، وما يلائمها مقام ويقوم في تاريخ الاسلام كله المعارضة لروح الاسلام وطابعه وذاتيته الخاصة وقد اعترف جولد زهر وكازونوفا من المستشرقين بأن آراء إخوان الصفا هي آراء الباطنية ومعتقداتهم وقد قامت هذه الحركات على أساس التأويل ، ومبادئ الحلول وتبنت آراء مزدك في شيوعية الأموال وإباحة النساء وحاولت أن تجعل من الأديان والفلسفات كلها عقيدة واحدة وكان ذلك كله من عوامل فشلها وتآكيد فسادها .

وكانت حركة القرامطة خليطاً من المجوسية واليهودية وقد أباحت زواج البنات والاخوات وشرب الخمر ، وجميع الملذات . ورفضت قيود الاخلاق والشرع واعتبرت أن جميع القوانين والحدود والآداب التي وضعت للناس قاضية بالجور مقررة للظلم . وادعت القرامطة أن الجنة هي الدنيا ونعيمها واتخذت في نظامها أساليب غاية في العنف وقام الهداية لما قام به أصحاب حركة الروج من فظائع لا حد لها وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة حاسمة ، وواجهت مفاهيمها وردت عليها ، ونقضت شهادتها ، وتؤكد الباحثين والمؤرخين أنها حركة معادية للإسلام ، ناشئة من دين أجنبي ، وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالزواندية والخرمية والبابكية وأنها امتداد لها .

(٢) المذاهب الهدامة والإلحاد

إن المصدر الأم للإلحاد هو المذهب المادي ، والنزعة المادية التي تقوم على تصور خاطئ للإنسان وهو أنه خلق من العدم ، وصائر إلى العدم وأن الإنسان حياته المحدودة ولا سلطان عليه إلا نفسه وأهوائه فعليه أن يسارع قبل انتهاء الأجل إلى الانغماس في الشهوات فإذا وجد من الفلسفات ما يرضى هذه النزعات في نفسه ويبررها فهو يعتنقها ، وتلك طبيعة الانسان منذ قديم ، وما تزال .

والناظر إلى الدهرية ، والمذاهب الهدامة جميعاً يجد ما لا تفصل بين الإلحاد والإباحية : أي بين الفكر والمجتمع . وقد نشأ الإلحاد في بيئات غير إسلامية ، نتيجة تزمت الديانات والمذاهب التي انخرقت عن أصولها الأصيلة ، فضيقت واسماً ، وحرمت الانسان من تطلعاته ، وإجابة نداء غرائزه الطبيعية ودعته إلى قمع هذه الرغبات ، أو فرضت عليه معتقداً يحار العقل في قبوله ، ويتعارض مع الفطرة ، ولا ريب في أن العقل البشري في العصر الحديث بعد أن حررت الطاقة الضخمة التي ألقاها القرآن إلى البشرية ، وأثرت في كل الأديان والمعتقدات ، وأفكار الأمم ، وخلصته من عبودية الجاهل والعقل جميعاً هذا العقل ما زال يقف موقف الريبة إزاء كل ما يقتضي مع الفطرة من حيث أن الدين المنزل من عند الله لا يتناقض مع الفطرة . ولا يعارض العقل ومن هنا كان ذلك التشابه بين موقف الغرب في هذا العصر وموقف البشرية قبل نزول الاسلام وهنا نرى الاسلام في بساطته وبهره ، وسلامة مقاصده فقد أطلق الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وحرر عبيط العبادة من التماثيل والصور والرموز والطقوس والشارات وجعل روح الدين في الفاعر والسوق والمسجد ، ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين ، وحتم على جميع معتقديه أن يكونوا علماء به . ولم يجعل بين العبد وربّه وساطة ما .

ولا ريب أن نزعة الإلحاد قديمة . وقد ظهرت في القرن السابع للميلاد في بلاد اليونان ، ثم ما زال ظهورها يتجدد على العصور ويدخل في معارك مع رسالة السماء ، ومع الفكر الرباني المصدر ، ويجد من أصحاب الأهواء والمطامع أولياء له وتابعين . ولما كفف العلم الطبيعي عن أسرارهِ نزع العقل البشري نزعة الاستعلاء . واتخذ من مهاجمة العقيدة التي عارضت طريقه إلى البحث سبيلاً إلى معارضة الأديان بعمامة دون أن يقدر مدى الفوارق البعيدة الواسعة بين العقائد وبين للتفسيرات المنحرفة لبعض الأديان وبين الأديان التي حفظت مصادرها من كل زيف . ولو قد خلصت النيات ولم يجد التعصب سبيلاً إلى النفوس ، ولم تكن وراء الدعوات أهواء أصحاب المطامع من دعاة الأيديولوجية التلويديّة . لاستطاعت البشرية أن تعرف أن في الإسلام غاية ما ترجوه النفس البشرية وتنتطح إليه : سمة ورحمة وإيماناً بالعلم والتقدم ، ودفعاً للإنسان إلى تحقيق ذاته وممارسة رغبته ، فقد اعترف بها الإسلام ، وأجاز تحقيقها في إطار من الضوابط الكريمة . ولكن البشرية مازالت منذ خمسة قرون تبحث وتتخذ من للعقل — وهو أداة لها — ما يصرّفها عن وجهتها الخاصة ، وهي في حاجة إلى نور الإيمان ، أو على حد تعبّر علماء المسلمين عنه : إن العقل جوهر مضمّن خلقه الله في الدماغ ، وجعل نوره في القلب .

ما زالت البشرية تبحث دون أن تهتدي إلى الحق . وهو قائم أمامها وهي مشرقة نحو الفلسفة الغنوصية ، أو مغربة نحو الفلسفة اليونانية .

ومصطلح الإلحاد (Atheisme) يعني نفي وجود المبدع الأول لهذه الكائنات . والإلحاد ككل النظريات يتغير ويتطور ويتحرك في كل بيئة وفق أسلوب جديد . ومن هنا فقد عرف العصر الجديد إلحاداً مرتبطاً بعدد من الدعوات . كالوجودية والماركسية والفرويدية ، بل يمكن القول بأن الإلحاد وإنكار ذات الإله مما قاعده كل هذه المذاهب والدعوات مهما اختلفت حول قضايا العصر . وهذه الدعوات جميعاً تعارض الأديان ، وتعارض النبوة ، والسكتب المنزلة . وهي تقف موقف الإنكار الشديد للبحث والجزاء . وقد أخذ الإلحاد يلبس في العصر الحديث طابعاً فلسفياً . ويسمى من بعض نتائج النظريات العلمية أسلحة له . ومن العجيب أن معظم أسلحة الإلحاد عن طريق العلم التجريبي قد سقطت ، وكان أخطرها إنكار الغيب ، وما وراء المادة . إذ عاد العلم التجريبي أخيراً فاعترف بما وراء المادة نتيجة ظهور قوانين الذرة وانحطاطها . ولكن الفلسفة ما تزال تبحث عن أسلحة جديدة تدعم بها موقفها إزاء هذه المعارضة الباطلة .

والإلحاد الحديث هو بمثابة رفض للقوة الأساسية الواضحة القائمة والصانعة والمديرة في هذا الكون وقد طرح هذا الشعار بعد أن كذبت العلوم التجريبية نظرية دعاة الإلحاد القديمة ، إن الظاهرة الجديدة هي النمرود على وجود الله في محاربة لتأليه الإنسان ، أو هي محاربة لانتزاع الألوهية من الله (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) لوضعها في الإنسان . ومن يقرأ ما كتبه فوريباخ وماركس وساتر وفرويد ، يجد هذا المضمّن واضحاً جلياً . قال ماركس : إن الإلحاد هو إنكار الله . وبهذا الإنكار تؤكد وجود الإنسان . ويربط فرويد بين النمرود على الله والنمرود على سلطة الأب ؛ ولا ريب أن هذا

الخلط بين الله والإنسان من جهة ، وإخفاء الألوهية على الإنسان من جهة ثانية لما مصدرهما في الفكر الفرق المسيحي . ومن خلال هذا المفهوم تقوم الحملة على (الإله) قائله محمد بالصورة التي عرفها الفكر الغربي . وليس بالصورة الحقيقية لله سبحانه وتعالى . وهي صورة حدث فيها خلط كثير بين الله والطبيعة ، وبين الله والإنسان ، ومن هنا جرت عبارات نيتشه المعروفة عن موت الإله ، وهبارات ماركس عن أفيون الشعوب ، ذلك لأن الفروض التي قدمت كانت فروضاً بعيدة عن العقل ولا تقبلها الفطرة ولا تطعن إليها النفس المتطلعة إلى تقبل كل ما هو منطقي ومعقول .

(٤) الله في مفهوم الإسلام

إن نظرة واحدة إلى مفهوم (الله) سبحانه وتعالى في الإسلام تستطيع أن تزيح من النفس الإنسانية ذات الفطرة الصافية كل ريب وكل شك وكل شبهة من تلك الشبهات التي جاء أكثرها من قبيل التحدى . قاله هو الخالق الباري المصور القهار الذي ليس كمثل شيء . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . وهو الصانع المدبر التي تتمثل صفاته في أسماءه الحسنى فلا يتعدها المسلم ولا يصف الله أو يسميه إلا بما سمي به نفسه .

والاعتقاد في وحدانية الله هو الركن الأول من أركان الإسلام ، وهو مرجع كل قول ومنتهى كل قصد . وذات الله لا يدركها العقل ولا يناها الحس . وكل ما يدركه العقل الإنساني هو من آثارها التي ترشد إلى وجودها . والعقيدة بوجوده تعالى لازمة من لوازم المعنى الإنساني ، فإن الإنسان مادام صاحب نظر وفكر واستدلال فلا يستطيع أن ينفك عن تلك العقيدة مطلقاً . ولما كان أول أصل من أصول المحسوسات هو علمه بأنه (لا مصنوع إلا وله صانع) فتراه لا يتمالك نفسه من الحكم بأن هذا السكون لا بد له من صانع . وقد ظل الإنسان على هذه العقيدة ألوا من السنين لا يعتريه منها شك حتى جاءت الفلسفة قبل المسيح بنحو ستة قرون لجأت معها الشكوك والشبه والسفسطة . وقد أشار القرآن إلى هذه الشكوك في أكثر من موضع ، أنى الله شك فاطر السموات والأرض . . وكشف عن عجز المادية في تحليل وجود السكون بدون خالق حكيم مدبر .

ومفهوم الله في الإسلام يتميز بمعالم واضحة : فهو المبدع بالمعنى الحقيقي . وهو الصانع والمدبر المتميز عن الأشياء الحادثة المتغيرة التي زارها وسبحانه وتعالى علواً كبيراً عن تشبهات المتفهمين وتجسيه المجددين . ويرفض مفهوم الإسلام في الله سبحانه كل ما قالته الفلسفة ويعتبر مفهومها عن الله قاصراً قاله سبحانه وتعالى : هو غاية ما يتصوره العقل للبشرى من الكمال والتزيه . فهو سبحانه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وهو الأول والآخر فلا أول قبله ولا آخر بعده . وهو الظاهر والباطن وهو الذي وسع كل شيء . علماً . فهو يعلم الجزئيات والكليات . وهو رب المشرقين ورب المغربين . وهو الذي خلق العوالم كلها : الإنس والجن والملائكة والسموات والأرض خلقها من غير شيء سابق أى من العدم . وهو الذي خلق الإنسان علمه البيان . وهو الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . وصورة الله في القرآن

تختلف اختلافاً واضحاً عما جاء في الفلسفات وفي بعض العقائد فهو ليس إله الحرب والجنود وليس هو إله أمة دون أخرى بل هو إله العالمين ، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ونحن نؤمن بأن الله خالق وأن هذا الوجود مخلوق له . ولكن لا فراغ بين الله الخالق وبين هذا الوجود المخلوق له . إن في الوجود ثنائية . ولكن ليس بين طرفي الثنائية انفصالية . إن الإنسان جسم وروح ولكن الانفصال بينهما في حياة الإنسان نفسه . وقد اضطرب الإنسان في سلوكه عندما اعتقد بوجود فراغ بين الله والإنسان أو اعتقد أن الإنسان جسم وبدن فقط . الإيمان بالله أساس المعرفة - ووحدة الله هي الأساس - والانسجام بين طرفي الثنائية في هذا الوجود قائم وبالأخص في طبيعة الإنسان وبين روحه وجسمه وبين الفرد والفرد - فالروح ضرورة - والدين ضرورة - والإنسان بلا روحه هيكل أجوف - ومعرفة بدون دين قلما يصاحبها يقين . والوجود كله يقوم على مبدأ الثنائية . أو مبدأ التقابل . الله سبحانه وتعالى مجرد عن الحسية والمادية - وطبائع الكائنات خليط بين الروحية والمادية - الله روح خالصة تقابله هذه الطبيعة المادية التي شاءها سبحانه وتعالى لخلقاته وكائناته . هذه الكائنات بدورها فيها المادة وفيها الروح ، مزيج مما يرى ويدرك بالبصر ، ومن شيء آخر لا يرى ولا يدرك ، إلا بالعقل والتصور - الثنائية في الذكر والأنثى في الحياة والموت في القوة والضعف - هذا التقابل : أو الثنائية سنة الوجود كله ، فهو مخلوق . وله خالق - ورسالة الله للإنسان في هذا الوجود هي إيجاد الانسجام بين طرفي هذه الثنائية في حياة الإنسان . الملائمة في طبيعة الإنسان بين جسمه وروحه وغايتها في الوجود كله أن تتلائم بين الخالق والمخلوق . ليس من الطبيعي أن يكون هناك كفر بالله الخالق وإيمان بالإنسان المخلوق . إن الإيمان بالله نتيجة لازمة لقانون طبيعة الوجود ولقد كانت دعوة الاسلام إلى الانسجام بين الروح والجسم ، بحيث لا يتخلف أحدهما أو يجمد في نفس الوقت الذي يسير فيه الآخر في طريق الفؤاد كما كشف الاسلام عن خطأ إعلاء الروح على حساب الجسم - وخطأ إعلاء الجسم على حساب الروح . ذلك أن الإيمان بمادية الإنسان وحدها ، كالإيمان بروحانيته وحدها أمر يتناقض مع هذا القانون ويضطرم مع نتائجه . إن الوجود كله له خالق وما عداه مخلوق له . وليس الإيمان بالله الخالق فقط ، بل الإيمان بوحديته ، وفكرة التوحيد هي أبرز أفكار الاسلام عن الله سبحانه وتعالى فالاسلام يدعو إلى التوحيد الخاص من كل شائبة ، وهو ما يختلف مع الوثنية والتعدد والشرك والإلحاد ، فالوثن يعبد الأصنام ، والملاحد لا يؤمن بالله ، والمشرک يؤمن بالله ولكنه يشرك معه غيره ويتخذ آلهة أخرى شفعاء له ووسطاء ، ولقد كان العرب في جاهليتهم يؤمنون بوجود الله تعالى وكانوا موحدين له في أعماله من خلق ورزق وإحياء وإماتة وهذا ما يسمى (توحيد الربوبية) وإنما كان شركهم ناتجاً عن عجزهم عن الإيمان بـ (توحيد الألوهية) أي توحيد العبادة وهو أنهم لم يقصروا عبادتهم بأنواعها على مستحقها وهو الله وحده كالعبادة والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة قال تعالى فيهم (إلا الله الذين الخالصون الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم ألا ليقربونا إلى الله زلفى) (وهم يبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) وقد رد عليهم الزعم الباطل بهذه الآيات في توحيد الربوبية (قل من يرزقكم) ، وأفام عليهم الحجة بما أقدمه عن إنشاده تعالى بأفعال الربوبية

ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة، لقد كانت فكرة التوحيد الخاص هي أشد الأفكار غرابة عندهم هي والبعث سواء وذلك مع اعترافهم بوجود الله سبحانه ، وأنه الخالق للسموات والأرض وما بينهما ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم وان يتلقوا عنه وحده الحلال والحرام ، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة ولقد كان التوحيد في مفهوم الاسلام متميزاً بالوضوح والشمول وهو يختلف كثيراً عما قيل من توحيد عند الفراعنة أو اليهود أو غيرهم فقد جاء الاسلام بالتوحيد الخالص فانطلقت بيوت النار ومعابد الجوسية وبطلت عبادة الشمس . ومن الحقائق الواضحة في هذا المجال أن الإنسان بدأ موحداً ثم أصابته لومة الشرك وأن النظرية التي طرحها (علم مقارنة الأديان) والتي تقول بأن البشرية بدأت طفولتها بالوثنيات ثم ارتفعت، أي التوحيد نظرية باطلة بحكم التاريخ وبحكم المنطق الواعي فإن آدم أكرم البشر وأول إنسان كان على علم وكان يعرف التوحيد ويؤمن بالإله الواحد، ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت وكما انحرفت جاءت الأديان ترد البشرية إلى أن جاء الاسلام دهوة عالمية وحاشاً للأديان ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض وعالجها بمنهج جامع بين القلب والعقل وعبرة التاريخ ومن هنا فقد أصبح القرآن هو حافظ البشرية عن الارتداد إلى الوثنية وعصور الأساطير ومن أهم ما دعا إليه التوحيد الخالص في مفهوم الاسلام إنكار نظرية اندماج الله والعالم وقد أفاض علماء المسلمين في تصوير عقيدة التوحيد الإسلامية ورسموا لها صورة كاملة واضحة المعالم فاقه سبحانه وتعالى هو صانع العالم وله صفات ثابتة استغنها لاداته وأن الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع وهو سبحانه قديم لم يزل ليس له صورة ، ولا أعضاء ولا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان ولا تلحقه الآلام والذات وهو غنى عن خلقه ، وأنه واحد والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء بالاختراع من العدم وعلمه واحد ، يعلم الموجودات بتفاصيلها من غير حس ، ولا بديهة ولا استدلال وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات ، وهو لم يزل رانياً لنفسه ساهماً اكلام نفسه .

وأسماء الله وصفاته معروفة من القرآن ، والحديث الصحيح وإجماع الأمة ولا يجوز إطلاق اسم عليه من طريق القياس وأسماء الله تسعة وتسعون وهي ثلاثة أقسام صفات أزلية (نحو : واحد وأول) وصفات أزلية قائمة بذاته (نحو : حي قادر عالم) وصفات مشتقة من أفعاله (نحو : خالق رازق عادل) والمعبود مستكنسب لعمله والله خالق لكسبه والله يراه المؤمنون في الآخرة ولا يحدث شيء في العالم إلا بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والله حي بلا روح ولا اعتناء ، وكلام الله صفة أزلية وهو : (أي كلام الله) غير مخلوق ولا محدث ولا حادث .

(٥) عقيدة البعث

ومن قواعد الإسلام الأساسية : عقيدة البعث والإيمان بالجزاء الآخروي ، وقد أجمعت الأديان السماوية على وجود حياة بعد الموت بحاسب فيها الإنسان عن عمله في الحياة الدنيا وهي حقيقة جوهرية لا يسقطها الإسلام أبداً ، ويضعها دوماً نصب الأعين ، والعقول والأفهام وتجري من كل أعمال الدنيا . ولا ريب أن الإيمان بالجزاء والبعث عامل قوة وإيجابية ، ودافع بناء وحركة ، وليس عامل جهود وتخلف ، وإذا لم يكن الأعمال السكبري في الحياة الإنسانية وجهة ربانية تمنحها في الدنيا ، وتمنح جوارها في الآخرة ، فإن رسالة الإنسان في الحياة تكون عبثاً . ولا يمكن أن تكون الحياة بغير غاية أو أن يكون وجود الإنسان في هذه الأرض بغير رسالة . وتلك الحقيقة هي أعظم معطيات رسالات السماء ، فليس من المعقول أن يخلق الله هذا الكون كله عبثاً (أخسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) إن الحياة مسؤولية ورسالة ، وهي حقيقة وتبعة ثم هي بعد ذلك بعث وجزاء . وحين يتأكد للنفس الإنسانية هذا الملاحظ تتزاح تلك الأزمة التي تحاول أن تفرقها في تيه مضلل ومن حسن الحظ أن هذه الأرض قد عرفت أصالة الدين وعلى رآها نزالت الأديان . ومن هنا ففى حرية ألا تقع في تلك الأزمة التي اجتاحت المجتمعات الأخرى . ولا ريب أن الفطرة الإنسانية في أحقادها تستطيع أن تلتصق طريقها إلى الدين الحق ، وتتصل بخالقها الواحد ، ولا شك أن الإلحاد أمر طارئ . هل للنفس البشرية وليس في الأصل من طبيعتها ولا شك أن للدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني وهو أصديق الطرق إلى بناء الفرد وبناء المجتمع ، وبناء الإنسانية المنعقدة من الخوف والفك والانعلال .

إن قول الفلاسفة المادية أن العالم مادة فقط هو مالا تستسيغه الفطرة ولا يقبله العقل ، ولا ريب أن عقيدة البعث والدار الآخرة عامل بعيد الأثر في حياة الإنسان وفي أعماله وسلوكه ومن أجل هذا أولى القرآن أمر البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، وقرن البعث بالتوحيد في مواضع كثيرة وأشار إلى تلاميذ الجائحة التي استطالت على العصور في إنكاره ومحاولة الإفلات من أثره في الدنيا ، ومن المسؤولية الفردية المترتبة على الجوار الآخروي وأبرز المكذابين لفكرة البعث والجزاء هم الدهريون الماديون ، ذلك لأنهم يدهون إلى الإباحة ، وإطلاق الفرائز والشهوات في الدنيا وهو إطلاق تخشع النفس الإنسانية وتنفر منه إلا حين يزيف لها هذا الأمر مزيف فيحجب عنها هذه الحقيقة ، ولا ريب أن الإيمان بيوم الجزاء هو أقوى باعث للمروءة ، يدفعه سعياً وراء الكمال والتقدم ، ولا ريب أن يوم القيامة هو يوم نهاية الإنسان ، وهدف الله من خلق الإنسان (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وفي مختلف الأديان حتى أديان قدماء المصريين : عقيدة البعث بعد الموت . ولم يزيف هذه الحقيقة غير التلويدين والوثنيين ، والدهريين . ويرتبط هذا الفكر الوائف بمحاولة رفع التكاليف والفروض . وإلغاء مسؤولية الفرد عن عمله .

الباب الأول

دعوات هدامه للعقائد والقيم

الفصل الأول : الدهرية . الفصل الثاني : الثيوصوفية . الفصل الثالث : البهائية
الفصل الرابع : تحضير الأرواح (الروحانية الحديثة)

الفصل الأول

الدهرية

الدهرية واحدة من الدعوات الهدامة التي أذاها للنفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام وقيمه الأساسية . فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار : القضاء على القوة الأصيلة التي قام عليها الإسلام ، (وحي) (التوحيد) . فنشر في كل مكان حل فيه مفاهيم وللسادية ، والدعوة إلى القول بممارسة وجود الخالق . وأن السكون طبيعي وجد اعتباطاً . وقد عرف هذا للذهب بالنيشيرية نسبة إلى (Nature) وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة في الهند . نشرها الاستعمار البريطاني بين المسلمين . وكتب لها السيد جمال الدين الأفغاني . فوضع رسالته المعروفة بالرد على الدهريين ، . وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيشير اسم للطبيعة . وطريقة النيشير هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح . ومقصود أرباب هذه الطريقة عمو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والاشتراك في الأموال والإيضاح بين الناس عامة . وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا وبالغوا في السعي إليه . وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة ، وتقلبوا في مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها ، وعاد عليهم سمهم بالزوال .

وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الأخذين بهذه الطريقة تجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاص بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية . إذ لا ريب في أن الدين مطلقاً هو ملك النظام الاجتماعي . وإن يستحكم أساس لتمدين بدون الدين البتة . وأول تعليم لهذه الطائفة هو إعدام الأديان ، وطرح كل عقد ديني . أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلاكمها مع طول الزمن على نشأتها . فسيبهم أن نظام الآلة الإنسانية - وهو من آثار المحكمة الإلهية السامية - كانت له القلبية على أصولها الواهية وشرعيتها الفاسدة . وبهذا الحمر الإلهي انبجست نفوس البشر نحو ما ظهر منها . ومن هذا لم يصح لهم ثبات قدم ، ولم تقم لهم قائمة أسس ، ولا في وقت من الأوقات ، أم

وقد أشار العلامة صلاح الدين الساجوق في كتابه «أخراء على ميادين الفلحة والعلم والفن والادب»، إلى صلاحية إطلاق اسم «الدهريين» على هذه الجحافل المختلفة، من منكرى البحث في الآخرة كما جاءت به الأديان السماوية. وأن هؤلاء الدهريين هم عشرة مذاهب: الأبيقورية. الارتقائية. اللزديكية. الباطنية. أتباع فولتير وجمان جاك روسو. المورمون. النغميون. اللداسون. اللادبون. يقول: ولما كان الهنود يطلقون كلمة «دهري» على جميع المنحرفين عن طريق الحق، فليس ببيد أن نقر بها بانفط «الدهري».

وقال: إن الدهرية عبارة عن حكومة الغرائز والمقد النفسية، ونشاء «أى الدهرية»، أن يتم الدل والموان والحلوف والإرهاب والفرقة والكراهية. وقد أشار السيد جمال الدين الأفغانى في رسالته إلى أن الدهرية هى مركز الرذائل والدل والموان ومصدر الفوضى والفساد والهمجية وموجب لسقوط الفرد والمجتمع. وبعد أن سرد تاريخ نهوض الأمم بإيمانها وبمبادئها وكيانها الذاتى وسقوطها بتفوق الدهريين غير المؤمنين بالله وبأنفسهم - قال: إن طائفة النيسريين (الدهريين) كلها نجست فى أمة أفسدت أخلاقها وأرقعت الخلل فى عقولها، وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل والألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها وتفتت بناؤها واغتاتها رذائل الأخلاق من الآثمة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات؛ ولا يزال الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الدلة أو يخلد أبنائها فى الفقر والعبودية. وقال: إن قبيل من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصل وهو الإباحة والاشتراك، واكتفوا فى ظاهر الأمر بإنكار وجود يوم الدين، يوم العرض والجواز.

إن هذه النزعة وحدها كافية فى إفساد الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان المدنية، وليس من عروب الباطل ما هو أشد منها تأثيراً فى عمو الفضائل وإثارة الخبايا والرذائل. وليس من الممكن أن مجتمع بشخص واحد وهم الدهرية وفضيلة الأمانة والصدق وشرف الهمة وكال الرجولة، أه

أبرز مفاهيم الدهرية هى: (أولاً) إنكار وجود الخالق وأن السكون بلا إله ولا صانع. (ثانياً) قولهم إن الدهر قديم. (ثالثاً) إنكار البحث والإحادة. قامت هذه الطائفة فى القرن الرابع الهجرى وتحطمت تحت ضربات معاول التصحيح الذى قام به الأئمة. ثم تجددت فى العصر الحديث جدها الاستعمار البريطانى فى الهند. ولكن نفهم أبعاد الدهرية علينا أن نستعرض بعض المصطلحات ننظر من خلال التاريخ لثرى كيف مضت الدعوة الباطنية وفق طريقها. وكيف أن ما نراه اليوم وليس إلا إعادة الماضى، أو صياغة جديدة للفكر القديم المدام.

الفصل الثاني

التيوصوفية

مذهب من المذاهب التي ابتدعها الفكر الحديث في مجال معارضته للدين واتخاذها بدائل فلسفية لتحل محله . والتيوصوفية (Theosophie) كلمة يونانية معناها (الحكمة الإلهية) ثيوس (إله) صوفيا (حكمة) أطلق هذا المصطلح في القرن الثالث للميلاد ، ثم طادت إلى الظهور في القرن السادس عشر للميلاد . واستمدت التيوصوفية مفاهيمها من الفلسفة الهندية القديمة . وبرزت في ضوء الدعوة التي أعطاها بعض كتاب الغرب بالتوجه إلى الفلسفات الشرقية للبحث فيها عن مفاهيم ومذاهب تحمل محل الأديان . وكان هوبنهاور الفيلسوف الألماني : هو أول من نبه الأذهان إلى دراسة الصوفية الهندية وخاصة مذهب بوذا الذي يقول بإمائه المهرات حتى تصل النفس بعد مجاهدتها إلى حال لا تشتهى معه شيئاً ، وهي الحالة التي أطلق عليها (النرقانا) أي : حالة لتذيق الروح بالانصراف عن الدنيا كلها ، وهي حالة إذا وصل إليها الإنسان انطلق العقل حراً . لا تقيده الشهوات أو العواطف . ومن ثم يرى ما لا يراه وهو مقيد بها ، ويهمل عندئذ بحقيقة الـكون أو عنصره الأول . وقد برز هذا الاتجاه في الفكر الغربي على أثر الخلاف الذي قام منذ عصر النهضة بين العلم والدين وظهور الفلسفة كبديل للدين ، ثم جاءت الفلسفة المادية ، ثم حاولت الفلسفة أن تجد من التيوصوفية سبيلاً للبحث عن ما وراء المادة ، وذلك ما يسمى بالانتقال من المذهب العقلي المادي إلى المذهب الباطني الحديسي القائم على البصيرة والإلهام . وقد اعتمد مذهب التيوصوفية على كتب البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين . والسكيبالا اليهودية وما يقوله المعتقدون بمناجاة الأرواح . وقد ترعرعت هذه الظاهرة وامتدت حتى أطلق عليها بعض الكتاب (الصوفية الجديدة) واعتمدت على نفس الأسرار الهندية التي تقول بها الصوفية الهندية ومعنى : (الحلول) . وقد وجد هذا المنطق قبلاً في النفس الأوروبية لأنه يتصل بمعنى قريب من مفهوم الدين في الغرب .

فالأوروبيون يقولون : د إن كان المسيح قد أسس نفسه إلهاً فذلك لأنه يعتقد أن ملكوت الله ليس خارجاً عنا . إذ هو حال بنا . ونحن آلهة مثله . وما أرواحنا إلا قبس أو شرارة من تلك الروح العامة للشاملة للكون . ومفهوم الألوهية في الإسلام يختلف عن هذا المفهوم كما يختلف مفهوم النبوة ، فآله تبارك وتعالى في مفهوم الإسلام : ليس حالاً في الـكون ولا متحداً به ولكنه قائم بذاته سبحانه ، وكذلك في مفهوم الإسلام أن النبي هو عبد الله ورسوله .

وقد شاع هذا المفهوم في الفكر الأوروبي ، وهو أحد مفاهيم وحدة الوجود والحلول المجوسية القديمة ، واستطاع أن يعمد في مفهوم العقائد الزمنية : أرضية خصوبة لتقبله ، ولكنه يختلف اختلافاً

كثيراً عن مفاهيم الإسلام في أكثر من موقع (أولاً) في الصلاة بين الخالق سبحانه وعماله ، وبين العلم والكون (ثانياً) في إهدار المسؤولية الفردية التي تحملها الإنسان مسؤولاً عن عمله مسؤولية كاملة يوم القيامة (ثالثاً) في إنكار البعث والجزاء . والجنة والنار ، وذلك في القول بأن الإنسان خالد وأن مستقبله من المجد والبهاء مالا حوله وأن الجزاء هو دنيوى وليس أخروياً ومن الناحية التاريخية : نقول أن الجمعية النيو صوفية : أنشأتها مدام هيلانة بروفنا بلاخابسكى الروسية المولودة عام ١٨٧٥ في الولايات المتحدة ثم انتقلت إلى (مدارسى) في الهند . فانتخفت قاعدة أعمالها في (أديار) . ثم انتهت رفقتها إلى مسز بيزانت الانجليزية الحاصلة على دكتوراة في الحقوق .

(و) مسز بيزانت ، هي أكبر دعاة النيو صوفية . وقد كانت زوجة قسيس انجليكى . وبالشك في قلبها نحو المسيحية فأخذت تدعو مع صديق لها يدعى (برادلف) إلى التمهيط وأخيراً اعتنقت إلى الصوفية . فاعتنقتها بحماسة وهمة . وسافرت إلى الهند حيث تعلمت اللغة الهندية ودرست الصوفية الهندية وقد ألقت في الحلول والتجسد . وقد أحصى بولس مصويج فروع الجدية في الثلاثينات فبلغ المنتعمون إليها نحو (٦٠) ألف وأربر أهدافهم لإيجاد فكرة أخوة إنسانية عامة ويرى بعض الباحثين أن النيو صوفية وليدة الصوفية الهندية .
والفارسية القديمة التي كانت موجودة في الشرق قبل الاسلام وقد نشر هذه الأفكار في بلادنا خريجو الإرساليات الذين سيطروا على الصحافة العربية في أواخر القرن الماضي وحلوا لواء كثير من هذه الدعوات ويقول الدكتور يعقوب صروف . محرر المقتطف عام ١٩١٠ في عرض لهذا المذهب : إن النيو صوفية نوع من للتصوف المسيحى والتأمل ، والاتصال بالله ، دون حاجة إلى كتاب ولا لوح . وإن النيو صوفية قد اختلطت بالتصوف الهندى الآن ولاصحابها دعاوى طويلة عريضة وقد وصفها (مكى ملر) اليهودى بأنها الديانة العربية وأنها جاءت نتيجة التقاء البوذية والفكر المسيحى الغربى ويرى الكثيرون هذه المفاهيم التي حددتها النيو صوفية إلى الغنوصية القديمة . وما كان يسمى في المشرق بالعالم الروحى (انمازيا) والعلم السرى (غيتامزبا) بما كان يقول به مانى وبوذا وكنفوشوس . وفيثاغورس وأفلاطون . وأهل هذه المذاهب يعتقدون بالحلول والتقصص .

وحدة الوجود

إن أخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الإسلامية: عقيدة التوحيد الخالص الذى أنزل الله به الأديان والرسل جميعاً والذي استبان على أكل وجهه في الاسلام وكتابه القرآن فقد أنكر الاسلام عقيدة الاتحاد والحلول وأنكر حلول الخالق في المخلوق ، أو استغراق المخلوق في الخالق وهو يميز طبيعة كل منهما . ولا يقبل الاسلام وحدة الوجود لأن فيها إلتقالات بين عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله بعض الفلاسفة (لا موجود في الحقيقة إلا الله) وسباق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الأخرى .

والمعروف : أن نظرية وحدة الوجود هي فكرة ترددت أول الأمر في الفلسفة اليونانية . هي تتعارض مع الفطرة التي جاء بها الإسلام حاثاً أتباعه على التفكير في خلق الله تعالى من التشكك في

ذات الله ، مقرر أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجوداً بنفسه ولا ريب أن كثيراً من الباحثين دون مدى من معطيات الوحي والرسالات المنزلة قد جروا أشواطاً طويلة ، وراء الحقائق الكونية ، فلم يمتدوا وكانت غايتهم في إدراك الله تبارك وتعالى وإدراك ما وراء الطبيعة بالحواس القاصرة وبالعقل البشري المحدود غير مقدرين أن هذه الأدوات من حسي وحقل هي في ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه للغاية الكبرى التي لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان برسالة الله ووحيه الذي أنزله إلى أنبيائه والتي تسكف للإنسان الطمأنينة التامة في هذا المجال وتغنيه عن هذه المحاولات التي لا تنتهي إلى شيء ما .

والقول بأن الله هو الكون : إنما يمثل فهماً مادياً خالصاً لذات الله تبارك وتعالى . يتعارض مع العقل ومع الفطرة ومع ما أودعه الله في رسالة الدين الحق الموحى به الذي أراد به سبحانه أن يطامح النفس الإنسانية في هذا المجال حتى لا تكون في حاجة إلى البحث الذي لن تصل به إلى شيء . وأن يفسح لها طريق التأمل والتفكير في المجال الآخر . مجال العمران واكتشاف أسرار المادة . وما أودعه في الأرض والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للإنسان ، وحرضه على البحث عنها واستخلاصها . وذلك حسبما صورده الرسول الكريم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا .

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من أن دعوى القول بأن الكون هو الله وهو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي بحيث إن مذهب وحدة الوجود في ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل الذي يقول بالفرقة التامة بين الله والعالم . ولا يتفق مع العقل السليم الذي لا يقبل أن يكون الله هو العالم . بما فيه من حيوان وجماد فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الإسلام : وهي الأخلاق والقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التي تقوم على أساس مسكين فإدام الله (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) قد اتخذ الإنسان مظهراً له : فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التي تستهدف معارضة الإسلام في صميم أصوله . وهي إسقاط التكليف ، أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مغالفة أكيدة عقائد الإسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة ونحن في حاجة إلى أن ننبه إلى أخطاء المصطلحات التي تقول (الكل في واحد والواحد في الكل) أو القول (لا موجود إلا الله وأن جميع الممكنات مظاهر له) فهذا كله يتعارض تماماً كاملاً مع التوحيد . كما جاء به القرآن وفهمه المسلمون .

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود تعارض الوحي والعقل والفطرة جميعاً فإن عدداً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهاور أن وحدة الوجود ليست إلا صيغة مبهمة لمذهب الإلحاد لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر في أنه يهدم التعارض الثنائي الموجود بين الله والكون وأنه يقرر أن الكون موجود بذاته قوام بالباطنة الخاصة به فالبدأ الذي يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد إنما هو وسيلة للاحتفاء من الله أو تعطيل عمله والمحدوف أن الفلاسفة

ليونان من لندن طاليس أول فلاسفتهم إلى أرسطو ، يقولون باندماج الله في العالم أو العالم في الله .

ويقول الأستاذ هيد المنعم خلاف : إن انفصال الله عن الكون هو النظرة البديهية التي تحمل أكبر مشكلات الوجود ، وبها يضبط تقدمنا البشري وتحدد المسؤوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ولا تسقط التكليفات ولا تهدر قيم الأشياء . ويقول نقولاً حداد : إن الأديان السماوية الثلاثة ترفض هذه النظرية الفلسفية رفضاً تاماً ، وهي بحجة على أن الله والوجود المادى شيان مختلفان ، وأن لكل واحد منهما ذاتية قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى . وأن الله : واجب الوجود . هو خالق الوجود ومسيره . ويقول الدكتور محمد يوسف موسى : « الله والعالم ، متباينان في كل شيء ومتفصلان تمام الانفصال . أحدهما وجوده رهن بإرادة الآخر .

ويقول الأستاذ البشبيشي : إن وحدة الوجود مذهب خلاصته أن الله تعالى هو الوجود المطلق وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلاً ، فلو قيل إن الإنسان موجود فعني ذلك عندهم أن له تعلقاً بالوجود . وهو الله تعالى ، وأن جميع المواقف سواء اختلفت أنواعها ، وتباينت أجناسها وشخصها موجودة من العدم ، وأن وجودها هذا محفوظ عليها بوجود الله تعالى ، وليس بنفسها لأنها معدومة من جهة نفسها بعدمها الأصل ، ومن ثم بوجودها الذي هي به موجودة في كله هو وجود الله تعالى ، وهو واحد لا ينقسم ولا ينتقض ولا يتجزأ ولا ينتقل ولا يتغير ولا يتعدد أصلاً . ثم هو مطلق عن الكيفيات والأماكن والأزمان ، إنا لا نفكر كون العالم موجوداً لقدرة الله وإرادته . ولكن يجب أن نفرق بين وجود الله ، وهو وجود أزلي لا بداية له ولا نهاية ، ووجود المواقف . وهو وجود حادث له بداية ونهاية . ثم إنا أيضاً نسلم بأن وجود المواقف مسبب من الله تعالى ولكن لنا أن نقرر : أن هناك فرقاً كبيراً بين السبب والمسبب والملة والمحلول .

الحلول

ويختلف مفهوم الحلول عن مفهوم وحدة الوجود ، حيث يقول مذهب وحدة الوجود بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر (وهو ذيف لا يقره الإسلام) فإن مذهب الحلول يقول بوجود حقيقتين مختلفتين : الإلهية والبشرية . وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة . ويرى لويس ماسينيون أن الحلول له طابع مسيحي وله أصول يونانية وهندية ، وأنه مهدم لوحدة الله حسب رأي القرآن . ويقول الأستاذ الإمام الغزالي : إن الحلول لا يمكن تصوره بين عبيد ، فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد . وإن سلم أحد بإمكان ذلك إلى نفس واحدة فكيف يسلم به لجميع النفوس . وعندئذ يصبح العالم كله آلة . ويقول : فن الحال إذن أن يحل الله في النفس . وأن ينطبع فيها الطباع الخلق في اللبن ، فإن ذلك من صفات الأجسام .

ويقول الأستاذ محمود البشبيشي : إن الله واجب الوجود ، منفرد عن صفاته الحلول ، وأن الحلول

محال على الله تعالى لأسباب كثيرة . ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث باختلاف المادية في كل منهما . وهذا الاختلاف يرجب استحالة حلول القديم في الحادث . ثم إن الله واجب الوجود . وهذا الوصف ينفي الحلول لأنه في حالة حدوثه يصبح الحال تابعاً لما حل فيه ، كما يصبح معلولاً لهذا المحل ومتأثراً به ، بل إنه ليصبح في غير الإمكان تصور الحال إلا بتصور المحل ، إذن ينتفي الحلول في هذه المرة كما استحال في الأولى ، ثم إن الله واجب الوجود والواجب ليس عرضاً وليس جوهرأ ، فإذا كان الحلول حلول عرض في جوهر فلا يمكن بالنسبة لله تعالى لأنه ليس بعرض ، وإذا كان حلول جوهر فلا يمكن أيضاً لأن الله تعالى ليس بجوهر .

إن كتابات الحلول ووحدة الوجود وغيرهما هي من كتابات عصور الضعف والخفاف ، وقد كانت من أم ما كتبت إليه المنشرقون وحاولوا إحياءه وإذاخته ، وذلك لخلق منطق لدعوات الإباحة المستحدثة وخاصة الوجودية والفرويدية وغيرها . ومحاولة لتعطيم قانون أصيل هو (البعث والجزاء) وكذلك لترديد الدعوة إلى إسقاط التكالييف والالتزام الأخلاقي ، وذلك كله مقدمة من مقدمات الانحلال الذي يستهدف التأثير في فريضة الجهاد في سبيل الله ، والمعروف أن الاعتقاد بالحلول يسقط التكالييف والالتزامات وحدود الله ، ويدفع المسلمين خارج نطاق قيمهم الأساسية ويدمر مقوماتهم النفسية في الاندفاع نحو الترف والانحلال والفساد والشهوات ، من طريق إعلاء الغرائز أو الاندفاع نحو الانسحاب من الحياة كالرهبانية ومعارضة مبدأ الزواج وتكوين الأسرة ، والإمادة من بناء الحياة ومجاهدة أهواء المجتمعات .

الاتحاد

وليس فكرة الاتحاد بأكثر من فكرتي وحدة الوجود والحلول اضطراباً وفساداً ، ذلك لأن قول القائل : إن العبد صار هو الرب . كلام يتناقض مع نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه أن يجرى الإنسان في حقه بأمثال هذه المحاولات ، وطريق البرهنة على فساد ذلك يورده الغزالي في ثلاثة احتمالات : (أولاً) إما أن تظل كل ذات من الدائم موجود (ثانياً) إما أن تنفي إحداها وتبقى الأخرى (ثالثاً) إما أن ينفيها معاً .

وفي الحالة الأولى : لا يكون هناك اتحاد . وفي الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحاداً بين موجود ومعدوم ؟ وفي الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن تتكلم عن الانعدام ، فالنتاقض واضح في جميع هذه الاحتمالات ؛ ويقول الأستاذ البشيشي : وكما ننزه الله سبحانه وتعالى عن الحلول فهو يتنزه عن الاتحاد لأنه لو حدث أن اتحد واجب الوجود بغيره نتج عن ذلك حالتان : إما أن يبقيا موجودين معاً ، وإما أن يدركهما العدم معاً ، ويخرج منهما ثالث أو يدرك العدم أحدهما ويبقى الآخر ففي بقائهما موجودين فهما إذاً في هذه الحالة لإثنان متمايزان متباينان . وهذا التمايز يناقض الاتحاد لأن الاتحاد يلزم أن يصبحا واحداً وفي هذه الحالة معاً يفعل الاتحاد لأن الماهوم لا يتحد بمهوم وفي حالة أحدهما معاً فقط فإن الاتحاد لم يتحقق أصلاً .

التناسخ

لا ريب أن هناك عناصر وافدة دخلت إل الفكر الإسلامى . وحاولت أن تؤثر فى المفاهيم الإسلامية القرآنية الأساسية ، ومنها التناسخ . إن نظرية التناسخ . تتعارض مع مفهوم الفطرة والعقل والدين . وهى لا تطابق الحقيقة الثابتة عن مسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقى . فضلا عن سذاجة النظرة التى تقول بها ، وتحاول أن تبررها وهى أن انتقالها من بدن إلى بدن إنما هو وسيلة لمنح الروح فرصة بعد فرصة ، لكي تتطهر من أدرانها . وتوحى المذاهب الفلسفية القائلة بالتناسخ بأن الحياة ما دامت قصيرة فلا بد من إيجاد فرصة وثانية وثالثة ، الروح حتى تتحرر من أخطائها . وفى الهندوسية أن الروح لا تحاسب بعد حياتها الأولى مباشرة . ونظرية التناسخ تعارض المسؤولية الفردية التى تنطاط بكل إنسان بحسب عمله فى الدنيا فكيف بالروح التى تتماورها نفوس كثيرة ؟ كيف يمكن تحديد جزاء كل إنسان منهم ؟ فإذا كانت الأرواح تناسخ مع الحيوان أيضاً . فإن الأمر يصبح أكثر اضطراباً . مما يورده الهارسون : أن فيثاغورس : يرى تناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان . بمعنى أن روح الإنسان . قد تصبح روحاً لكلب . أو ثعلب مثلاً وهو تصور غريب .

وفى هذا المعنى يقول الدكتور يحيى هويدى : كيف تستطيع النفس أن تنتقل من جسم إلى جسم ومن كائن إلى كائن . إن هذا الانتقال يفرض أولاً احتفاظ النفس بفردانياتها ، وأنها هى التى تنتقل من هذا الكائن إلى الآخر ويفترض ثانياً عدم تعلق النفس بجسم معين ، وهذا تناقض . لأننا نعلم أن مصدر وحدة الإنسان . هو النفس ، فالنفس هى التى تبقى الإنسان على شخصيته ووحدة هويته وتجعله هو هذا الإنسان باعتباره مكرماً من هذه النفس المعينة وذلك الجسم المعين فكيف يعترف القائلون بالتناسخ بفردانية النفس وهويتها ولا يأتى ذلك إلى اعترافهم بهوية الأجسام باعتبارها مكونة من نفس وجسم .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن فكرة التناسخ تقوم على قياس زمنى خاطئ . فهى تقول إن الفرصة التى تعطى للإنسان فى حياته الأولى فرصة ضيقة جداً . إذا قسناها بالزمن اللانهائى للأبدية التى ستعيش فيها النفس بعد ذلك . من أجل ذلك فعلى أن تطيل هذه الفرصة فى فترات متعاقبة ، لكي تكون متناسبة مع الزمن اللانهائى للأبدية ، التى ستعيش فيها النفس بعد مفارقتها جسدها الأول . وتلك فكرة قائمة على وهم خاطئ . إذ مهما أطلعت فى المادة السابقة على فناء النفس فناءها الآخر ومهما تراكت فى ذلك السنين وتعاقبت الأدوار فإن هذا كله لن يكون شيئاً بالقياس إلى الأبدية التى تكون فيها النفس بعد الموت . فالأولى أن نجعل لتلك النفس حياة واحدة من أن نجعل لها حيوات متعاقبة تقاس فى كل منها الأموال . وقد رفض الإسلام فكرة التناسخ وذهب إلى خلود النفس خلوداً

نهاياً بعد حياتها الأولى المرتبطة بجسم معين ولا شك أن موقف الإسلام من خلود النفس ، وبعث الأجساد ، هو أظهر منطق للمسؤولية الفردية . والالتزام الأخلاقي بالحساب والجزاء في اليوم الآخر ويمكن أن نلاحظ هنا . أن أول من قال بتناسخ الأرواح بعد الإسلام السنيّة (أصحاب عبد الله بن سبأ) . وذلك في محاولة ترمي إلى تزييف المفاهيم الأساسية القائمة في حدود العلاقات بين الله تبارك وتعالى والنبي ﷺ وعلى بن أبي طالب . ولا ريب أن نظرية التناسخ تسلم إلى مذهب الحلول .

العرفانا

العرفانا : كلمة غامضة معناها الاعياء ، والسكون ، والانعدام ، والانتعاش والراحة . وللقصود الروحي منها : أنها حال من فقدان العمور تتخلص النفس في أنثائه من الإحساس بالآلم الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام فالعرفانا ليست وجوداً إيجابياً ولكنها تخاص من الوجود المأول يقوم لها مقام السعادة والتنعيم . أما للتصوفة المسلمون . فقد أخذوا (العرفانا) بمعناها اللغوي . وسموها الفناء والمعروف أن الفناء الصوفي ليس نوعاً من العرفانا ولا ريب أن العرفانا ظاهرة سلبية وفكرة متفرعة عن مذهب نقاذي وهي تأمل خال من كل مضمون تصل بصاحبها إلى حالة يفنى فيها عن نفسه وتغيب عن ذكره وفكره كل الصور والرسوم وقد استمدوها من قول بوذا كل شيء فارغ والكل لاجوهر له ، لا شيء موجود ، والكل بصير ، والكل في صيرورة بغير جوهر وعندهم أنه حتى لا يتعرض الإنسان للتناسخ . أو دورة الأرواح أن يصل إلى العرفانا . وقد صدق الدكتور عبد الرحمن مرحباً حين قال إن التفكير الهندي قد حطم الإنسان ، وهو يدعى تأليه الإنسان .

الإشراق

يتشكل مذهب الإشراق من عناصر إغريقية وفارسية ، وهو فرع من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية المهددة ، وجامع بين مفهوم الرواقين . والعناصر الإغريقية منه مأخوذة من فلسفة أفلوطين وفيلون اليهودي أما العناصر الفارسية فهي مأخوذة من ماني ومزدك وهو جامع آراء وتيارات راجعت في الديانات القديمة . ويقوم في جملته على القول : بأن مصدر السكون هو : النور . فهو يعبر عن الله سبحانه وتعالى بالنور الأعلى ويصف العوالم بأنها أنوار مستمدة من النور الأول . والمعرفة الإنسانية في مفهوم الإشراقين : إلهام ، من العالم الأعلى يصل بواسطة عقول الأفلاك وهو ما يسمى بالكشف أو الإشراق أي ظهور الأنوار العقلية للنفوس بعد تجردها ، ولا ريب أن مذهب الإشراق في جملته وتفصيله خارج عن مفهوم الإسلام وبمعيد عن جوهره ومتعارض مع التوحيد الخالص وقد تجددت الدعوة إلى هذا المذهب في الإسلام أيام الحروب الصليبية وفي نفس المحطات الحرجة التي كان المسلمون يعملون لمقاومة العدو الواحف .

وقد كانت فكرة النور والظلام من مذاهب المانوية والمردكية ، والباطنية وقد مضى دعاة الإسرائي متأثرين بمفاهيم المجوسية والورادشقية وما يتصل بالسكواكب والنجوم والأفلاك . ومعرفة الله في الإسلام لها أصولها ومصادرها . وهي بعيدة كل البعد عن أساليب الغنوصية وابست قائمة على الإلهام وحده أو العقل وحده واسكنها منج متكامل له خصائصه وأبعاده السكامة وليس في الإسلام ترق الانسان إلى مرتبة الآلهة أو اتحاد الناسوت واللاهوت . وقد ثبت أن الحركة الداعية إلى ذلك في مجموعها متصلة بالقرامطة الباطنية وبحركات الزنج وغيرها التي كانت تحاول إسقاط الدولة الإسلامية عن طريق الدعوة الفكرية وهدم التوحيد بالنظرية الفلسفية ولقد أقام المسلمون فكريهم على أصول ثابتة من القرآن والسنة الصحيحة ، واتخذوا من حياة الرسول نموذجاً تطبيقياً لا يتعدونه ولا يطمعون في زيادته . مؤمنين بأن كل ما لم يتحدث به القرآن أو رسول الله فإنه ليس من دين الله وأن رسول الله لم يسكن عن أمته شيئاً وأنه جاء ليتم مكارم الأخلاق .

الفصل الثالث

البهائية

الدعوة البهائية هي دعوة قديمة جديدة شكلتها أصول متعددة من الفكر الوثنى الهليني والفكر التلمودي اليهودي والفكر الغنوصي المجوسي وهي واحدة من الدعوات التي ظهرت في لبنان الاستعمار البريطاني بهدف إسقاط فريضة الجهاد أو تعطيلها ، وقد دخل يهود إيران هذه الحركة وحولوها وجهة متصلة بالماسونية وتحاول البهائية نشر دعوة وحدة الأديان بالخروج عن أصولها للدخول في دين جديد ، يقول بالسلام العام وتوحيد لغات العالم ومساواة الرجل بالمرأة واعتبار العبادة هي العمل .

وحيث تدعو البهائية إلى وحدة الأديان تدعو إلى وحدة الأجناس والشعوب ومن خلال هذه الدعوة العالمية تتكشف روح المخططات التلودية التي تحاول أن تشر هذه الدعوة من وراء الروحية الحديثة والثيوصوفية وأنها جميعاً تحاول التشبه بعصر جديد يشرق على البشرية وهذا هو جامع ما حملته بروتوكولات صهيون ولا ريب أن كل دعوة تدعو إلى وحدة الأديان والأجناس إنما تحاول هدم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يراى له أن يندمج وأن ينصهر وطائفة الأديان لا تستهدف إلا القضاء على عالمية الإسلام وهذه المعاني كلها مستمدة أساساً من التلود وأبرز معاني البهائية إسقاط فريضة الجهاد وهي دعوة حين تشر بين المسلمين لا تنفيذ منها إلا الصهيونية العالمية التي تخرص على كلات السلام وقد أبدت البهائية الربا بإعزاز من لليهود فقد أحصت للبهاء تهديدات من أربابها الربوية ولا ريب أن هذا ما يكشف عن مطابقة تامة مع الأيديولوجية التلودية البهائية حتى وصف البهائيون

بأنهم يحوس القرن العشرين وهي في أنظمتها أقرب الماسونية وقد وجدت مناخها في كل المناطق التي ضعفت فيها يقظة الاسلام . فقد استوطن البهائيون تركيا ، وعكا وحيفا قبيل الحرب العالمية الاولى . وكان لذلك أثره البعيد في إنشاء الوطن القوي اليهودي في فلسطين والقيام بدور هام في عملية تهريب المهاجرين . وقد أعطى عباس البهاء بسلوكه وتصرفاته نموذجاً لازمامة البهائية . فقد كان ماضياً مفرطاً في مجونه وأحسيت له في وياراته لسويسرا وفرنسا وانجلترا مواقف قوامها التحرر من كل القيم والأخلاق وكشفت تصرفاته عن إشادة واضحة بالافكار المجوسية واحتقار دعوات الانبياء وقد وصف الرسل بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق .

وقد كشفت مخططات البهائية عن منهج كامل في هدم الاسلام (أولاً) أن أبرز مفاهيمها هو تأويل آيات القرآن . بما يخرج عن مفهومها ومدلولها اللغوي والشرعي حيث تقوم البهائية في أسسها الاولى على التأويل شأن الفرق الباطنية القديمة بعيداً عن أصول اللغة وللتعارف من النواميس والسنن ، والتحايل على آيات القرآن الكريم وصرفها عما يراد بها من حكمة وهداية وتوجيهها إلى غايات تتعارض أساساً مع القرآن وتأويل نصوص الشريعة بما يحقق الدعوة إلى إسقاط التكليف - والتأويل فن ابتكره اليهود .

(ثانياً) تقول البهائية بتطور الشريعة وتبديلها تبعاً لتطور الأزمان وهي نفس الدعوى التي ترددها اليوم دعوات الفرويدية والوجودية والتي هي من الأسس الاصلية للمخططات التلودية وهم يذهبون إلى القول زوراً وبهتاناً بأن الشريعة الاسلامية لا تصلح لهذا الزمان . وفي هذا لإقرار بالقوانين الوضعية وإقرار بنظام الغرب وفصل الدين عن المجتمع . (ثالثاً) معارضة الجهاد ومقاومته حتى يقول أحدهم إن البشارة الاولى بتبليغ أهل العالم هي بحكم الجهاد من الكتاب ، أي القرآن ، وقد علا صوت هذه الدعوة في مواجهة احتلال اليهود لفلسطين دفماً للمسلمين إلى الاستسلام والتخاذل . وكذلك ارتفع صوت هذه الدعوة الاولى إلى هذا المعنى في مواجهة صيحة السلطان عبد الحميد بإعلان الجهاد الاسلامي في مواجهة زحف الاستعمار على الدولة العثمانية .

(رابعاً) محاربة اللغة العربية والدعوة إلى تبديل اللغة الفصحى بما أسموه « اللغة النوراء » ، وذلك بهدف محاربة لغة الاسلام العالمية . وهي لغة القرآن العربية وإثارة المشكوك حول عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة بين العرب والمسلمين لغة الفكر والثقافة والصلاة والهدف هو تعزيز الصلة بين حاضر المسلمين وبين ميراثهم الخالد . (خامساً) إدهاء نبوة جديدة ودين جديد ناسخ للإسلام وللاديان جميعاً . والدعوة إلى الخروج من الاديان القائمة والدخول في دين جديد وفي ذلك متابعة لدعوة الماسونية ومنهج اليهود والأيديولوجية التلودية في محاولتها فرض نظام عالمي من خلال منطق « الربا » وتحقيق هذه الغايات عن طريق مذهب يحتوي جميع رغائب المطامع والشهوات .

(سادساً) دعوة السلام العام . وهي دعوة إسرائيل التي تستهدف بقاء وجودها في الأرض العربية

ودعوة الصهيونية العالمية ، بالسيطرة على العالم (سابعاً) لإبطال شريعة الإسلام وأحد - افق شأن المرأة والدعوة إلى الاختلاط بين النساء والرجال والمساواة على النحو الذى أصبح فيه المرأة متحررة من قوامة الرجل ، واتخاذ المرأة متعة وأداة وذلك في ضوء فلسفة اللذة ، ومشاركة الرجل في صالات الرقص والنواذى القليلة وإقامة الحرية الجنسية المطلقة . ومن نتائجها إنبهار الأسرة وانحلالها (ثامناً) الترابط الواضح بين اليهودية النلدودية ، والبهائية ومتابعة اليهود في منهجهم والاستعداد في التراث اليهودى - وهذا التعاقب بين البهائية والصهيونية في الحديث شبيه بتعاقب اليهودية والمجوسية في القديم وهدفه القضاء على الإسلام وزلولة أعمده . وقد ثبت عن البهاء قوله : أنه يدعو إلى جمع المسلمين والنصارى واليهود على نواويس موسى عليه السلام أى أنه يريد (تهويد) المسلمين والنصارى . وأنه يجعل اليهودية الدين السائد في الأرض ، وبذلك يكون السلطان في عالم كله لليهود وحدهم .

وقد واجه كثير من الباحثين الدعوة البهائية ، وكشفوا عن زيفها وفي مقدمة هؤلاء العلامة محمد فريد وجدى . الذى قال إن طموح البهائية إلى أن تكون ديناً عاماً يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو عما يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم . فإين هى من الإسلام الذى بنى أماً قوية ومدليات فاضلة في خلال عصور متعاقبة ولا يزال طفل حيويته الأولى حتى ليتوقع فلاسفة كثر من منهم برناردشو أن مبادئ الإسلام تؤهلك أن تحكم العالم أجمع . يقوم الإسلام على أصابن ضمنا له التعميم والخلود : موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم فأين البهائية من هذا لاونف العلمى الحق وهى تقوم على أصلين : أحدهما حقيق خامض ، قال به أفراد من محب السبح في الخيالات فهو تصور ذات الله بصور المخلوقين ؛ وثانيهما وهو صرف الالفاظ عن ظواهرها وفيه مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط .

(تدعى البهائية أنها أتت العالم بمجديد من الأصول ، لم يدرك في خلد المصلحين قبلها ، كاتحاد الأديان وترك العصبيات واتحاد الأجناس والسلام العام ومساواة المرأة بالرجل أما ما سموه باتحاد الأديان : فقد سبق إليه الإسلام وأسس على أقوى الأصول . وحاطه بأحكم الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد وأن الخلافات التى بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام فالإسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً ، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من عهد تفرق بينهم . إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام . ١ هـ

هذا ومع أن البهائية قد انتفضت على دهوتها نصف قرن ، أو يريد فائزى أنها استطاعت أن تحقق هدفاً واحداً من أهدافها في اتحاد المشرق أو المغرب أو اتحاد الأديان أو الأجناس أو زوال الحروب وكل ما كشفت عنه أنها موجة زائفة من موجات الإبادة والإلحاد التى حملت كل سخائم الباطنية القديمة وأعادت طرحتها على البشرية مرة أخرى . وأبرز ما يكلف عن نجاحهم وهدفهم أنهم يشاركون الدهوات المدمامة الاخوى في أبرر المفاهيم للفتنة بين هذه الفرق جميعاً .

(أولاً) إنكار البعث والجنة والنار وهم يؤولونها (وهم في هذا يفتنون طائفة الدهريين) (ثانياً) دهمى النبوة لبعض دعماء للذهب (ثالثاً) نزع السلاح وإنكار الجهاد ونشر السلام العام ، ونبد العصيات الدينية (رابعاً) إنكار إعجاز القرآن وأنه من عند الله (خامساً) فساد عقيدتهم في الأنبياء والدعوى عليهم بأنهم ستروا الحقائق وإنكار معجزات الأنبياء

(١) مفهوم التأويل

لا يقر الاسلام للتأويل بمفهوم تخفيف الضوابط الأخلاقية ، أو التهوين من شأنها وليست هذه الضوابط أغلالاً باطلة أو قيوداً مفروضة على الانسان - والاسلام في جوهره يقوم على الثبات وعلى المفاهيم الواضحة (آيات محكمات من أم الكتاب) (فأما الدين في قلوبهم زيغ فيقبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (سورة آل عمران) وتجرى محاولة التأويل المستحدثة الآن لتجعل الاسلام متقبلاً للحضارة في مختلف فروعها وأعمالها (ومن هنا الاباحية والربا والمزقة) والحق أن للاسلام قيماً ثابتة لا تتغير وإنما يجرى التطور في الفروع لا في الأسس فلا يقال مطلقاً إن الاسلام يتطور ليتناسب مع الزمن والتقدم المادى ، بل إن على المجتمعات أن توائم بينها وبين الأصول الثابتة في العقيدة والبعث والالتزام الأخلاقى . إنما تتطور الأديان البشرية والأيديولوجيات والمذاهب لتستطيع أن توائم نفسها مع التغير الحادث ومع البيئات والعصور ذلك لأن هذه المذاهب عالمية وإنما الاسلام وحده هو الذى يمتلك الطابع العالمى الخالد . ومن شأن الوضعيات أن تواجه التغير .

أما الإسلام ، فإنه في أصوله الاصيلية الثابتة قد أقام قواعد عامة لا تتعارض مع تفهم الأزمنة ، أو تطور البيئات أما أن يصبح الاسلام مبرراً لا موضوع الحضارة ، والمجتمعات فإن ذلك ليس من رسالة الاسلام وأهدافه - بقول العلامة النيسابورى : وأعلم أن مقتضى الديانة أن لا يؤول المسلم شيئاً من القرآن والحديث بالمعنى بحيث تبطل له الاحيان التى فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم والمكلف الصالح . وأبرز أخطاء التأويل يتمثل في محاولة القول بأن عذاب جهنم ، هو عذاب معنوى . والهدف من ذلك هو إشاعة الإباحة والجرمية في الناس بأنواع فكرة العذاب الاخرى من نفوسهم ، بينما هو عنصر هام من عناصر إحياء الضمير وردع أهواء النفس من الشرور والمآثم وقد أصبحت الدعوة للإباحة المطلقة ، والتحلل من ضوابط الفضائل النفسية والجسدية هدفاً أيديولوجياً لبعض الفلاسفات المعاصرة كالوجودية وغيرها .

فالقائلون بعدم كون العذاب الاخرى حقيقة ، إنما يعملون بدهائم الخاص لتسريب هذه الفلاسفات الهدامة للقضاء على روح الامم . وإفساد مقوماتها النفسية والعقائدية وهى أشد ما تكون حاجة إليها وهى تصارع في معركة المصير إلى الاحتفاظ بهذه المقومات التى هى منابع طاقتها المناضلة . وإن هذا الاتجاه يؤدي إلى إبطال قضية (النواب والعقاب) على الإطلاق ، وتبطل تبعاً لها دفعولية التكاليف الشرعية ، والتزام العمل لانه أى (النواب والعقاب) مناط التكاليف الشرعية والتزام العمل بها ، فإذا بطالت حقيقة الجواز بالنواب والعقاب دلى فعل التكاليف وتركها فقد بطالت حقيقة التكاليف للشرعية ذاتها وهل الاسلام إلا هذه التكاليف من الامر والنهى فإذا بطالت بطل الاسلام كله

الفصل الرابع

الروحية الحديثة

(١) تمهيد الأرواح : من الدعوات التي روجت لها الصهيونية والاستعمار : دعوة تمهيد الأرواح . وجهياتها تتخذ أسلوب الماسونية . إذ تقوم على الأسرار والرموز ، ولها درجات يترقى فيها المضر ، حتى يصل إلى أعلى مكان . ولا ريب أن القول بأن أرواح المتوفين يمكن أن تعود إلى عالمنا ، وأن تتكلم . هو إدعاء ليس له أى دليل على أو عقل ، فذلك أن عالم الروح عالم غيبي . من المستحيل أن يستطيع البشر اختراقه وأن كل ما عرف عنه لا يعدو ما جاء في الكتب المنزلة . وفي مقدمتها القرآن .

ولقد كشف كثير من المنتهين إلى هذه الجمعيات مدى فساد الطريقة التي يحاول بها محترفو هذه الصناعة ، خداع الناس ، والدخول إلى نفوسهم بألوان من الأساليب القائمة على الأضواء ، والإيماءات ومدى الزيف الذي تنطوي عليه هذه الوسائل التي لا تخدع إلا البسطاء والسذج . وأمامنا تجربة كاملة لرجل على درجة عالية من الثقافة هو الدكتور محمد حسين : الذي كشف في كتابه (الروحانية المدنية حقيقة وأهدافها) عن مدى الزيف الذي اتضح له بعد أن مر بهذه التجارب ، وأثار الله بصيرته إلى الحقيقة وقد نقد جوانب كثيرة من حلقات تمهيد الأرواح . سواء منها ما يتصل بأسلوب الفنتازم أو السلة أو وسيط التنويم المغناطيسي . وذلك كله يتم في ظلام ، وتحت ضوء أحمر خافت لا يكاد يميز فيه الناظر أشباح الجالسين ، بالإضافة إلى رنين أجراس ، وما إلى ذلك من أساليب الخداع التي تثير الرهبة في نفوس البسطاء .

وقد تبين أن المقلبين على هذه الحلقات هم من فقدوا أعزاء لديهم ، فهم يريدون أن يشبعوا شوقهم إليهم بالاتصال بهم . أو من وقعوا في أزمات يطعمون في استقصاء أرواح أقارب ، أو شخصيات بارزة ، وسماع نصائحهم أو طلاب العلاج من الأمراض . وقد انتشرت في السنوات الأخيرة أضاليل كثيرة . منها أن أرواح الموتى تقدم للأحياء أشياء مكتوبة تملئ طيبهم ، وقالوا إن أحمد شوقي ما زال يرسل بشعره من عالم الأرواح . ويهدم دعاء الروحانية الحديثة ومروجوها دعاوهم بنصوص من الكتب الديارية . يجازفون بتأويلها حسب أهوائهم أو يخرجونها عن مدلولها ، وكذلك بنصوص من المأثور عن السابقين الأولين .

يؤكد المتصلون بالأبحاث الروحانية . والذين اندمجوا فيها ، أن هذه التجارب على الطريقة التي يجري بها في أوروبا وأسمها باسم Spiritualism والتي يطلبها منهم المروجون لها ، هي تحت

هدامة تحاول أن نجعلها (دينا جديداً) يهدم أسس المجتمع ، وينفصر فيه القوضى بالتشكيك في كل المقررات الدينية والخلقية . وأنها شعبة من الدعوات المريية التي تأخذ الناس من كل جانب والتي تلبس مختلف الأنواب ، وتطفي حقيقتها تحت شتى الأسماء وهي تتخذ اسم العلم أو السلام أو الرحمة أو محاربة الإلحاد والمادية بل إن مراجعة يسيرة للمقالات والمفاهيم التي يعتنقها دعايتها وأتباعها ، تكشف عن عطورتها وآثارها البعيدة في تهديم الاسلام والتوحيد .

(أولاً) تقوم تعاليم الروحية الحديثة على وحدة الوجود (فائق والعالم هو - واحد) وعلى تناسخ الأرواح وغلود الحياة المأنوسة لنا الآن فلا فناء الدنيا وأنه ليس هناك يوم للبعث والحساب العام . والعبادات المقررة لا وزن لها عندهم وكذلك إنكار خلق الله للكون ومحاولة الترويج لقدم العالم ، وإنكار نهاية الخليقة . ومن عجب أن جميع هذه الدعوات قديمها وحديثها إنما تقوم على هذه القاعدة العجيبة سواء أ كانت البهائية أم النيو صوفية أم الدهرية . بل إن دعوات الفرويدية والوجودية والهبية تبلغ في ذلك مبلغاً لا حد له من التزويد وتصل دعواها إلى أبعد الغايات في استغلال مظاهر العلم ، وأساليب البحث للفلسفي رغبة في تحقيق أكبر قدر من الاغراء والخداع ، والمعروف أن فكرة تناسخ الأرواح وغلود الدنيا وإنكار الجزاء هي نفس مبادئ الماسونية مصوغة في أسلوب جديد والواضح أن فكرة التبشير بنبي أو إمام أو مهدي هي عنصر أصيل في مثل هذه الدعوات . ذلك أن أصحابها إنما يمدون بها لتحقيق غاية يتطلعون إلى أنها ستكون في المرحلة التالية ومن ثم فهم يمدون الأبصار إليها .

وكذلك فإن هذه الدعوات تبشر بفكرة العالمية أو الكونية . وتلك غاية أخرى من غايات الدعوات الهدامة وهدف أصيل من أهداف الماسونية في خدمة الهيوية العالمية (ثانياً) تقوم الروحية الحديثة على معاداة الأديان . وخاصة الاسلام والمسيحية . وتكشف في كثير من إيماءاتها عن صلتها باليهودية التلودية . ولذلك فإن دعاة الروحية يهاجون رجال الدين عامة . كدخول إلى مهاجمة الأديان نفسها . ويركزون على السخرية منهم ، واتهامهم بالتقصير والتأخر والجلود إلى غير ذلك إنما يراد إلصاقه بالدين نفسه ، فضلاً عن إنكار علماء الدين لما يدعون من اتصال بالأرواح أو ما يسمونه بالعلاج الروحي . وهم في نفس الوقت يمدون الوثنية والنحل القديمة ويعلمون من شأن الفرعونية ويتخذون من أسمائها رموزاً لهم ولحقولهم . وهم يشيدون ببعض الأرواح القهونية . مثل روح (رع أمون رع) و (مبوت) ويطلقون اسم جمعية الامرام على عقولهم ويركزون على الآثار والكشف عنها ويولون هذه الكشوف عناية كبيرة .

(ثالثاً) تركز الروحية الحديثة : على مدمم الاخلاق ، ونفي الاختيار والقول بالجبر . وهم في دراساتهم الروحية يتخذون نفس الأسلوب الذي اتخذه الدوايات النفسية في تبرير الجريمة والاعتذار عن الجرم ووصفه بأنه مريض ومحاولة إرجاع دوافعه إلى عقد نفسية . أو إلى اضطراب في تركيب جسمه . على نحو ما تفهم نظرية (المبروزي) التي ألقها كثير من العلماء فسادها واضطرابها وهم يحاولون

هذا أن يصلوا إلى ثبوتة المجرم ، ورفع القصاص عنه . كما يدعون المجتمع إلى عدم مطاردته . فالروحانيون يذهبون هذا المذهب نفسه عن طريق آخر فهم يبررون الجريمة بإرجاعها إلى ما يسمونه (المس الروحي) والمجرم في كلنا الحاليين مكره في نظرهم على الجريمة تركبها تحت عامل داخلي عند الفرد ويدين أو تحت عامل خارجي عند الروحانيين ، وكل منهما يهدم التقنين الخلق من أساسه لأنه يحول المسؤولية الفردية التي هي مناط الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، ومن الواضح أنه يحول في الوقت نفسه الشرائع الحاوية كلها ، بل القوانين الوضعية أيضاً فهو هو إلى الحجة الضالة المفسدة لدين والدنيا جميعاً .

رابعاً : من أخطر دهواتهم وأكذبها : قولهم إن الجنة والنار فكرة عقلية ، أو حالة نفسية . وإن للناس على اختلاف أديانهم ، وعلى اختلاف تحملهم وطبائعهم يعيدون فيما وراء الموت حياة هي نفس حياتهم على الأرض ، وإن فرص التكفير عن الذنوب لا تنقطع بموتهم . وهم بذلك يهدمون أكبر رادع للناس عن الظلم والفساد . وهم يدعون أن القيامة هي قيامة (آدم) الحديد الذي يقوم على وجه الأرض في عالم لا يحكمه إلا السلام . وتسود الروحية ، وتلك إحدى دعائم التي يهدون لها (خامساً) إنكار القرآن والإنجيل أساساً ، ثم محاولة الاستشهاد بهما مع التحريف الشديد في سبيل خداع البسطاء ، وضماف النفوس .

وحيث أن الدعوات الهدامة . تقوم على المادية ، فقد كان من الضروري خلق مناطق أخرى له مدخل فاهم المثلث يحاول استقطاب المتدينين ، والذين يسكروهن الدهوات المادية ، ومن هنا كانت الروحية أسلوباً للهدم فهم يدعون الناس بمن تحتويهم أساليب الخوارق والمعجزات ، ويتدوجون بهم حتى يصلوا معهم إلى نفس الغاية التي تصل إليها المذاهب المادية من إنكار الوحي ورسالات السماء ، ومن أن الأديان كلها تهدف إلى غاية واحدة . فليس بينها خلاف ، وأن الرسل والأنبياء ليسوا إلا وسطاء بين الله وخلقه ، وأن هذه الرسالة قائمة لا تنقطع ، وأن هناك من يتوهمون بها على الدوام ، وفي الوقت الحاضر أيضاً . ويصلون من هذا إلى الحديث عن نبيهم (سافر بهوش) الذي يسمونه الروح الرائد أو (آدم الجديد) وهو الذي سيكون خليفة الله على الأرض . وينقلون عنه كتابات وأحاديث تستهدف التركيز على الغايات الكبرى للمذهب الروحي . وهو لإخراج الناس من الإيمان بالله على الوجه الذي جاءت به أديان الله ، والتي نزل بها الإسلام خاتماً . وفي هذه الدعوة حديث عن إسقاط التكليف ، وتجاوز حدود الله ، وإباحة المتعة والشهوات ، والتشكيك في الجزاء والعقاب والثواب ، وفي الجنة والنار ، وفي الحياة الآخرة جملة . وتقوم هذه المفاهيم على أساس (التآويل) على نفس المنهج الذي عرفته الدعوات القديمة كلها ، وتهدف إلى الترويج للالحاد ، والإباحة تحت ستار التنوير بمكارم الاخلاق .

(سادساً) محاولة التفريق بين المبادات والاخلاق . والادعاء بأن العمل الصالح وحده كاف لأن يقرب الإنسان من ملكوت الله . ويذهب (سافر بهوش) إلى هذا المعنى حين يقول أعطني الرجل

الذي لا يقتضئ أى دين . والذي لا يركم لذكر اسم الله . ولكنه (أمين) ، يحارل أن يخدم ويهد يده للضعيف ، ذلكم أكثر تدنياً على ينسب إلى أى دين .

ويكشف لنا النص مصادر الدعوة التي ثارت وترددت حول الفصل بين الإيمان بالله . وبين الأخلاق أو بتعبيرهم بين (الدين والضمير) .

لا ريب أن هذه الحقائق تصل بنا إلى غاية واضحة : هي أن الصهيونية العالمية قد استطاعت أن تحتضن فكرة الروحية الحديثة ، وأن توجهها إلى أهدافها . كما احتضنت كثيراً من الحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية في العصر الحديث ولقد كانت حركة الروحية . أو (الاسبرتزم) في أول أمرها سلاحاً جباراً ، أريد به معارضة المادية - ومقاومة نفوذها . وشغل به كثير من أرباب الأديان ومن أعداء الدعوات الهدامة ، وكان لامثال فريد وجدي وغيره اهتمام كبير به ، بحساباته ، باباً للإدانة من الدعوة المادية وإسقاطها . غير أن لقوى الهدامة ، استطاعت أن تستوعب الحركة الروحية وأن توجهها إلى غايات أبعد ما تكون من أهدافها الصحيحة . فأصبحت الروحية بمثابة دين جديد يبشر به المبشرون ويدعو إليه الداعون ويتنبؤون عن طريقه بعالم جديد يهوده السلام والمحبة ، وهو نفس الطريق الذي سارت فيه دعوة (الثيوصوفية) ثم البهائية .

وقد أكد هذا المعنى (هوايت هوك) فيما نقلته عنه مجلة عالم الروح حين قاله : إن الروحية اليوم تلقنها يد الحراس من الأرواح . والسادة مصلحو البشر ، أولئك هم الذين خلقوا الحركات المتعددة منذ مائة سنة ؛ فهم الذين وضعوا أساس الثيوصوفية ، والفكر الحديث ، ولعلم المسيح الحديث ، ولذلك فالروحية ستكون أقدر على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله - ويقول أحد دعاة الروحية الحديثة : إن هذه المنظمة ستكون لشكل البنيوية . وعن طريقها سرف يوضح لنا سكان العالم الروحي : طريقة جديدة للحياة ، ويمطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيشته . أنهم سوف يأفون لنا بالسلام والطمانية الروحية وسعادة النفس والقلب . سوف يخطون الحواجز بين الشعوب والأفراد بين العقائد والأديان . ومعنى هذا كله كما يقول الدكتور عبده الراجحي في كتابه الشخصية الإسرائيلية : إن الروحية الحديثة هي صورة أخرى من صور العالمية . تتخذ أسلوب الماسونية ذاته . فهي تقوم على رموز وأسرار . ولها درجات . ولم تنفأ للعالمية ولكن أنشئت لأهداف خاصة . وهي مخطط لإسرائيل واضح الهدف والأسلوب يرمي إلى انتزاع الشخص من دينه وقوميته وصبه في قالب جديد من العالمية أو السكونية مستخدمة لذلك مختلف الوسائل حتى أنها تستخدم الدين في هدم الدين . فهم يؤولون آيات القرآن تأويلاً عجيباً ليصلوا إلى منهجهم ويحاولون أن يجعلوا من الوسيط الروحي في العصر الحديث رسولا يفوق الرسل وهدف للروحية الحديثة (لا بد أن ينتظم الدين بيد أنبائه ، ولا بد من تحقيق القومية على أيدي أنبائها وهذا هو السبيل أمام الإسرائيليين كي يركبوا أكتاف العالم من جديد .

أما نحن المسلمين ، فإننا نقف إزاء ذلك كله على قاعدة صلبة ، فقد كشف لنا القرآن عن الثورفة الصحيح من كل هذه الدعاوى الباطلة التي كشفها القرآن نفسه في حديثه عن أصحاب المذاهب الهدامة ، والنحل الضارة التي سبقت الإسلام . ونحن المسلمين نؤمن بالمادة ، وما وراء المادة ، وبالحياة والموت والنشور . ونؤمن بالبعث والمجزاء وبأن النار حق ، والجنة حق ، وأنها ليست من باب التصورات والأحاسيس . وللمسلمون لا يؤمنون بأن الأرواح التي ذهبت نستطيع أن نتصل بها لهذا أو أن يكون لأحد في عالمنا سلطان لاستحضارها . ولا يقر الإسلام الاتجاه إلى الروحية وحدها ، وليس الإنسان روحاً بلا جسد . ولا ينصر الإسلام إحدى الكفتين : الروحية ، أو المادية ولكنه يجمعهما معاً ويوآذي بينهما وهذه الدعوة إلى الروحية ليست إلا نموذجاً للدعوة إلى للمادية وكلاهما يتعارض مع الفطرة وطبيعة الإنسان ومع مفهوم العقل المؤمن بالوحى ويبقى الإسلام متمبراً بنظامه ودعوته إلى الإيمان باقية ومقاومة الطغيان المادية أو الروحية على السواء ، ونحن نعرف أن هذه الفلسفات جميعاً نشأت في غير محيط الإسلام كرد فعل لمفاهيم سبقت بالسكبت والحجر على العقول والأبدان والدعوة إلى الرهبانية وتآليه الإنسان وما يتصل بذلك من دعوات التعدد وغيرها بما دفع الفكر الغربى إلى الصراع بين المثالية والمادية وبين الأديان والفلسفات .

وهذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى إعلاء الانسان وإلى عبادة الأجساد ، وما دفع الآخرون إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، ودفع بعض الفلاسفة إلى القول بأن الإله الذى عرفوه عن طريق دينهم قد مات وهكذا ومن هنا كان رد فعل المادية المطلقة الغالية في إنكار عالم الغيب والوحى والأهداف وإنكار الله إلى دعوة غالية في الاتجاه الآخر إلى الروحية والعوالم والأفلاك وكلاهما مصرف شديد الاسراف ، وكلاهما يصدر عن العقل الذى تحكمه الأهواء والذى تقوده دعوة الفكر الحر ، فلا يستطيع أن يصل إلى شيء لأنه يخرج عن نطاقه ووظيفته وأفق المحدود .

وقد نقلت الجمعيات الروحية ، ودعوات تحضير الأرواح إلى بلاد نابغية انتزاع المسلمين من دينهم وقوميتهم وإخراجهم من عقائدهم وقيمهم فهم بين شرين كلاهما مر . أما روحية تنكر الجسد والمادة والإنسان روح لا مادة ، كما يقولون أو مادية تنكر كل شيء وتعتبر الروح نفسها مادة خالصة وكل هذا يستهدف إخراج المسلمين من عقائدهم وشريعتهم وأخلاقهم ، ويلتمس لذلك ما حملته الدعوات الهدامة قديماً من باطنية وغنوصية وإشراق وتناسخ وحلول ، فالعبارات هى العبارات والأهداف هى الأهداف لا جديد إلا أن تشكل من جديد تحت اسم جديد لا ريب أن الروحية الحديثة بدأت حركة في مواجهة المادية ولكن مخططات التدوذية لم تلبث أن احتضنتها ، وسارت بها خطوة في طريقها إلى غايتها ولا ريب أن القول بأن العلم الروحى قد أصبح علماً تجريبياً ، هو من أكبر التجاوزات الخطائية التى ليس هناك دليل على صحتها ولا ريب أن التواصل بين الأحياء والموتى أمر مشكوك فيه إلى درجة الاستحالة المطلقة ومن الخطأ في هذا المجال الربط بين هذه المفاهيم الوافدة وبين القرآن الكريم عن طريق التعسف في قائل الآيات والنصوص .

الباب الثاني

دعوات هدامة للمجتمعات والأمم

الفصل الأول : إيدولوجية التلمود الفصل الثاني : المنصرية

الفصل الثالث : المادية الفصل الرابع : العناية

الفصل الخامس : العالمية

الفصل الأول

إيدولوجية التلمود

ما تزال البشرية تواجه إيدولوجيات متنافسة لفطرة الإنساية والتوحيد والعدل . ومتحركة داخل نظريات ومذاهب ، وطارحة نفسها خلال العصور المختلفة بأساليب متجددة . وفي هذا العصر نجد هذه الدعوات الهدامة للأمم والمجتمعات ، وقد صاغت أفكارها القديمة . التي سبقت الإسلام . والتي جاء الإسلام ، ومن قبله كل أديان السماء ، للكشف عن زيفها ، وللتحذير من أخطارها . صاغت هذه الأفكار في أسلوب يرائي ، وفي منهج علمي ، واتخذت أساليب مستحدثة ، وقدمت فكرها في أجواء زاهية ، ومن خلال مطبوعات لامعة فاخرة ، وتحت أسماء مغرية . ولما كانت دعوات الهدم تعارض الأديان والأخلاق والأهم . وتتناقض الضوابط والفرائض والحدود ، وهي تفرى بالتحري في الفكر والسلوك . فإنها قد تجد من بعض الجماعات البشرية ، والأفراد تقبلا بالإغراء ، ومؤازرة بالرغبة ومن هنا تبرز الأمم للأخطار ، جيلا بعد جيل . وتعمق الأزمة ، وتبرز الآثار المروعة التي لا يدفعها ، إلا أن تعود الأمم مرة أخرى ، إلى القاس مناهج الله وأساليب الرسل والأنبياء . ومن أخطر ما تواجهه البشرية اليوم ، مخططات التلمود التي صيغت في دعوات هدامة كالماوسوية ، وحركات خطيرة كالصهيونية ، وأساليب عمل كبروتوكولات صهيون . وهدفها هدم الدين والأخلاق والحضارة واستعمال كل الوسائط والأساليب ، لفرض سيطرة الصهيونية على العالم .

إن هدف إيدولوجية التلمود ، هو إقامة إمبراطورية الرب العالمية . وقد رسم اليهود أهدافهم بدقة

خلال مفاهيم في بابل منذ أُنشأ عام تقريباً ، حيث أعدوا مخطوطاً كاملاً للسيطرة على العالم ، والانتقام من الأميين . ومن أجل هذا أجرى اليهود تحريفات كثيرة في كتبهم المقدسة ، ومنها برزت نعتهم وأحقادهم ، فقد حشوها بأغش القول ، وأبشع الحق على الأديان والأمم ، وضمنوها عديداً من التعاليم الضالة ، والمبادئ الخاطئة ، والقيم الفاسدة يقول جاك رومان ، وماري لورا في كتابهما (التحدي الصهيوني) : إن أبرز ما تحمله تعاليم اليهود هي فصوص تفيض وحشية وعنصرية وحقداً على العالم كله ، وقد غذيت العقول بهذه الأحقاد على مدار الأجيال ، فأصبحت قوام النفسية اليهودية التي نشأت نتيجة لما الدعوة لإعادة التركيب الاجتماعي . ومنها نهأت تلك الأيدولوجية القائمة على العنصرية ، والسيطرة والظلم والربا ولا ريب أن هدف الأيدولوجية التلودية هي طبع العالم كله بذلك الطابع . واحتوائه داخل منهج وبوى مادي . يتحرك من خلال مفاهيمهم وقيمهم . وقد وصلوا في ذلك إلى حد كبير بتطعيم الفكر الغربي بمذاهب جديدة في النفس والاجتماع والاخلاق والاقتصاد . ويمكن القول أن الأيدولوجية التلودية . قد استطاعت فعلاً بعد صراع كبير مع الفكر الغربي المسيحي من السيطرة على الحضارة الأوروبية والفكر الغربي وطبعه بطابع المثل الأعلى التلودي .

(٢) من أجل إتامة منهج وأيدولوجية ، لابد من تدليل القوى لتحقيق هذا الهدف . فإذا كان المثل الأعلى التلودي هو للربا والسيطرة الاقتصادية العالمية فلا بد من تدليل كل العقبات في سبيل إخضاع البشرية لهذا الهدف . ومن هنا تكون الأديان والاخلاق هي عقبة العقبات ولذلك ، فلا بد من تدليل الأديان والاخلاق لأنها قوى المعارضة الحقيقية . ومن هنا تركز التلودية اليهودية على تفكيك الاخلاق ، وتسهيل سبل الشهوات ، وتزيين ذلك الناس بوسائل العرض ، وصياغة المناهج والفلسفات ومن هنا كانت سيطرة اليهودية على الصحافة ، والسينما ، والجامعات ، والمناهج الثقافية والتربوية . ومن ثم أصبح في أيديهم كل وسائل التأثير العقلي ، والاقتناع الفكري ، عن طريق السكينة المكتوبة ، والسكينة المسموعة ، والصورة المرئية . فالآلهة وأشرطة الصور المتحركة ، والرقص ، ومسابقات الجمال ، والمودات وكتب الجنس والصور العارية . . كل ذلك في أيدي اليهود . وقد نشروا في العالم كله مجلات متخصصة للدعوة إلى عبادة الجسد ، ونشر المجون والفسق ، وإذاعة القصص الكاذبة عن الاشرار وإعلان الفضائح والجرائم تحت ستار التحقيق الحقائق . وليس كل هذه الأساليب والمناهج والمذاهب ، من سياسية واجتماعية ، إلا محاولات لتقريب العقل البشري كله من الأيدولوجية التلودية وصره فيها وتشكيكه من جديد .

(٣) حيث اقتضى مخطط الأيدولوجية التلودية الطموح إلى السيطرة على البشرية ، فقد كانت الماسونية هي الجوار الذي يمد لهذا العمل . والماسونية هي عبارة الفكر التلودي مصوغة في فلسفة موجهة إلى مختلف الأديان والاجناس على النحو الذي يضع هذه المجموعات البشرية في خدمة الهدف على نحو تدريجي . ووفق مغريات وأساليب ومطامح تتفق مع مختلف العقليات . والأذواق ، والرغبات ، ومن هنا قامت الماسونية على هدم طردن كبريى حواء الدين والأخلاق ، وقد جعلت

شمارها (البنائون الاحرار) ، هادفة من وراء ذلك إلى غاية واضحة هي بناء هيكل سليمان في القدس . فالمساوية ، وجميع الجمعيات المربية للمثالة ، ليست غايات ، وإنما هي وسائل تستخدمها القوى الخفية لتقديم القيم التي تقف عائلا دون مطامع اليهودية التلمودية . وقد أجمعت مصادر كثيرة على أن المساوية تعمل على : تقويض الحضارة ومحو الأديان ودمم القوميات وإسقاط الدول والإمبراطوريات والقضاء على الآداب والأخلاق . إن الهدف هو السيطرة على العالم عن طريق حصر المال ، والقوة السياسية والصحافة في أيدي حفنة من اليهود ، وجعل هذه القوى الخاصة بين البشر وسائل تتحكم فيها وأن هذه المخططات والدعوات الهدامة ، هي محاولة مستمرة لتغيير تركيب العالم السياسي والاقتصادي والفكري بما يتفق مع المخططات اليهودية .

(٤) الربا هو أس الأساس في بناء الأيدولوجية التلمودية : يقول اليهودي لا زار : إن أصحاب المصارف اليهودية ، ورجال الصناعة ، ولشعراء والكتاب والخطباء اليهود متحدون بأفكار مختلفة ، ينفذون غاية واحدة . ويعتقد اليهود أن اتحادهم فيما بينهم يظل قائما ماداموا يبتغون روح الهدم وتمي تضعضت ثروة أوروبا فإن مصرف اليهود يبقى واسخا لا يتزعزع . إن الهدف هو طغيان رأس المال ، واستنزاف جميع الثروات . وفي سبيل ذلك يهتحم حرب كل العوامل التي تحول دون هذه السيطرة - والمال كما يقول كارل ماركس في كتابه « المسألة اليهودية » ، هو إله إسرائيل المطامع وأمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش . ومحاولة إسرائيل والصهيونية هي أن يصبح إله اليهود إلهاً للناس أجمعين . من الحقائق الاجتماعية التاريخية : أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالي الذي هو القطب الروحي للمدنية الغربية في : العالمين القديم ، والحديث ، وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والأمم الرأسمالية - وأنهم أخفوا أنفسهم بصفتهم المالية . أن تظهر في ملكة المال ظهوراً به لغتهم أن يسلبوا ثرواتهم . وهم من أجل تحقيق هذا الهدف يضعون الاقتصاد العالمي على أساس الذهب الذي يحتكره اليهود لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى . وهم يعملون من الذهب أقوى الأسلحة لإثارة الرأي العام وإفساد الشباب ، والقضاء على العداوة والأديان والقوميات ونظام الأسرة . ومن شأنهم إحداث الازمات الاقتصادية العالمية على الدوام . حتى لا يستريح العالم أبداً . فيضطر إلى الاستمانة باليهود . وقد أجاب الدكتور خالد شلدريك على سؤال : لماذا تقف الصهيونية واليهودية التلمودية موقفاً معارضا للإسلام خاصة والأديان المزلّة بصفة عامة فقال : إن السر الحقيقي يخفى دائماً وراء المال ، فالدين الإسلامي بتحريمه الربا أفقر بلاد المسلمين دون الفوائد الفاحشية للحكام حبيبا في نفوس ناشئة بني إسرائيل . وقد وجدوا أن الحرب الأوروبية تستطيع حمايتهم فتدفقوا للاستيلاء على أملاك المسلمين . فالمالية اليهودية إله ترمي إلى عزو كل بلاد إسلامية . ووضع الاخلال لاني أحناق المسلمين الاسيويين فقط . بل والإفريقيين أيضاً . فالمال إله الذي جعل لليهود اليوم خصوصاً للمسلمين .

هذا ، وتختلف وجهة نظر المسلمين من وجهة نظر الأيدولوجية التلمودية ، التي فرضت مفهومها على الحضارة الغربية ، وجعلتها خادمة لحب المفاات ، وتوفره الذات ، والذهاب بالإنتاج الصناعي إغايتها في سبيل تحقيق الرفرف والرفاهية ، ومن هذا المنطلق نبات المراجحات والمضاربات ، وأعمال البورصا

أما الحضارة الإسلامية ، فلا تستمد روحها من مثل هذه البواعث . وإنما تستهدف أن تكون أمة أخلاقية تنصر الحق وتطهّر الباطل . ومن هنا فليست الحضارة الإسلامية في حاجة كبيرة إلى ما يسمونه الرقابية والتربص على حساب القيم الخلقية والدينية . ولقد كان اليهود هم الذين حملوا لواء الربا على طول العصور ، وكان المرابون اليهود وراء إقراض الأمم والملوك . وقد قامت الرأسمالية على الربا الفاحش وارتبط الاقتصاد العالمي بالربا . وارتبطت بالربا صناعة السينما وتجارة الرقيق ، والخر والتخدرات . وكان الربا أثره في التركيز على بضائع معينة هي أدوات الترف والهيئة وما وراءها . حتى قامت مئات الصناعات في العالم من أجل الانحلال ، وكان لا بد أن تخلق من ورائه فلسفة ونظريات تدعم الدعوة إليها وتحجب فيها وتغري بها السذج ليستمر نمو الربا . وبذلك فرض الربا نفوذه وتأثيره على كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية .

(٥) يقول أحد الباحثين إنه من خلال الأيدولوجية التلودية نسقت نظم الغرب . إن جميع أنظمة الغرب التي كان لليهود أصبع في وضعها أو تعديلها ، أو في تفسيرها وتفسيرها . قد صنعت إما لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، أو لارتويج لزعمة من النزعات التي يرتاح لها فريق ويضطهد لها فريق . والنظام اليهودي قائم على تبادل المنفعة . وافق هذا التبادل النضية أم خالفها ، والحق عندهم هو ما يتمشى مع القانون ولا تعاقب عليه المحاكم : أما مفهوم الإسلام فيختلف عن ذلك اختلافاً عميقاً . ومن خلال الأيدولوجية التلودية التي نسقت نظم الغرب أشرف اليهود على مراكر القوى العالمية .

أشرف اليهود على الصحافة ودور النشر ووكالات الأنباء . أشرف اليهود على أبحاث الجامعات والثقافة ومذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما ونظم التعليم . أشرف اليهود على البنوك والمفكرات والبورصات . أشرف اليهود على الأزياء ، وهم من وراء كل الظواهر المستحدثة الخطيرة . الهيبة والخنافس وتجارة حلب الليل وتركيب حقن الخلوصة والمارجوانا . وقد عملوا على السيطرة على معامل الملابس والمسلحيق والمطور وما سواها ، وبذلك توصلوا إلى تحقيق غرضين : السيطرة على المال وإفساد الأخلاق وعدم الأديان ، وحلية الزينة والأزياء تتغير حيناً بعد حين ، ويزداد النساء إنفاقاً ، وتسرّب الأموال إلى جيوبهم ، وفي نفس الوقت ينتشرون عن طريق الاتعاط والمودات أسباب التفسخ والهدم بما يضر الرذيلة ويعمى الاختلاط ويؤيل الفوارق بين الرجل والمرأة وينشر الأمراض الجنسية ؛ ويضيع الطهارة ويهدم الأسرة .

(٦) حملت الأيدولوجية التلودية لواء دعوات مختلفة في العصر الحديث ، بعد أن سيطرت عليها ورفعتها في العالم كله من أجل تحقيق أهداف تتفق مع غايتها الكلية . في مقدمة هذه الدعوات الشيوعية والروحية الحديثة والبهائية ، كما قدمت مذاهب تهدف من ورائها إلى فرض مفاهيم معارضة للحقائق التي استقرت في الأذهان منذ نزل الإسلام إلى اليوم . والتي وضعت حداً فاصلاً بين عصر وعصر . من هذه المذاهب علم مفارقة الأديان ، والدعوة إلى العنصرية ، وإدلاء جناس على جناس . والدعوة

إلى المذهب للمادى وإلى العلمانية وإلى فصل الدين عن المجتمع . كذلك طرح نظريات عديدة متضادة في ميدان الاقتصاد والسياسة والتفسير للمادى التاريخ ، وعلوم النفس والأخلاق والاجتماع تستهدف وضع أصول التلود وأهدافه موضع التطبيق العملى فى المجتمعات . وما من مبدأ أو مذهب على أو فلسفى يظهر فى العالم حتى يهيب اليهود ليكونوا من ورائه ، ويتصرفوا معه بما ينفعهم ، وقد أفلحت الدعاية اليهودية فى طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتفانى لبنى إسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية . وما ظهر مذهب فـسـكان مؤدياً إلى مسهم بالأذى إلا قبلوه ، وما كان مؤدياً إلى غير لهم إلا روجوه فى أنحاء العالم . وكذلك يروجون كل قلم ما دامت آثاره — عن قصد أو غير قصد — تساعد على إفساد الناس . ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع ديتشه ، الذى يتهجم على المسيحية وأخلاقها ، ويقسم الأخلاق إلى قسمين : أخلاق سادة كالنصف — وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، بما يتفق وروح اليهودية وتاريخها ، ويهد لها فى الأذهان ، ويجهلها سابقة على ديتشه . وكذلك روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات ما خطلت لدارون . واستخدموه فى القضاء على الأديان والقوميات والفنون .

(٧) وهم يستخدمون المذاهب المتناقضة لخدمة مصالحهم ما دامت تؤدى أخيراً إلى انحلال العالم ، والقضاء على أخلاقه ونظمه وأديانه وقومياته . فهم يدعون إلى العالمية والوطنية المتطرفة والتسامح الدينى والتطرف الدينى . وقد كونوا جماعات دولية ذات نفوذ عالمى لإثارة الخلاف بين الدول الديمقراطية والشيوعية فى الشرق والغرب وإثارة مخاوف كلا الفريقين من الآخر كما خفت حديثاً .

(٨) محاربة الأديان والحشية منها والحيولة دون ظهورها فى سائر الأمم الحديثة فى الغرب ، ذلك لأن النصر على الدين فى الوثائق والشهادات سيحول بين اليهود وبين المناصب القيادية فى الأمم المختلفة . ولذلك فقد وجهوا إلى الدين حملة ضخمة . وعارضوه بالفسافات حتى كادت تسقط قيمة الدين كلية فى نظر الغربيين وقد أثاروا فى وجه الفكر الدينى فى الغرب شبهات كثيرة منها أنه لا يبنى بحاجة النفس الإنسانية ولا يحقق غاياتها . ولكن هذه الحملة تهدم مواجهة صحيحة . وتختلف اختلافاتاً بيناً إذا وجهت مثل هذه الحملة إلى الإسلام ، ذلك أن موقف الإسلام من الإنسان ومن العلم ومن العمل والتقدم وزينة الله التى أخرج لعباده موقف مختلف فى أصوله وفروعه — وتحرم الأيدلوجية اليهودية على تطبيق شبهات الفكر الدينى الغربى على الإسلام . وذلك يفرض طرب أكبر مقررات الإسلام ، وهو أنه دين ونظام مجتمع . فهو يستهدف إبعاد الإسلام عن المجتمع ، وإيقاع الخلاف بينه وبين العرب ، وعزله عن الاقتصاد والقانون والتربية .

(٩) تقف التلودية اليهودية موقف المعارضة للنهج القرآنى الإسلامى الربانى الذى يتمثل فى الأخوة الإنسانية والحنيفية السمحة البعيدة عن العنصرية وإعلاء الجنس . وتقف من الأنبياء والرسل والكتب السماوية . وقفاً معارضاً لموقف القرآن والإسلام ، فالإسلام يؤمن بالله وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله ، بلنا نفرق التلودية اليهودية ، وتصوير بعض الأنبياء بصورة تنهض من أقدارهم .

وهم لا يؤهلون لقيادة الإنسانية للمصومون عن الخطأ - ذلك أن صور أبطال اليهود في القرآن صور إسلامية . وصورهم في العهد القديم صور يهودية - والخلاف بين صورتى كل بطل منهم خلاف واسع . قد يصل إلى التناقض . وأم مظاهره هو عصمة هؤلاء الأبطال في القرآن عما لا يليق بهم . وعدم عصمتهم في العهد القديم من ذلك .

(١٠) أبرد مفاهيمهم المعارضة للأديان عامة والإسلام خاصة إنكار البعث . وهو أخطر مفاهيمهم التي يقيمون عليها منطلق النجى الربوى المادى الخالص .

(١١) رفض لحركة التاريخ الإنسانى منذ ما قبل المسيح حتى الآن على مدى ألفى سنة وللتطورات الهائلة التي حدثت في العقليات والنفسيات والعلوم والحضارات . وقربت ما بين الأجناس والألوان والإنكار حتى وصلت بالناس إلى عهد الإيمان بالإنسانية الواحدة المتعاونة على تحقيق السلام . بعد ما ساحتها علومها وفنونها بأسلحة تجعل الحرب بينها كحروب آلهة الخرافة تدميراً وإبادة للجميع . وارتداداً بالمدينة إلى عهد الكهوف والجبال .

(١٢) محاولة إعلم مقارنة الأديان . ود ما في الأديان الأخيرة إلى الأديان السابقة : ورد كل القيم التي تمثلها الأديان المنزلة إلى عادات وتقاليد قديمة بدائية (والمعروف أن هذه القيم نزلت بها الأديان الأولى ثم نوالها ، وأن البشرية لم تعرفها إلا من هذا الطريق) وهذه محاولة ترمى إلى تشكيك المسلمين في دينهم . فالعالم إذا تمكن من تفهيم الدين ، وإعادة كل أفكاره إلى مصدر قبله ، ولو لم يكن المصدر يهودياً استطاع أن يحق قداسة الدين في القلوب والعقول ، وبخاصة المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحى من الله أنه على عهد فباخه من عهد أن يكون له مشاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون في الوحي ، إذ يرون أن كتاب الانجيل هم كاتبوها بإلهام من الله .

(١٣) تقسيم البشر إلى يهود ، وهم الشعب المختار و د جوييم ، وهم من عدام من البشر ، ومعنى الجوييم : الكفرة والوثنيون والأجناس والحيوانات . وتفرجهم أحياناً إلى العربية بكلمة الأميمين Gentiles وقه صور القرآن هذه التفرقة (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) أى أنهم فهم ملومين بأية شريعة في معاملة غيرهم ، فاهم قتل غير اليهودى وسرقة ماله وانتهاك عرضه .

(١٤) روجوا لمذهب التطور وأرلوه تأويلات ما خطرت لدارون . واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والقوانين والفنون . باعتبار أن كل شيء بدأ ناقصاً شاملاً يثير السخرية والاحتقار ثم تطور ، فلا قداسة إذن لدين ولا لوطنية ولا قانون ولا ن ، ولا مقدس من المقدسات ، وهم يمشون بعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم مقارنة الأديان ويسخرونها لمصالحهم وإفساد الآداب والنظم والمقول في كل أنحاء العالم ، ويسعون فيها نظريات مبرجة لا يفتن إلى زيفها إلا لادعويهم من ذوى العقول ، وهم وراء كل زى من أزياء الفكر والعقيدة والملابس والسلوك إذا ما نفهم ، لا سيما إذا كان يفسد غيرهم . ويقول الأستاذ عباس العقاد : لقد تفهم المدارس المصرية في أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها ، هي أن أصبحاً من الأصابع اليهودية كن وراء كل دهوة تستخف بالقيم الأخلاقية ترمى إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان .

فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الاخلاق والاديان ، واليهودي دوركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الاسرة بالاضاع المصطنعة ، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب واليهودي أو نصف اليهودي سارتر وراء الوجودية التي نشأت معوزة لاكرام الفرد ، فنحا بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بأفات القنوط والانحلال - ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية . بل الأزياء الفكرية كذا شاع في أوروبا منها مذهب جديد . ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من هوامل المصادفة المعارضة . والتدبير المقصود ، وقل مثل ذلك في فرويد لليهودي الذي هو وراء علم النفس الذي يرجع كل الميول والآداب الدينية ، والخلقية ، والفنية والصوفية ، والاسرية إلى الغريزة الجنسية كي تبطل قداساتها . ويهمل الانسان منها . ويرده فيها . ويسلب الانسان الإيمان بسموها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يري في نفسه . وبهذا تنحط في نظره صلاته بأمرته ومجتمعه . والسكون وما وراءه . وقل مثل ذلك في علم مقارنة الأديان التي يحاول اليهود بدراسة تطورها ، ومقارنة بعض أطوارها ببعض ، ومقارنتها بمثلها أن يحوا قداساتها . ويظهروا الانبياء بظهر الدجالين . وكذلك حركة الاستشراق التي تقوم على بحث الكتب القديمة . فهي في العربية تزحم مكائنها بأفقه الكتب التي لا تفيد علماً ، ولا تورث خلقاً ولا تنفد عقلاً ، فكأنما تؤسس المكتاب لتسكون متاحف لحفظ الموميات الخالية من الحياة . والتي تغري الانسان لتفاهة محتوياتها وكثرتها ، وتفككها بالنفور منها . إذا كان سليم الطبع والعقل ، أو الفسك بتفاهتها فتورثه الفرور والعناد والكبرياء وكذلك يروج اليهود لكل المعارف النافية التي تميل في المجالات والقصاص والكتب التي تنشر الشهوات وتهيج الحوائب السيئة من الغرائز وتحجب الرذائل وتشر الانحلال .

(١٥) هناك نظرية تحتاج إلى مراجعة واسعة وإن كانت لها دلائل ترجح صدقها هي أن الإصابع التلمودية الصهيونية ، وراء كل دعوة تستخف بالقيم الاخلاقية ، وأنها وراء كل الثورات والانقلابات بل إن بعض الباحثين ، يرد حركات ابن سبأ وابن ديسان وابن ميعون القداح ومهران قرمط ، وبابك والحشاشين إلى اليهودية والاثري اليهودي .

(١٦) يقول بوكهارت : أن الأدب العالمي قد يكون مدينأ لبعض كتاب اليهود ولكن شرهم أكثر من نعمهم ولأنهم أكبر من خيرهم فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس . وأدركه : أنذرنا بقرب زوال الحضارة أما فرويد فقد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإفرقية ومجد الغريزة . وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة ، أن يفعلا بهما ما شاء لهما للشبق الكامن في حنايا ضلوعهما فالتفتك الجنسي لا حدة له في رأيه والولد يقار على أمه من أبيه ويورد لو يموت الوالد ليحل محله (مركب أو ديب) أما الأحلام فلا تفهم لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس وتوماس مان : برر عشق الكور (قصة الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر بحيوانات مفترسة تتخذ من يأس الضفاء غذاءً ولتسافد فصحات الجبال مواخير المرضى تحت مراقبة الأطباء (نهضة الجبل المسحور) .

(١٧) يقول أحد الباحثين : كان من المستطاع أن تشق الفلسفة الاثورية طرية باحتى تصل إلى العلم من ناحية وإلى الدين من ناحية أخرى ، ولكن تداخلات الصهيونية واليهود منذ سينيوزا قد حالت دون ذلك ، وحولت دفعة الفلسفة إلى المادية والإلحاد وقد وصف مكسيم جوركي أمة اليهود بأنها سيف ذهبي شهر على رأس أوروبا منذ عهد المسيحية . وقد حاولت الفلسفات التي حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة ، وإفساد الفطرة إذ حاولت أن تصف الإنسان بأنه حيوان ، وابن المصادفة وأنه لا غاية لوجوده ولا هدف ورتبت على ذلك أنه لا معنى للحياة الإنسانية ، ولا للعدل العليا . وأن الحياة تخبط ليس فيها إلا الطعام والجنس وبذلك طغى طابع المادية على علوم النفس والاخلاق والتربية والفن وماجم ماركس وفرويد ودوركايم (وهم جميعاً من اليهود) الذين فقال ماركس : أنه أفديون الشعوب . وبمجموعة الاساطير وقال فرويد : أنه ناشئ من السكبت . وقال دوركايم : أنه ليس فطرة .

(١٨) محاولة الإدهاء بأن اليهود منبع الأديان ، ورأس الحضارات والثقافات والقول بأن بناء الأهرامات واختراع الآلات إنما كان بفضلهم والتاريخ يؤكد أنه لا دور لهم في الحضارات إلا دور التخريب وأنهم لم يخلقوا حركة إجتماعية واحدة . ولا قدرة لهم على خلقها واسكنهم يحتوون أى حركة تنبع ويستغلونها ويحولونها إلى غاياتهم . ويمكن القول بأن الفلسفات الحديثة كلها : ليست إلا تراث الفلسفات الهدامة القديمة . وقد حملوها إلى العصر الحديث وابتغوها وفق ترتيب محدد لهدم مقومات الأمم الدينية والخلقية ، وقد وصفوها بالتراث القديم والتعاليم السرية من كتب البراهمة والبوذيين . والمصريين وما يتصل بالسحر والخرافة والاثرواح والهيكل ، والاثوان وذلك هدف أساسى من أهدافهم وهو إغراق العالم بأفكار غريبة وآراء شاذة . وكلمات تهدف إلى تدمير الأديان . وإنكار التوحيد والتشكيك في البعث والجزاء وترضى الرغبات والاثرواح في نفوس البسطاء وتعلمهم بها إلى غاياتها البعيدة .

(١٩) يقول هنرى فورد في كتابه اليهودى العالمى : الموسيقى الشعبية الرخيصة هي احتكار اليهود وليس موسيقى الجاز ، إلا احتكاراً يهودياً ، وليس هذه الحركات المتهمة بما فيها من قذارة ، والتي تنسق مع النفقات التي تبعث الفرائز إلا من عمل اليهود ولعل من الغريب أنك حين تنفك للتحرى عن الخيوط المؤذية للنفوس التي تسرى في المجتمع تجد جماعة من اليهود خلفها فوراء الفساد في لعبة الكرة جماعة من اليهود هم وراء الاستغلال للمالى ووراء الدعاية للشرعوات الروحية والسيطرة على السياسات القومية الحزبية والسيطرة على الصحافة عن طريق الضغط المالى والتجارى ، وتماون في المآلة من مستغل الحروب هم من اليهود .

(٢٠) إن مفهوم التنوير الذى أدخلته المخططات التلودية إلى افكر الغرب المسيحى هو نقله إلى التعبد لارقي المادى أى الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى هذه الحياة نفسها . ويقول محمد أسد : إن هياكل هذه الديانة هي المصانع العظيمة ودور السينما ، والمختبرات السكياوية وباحات الرقص ، وكنة هذه الديانة هم : الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ويتبع هذا المفهوم حتى يصل

إلى أنه ليس للاعتبارات الخلقية أي أثر مباشر محسوس في الرفاهية المادية وأن كل الفضائل تتعلق برفاهية المجتمع المادى . مع إزاحة الحب الأبوى والعفاف لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة ومن ثم فقد أخذت القيم الوثنية اليونانية تحمل محل القيم الدينية والأخلاقية وتحمل الدعوة إلى حرية فردية للجسد البشرى غير مقيدة تقودها قاهدة (الفكر الحر) التي تشرف عليها الصهيونية العالمية ، وتقوم على تعاليم التلود وقد أشار إلى هذا المعنى د ديستوفسكى ، حين قال : اليهودى وحده وماله هما سيد العالم فاليهودى وماله يسيطران على كل شيء فى أوروبا : على التعليم وعلى الحضارة ، وعلى الاشتراكية .

(٢١) تجمع المصادر على أن الفكر الصهيونى التلودى فكر مراوغ يحاول أن يضع أكاذيبه وأضاليه داخل مناهج علمية براققة ، تتخدع البسطاء ولا ينها تتكشف عن زيف كبير حين توضع تحت أضواء الحق ومصادره من القرآن ورسالات السماء وغير داييل ونموذج على هذا الاتجاه : مذكرات هرتزل ووايزمان فى مليئة بأساليب الخداع ، والمغالطة والمطامع .

الخططات التلودية

تقوم مخططات إيدولوجية التلود التى تقوم الماسونية بواجهة أساسية فى تنفيذها على أهداف واضحة هى :

(أولاً) : محاربة الأديان بصورة عامة ، وبك روح الإلحاد والإباحة بين الشعوب - تقول المصطلحات : يجب ألا تقتصر الماسونية على شعب دون غيره ولتحقيق الماسونية العالمية : يجب سحق هدونا الأزل . الذى هو : الدين : بإزالة رجاله ، إن غايئنا قبل كل شيء هى إبادة الأديان جميعاً وتطرح الماسونية شعاراً خطيراً : هو أنه لا فرق بين دين ودين ، حتى ولو كان فى نظرها باطلاً وتستهدف القضاء على عاطفة الجمعية للدين المعتقد ، والقضاء على اعتزاز كل إنسان بدينه ، أو التمسك به كاترعى الماسونية أدياناً باطلة كالمجوسية والبرهمية ، والزرادشتية .

(ثانياً) تدمير القوى البشرية ومعنويات الأمم واستئذلالها واستعبادها (ثالثاً) السيطرة على الشباب من أولى الغايات . تقول المصطلحات : دعوا السكول والشيوخ جانباً ، وفرغوا للشباب . بل تفرغوا حتى الأطفال لابد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين . إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية ، والجمعيات الموسيقية لاستدامة تفوذها على أوساط الشبيبة . إن حرية الآباء : لا تتفق مع مصالحنا وغاياتنا أبداً . يجب تربية الأطفال وفق منهاج مقرر إن الجمعيات الرياضية والفرق الموسيقية وغهها من المؤسسات التى تربي الناشئة عقلياً وجسمانياً هى المزارع الخصب لنمو الماسونية فيها . إن غاية الماسونية هى تطعيم أكبر مجموعة من السكتل البشرية بأفكارها . تقول البروتوكولات : لقد خدعنا

شبية الخوارج ، وأفسدنا آدابها وجعلناها شبيهة بالبهائم . وأفقدناها نشاطها ، بما حملناها وألقينا في ذهنها من المبادئ والنظريات الكاذبة . ويقول ما كس نرردو : أدهوا إلى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتقوية ، والخداعة وعلى الأنانية وحب المنفعة والسمي وراءها بكل العارق .

(رابعاً) إشعال الثورات والفتن والإضطرابات وإتفاق الأموال الطائلة في سبيل الأغراض الهدامة وقد اعترف كثير من المصادر اليهودية بأن البناء الحر : أى المساوية كان لها أعظم الشأن في تدبير الانقلابات والثورات وخاصة الثورة الفرنسية وثورات البرتغال ، وإيطاليا وبلاد البلقان (خامساً) خلق جيل العلمانيين في العالم لمعالجة القضايا على أساس مادي ، وإبعاد الآثار العقائدية ، والروحانية ، والدينية عن مخططات السياسة والاجتماع (سادساً) التركيز على المذاهب والفلسفات : تقول المخططات أن من أهم العوامل التي ساعدت على انتصار المساوية طوال القرن الماضي : هى المذاهب الحرة التي تعتبر من نتائج الفكر البشري . إن الأفكار المستقة التي لا تصير الأفكار المساوية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء المر ، والأراجيف من قبل المساوية . والمعروف أن هذه الأفكار المستقة هى كل فكر يتصل بالوحى والقيم العليا التي جاءت بها الأديان .

(سابعاً) الإختفاء وراء المسرح السياسي : يقول بنيامين إسرائيل السياسي الإنجليزي عام ١٨٤٤ . إن الذين يدبرون دقة السياسة في العالم ليسوا هم الذين في دست الحكم ظاهراً ، وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس - وقال نابليون الثالث ملك فرنسا عام ١٨٥٩ : يجب ألا نخدع أنفسنا إن الدنيا تدار من قبل المنظمات المرمية وقال والترتينا الوزير الألماني اليهودي إن ثلاثمائة رجل من رجال السياسة المتعارفين فيما بينهم يدبرون الأمور في أوروبا ، والآن في العالم كله .

(ثامناً) بث الدعاية الخبيثة للمبادئ القائلة للدين والاختلاق باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحيث تمسود هذه المبادئ على روح الأديان والدعوة إلى الأدب الشخصي الخالي من الإيمان بالبعث يقول (ألن) إن الكتاب الذين يجرى في عروقهم دم يهودى كانوا في طلب الداعين إلى المذاهب المنافية للدين والأدب والمجتمع - تقول البروتوكولات : أنظروا إلى نجاح مذهب داروين ، وماركس وجميع المذاهب هى من صنع دسائسنا فإنكم لا تجهلون تأثير سموم هذه التعاليم في عقول الخوارج .

(تاسعاً) التركيز على المرأة ، والدعوة إلى تخويرها ونزعها من الدين والاسرة واجتذابها إلى المراقبة والمحافل تقول المخططات : لنا بمسيطرين على الحرافات ويقصدون الأديان - إلا يوم تشاركنا المرأة العمل - المرأة رسول لمبادئنا الحرة تخلصها من نفوذ الكهنوت - إن خطتنا هى دفع الإبتناء إلى نبذ السلطة الوالدية (هيدرو) وإلقاء السكرامية بين الأولاد والديهم (دالمهر) إن الإعترااف لجيل ليس واجباً لازماً على البنين لوالديهم ولبعض السلطة الابوية تدوم والنساء من أقوى العوامل

لنفوز بنسف الدين ونشر الفساد - تقول المخططات إن العفة المطلقة مردودة عند الماسونية ، لأنها ضد ميل الطبيعة . ويقول الدكتور أحمد أبر شادي في كتابه عن الماسونية : المرأة لا تستطيع الحياة الكريمة إلا إذا حاربت رجل الدين - عاتراً : تدمر الأسرة والدعوة إلى الزواج المدني العقيم ، لاستنزاف قوة الإله . والدعوة إلى الإباحة المطلقة وإشاعة الأغلاط في الفرد والمجتمع والأمة - تقول المخططات : إن الهجوم على رب العائلة هو الأمر الجوهرى في إستراتيجية الناس إلى جماعتنا . من الضروري لإفراد الرجل عن طائفته وإفساد أخلاقه وترغيبه في المعيشة الحرة - إن الخلاعة باب واسع لمن الزواج المدني . إن الرناتيس محظور إذا تسامح الرجل بإمراته لفهره - يقول دالمار : إن الماسونية بنشرها أسباب الفساد والخلاعة قد أضرت بفرنسا أكثر من الحرب السبعينية وأخسرتها عددأ وأقرأ من الرجال (حادى عشر) مهاجمة الدعوات الوطنية والنضال من أجل تحرير الاوطان ومهاجمة نظام الجنديية - تقول المخططات : الوطن خيال باطل وكذب محض إن الوطن هو كل يختصنا أما الرايات الوطنية فهى آية الظلم والاستبداد فيجب أن تلقى فى المزابل .

(ثمان عشر) الدعوة إلى التعليم العلمانى اللادىنى الذى يفسد قلوب الشباب ، وبفرض مقومات الرذيلة - تقول المخططات : إن الدعوة إلى أن تكون المدارس علمانية إلزامية هو إخراج الأبناء من رعاية الآباء . إن تهذيب الأحداث هو حجر الزاوية فى بنائنا الحر . ينبغى أن ننفي لتعليم المسيحى لايهم بالدعاية ونفى كل تعليم دينى - المدارس الجديدة تعمل على نشر الفساد والخلاعة واقتلاع العفة من عقول الفتيات . (ثالث عشر) توفير أسباب الفساد : من طريق الثقافة والصحافة وذلك بنشر الروايات الإباحية ، والصور الخليعة ، والأغاني البذيئة ونشر الخرافات (رابع عشر) جعود الخاق الأعظم وإطلاق اسم له من غير أسمائه الحسنى التى اختارها سبحانه لنفسه فجعله بمنزل مهندس الكون . كأنه لم يحلق الكائنات من العدم . وإنما هو مهندسها فقط ومنظمها وزادوا دلى ذلك الإسم لها بما بقولهم (للمهندس الإعظم) كأن الله (جل وعلاهما يقولون علواً كبيراً) قد استعان فى هندسته هذه بفهره من المهندسين . فكان هو الأعظم بينهم .

(رابع عشر) إحياء النحل والوثنيات القديمة - يقول رينان وهو أحد كبار دعاة الماسونية : ليس فى العالم عبادة موافقة للعقل السليم وللبادىء العالم كعبادة الشمس فهى إله كرتنا الأرضية . ويقول أحد فلاسفة الماسونية . إن (أدونهم) فى مذهب الماسونية هو أوزيريس إله المصريين أو ميثرا إله الفرس ، أو باخوس إله الرومان أو أحد الآلهة المتعددين الذين كانوا فى سالف الزمان ويقول فرندمور كل اعتقاد دينى أساسه ما وراء الطبيعة - كالإله غير المنظور - فهو ضعف فى عقل الإنسان - ويقول فلاسفة الماسونية : علينا أن نرقى فوق طبقات كل الأديان نتحرر أيضاً من كل اعتقاد بوجود إله أيا كان ويقول آخر : لم يوجد أحد يؤمن بالله ، ويحفظ النفس غير الإله والحق ومن هنا كانت محاولة للماسونية الخطيرة التى نفذتها فى التعليم الغربى وهى نفى أمم الله من كتب التعليم فى المدارس للتوسطة .

(الخامس عشر) القول بأن المادة إنما تترقى من تلقاء نفسها بكرور الدهور إلى أن يتمخض جادها فيلبد النبات ويتحول النبات إلى حيوان ، وينسل الحيوان ، لإنساناً مهجياً ذا عقل ضئيف ، والهدف من هذا هو إقناع أتباعهم بأنه لا شيء يلزمهم من الفرائض والواجبات ، نحو العمران البشرى وأنه ليست هناك شرائع وتعاليم مفروضة على جميع البشر .

السادس عشر : إعلان حرية العقل ضد السلطة الدينية ، واستقلال الإنسان ضد استبداد رجال الدين واستقلال المدارس الحرة المجردة من تعليم الدين . ويعلمون أن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي ويرون أن من حرية البحث انتقاد عقائد الدين (السابع عشر) تأليه المال أو عبادته واستعمال كل الوسائل في سبيل الحصول عليه كالرشوة ، والكذب والعنف والافتزازية (الثامن عشر) احتقار كل الشعوب ، وكل الأديان ، ووصف الشعوب بالامية . (يقول التلود) إن الاميين هم الخير الذين خلفهم الله ليركهم شعبه المختار (التاسع عشر) إشاعة الأدب المكشوف الإباحى يقول « البروتوكول ١٣ » سننشر بين الشعوب أدباً مريضاً قدراً تفتى له النفوس ، ويساعد على هدم الاسرة ، وتدمير القومات الاخلاقية للمجتمعات المعادية لنا ، وسنستمر في الترويج لهذا الأدب وتشجيعه . من هذا الأدب المريض القذر تنطلق الدعوة إلى الإباحة المطلقة لهدم الاسرة ، وتدمير الاخلاق في المجتمع .

(العشرون) تعظيم المعتقدات الإسلامية والمسيحية وسحق القيم الروحية والمعنوية ، وإثارة الفكوك حول المعتقدات ، وطرح فلسفات الشك (الحادى والعشرون) الدعوة إلى العالمية وتذويب القوميات والعصبيات الدينية والعنصرية والوطنية . ومن هنا كان تركيزهم على نبذ التعصب القومى الدينى واعتبار الإنسان مواطناً فى العالم كله وخلق أسباب الصراع بين الدين والقومية وإيجاد التناقضات بين الإسلام والعروبة وطرح فلسفة الاجناس والعناصر والدماء والافليات .

(الثانى والعشرون) تمجيد الغريزة ، وإطاعة نمط الوافية الإغريقية والدعوة إلى إطلاق عنان الشهوات البشرية ، والترخيص للرجل والمرأة أن يفعلوا ما يشاءان من التهنك الجنى وعشق الذكور وتكثف هذه الصفحة موضع كتابات فرويد ، وقصة توماس مان « الموت فى البندقية » تقول البروتوكولات : لتوصل إلى حكم العالم يجب أن يقوم بتكنيد النقائص ، والشهوات ، وأنشويه الشرائع المصطلح عليها بحيث يضع الجميع ويتقبلون بهذا الخواء .

(الثالث والعشرون) السيطرة على الصحافة ، والمسرح ، والعلم ، تقول البروتوكولات : الصحافة والمسرح . والمعاربة والشريعة كل ذلك يجب أن يكون تحت تصرف من فى قبضتهم كل ذهب الارض وهى أقوى سلاح لإثارة الرأى العام ، وإفساد أخلاقى الشبية ، وانتهيج عرسى إلى الرزية للملاشاة كل مبل إلى التهنيد المسيحي ، لنشبيد عبادة المال والمادة والهمرة الملكية للملاذ - يقول البروتوكول :

يجب أن تكون الصحافة نافذة كاذبة بعيدة عن الحق ، إنها تعمل للتخريض ، وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا . (الرابع والعشرون) خلق دائرة مغالطة متكاملة من مناهج التفكير والعمل والحياة ، يحول بين البشر وبين التخطيط لأنفسهم - تقول المخططات : لقد فقد الحوارج عادة التفكير خارجاً عن آرائنا العلية . ويقول : وجب علينا أن نقوض أركان كل إيمان . . ونزع من عقل الحوارج الاعتقاد بالله وبالنفس وذلك بشغلهم بقوانين رياضية وضروريات مادية .

(الخامس والعشرون) نصر الرذائل والخير - تقول البروتوكولات : يفقد الحوارج رشدهم بتناولهم المفروقات السكحولية وتسيء شبيبتهم إلى الجنون نفرط ما تلقفته من المبادئ المدرسية وبأنهم كما بالرذائل التي تنسرب إليها من عمالتنا ووظفينا كالمهملين والخدم والمحاضرات وبذوق أخصر من لساننا اللواتي يترددن إلى عمالت الملاهي عند الحوارج وأنتى أعنى هؤلاء الأخوات بنات الهوى اللواتي يتزاحن على الرذيلة والفسادة .

(السادس والعشرون) الغرض من قدرة العلماء والمتخصصين في العقائد والأديان - يقول البروتوكولات : ١٧ : وقد علينا عناية كبيرة بالحط من كرامه رجال الدين عند الأميين في أعين الناس وبذلك نجعلنا في الإضرار برسالتهم التي يمكن أن تكون عقبة كئودا في طريقنا وأن نفوذ رجال الدين يتضاءل برطافيوماً .

(السابع والعشرون) الدعوة إلى الإلحاد من طريق حرية العقيدة - يقول البروتوكولات : لقد عددنا الجيل الناشئ . وجعلناه فاسداً متعفنأ بما علمناه من مبادئ ونظريات يجب أن تحطم كل إيمان وتكون النتيجة المألوفة لهذا هي إثمار ملحدين يجب أن نكسح كل الأديان والعقائد الأخرى ويقول إن لفظ الحرية يجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى بل مع قوة الله نفسها .

(الثامن والعشرون) الدعوة إلى الانحلال - تقول البروتوكولات : علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية فيعم الفساد والكفر ، ونضعف الروابط المنيعه التي تعتبر أهم مقومات الشعوب فيسهل علينا السيطرة عليها ، وتوجيهها كما نريد .

الفصل الثالث

دعوة العنصرية

كانت الدعوة إلى العنصرية على النحو الذي استطارت به في التاريخ الحديث من أبرز الأعمال التي قصد بها إلى تحطيم الوحدة الفكرية التي تقيمها العقائد والأديان، والمواضع النفسية والروحية التي تجمع بين بني البشر، ولذلك فقد بدت منذ اليوم الأول لها في صورة استعلاء الدم والعرق ومضى وراءه استعلاء الجنس الأبيض على الأجناس الملونة. ثم جرت من خلال ذلك الدعوة إلى إخماد الأساطير التي تحاول أن تفرج تيمراً خاصاً للإسرائيليين، وتفوقاً خاصاً يحاول أن يشكل دعوة إلى السيطرة العالمية على النحو الذي تكشف عنه بروتوكولات صهيون من عداة الحرييم أو الأميين الذين هم في نظر اليهود (العالم كله).

ولقد كانت مخططات التلويح من وراء دعوة العنصرية في مختلف صورها. وقد أحرز اليهود كل ما كسبته هذه الدعوة من آثار ونتائج، ففضلاً عن أن هذه الدعوة قد أيقظت العنصرية الصهيونية التي تحاول أن تستعمل بامتياز خاص على البشرية كلها. فإنها قد أقامت صراعاً لما ينتهي بعد بين الأجناس السامية. والآرية - وبين أجناس أوروبا ذاتها. وخلقت قضية كبرى كتب فيها الباحثون عشرات الألوف من الصفحات، ومئات من الكتب دون أن يصلوا إلى شيء نهائي. وكانت هذه الدعوة قد بلغت ذروتها فترة ما بين الحربين. حين اعتنقت الدول الجرمانية عقيدة الاستعلاء العنصري ونشأت عنها الفلسفة النازية. ولقد انسلخت من الدعوة العنصرية مذاهب عديدة: منها الدعوة القومية. والنزعة الإقليمية، والفكرة اللامسامية. وظهرت علوم متخصصة في مقدمتها علم الأجناس البشرية والاثنولوجيا، أو الإثنولوجيا الجديدة. وهو علم تولى السيطرة عليه موجهون يستهدفون منه إبقاء نيران الخصومات والأحقاد بين الأمم وإيقاعها في الحروب والصراخ. وقد استغل الاستعمار نتائج هذه الدراسات في دعم مركزه وتبرير وجوده في المناطق المحتلة. وفي ضوء هذه الدراسات تكشف مخططات التفرقة العنصرية، والتمييز العنصري الذي تحمل لواءه الدول المستعمرة في محاولة للتشكيك في وحدة الجنس البشري، وتعميق التمييز بين الأجناس، وإقامته على أساس فوارق طبيعية تعطى لبعض الأجناس مكان السيادة والسيطرة، وتعطى أجناساً أخرى مكان التبعية - ولا ريب أن نظرية التفرق العنصري باطلة أصلاً، وأن جميع الأبحاث والدراسات التي قام بها العلماء المنصفون، قد زيفت مثل هذه الدعوى وأبطالها، وأبانت أن فوارق الهياكل، ولون البشرة وفصائل الدم لا قيمة لها في تركيب الإنسان عقلياً ونفسياً. ومن المعروف أن الاستعمار لم يحقق ما ادعاه من رسالة في ترقية الشعوب وتقدمها، بل على العكس من ذلك عمد إلى تدمير متمدنات هذه الشعوب، وأثار فيها البلبلة بطرحه جنرات من النظريات والدعوات المدمرة.

(٢) ولا ريب أن فكرة التفوق العنصرى التى رفعتها لواء الحضارة الغربية فى العصر الحديث هى فكرة قديمة ظهرت قبل الإسلام ، وحلت لواء الحضارة اليونانية الرومانية . ثم جاء الإسلام بدحضها ومعارضتها . فقد كانت نظرية التفوق العنصرى والسيادة هى أبرز سمات الحضارة اليونانية الرومانية ، إذ قام المجتمع الإغريق . ثم المجتمع الرومانى على نظام طبقى : قوامه طبقة الأحرار وهم السادة . وطبقة العبيد الذين يعملون ويكدحون . وقد كانوا ينظرون إلى كل الأجناس المخالفة على أنهم من البرابرة ، ونفس النظرة كانت فى مجتمع مصر القديمة ومجتمع الفرس ، وهى المجتمعات الكبرى الثلاثة التى سبقت الإسلام . ولقد ذكر هيردوت أن الفرس كانوا يرون أنفسهم أعلى مرتبة من بقية البشر . واقد برز فلاسفة الإغريق هذا النظام العبودى ، وأقره أكبر فلاسفتهم : أرسطو وأفلاطون . أما أرسطو فقد برز طموح الإغريق لسيادة العالم . فنادى بنظرية أكد فيها أن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة ، وأخرى تولد لئلى تكون عبيداً .

أما أفلاطون فقد أقام جمهوريته على أساس سيادة السادة وعبودية العبيد ، ولقد كشفت الأبحاث العلمية والدراسات التاريخية أن واحداً من أبرز عوامل سقوط الامبراطورية الرومانية ، إنما يرجع أساساً إلى هذه النزعة العنصرية ، فقد بلغ تعدد العبيد أو الرقيق فى الامبراطورية الرومانية نحواً من خمسين مليوناً . ويقول الدكتور إبراهيم على طرخان : إن الامبراطورية الرومانية عرفت بدولة العبيد الأذلاء . بصرف النظر عن الأرقام ، ولا سيما أن من المؤرخين من قدر عدد الأحرار من المواطنين بنحو عشرة آلاف أو عشرين ألف مواطن ، وسرى فى عرف الرومان أن المواطن الحر العادى هو الذى يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد . ويقال إن أحد المحررين - أى كان عبداً ثم اعتق - مات زمن الامبراطور أغسطس من ١١٦ عبد ، لذا فإن الرومانى الذى لم تزد ملكيته للعبيد عن ٢٠٠ عبد كان يعتبر دون المألوف .

ولقد كان لهذا النظام العبودى أثره البالغ فى القضاء على الطبقة الوسطى عماد كل تقدم وتطور . كذلك كان له أثره فى إضعاف الدفاع عن الامبراطورية الرومانية خلال الأزمات الكئنهة التى تعرضت لها . مثال ذلك أنه عندما جاء الأريك القوطى وهدد إيطاليا فى مطلع القرن الخامس الميلادى هرب الرقيق من استبداد سادتهم ، وأقبلوا جماعات على معسكر الأريك ، إذا كانوا يتعاملون إلى منتفذ من الخارج ، وتجمع لدى الأريك نحو ٤٠ ألف عبد خلال فترة قليلة ، وقد أدوا له أعظم الخدمات فى تعريفه بالطرق والمساكن ، وإرشاده إلى مواطن الغنيمة ولا سيما فى غزوة الأخيرة . واقتحامه مدينة روما عام ٤١٠ م . ويقول الدكتور طرخان : أما الطبقة الوسطى ، وهى عماد الإدارة ومجالس الولايات ، بل عصب الحياة فى الامبراطورية الرومانية . فقد كان إضعافها وتدميرها من بين الأسباب الكبرى فى سقوط الامبراطورية . ويبدو أثر هذه التجربة التى مرت بها الامبراطورية الرومانية من العبودية والتى مرت بها امبراطوريات الفرس والمراغة ، واضحة وضوحاً قوياً فى مرجع القرآن ، ودعوة الإسلام إلى محاربة النظام العبودى ، ووضع النظام الأمثل للتعايش الكريم بين الأجناس فقد دعا الإسلام إلى القضاء على مفهوم التفوق العنصرى كلية ، وأقام نظاماً لتصفية الرق .

كما دعا إلى الوحدة البشرية بين مختلف الاجناس وكشف بوضوح عن أن بني الإنسان جميعاً من أصل واحد - وأن الفوارق بينهم لا تنصل باللون ، أو العنصر أو الوطن وإنما تتمثل في التفاضل وقد طرح مفهوم الإسلام أمام البشرية اتجاهاً جديداً قضى على مجتمعات العبودية . وفتح الطريق أمام الأخوة الإنسانية ورسم أروع صورة لمفاهيمه في مجال التطبيق - فهو أن نزعات الأيدلوجية التلودية القائمة أساساً على العنصرية والتي حلت لواء الدعوة إلى جنس محدد ، وشعب مختار لم تلبث أن عاودت دهوتها من جديد بأسلوب جديد فنفتت في الحضارة الغربية والفكر الغربي هذه المذاهب من أجل تحقيق غايات بعيدة المدى أهمها (١) تركيز النفوذ الاستعماري في العالم وهو نظام يقوم على الأسس الربوية والرأسمالية وسيادة القروض والمغامرات الاقتصادية (٢) إثارة الصراع بين الاجناس بين آرية وسامية ، وبين الألوان وإيقاع النضارب بينها (٣) إلهاء الدعوة العنصرية التي تقوم عليها الصهيونية وتحاول أن تفرض نفسها بالاستيطان في فلسطين ولهذا فقد كانت المخططات التلودية من وراء هذه الحركة الضخمة التي سيطرت على أوروبا ثم انتقلت منها إلى العالم كله تحت أسماء متعددة ، منها العنصرية والاجناس والقوميات والأقليات والإقليمية وغيرها .

(٢) لا ريب أن الأديان السماوية المنزلة قد طرحت مفهوماً أساسياً لوحدة البشرية وللإلغاء الإنساني وهو من الأصول التي حملتها رسالة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل غير أن اليهود لم يلبثوا أنه غيروا المنهج الاصيل الذي جاءت به التوراة وتبنوا فكرة الاستعلاء العنصري المتميز باسم الشعب المختار وغيروا من أجل إقرار هذه الفكرة أبرز مفاهيم الدين المنزل فأقاموا عنصرية خاصة لها طابع الاستقلال والتميز عن المجتمعات العامة وقد حملت هذه العنصرية فكرة الامتياز والاستعلاء لنفسهم كما حملت فكرة الاحتقار والانتقاص لبني البشر جميعاً حتى أنهم أطلقوا عليهم اسم « الجويم » أو الأميين - ثم جاءت تعاليم السيد المسيح . ومن أبرز مفاهيمها تحطيم العنصرية ، والعودة إلى المفهوم الرباني الاصيل القائم على وحدة البشرية ووحدة الدين .

وقد جاءت عنصرية الحضارة اليونانية والرومانية نتجة لمفاهيم التلود التي فرضت نفسها على المجتمعات بإقامة عنصرية طاغية فهو أن أوروبا بعد المسيحية لم تلبث أن اعتنقت الدعوة العنصرية وذهبت في ذلك إلى أبعد مدى ويشير توماس في كتابه عن الاجناس إلى هذه الظاهرة التي تبدو واضحة في العهد القديم فيقول : « في العهد القديم نجد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسمانية والعقلية بين الأفراد وبين الجماعات على السواء هي اختلافات ترجع إلى المولد وأنها اختلافات موروثية لا تتغير ويقتل سفر التكوين على عبارات تفترض وجود هذه الاختلافات ، وانعطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها مثال ذلك « ماخون كنعان : عبد العبيد يسكون لإخوته ، هذا إلى جانب أن نوعاً من التفوق . قد تضمنه التأكيد بأن يهو قد عقد هدفاً مع ابراهيم ونسبه » .

ومن هنا نفهم أن نظرية التفوق المنسوبة إلى الجنس أو العنصر هي واحدة من النظريات التي

ركزت عليها الأيدولوجية النوردية ودفعها المطامح الاستعمارية لتواجه النظرية الأصلية - نظرية وحدة الجنس البشري - وإن كانت نظرية السلالات البيضاء وتفوقها التي وقع باسمها الاستعمار على السلالات الملونة محاولة خداعه لتبرير حقوق جديدة في الفوز والسيطرة والسيادة يخصون بها الجنس الأبيض .

ومن هذا أن الحضارة الغربية المرتبطة بالاستعمار قد اتخذت نفس الأسلوب الذي سبقت به الحضارة اليونانية الرومانية ، واتجه كتابها وسادتها إلى تبرير العبودية والرق على أساس نظرية أرسطو . ولا يمنع هذا من القول بأن عدداً من المفكرين قد كشفوا عن فساد هذه النظريات . ودافعوا عن وحدة البشرية وتساوئ شعوب العالم في الموروثات الطبيعية غير أن رجال الفكر النلودي كانوا من وراء معارضة فكرة تساوي الاجناس ومناهضة وحدة الجنس البشري كلها . كشف ريف هذه النظريات . وكذلك فقد كانوا حريصين على أن يؤججوا هذه الحرب كلها خدعت ويشيروا هذه الدعوة من جديد وقد استطاع هؤلاء الباحثون المصنفون من أمثال دي لاس كازاس وجوان كومتش القول بأنه ليس ثمة أساس علمي على الإطلاق لتصنيف الاجناس تصنيفاً قائماً على أساس الرق النسبي وأن التمييز الجفسي وخرافات وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تهدد الأخطار مركز بعض الأفراد أو تماسك بعض الجماعات وجملة القول أن اليهود والإغريق هما أول دعاة العنصرية - فاليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مختاراً والإغريق كانوا يقولون : روما سادة وما حولها عبيد . وقد جرت الحضارة الغربية على هذه المفاهيم .

(٤) استخدمت العنصرية في مجال الاستعمار استعمالاً خطيراً فقد حيل بها بين العرب والمسلمين أولاً باسم الاجناس ثم بين العرب وبعضهم باسم الاقليمية والوطنية ولا ريب أن هذه الحزوة التي أحدثتها موجة السلالات والدماء قد أشاعت الاضطراب في العلاقة بين العروبة والإسلام - فقد طرحت نظرية العنصرية في العالم الإسلامي من أجل : فك الرابطة وحل العروة - وكان لاساليب التعليم والأنظمة السياسية أثرها في إغلاء الاقليمية والقومية الضيقة فقد وضعت الوطنية المجردة والإقليمية الضيقة في مواجهة الوحدة فسكانت هاملاً هاماً في تمزيق الحزام الرابط .

وقد برزت في خلال ذلك دعوات عنصرية وإقليمية متعددة منها الفينيقية في لبنان ، والآشورية والسكندانية في العراق ، والفرعونية في مصر والبربرية في المغرب والونجية في إفريقيا فخير أن الدعوة العنصرية في العالم الإسلامي لم تستطع أن تحقق تقدماً كبيراً ذلك لأنها كانت تواجه مفهوم الإسلام في الأخوة الإنسانية ، ووحدة الجنس البشري .

ومفهوم العنصرية في مجال العالم الإسلامي هو العودة التاريخية إلى ما قبل الإسلام ، ونحن نعرف أثر الدعوة العنصرية في تمزيق الدولة العثمانية .

ويؤكد أرنولد توينبي : إن إطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين ضد ظاهرة من أعظم المذجوات الأخلاقية في الإسلام وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضية الإسلامية ، ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة . بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سمات الحالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزاً بشدة لدى الشعوب القريبة التي استطاعت أن تقطع لنفسها ، ولو مؤقتاً على الأقل حصص الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في لقرون الأربعة الأخيرة

إن دعاة النفوس العنصرية في تزايد . وإذا قدر لحركتهم هذه أن تنطفيئ ، فإن ذلك سيؤدي إلى وقوع كائنة عامة والمقول أن تتكون روح الإسلام هي ملك القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

(٥) جاء الإسلام محدداً قاطعاً في أمر البشرية . فأكد وحدة الجنس البشري ، وحرم التفاضل بالنسب وأكد هذا المعنى رسول الإسلام (محمد صلى الله عليه وسلم) في عبارة قاطعة : إن الله يحب منكم نخوة الجماعة ونظرها بالأبواء . كما أكد من زاب . ليس العربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ولقد قامت الأمة الإسلامية ، على نظام بدليل لنظام القبلية ، فقد أهلى رابطة الفكر والعقيدة والوحدة القرآنية الجامعة . وقام المجتمع الإسلامي على عناصر مختلفة : الفارسي ، والرومي والحبشي والعربي . أمة واحدة من دون الناس . . . وحكشفت الرسول عن العروة الوثقى الجامعة ، ليست العربية لأحدكم بأب . أو أم . إنما العربية اللسان . فأبما مسلم تكلم العربية فهو عربي وقد نقي الإسلام العنصرية نقياً صريحاً ، وأقر كفاية العربي للاعجمي لم يدع نسبة علم أو فضل إلى مصادره في الأسباب ، بل جعلها مرتبطة بوحدة الفكر ولم يعرف الإسلام ما يتردد الآن من قول ، بأن الفارابي تركى والغزالي فارسي ، فذلك بما لا يقره مفهوم الإسلام لوحدة الأجناس والرابطة الإسلامية الجامعة التي ألقت فوارق الدماء والعروق ، وتشكلت منذ اليوم الأول على مفاهيم الإسلام نفسه ، ومن خلال أبداً لوجيته الصريحة . فالؤمنون إخوة ، ومن خرج عن الإيمان فهو ليس من أهلك .

وقد تصاهر المسلمون في الأقطار المفتوحة ، واختلطوا بأهلها ، وامتزجوا بهم امتزجاً كلياً . فتشكلت وحدة تامة ، وقد أكد القرآن وحدة الإنسانية . وأكد أنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، والإسلام لا يعرف أى تفرقة بين الناس بسبب أجناسهم وألوانهم وأنسابهم وإذا كان هذا موقف الإسلام من العنصرية ، فما هي النتائج التاريخية لمفهوم الإسلام .

يقول الأستاذ عبد الحميد العبادي : لا ريب أن تقارب الأجناس الإسلامية وتداخلها بالزواج المختلط أو التوليد ، واختلاط العناصر العربية بالفاروسيات ، والروميات ، والصقليات ، والصينيات ، والهنديات ، قد نشأ عنه جيل جديد من الموالدين ، يحوى عن طريق الوراثة خصائص الأجناس المختلفة التي ولدته من جسمية وعقلية . وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة .

لا لشعوب مختلفة ، تدين بدين واحد ، وتتكلم لغة واحدة . ولا ريب أن هذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية التي شملت كل فروع التفكير الإنساني من فقه وحديث ، ولغة وأدب وفلسفه وطب ورياضيات وتاريخ وجغرافيا . وهي إحدى النهضة العلمية الكبرى الممدودة في تاريخ الحضارة على الإطلاق . وإنما صارت الحضارة والعلوم الإسلامية إلى هذا المستوى الرفيع بتلك الوحدة التي شملت الشعوب الإسلامية ، وإخلاص العناصر غير العربية للدين الإسلامي واللغة العربية ، ولا سيما بالنسبة للعقائد التي كانوا ينتحلونها من قبل ، وصابئة ومجوسه وهندية وغير ذلك ، كما جرتهم الثانية بغزارة مادتها وروعة أدبها ، وأنها قبل كل شيء ، لغة القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . وقد جرم في النهاية هذا الإحجاب بالدين الإسلامي واللغة العربية إلى الإحجاب بالعرب أنفسهم ، فهم الذين حملوا إليهم هذين المصدرين لأعظم مادة تمدنى قلوبهم وأذهانهم ، فتغيرت الحال عما كانت عليه من قبل ، فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية ضيقة متحيزة للعرب على غير العرب ، ولا كراهية من الموالى لنموذ العرب السياسى بل لقد جر هذا الإحجاب كنهداً من الموالى والأعاجم إلى إلتحال النسب العربى تشرفاً به وتعظيماً بل إن بعض الشعوب غير العربية . أخذت تمد أصولها إلى العرب كما قيل في البربر إذ نسبوم إلى قيس هيلان .

(٦) ولقد وجدت نظرية العنصرية من يكشف عن زيفها ، ويدفع خطأها وينبه إلى أهدافها الهدامة . والى من ورامها من قوى وغايات بعيدة المدى فقد تأكد أنه لا يمكن القول بأنه توجد سلالات بشرية نقية وميت أن سكان أوروبا متعددو الأصول ، لدرجة أن محاولة تصنيفهم مستحيلة استحالة تامة .

وأكد العلماء أن المهاجر والوصى ، بين الرجل الأبيض ، والرجل غير الأبيض لا يستند إلى أساس علمى . كما ثبت خطأ دراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجناح والالوان وفصائل الدم ، وشكل الشعر وتبين أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الإنسانية بالتهقر والتدهور وهى الدعوى التي يدعيها أصحاب الاستعلاء العنصرى - لا تستند إلى أقل دليل علمى ، فإن عملية الاختلاط بين الأجناس عملية مستمرة منذ بداية الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية ، وعمليات الهجرة قديمة قدم السلالة البشرية ولا ريب أن الهجرة تعمل على اختلاط الجماعات اختلاطاً طبيعياً . ذلك أن التزاوج والاختلاط والانتشار عوامل ساهمت في تعظيم العزلة بين الأجناس ، وإيجاد جماعات مولدة أو جماعات وسطى تحمل صفات سلاتين أو أكثر وقد أعلن الباحثون المنصفون ، أن فكرة التفقاء الجنسى التي تحدث عنها بعض العنصريين الأوربيين في أعقاب الحرب العالمية الثانية أصبح قبولها أمراً صعباً لأن الاختلاط والزواج لم يمكن من وجود جماعة تحمل دماء نقية غير مختلطة وأنصح أن عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن أن يرجع إلى لون البشرة كما أكد الباحثون أن الفروق العقلية والنفسية ، ما هى إلا نتيجة الظروف بيئة ، وقد تأتى نتيجة أن أفراد جماعة من الجماعات ، قد سئمت لها فرصة التعلم عن طريق الاحتكاك الحضارى أو استغلال المواد الطبيعية . وقد تبين أخيراً أن فكرة الأجناس تقوم على أهواء وهراطم دعاية التميز والاستعلاء الفردى ولقد ذهب

دعاة المنصرية مذاهب شتى في محاولة التفريق بين المستوى للعقل للاجناس .

غير أن التجارب التي أجريت على طلبة المدارس بالولايات المتحدة أثبتت أن المستوى العقلي للامليد زنوج الولايات المتحدة يفوق مستوى نظائهم في الولايات الجنوبية . وقد تأكد أن المسألة ليست مسألة جنس ، بل مسألة بيئة وفرص مختلفة ومستوى ثقافي وقد تأكد خطأ القول بأن الوراثة البيولوجية هي الفاصل الوحيد المهم ، بل هناك الوراثة العقلية ، ولا ريب أن الفاشلين في الحياة هم من العناصر المنحطة في كل شعب وجنس كما كشفت الأبحاث عن أنه ليس هناك ارتباط بين حضارة معينة . والتسكون الجنسي لسلالة من السلالات وأنه ليس هناك ارتباط بين ما يسمى بالسلالة الآرية أو الجنس اليهودي وبين الحضارات الغربية كما تأكد كذب الدهوى التي تقول بأن الجرمان هم صانعو الحضارة .

فالحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض البحر المتوسط في حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد . تمت في بلاد تميز سكانها بالاختلاط . لا بالنقاء الجنسي . وذلك بالإضافة إلى أن الشعوب تختلف في تطورها الحضارى باختلاف السلالة والدماء وأن الحضارة في الوقت الحاضر ليست قاصرة المجموعة البيضاء . فقد دخلتها اليابان والصين وكل هذا يؤكد أمرين : (الأول) أنه ليس هناك صلاحية لجنس ما لقيام بأنواع معينة من الاعمال والحرف . (الثانى) أن جميع الأفراد في أماكنهم اقيام بنفس العمل إذا سمحت لهم فرص متكافئة في التعليم والمران .

وهناك دهوى ترددها للصهيونية العالمية عن نقارة السلالة اليهودية ودولتها بما يؤدى إلى القول بأن الجنس اليهودى يمثل جنساً متميزاً عن بقية السلالات .

والواقع التاريخي . والدراسات الانثرواوجية ، تؤكد أن اليهود لم يستقروا في أى مكان على نحو يمكنهم من أن يكونوا أمة فضلاً عن أنهم في القديم تزاوجوا واختلطوا بغيرهم من الشعوب التي تسكن آسيا الغربية ، مثل السكثمانيين والعرب ، والحبشيين وهناك أعداد كبيرة تعيش في مناطق متفرقة من آسيا ، وفي منطقة القوقاز وسوريا ، والعراق ، واليمن ، ومصر قند ، وبخارى ، وإيران ، وأن هذه المجموعات قد اختلطت بغيرها .

يقول العلامة سالمان : إن نقارة السلالة لليهودية ، ما هي إلا أوهم فإن أكثر التفهيرات والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود .

ويقول فيعبرج : إن مزاعم اليهود وادعائهم عن نقارة سلالاتهم حيث مجرد عن كل أساس واليهود الذين هاجروا من موطنهم الاصلى . كانوا عبارة عن خليط من السلالات وتفاوتت درجة الاختلاط حسب تاريخ الهجرة وفي أوربا اختلط اليهود بالمسيحية اختلاطاً كبيراً لفت نظر الكنيسة

بعدة ، فصدرت قوانين متعددة ، وعلى فترات متوالية ، تحرم على المسيحيين الأرثوذكس الزواج من اليهود .

وهناك قوانين ثيودوسيوس الثاني الصادرة في القرن السادس الميلادي ، وقوانين مجلس أورليان ٥٢٨ ميلادية . والقوانين الكنسية التي أصدرتها سلطات الكنيسة في توليدوا (طليطلة) عام ٨٧٥ وقوانين روما ٧٤٢ ميلادية .

ولا ريب أن توالي صدور هذه القوانين وتعددتها . يؤكد كثرة الزواج بين المسيحية واليهود . ولقد عمد اليهود إلى الدخول في الأديان الأخرى . والتسفر خلفها ورغبة في العمل على تدميرها من الداخل وتحقيق غايات أخرى . ويؤكد تصنيف اليهود في العالم أن أكبر نسبة من اليهود في العالم هم يهود بالديانة فقط . وأن هناك يهود من سلالات يهودية مختلطة من عدة عناصر آسيوية . وأوربية أما بقايا سلالة المهاجرين القدماء ، فهم نسبة قليلة جداً . وأبرز ما نكون جماعات اليهود الآن هي مجموعات الخزر التي اعتنقت اليهودية عام ٧٤٠ ميلادية ، وهي ليست يهودية بالجنس . وإنما دخلت اليهودية على أثر اعتناق ملك الخزر يولان لها ، والأعداد الكبيرة لليهود في بولندا وجنوب روسيا تنتمي إلى سلالة الخزر هذه .

الفصل الخامس

المادية

لم تقتصر النظرية المادية على أن تكون فرضاً من فروض العالم قابلاً للخطأ مع توالى البحث واكتشاف حقائق أخرى أمام العلماء فى المعامل على النحو الذى حدث من بعد . ولكن النظرية لم تلبث أن نقلت إلى مجال الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، على أنها حقيقة ثابتة . وأقيمت على ظنيتها أبنية وقواعد ونظم استهدفت معارضة القيم الأساسية للأمم والمجتمعات ، هذه القيم النابعة من جوهر الأديان ، وحقائق الوحي ، والتي تتفق مع الفطرة والعقل . ومن ثم طرح على البشرية منهج معارض كل المعارض لطبائع الأشياء ، وظواهر الكون ، ولكل الحقائق والمعطيات التى كتبها الإنسانية فى بحثها الطويل عن الله ، وعن حقائق الكون ، ونظم الحياة .

كانت الأديان المنزلة قد أمدت الإنسان بحقيقة الكون والوجود ، هذه الحقائق التى لم تكن البشرية القديمت طليع أن تهمل إليها عن طريق العقل والبحث . مما جاهدت فى سبيل ذلك . لأنها تتصل بعالم الغيب الخفية عن طريق التجربة والحس ، والتي يعجز العقل وحده عن البحث فيها . فهدأ الإنسان بطبيعته المتطلعة إلى البحث وراء المادة ، وجرياً وراء مطامعه وأهوائه واعتماداً على العقل أراد أن يستكشف هذا الطريق الخطر ، دون أن يحصل على الأدوات التى تعينه على مشاق البحث ، فلم يستطع أن يصل إلى الحقيقة ، وقصر به البحث إلى فرضية ، تقول أن هذا الكون مادى ، لا صانع له ، وأنه وجد صدفة ، وأنه ممتد بدون نهاية ، وأن الموت هو نهاية كل شئ — هذا هو النتائج التى أمكن أن يصل إليها العقل البشرى فى رحلته للكشف عن الحقيقة ، حين رفض العون عن معطيات الأديان والوحي ورسالات السماء ومن هنا جاءت النتائج معارضة تمام المعارضة للحقائق السكانية ، منكورة لوجود الخالق ، وقاصرة عن فهم حقيقة الحياة ، وغاية الوجود ، ومهمة الإنسان فى هذا الكون . ولقد أمضى الإنسان من عمر البشرية ردىحاً طويلاً فى هذا البحث . دون أن يهتدى إلى شئ يقربه نفسه وتمتريج له فطرته ، وكانت أخطار مراحل البحث : تلك التى وقعت قبل رسالة المسيح وبعدها فيما أطلق عليه مفاهيم الهيمنية الغربية ، والغنوصية الشرقية .

اعتمدت الأولى على العقل وحده — واعتمدت الأخرى على الوجدان وحده ، وتلاقنا على نتائج مضطربة غاية الاضطراب بين شك وثباتية . وثنايت على النحو الذى سجله تاريخ الفلسفة القديمة . ولا ريب أن هذا هو جوهر الخلاف بين الناس وبين الأديان التى أنزمت لتقدم للبشرية مقدمة من

الحقائق ما تعجز عن الوصول إليه بقدراتها الخاصة ، وكاشفة عن وظائف المعطيات التي أعطيت للإنسان من قلب ، وسمع ، وبصر ، وموجهة عملها .

ولما كانت قضية الخلق ، والكون بما تعجز هذه القوى المحدودة القدرة ذات الوظيفة الخاصة عن كشفها فإن الوحي بمنلا في الكتب المنولة على الرسل والأنبياء ، قد تمكفل بإظهار هذه الحقائق وتقديمها للإنسان حتى لا يشغل بها قواه المحدودة عن وظيفتها الحقيقية ، وهي الكشف عن كنوز الأرض ، والبحار ، والجبال ، في سبيل دفع الحياة إلى طريقها من العمران ، وترقيتها وتقديمها ، وبناء الحضارة على المنهج الصحيح ، الجامع بين العلم والإيمان .

واقدر برز مذهب المادية في العصر الهليني حيث يعزى نشوء أول مذهب فلسفي مادي إلى ديمقريطس ٣٧٠ قبل الميلاد ووجد من يدعو إليه ويدافع عنه وقد كان العصر الهليني سابقاً لرسالة السيد المسيح ، وقد ظهر في بيئته لم تكن دياناتها إلا مجموعة من الأساطير والشعائر والطقوس .

يقول إميل بوترو في كتابه العلم والدين : نشأت الفلسفة اليونانية نفسها من الدين ، واسكنها ما أن استقلت عنه - حتى راحت تحاربه ، وتسخر منه وتذهب إلى أن البشر هم الذين خلقوا الآلهة ، وكان الدين عندهم يؤمن بالضرورة العمياء ، لجأت الفلسفة فأمنت بالعقل البشري ، وحل العقل محل الآلهة وقد ذهب اليونان في الإغلاء من شأن العقل حداً بالغ الخطر والاضرار ، حتى قالوا بسلطان العقل ، وفي مجال هذا الاتجاه ظهرت مذاهب الإباحة ، ومفاهيم الحس ، وإنكار البعث بعد الموت والدينونة واندفعوا وراء الترف والشهوات والرذيلة وقالوا إن العالم كله من عمل الصدفة ، وإن اللذة هي الغاية من الحياة وقال هميدم سقراط : إن العقل هو السبيل للمعرفة وليس الحس ، ومن أخطائهم قولهم بأن المادة أزلية ، وأن الكون غير متناه .

ولقد جاء الإسلام فكشف عن وجه الحق في هذه القضية ، وحدد القرآن مسائل ما بعد الطبيعة تحديداً خاصاً ، وأغنى المسلم عن البحث فيها ودعاه إلى التفكير في خلق الله من الكون ، وإقامة دون البحث في ذات الله ، التي ليس من اليسير الوصول إلى حقيقتها ، وهو ما أسماه العلماء بالبحث في الخصائص دون البحث عن ماهية ، وقد أمد الإسلام المسلمين بصورة كاملة عن عالم الغيب كله ، وعن الله سبحانه وتعالى ، واليوم الآخر والجنة والنار ويوم القيامة والحساب والجزاء وحدد هذه المعالم تحديداً كاملاً وقرر في نفس الوقت قصور العقل الإنساني عن التوصل إلى شيء في هذا المجال ونهى أشد النهي عن تجاوز هذه المعالم .

ولقد استطاع المسلمون ، وقد أتاح لهم الإسلام بهذه العقيدة فرصة العمل في المجال العمل ، أن ينشئوا المنهج العلمي التجريبي ، وأن يجهلوه نه اسألاً لمنطق الذي سنه الله لهم من العمل على الإنشاء

والعمران والتقدم ، وليس هناك اليوم ريب في هذه الحقيقة . حقيقة ما قدمه المسلمون إلى العلم والحضارة فقد شهد لهم كثير من غهم في مقدمتهم العلامة بريفوات في كتابه : بناء الإنسانية ، فضلاً عما أورده جوستاف لوبون في كتابه : حضارة العرب ، وما أورده الدكتور سجريرد هو نكه في كتابها : شمس الله تشرق على الغرب .

(٧) وفي العصر الحديث . انتقلت حركة العلم والحضارة إلى الغرب نتيجة للاصول التي أقامها المسلمون غير أن الاتجاه لم يلبث أن انحرف عن غايته ، فام تلبث أن استغلت مرة أخرى النزعة العقلية واستغلت مرة أخرى النظرية المادية ولسكنها كانت هذه المرة أشد بأساً وأبعد أثراً في الفكر البشري كله . ذلك أن انتقال معطيات العلم والمنهج التجريبي إلى الغرب (وهو المنهج الذي صاغته مفاهيم الحضارة الإسلامية مدفوعة بدعوة القرآن نفسه إلى النظر في السموات والأرض فهو ثمرة الدين) .

هذا الانتقال واجه بيئة مختلفة في الغرب ، لم تكن لتقبله في يسر أو تمضي لتنميته في هودة ومن هنا نشأ ذلك النزاع التاريخي المعروف بين العلم والدين واستمر طويلاً وكانت غلبة العلم مؤذنة بإهلال الخصومة للدين والقطيعة له ومواجهته بفلسفات وأيدولوجيات لتحل محله وترجمه عن مكانه في النفوس والمقول . لقد قصرت مفاهيم الدين في الغرب عن معطيات العلم فأحدث هذا التفسير تلك الشقة التي دعت أشتال ديكارت إلى القول أن ميدان العلم غير ميدان الدين وأنه لا مطابقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحد منهم على الآخر غير أن العلم لم يقف عند هذا الحد ، فقد أخذ يتقدم تقدماً كبيراً . وحقق من النتائج ما جعله يتنكر تنكراً تاماً لكل ما سوى العقل والمحسوس والمشاهد . وبذلك أنكر العلم عالم الغيب والروح إنكاراً تاماً ، وحاربه حرباً عنيفة ومن ثم استعملت نظرية المادية استعلاء شديداً نتيجة أمرين :

(أولاً) نتيجة توقف رجال العلم عند ظواهر الأشياء (ثانياً) تحول نظرية دارون من مجال النظريات الطبيعية إلى مجال الفلسفة الاجتماعية فقد كان العلم في أذهان واضعيه الأوائل . يراد به تفسير الوجود وكان العلماء في أول هدمهم بالعلم يهتمون بمعرفة : لماذا ولسكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم هبت هذه المحاولات وعم نتائجها ، ومن هنا لم يعد العلم يفسر الأشياء ويعلمها وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ويصف ويقرر .

ثم لم يلبث العلم أن اكتشف خطأ نظرية المادية التي جاءت نتيجة تصوره عن اكتناء المجهول ومعرفة ما وراء الطبيعة وسقط أكبر حجر في بناء المادية عندما اكتشفت نظرية النسبية التي قالت أن المادة تتحول إلى طاقة ، والطاقة تتحول إلى مادة يقول للعلامة : نجاييس تميز في كتابه العالم من حولنا : كان حجر الواوية في بناء علم الطبيعيات في القرن التاسع عشر هو بقاء المادة وخلقها من جهة

وبقاء الطاقة من جهة أخرى وقد بطل هذا الرأي بطلاناً تاماً وأقيم مقامه ناهوس آخر هو بقاء ذاتية واحدة . هي المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة والطاقة دلي حدة خالدة البقاء أو متغيرة بل هما متغيران معاً من حال إلى حال لأنهما شيء واحد المادة تظهر شكلاً من أشكال الطاقة وبذلك تكون النظرية المادية من وجهة نظر العلم قد سقطت ، فقد تبين أن هناك قوة أخرى مجهولة وراء المادة لها أثرها الواضح وبذلك أصبح عالم الغيب داخلاً في نطاق العلم فغير أن ما وصل إليه العلم في مجال التجريب كان شيئاً مغتلفاً عما سمعت إليه الفلاسفة المادية وقطعت إليه مراحل كثيرة .

ذلك أن هربرت سبنسر ، وعدداً من الفلاسفة اتخذوا من نظرية دارون وسيلة إلى إبداء شأن للمادية وقطع الصلة مع كل ما يسمى بالروح ، الغيب ، ما وراء المادة ، الوحي ، البصيرة . وكانت كبرى نتائج المادية إنكار الخالق والبعث والنظر إلى الإنسان من حيث إنه كائن انطبق عليه تجارب الحيوان . وكان هذا الفصل بين المادة والروح في الإنسان والنبية هو نقطة الضعف ومنهات الخطر وقمة الأزمة التي هزتها الحضارة المعاصرة وقد غلب منهج المادية على كل أبحاث النفس والأخلاق والاجتماع وفي هذا المعنى يقول العلامة جود : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلة ولصكنا نستعملها بمقل الأطفال .

(٣) صور العلامة الدكتور كارل في كتابه " تحديد الإنسان " هذه الأزمة الخطيرة حين قال : فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح واعتدت على المادة - بين فرق جاليليو بين خواص الأجسام الأولية كالإبعاد والوزن ، وهما ما يسهل قياسه ، والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهما ما لا يقاس - لقد فرق جاليليو بين الحكم والنوع وعنى بالاول وحده ثم حصر أتباع جاليليو مهمهم في الحكم وأهملوا النوع وكان من شأن حماسهم في سبيل الوزن والقياس أن حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء هذا التفكير يجب إصلاحه ليتمكن العالم من إنقاذ الحضارة لأن في الإنسان شيئاً أكبر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها وكانت أخطاء ديكرت : الأشياء المادية ، وبعد كتاباته فصلت الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق عما لا يمكن حصره وبدأ بناء الجسم بطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرم أشد ثبوتاً من الفكرة والنشوة والحزن والجل وهذا الخطأ هو الذي حول الحضارة إلى الطريق التي أقضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان .

ذلك أن تقدم العلم في كل ما له صلة بالغذاء والرياضة قد تم على حساب النمو العقلي وهذا هو مصدر الأزمة .

(٤) إن أخطر تحول في النظرية المادية هو ذلك المفهوم الذي وجهتها إليه الفلسفة ونقلتها به من مفهوم العلم إلى مفهوم الاجتماع وهو الاتجاه الذي قصد به ضرب القيم الروحية والنفسية والدينية ومحاولة بناء نظام اجتماعي كامل على أساس المادة وقد حاولت النظرية المادية السيطرة على كل مفاهيم

فكر والحياة والمجتمع والثقافة في محاولة للقضاء على كل مقررات الأديان وخلع الإنسان من كل مقررات التوحيد والأخلاق ومن الوضع أن الإيدلوجية التلودية كانت من وراء النظرية ، تفديها تدفيعها وتمتد من واقع الدين في الغرب وسيلتها إلى معارضته ولكن المنطوق نفسه كان قسرياً ولم يكن ليبيماً وكان متعارضاً مع الفطرة والعقل وكل المقررات التي يفكر بها الإنسان وكان أشبه بإخراج الإنسان من جلده ووجدانه - فقد حسب دعاة المادية أنه من اليسر إخراج الإنسان - أي إنسان - من نطاق الدين والإيمان بالله وبالرغم مما أكده العلم التجريبي من محدودية العقل ومن دجر العلم عن معرفة جوهر الأشياء فإن دعاة المادية كانوا يحددون دعوته ويحاولون إدخال وسائل أخرى لإخفاء فهم ولبراز دعوهم في صور علمية براقة .

(هـ) تمثل الطريقة المادية طابع الفكر الغربي المعاصر وهو الاضطرابية ، فهي تعتقد بوجود عنصر واحد هو قوام هذا العالم وهو المادة ولا وجود لعنصر فخرها بينما يقف للفكر الإسلامي موقف الكمال ويقرب من جوهر الحياة وحقيقة الإنسان حين يجمع بين الروح والمادة ولا يب أن الاعتماد على المادة وحدها في بناء منهج حياة ومنهج معرفة من شأنه أن يواجه أخطاراً مزالق ومخاطر كثيرة لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالعمليات المضطربة والتأويلات الملتوية التي يقبلها العقل ولا تستريح لها الفطرة ومن ذلك أن الماديون يذهبون إلى اعتبار الروح مادية ، والعقل لدى والنفس مادية وهكذا .

واقف النظرية المادية موقفاً عصبياً من تمثيل الخلق ونظام الكون على نحو لا يقنع ولا يرضى ولا يفي غلة وتنكر الفلسفة المادية غائية الكون أي أنه خلق لغاية مقصودة وتنكر بدايته ونهايته كما تنكر نهاية الآخرة والجزاء ومن هذا المنطلق ظهرت الفلسفات النفس والأخلاق والاجتماع التي غارت بأهم الغائية البشرية ومسؤولية الإنسان في هذا الكون وما يتقبل بالبعث والجزاء في الآخرة ومن تطوع به أن أخطر مقررات المادية هو تفسيرها للنشاط الإنساني كله على أنه تابع من الجسد وأنه محال للجوانب الخلقية والروحية ومن هذا ينظر إلى مقررات المجتمع والدين والأخلاق على أنها مسائل تسمية متغيرة وأخطر ما في هذا المفهوم : هو معاملة الإنسان معاملة المادة ، الهامدة أو تطبيق مآرب الحيوان عليه ومصدر هذا هو افتراض أن الإنسان مادة وأن النفس مادة وفي هذا الاتجاه حاولت الفلسفة المادية ، أن تسخر من كل القيم والمثل العليا إذ الحقيقة الوحيدة عندها هي الحقيقة المادية التوازن الأساسية عندها هي نوازع الجسد .

ومن هنا فإن النظرية المادية إنما تستهدف أساساً - وقد ضربها العلم ضربات قاتلة وكشف عن يقينها - أن تحطم القيم التي قدمتها الأديان للأمم والبشرية وخاصة في مجال العقائد والأخلاق فهي أعية إلى التحرر الكامل من كل قيد وإسقاط كل تكليف وضرب الحدود التي وضعتها الأديان البشرية حتى يستطيع أن تؤمن مسيرتها وخاصة الإباحة في أمور الجنس والفرائض والتحرر من المسؤولية فردية والالتزام الأخلاقي كمنطلق إلى اللذات والشهوات المعالجة بدعوى أن الموت هو نهاية الأحياء وهذه هي الخلقية التي أقامتها الإيدلوجية التلودية لتدبر البشرية وتطعن معنويات الإنسان وعلى أساسها نشأت كل مذاهب الإلحاد والإباحة .

العقل : مكانته ومهمته

إن العقل في الاسلام مفهوماً قد يختلف عن مفهومه في الفلسفات المختلفة وأبرز مميزات هذا المفهوم أن العقل ليس مقدساً وليس له طابع الاستعلاء أو التفرد أو السيطرة على الفكر الانساني كله وإنما هو عامل هام من عوامل المعرفة ولكن هناك معه ، وتسبقه وتلحقه عوامل أخرى منها الوحي وعامل معه عامل القلب .

ولا ريب أن العقل والايان معاً هما صمام الامن في المعرفة الانسانية وقد وصفهما الباحثون بأنهما عينان يبصر بهما الانسان سبيل الهدى فإذا طمست عدسة الايمان كان معها الحيرة وإذا طمست العدستان كان بذلك العمى فالمداهب التي اعتمدت على العقل وحده كانت حائرة ولم تولد للمذاهب التي أنكرت العقل والايان ، جاءت غاية في الظلام (كالوجودية ، والفرويدية والهيبنية) . وهما سبيلان لا ينفصلان يهدى أحدهما إلى الحياة وأمورها ويهدى الأخرى إلى ما بعد الحياة وما وراءها فإذا وقفت المعرفة عند الحياة وحدها كانت ناقصة مبتورة لأنها لم تستكمل حلقة الاستمرار ولم تتم بها التجربة وغيببت النتيجة والعبرة وهذا هو النقص الذي يؤدي إلى الحيرة والقلق والتفوق والعمى وإن كان من شأن العقل إلا أن الايمان هو الذي دفع إليه وهو أيضاً الذي يقوده في الطريق حتى لا يكون شراً على البشرية وبهالاً .

ولقد حرص الاسلام على أن يجعل العقل في مكانه الطبيعي وفي حدوده وظيفته وعمل في تحريره من الوثنية والمفاهيم الوائفة كما حرره من الخضوع لقوى الخفية والسحرة .

وقد أكد القرآن في مجموعة أن طبيعة تكوين العقل مرتبطة بمجهود الإنسان في الأرض في سبيل التقدم والقدرة على إدراك قوانين المادة وتسخيرها وليس من مهمته الكشف عن أسرار التكوين الإنساني ومن هنا كان عجزه عن ذلك بعد هذه المحاولات الطويلة ، ذلك أن سر الكون والحياة وسر الموت هو من الغيب الذي استأثر الله سبحانه به والذي قدم للبشرية فيه بياناً شافياً كافياً عن طريق الوحي ولما كان سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال الإدراك عن طريق العقل فقد شفى القرآن النفس البشرية في مطمحها وتطلعها إلى الفهم فقدم لها منهجاً كاملاً . أما العقل فلم يكن من وظيفته الأساسية أن يحوض في هذا الغيب ومن هنا كان عجز البشرية حتى الآن عن أن تضع لها منهج حياة أو أيولوجية نظام ونبرمة وقوانين صالحة للعمل أو بحفنة لمطامح الانسان ومن ذلك أيضاً عجزها عن وضع لتفسير السكامل للكون .

يقول الأستاذ يوسف القسبي : إن العقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك معه في الألوهية وقد أودعه في الانسان لا يعينه على دون الله بل ليعرف السكون ويسألتهف ما يلزمه منه ويهتدي به في

الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها له فلهذا قل أن يحول فيها ويتأمل ويدرك ويستخرج ما يهدي إليه
 ما الأمور التي بينها الله في قرآنه وبسطها فعلمية أن يسلم بها . ولا يشتط فيدهى أنها غير صحيحة ،
 فهو من خلق الله وهو واسطة لا غاية وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تتجدي .
 ما يقوله الله والعقل ليس إلماً لا يخطئ . وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات واسكنه ينكشف
 أمام نور الله وهذا التحديد لإيقاف الصراع فالعقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون أو أن
 يضع مبادئ المعرفة بل الله يفعل ذلك . والعلماء المسلمون يرون أنه ما دام نور العقل أضلك من نور
 الله فلماذا لا يتخذ نور الله كاشفاً في ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه . والعقل الإسلامي يتفق
 في اتجاهه وطريقه مع الأخلاق فهو الذي يدل على الخير ويهدي إليه .

أما المكر والحديعة والدهاء المؤدية إلى السوء فليست من صنع العقل وإنما هي من صنع النفس
 الامارة بالسوء ولورجع الإنسان إلى عقله رجوعاً سليماً لا باهاً وليس العقل البشري ندأ الوحي ،
 وهو جهاز يتلقى الوحي ويفسره وليس له قدرة على معارضة الوحي أو تقديم تفسير آخر ، والعقل
 الإسلامي نور محرر من الشعوذة والسحر والقوى الخفية والخضوع لغير الله .

ويقول الأستاذ حسن البنا : إن قصارى ما يصل إليه - أي العقل - هو معرفة بعض المزايا
 والخصائص والصفات أما الحقائق المجردة والماهيات البسيطة فلم تقع في دائرة إدراكه بعد والذي
 يقوله الراسخون في العلم أنها ان تقع في إدراكه ، وأنه كلما حاول بحكم طبيعته الوصول إليها والحصول
 عليها أفلتت منه وتركته بين يديه بعض خصائصها وصفاتها .

والعقل الإنساني لم يدرك بعد شيئاً من حقائق العناصر البسيطة وكلما أوغل في الجري وراء
 حقيقتها انقلبت أمامه إلى مركبات تضاعف جهلها وبعد أن يكون أمامه عنصر واحد يجد في البحث
 عن حقيقته يصبح أمامه عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد وقل مثل ذلك في
 ماهية القوى الكونية التي تبدو في الحياة واضحة كل الوضوح بآثارها مجرولة كل الجمالة بحقيقتها
 كالكهرباء والمغناطيسية والآنهر والمجاذبية إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض والمصطلحات
 التي اخترعها الفكر الإنساني والعفلاء جميعاً متفقون على أن قصور العقل عن إدراك كنه حقيقة من
 الحقائق أو جهلة بها ليس معناه عدمها أو خفاؤها فهي واضحة كل الوضوح بآثارها وخصائصها . وفيه
 كل الخفاء بأسرارها ودقائق ماهيتها إن الفطرة الإنسانية السليمة تهتف بالإنسان دائماً وأبداً أن يتعرف
 إلى الله وكل مظاهر هذا الـكون وموجوداته بما فيها نفس الإنسان لا توجد أمام الفكر الإنساني أي
 مجال لإنكار وجود الله وعظمة الله والدلالة الواضحة على الله . وإن للقلب الإنساني إذا صفا وأشرق
 تذوق حقيقة لذة الإيمان بالله .

وقد سأل أحد العارفين عن الأدلة التي أقنعتة بالإيمان بالله فابتهم وقال : أغنى الصباح عن المصباح
 حتى احتاج النهار إلى دليل .

فقصور العقل الإنساني عن إدراك حقيقة ذات الخالق وصفاته وقصور الحواس الإنسانية

الكليّة من الوصول إلى شيء من ذلك ، ليس معناه الجحود والاكثار . وكما سلم العقل الانساني ، والحس الانساني بما لم يدركه من هذه القرى المحيطة به فإن لواما عليه أن يسلم برب هذه القوى ، ويسلم ونجه إليه ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين . .

(٢) ومن جملة ما ذكره العلماء والباحثون : أن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء حتى يحصره في اثنين : الزمان - والمكان - فيقول : متى وأين فإلم ينحصر بينهما لم يكن للعقل عليه سلطان ، فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته ولا على قضائه وقدره وكل عمله فيها فهم : تصور من الوحي الذي جاء من خارج العقل . والعقل محدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ولا يحكم على غير المنتهى والعقل لا يتصور الخلود والله عز وجل غير محدود فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه .

والعقل بمقتل ميوانه إن حاول الحكم على غير المحدود ويتع في التناقض المستحيل والعقل لا يستطيع أن يحكم ، ولا يصح حكمه ، إلا في الأمور المادية أما ما وراء المادة أي عالم الغيب (الميتافيزيقيا) فلا حكم للعقل عليه واقد صدق علماءنا القدامى حين فهموا العقل حق الفهم فقالوا : إن في ابن آدم عقلًا وهوة وأن العقل هو مناط التكليف الشرعية والعقل جرم من مضمّن خلقه الله في الدماغ وجعل نوره في القلب يعرف الحق من الباطل والخير من الشر والخير من القبيح .

(٣) قال جاكوتي إن العقل غير المعان لا بد أن يقود الانسان إلى الإلحاد وذلك لأنه بطبيعته الخاصة لا يستطيع أن يقالج سوى الأشياء ذات الحدود وأجزاء الأشياء وهو يضع هذه الأجزاء معاً لتكشف ما بينها من روابط ولكنه يجهل من الحصول على مادة الحقيقة الختام - إن الله الذي يمكن إثباته بالمنطق لا يمكن أن يكون الله لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل والخالق الأعظم لا يمكن أن يسيطر عليه أو يحتويه عقل - إن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها الفكرة المنطقية بل سبيلها الإيمان .

ويقول الأستاذ عبد الهادي أبو ريدة : العقل قاصر عن إدراك الماهيات وفي هذا المجال تكون أداة المعرفة هي الحس والروح - والقلب في القرآن أداة الفهم والنظر والوظيفة الأساسية للقلب هي المعرفة .

(٤) ومن هنا فإن تفديس العقل واعتباره السبيل الوحيد في المعرفة والأسلوب الوحيد في البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلاً - وقد ثبت في منهج البحث الحديث أن العقل البشري لا يستطيع أن يرى الحقائق الخارجية رؤية صحيحة تامة . فهو محدود وله مجال معين لا يستطيع أن يتعداه مثله كمثل البصر يقدر أن يرى ولكنه ، لا يرى كل شيء فالبصر يرى ولكنه لا يتجاوز حدود قدرته البصرية . ولا يستطيع العقل أن يأخذ مكان السيادة في المعرفة إلا في المناهج المادية وحدها التي تنكر الوحي ومن المسمّر أن يتحقق ما يريده الماديون من إخضاع الدين للعقل فالدين وحى سماوي والعقل أداة لرؤية محدودة وقد جرى هذا في أوروبا من أجل معارضة العقيدة والمعرفة اللتين قدمتهما الكنيسة . ولا ريب أن ما نراه من هذا الاضطراب الفكري العاصف الذي يحتاج البشرية البشرية وهذا الصراع بين

المذاهب دون القدرة على وضعها في إطار ضابط أو مرجع له سلطان إنما يعود إلى هذه النظرية التي طرحتها المخططات التلويديّة في القول بحكم العمل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها.

الإسلام والنظرية المادية

(١) إن موقف الإسلام من النظرية المادية واضح صريح فالإسلام منهج متكامل ، يقوم على جناحي المادة والروح ومنهج في المعرفة يقوم على أساس ترابط العقل والقلب - والإسلام يقوم على أساس إيمان راسخ بالخالق الذي خلق الإنسان والكون من العدم . والذي تدل على وجوده صمته . والذي خلق عالم الغيب ، وعالم الشهادة وأعطى الإنسان الوحي والعقل ؛ الوحي الذي أبان عن عالم الغيب وكفى الإنسان مؤونة النظر فيه والعقل الذي فتح للإنسان آفاق النظر في معطيات الحياة .

ولقد وصفت المادة بأنها عياء فكيف يتاح لها أن تتكون في هذا الكون البديع وتتمكّل في هذا الوجود المتكّرم على تنوع كائناته ، وتباين موجوداته بفهم ضائع ؟ إن مفهوم الإسلام للمادة أنها ليست قديمة ولا باقية خلقها الله وهي تبقى إلى أجل مسمى عنده ولا يقر الإسلام نظرية الصدفة ولا نظرية الوجود بغير غاية والعالم الذي حاول اكتناه سر الحياة ، قد عجز عن أن يحقّق شيئاً واكتفى بمهمة متواضعة هي : البحث عن الظواهر - ظواهر الأشياء - ونظريات العلم هي فرضيات معرضة للتحويل والتغيير وما من نظرية قال بها العلم إلا وقد أصابها تعديل فليس في قدرة العلم أن يقول الحقيقة لأنه بوسيلة المحدودة يعجز عنها .

وقد صدق العلامة أجنست سبانية في كتابه فلسفة الدين حين قال : إن ما عرفه العلماء من العلم هو جزء محدود وهو ليس إلا هداماً بالنسبة لما مجهولونه ويقول كاميل فلامريون : لقد عجز العلماء عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبثأثيره الدائم المستمر ليتمكنهم تفهيم تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء .

والواقع أن الإلحاد لا ينسب إلى العلم أو العقل . ولكنه ينسب إلى النفوس المريضة . وقد ارتبط ظهور الإلحاد ، وشاع نطاقه مع الاضطراب النفسي والأخلاق ولقد انتشرت نظرية المادية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ثم جاء العلم لخطم غرورها وزيفها وكشف عن أن هناك جواباً غيبية ، تدل على أن هناك عالماً آخر واعترف علماء الجواهر والمعامل صراحة بوجود الله الخالق في عشرات من الأبحاث بل مئاتها غير أن الفلسفة المادية هي التي تحاول اليوم أن تحمل لواء المادية وليس العلم والفلسفة المادية مناقضة للدين معترضة عليه .

والإلحاد كما عرفه العلامة محمد فريد وجدى : هو عصيان بداهة العقل ، وبداهة العقل تعمرها بوجود قوة عليا هي مصدر كل كمال ، وكل قوة في الأرض والسماء وقد جاءت نوهة الإلحاد من

الموجود ، والموجود هو انكار الشيء مع العلم به ولا ريبه ان ذلك هو التعميم في المعرفة أساساً وهو
توجه في تقبل الحقائق ، والإلحاد وليد الغرور بنوع من العلم ، يظن صاحبه أنه قد أحاط بكل شيء
هلهل ، فلما جاءتهم رسالهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، ولقد كان أصحاب الدعوات الهدامة في
كل عصر وبيئة وزمان يتخذون من الإلحاد والتشكيك والارتباب سلاحاً في مواجهة الضعف والغفلة
والقصور والفراغ النفسي الذي يحيط بالأمم حين تنصرف عن قيمها وأصول فكريها ، هتدئ تستطيع
هذه المقام الضارة أن تنفذ إلى النفوس ، وتجد لها مجالاً تمش فيه .

يقول جيمس خيتر ، بعد دراسة عليه استمرت خمسين عاماً : إن مشا كل العلم الكبير لا يحلها
إلا وجود الله . ويقول : أن أوربا قد نبذت اليوم إلهها وأمنت بإله جديد هو العلم ولكن العلم
كائن متقلب فهو ينفي اليوم ما أثبتته بالأمس ويثبت غداً ما نفاه اليوم لذلك تجد عباده في فلق دائم
لا يستقرون (٢) والاسلام يرى أن العلم سلاح من أسلحة المعرفة وليسته ليس السلاح الوحيد .
ومن هنا يجه خطأ القائلين بأن العلم هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة وأن ما عداه ليس شيئاً .

كذلك يقرر الاسلام أن العلم لا بد له من إطار : هو الخلق وأن العلم إذا لم تهده أخلاقيات
ومثل يندو وبالا على البشرية ومن هنا فإن العلم المادي لا يمكن أن يكون منهجاً للإنسان يحل محل الدين
ولكنه جزء والجو لا يحتوى الكل وهنا لا بد من ضرورة التفريق بين العلم وفلسفة العلم ، بين الحقائق
العلمية المقهورة بالأنابيب في المعامل وبين النظريات المنسوجة في أسلوب علمي باسم الفلسفة . فالأولى
حقائق عامة للبشرية كلها - أما الأخرى فهي نظريات خاصة من نتاج عقول وفي ظل تحديات عصورها
وبينائها وأمر آخر ، أهم من هذا كله هو أن المادة نفسها التي كان يركز عليها القانون الطبيعي . والتي
استعانت في غرور ، فصنعت المذاهب المادي قد حطمت اليوم العلم نفسه لم تعد العينة الصلبة من المادة
هي أساس الطبيعة . لقد كشف لهم العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي . وعلمهم أن
أساس الطبيعة هو الحركة وليست المادة الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك فتصنع الشكل المادي
الاشياء . وهذه الذرات هي الأخرى تشكل وفق حركة معجزة في كيائها الداخلي وهو إلهاء عجيب
للإنسان المعاصر يضيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله إلى قسمين . وأقامت بينهما جداراً من
التباعد والصمت .

وهذا المعنى فسره العلامة موريسون : رئيس أكاديمية العلوم حين قال إن تعظيم ذرة التون التي
كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذاب والكترونات طائرة ،
قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا في الكون والحقيقة ، تبديلاً جوهرياً . ولم يعد التماسق الميت للذرات
الجامدة يربط تصوراتنا بما هو مادي . وأن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم ، تثبت بشكل
أكيد وجود مدبر جبار ، وراء ظواهر الطبيعة ، وإن وجود الخالق يدل عليه تنظيمات لانهاية لها ،
تكون الحياة بدونها مستحيلة إن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاعرة لكاه . إنما هي
جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون . ويقول العلامة وابن أركل : إن الإيمان بالله بعد لازماً

لا اكتمال وجود الانسان ، وتعام فلسفته في الحياة - أما النظريات التي ترمى إلى تفسير الـكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الـكون ثم ترجع ما حدث من الطواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله ، بقصد إكمال الصورة ، ولكن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق ، من فكرة الصدفة ولا شك بل إن هذا النظام البديع الذي يسود الكون ، يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم ، وليس على وجود مصادفة عمياء تخطط خبط عشواء ، ا . هـ

ولا ريب أن هذه الحقائق العلمية تظاهر مفهوم الاسلام وتطابقه وتقضى بأن البعثية تسهر في طريق معرفة الله عن طريق العلم .
(٣) هناك حقائق أساسية في فهم العلم والإنسان .

(أولاً) إن العلم قد اتخذ طريقه الصحيح حينما بحث في ميدان المادة ولكنه قد ضل الطريق حينما بحث في ميدان الاجتماع والنفوس ولذلك فإن ما يتصل بالمادة هو وحده الذي يطابق عليه اسم العلم أما ما يتصل بميدان الاجتماع والنفوس فهو فلسفة ومصدر الخطأ : هو أن المادة تستطيع أن تخضع للمقاييس والموازين المادية العلمية أما النفوس الانسانية ، فإنها تخضع لمقاييس أخرى فالإنسان ليس مادة وليس حيواناً .

(ثانياً) ليس كل ما ينسب إلى العلم ينتمى إليه - ولا كل ما ينتمى إلى العلم مفروغ من إثباته ، فكما أن في العلم الحقائق التي لا شك فيها ، فإن فيه أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات . إن هناك فرضاً باطلاً مسلماً به ضمناً ، وهو أن العلم الحديث يبنى على البرهان المحض . فإيقال باسمه لا بد أن يكون قد ثبت وقام عليه لدى العلم البرهان فهم يقبلون كل ما ينسب إلى العلم لأنهم مسلمون بقيام البرهان عليه كذلك فإن العلم شيء ، وتطبيقه من غير خلل أو خطأ شيء آخر .

(ثالثاً) إن العلم قد عجز عن فهم حقيقة قائمة موازية له هي الفطرة - فالفطرة في الانسان حقيقة ثابتة لا يستطيع أى قوة أن تغير مجراها وهي مستقلة عن الزمان - وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن لا تبدل أسنن الله في الخلق ، ولقد عجزت الحضارة عن أن تفهم الفطرة ، وغفلت عنها ومن هناك كان اضطرابها ونقصها فإذا تطاول العلم إلى بحث ما قررته الفطرة كان ذلك هو مصدر خطئه وفشله ذلك أنه لا سبيل إلى إخضاع الانسان للتجربة والاختبار عن طريق العلم .

القبيل الرابع

العلمانية

ظهرت الدعوة إلى العلمانية في الغرب نتيجة الاتجاه الذي حمته لواء حركة التنوير الأوروبية في الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة أو إقامة أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة فالعلمانية في جوهرها : إنما تمثل القضاء على نظام قائم في الغرب إبان دعوتها . حيث كانت الكنيسة تباشر السلطة السياسية ، وتفرض نفوذها على الحكومات والدول .

والمعروف أن الدعوة نمت في أوروبا قبيل الثورة الفرنسية في مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة وإقامة منهج جديد . أساسه الدولة الحديثة . من شأنه أن ينقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة وقد أوجعوا الفكرة في المسيحية الغربية إلى نظرة أساسية مستمدة من أقوال السيد للمسيح . دفع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ليست تملك في هذا العالم ، واتصوا مفهوم يوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت بوصايا في مجال الأخلاق . وأن المسيحية حين عبرت إلى أوروبا ، وجدت نظاماً سياسياً قائماً هو الامبراطورية الرومانية بقوانينها .

أما الاسلام فإنه يختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً ، ذلك أنه إنما يمثل عناصر ثلاثة متكاملة هي : (العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق) . وأنه قد شكل مجتمعه منذ البنية الأولى على ذلك النمط المتكامل وأن رسوله كان نبياً وفي نفس الوقت هو رئيس الدولة وقائدها وقاضها .

ومن هنا . فإن مجال المقارنة مختلف فضلاً عن أن مجال التطبيق للنظام الغربي القائم على العلمانية والفصل بين الدين والدولة جد مختلف ومتباين . ونحن إذا ألقينا نظرة إلى تاريخ أوروبا ، وجدنا أنه بالرغم من أن المسيحية جاءت بمبدأ جديد لم يكن معروفاً في الأزمنة القديمة ، وهو فصل الدين عن الدولة فإن هذا المبدأ لم يطبق في الحقيقة . ذلك أنه بعد أن اتسع نطاق المسيحية في الغرب - لم تلبس أن أصبح لها نفوذها على الدول والحكومات - يقول الدكتور عبد الحميد متولى : لم يكن أمر فصل السلطة شيئاً ميسوراً . فقد ظلت الامبراطوريتان الرومانيتان (الشرقية والغربية) زمناً طويلاً تقاومان انهيار سلطان الدولة الدينية وذلك خشية انتقاص نفوذها وسلطانها ، بل إن كثيراً من البابوات . حملوا على الجمع بين السلطتين الدينية والسياسية .

وكانت الأباطرة في الدولة الرومانية يتولون العرش الامبراطوري بعد إجراء طقوس دينية يقوم بها الرهبان ، ويجري فيها البابا تتويج الامبراطور ويقول : ومن هنا كان اتجاه الملوك والباطرة إلى

التخلص من سلطان رجال الدين ، القائل بالمناداة بنظرية (التفويض الإلهي) إلى المناداة بأنهم إنما يستمدون ملكهم وساطتهم من الله مباشرة ، وليس من البابوات .

ثم جاءت الثورة الفرنسية ، وحات على نقل هذا التفويض من الحق الإلهي للحك ، إلى الحق الإلهي للعبوب والمردوف أن هذه الأنظمة لم يعرفها الاسلام ، ولم يتأثر بها . ذاك أن الاسلام قام منذ اليوم الاول على مبدأ الجمع بين الدين والدولة دون التفريق بينهما ولا ريب أن أثر التكامل في الاسلام والاشطارية في الغرب . كانت له نتائج البعيدة في المجتمع والتاريخ في كل منهما والمردوف أن الاسلام ليس فيه نظام خاص يتولاه رجال الدين بل إنه لا يقر هذا المصطلح . وليس في الاسلام وساطة بين الله والخلق ولذلك فإن استقلال الدين في تاريخ الاسلام لم يكن معروفاً على هذه الصورة التي عرفتها أوربا إذ ينكر الاسلام كل ما يطابق عليه الحق الإلهي ، أو التفويض الإلهي .

(٢) يكشف تاريخ أوربا في العصر الحديث عن حقيقة تاريخية ترد إليها أمور كثيرة من وقائع هذا التاريخ : تلك هي محاولة اليهود الملمحة لإسقاط الحواجز التي كانت تتعلق بالزواج والملبس والعبادات التي فرضتها المسيحية عليهم والتي حالت وقفاً طويلاً بين اليهود وبين حق المواطنة في المجتمعات الأوروبية .

ومن أجل هذا عمدت المنظمات الماسونية إلى التحضير لعملية كبرى تستهدف إسقاط الحكومات المسيحية الغربية التي تسيطر عليها الكنيسة وإنشاء حكومات أخرى منحدرة من هذه القيود وقد كانت الثورة الفرنسية أولى الخطوات في هذا السبيل . وقد تلتها ثورات متعددة في مختلف الأقطار الأوروبية ، استطاعت أن تحقق الفصل بين الدين والدولة ، باعتباره أول الركائز التي تحول بين نفوذ الكنيسة وبين الحكم ومن ثم جاء تحويل التعليم الغربي كله إلى تعليم علماني ، وعزله عن نفوذ الكنائس التي كانت تتولى أمور التربية والتعليم وقد تحقق نتيجة لهذا إسقاط كل القيود التي فرضتها الكنيسة على اليهود ، والتي حالت دون التماسهم حق المواطنة - وقد كان هذا هو مفهوم عصر التنوير أو حملة التنوير التي هي على حد قول الفيلسوف كانت « الافراج عن الانسان من الوصاية الدينية » ومن هنا ركز عصر التنوير على فصل الدين عن الدولة ، وإقامة حكومات في كل أنحاء أوربا بعد الثورة الفرنسية ، وهكذا تداخل اليهود في المجتمع الأوروبي بعد أن انقطعوا عنه ولقد كان أول قرار لأول حكومة علمانية في أوربا ، وهي الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧ - ٩ - ١٧٧١ ، وقد اعتبر اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم كل حقوق المواطن وعليهم جميع واجباته .

فالعلمانية هي السيف المصات الذي حطم به اليهود القيد الذي يفصلهم في كل مجتمع ويحول بينهم وبين السيطرة التامودية . ويبدو هذا المعنى واضحاً من وراء صفحات كثيرة من التاريخ الاسلامي العربي المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بأنظمة الدولة العثمانية ، والدولة العربية الحديثة .

إن الفصل بين الدين والدولة في الفكر الغربي المسيحي مفهوم لا غرابة فيه ، ومنه أمكن إقامة العلمانية ، التي كانت أكبر ركيزة في تأكيد النفوذ التامودي في المجتمع الغربي .

يقول الدكتور الفاروق : علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية في التنظيم السياسي والاجتماعي ، أى لأن اقضاء الدين عن السياسة والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والآهية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية .

ويقول : إن العلمانية نظرية تنبعث من الخبرة المسيحية ، لا من الخبرة اليهودية إن المسيح الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر وجعل بينها حدوداً تمنع أى اتصال . وتجرى الحياة في كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة ، بما يجرى في الدوائر الأخرى فالعائلة والأخلاق الشخصية ، والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع كل منها يوافق مبادئها مستقلاً فالويل إذا سمح الغربى لمبادئ الدين أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكملها ، كما هو الحال في النظرة الدينية فأصبح لكل من دوائر الحياة مبداء الخاص . ١ هـ ولا ريب أن هذا الفهم الأوربي يختلف اختلافاً واضحاً عن الفهم الإسلامى الجامع المتكامل الذى يضع الحياة كلها في إطار موحد . ولا يقر الفصل بين القيم أو المفاهيم بل يراها متلازمة متكاملة يؤثر كل منها في الآخر .

(٣) ويرجع بعض الباحثين نجاح فكرة العلمانية في أوروبا إلى قصور النظرة الدينية الصارفة عن مسابقة حضارة العصر فالمفاهيم الدينية التى واجهت الفكر الغربى المعاصر أقام على العلم والعقل ، صهوت عن أن تصمد له ، مما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى وصف الدين بأنه أفيون الشعوب ، أو أنه لا يصلح إلا لتنظيم الشعوب البدائية . والمعروف أن رجال الدين في الغرب عارضوا المناهج العلمية وقاوموا تمارها ونماذجها .

غير أن هذه النظرة التى حققت للعلمانية السيطرة في أوروبا . تختلف اختلافاً عميقاً بالنسبة للفكر الإسلامى والعالم الإسلامى . ذلك أن تكامل مفهوم الاسلام قد حال دون ذلك . فقد كان الاسلام في حقيقته أكبر دافع للعلم والتقدم ، وكانت إطاراته الواسعة المنة قاهرة على استيعاب كل عوامل العصر والحضارة .

ومن هنا ؛ فن المستحيل أن يقع المسلمون في نفس المحافير التى وقع فيها الفكر الغربى ، أمام رحلة الاضطراب التى جاءت نتيجة لنفوذ الاستعمار والى فرضت مفهوم العلمانية في الفصل بين الدين والدولة فى مرحلة مؤقتة ستزول بزوال أسبابها . وقد وضع الآن في الغرب أن محاولات فصل الدين عن الدولة هي محاولات مصطنعة . يقول الدكتور محمد رضوان : لم تقم الدولة العلمانية والمجتمع العلمانى في الغرب إلا بشكل صوري ، فالدول لم تتخلى عن دينها وأن الدين لا يزال له نفوذه ، وأن تعاليم الدين الدينية والأخلاقية قد غيرت من شكلها الخارجى واتخذت شكلاً يقوم على الافصاح والتسامح ، وأن رجال الدين في أوروبا أدركوا أن عليهم أن يلبسوا الدين وتقاليدهم ثوباً عصرياً وهذا يعنى أن العلمانية لم تستطع أن تحصر الدين في الفرد فقط

ولم نستطع أن نجعل أبناء الطوائف المختلفة الذين يعيشون في بلد واحد يشعرون أنهم أخوة في الوطن بصرف النظر عن أنهم إخوة في الدين . وأنه لا يمكن الجزم بأن العلمانية قد نجحت في تحقيق غاياتها . وهي إقامة دول ومجتمعات ينحصر فيها الدين على الصعيد الفردي فقط ، ذلك أن الصعيدين الاجتماعيين والسياسيين ليسا سوى حتمية للصعيد الفردي - والعلمانية يشق عليها أن تنجح في بلد يكون فيه الشعور الديني يقطأ ، والواضح اليوم أن الشعور الديني لم يعططم تماماً حتى في البلاد التي تدعى بالإلحاد رسمياً يقول الدكتور قاضل الجمالي : إن العلمانية اليوم حركة رجعية ، رجعية من حيث تاريخها - فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها - ورجعية من حيث جعلها الدولة تهمل واجباً من أهم واجباتها . ونحن نؤمن بضرورة قيام دولة مدنية ، تقوم في البلاد العربية والإسلامية ، تعنى بحياة الإنسان مادياً وروحياً ، عناية غير مجرأة ولا منشطة . فوحدة حياة الإنسان مادياً وروحياً معاً هو ما يجب أن تعنى به الدولة .

ويقول : لا نعتقد أن العلمانية حقة أهدافها في البلاد التي طبقت فيها بل وقعت في تناقضات واضحة ، لا سيما في حقل الزمام وبكشف الدكتور قاضل الجمالي ، وجه المقارنة بين البلاد الإسلامية والغرب في مجال العلمانية فيقول : قد يكون تطبيق العلمانية في البلاد الغربية أسهل منه في البلاد الإسلامية . ذلك أنه المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والمجاعة أما الدين الإسلامي ، فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق قد جاء بنظام شامل يعنى حياة الإنسان في شتى نواحيها من المهد إلى اللحد . وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية .

وقد أكد غير واحد من أساطين علماء الشريعة في العالم أهمية الشريعة الإسلامية ، وما تحويه من ثروة زاخرة ، واستعداد لمجابهة الظروف والأحوال ، وما تشريع القانون المدني الحديث في مصر وسوريا والعراق على أسس إسلامية سوى دليل على ذلك . فعلمانية الدولة في البلاد الإسلامية معناها تنصل الدولة من الشريعة الإسلامية .

ولئن كانت العلمانية لا تلائم الشعوب الإسلامية بصورة عامة - وبغير هذا إلى التجربة التي حدثت في تركيا . وكيف طارض الشعب مبدأ العلمانية ولم يقبلها وأمكن إنشاء ما يقرب من ألف مسجد في القرى التركية تلبية لرغبة الشعب التركي - فإنها لا تلائم الأمة الإسلامية بصورة خاصة ، لأن الأمة العربية مدينة للإسلام في تكوينها الحاضر ، وحاملة رسالة الإسلام إلى الإنسانية جمعاء ، فالفصل بين الدين والدولة ، معناه تجريد الدولة من أهم مقوماتها .

والأمة العربية إذا انفصلت عن الإسلام وعن رسالته ، تصبح كجسم منفصل عن حياته وعن روحه . والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه ، وما أسهل دخول المبادئ الوافدة على اختلاف أنواعها في الفراغ في القشر للفارغ

(٤) يفسر دعاة المادية (المذهب العلماني) بأنه النظر إلى الأديان نظرة واحدة ، وإلى الثقافات نظرة واحدة ، وإلى الأمم نظرة واحدة . ويجعل هذا التفسير في أطوائه مفهوماً الأعمى . والعالمية . ويهدف إلى القضاء على روح الدين والوطنية ومفاهيم الأمم التي تقوم على أساس فكرها الخاص وثقافتها . ومن المستحيل أن تنظر أمة هذه النظرة إلى الأديان والثقافات . خاصة إذا كانت في موقف صراع مع الاستعمار ، وفي مواجهة مع العدو ، وهو موقف يلتزم فيه العدو كل الوسائل في سبيل انتقام ثقافة المسلمين والعرب ، والغرض من قيمهم ، وإثارة الشك حول مقوماتها ، ولا ريب أن مثل هذا الموقف معارض لكل الركائز الأساسية التي تقوم عليها الأمم ، وخاصة بالنسبة للمسلمين والعرب الذين يشكل الإسلام بالنسبة لهم مفهوماً أكبر من مفهوم العقيدة أو اللاهوت . فالإسلام بالنسبة للمسلمين والعرب منهج حياة ، ونظام حضارة وأسلوب ثقافة وهو إلى ذلك لغة وتاريخ وتراث . ومن هنا فإن هناك استحالة في تقبل مثل هذا المفهوم الذي طرحته الإرساليات والمعاهد التبشيرية والمحافل الماسونية والاستشرافية من أجل تدمير مقومات الأمم وإذابتها في كيان القوى الكبرى ، واحتوائها للقضاء على ذاتيتها ومقوماتها .

والمعروف أن أخطر المجالات التي اقتحمها الاتجاه العلماني في ظل النفوذ الاستعماري في المجتمعات الإسلامية : إنما تركز حول المصارف ، والقوانين الوضعية ومجالات التعليم والصحافة ومناهج الثقافة والتربية . وقد كان للإرساليات ، ومدارس التبشير وجامعاته أبعد الأثر في الدعوة إلى هذا الاتجاه . وهو هدف أساسي لتعطيم القيم الإسلامية وإبعاد النفوس والقلوب عنها وخاق التبعية الفكرية ، والسياسية والتشريعية والإدارية والتعليمية للغرب .

ويقول الدكتور محمد البهي في تصوير هذا الهدف من أهداف الاستعمار والتغريب . لم يكن أمامهم لكي يبقى المسلمون أتباعاً لهم ، إلا أن يعمدوا لاتجاه العلمانية من السيطرة فهو كقيل بإبعاد الإسلام أولاً عن مجال التوجيه والحياة العامة ، وفي الوقت نفسه كقيل بجذب المسلمين إلى الحضارة الغربية والتبعية إلى القيادة السياسية للغرب . وعنده أن الاتجاه العلماني هو الأساس (وليس الاستعمار المباشر) في هز قيم المجتمعات الإسلامية وهو كما يعبر عنه Sacalarism جملة من المبادئ والتطبيقات ترفض أي صورة من صور الإيمان بالله والعبادة له وتقوم على وجوب تنحية الدين وإبعاده عن الدخول في أي شأن من شؤون الدولة ، وعلى وجه الأخص في التربية العامة ؛ هذا الاتجاه لم يستطع أن يمارس نشاطه في حرية وانطلاق في الحياة الغربية بفعل السلطة المقابلة . وهي سلطة الكنيسة الكاثوليكية . أو دولة الفاتيكان ، ذلك أن الكنيسة افتحمت دائرة الدولة وبالأخص في جاتها السياسي وذلك بإنشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية كي تمارس سياسة الدولة وبذلك أيضاً لم يصبح الاتجاه العلماني في المجتمعات الغربية ذا خطر على الدين . وبعد فإن جملة القول : أن العلمانية هدف صهيوني ، يفسح المجال أمام القوى التلويديّة للسيطرة ، وفرض أهدافها ومطامعها .

ويمكن القول بأن ما يطرح الآن على الفكر البشري من مذاهب ودعوات ليس في حقيقته هدماً

ولأنها هو فلسفته . فالعلم يعرف بالتجربات داخل الماديات أما هذه النظريات ، فهي فلهذه والفلسفات
فروض ولا يباينون أن يفترض ما يشاء من النظريات ، مستمداً ذلك من واقع مجتمعه ، أو من
رواياه النفسية ، أو من أهوائه وأغراضه ، ولطالما كشفت هذه النظريات عن مفاهيم وعظومات ،
وليست العبرة بالنظرية ، وإنما العبرة بالتطبيق .

وانتقد طرح أفلاطون نظرية الجبروتية ، وأقيمت له الفرصة الكاملة للتطبيق فهل استطاعت أن
تحقق شيئاً ؟ أم حلتها الفشل في كلتا المراتين اللتين عرضت فيها للتطبيق ؟ وكذلك دعوات كثيرة
قديمة وحديثة ، مضمناً عليها أربعون أو خمسون من الأهواء كالشيوع ، فهل استطاعت أن تحقق المجتمع الذي
تصورته أيديولوجياً كأنه حلم الأجيال (أوطوبيا) السعادة ؟ هذه هي العبرة من النظريات إلى
الفروض الفلسفية وهنا نرى الفارق البعيد بينها وبين معطيات الأديان التي حققت قيام مجتمعات
ناضجة في سنوات قليلة استطاعت أن تشر في العالم كله السلام والعدل ، هذا فضلاً عن أن مقام
الفلسفة التي طرحها للتطبيق لم تثبت أن احتاجت بعد سنوات قليلة إلى تعديل بعد تعديل وإلى إضافة
بعد حذف .

(٥) ومن هنا يتقرر أن النظر الفلسفي الخالص لا يمكن أن يكون أساساً للفكر الإسلامي ولا
يمكن الوصول إلى الحقائق الأولية إلا عن طريق الوحي والفلسفة ليست قريبة الوحي ، ولا مناظرة
له ولا ريب أن أغلب الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر : هي مادية الأساس ، ولذلك فهي لا تقوم
على أساس الاعتقاد بالله الواحد الذي عرفه الدين الحق وهي حين تحاول الكلام في الألوهية . تؤله
المادة أو تؤله الإنسان ، أو تؤله المال ومنها من يجعل القريرة الجنسية محور نفسه الوجود .

وهناك عقائد ومذاهب تترجح بين الفكر والتثنية والتعدد والدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة
التوحيد من شوائب الاضطراب : هو الاسلام .

ولا ريب أن هذه المذاهب والفلسفات جميعاً تعارض الإسلام وتعاديها باعتباره صاحب رسالة
التوحيد الخالص .

وقد وجهت إليه حجة مركزة عاصفة في محاولة لاقتلاع جذوره ، والقضاء على وجوده . ومن
أخطائها قولها : إن الدين ليس إلا مرحلة من مراحل حياة البشرية ، أو أن الاسلام حائقة من حلقات
التاريخ . ولا ريب أن الدين فطرة ، وأن الاسلام واقع صلب ثابت مؤثر في البشرية كل أثر ، منذ
ظهوره إلى اليوم وإلى الأمد البعيدة وأنه هو العقبة اليوم في وجه الوثنية ، والإلحاد والمادية .

(٦) إن مصدر الأخطاء في دراسة قضايا الإنسان كلها أنها تقوم على أساس تصور ناقص هو
أن الإنسان جسد ومادة . ومن ثم فإن كل الحلول التي توضع لمشاكله لا تحقق شيئاً . ولا يستطيع أن

ثمحقق مطامحه النفسية . إنما يتجاهل السنن الطبيعية في خلق الإنسان من روح ومادة ولا ريب
لأن العناية بهمد الإنسان وحده في الحضارة الحديثة قد ضرب الإنسان في صميم روحه
ونقصه . ولا ريب إن المعرفة الربانية التي جاءت بها رسالات السماء هي أعقق فهماً للإنسان ،
وأكثر شمولاً ، وأوسع أفقاً وهي التي كشفت أمام الإنسان حقيقة الإنسان ، وهدته إلى الأسلوب
الصحيح لحل قضاياها .

وما تزال البشرية متمردة على المنهج الرباني ، ذامبة وراء أهوائها . فلا تصل إلى الحقيقة . فهي
تري الإنسان . إما روحاً كله ، وإما مادة كله . وفي كليهما فساد . وما تزال البشرية تنقل خارج
منهج الله بين المنهجين البشريين دون أن تصل إلى شيء إلا إذا طادت إلى مفهوم الأصالة المتكامل
الجامع بين المادة والروح وهو وحده الذي يمسحها ويهديها إلى الحق .

. . .

الفصل الخامس

العالمية

يمزوا الأمدال وليام غاي كار في كتابه الخطير : « أحجار على رقعة الشطرنج » ، فكرة الدعوة العالمية إلى مخططات التلويود والصهيونية العالمية ، وقد تمسكت هذه الدعوة في صور متعددة . في محاولة لإخلاء هدفها الحقيقي . فأطلق عليها حيناً وحدة البشرية أو وحدة الحضارة أو وحدة الثقافة العالمية ، أو الحكومة العالمية وكذا تعني أمراً واحداً وغاية واحدة وعبرة (وحدة الثقافة العالمية) عبارة خلاصة المظهر براقة الصورة ولكنها تخفي في أعماقها التمهيب والاحتقار للثقافات الإنسانية ، ومعناها في الواقع هو سيادة الثقافة الغربية ، وحضارتها وتسيدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ، ولا سيما الثقافة العربية والفكر الاسلامي .

وقد استمدت هذه الدعوة وجودها من منطقتين مغلوطة ومن منطق استعماري في الأساس هو ما أطلق عليه اسم « رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون » . والهدف الكامن من وراء هذه الدعوة هو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية الحاضرة وتذويب الفكر الاسلامي في ألوف العالمية ، أو احتواء مقدراته ودجمها في مفاهيم وقيم تختلف في جوهرها عن قيم الاسلام ومصادره الأصلية وينسأل هنريك رالف في كتابه (الإنسانية والوطنية) عما إذا كان يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق . أن تأخذ بالنزعة الانسانية وتضحي بالنزعة الوطنية . ويرى هنريك رالف : أن النزعة الانسانية يجب ألا تمتنعها إلا الأمم القوية أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة سحقها الأمم القوية ويعتقد هنريك رالف : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامعون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة ورغبة في بسط سيطرتهم وتفردهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ولقد علا صوت الدعوة إلى العالمية في مصر والعالم الاسلامي في الثلاثينات وحمل لواء الدعوة إليها أمثال سلامة موسى وغيره ولم تكن قد تمكنت بعد تلك الغايات البعيدة التي تحمل لواءها المخططات التلويودية في السيطرة على العالم ويرى كثير من الباحثين أن محاولة الغرب في توحيد البشرية إنما هي صبيها بالصيغة الأوروبية ، وطبعها بطابعها . والفضاء على مقوماتها وقيمها الخاصة وبخصيتها الذاتية ومثلها الأعلى وهي تختلف اختلافاً بيناً عن مقومات وفكر الغرب وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم ياتمسكون ما دعوا إليه الأديان من وحدة بشرية . فإن الفارق كبير بين غايات الأديان وغايات

نذهب بالذمة الوطنية. ويرى هنريك رالب : أن الذمة الإنسانية يجب ألا تمتنعها إلا الأمم القوية، أما الأمم الضعيفة فإن لم تستمسك بمقوماتها الخاصة سحقتها الأمم القوية .

ويرى هنريك رالب : أن أنصار السياسة العالمية هم أصحاب رؤوس الأموال والطامعون الذين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخاصة ، ورغبة بسلطانهم وتفويضهم على الأمم المهزومة الحقوق . ولقد حلا صوت الدعوة إلى العالمية في مصر والعالم الإسلامي في الثلاثينات وحمل لواء الدعوة إليها أمثال : سلامة موسى وغيره ولم تكن قد تكثرت بعد تلك الغايات البعيدة التي تحمل لواء المخططات التلويديّة في السيطرة على العالم .

ويرى كثير من الباحثين أن محاربة الغرب في توحيد البشرية ، إنما تعنى صبغها بالصبغة الأوروبية وطبعها بطابعها ، والقضاء على مقوماتها وقيمها الخاصة ، وشخصياتها الذاتية ، ومثلها الأهل التي تختلف اختلافًا بيناً عن مقومات فكر الغرب .

وليس صحيحاً ما يردده البعض من أنهم يلتمسون ما دعت إليه الأديان من وحدة بشرية فإن الفارق كبير بين غايات الأديان وغايات الصهيونية العالمية ، وإذا كان حمل لواء هذه الدعوة هم الذين يقولون بالعنصرية والتمييز الذي يتميز به الإنسان الأبيض أو من يدعون إلى شعب مختار فإنه من العسير أن تستجيب البشرية لمثل هذه الدعوات ، وإنما تكون الاستجابة لدعوة أخرى ، يحمل لواءها الدين الحق فتجتمع الناس بفهم ظلم ولا عدوان .

إن المراجع للدعوات الخدامة جميعاً من البهائية والروحية الحديثة وغيرهما يجد هذه الدعوة إلى العالمية أو الأمية Cosmopolitism وهي من نتائج المخططات التلويديّة والدعوات الضارة التي سيطرت عليها اليهودية العالمية ، وهي محاولة لاحتواء العالم تحت فكر معين ومذهب معين ولا ريب أن هناك خطراً كبيراً في الدعوة إلى العالمية ، على الأمم التي لم تستكمل وجودها الوطني ووحدتها القومية ، والتي تعاني احتلالاً أو غزواً أو سيطرة خارجية ، أو ما تزال دعاتهم فكراً لم تستكمل نضوجها لمواجهة الفكر البشري والوقوف معه موقف النقد للنقد .

الباب الثالث

دعوات هدامة للنفس والأخلاق

الفصل الأول : الفرويدية : الجنس = الأخلاق
الفصل الثاني : الوجودية . الفصل الثالث : المسيحية

الفصل الأول

الفرويدية

(نظرية الجنس)

(١) إن نظرية فرويد في التحليل النفسي ، هي مرحلة من مراحل المحاولات التي يقوم بها الفلاسفة في مجال استكشاف النفس الإنسانية وهي محاولات دائبة طويلة على التاريخ . وفيها الخطأ والصواب ونظرية فرويد : كنهرها من النظريات التي تتصل بالعلوم الإنسانية عبارة عن افراضات توضع موضع الاختبار . ولما كانت العلوم الإنسانية بطبيعتها تختلف عن العلوم الرياضية ، والطبيعية . فإن مخضوعها لمقررات التجربة العلمية المادية . هو إنكار للإنسانية الإنسان ، وإهدار للجانب الروحي والفكري والنفسى فيه ، هذا الجانب الذى لا تصلح للتطبيق عليه النتائج التى عرفها العلم عن المادة أو الحيوان ، غير أن أخطر ما فى الفرويدية . هو نقلها المعجبة والخطيرة للإنسان من النظرة التى كانت مقررة لدى الفلسفة الأوربية نفسها ، بأنه سيد الكون إلى القول بأنه حيوان تحكمه غرائزه أو أن الفريضة الجنسية هي المصدر الأول لمواقف الإنسان وتصرفاته هذا التحول الخطير إنما جاء من خلال تطورات مختلفة بدأت حين انحرفت النظرة إلى الكون ، متجاوزة الدين ومنكرة إياه ومتخلفة عن فهمه في الخالق والذاته في الأخلاق .

ومن شأن النظرة للمادية الخالصة أن تنكر أكبر مقررات الدين وهي المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وما يتبعهما من جزاء أخروي فإذا أسقطت هذا التقيد أصبح من اليسير . تقبل نظرة الانطلاق في مجال الرغبات والغرائز وهذا هو أخطر ما فى النظرة المادية التى أقام عليها فرويد فكرته في الجنس ودهونه إلى إطلاق الغرائز وتحريرها من قيود الأخلاق ، وضوابط الدين .

(٧) لم تكن نظرية فرويد في أصلها ومصدرها إلا فرضية ، طرحها هذا الطبيب الذي عاش عصره كله بين المرضى من الشراذ والمصابين بالاضطرابات النفسية وهم الرصيد الذي شكل من خلاله نظرياته ، وكون مذهبه وقد كانت هذه الفرضية تقول : إن دوافع الانسان جميعاً مصدرها الجنس غير أن الطببيين الذين اشتركوا معه في نظرية التحليل النفسي ومها أدلر ولونج ، اختلفوا معه وعارضوا وجهة نظره ومع ذلك فقد توارث آراء أدلر ولونج وبخسست واستعلت آراء فرويد وأذهمت وذهبت دفءاً شديداً إلى مجالات الدراسة في الجامعات والبحوث وأصبحت مصدراً للفن والقصة ولا شك أن هذا التركيز على نظرية لم تثبت علمياً وقد قررنا (واحد من ثلاثة) هو تركيز مريب وهو يكسب في وطرح أن وراءه غرضاً من أغراض السياسة ، وهوى من أهواء المطامع العالمية .

فإذا أضفنا إلى هذا هوية فرويد اليهودي المقيم في (النمسا) في مجتمع يكره اليهود ويمقد عليهم وما ثبت من صلته بهرتزل وانسبائه إلى الدعوة الصهيونية عرفنا إلى أي حد أمكن أن يدفع رأى كهذا حتى يسيطر سيطرة واسعة في دوائر العلم والأدب والثقافة ، ومع دوائر تسيطر عليها الصهيونية العالمية ومنها نشأت المرباطة ثم الوجودية . غداً أن الأمر لم يلبث أن كسفت عن أبعاد أخرى أشد عمقاً وخطراً فتدبر بين المقابلة العلمية الدقيقة والمقارنة المنهجية أن كل أصول فكر فرويد مصدرها التلمود وقد أبان ذلك بوضوح الدكتور صبري جرجس في كتابه « التراث الفرويدي وصلاته باليهودية الصهيونية » .

ولارب أن المراجع مراجعة دقيقة لأهداف التلمودية ، وخططات الصهيونية — كما كسفت عنها البروتوكولات — يستطيع أن يرى أن تدمير الانسان وتخطيم مكنوياته ، وتصويره على أنه حيوان تقوم بكل تصرفاته من خلال الجنس هو هدف حقيق . قد أمكن أن يوضع موضع التنفيذ وأن يعتق كأنه عقيدة صحيحة بين أمم وأجيال كثيرة .

(٨) عارض العلماء المتخصصون نظرية فرويد . وهاجوا من مواقع كثيرة (أولاً) لاحظ العلماء ، ومنهم (ردين فاين) أن التحليل النفسي بنية متحجرة لا تتغير بما جعل فرويد يقلب النظر أكثر من مرة في أفسكاره الرئيسية على ضوء الملاحظات وأن تعميمات فرويد قد طرأ على صفاتها تفهم كبير وكان فرويد يعتقد أن نظرياته صالحة للتطبيق ، ظهر أن التحليل النفسي ، قد أوقعه في تحجرات فقد خصوبته وسيطرته وليس من دليل يؤكد أن علم النفس في المستقبل سوف يتم على الأسس الفرويدية .

(ثانياً) إن نقطة الضعف في فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة وقد ترك فرويد في كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه ومواجهه ومشاكل صباه ، كيهودي في النمسا المتعصب ضد اليهود قاعدة كل تعميماته أن فرويد ليس خافه تماماً خلق العلماء إنه أشبه بمنقبىء منه بعالم .

(ثالثاً) ذلك أنه يرمى بنظرياته وآرائه دين أن يقدم البرهان العلمي والاعتماد الواقعي لأنه يفترض ثم يصدق ما يفترض ويبني عليه وكأنه حقيقة علمية لا يأتيتها الباطل ، وأنه من غير شك مخترع لفرضيات أكثر منه مجرباً لها .

(رابعاً) اعتمد فرويد على الأساطير اليونانية القديمة وأقام منها قوانين علمية كاهتمامه على عقدة أوديب وعقدة السكترا . وقد أثبت العلماء أن عقدة أوديب والعقد الأخرى ليست طبيعية المبدأ . وقد أثبت العلماء أنها ظاهرة إجتماعية ، قد توجد في مجتمع وتعدم في مجتمع آخر . وقال مالفينوفسكي الباحث النفسي : أن عقدة أوديب ليس لها أثر في أما كن كثيرة . وقال كلاباريد : أن فرويد وأتباعه كالبولم لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف اللاشعور .

(خامساً) سجل الباحثون أن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية ، وهو يعالج مرضاه . فقد اكتشف فرويد وهو يعالج الفتاة سيسيل المصابة بعقدة أوديب ، أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويفار من أبيه .

(سادساً) أشار كثرة من الباحثين إلى أن (يهودية فرويد) كان لها دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليقاته : ذلك لأنه كان ينتمي إلى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانفلاق والتعصب .

(سابعاً) فلسفة فرويد ميكانيكية جبرية تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة . (ثامناً) عارض يونج آراء فرويد وقال : إنها ذات جانب واحد ، وغير واضحة تمام النضوج وأن الدافع الجنسي ليس له هذه الأهمية الهائلة التي ينسبها فرويد إليه في حياة الطفل ، وأنه توكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة . وأشار أدلر إلى خطأ إرهابية السكبت ومعارضته له وبند أهمية الغيرة الجنسية وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة في القوة واتجاه الإنسان إلى التمويض عن نقص في كيانه .

(ثامناً) أشار الباحثون إلى أن فرويد . اعترف في مناسبات عديدة . أنه لم يكمل البحث وأن نظريته ليست مكتملة بذاتها . (٤) إن من أخطر أهداف فرويد هو تصوير السكبت كسيف مشهور على الأعناق . فقد صورته تصويراً خطيراً ، داعياً إلى إطلاق الطفل من كل توجيه وإلغاء كل الضوابط التي تحفظ منطلقاته من العثور والسقوط .

وقد جرت المحاولات من وراء فرويد لإذاعة هذه الآراء ، وإدخالها في مناهج التربية الحديثة ، بالرغم من أن هذه النظرية لم تثبت علمياً وقد عارض زملاء فرويد ما ذهب إليه من إرهاب في هذا الصدد ، وما حاول أن يصوره من مرض نفسي أو جنون نتيجة العقاب أو السكبت وقد أثبتت التجارب الإحصائية المتعددة ، أن ضرب الطفل أو إرهابه لا يؤدي إلى النتائج التي افترضها فرويد .

وأعلن الدكتور اسكندر توماس : أن هداً من البحوث قد أجرى بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين ، انتهى إلى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة وأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء ، كان هو

المسلك للدمر في تربية الأبناء . ويقول العلماء أنهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين ، بينهم الفقراء والأغنياء ، وتبين أن الأولاد نشأوا أصحاء مستقبليهم بالرغم من قيود النظم القاسية التي طاعلم بها الآباء وأشار الدكتور توماس : أن دسمة العقل يتأثر بهدد كبير من الدوامل وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها . (٥) وقد استعرض كثير من الباحثين نشأة علم النفس الحديث فقالوا إن علم النفس نصح - حين تواضع وأخفق - حين حاول أن يحل محل فلسفة الأخلاق .

يقول الأستاذ أحمد عاكي : حين أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحمله من مباحث التحليل النفسي ، وبما تتضمنه من وصف نفسية الجماعة ، حينما أبدى كل ذلك . تطرق الشك في قيمة الفكرة وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس الماطان الذي كان لها في الماضي . ويرجع الشك في قيمة الفكرة ، إن علم النفس الحديث ، يرى أن الإنسان هو أمام جملة من الدوامل التي لا يحكمها العقل . وعلم النفس لا يستطيع أن يخاق لنا مثلاً أهلي ، لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ذلك لأنه عالم وصفي . وهذا في نطاق ضيق من التجارب ولأنه عالم تجريبي فقد عاجل حالات شاذة وغير شاذة ، من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلاً لتحقيقها ففي علم النفس على فلسفة الأخلاق فقد العالم كنهراً من الغايات التي كان قد استقر على الإيمان بها واستنزف قادة الفكر على حالة من الشك طافت بنفوسهم ، حتى أصبحوا يشكون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

(٦) كشف كثير من الباحثين الصلات العميقة بين الفرويدية والأيولوجية النلودية . وإذا رجعنا إلى البروتوكولات وجدنا هذا النهى : يجب أن نعمل لتنهال الأخلاق في كل مكان ، فسهل سيطرنا ، إن فرويد منا ، وسيظل يمرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبق في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية . وعندئذ تنهار أخلاقه .

في ضوء هذا كان عمل فرويد فسكات نظريته : إن الأخلاق تعوق التطور ، وأن الكبت ضار بكيان الإنسان ، وأن القسامح نوع من الشذوذ ، وأن الأخلاق تقدم بالقوة وأنه من أجل تهذيب أخطار العقدة والاضطرابات يترك الشباب بدون توجيه أو ضوابط والمهدف هو تحطيم الأخلاق والقضاء على المسؤولية الفردية .

والمعروف أن فكر فرويد لا سند علمي له ، وأنه أحقاد وضعت في قالب براق ، وأنها وجدت وقودها في تطالع النفس الإشترية إلى الإباحة وقد وجدت من الفلاسفة سندها ومبررها ، وأنها وجدت لمجتمع معين ، وأنها استمدت كل مفاهيمها من وثقيات الفكر اليوناني ، واتصلت بينات وأديان فهو الاسلام . وأن القوى الخفية ، قد حملتها إلى الأدب ، والقصة والمسرح ، والسينما ، والإذاعة وبيوت الأرياء ، وأدوات الزينة .

(٧) ولا ريب أن فرويد هو ثمرة الأيولوجية النلودية في أدق دراجها . وقد أشار إلى هذا المعنى عدد من الباحثين : (سيغوند فرويد) هذا الرجل أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه

تخطيطاً كاملاً ، ومن يقرأ فرويد : يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً . أراد أن يصم الجنس البشري بأنه جنس متحلل . ينطوي على أسوأ الذوايا وأخس الرغبات حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يمشق أمه ويريد أن يقتل أباه ، وبنى فلسفته ومذهبه على هذا حتى جعل الناس جميعاً يشكون في كل فضيلة وكل عاطفة رفيقة وإذا انحز رجعنا إلى المدفرايناكيف مهدت الصهيونية لاستيعاب الرأي العام المسيحي في الغرب ووقفت وراء الوعادات العلمية ، ووراء عالم الطبيعيات (دارون) ونقلت مذهبها إلى تشكيلك المجتمع الانساني في طبيعة الخلق ، ووراء نيتشه وهو ينادى بسياسة القوة والارحة . ثم السيطرة على العلوم والفكر . وبالسيطرة على الفكر العالمي عن طريق التعليم والثقافة ، يمكن القضاء على كل فسكر . وزرع الشك والريبة في كل أفق للوصول بالفكر البشري إلى مرحلة المحيرة . ومن يتابع تاريخ الفلسفة ير دور اليهود في ذلك . وكيف قام رجالهم (فرويد ، ماركس ، دور كايم ، لينين بريل ، سارتر) على بناء الفلسفات المدمرة للقيم الانسانية .

وقد أشارت مخططات الصهيونية العالمية إلى ضرورة تخريب العالم ، قبل السيطرة عليه . وإن أم الأهداف التي يمكن القول دون تردد بأنها حققت نجاحاً ، هو احتواء الفكر الغربي والسيطرة عليه وتحويله ودفعه إلى الغايات التلودية ، وذلك بإسقاط الإيمان بالله وإسقاط الاخلاق وإسقاط الجواز الآخرين . (٨) نقل الاستاذ عباس العقاد عن عدد كبير من ترجموا لفرويد وخاصة ما كتبه الدكتور أرنست جونس . أكبر تلاميذ فرويد الاحياء في الجزء الثاني من ترجمة فرويد . قال : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحد من الإطلاع عليها . وأنه كان يحيط نفسه بأهوان من اليهود . وأن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو وعدتهم نحو أربعة آلاف قد فوجئوا بمحطة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجل مسؤول عن مركزه العلمي والرسمي هو : الدكتور بريسفال سيل ، مدير معهد النفسيات بولاية نيويورك .

وخلاصة حملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه بها وأن آراءه لا تضيف شيئاً إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسانية إلى أغوار الباطن ويهمل جانبها المنطقي الشاعر ، وأنه لم يكن يفهم للراءة ولم يكن يتذوق الموسيقى ، ولا يحس جلاله المعقيدة وقال : إن العالم استطاع أن يضع فرويد على المقرحه بعد أقل من عشرين عاماً من وفاته .

ونقل الاستاذ العقاد عن مترجم حياته : الدكتور أرنست جونس : إن فرويد كان عرضة للاغواء على أثر بعض المفاجآت . وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى هلائها سريره الباطنة ، وكانت له طروب من القلق تم عن باحث من براحت الحيرة المستتومة ، وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب في سبيل التشبث بالتفسير الجنسي للمقائد والعادات تشبثاً يربو في إصراره وشدهته على تمصص المنعصب الدود لمذهبه ودينه .

ومن قوله ليونج : عدني أنك ان تنخلي يوماً عن الإيمان بالآلهة الهات الجنسية . إلا أن ليونج لم

يأبى أن تزوح بنفسه شيئاً فشيئاً عن ذلك الاغراق في العصبية الجنسية التي تهيئ بكل قوة ، وتتغلغل وراء الأبرار في أعماق كل طوية . وقد خالفه تلميذه الفرد أدركا خالفه يونج وفرويد كان مجموعة من العقدة النفسية والعادات الغريبة . ولم يستطع أن يشق عقله الباطن من هذه العقدة النفسية إلى آخر حياته كان يذوق الاسماء ومنها أسماء معارفه وكان يتتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحرب العالمية الأولى فأت في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليمد من ثوراته العصبية وكان في طفولته يذوق نفسه ليلاف فراشه وكان يحرق من السفر بالقطار ويحضر إلى المحطة قبل موعد السفر بنحو ساعة وكان دائم العزلة لا يسمح لأحد أن يصارحه طويلاً .

(٩) وفي السنوات الأخيرة جرت أبحاث عديدة عن سقوط الفرويدية ، بعد أن تعرضت في العقدين الآخرين إلى هجمات متوالية وحالات عنيفة استهدف تجريدها من العلمية ، وقد أشار الباحثون إلى أن المؤتمر الذي عقد في إنجلترا ١٩٧٠ الأطباء النفسيين ، قد كان نقطة تاريخية خاطئة . فقد ألقى العالم النفسي (إلميو سلتير) كلمة أعلن فيها أن نظرية فرويد : ليست علماً ، بل هي أسطورة (ميتولوجيا) ولدت في رحم خصب من اللاعلمية . وقال سلتير أن نظرية فرويد سوف لا يكون لها مستقبل وأشار إلى ما صرح به (كارل بوهر) من أن التحليل النفسي فشل في إيجاد نظرية لا يمكن دحضها .

وجاءت ضربة أخرى على الفرويدية في حلقة دراسية نظمها أكاديمية العلوم في نيويورك وضمت ١٨ فيلسوفاً حيث استنتجوا علم التحليل النفسي لفرويد من ميدان العلوم وكانت وجهة النظر أن النظرية خلاصة لنظرية فرويد برزت قبل نصف قرن ، كان يجب أن تكون الآن علماً له مكائنه وأساسه ولكنها لا تزال تدعو للخيال والرائاء لأنها لم تمتد حدود النظرية ويقول العلامة سلتير : أن نظرية فرويد ، فرقت علماء النفس . وأن علم الأمراض النفسية يعاني من جرح عميق أحدثه جرم غريب هو نظرية فرويد وهو جرم غريب لسببين الأول أنه لا يمت للعلم بعلة والثاني لأن ما يقدمه وبحقه للمريض يختلف عما يحققه العلم الطبي في أي فرع من فروع .

ثم قال : إن إزالة هذا الجرم الغريب لا تكفي بل باتدمال جرح العلوم النفسية ويقول غري الدباغ بعد أن استعرض عشرات المواقف التي وقفها العلماء في مواجهة نظرية فرويد : من كل ما تقدم ، زعم أن ما يؤخذ على نظرية فرويد هو أنها غير علمية ولم تخضع نفسها بما فيه الكفاية للتحليل والإحصاء والمقارنة وأنها أحدثت الفروقة والنزاع بين علماء النفس وأنها أشبه بأسطورة وعقيدة ذات تقاليد صارمة ينصاع لها المؤمنون والاتباع والمعالجون على طريقتها . ومن الطبيعي ألا يتوقع إبقاء نظرية أسطورية خرافية ، طيلة هذه السنين دون تصدع ، أو إنحدار أو تدهور .

(١٠) أشار الباحثون الذين يحملون فكرة الفرويدية الجديدة إلى أن هناك تناقضاً كبيراً قد ظهر

خاصة في فرويد الجنس والموت ودفقة أوديب والجنس عند الأطفال وهذه هي النقطة الأربع التي خاف فيها فرويد الفطرة الانسانية ، والأديان وطارس الأخلاق ويقول جوزيف رينولدز : توصل علم الجنس إلى نتائج وشواهد هائلة ، تدحض بعض الافتراضات المبدئية لفرويد مثل فرويد الجنس والموت ومراحل الجنسية الطفلية الفرويدية وعقدة أوديب وأن التجارب التي أجريت لاختبار بعض هذه المفاهيم أكدت ذيفها وأثبت ذلك روبرت سيرز ، في كتابه : نظرة على الدراسات الموضوعية في مفاهيم التحليل النفسي فقد انتهى إلى القول : بأنه قياساً على معايير العلوم الطبيعية ، يتضح لنا أن التحليل النفسي ليس حلاً حقيقياً ، فالتحليل النفسي يرتكز على تكنيك لا يسمح بتكرار الملاحظة ولا يملك بنية واضحة تؤكد صوابه ، ثم إنه مصبوغ بصبغة غير معلومة بالإيعاءات الذاتية للملاحظ .

ثم يصل إلى المحررين يقول : إن نظرية التحليل النفسي القائمة على غريزة الجنس الثابتة والموجهة السلوك ، حيزت عن تقديم تفسير شاف عن هذه الحركات الواهية التي تولدت كرد فعل لظواهر اجتماعية محددة ، وأن التجارب التي أجريت بين طوائف العمال والشباب والفلاحين ، والنوج ، أثبتت عدم صحة ما ذهب إليه فرويد .

(١١) ومن ناحية أخرى . فإن العالم النفسي (إيفان بافلوف) أعلن أن نظرية فرويد ، وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات إلى أسس جنسية مجتة ، هي معول هادم لنفوس الشباب ومخدر يميح لنفوس أبناء الشعب ويرد بافلوف مصدر الانحراف إلى البيئة كما ردها أدار إلى تأكيد الذات وتعويض العمور بالنقص . كما ردها يوانج إلى النزوع نحو التفوق .

الأخلاق

(١) كان أخطر ما طرح في مجال الأخلاق : نظرية ليفي بريل القائلة بمعارضة ثبات الطبيعة البشرية ، وافترض أن كل عصر ، وكل جنس له أخلاقه وهذه هي أصرح دعوة لهدم الالتزام الأخلاقي والتحلل منه وهي حلقة في نطاق الحلقات المتوالية التي طرحها الفلاسفة المادية . في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع والنفوس ، لاستكمال حلقة السيطرة على البشرية ، وتوجيهها وجهة مغايرة لفطرة والمفاهيم الإنسانية الصاعدة الثابتة ، التي جاءت بها الأديان ، وجاء بها الإسلام خاتماً لها .

ولاديب أن محاولة صدع حقيقة وحدة الطبيعة البشرية ، هي محاولة جريئة . ذلك أن أفراد الجنس البشري توجد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، تتصل بوحدة التركيب البيولوجي ، والعقلي والاجتماعي للإنسان من حيث هو إنسان . وإن آثار البيئة أو الجنس أو العصر هي مسائل محسوبة في نطاق النظرية الكلية الجامعة ، وأن الاختلاف فيها بالزيادة أو النقص ، لا يغير من القاعدة الأساسية ومن الصفات الجوهرية الثابتة . ولا ريب أن النظريات الفلسفية . التي ظهرت في نطاق الفلسفة المادية .

قد حاولت في المرحلة الأولى ، إخراج الأخلاق من نطاق الدين وهو لها من تبعته وخاق منهج أخلاق منفصل يقوم على فكرة الواجب . ثم جاءت المرحلة الثانية ، وهو العدول نهائياً عن مهمة علم الأخلاق في تحديد قواعد السلوك . وقصره على دراسة الأخلاق على أنها ظواهر إجتماعية ومعارضة الحقيقة القائلة بأن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان .

(٢) قامت هذه للذاهب الفلسفية في اتجاه الأخلاق على الإباحة ، ومعارضة الضوابط ووصفها بأنها حرمان وكبت . وقد استمدت مفهومها هذا من الفلسفة اليونانية الوثنية التي عرفت بالآلية دورية والتي ترى أن الذة الجسمية هي الغرض الاسمي من الحياة وبذلك أخرجت الفلسفة الحديثة الأخلاق عن مفهومها الطبيعي بوصفها الجدار القوي الذي تقف عنده مطامع الإنسان وأهواؤه ، والمائل دون تدمير الفرد لنفسه وإقامة الضوابط للكفيلة . بسلامته ولا ريب أن الأديان والأخلاق جزء منها ومرتبطة بها) ولا سبيل إلى أن تنفصل عنها ، تعمل إلى إقامة بناء الإنسان على قواعد من الثبات والصمود في مواجهة أحداث الحياة وحماية كيانه من الإنهيار تحت صدمات المواقف ، أو أخطاء التصرفات ولذلك فقد كان هدفها هو إجراء عملية ضبط يقطعة دائمة تحمي الإنسان من أخطار شهوره ورفقاته ومطامعه ، والحد من قواه المدفوعة إلى الشر والرذيلة وقد ظلت ضوابط الأخلاق مرتبطة بالعقيدة ، حتى يكون لها التزامها الحقيقي وهو الالتزام المرتبط بالجزاء الأخروي . ولا ريب أن الإيمان بهذا للجزاء الأخروي . ولا ريب أن الإيمان بهذا الجزءاء بعد البعث والحساب هو العامل الأكبر في إعطاء للمسؤولية الأخلاقية مكانها الحقيقي وأن الإنسان إذا تجاوز هذه الحقيقة عجز عن أن يجد الرادع الذي يردده ، فإذا ما جاءت الفلسفة المادية وحطمت أمامه كل جدار ، وأنكرت كل مسؤولية وجزاء وبغت فإن الأمر قد أصبح بالنسبة له خطيراً وقد أصبح أشد خطورة بتحريره على الاندفاع نحو مطالب الغريزة وأهوائها وإطلاق يده نحو عمل كل ما يريد على النحو الذي تدهو إليه الوجودية وبذلك فقد سقط الإنسان في هوة خطيرة وأزمه كبرى هي أزمة القلق والضياع التي تمر بها البشرية في الغرب في هذا العصر . ونحن نعرف الهدف مقدماً ، ونعرف أن الأيدولوجية اليهودية خططت له ، وأن بروكولات صهيون قد أشارت إليه في صراحته تامة . وفي ضوء هذا كله فإن أي نظرة إلى مفهوم الأخلاق داخل نطاق الفلسفة المادية ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى شيء ما ذلك لأن نطاق البحث أساساً هو : ما هو هدف الإنسان في هذه الحياة ، وما هي مسؤوليته الفردية والتزامه الأخلاقي .

إن النظرية المادية لا تستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، والذين يؤمنون بالعلم وحده لا يصلون إلى شيء وقد قال ليونارد دارون : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك . وإنه إذا كانت هناك إرادة حرة . فلا بد أن يكون هناك شيء خارج العلم ولا تقف الفلسفة المادية عند عجزها عن تحديد هدف الإنسان في الحياة . بل إنها ترفض فكرة هذا الهدف . ويقول للفلاسفة إن ظهور الإنسان على هذه الأرض كان طارحاً . وليس مقصوداً . وقد وقد علماء الاقربولوجيا وجلهم من اليهود إلى أن المجتمع البشري ليس له هدف أما المؤمنون بالدين الحق ، والذين ينظرون إلى الحياة وقضاياها في ضوء

الحقائق الكبرى التي ألقاها الإسلام ، وكشف عنها القرآن ، فإنهم يرون أن الحياة غاية ، وغاية كبرى وأنها مسئولية وأمانة الإنسان ، وامتحان لمقدرته على حمل مهمة الاختلاف في الأرض ، وأداء دوره في العمران والبناء في ظل حدود الله والضوابط التي حددها من الوجهة الأخلاقية والاجتماعية وأن هذا السكون لا يمكن أن يكون قد خلقه الله باطلا ، وأنه له غاية ، أحسن مما أعما خلقناكم عبداً وأنكم إلينا لا ترجعون . ومن منطلق الفهم الرباني الشامل غيد المادى المنحصر تتكشف أهمية الأخلاق في بناء الأفراد والمجتمعات ومن الواضح ، أن الحضارة المعاصرة قد نعت الدين والأخلاق جانباً . وأغفلت تماماً الجانب الروحي والنفس من الحياة وركزت على الجانب المادى وحده . وأعطته مداه ومنطقه إلى أبعد الغايات . وبذلك أحدثت خللاً خطيراً ، هو مصدر الأزمات التي يعانيها الإنسان المعاصر اليوم .

يقول العلامة جود في كتابه « سخافات المدايه الحديثه » : إن هذه المدايه ليس لها توازن بين القوة والأخلاق ، فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ومنذ عصر النهضة ظل العلم في الارتقاء والأخلاق في الانحطاط حتى بعدت المسافات بينهما وقد تقدمت العلوم خلال القرون الأخيرة في جميع الميادين بلا استثناء في حين أن الأخلاق لم ترتق إرتقاء متناسباً مع تقدم العلوم بل إن تقدم العلوم قد أحدث هذه الفجوة الخطيرة حين اتخذ من بعض أساليب العلم وسيلة لهدم الأخلاق ، وتعزيز ثباتها ، والدعوة إلى ربطها بالمجتمعات وعزلها عن مصدرها الاصيل : الإنسان .

(٣) إن الأخلاق في مفهوم الاسلام ليست نظرية ، ولكنها تطبيقية وليست مثالية ، ولكنها واقعية ، ومن ثم فقد تجاوز الاسلام بها خطر الطوحيات الخيالية ، التي تعجز أمام الواقع وتبدو مستحيلة أمام طبيعـة الإنسان نفسه ولقد بدأ الاسلام من نقطة أساسيه : تلك هي الاعتراف بالريـاض والمطامح البشرية على أنها حقيقة واقعة ، ثم تحقيق هذه الرغبات مع وضع الضوابط والحدود التنظيمية التي تحول دون الصدام أو الفساد . وبذلك تجاوز الاسلام الخطوين القائمين :

خطر دفع الإنسان إلى الصعود على النحو الذي يخالف به الفطرة ، أو يحول بينه وبين التوازن عما تدعو إليه بعض العقائد من زهادة وانفصال عن المجتمع أو خطر دفع الإنسان إلى الهبوط على النحو الذي يخالف الفطرة أيضاً عما تدعو إليه بعض الفلسفات من إباحية وإسراف على النفس والمجتمع . فالإسلام حين يضع الإنسان في الموضع الطبيعي المتصل بفطرته وطبيعته ، ويمكنه من ممارسة كل رغباته . إنما يحول بينه وبين الخطر المترتب على الإطلاق التكامل أو الانفلاق التام وهو في نفس الوقت يجعله قادراً على تحمل المسئولية الفردية والائتزام الأخلاقي اللذين يصدران عن حرية الإنسان في الاختيار وإراداته السكاملة مما يؤهله لتحمل المسئولية هذه المسئولية هي الجزاء الذي يتم في اليوم الآخر . يوم البعث وهو الحقيقة التي قررها الدين الحق والتي تضع الاجابة الحقيقية على السؤال الحائر عن وجود الإنسان في هذه الحياة وعن الحكمة من الحياة الأرضية ولا ريب أن كل محاولة الخلق منهج أخلاقي للإنسان (بعيداً عن هذا المفهوم) عن النجوى الذي قال به الإغريق القدامى أو الفرييون خلال

فترة اتصالات الثقافة الأوروبية بالمسيحية . من أن الانسان يستطيع أن يبني الاتجاه الأخلاقي على العقل والإدراك ، أو الواجب أو الوازع الداخلي أو الارتفاع بالنفس عن الدنايا . كل ذلك زيف لا يستطيع أن يحقق الالتزام الأخلاقي ، أو يجعله في نطاق الفطرة كما تفعل الحقيقة التي جاءت بها الأديان . والتي تتجلى في الاسلام على أروع صورته فقد أقام الاسلام الاخلاق على أساس الايمان بالله وفي نطاق العقيدة ، ومن خلالها وأبكر إمكان قيام أخلاق من خارج الدين . ذلك أن منطق المسؤولية الأخلاقية ، إنما يرتبط أساساً بالاعتقاد بالله والايمان بالبعث والجزاء والدار الآخرة وبأن الله يعلم وبحاسب على كل تصرف .

وقد أشار الرسول محمد ﷺ إلى أنه إنما جاء ليتمم مكارم الاخلاق فالمفهوم الأخلاقي الرباني ، قد استمر في الحياة البشرية ، متصلاً بالأديان إلى أن استوفى صورته الحقة في الاسلام ، وقد أقام الاسلام مفهومه الأخلاقي على التقوى (وليس على الرهينة والسعادة) وأقر تحقيق الرغبات في حدود ضوابط التي تحفظ النفس والمجتمع والأخلاق في حقيقتها : تركية للنفس وتصعيد لها ، وإعلاء بها عن الشر والإباحة والانهيار وفطم لها عن الشهوات . ولا ريب أن الدعوة إلى التماسي من خلال الواقع . قد جاء الاسلام فيها بأصدق قاعدة ، وانفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهما . وقد غاب من دساها .

ومفهوم الحرية في الأخلاق الإسلامية : هو تحرير الانسان من كل قيود العبودية وفي مقدمتها تحريره من شهواته وعبوديته لأهوائه ، وتحديد معنى الحرية بأنها ستنتهي عندما تصبح هدواناً على حرية الآخرين .

(٤) إن نظرة الفلاسفات الغربية إلى النفس على أنها شريرة بطبيعتها ، وأن الانسان محكوم عليه بالخطيئة هي نظرة لا يقرها الإسلام وإلّاها ترجع كل التحديات التي اتصلت بالمفاهيم العقائدية والأخلاقية فقد انطلقت المفاهيم الغربية من فرضية - كانت ولا تزال عرضة للشك والارتياب - ولم تنطلق من أصل ثابت عندما قامت على فكرة الخطيئة . وفكرة الخطيئة فكرة فلسفية قديمة ، تجمدت في الفكر الغربي المسيحي بصورة جديدة ، ولم تكن في واقع الامر حقيقة تاريخية أو علمية . ولقد حاولت فكرة الخطيئة ، السيطرة على الفلسفة الغربية وعلى الأدب والقصة كما كانت بعيدة الأثر في مفاهيم الأخلاق وفي تفسير غاية الحياة . ووجود الانسان على الأرض ، وهي تنظر إلى الانسان نظرة متشائمة مظلمة ، وتقرر أنه شرير ومن هذا المنطلق تفمر استعداداته للانتقام والعدوان والتأثر والسيطرة وترد ذلك كله إلى الخطيئة الأولى ، التي كانت مصدر خروج آدم من الجنة ، وترى أن هذه الخطيئة سيف وصلت على رقاب البشرية منذ اليوم الأول إلى نهاية الحياة ولقد كشف الاسلام عن حقيقة آدم وعرف كيف أنه حين أخطأ تاب الله عليه . وأن خطاه كان خاصاً به وحده ، وأنه ليس مرتبطاً بأي فرد آخر من أفراد الجنس البشري .

الفرح وليس مطلوباً لقائه ، بل لتحقيق هذه الغاية العليا . وله ضوابطه من الزواج ومن حياة الكيان البشرى وتدور الأخلاق حول حياة الفرد من الحقوق والالتزامات والاندماج والتحلل ومن هنا تهتم ضوابط الطعام والمال والجنس ، بهدف إبقاء الأجيال البشرية قادرة على العمل وليس ساقطة تحت أقدام الشهوات ، فهي قادرة على المقاومة والمضال . ولما كان الإسلام ينظر إلى الإنسان ككل ، فإنه يعمل على الموازنة بين عقله وقلبه ، وبين حاجاته وغاياته ، وبين روحه وجسده في سبيل الغاية العليا : وهي ترقية الحياة والارتقاء بالإنسان إلى الصورة الكريمة التي تليق به كاستخفافه في الأرض . وقاعدة الإسلام الأخلاقية : هي أنه لا يمنح الإنسان شيئاً من رغباته ، ولكنه يحميه منها بأن يضعها في قوالب ، ويضع لها ضوابط . وخاصة فيما يتعلق بالطعام والمال والجنس والبقاء .

(٦) لا ريب أن الأخلاق الإسلامية تسيج وحدها ، ومنهج متميز ، فليس هو مفهوم اليونان الداعي إلى السعادة والقدرة ، ولا مفهوم العقائد الداعي إلى الزهد وليس الأخلاق الإسلامية هي فضائل الجاهلية العربية . وإنما هي منهج متكامل مرتبط بالعقيدة ، يترف بالإنسان ككل ، ومؤثر في كل جوانب الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وأدب ، وتربية وهي منهج عملي وليس نظرية فلسفية ، وتقوم على مبدئين : الالتزام والجزاء الأخرى ، وتشكل من خلال تقدير الإسلام وتقريره للتراث والقبول في ممارستها مع ضبطها ، وليس في الصرع عنها ، أو احتقارها وينطلق في اتجاه المقدرة وسرعة الظروف والوسع ، والمفرد والسماح عند الاضطراب وتقبل التوبة عن الخطأ . فضلا عن انصاف منهج الأخلاق الإسلامية بالوسطية والواقعية وارتباط المطلق فيه بالنسبي والمثالي بالواقعي وهو في نفس الوقت قد دحضت العقائد بفصل الأخلاق عن الدين أو القول بأن الملاحدة يستطيع أن يكون أخلاقياً . وقد أقامت القواعد الأخلاقية الإسلامية جداراً قوياً ضد الفوضى والظلم والفساد عامة ، وبقيت في نفس الوقت مرنة تسمح للأجيال المتعاقبة بالعمل داخل إطارها الواسع .

ومن أبرز الملاحظات في هذا الصدد ، تفرقة الإسلام بين الأخلاق الثابتة والتقاليد المتغيرة . فالأخلاق ثابتة لانصافها بالإنسان (لا تبديل لحق الله) ولائها متصلة بالقيم العليا للدين كله . أما التقاليد فهي متغيرة ، لأنها متصلة بالوسائل العارضة ولائها من صنع الناس والأخلاق الإسلامية . تختلف اختلافاً كبيراً عن مذاهب الثقافة أو السعادة أو الواجب وهي في مجرعتها أخلاق تقوى .

(٧) الأخلاق وفكرة وحدة الوجود أجمع العلماء على أن القول بوحدة الوجود نفي الألوهية وإثبات الكائنات وحدها ووحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله ، وتعميد مانع القول بوجود المادة فقط مادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم . فالقول بأن الله داخله صورة أخرى للقول بنكراته والقول بوحدة الوجود تفككه هندی قديم .

والمسلمون يؤمنون أن الله هو واجب الوجود ، وهو سر سرمد لا يحده زمان ولا مكان وأن ممكن الوجود هو كل ما سوى الله عما خلق - ولا ريب أن القول بوحدة الوجود هو أخطر رسم مفهوم موجه إلى الالتزام الأخلاقي ، كما جاء به الإسلام ، إذ أنه يلغى المسؤولية الأخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب .

الفصل الثالث

الوجودية

(١) من الدعوات الهدامة التي راجت رواجاً كبيراً في العالم كله : د الوجودية ، وقد شملت جانبين : جانب الفكر ممثلاً في الآراء والنظريات التي طرحها دعاؤها القدامى والمحدثون وأهمهم كهر كجورد وكامى وسارتر . وجانب التطبيق ممثلاً في الجحور والمخيمات والصور المختلفة التي أولتها الصحف العالمية اهتماماً كبيراً ، ووجدت من الشباب التفاناً وإعجاباً .

وقد وجدت الوجودية صدى واسعاً في بعض البيئات لأنها جاءت بعد أن أفسحت لها الطريق مذاهب وأفكار من المادية ، وإنسكار الله وإنسكار البعث وما حملته الرياح من أفكار تقول بإعلاء الجنس وإباحة الرغائب وتصل إلى القول بأن الإنسان خاضع لما يقرره العلم بالنسبة للحيوانات والمادة وقد سادت في السنوات الخمسين الأخيرة موجة من التنسك للاديهان والأخلاق في العالم كله ووجدت فيها مثل هذه الدعوات مجالاً خصباً للازدهار والانتشار وقد كانت الوجودية رد فعل لاشياء كثيرة منها : الدعوات التي ترى أن الإنسان ليس إلا د ترساً ، في آله كبيرة ، ليس له وجود أو كيان منفصل ، ومنها صيحة الحرب المدمرة ، وما حصدت الحرب العالمية الأخيرة من أرواح وما يزال يهدد العالم من أخطار الصواريخ والقنابل الذرية كل هذه الأخطار حين تواجه النفس الإنسانية التي تهردت عن الإيمان بالله لا تجد طريقاً لها إلا الاتجاه في طريق الإنحلال حيث يتصور أن الحياة هي الغاية الوحيدة وهي في نفس الوقت غاية مهددة بالزوال في أى لحظة هذه هي النار التي توقد الوجودية تحتها وهذه هي الصيحة التي ترفعها لتخدم الهدف الكبير السكمن من ورائها وهو إشاعة الإنحلال ودفع الإنسانية إلى الدمار الأخلاقى .

ومن هنا يجد الشباب في صيحات سارتر ، والبير كامى أصدااء مشاعر تطوف بالنفوس ، ثم لا تجد لها طريقاً إلا نهر العذب والإباحة وتدمير القوى الإنسانية وتدمير الوجودية حول عدة مفاهيم تصدر أساساً عن العقل المكدرود ، والنفس المقلقة ، ولا تصدر أيضاً عن الإنسان في طبيعته الأصيلة ولا فطرته السليمة . وتتلخص هذه المفاهيم في هذه الصيحات .

إن الحياة بلا معنى ولا هدف . وإن العالم وجد كي يموت فيه الإنسان وإن الفكر محكوم عليه بالوحدة . وإن الإنسان محكوم عليه بالقلق وما دمننا سنموت ، فليس لآى شىء معنى وإن مفاسرتنا البشرية لا جدوى لها اليوم كالغد ، والغد كبعث الغد ، وإنه لا طعم لشىء ولا لذة لشىء ، ولا أمل في شىء ، ولا بأس من شىء . هذا العالم وجد بلا داع ويمضى لغد غاية يولد كل مولود بدون سبب ومثل

وبلا دواع وتمتد حياته بواقع من الضعف ثم يموت بالمصادفة، العالم كله خداع في خداع إننا موجودون حقاً . والعالم يعطى إلى غير غاية .

(٢) يمكن القول بأن الوجودية : هي إحدى محاولات الفكر الغربي في فهم الحياة فهماً منفصلاً عن الدين والأخلاق ، في نطاق النظرية المادية وهي تنطلق من نفس منطلقات الفكر الغربي القائم على الإنشطارية حيث ترى النظرية الماركسية ، تحمل مشكلة الحياة في مجال الإقتصاد . ترى النظرية الفرويدية تركّز على مجال النفس ، وعمرى نظرية ، سارتر ، تقف عند الرفض المطلق لكل القيم الروحية والمعنائية كحل في سبيل القول بحرية الإنسان .

ولا ريب أن استعلاء نظرية فرويد في التركيب على الفريضة الجنسية وتشابكها مع نظرية لينغ بريل في القول بأن الأخلاق ليست ثابتة ، قد فتح الباب واسماً . أمام إسقاط جديد تنحل معه الشوابط والمقومات التي تفصل بين الخير والشر وبذلك اندفعت النفس البشرية إندفاعاً خطيراً ، إلى مجال الخوف والذعر ، والضياع ، وقد حسبت أن إندفاعها لتحقيق مطامعها وأهوائها وشهواتها ، وكسر كل القيود والحدود ، سيحقق لها السعادة ، أو الطمأنينة أو اللذة .

وتعمد الوجودية ثمرة هذا التطور الخطير نحو الانحلال . وقد وصفها الدكتور حامد حمار بأنها مرض العصر يقول : زعم فرويد أن دوافع الناس ، والظواهر النفسية المختلفة تنبع من الطاقة الجنسية المستقرة في اللاشعور والإنسان في نظر هذه المدرسة (مدرسة فرويد) إنما هو حيوان بشري تسميه غرائزه ودوافعه الفطرية وقد صادفت آراء فرويد هو في مجال الطبيعة الوسطى في المجتمع النحوي في أواخر القرن - ١٩ ثم اتخذت هذه الاتجاهات بعد الحرب الأولى أداة لتفسير سلوك الإنسان ، ثم كانت محنة الحرب الثانية وما أتت به من وسائل الدمار والفتك تجربة بشرية قاسية أقسى بكثير من الحرب العالمية الأولى وخاصة في أوروبا . وفي مثل هذه الظروف كان الجور السيكولوجي ملائماً لظهور أفكار الوجوديين ، وتفسيراتهم التشاؤمية هذا الوجدان القلق عند الإنسان الذي يشعره بأن الكون سائر نحو العوالة والوحدة والعدم (هيدجر) هذا الشعور المرضي (من المرض) الذي يشبه الغشيان على حد تعبير (سارتر) . وهذا العالم الذي نعيش فيه ، عالم هش قابل للاسكسار السريع والتخبط المروع وإذا كان لنا أن نسأل عن القوى التي ضمنت الحربين العالميتين ، والتي أبادت منهما ، والتي خططعت لهما لتحقيق غاية من ورائهما بالذات ، ومن نتائجهما وأثرها في البشرية بعد ذلك ، إذا كان لنا أن نسأل وجدنا الإجابة واضحة ، فإن عخططات التلودية ممثلة في الصهيونية العالمية هي التي صنعت كل ذلك فهي مسعرة الحرب ، وفي نفس الوقت صانعة الدعوات والمذاهب .

ولا ريب أن هذا اليأس والتمزق الذي تكشف عنه الوجودية في منهجها وفي تصرفات أتباعها . يدل على الانقطاع الكامل عن كل مصادر الإيمان بالله ، ومصادر الخير والرحمة والحب والإخاء البشري وكل هذه القيم الانسانية العليا التي يقوم عليها نظام المجتمع والحياة إن اليأس من رحمة الله والانفصال

من الايمان باثقه والاندفاع وراء المادية الجافة قد ولد في النفوس هذا الخواء الروحي والفراغ . وإن المحاولة بدأت منذ وقت بعيد وانتقلت بين الاجيال حتى وصلت إلى نقطة وصفها (كاسي) بالغيثيان .

وقد وصفت الوجودية بأنها مرض الإنسان في منتصف القرن العشرين وبأنها مرض العصر ، وهي في مجملها : الملل والقلق والسأم والضيق والتوتر والشعور بالاغتراب ولا يجب أن هذه الصيحات كان يمكن أن تمضي ، ولا تترك هذه الآثار البعيدة في العالم كله . لولا وجود قوى خفية تعيقها وتدفعها إلى الامام حتى أن كتاباً يصدر في باريس بالفرنسية عنها تصدر طبعته بالعربية في نفس الوقت في بيروت .

وبما سأل البعض لماذا نجحت الوجودية في أوروبا . وفي بعض أجزاء من العالم والإجابة معروفة . يرجع ذلك إلى اعتناق المذاهب المادية ، وما يتصل به من دعوة إلى الانحلال والوجودية ثمرة الزهرة الفردية أيضاً وتجرى محاولات دائبة لتجديدها كلها ضاعت أو سقطت ، حتى لقد وصف أحدهم القرن العشرين بأنه قرن سارتر ، وأن سارتر هو إعصار وأن الوجودية هي مصدر كل القلاقل والاضطرابات التي حدثت في هذا القرن .

٣ - إن دراسة مسيرة حياة سارتر تكشف عن الحافيات التي تقف وراء هذه المفاهيم . ذلك أن مفاهيم سارتر التي أطلق عليها اسم الوجودية ، لم تكن إلا صدى مشاعر نفسية . يقول سارتر : في كتابه السمكيات ، لقد صنعت ذاتي لأنني لم أكن ابناً لأحد ، وسارتر : يعرف بأنه حين وعى نفسه لم يكن له أب ، ولا أم ولا أسرة فقد مات أبوه وهو في شهره الثالث ، أما أمة فكانت عمرة الشخصية ولم تهمه أبداً بمخاض أمومتها . ولم تكن الأسرة تتعدى جدين عجوزين يؤذيانه هو وأمه ويقعراهما بالمهانة .

وكانت نظرة سارتر إلى البشرية نظرة مليئة بهطاف مشوه . أساسه الاحتقار . وأراد أن يؤكد ذاته . فأنكر الكنيسة ، وحاول أن يكون له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ في مجتمع الأطفال المعادين ، فألقى الوجودية ويرد كثير من الباحثين ترمد سارتر إلى مفاهيم المسيحية الغربية التي لم تستطع أن تصمد لنفسه ، أو تعطيه الإحساس العميق بذاته ومن الجواب التي كانت مصدر ثورته وتحدياته أن الحياة لم تكن بذات قيمة في نظر أهل مجتمعه ، وكانت هناك فكرة الخطيئة وكانت هناك محاولة تحرير الجسم الانساني من كل رغبة وشهوة . وأن ذلك كله قد دفع الناس إلى إنتظار مملكة في غير هذا العالم وعزلة ورهبانية بعيدة عن المجتمع في قلب الصحراء . هذا هو التحدي الخطير الذي واجهه سارتر في حياته فكانت من ثم فلسفته متأثرة بشكل هذه العوازل . وقد صورت ، سيمون دي بوفوار : سلوك سارتر في الحياة ، فقالت : كان يكره الحقوقي والواجبات وكل شيء رصين في الحياة وهو لا يكاد يفهم أن له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض وإن يكون أبداً رب أسرة حتى ولا وجلاً متوجهاً ولم يكن سارتر يرى في الزواج شيئاً عظيماً كان فوضوياً أكثر منه ثورياً . كان يجد المجتمع

على ما كان عليه شيئاً محترماً . وهكذا نجد سارتر خصماً للدين على النحو الذي عاشته أوروبا ومنه امتدت خصومته إلى كل قيم العقائد والأخلاق ، وهو في هذا شبيه ، بفرويد وماركس . في دعوتهم الصارخة إلى عدم مقررات الدين والحزب الدفين على الكنيسة . ومن هذا المنطلق وجدت الأيدلوجية النلودية واحداً من أهدافها في محاربة الدين بالفلسفات ، على نحو أدركت به ثأراً ، تطهلت إليه زمناً طويلاً وقد أطلق على الفلسفة الوجودية : اسم الفلسفة الإنحلالية . أو فلسفة العدم وهي تجتمع مع الفلسفات المادية في إنكار ما وراء المادة ، وتختلف معها في الدعوة إلى احتقار الحياة .

ولا ريب أن قادة الدعوة الوجودية كانوا جميعاً من الشواف ، وكانت حياتهم الخاصة مليئة بالإضطرابات (كير كجورد - جابريل - مارسيل - ميجر - سارتر) واقد طالت الصفحات التي كتبها كير كجورد نحو مائة سنة مغمورة حتى أخرجتها اليهودية النلودية في أوائل هذا القرن وإذاعتها وتوجهتها وفد أعلن مرجرد حرباً لا هوادة فيها على الإيمان المسيحي كله متابعة لحمة أشد عنفاً منها . وبعثته ، وقد أشار المؤرخون وكتاب السيرة إلى انحرافات أساسية في شخصيات فرويد ونيته . أما كير كجورد فقد كانت أمه خادمة غائرها أبوه سرراً وكان هو أحذب بما ضاهى عائلته النفسية ، وكان ذلك يزيد شعوره بالنقص . فاهتول المجتمع وعاداه . وكانت مؤلفاته العشرية هجومياً عنيفاً على معتقدات مجتمعة الدينية وهدماً للكنيسة وتدميراً للمفكرة المسيحية ودعوة إلى الناس بعدم الإيمان إلا بأنفسهم ومن هنا أصبحت الوجودية حرباً سافرة على الأديان كلها .

٤ - أخطر ما في الفلسفة الوجودية دعوته إلى نفي الألوهية وإلى عبادة الذات فهي تدعو الإنسان إلى أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع . ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملاذات .

ويبدو موقف سارتر من الألوهية مشوباً بفهم خاطئ . مستمد من الفهم القائم على الوهية الإنسان ولذلك فهو يدعو إلى تأليه كل إنسان - ولو فهم سارتر د الألوهية ، بمعناها الحق : معنى الإله الأعظم الذي لم يلد ولم يولد - وانذى لم يتصل بأحد . وليس لأحد أن يتصل به على أي نوع من أنواع الاتحاد ، أو الحلول أو وحدة الوجود ، لكان له موقف آخر أما نظرية تأليه الإنسان التي دعت إليها الفلسفات اليونانية ومارستها عقائد ونحل أخرى ، فإنها قد فتحت باباً واسعاً للدعوة إلى عبادة الإنسان ، وتأليه كل إنسان .

وفي رواية الذباب يخاطب سارتر (رب الأرباب) جوبيتر ، فيصفه بما عرف في الفلسفة اليونانية من مفهوم خاطئ . عن الله . فيقول : ما إن خلقتني حتى انفصلت عنك ، وتخليت عن نسبتي إليك الخ . وهذا مفهوم بعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام قد سبحانه وتعالى الذي يختلف عن نظرية الأبوة والذي يقوم على مفهوم العبودية .

وقد وصف بعض الباحثين إلحاد سارتر ، بأنه إلحاد يتصف بقوة قالبة على الإلحاد الحديث .
وهي : أنه ليس مجرد إنكار لله ، بل هو أبعد من هذا ، لأنه يضع الإنسان في مواجهة الله ، أو يطن
تجاهله لوجود الله هو وجل ، على حد قوله : الإله موجود فالإنسان عدم .

ويستمد سارتر مفهومه هذا من نيتشه ، ومن المصادر الوثنية اليونانية القديمة ، ولا ريب أن
سارتر ونيتشه متأثران بأبلغ التأثير باضطراب مفهوم الألوهية الحائد في الفكر الغربي ، قبل عصر النهضة
ولو أن الفكر الغربي قبل فيما تقبل من الفكر الإسلامي حين نقل المنهج العلمي التجريبي : مفهوم الإسلام
في الألوهية لكان هناك اختلاف كبير في اتجاه الفلسفة الحديثة . ذلك أن الإسلام لا يقر القول القائل :
بأن الله صنع الإنسان على صورته ، وهو قول لا يؤيده القرآن ، ولا شيء من الحجة النبوية الصحيحة .
وهو قريب من مفاهيم الغنوصية القديمة . (وما قدروا الله حق قدره) وليست فكرة تسلط الإله
على البشر في مسرحية الذباب ، إلا صورة من الفلسفة اليونانية وهي فكرة زائفة ، والعودة إلى إحيائها
رجوع بالبشرية القهقري بعد أن صحح الإسلام مفاهيمها في علاقة الله بالإنسان ، وهي علاقة الرحمة
والعفو ، كما تربط الفلسفة الوجودية بالخطيئة التاريخية .

يقول الدكتور محمد غلاب : إن منشأ القلق ، بل الغم أحياناً ، عند أولئك المفكرين ، هو أن
المسيحية لا تقدم ترضية تامة إلى مطالب العقل الذي يتوق إلى فهم كل شيء ، بل إن العقيدة المسيحية
كثيراً ما تتطلب تحلل الفكر عن رسالته ، لأن بعض مبادئها يصطدم مع العقل الذي لم يعد لقبولها .
قال باسكال : إن الخطيئة العنصرية هي في نظر الناس هرب من الجنون ، ولكن الدين يقدمها على
هذا النحو . وإذن فيجب أن تأخذوا عليه عدم تأييد العقل لهذه العقيدة لأنه يقدمها بدون مسوغ .

(هـ) تبدو الفلسفة الوجودية ، كأنما هي مواجهة للفلسفة الماركسية : إنها تدعو إلى القضية
بالمجتمع في سبيل الفرد في مواجهة تحديات الماركسية القائلة بالنضحية بالفرد في سبيل المجتمع . ومن ذلك
قولهم : الفرد يعيش ضمناً في الماركسية ، ويعيش أصلاً في الوجودية . وهي بالرغم من دعوتها إلى رفع
قدر الإنسان . فإنها تعامله في نطاق الفلسفة المادية ، تعامله على أنه حيوان مادي له غرائز وأهواء ،
وتفنى إفضاء كاملاً عن جوانبه الروحية والنفسية والفكرية ، وهي دعوة إلى الانطلاق المتحرر من
كل قيد أو ضوابط أو قيم . وتقوم أساساً على إنكار الألوهية ، وإنكار البعث والجواز والأخلاق ،
وهي تطلق أساساً من فكرة خطيرة هي اليأس من الحياة ، وتواجه المسيحية والفكر الديني الغربي
والكنيسة مراجعة خطيرة . وقد وصفنا الماركسية الوجودية بأنها دعوة إلى نشر تعاليم الفوضوية
العقلية والخلقية ، واحتقار العلم والأخلاق .

وقد وصف الدكتور روجيه جارودي الوجودية على هذا النحو : الوجودية فلسفة الاستعمار .
فلسفة عدم لا بناء — فلسفة تدمير للمخصصة الإنسانية — فلسفة إسقاط لنفس الإنسانية في مجالات
الغنى والفجوات ، بحيث تصبح غير نادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجودها — فلسفة مادية .

تستهدف الاستمتاع السريع وخشية الموت . وقد حارس النظرية الوجودية مفكرون غربيون كثيرون وحسروا أخطارها في عدة نقاط أساسية :

(أولاً) إنها تجعل الإنسان في عزلة عن الجماعة (ثانياً) إنها تستطيط إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية ، وتدعو إلى الانحلال (ثالثاً) إنها الأوامر الإلهية - وتنكر القيم الخالدة . (رابعاً) إنها تدعو إلى اليأس المطلق والنشأوم الكلى ، وتدعو إلى هدم الحياة (خامساً) إنها دعوة إلى التفرغ على الواقع والقيم جميعاً ترفض كل ما يتصل بالإنبيدات والنفوس الإنسانية وتقف عند الإيمان باللحم والدم (سادساً) إنها تنكر حصول البشرية من القيم والتجارب ، وتدعو إلى أن يبدأ الإنسان من جديد (سابعاً) تحتقر العلم والدين والأخلاق (ثامناً) ليس فيها نقطة واحدة تفتح الطريق أمام التقدم أو بناء الحياة أو العمل من أجل مجتمع أفضل (تاسعاً) هى فلسفة مغلقة فى الفردية . تنسكو الحقيقة الموضوعية للواقع الإنسانى .

(عاشرأ) الأخلاق الوجودية هى الأخلاق المريضة : القلق والفتنوط والنشأوم والرغبة فى الموت والغفوض والآناية المفرطة (حادى عشر) الدعوة إلى جدية اليأس والتحريرىض على الانتحار (ثانى عشر) تفويض المجتمعات وهدم الأمل والخلق والغيرة ومعارضة الشجاعة والتضحية . (ثالث عشر) دعوة إلى التحلل من القواعد الأخلاقية .

وقد حارس الباحثون هذه المفاهيم وكشفوا عن زيفها ، وأعلن لكثيرون فى صراحة أن الوجودية ظاهرة ومنية عابرة إن يلبث الانسان أن يتخطاها وهى ليست روحاً Essence

(٦) لا ريب أن الدعوة الوجودية غريبة عنا وعن مجتمعاتنا وعن قيمنا كل الغريبة ، ذلك لأنها نتائج تحديات وظروف ومواقف مختلفة تماماً ، وهى فى مجموعها لا تمت إلى مفاهيمنا بسبب ، وهى ثمرة مجتمعات معينة فى ظروف معينة . ونحن نعرف أن الفكر الغربى كله يمر فى هذه السنوات بأزمة حاصفة وبواجهه تحديات خطيرة . وأن الصهيونية العالمية من خلال أيدلوجيتها التلودية قد احتوته تماماً وصرفت فيه كل قوة وكل خير وهدمت دعائمه الأخلاقية وعزلته عن مفهوم الدين الحق عزلاً تاماً .

ومن عجب أن الكثرين فى بلادنا يفهمون هذه الحقيقة ، ولكنهم ينظرون إلى هذه الدعوات من خلال مظاهرها البراقة الخادعة ، بينما تهاوزتها مجتمعاتها لفسادها ولأنها وجدتها معارضة تمام المعارضة لفطرة والطبيعة الإنسانية وقيم الانسان العليا ، إن الوجودية ثمرة أزمة الانسان المعاصر ، صريع النظرية المادية التى أعلت من شأن الشهوات والأهواء والذات ، وفتحت الطريق أمام الغرائز بعد أن هدمت جدار الضوابط والحدود والقيم ، وأبرز معالم فكرنا وحضارتنا ومجتمعاتنا : هو ذلك الترابط بين الروح والمادة ، والنوازن بين الدنيا والآخرة فى إطار النوحيد الخالص لله ، والإيمان بالبعث والجزاء والدين جزء من مجتمعاتنا وفكرنا ونظمنا المختلفة ، والأخلاق تاسم مشترك على التربية والإجتماع والسياسة والاقتصاد .

الفصل الثالث

الهيدية

(١) الدعوة الهيدية هي آخر ثمرات التطور الذي بلغته المجتمعات المعاصرة في طريقها الذي اختطته في ظل المذاهب المادية . وفي معارضة كل مبررات الإنسانية من القيم والضوابط والأخلاق والمعتقدات . إن الدعوة الهيدية تنطلق من القول بأن الإنسان للمعاصر يشكو القلق والتفريق ، وأنه لا يجد الإجابة على أسئلته ، ولا يستطيع أن يفهم سر وجوده . وأن هذا كله قد أسلمه إلى غربة قاسية ، ولا ريب أن هذه الصيحة التي تسود المجتمعات الغربية بالغربة والخوف من المجهول ، قد باتت مصدر صدع كبير في بناء الأمم ، وأمسى الناس يعيشون بالرغم من كل ما يحوطهم من عوامل المنة والبهجة في فراغ نفسي وفي وحشة وانفصال .

لقد فشلت كل الأيدولوجيات والأنظمة والمذاهب التي حاولت أن تقدم للإنسان منهجاً للحياة ، لأنها إما قد اعتبرت أزمة الإنسان أزمة معدة وطعام في الأغلب أو أنها أطلقت الفرائز إلى غير مانهية ودفعت الناس كالكلاب المسعورة وراء الأهواء واللذات . ثم عاد الإنسان من رحلته هذه ، وذلك ، بإحساس عجيب . لقد أصبح غريباً في مجتمع صاحب بضج بالمغريات والمنع . والجواب هو شيء واحد : إنه فقد لذة الإيمان ، عطاء الروح ، صمام الأمن في سكينته النفسية ، فقد روح الحرية الحقة والثقة والناس الرحمة من مصدرها الوحيد . وقد حاول الباحثون استقصاء مصدر الدعوة إلى الهيدية وهي آخر صيحات التحرر والانطلاق من كل القيم والضوابط والقيود ، فلم يجدوا إجابة لها أكثر من الغربة .

يقول كولن ولسن في كتابه الغريب : « الغربة مرض تمتد جذوره إلى بعيد ، وهو مرض متصل بتصدع الذات وانشقاقها نتيجة لعدم توافرها أو انسجامها مع المجتمع الذي تعيش فيه ، والغربة المعاصرة تختلف عن الغربة التي عرفت في العصور الماضية . فقد كان الغريب برغم حيرته وشككه لا يفقد الإيمان ولا ييأس من الوصول إلى الحقيقة . أما الغربة الحالية فهي غربة إنسان عاجز عن الإيمان بوجود أي شيء ، وكان الغرباء قديماً يحاولون تحقيق الانسجام والمواظبة مع العالم بالرغم من خلافهم معه . أما الغرباء المحدثون فإنهم يرفضون المجتمع رفضاً كاملاً وينفصلون عنه انفصالاً تاماً .

ويرد الباحثون ومنهم كولن ولسن الأذمة إلى أصولها القديمة منذ دعا نيقشه دعوته إلى بناء المجتمعات على أساس القوة والأقوياء وقتل المرضى والضعفاء بلا رحمة . وأعجز القصص والروايات كلها لتحمل هذا الطابع المظلم الذي يستمد الفكر الغربي من الخطيئة الأولى .

فهذا ديستوفسكى في روايته يرسم صورة إيفان الذي يقول إن فكرة الألم فكرة مسبقدة بهذا الكون متغلغلة إلى أعماقه ، ومن المأسر استئصالها .

ويرى ولسن أن الطابع الذي طغى على الأدب الغرب ، إنما يتناقص في عبارة واحدة : إنها فكرة الإنسان الذي فقد إيمانه بالله ، ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص . إنها أزمة العقل للسيطر على الإنسان . أضف العقل الصرف مركز الإشعاع العاطفي في الإنسان وهو العقيدة الدينية . ثم جاءت بعد ذلك التطورات الخطيرة بمنزلة في (فرويد ، وماركس ، ولبنى بريل ، ودوركايم ، وسارتر) وكلها تحطم الإنسان من حيث هو إنسان وتدفعه من حيث هو فريضة ولحم ودم إلى الانطلاق نحو مطالب الجنس والذات . ومن هنا فقد أصبح عارياً تماماً ، وأصبح جزءاً من كل قد غطى بأغشية تحول بينه وبين الحياة . لقد وضع كيانه الوجداني وإحساسه النفسي وطموحه الروحي موضع التجميد والانكار والتكبس الحقيقي . فعاش برثة واحدة . فكان لا بد أن يحس بالغربة والتثنيان والتمرد والقلق ، لأن قوة حقيقية موجودة في أعماقه قد أصبحت حبسية بينما أطلقت القوة الأخرى ، وكان التوازن وللواءمة الطبيعية بين قوى الإنسان الجامع بين الروح والمادة هي عامل الحياة الحقيقي (.

هذه هي الأزمة الحقيقية وراء الدعوة الهيدية التي تحتاج أجراء كثيرة من العالم اليوم بغرابة تصرفها وخروجها على قيم المجتمعات ، وعودتها إلى أخلاق الغايات وطبائع الأدغال . إن هناك نزاعاً في الأحماق بين الواقع المادى الصرف وبين هذه القوى المحبوسة . لقد تحولت الحياة في المجتمعات الغربية من النقيض إلى النقيض . كانت المصور الوسطى . وسلطان الكنيسة يحبس الكيان للمادى ، ويدعو إلى الزهادة والرهينة ، واعتزال الحياة وإنكار النوازع الفطرية الأصلية في النفس الراغبة إلى الممارسة والتنفيس . فلما كسر هذا القيد ، بلغ الإنسان أقصى المدى من الناحية الأخرى ، فحبس العواطف والروحانيات وأطلق الأخرى ، ودعا إلى وثنية وإباحية عاصفة .

ومن هنا فإن أزمة الإنسان الحديث هي نفس الأزمة القديمة ولكن على المحور الآخر . لقد عجزت الفلسفات والمذاهب والأيدلوجيات أن تعطي الإنسان : التوازن ، والاعتدال ، والتكامل ، والوسطية وللواءمة بين عنصرين حقيقيين في الإنسان لا سبيل إلى تجاهل أحدهما أو إعلانه على حساب الآخر .

إن حجب الجسم عن غرائزه الفطرية الطبيعية ليس أقصى من حجب الروح عن غاياتها الأصلية . وكلاهما شر خطير مدمر ، والاسلام في هذا يمثل الأصالة والفطرة ويكشف عن أنه من عند الله حقاً ، خالق الإنسان والعارف بجوهره وطبيعته . فالاسلام يقرر وجود الإنسان روحه ومادته ، غرائزه وأهواءه ثم معطياته العليا ، وهو يفسح له مجال ممارسة هذه وتلك ويضع لها ماعاً ضوابط تحول بينهما وبين الاسراف والجود . فالاسلام لا يقر الرهبانية ولا يقر الإباحية في نفس الوقت . ولكنه يدعو إلى أسلوب وسط فيه مريح هادئ ، ومن خلال ضوابط تحمي النفس الانسانية والجسم الانساني من أن ينهار إذا فرض عليه أحد الخطرين : إعطائه الحرية المطلقة حتى يتحطم وينهار أو إعطائه الرهبانية حتى يفسد ويذبل . ومن هنا نشأت الغربة وشككت أخطر أزمة تواجه الإنسان الحديث (.

إن الحلول التي وصفها البهر كاشي ، وسارتر ، لم تستطع أن تفحل هذه الأزمة . بل زادت حدة . فقد انطلق الوجوديان من منطلق مادي صرف ؛ إن الدعوة إلى التحرر من القيم المتوارثة . إنما هو دعوة إلى التحرر من الدين ، ومن العقائد ، ومن الإيمان بالله . وهو لا يحل المشكلة ، بل يزيد تعقيداً . وهو لا يهدي إلى ضوء ، ولكنه يدفع إلى مزيد من الظلام . إن الاحساس بالقلق المبهم الغامض الذي استبد بالإنسان المعاصر لم يكن إلا نتيجة سيطرة المادة وسيطرة الدعوة إلى تأليه العقل وتقديسه وتسخير العلم في إشغال الحروب وابس هناك سبيل للوصول إلى حل إلا بالعودة مرة أخرى إلى الحقائق الأصلية التي عرفتها البشرية ، منه نشأتها واهندت بها العودة إلى النظرة إلى الدين الحق ليست المادة هي كل شيء ، وليس العقل إلا جهازاً من أجهزة كثيرة ، أعطاها الإنسان لبناء حياته . وليست الحضارة في خدمة الحرب والدمار ، وإنما هي في خدمة البشرية ودفعها إلى التقدم بفهمه الكمال التقدم المعنوي والمادي معاً ولذلك فإن الطريق الصحيح : هو التحرر من القيم الزائفة البالية التي استحدثتها المذاهب المادية .

يقول الدكتور مصطفى بدوي : إن أزمة الإنسان الحديث . هي أزمة الإنسان الحساس العاقل الذي فقد إيمانه بالله ولم يجد ما يسد حاجته العاطفية التي كان الإيمان مركز إشعاعها وهي أزمة لعب العلم ، والتفكير العقلي فيها دوراً بالغ الأهمية أدى في نهاية الأمر إلى ضعف العقيدة الدينية وهي أزمة كانت إحدى نتائجها الغريبة : إشهار الإنلاس العقلي والتفكير العقلي وبهول كوازيه : إلى نفس للنتيجة تقريباً حين يدعو إلى استنباط موقف ديني ، ويدعو إلى تحقيق آساق وتوازن بين قوى الإنسان الثلاث : الجسم والعقل والعاطفة . لأن الإنسان وحدة لا تتجزأ يقول :

(ليس الإنسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعترقه من صدا ، أو ما يقف إحساسه من سماكة إلا إذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي إن التأمل الروحي قد يؤلف بين الإنسان والوجود وإن هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة ويجعله ينمو مع ما ينمو حوله من عناصر الطبيعة عند ذلك سوف يكون لـ شكل شيء معنى روحى . فالأرض ، والماء ، والنور ، والنفا والازهار . لن تصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الإنسان حتى إذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ولكنها تصبح أشياء ضرورية في تحقيق الوحدة بين الإنسان والوجود) .

ويرى ولسون أن أزمة الغريب فقدان الإيمان يظل فيها على حالك من القلق والتأمل والمذاب حتى يظفر بشيء يشبع عنده عاطفته الدينية المفقودة عندئذ سوف لا تبقى النظرة إلى الأمر هي الغالبة في التفكير الغريب . ويرى ولسون أن الاعتماد على التفكير العقلي المجرد ليس بقادر على حل مشكلة الغريب فإن نمرة إمكانات أخرى في الإنسان لا بد من استغلالها (هي الإرادة والعقل والعاطفة) . وأن الغريب الذي ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلي الصرف الذي هو ظاهرة عامة في حياتنا المعاصرة بحاجة ماسة إلى (بديل) يشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندما الملاذ الذي يبحث عنه وهو يدعو إلى تحرير الإنسان المعاصر أولاً وقبل كل شيء — وهو بالطبع يقصد

الانسان الغربي - من معتقدات وحمية كثيرة أهمها فكرة الخطيئة الأولى التي تسيطر على الإنسان المسيحي والتي تقف حائلاً بينه وبين رؤية الحقيقة، ويرى أن على الغريب أن يتخلص من الخطيئة الأولى لأنها في حدود فهمه لها هي ما يجب الحقيقة عن روح الانسان . وإذا كان كوان ولهون قد أصاب الحقيقة فإنه أخطأ العلاج حين دعا إلى رؤيا صوفية ، وإلى إحلال الإرادة محل الايمان . وحين اتجه إلى الفلسفة الهندية القديمة ؛ يطالب منها العطاء الذي يمكن أن يعطى للانسان المعاصر في أزمنة تريباقاً شافياً وتلك هي محنة الفكر الغربي الذي تسيطر عليه مخططات الايدولوجية الصهيونية التلودية فإنه حين يبدو أن الانسان الحائر قد وجد مشكلته فإنه سرعان ما يدفع به إلى متاهة أخرى وماذا عليه لو أنه وجه الحائرين إلى الاسلام ، وفيه وحده العطاء الحقيقي . إن الفلسفة الهندية القديمة التي ستعطى الإنسان المعاصر في أزمنة علاجاً ، ان تعطيه إلا دورة جديدة من دورات المحيرة والفاق والغربة حين يقطعه . وحدة الوجود والحلول والاتحاد ومفاهيم وثنية أخرى لا تقل خطراً عن مفاهيم الوثنية الإغريقية التي صنعت أزمنة وأسلته إلى مكان الغريب ، إن الفلسفة الهندية سوف تعطيه من يبدأ من الغربة والمحيرة وان تعطيه الإرادة التي شاء أن يدعو إليها كوان ولسون ، وان تعطيه حقيقة الايمان وجوهره الذي لا ينطلق إلا من خلال إيمانه بالله الواحد الأحد . الذي لا شريك له خالق كل شيء ، السكون والانسان من الحق أن نقول إن ولسون وغيره قد خطوا خطوات واضحة في دعوتهم إلى التحرر من سلطان العقل ، والمادة والخطيئة الأولى ولستكنهم لم يستطعوا مع الأسف تجاوز الخطر . أو استيعاب أسباب الأزمة ذلك لأنهم يتطلعون من منطلق الفلسفة المادية أيضاً . إن هذا الطابع المتجهم الحامل للقشائم الفارق في مفاهيم الألم والقسوة والانتقام والحرية والضبائب الخيم ، إنما يعمره إلى مفهوم الغرب الخاطئ . انهاء الأبطال للتراجمية التي تتمثل في الصراع بين الآلهة وبين الإنسان ، والتي تعتمد وجودها من ارتباط الفلاسفات بالآثار التي تركتها العقائد القديمة والتي لم تستطع أن تفصل فصلاً محكماً بين الله الواحد الأحد وبين الانسان والعالم والخطأ الذي اتصل بتحول الانسان إلى إله وعبادة الأبطال ونحوهم إلى آلهة وأنصاف آلهة مما يفرق فيه الفكر الغربي فلا يستطيع معه أن يجد سبيلاً إلى رؤياً مشرقة قائمة على الأمل في الله مضيئة بالرحمة والسماحة والأخوة بعيدة عن قسوة فيتنشده وعبادة الفرد وتصور السكون على أنه الله . ومفهوم الخطيئة ومايجره من آلام وقسوة لا نفتي . إن الانسان ليس الموجود الوحيد ولكنه خلق الله وعبادته وهو مستخلف في الأرض في امتحان لقدرته على أداء الامانة ومن خلال الضوابط التي أحكمت حماية له وحماية للمجتمع ورفعاً له عن مكانة الحيوان ، وتكريماً له بالجمع بين الروح والمادة والقلب والعقل والدينيا والآخرة .

ولا ريب أن مفاهيم الفلاسفات الوثنية القديمة حين اختلطت بالعقائد قد أعطت صورة مظلمة لمفهوم الله والسكون والانسان فلما جاء العقل الناقد وقف من هذه المفاهيم موقف الإنكار وأحس بسوء هذه العقائد من العطاء للحق ، وتلك أزمنة الحقيقة التي دفعته إلى إنكار الله ، وإلى الشك في كل رحمة وفضل . وهذا هو الذي زلزل إيمان الناس وأفسد عقائدهم . وكان مجرم من معرفة الدين الحق وتمصيحهم إزاءه وخصوصتهم له مصدرأ من مصادر الاضطراب الذي ما زال يذلل

القلوب وما تزال المتاهات تفتح أبراجها لم لتدفعهم من وئدة الإغريق إلى غنوصية الشرق للقديم فلا يخلق ذلك إلا مزيداً من التضارب والغربة والغشيان . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبوه ولا تلبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . إن أبرر ما أعطاه العقل في رحلته بلا دليل ، وفي استعلائه وتفرد ، والتمرد على نواميس الكون وسنن الطبيعة البشرية ومحاولة خرق هذه السنن والنواميس بإنكار الله ، والناس طرق وأساليب ما زالت تنساقط واحدة بعد أخرى . عاجزة عن أن تهدى النفس البشرية إلى أى حق أو تفتح لها أى كوة من ضوء .

٢ - إن صبيحة اليوم في مواجهة القلق والغربة هي : أن كل ما حاولت البشرية أن تحققه في رحلتها الطويلة إلى البحث عن الحقيقة ، قد أخفق لم تفاح الفلاسفة ولم يفلح العلم ولم يفلح التاريخ لقد ألقي العلم جميع إمكاناته ومقدراته معترفاً بالعجز أمام الأسئلة الأبدية المطروحة : لماذا نحيا حتى العلم نفسه باعتباره آخر درع قد أخذ في السقوط . إذا كانت الفلاسفة عاجزة ؟ والتاريخ عاجزاً والعالم قد عجز فأين المفر ؟ وما هو الطريق ؟ هذه هي الصبيحة اليوم فيما أسموه مجتمع غربة الإنسان هنا (ماركوز) فيلسوف الصهيونية الأكبر فيقول : إن مجتمع غربة الإنسان يجب أن يزول من التاريخ لأننا نصنع عالماً جديداً وهذه هي نفس الإجابة التي حملتها الروحية الحديثة وهي نفس الإجابة التي حملتها البهائية .

إن (ماركوز) يرى أن الرأسمالية ، والماركسية ، كلاهما قد أخفقتا . وأن الطريق مهداً أمام النبوءة المجهولة الغامضة .

ويقف دعاة التبشير بالعالمية التي تستمد مفاهيمها من الأيدولوجية التلودية صامتين لا يكشفون عن صورة المجتمع الجديد ، ويدفعون مجموعات جديدة من الشباب إلى الرفض وإلى الغربة دون أن يضيئوا أمامهم شمعاً واحدة وإذا كانت كل السدود قد سقطت فماذا أمام الأسئلة الحائرة ؟ لأنهم يهودون مرة أخرى إلى بحث الغنوصية الشرقية القديمة . إن مهاريشي يدعو إلى التأمل القائم على النشوة والمرح في ظلال (الماريجوانا) تأمل الذات والبحث عن الحقيقة في إنتاج النفس . ولكن أى نفس هذه التي تستطيع أن تهدى ؟ إن المطاء لن يهوى من الداخل أبداً ولكنه يأتي من الكون الواسع . إن المعروفة لا يجهدها طائها وراء الظلمات التي تملأ النفس بأهوائها وبأسها ، إن المطاء يأتي من الخارج : من كون الله الواسع الذي يلمهم الحقيقة (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون) .

ليس غير الاسلام وحده ضوءاً يستطيع أن يعطى البشرية اليوم طريقها :

إن دعوة (مهاريشي) قد تحوالت إلى التأمل من خلال تعاطي العقاقير والمواد المخدرة (الماريجوانا - ل - س - د) ثم تحولوا عنها إلى مادة أقوى تأثيراً مادة - ت -

— مادة س — ت — ب — التي يستمر مفعولها (٧٢ ساعة) كاملة وتحدث حالات عنيفة من الهياج. لماذا يريدونه ضعيفاً منهكاً محطماً ؟ هل هي السعادة أو الألفة أو المعرفة أو البحث عن الحقيقة ؟ إنها اليأس القاتل ، إنها القنوط . ولكن المسلم لا يصل إلى ذلك إلا إذا فقد إيمانه ، إن المسلم لا ييأس أبداً ولا يقنط من رحمة الله ولا يضل الطريق .

إن جماعات الوجوديين قد تحوالت بالهيدية إلى جماعات الهروب من الواقع إلى السلبية والعنف . وطريقتهم هي العقاقير المخدرة وأفكار جديدة تأتي لإيهام كلها سلبية باسم الشيو صوفية من التراث الهندوسي القديم : براهما وبوذا وجينا .

والوثنيون الشرقيون يعبدون عدداً من الآلهة ، ويتخذون الانسحاب من الحياة طريقة لهم الوحيد إن الانتقال عبر الرحلة الطويلة من وثنية اليونان إلى وثنية الغنوصية لا يختلف كثيراً إلا في الصورة ، ولكنه مادية أيضاً ، لأن الاهتمام بأن الكون المادي هو الله سبحانه ، إنما يذهب إلى أقصى درجات المادية . وهذا هو مذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد . ليس الله سبحانه في الحقيقة هو هذه الحياة أو هذه الجبال والبحار والأنهار ، ولكنه هو صانع هذا الوجود وهو منفصل عنه وقاهر له ، ومعنى هذا أن فهل الفلسفة المادية لم يرد الباحثين عن الحقيقة إلا مزيداً من الفشل حين اتجهوا إلى الفلسفة الغنوصية الشرقية من الإباحة المفرطة إلى الزهد المفرط ، ومن تعذيب النفس بالشهوات إلى تعذيب النفس بالحرمان ، وكلاهما يؤدي إلى الغربة والخوف والتشاؤم . إنهم يقولون : إن الفلقين يرون الآن عن طريق (بوذا — براهما — جينا) مندفعين كالقطيع وراء آخر دهوة تبشر بأمل لعلمهم يجدون السعادة المفقودة ، لعلمهم يجدون أنفسهم القاتمة وإيمانهم الضائع ، ونحن نقول : ولا أمل ، بل مزيد من الغربة ، فليس هناك غير طريق واحد فليجربوه .

الإنسان في ميزان الإسلام

(١) لا ريب أن الإنسان هو محيط الفلسفات ، والمهدف المقصود من الدعوات الهدامة ، وهو موضع الامتحان من تجربة الحياة والموت كلها ، وهذه الدعوات تحاول أن تضع له منهجاً يخرج به عن فطرته وعن المنهج الذي قدمه له الدين الحق ، والمحاولة تتصل بأمور متعددة أهمها :

(الأول) محاولة القول بأن عقل الإنسان كفيلاً بأن يهديه طريقة في الحياة . والعقل البشري جهاز قاصر ولا يستطيع بمفرده أن يهدي وإنما الهدى يتصل بالوحي . وهو العلم الرباني الذي لا ريب فيه ، ولا شبهة في أنه يقدم للإنسان الطريق الصحيح بينما الريب والشبهات تحيط كل هذه الدعوات والفلسفات ومن ورائها أهواء البشر ومظالمهم . ولا ريب أن إعداد الإنسان بالعقل البشري ليس كافياً وحده في التنبه بطريق الحق ، والعقل البشري ليس قادراً قدرة كاملة على معرفة كل شيء . وهو يستطيع أن يتفقد في عالم المحسوس ولكنه يعجز عن النفاذ إلى عالم الغيب إلا بهدى الوحي .

(الثاني) محاولة دفع الانسان الى شام كل قيد من قيود الاخلاق ، أو الاندفاع في الحياة لتحقيق أهوائه . ولا ريب أن الانسان بفطرته يعلم طريق الخير والشر وهو على هدى من الدين الحق يعرف أنه ممتحن في الدنيا ونعيم . واقد اعترف الاسلام للانسان برغباته وغرائزه ، وأعطاه حق ممارستها في إطار من الضوابط أهمها الاعتدال والمحافظة على السكينة الذاتية . وكشف له عن الخطر الذي يتعرض له من سلوك أسلوب التحرر المطلق .

(ثالثاً) محاولة إخضاع الإنسان للنظريات المادية والقوالب المادية . ولا ريب أن الانسان غير قابل للخضوع إلى هذه القوالب وأنه كإنسان مكون من روح وجسد . لا بد أن يحكمه علم جديد يخاف للنظرية المادية التي تقوم على أساس النظرية المادية المجردة إلى الوجود والحياة . لذلك فإن منهج دراسة الإنسان يجب أن يكون شاملاً ومتكاملاً على أساس أنه عقل وجسد وروح . ولا ريب أن النظرية إلى الانسان على أنه جسد ومادة (فقط) وتطبيق مناهج العلوم المادية أو التجارب التي أجريت على الحيوان من شأنها أن تستخرج نتائج غير حقيقية ومخالفة تماماً لواقع الانسان .

(رابعاً) خطأ القول بأن الانسان كان وثنيًا، ثم أصبح موحداً فإن الانسان بدأ موحداً أصلاً ثم سقط في خطأ الوثنية بالانحراف عن رسالات السماء ثم ظلت الأديان تعيده مرة ومرة إلى جادة التوحيد . (خامساً) خطأ القول بالتطور المطلق ، ذلك أن التطور لا يحدث في فراغ ، ولا بد من مرتكز ثابت للبشرية تستطيع أن تتحرك حوله ، ولا بد من فلك قائم على أسس الثبات ، ثم تأتي الحركة من خلاله وفي دائرته .

(سادساً) ليس الانسان حيواناً كما تقول الفلسفة المادية ، وليس الانسان غنطاً يحكم ولادته كما تقول بعض المفاند ، وليس الانسان مجبور التناسخ كما تقول البوذية ، وليس الانسان عبداً للأهواء والشهوات ، بل هو قادر بتوجيه الدين إلى أن يجد طريقه إلى الخير والهدى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاه . وقد خاب من دساها . » . وغاية الاسلام هو إيجاد التوازن في الفرد . فالإسلام لا يقر الوهادة ولا الإباحة .

(٢) ولا ريب أن طبيعة الانسان في حاجة إلى توجيه إلهي ، ذلك أن طبيعة الانسان لا تتخلف (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) والإنسان في صميم طبيعته نزاع إلى الفرح والفرح وإذا جاءه الخير ، ونزاع إلى اليأس إذا جاءه الشر . وقد وصفه القرآن بأنه خالق ملوماً . وأن علاجه في الصلاة والانصال بالله ، وهو علاج دائم متصل . وهو علاج متجدد مع كل إنسان وكل جيل ، ولن تستطيع البشرية مهما ارتقت مادياً أن تقول إنها أصبحت في غير حاجة إلى وصاية الدين أو توجيه الله والطبيعة البشرية في أصل تركيبها تنسى وتفعل . فهي في حاجة دائمة إلى موقظ . وموقفها القرآن الذي يذكّر ويقرع الأذان والقلوب . من الواضح تماماً من أصول التشريع والأخلاق معاً أن الانسان في حاجة إلى ضوابط تكفل له السير في طريق الارشاد ، وأنه لا يستطيع أن يجد هذا الطريق إلا إذا أرشدته إليه القوة العليا عن طريق الوحي المنزل .

فالتفريع في مجموعه ضوابط من علاقات الفرد بالجماعة . والأخلاق في مجموعها ضوابط من علاقات الفرد بالفرد . وفي التفريع لا يباح التأويل أو التحليل أو الخروج عن حدود الله إلا في ضرورات قصوى ، وكذلك في الأخلاق ومن هنا تبدو ضرورة وجود ظاهرتي « الضبط » و « السكظم » وهما غير ما يطلق عليه في المصطلحات الحديثة « السكت » ، ولو كانت الطبيعة البشرية بقدراتها التامة . تعجز عن التماس طريق المهمة المتمثل في الامتناع عن حدود الله لما فرض عليها ما ليس في استطاعتها ولولا أنها قادرة على معارضة اتجاه الأهواء والرغبات لما ألزمت به .

وهنا يبدو خبط الدعوة التي تقول بأن مثل هذا الامتناع له ضرورة بالنفس أو العقل . إن الضرر مائل حقيقة في منع المباحات وتحريم رتبة الله ، أو معارضة طبيعة البشر . أو مناهضة الدوافع البشرية وهذا ما لا يقره الاسلام أصلاً ، بل هو ما يعترف الاسلام بوجوده ، ويدفع إلى ممارسته وتحقيقه في نطاق ضوابطه وأطره وهذا هو ما حرمت به بعض الأديان ، وما رأى بعض الأطباء أنه مؤد إلى المرض أما إقرار الاسلام له كحقيقة ، ثم النظر في إمكان تحقيقه أو الانتظار بالصبر عليه ، وبالإعلاء . فذلك أمر آخر مختلف كل الاختلاف .

ولا ريب أن الإنسان خلق ليعمل ، ويسعى ويتحرك ويغالب ويقاوم ولا بد أن يجدد سعيه في الأرض وأن يكون سعيه إيجابياً في سبيل الهدف الذي استغلب من أجله فهو في حاجة دائمة إلى التذكرة والتوجيه ، وفي حاجة دائمة إلى الاعتصام بالله وإسلام الوجه له وهذا هو التوكل : والتوكل هو التماس هدى الله في العمل والحركة لافي القعود والتوكل ومن هنا فإن الإنسان بطبيعته وتركيبه (وهو أمر مستمر في كل زمان وعصر) في حاجة دائمة إلى الذكر والفكر وتجديد النفس بمعرفة الهدف وتحديده والتماس القوة التي تكفل له النجاح في الحياة وهي قوة لا يجدها الإنسان إلا في الإيمان بالله والخشية منه والامل فيه .

ومن هنا فإن القول بأن الانسانية ، قد أصبحت راشدة ، وليست في حاجة إلى وصاية الدين هو من الخططات التلويحية المتدفعة إلى غاياتها الخطيرة فلنعذرهما ولنسكن في بقعة لكل ما يحيط بنا .

٣ — الموت

إن هذه الصبيحة التي تستمل خروفاً من الموت إنما تمثل أقصى ما وصلت إليه النظرية المادية من أثر في نفوس الناس فقد انغلقت هذه النفوس هلعاً من الموت فهي تريد أن تعيش ، ومن عجب أن بعض العلماء يذهب إلى العمل من أجل إطالة الحياة والقضاء على الشيخوخة ، كحالة ضد سنن الحياة وطبائعها وتركيبها الذي هو من صميم وجودها . ولا ريب أن العلم لا يستطيع أن يهدي في هذا المجال ، فالموت حقيقة قائمة ، وهو في بعض مفاهيم العلم : هزيمة ، والحياة لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية والإنسان محكوم بالولادة والموت . وفي ضوء الاسلام أن الموت ليس نهاية الحياة ولكنه مرحلة

من مراحلها وانتقال إلى وضع آخر . فالإنسان قد جاء إلى الحياة ليؤدي رسالة استغلافه في الأرض فهو يعيش التجربة حتى يتمها ، ثم تنتهي مهمته ، فينقل إلى المرحلة الثانية : مرحلة الموت ، وهي مرحلة تنتهي بالبعث العام الشامل . كقائمة للحساب والجزاء عن هذا العمل ثم هي مقدمة للخلود الدائم في الجنة أو النار .

هذا الفهم قدمته لنا الأديان وقدمه لنا الوحي وقد أعطينا إياه لنعرف مهمتنا في الحياة ولنعرف أن الحياة ليست صدفة ، والإقامة فيها ليست اعتباطاً وإنما هي تخطيط مسبق مدبر من لدن حكيم عليم وإن علينا أن نأخذ بمهمتنا فيها على النحو الذي يكفل لنا النجاة من العقاب ولن تكون الحياة بلا معنى وهدف ، ولن يكون العالم قد وجد بلا داع . أو أنه يحصى بغير غاية فذلك قول الماديين ، ولا دليل لهم عليه . وهو القول الذي أحال صيحاتهم صراخاً في سبيل البقاء في الحياة والخوف من الموت والماديين لا يتمنون الموت أبداً بما قدمت أيديهم . ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة - كما أشار القرآن الكريم - لأنهم يخشون ما بعده .

ولا ريب أن الموت في مفهوم الإسلام قوة دافعة غير سلبية . فالمسلم لا يخشى الموت . بل يمد له وينتظره ويتمناه على أعلى مستوى : مستوى الشهادة في سبيل الله . والموت في مفهوم الفلسفات المادية نهاية . والسكينة في الإسلام بدء مرحلة جديدة . والذين يقولون إن الموت نهاية . إنما يدفعون أبصارهم إلى الإسراع في الشهوات واقتناص اللذات التي حرم الله . والخروج عن الضوابط التي رسمها الدين من أجل حماية الفرد وحماية المجتمع .

وعندما يصل الإنسان إلى الشك في أمر البعث بعد الموت ، تنحطم حياته وتفسد لأن ذلك سيدفعه إلى الخضوع لأهوائه إلى آخر مدى ، وتبدو له القيم والفضائل . وكأنها أمور لا قيمة لها ومن هنا كانت دعوة الفلسفة المادية بكل فروعها وفنونها . (المادية والوجودية والفرويدية) وغيرها إلى هدم هذا الجدار الضخم الذي يحمي الشخصية الإنسانية . وهو جدار البعث حتى يذهب الإنسان كل مذهب وحتى ينقرط عقد التماسك الأخلاقي والنفسى وينهار الجسد وهي دعوة خطيرة لأنها تدفع البشرية إلى الدمار في حين يدفعها الإيمان بالبعث إلى القوة والتماسك في سبيل بناء الحياة نفسها وإقامتها وحمايتها من العوادي .

ومن حكمة الله العليا . إخفاء ميعاد الموت ونهايته حتى يظل الإنسان قادراً دوماً على التأهب والعمل والتركيز فإذا آمن الإنسان بالله حقاً ، وعرف أن الدنيا طريق إلى الآخرة لم يفزه الموت ولا ريب أن الحياة الدنيا مرتبطة ارتباطاً جديراً بالحياة الأخرى وهي ليست إلا وجهاً من وجوهها . ومرحلة من مراحل تجربة كاملة للإنسان .

الباب الرابع

دعوات هدامة للفكر والثقافة

الفصل الأول : الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

الفصل الثاني : الإمبراطليات . الفصل الثالث : التفريب . الإستغراق والتبهم

الفصل الرابع : إحياء الملية : الفصل الخامس : الدعوة إلى العامة

الفصل الأول

(١) الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام

تمهدت في السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من مذاهب ونحل وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ ، ومحاولة خلق تراث فكري ، أو أدبي لهذه المحاولات . وقد جرى العمل لذلك في كل أجواء العالم الإسلامي وأقطاره وركز في كل قطر على تاريخ سابق للإسلام في محاولة لردّه إلى الحياة وانبعائه ، وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة والمعروف أن العالم الإسلامي قبل ظهور الإسلام ، قد عاش حضارات مختلفة ، أبرزها الفرعونية ، والفينيقية ، والفارسية واليونانية ، والهندية . وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى من الأديان المنزلة ، ثم انحرفت عنها وقد اتست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء ، والعدوان ، وعرفت في محيطها الداخلي بنظام المفارقة السكامة بين طبقتين هما : السادة والمبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام المبودية وجملته نبراساً لها فضلاً عن العدوان والغدر للأمم المجاورة . وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم قبل الإسلام من أبرز الأمثلة على هذا النهج الذي عرفته هذه الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات ولقد كانت حملات البحث عن الآثار والمكتشف عنها في البلاد العربية والإسلامية أداة عظيمة في تشكيل قضية جديدة تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية التي حطمتها الظلم وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق والتي اشتغلت بالعدوان والظلم والإبادة ، حتى جاءت نهايتها عبء لداري قيام الأمم وسقوطها . كما ارتبطت الدعوة إلى ما قبل الإسلام بالدعوة إلى القوميات الضعيفة والأقليات وقد برزت في البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والعبرية وغيرها . وأحاطها دعاتها ، والعاملون من ورائها ، والقوى الاستعمارية المدافعة لها بكثير من عوامل التحريك

والإثارة غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة المخفية ما يمكنها من الاستمرار فإن التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها ذلك أن الإسلام حين جاء منذ أربعة عشر قرناً ، قد أنهى الوجود الفكري والاجتماعي ، للمجتمعات والأمم ، وشكل لها وجوداً جديداً ما يزال حياً متجدداً . ولما كان هذا المنهج الاسلامي : هو منهج رباني قائم على الفطرة ، ملتحق بالنفس الإنسانية ، والعقل البشري . فقد شكّل في المسلمين مزاجاً له طابعه الخاص الذي انعكس في جوده بعيدة فلم يجد في الإمكان إجتنابه .

لقد تجاوز المسلمون والعرب تاريخهم القديم كله بالإسلام مرتين . مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية وعقائد التنوية ، والتعدد وعبادة الأوثان وتقديس الفرد ، وتحويل البطل إلى إله ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشري كله . وامتص منه خير ما فيه من عصارة وتجاوز ما ليس متصلاً بالأصول الأصلية له من التوحيد والعدل ، والإيمان بالغيب ، والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي .

ولا ريب أن ما استقطبه الإسلام من ثقافات الأمم وبلوره واستساغته إنما كان بمثابة مهارات الأديان ورسالات السماء . وهو الجانب المضيء في تراث البشرية والفكر البشري أما ما تبقى من الوهن والحائط بما ينحرف عن هذا الجوهر الخاص فقد رفضه الفكر الاسلامي واستبعده .

(٢) الوثنية

استهدفت هذه المذاهب الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام إحياء الوثنية والجاهلية . وهي ترمي في مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين ، لتقبل تعدد الآلهة والأصنام والنظر في بساطة إلى أمور قطع الإسلام فيها بالرفض ونهى المسلمين عن الإعجاب بها ، أو التوقف عن معارضةها .

ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها بما لم يجد سائناً أو متقبلاً في النفس العربية الاسلامية ، كالمعادن الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات . ثم المعاديات الاجتماعية في اللوازم والأفراح والمآتم ونحن نعلم أنه في عصر ما من عصور ما بعد الإسلام . استقرت هذه الوثنيات ، وعادت إلى التشكل في صور مهرجانات ، وأعياد ومواسم وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد والولادة والوفاة . وما تزال هذه المعاديات سائدة وهي تختلف اختلافاً واضحاً من إحياء ، طقوس ، لا يعرفها الإسلام ولا يقرها . وهو الذي حرر منها البشرية .

ولقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالاعوجاج ، أو الحيوانات ، أو الأنهار ، ودعا إلى التوحيد المعارض للوثنية والشرك والتعدد جميعاً ، واتخاذ بعض الناس بعضهم أرباباً كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة (الشمس والقمر) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان .

تطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه بالتوحيد وتذهب الوثنية إلى الوثن

إلى عبادة الأحجار والأصنام . وقد وصف اليونان القدماء (الإغريق) بالوثنية ، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف في المدى والنهم . وكانت الوثنية اليونانية هريقة ، لها إيدولوجية كاملة ، ولها فلاسفة أمثال : أفلاطون وأرسطو ، وشعراء أمثال : أسخيلوس وسوفوكليس . والمعتقد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان أو تأليه البشر فرداً أو أسرة أو جماعة . وذلك كعبادة الملوك والأمم الحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء أو الحديثة كاليابان والهنود . وكمعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء . ولذلك فقد حرص الإسلام على الإقتصاد في أي نوع من أنواع المبالغة في تكريم الأبطال والصالحين حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل هذا النوع من العبادة .

وكان الإغريق يقولون بتعدد الآلهة ، فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها ومن ذلك زيوس إله الجبال ، وأبوللو إله الشمس ، ونبتون إله البحر وهكذا .

ولم يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة وطبيعة البشر ، إذ يجوز على البشر من بعض وحقد وقسوة وشرة وطمع وجبن وحب الانتقام . وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى وتصف بالأخلاق الشريرة . ومن المعتقد الوثنية : الاعتقاد بألوهية بعض الكائنات الخفية وعبادتها . كالملائكة والجن والشياطين والأرواح . أو تأليه جزء من الإنسان كالعقل ، وهناك المعتقد السلبية ، والإحادية القائمة على إنكار الله ومحوه وإنكار الحياة الآخرة .

(٣) الجاهلية

تختلف الوثنية في الجزيرة العربية عن الوثنية الفارسية والإغريقية ذلك أن الوثنية في الجزيرة العربية إنما كانت عرضاً تاريخياً ، جاء بعد دعوة التوحيد التي حملها إبراهيم وإسماعيل . فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم ، ولكنهم مع تقدم الزمن ومع تفرقهم في الأقطار كانوا يحملون معهم بعض حجارة المكبة يتبركون بها ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان . ومن هنا اختفى التوحيد ، وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها إقرباب . هذه هي ما يطلق عليها المؤرخون جاهلية الغيرة — ويقدرها بعضهم بنحو أربعمائة سنة فهي أقصر وثنيات العالم ، وهي تختلف عن الوثنيات العربية أو جاهليات الفطرة بأنها لم تقم لها هياكل ولا أنظمة ولم تكن لها أساطير على النحو المعروف عن وثنيات الهند والصين والفرعون واليونان . ولقد عرفت الجزيرة العربية الأديان : كاليهودية والمسيحية ولكنها لم تعتنقها ، وظلت بقايا خنيفية لإبراهيم ممتدة إلى زمن البعثة المحمدية .

أما وثنية اليونان ، فقد كانت مثالا خطيراً للتعبد والشرك ، ولها فاحشة قائمة ومفاهيم خطيرة . ولذلك فقد كانت مفاهيمهم الخطيرة هي أبرز ما ركز عليه الإسلام وكشف ويفه وفي مقدمتها القول بتدبير العالم وأن الله سبحانه لا يحيط علماً بالجزئيات وإنكار بعض الأجساد وتقديس العقل . وبما طرحته الوثنيات الهنوية المتمثلة في مفهوم الغنوصية : وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناهي والحدس والإنراق ورفع التكليف .

ولا ريب أن إحياء ما قبل الاسلام من شأنه أن يحية هذه المذاهب والأفكار التي كسفت الاسلام وجه الحق فيها . وأبان عن زيفها وفسادها .

لا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الاسلام تستهدف إذاعة الفكر النلودي الذي شكله اليهود خروجاً عن مفهوم رسالة موسى واستهدافاً إلى تحقيق غاية معروفة هي الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين ولقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشري الوثني السابق للإسلام كله ، وأعادت صياغته من جديد ، واعتبرته تراثاً للبشرية تدعو إليه وتزدهى به وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفي عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب الآداب العقيدة *Morals and Dagny* يبدو هذا العمل الخطير في إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس والعبرانيين واليونان ، وما يتصل بها من رموز كالخنافس الذهبية والحية والسحكة والنور يحمل فوق قرنيه الشمس والنور الممنوع وأبى الحول والأهرام والمثلثات والمربعات ، والدوائر والأعداد المقدسة كعدد ٣ = ٧ - ٩ ، وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلاً عن السحر . فإنه باب وحده وقد حرصت النلودية كل الحرث على هذا التراث ، وعملت في كل المصور على تعديده وعلى بعثه في صورة أو أخرى وعلى تلقيه في الجمعيات السرية وخاصة ما يتصل بالمهاجراتنا . والرمایانا . والواندستا . والآليات وتجه النلودية والمفنا على رأس السكتب ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم وتلك هي أخطر خافية وراء إحياء ما قبل الاسلام .

بعد الاستعمار في محاولته الكبرى للتغريب ، وتمزيق وحدة الفكر والامة إلى خلق ركائز من الطائفية والقبيلة . وذلك بالتركيز على عناصر معينة ، والحيولة دون تنميتها ، أو إدماجها في المجتمعات وربما عمد إلى إثارتها ، وتعميق خلافاتها مع المجموعات . وكان هذا العمل من أخطر العوامل التي استعان بها النفوذ اجنبي لتعطيم وحدة الرابطة الجامعة تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الاسلامي ولقد كان للطوائف الارمنية واليهودية كالدونة في تركيا أبعد الأثر في تأريخ المخططات الابنية في السيطرة ، ولم تكن الطائفية ، أو ثقافية يوماً قضية وجود في محيط الاسلام ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقها في المجتمع وقد وضعت الشريعة الاسلامية لها أنظمة حمايتها ورعايتها وتكريم أهل الكتاب وحماية المعابد . وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة إلى أرقى المناصب في عصور الازدهار ، وكان لهم دورهم في الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ولم يقع بينهم وبين الجماعة أي خلاف أو صراع إلا تحت نفوذ الاستعمار ، الذي أعلن أنه إنما جاء ليحمي هذه الطوائف .

وقد استطاعت الحركات الوطنية أن تفوت أهداف النفوذ الاستعماري بالترابط بين العناصر المختلفة في الامة وأن تقضي على الدساسات الأجنبية ، والأهواء والخلافات القديمة التي حاول المستعمر تأريضها .

(٤) الإقليمية

وكانت الدعوة إلى الإقليمية واحدة من هذه الدعوات التي تستهدف التمييز والتفرقة ، لتأكيد سياسة النفوذ الأجنبي . ويبدو هذا الهدف واضحاً من خاف قضايا الدعوات الطورانية والفرعونية والفينيقية وغيرها ، وكلمات السكيان الخاص وغيرها والمعروف أن العالم الاسلامي والامة العربية لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة ، وأنها كانت تعتبر وحدة الفكر ، أساس الوحدة ، وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام هي مصدر الترابط واللقاء غير أن النفوذ الاستعماري ما كان يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه ، إلا على تقسيم الجماعة الواحدة إلى عناصر ، يتبع بعضها العرق والجنس أو يتبع اللغة والدين وكان دوماً قاهراً على إمارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد ، والتعارض بين أصحاب الأديان المختلفة . وجاء مفهوم القومية الضيقة عاملاً هاماً في هذا التحدي .

وجاء نقل مفهوم القومية الغربي الوافد إلى الامة العربية عملاً آثار البلبلة والاضطراب وأخرج مفهوم العلاقة بين العروبة والاسلام عن وضعه الاصيل .

وكانت المحاولة الأولى التي حاولها النفوذ الاستعماري أن تكون القومية بمثابة إقليمية ضيقة وأن تنحصر في مفهوم الوطنية والاستعلاء بالأرض والتاريخ الاقليمي فلما فشلت هذه المحاولة وبرز مفهوم العروبة ، جامعاً قوياً في مواجهة النفوذ الأجنبي عمدت محاولات التغريب إلى تفريغ هذا المفهوم من قيمته الحقيقية ومن اسمه الاصيل . فظهرت الدعوة إلى قومية منفصلة عن التراث والثقافة وبرزت الدعوة إلى قومية علمانية على النحو الذي عرفه الغرب دون تقدير كبير للفوارق البعيدة في الزمن والبيئة والجذور ، وفي تجاهل خطير لحقيقة أكيدة هي أن الامة العربية لا تستطيع أن تنفصل في حركتها الاجتماعية والفكرية عن قيمها الأساسية وأنها لا تستطيع أن تنعزل عن إمدادها النفسي والروحي والتفاني مع العالم الإسلامي .

(٥) الفرعونية

كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في العقد الثاني من هذا القرن ، وما وجد فيها من آثار عجيبة (وما تزال تتجدد عروض الآثار الفرعونية . ويتجدد معها الكلام عن الفراعنة) وقد اتخذ هذا العمل منطلقاً إلى إحياء ما قبل الاسلام من حيث بناء القبور والمصور على الأنماط الفرعونية والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعوني . غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن أعلنوا فشلهم وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ليكون نقطة بدء ، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية (انقطاعاً كاد يكون تاماً ، انقطعت بالاسلام الذي غير النفسية العقلية والمزاج في الانسان تغييراً كاملاً بعد أن أخرجه من الوثنية ، ودفعه إلى منهج رباني . قوامه الفطرة وكان قبول المصريين له بالذات من معجزات الاسلام الكبرى بعد انقضاء ألف عام تقريباً بين وثنية الفراعنة واليونان والرومان .

وأية هذا الفشل الذريع ما يعترف به أ كبر الدعاة إلى الفرعونية : الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه (في منزل الوحي) حيث يقول : وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موتلا لوحى هذا العصر ينشئ فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من العهد من سبب قد يصلح النهضة الجديدة وروايات فرأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربر .

ويقول الأستاذ أحمد حسن الويات : هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاثاً من التاريخ العربى . نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوايح الظلال . ارفعوا إن استطعتم هذه الروح واحمروا ولو بالفرض هذا الماضى ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الومان في مصر وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل (كتاب الاموات) وجباه ضاربة تسجد للصخور وتنبون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة .

لا نستطيع مصر الاسلامية إلا أن تكون فضلاً من كتاب المجد العربى لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب . انشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقى في يديه من أكتاف الماضى الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل ولكن أذكروا دائماً أن الروح التى تنفخونها في مومياء فرعون هي روح (عمرو) وأن اللسان الذى تنشرون به مجد مصر هو لسان (مضر) وأن القيثارة التى توقعون عليه ألحان النيل هو قيثارة (امرئ القيس) وأن آثار العرب المعنوية التى لا تزال تملأ الصدور وتملأ السطور وتفذى العالم ، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس ، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة .

وغاية ما يقال في معركة استمرت طويلاً أنها وصلت إلى النتائج الآتية :

(أولاً) أن الفرعونية لا تتمشى مع روح العصر ، وأنها لم تكن لها ثقافة ، وأنها توقفت منذ ظهور الاسلام وهدمت وفصل بيننا وبينها تاريخ إيجابى الفعالية قوامه اللغة العربية والاسلام .

(ثانياً) ثبت أن هدف المحاولة هو عزل الثقافة العربية عن الفكر الاسلامى ، وعزل الشخصية المصرية عن الرباط العربى ، فظهر أن المحاولة الضخمة في الفصل بين المصريين وبين لغتهم والاسلام كان أمراً بالغ اليأس وأن محاولة الارتباط بتراث فرعونى كان مستحيلاً .

(ثالثاً) تبين من الدراسات التاريخية أن الفراعنة موجهة جاءت من الجزيرة العربية ، وأن بين اللغة المهرغولية واللغة العربية آصرة ضخمة تؤكد أنهما من أصل واحد .

(رابعاً) كان هدف إعادة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وفهرما . من تجميد عبادة للبحر والابطال وصراع آلهتهم حول الغايات الحسية والمطامع الدنيا .

(خامساً) ثبت أن الصهيونية لم تكن نظاماً اجتماعياً ، ولا قوة دافعة إلى الحرية والمساواة . بل كانت نظاماً عبودياً ، وقيوداً من التحالف الفكري والاجتماعي .

(٦) الفينيقية

وكذلك كانت الفينيقية دعوة من الدهرات المدمرة التي أثارها النفوذ الاستعماري لتقسيم وحدة الأمة ، ووحدة الفكر وتجديد التاريخ القديم بكل أخطائه وخطاياه في سبيل القضاء على الواقع المحي الإيجابي وإعلاء شأن الإقليمية والعنصرية التي سيطرت على الأمم قبل أن يصورها الاسلام في بوتقة الموحدة التوحيدية .

وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعايات الاستعمارية . لعزل اللبنانيين عن العروبة وقد ارتكزت هذه الدعايات على أن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتي العرب ، وادعت بأنهم تاريخياً ليسوا عرباً . وإنما هم خليط من أبناء الفينيقيين وأحفاد الإمارات الصليبية .

وقد اتصل بالدعوة إلى الفينيقية دعوات إلى سوريا الطبيعية ، والأمة السورية ودعوات إلى البحر الأبيض . وجرت في ظل هذه الدعوة الدعوات إلى العامية اللبنانية وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وإعلاء اللهجات المحلية .

وتعني الفينيقية إعلاء الإقليمية في مواجهة العروبة ، وإعلاء الثقافة الفرنسية في مواجهة الفكر العربي الاسلامي وإعلاء اللهجات العامية ، واللغات الأجنبية في مواجهة اللغة العربية ، وخلق كيانات ليس لها أساس من الواقع الذي تعيشه الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً .

وقد كشفت أبحاث الآثار والتاريخ المجردة من كل هوى استعماري أو شعوبي أو دعوة للتغريب أن الفينيقية موجة من موجات الجزيرة العربية وأن شأنها في ذلك شأن الصهيونية ومختلف الموجات الأخرى التي انفصلت عن المصدر الأم .

الفصل الثاني

الإسرائيليات

(١) من أخطر التحديات التي واجهت الإسلام والفكر الإسلامي والثقافة العربية ظاهرة الإسرائيليات وهي إضافات خطيرة ونظريات زائفة مستمدة من نصوص قديمة وثنية وجوسية من خارج مفهوم الإسلام وذاتيته المتميزة عن الأديان والفلسفات تسربت مع الزمن وقصد خصوم الإسلام إلى إضافتها إلى الإسلام لملأه عن جوهرة الأصل وتمييع طابعه الخاص وإخراجه عن بساطته ووضوحه ويسره وقد أضافت في مجموعها تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الإسلام القائم على التوحيد والمتصل اتصالاً واضحاً بالإيمان بالغيب والبعث والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن ونهجه ومنطقه في مواجهة مختلف القضايا والأمور . وخاصة فيما يتعلق بعالم الغيب وما وراء العالم المحسوس . وأبرز ما أصاب الفكر الإسلامي من الإسرائيليات ما أصاب كتب الملاحم والمغازي ، وقد تنبه علماء المسلمين وأنتهم إلى هذا الخطر منذ وقت مبكر حتى أثر عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازي (أى أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة) ، ومن ذلك وضع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول الكريم في سبيل تأييد موقف أو جماعة أو بلد وكلها بما كشف المحققون عن ربه . وكذلك ما وضعه كهان اليهود : أمثال كعب الاحبار ، ووهب بن منبه ، وابن سلام وغيرهم من أخبار وأساطير .

وبما يكلف عن خطورة ظاهرة الوضع ما أثر من أنه كان على عهد الامام البخاري مائة ألف حديث لم يقبل البخاري منها سوى ٢٥١٣ حديثاً .

وتتصل ظاهرة الإسرائيليات اتصالاً خطيراً بالتفسير ، فقد دس في بعض التفاسير أساطير وأقايس غير عربية ، أو إسلامية من تراث اليونان ، والفرس ، والهند ، واليهود ، وهي مليئة بالآهواء المضللة .

(٢) يطلق المسلمون كلمة الإسرائيليات على جميع العقائد غير الإسلامية لا سيما تلك العقائد والأساطير التي دسها اليهود والنصارى في الإسلام . وأبرز ما في هذه الإسرائيليات مادة الحكاية والتنبؤات ، وخاصة ما يتعلق بفكرة المهدي المنتظر التي كان لها أثر سيء في عصور الضعف والتخلف ، وتلك للتفسيرات للآيات القرآنية ، والتوسع في أوصاف الملائكة والجنة والنار والحشر ، وتصويرها تصويراً يخرج بها عن أصلها القرآني .

وقد أشار المؤرخون والباحثون إلى أن هذه التسمكيات وصلت إلى المسلمين على أيدي القسيسين والرهبان والقبط واليهود وغيرهم من حملوا لواء معارضة الاسلام ، وإدخال الزيغ إلى أصوله . وقد اضيف إلى الإمبراطليات مع ترجمة الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية إضافات أخرى كونت حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون وأعداء العرب والاسلام في القديم سراحاً لتحويل الابصار عن جوهر الاسلام وإخراجه من مضامينه وقيمه وإتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والثناوية والتعدد لغزوه والتأثير فيه . وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الدخائل الإمبراطلية الباطنية والمجوسية وغيرها وفندوها وكشفوا عنها وفي مقدمة من قرى ذلك : الجاحظ (البيان والتبيين) والفاضل ابن العربي (العواصم من القواصم) وابن الجوزى (تلبس إبليس) ، كما واجه هذه القضايا : ابن حزم والغزالي وابن خلدون ، وعرضوا الآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمناوية وغيرهم .

وفي عصر الضعف ومرحلة التنازع وفترة التجميع ، ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون وجمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مفسوسة على الدين . وفي مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور ، والعرائس في القمص والأخبار .

٣ — حفلت بعض كتب التفسير : أمثال الثعلبي والكسائي والحاازن بأمثال هذه الروايات . كما جاء الطبري في تفسيره بأشياء منها . وكانت أمثال هذه الروايات متداولة ، ينقلها القصاص بين العامة وكان الخطأ في رفعها إلى مقام التدوير ، مما ساعد على إشاعة الخرافات والأضاليل في النفوس . ولم يتوقف أثر التداخل المتصل بالإمبراطليات في الفكر الاسلامي ، فكان له في العصر الحديث أثرى أثر . بل لقد كان من العوامل الهامة في مجال إثارة الشبهات والمفاهيم المغلوطة في مجال الثقافة العربية . وفي مقدمة ذلك خطأ تفسير الخطيئة والخلص والقداء . وكلها كلمات تسمرت إلى الأبحاث العربية دون أن تعطى بتحقيق واضح لمضامينها وآثارها وموقف الإسلام منها . ولقد كان لعمل المستشرقين الخطر في ضم مثل هذه الإمبراطليات إلى مادة دائرة المعارف وتركيز الاهتمام على اليهود أثره البعيد في أن بدت الإمبراطليات ، وكأنها عناصر من الفكر الاسلامي . فإذا سجات دائرة المعارف . وضمت إلى موادها مادة : رجعة روصية ، واتحاد ، وحلول وغير ذلك : تسمرت إلى ظن المسلمين أن هذه المواد من صميم مفاهيم الاسلام

٤ — وقد كان لمداخلات الفنوصية والهيلينية في الفكر الاسلامي أثرها في دخول كثير من الإمبراطليات ومن أمثلة الأحاديث المدخولة في هذا الشأن ، تلك التي حاولت أن تعطى العقل مكاناً معيناً أو تصور الرسول بصورة لم ترد في القرآن أو تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ما لم ينزل به سلطاناً ، ومن هذه الأحاديث : الزائفة قولهم : أول ما خلق الله العقل وقولهم : كنت نبياً وأدم بين الطين والماء وقولهم : كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف .

وقد هاجم الامام ابن تيمية ، هذه الأحاديث الموضوعية هجوماً عنيفاً وأثبت زيفها ووضعها وصالتها بمفاهيم الفلسفة اليونانية وتعارضها مع جوهر الاسلام كما عارض العلماء المسلمون ما يتصل بتجاوزات بعض العابدين كالتهايم الشعبيين ، والمشي على السيوف والرقص على نقرات الدفوف .

وقد وضع الحقون لهذه التجاوزات ضوابط ، فقال أحدهم : لو نظرتم إلى رجل أهدى من
الكرامات حتى يرتقى في الهواء ، فلا تفتروا به حتى تنظروا كيف تهدونه عند الأمر والنهى وحفظ
الحدود وأداء الشريعة . وقال الامام الغزالي في هذا الصدد : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويهش على
الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف للشرع فاعلم أنه شيطان .

• - وقد ذهب أغلب الباحثين إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الإسرائيليات إنما وضعت
عن تدبير وتخطيط وخصوصة وكيد وأنها من هوامل الحرب العسكرية والعقائدية الضاربة التي شنها
اليهود وغلاة النحل المبتدعة على الاسلام والمسلمين بكافة الوسائل من التخني والقتال والقوية بقصد
تمزيق وحدة المسلمين وتليينهم عن دينهم القويم وتشجيعهم عن صراطهم المستقيم ويصف بعض الباحثين
هذه الظاهرة بأنها ليست إلا حرباً حقيقية لكتاب الله ، أرادوا بها صرف كل من يقرأ نفسهراً من
التفسير عما يريد الله في كتابه من هداية البشر إلى كتابات وأطجيب وأساطير تستوى البسطاء . ثم
نقرا كم هذه الأساطير وتعرض حركة الإفهام السليمة ٩

الأساطير

١ - ويتصل الحديث عن الإسرائيليات بالحديث عن الأساطير . وقد جاء الاسلام معارضاً لها
كاشفاً عن زيفها ، محرراً العقل والنفس الإسلامية من الخرافة . وقد ارتبطت الأساطير بالوثنية
اليونانية والفارسية والهندية ارتباطاً وثيقاً وغلبها الإغريق ظلماً شديداً فقد كان لديهم قصص كثيرة
يفسرون بها الحياة والطبيعة والخير والشر ، وكانوا يؤمنون بأن هذه الأمور بأيدى آلهة وإلهات .
ويربط الغربيون بين الأسطورة والدين ، بينما يمان الاسلام بالحرر الكامل من كل أسطورة أو خرافة
أو صورة غامضة .

والعرب قبل الإسلام ، لم يكونوا يعرفون من الخرافة إلا قدرأ قليلاً ساذجاً ، وقد أسقطه
الاسلام ومجاء ، وأحل محله قصصاً حقيقية من عبر التاريخ وأحداث الأمم أما غير العرب من
الفراعنة والفرس ، والهنود ، فقد كانت لهم أساطيرهم المشتركة الاصل الوثنية الطام . وقد كشف كثير
من الباحثين عن الاصل المشترك ، والالتقاء الجذري للأساطير اليونان والمسيحية والفراعنة وما نقل
إلى العربية من أساطير في كليله ودمنة وألف ايلة وليلة وإنما هو تراث من أساطير ما قبل الاسلام
الهندية ، والفارسية ، والفرعونية ، واليونانية ويحتوى الهد القديم هديداً من هذه القصص والنبوءات
وقد استغل الأدباء ، ورجال الفقه والفن من الغربيين هذا التراث . أما القصص الشعبي فهو بقايا
الأساطير التي سادت في العصور الوسطى عن الحروب والغزوات واقد وضع القرآن كل هذا التراث
للقديم في ميزان النقد ورد على كل ما فيه من زيف وكشف عن الحقيقة وأسقط الأساطير والاضاليل .
وجلا الحقيقة في مختلف ما يتصل بالعصور القديمة من أحداث ومواقف ويتصل بمجهر الدين ورسالة
الانبياء ونضالهم في مواجهة معارضة الأمم والمتغنين من المكذبين .

٢ — وقد قذف الغربيون الفسكو الإسلامي ، والأدب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الأساطير في محاولة لتجديدها وإذاعتها ، وعلى كثر من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة إغراق الأدب العربي بها ، وجرى البحث حول الأساطير في الأدب العربي نفسه وكان من أهم مهوم المستشرقين والمبشرين للبحث عن الأساطير . وقال رينان : إن العرب كمثل الأمم السامية ليس لها أساطير في شعرها ، ولا في عقائدها ونسب أن اليهودية التلودية هي مفرخ الأساطير البشرية الأكبر وأن كل ما عرف من أساطير بابلية وأشورية وغيرها ، إنما تتصل بالوثنية والإباحية التي أذاعتها التلودية . محد البعض إلى بحث الأساطير العربية في عصر ما قبل الاسلام ، وكان المفكرون المسلمون قد حرروا السيرة النبوية من كل ما يتصل بها من أساطير وزيف وأقاموا منهجاً من التحقيق العلمي في الحديث وصف بأنه أعظم المناهج التي عرفها البحث العلمي ، غير أن بعض الكتاب جاء في المصور الأخيرة ، فأعاد الأساطير إلى السيرة مرة أخرى . وخطأها بها وانتحل أساطير جديدة وقد بدا ذلك واضحاً في كتاب (على هامش السيرة) .

وقد عارض الباحثون هذا الاتجاه ووصفوه بأنه اتجاه خطير بعد أن حرص المسلمون طوال العصور على تنقية سيرة الرسول من الروايات الخيالية والوهمية التي حاولت الإسرائيليات إلصاقها بها . ويتصل بهذا إذاعة أساطير في مجال السحر (Magic) وفنون السحر هي فنون اليهود القديمة التي برعوا فيها والتي ما زالوا يحضون عليها وهي عمل من أعمال الأساطير وجمع الخرافات وما يتصل بذلك من القول بقداسة الشجرة والجبل ويتصل هذا بالسكمانية والعرافة ، وذلك أن السكمانية في مفهومها هي محاولة استطلاع الغيب عن المستقبل بينما العرافة تعني باسترجاع الماضي وهما محاولتان للتنبؤ . وقد رفع الاسلام كل هذا التراث بما فيه من خرافات وأوهام عن المسلمين وأسقطه نهائياً من دائرة فكرهم وأقام مفهومهم على اليقين والبرهان والدليل والاستقرار والتجربة وبمفهوم المسلمين تجاوزت البشرية (عصر السحر والأساطير والنجوم وخرافات الطلاسم والرقى والقرابين التي كانت تقدم للأشجار والأصنام لتحميمهم من شرها وخطرها ، ولقد ارتبط السحر بالوثنية والإلحاد ارتباطاً واضحاً ، ولتنفوس الوثنية والملحدة تفقد الأمل والرجاء في الخير كما تفقد طابع التفاؤل والبشرى ، والمسلم المؤمن لا ييأس من روح الله ولا يخاف شيئاً ، ومن هنا ارتبطت الوثنية بالخوف من العوالم الباطنة وأخطار الشياطين والجبن والظلام ولقد حرر الاسلام للبشرية من أن تصلى أو تقرب إلى من كانت تطاق عليهم آلهة الخير من أجل الدرية والحصاد أو آلهة الشر من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار ومنعت المسلمين نهجاً قائماً على التوحيد والايان بالله ورجائه وحده ، والخوف منه وحده ، وأنه المرجع الأول والأخير في كل خير وشر ، وهو الذي يرفع الضر وينزع الخير : ، إن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فهو على كل شيء قدير .

الفصل الثالث

دعوة التغريب

وقوامها : (التبشير والاستشراق)

(١) قبل أن يصدر المستشرقون الخمسة كتابهم (وجهة الاسلام) في أوائل الثلاثينات من هذا القرن لم تكن كلمة (التغريب) معروفة أو متداولة ، حتى يمكن القول بأنه أول من طرح هذا المصطلح هو كبيرهم : هاملتون جيب . ويعنى به ، القدر الذى أثرت به الثقافة الغربية في الاسلام ، يركز هو امل التغريب في التربية والتعليم والصحافة وعماها وساطاته في سبيل إقامة الثقافة الحديثة . ويصل إلى الهدف حين يقول : إن التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترى إلى ، الفجوة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية . . ومعنى هذا أن الهدف هو إقامة هذه ، الانشطارية ، بين قيم الاسلام المتكاملة الجامعة بينه دنيا ومنهج حياة للوصول إلى أن يصبح الاسلام ديناً لاهوتياً فقط ويسقط الجانب الآخر منه وهو جانب النظام الاجتماعي ومنهج الحياة .

ويقرر جيب أن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته ، أما كنظام للحياة الاجتماعية فإنه قد نزل من عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تقاليد ، وتنظيماته الاجتماعية ويعانى بها غلبة المصرف القائم على نظام الربا وسيطرة القانون الوضعي . ويتحدث أرنولد توينبى في كتابه : (العالم والغرب) عما أسماه الدور الذى لعبه ضباط تركيا في حركة ، التغريب ، وكيف تسربت عدوى الأفكار العربية إلى عقول الضباط . ويقول : ، إن مسألة التغريب المتزايدة في تركيا لا تحمل الاباحية وسيلتين : ، إما أن يدفع الأتراك يوماً ثمن خطايم بانهيائهم تماماً . أن ينجوا من التصفية الشاملة بحصرهم قوام كلاً قلباً وعقلاً في التغريب . .

ويعقد جان بول رو في كتابه ، الاسلام في الغرب ، فصلاً كاملاً تحت عنوان ، تغريب الاسلام ، ويعرض للتغير في حياة المرأة والتربية وخروجها من منهج الاسلام والتبشير في أفريقيا وتجربة النظام اللبرالى السياسى . ولا ريب أن معالجة المستشرقين هذه الظاهرة يمثل هذه الجرأة والتوسع لتعد دليلاً أكيداً ومدروساً على ما يعتقد به المصلحون المسلمون من رجال حركة اليقظة ، بأن هناك غلطاً دقيقاً منتظماً ظل يعمل سنوات طويلة من خلال مناهج التبشير والارسابيات ومعاهدتها . تقوم بدعم ، والتخطيط له وإعداد مادة الحرب من نظريات تحمل الشبهات والمغالطات والشكوك قوة كبرى هي هيئة الاستشراق .

وعن طريق المدارس والمعاهد التبشيرية والصحف تنار هذه الذهبات والشكوك ، وتنمو وتفرس

في العقول والقلوب على النحو الذي يحقق هدف الاستعمار بصير المسلمين والعرب في بركة الثقافة العالمية الغربية .

ولم تكن في حاجة إلى أن تقدم هذه الفاذج لولا أن بعض المفرضين من خصوم العرب والاسلام يعلنون انزعاجهم في كل مناسبة عند ما يكشف الأبرار عن هذه الخفايا ويفضحونها ويضعونها أمام اللعاب المثقف لمعرفة أبعاد الأخطار التي تحيط به مما يطلق عليه الغزو الثقافي والتغريب .

ولا ريب أن معارضتهم هذه تكشف عن همالتهم وتبعيتهم وحرصهم على التماس مصادر الرزق والجاه : « تعنى عبد الحميد ، تعنى عبد الدينار ، تعنى عبد القطيفة ، تعنى وانتكس ، وإذا شيك فلا انتنص » .

والتغريب في أبسط مفهوم هو : حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب والتخلي عن العقائم الأصلية التي تفرض ذاتية خاصة وطابعاً مميزاً للاسلام وآثاره في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والتربية . ونحن ندرك أن الغرب في غزوه لعالم الاسلام في العصر الحديث قد ابتكر أسلوباً جديداً يحقق عن طريقه ما عجز عنه في الجولة السابقة : جولة الحروب الصليبية التي خرج فيها مهزوماً مدحوراً ومن هنا كانت خطته في أن يتجنب الصدام وأن يعمل عن طريق التبهيش والاستشراق لحدم مقومات القوة في فكر المسلمين والعرب وبالتالي في مجتمعاتهم .

وكانت فريضة الجهاد هي أخطر هذه المقومات ولذلك فقد وضعت مناهج التربية والتعليم على النحو الذي يكفل تجاوزها أو حجها . وبلى هذا الهدف أهمية تهمته مفهوم الاسلام ومحاولة رده إلى مفهوم عبادة لاهوت ، رغبة في القضاء على جانب التشريع الاسلامي وإحلال القوانين الوضعية بدلاً عنه . ولا ريب أن مظاهر التغريب عملة في حركة التبهيش قد كانت ولا تزال واضحة أمام أمتنا على النحو الذي لا سبيل إلى تجاوز تقدير خطره . ومن خلال مخططات التبهيش وعمله انكشفت حقيقة التغريب حين قال دكتور روبرت : ليس الهدف من التبهيش هو إدخال المسلم في دين آخر ، ولكن الهدف هو إخراجهم من الاسلام حتى يكون خصماً له وعدواً ، فالهدف إذن هو توجيه الثقافة إلى مفهوم الإلحاد والإباحية التي تفتح الأفاق إلى الانتفاض على الدين والخلق جميعاً . وهذا هو الغاية الكبرى للتعليم التبهيشي .

واقصد كشفت أفكار المستشرقين وآرائهم المسمومة الهدف من كتاباتهم وما فيها من تحريف وريف . وقد ركزت حملة التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة ، وأثارت حملات التشويه والتهميه والقطع بين الأصول والفروع وإفسادها .

وكانت المحاولة هي : إحلال النظرة الجزئية بدلاً من النظرة العامة . وطرح مفاهيم للقيم تختلف عن مفاهيمها الأصلية والتزاع الطوائع المبدية لفكر الاسلام والثقافة العربية كالتفضيل عن الفوارق بين المعرفة والثقافة ، والمخاطب بين العلم والفلسفة والدعوة إلى مفهوم الغرب القائم على الفصل بين القيم فيما يتعلق بالادب والسياسة . فضلها عن الاخلاق .

(٢) والجهة فإن التغريب يستهدف إيجاد شعور بالنقص في نفوس المسلمين الشرقيين عامة وذلك بإثارة القبايل وتحريف التاريخ الإسلامى ومبادئ الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله وائتماس الدور الذى لعبه في تاريخ الثقافة الإنسانية ومحاربة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل في ماضى هذه الأمة ، مع توهين القيم الإسلامية والغنى من مقدرة اللغة العربية وتقطيع أوصال الروابط بين العرب والمسلمين . ومن أخطر مخططات التغريب الحيلولة دون قيام (وحدة الفكر) التى هى مقدمة لوحدة الأمة وبليلة العقول والنفوس بعشرات من المذاهب والدعوات وتجميد الفوارق الثقافية والاقتصادية في الأمة الواحدة بما يحول دون قيام الوحدة .

وحركة التغريب (Westernisin) دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائها تدعمها مؤسسات مختلفة أهمها مؤسسة التبشير ومؤسسة الاستغراق . ويقول أصحاب هذه الدعوة إن المسلمين والعرب قبيحا ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج في الأمم الأخرى وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبي والغاصب ، ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا صهر هؤلاء في بوتقة الفكر الغربى وإخراجهم من قيمهم لينصهروا في قيم الغرب ، وذلك لخلق جو من الالتقاء معه والتقبل له ، والانضواء تحت لواءه .

(٣) يعتمد التبشير على المدرسة والمستشفى من خلال حالة الطفولة والتكوين للنشء ومن خلال حالة المرض والضعف للبريضى . وقد أجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من « التبشير » : هو إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى وإبعاد العناصر التى تمثل عن الإسلام عن مراكز التوجيه . وقد كانت خطة التبشير - ولا تزال موحدة شاملة وذات مراحل وحلقات ، وقد أشرف عليها رجال ذوى خبرة واقتدار وفهم عميق لمخططات التغريب في خدمة الاستعمار ، وهى تتبع عادة وزارات الخارجية والمستعمرات في الدول المستعمرة ، ولها ارتباط مع جهاته المشرقية لاستخلاص المادة المتجددة للهيكليك وإثارة الشبهات .

وقد تأكد مدى التناسق بين هذه الهيئات جميعاً من التقارير التى نشرتها مؤتمرات المشرقين : والتى تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين في العمل داخل البلاد العربية والإسلامية وتؤكد أهمية عملهم وخطورة دورهم في أن يكونوا عنواناً لها وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذى تريده . وقد أشار كثير من الساسة إلى أهمية الدور الذى يقوم به التبشير ، فقال لورد بلפור وزير الخارجية البريطانية :

« إن المبشرين في نظر الاستعمار هم عيونهم التى تقوم بإطلاع الدول الغربية بالنواحي التى بهم معرفة من عقائد المسلمين وآدابهم وثقافتهم التى يتأثرون بها ، ويشير المؤتمر الاستعماري المنعقد في براين هام ١٩١٠ إلى أن ارتقاء المسلمين يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم وأن هذا يتطلب من الحكومات تبني عمل التبشير وإفساح الطريق أمامه .

ومن مناهج التبشير وأنظمتها تلك القاعدة التي تقول إن جميع الوسائل تستغل في سبيل التبشير حتى أمال البر ، وأن التطبيق والتعليم من أهم وسائل المبشرين . وتشير المخططات إلى أن يكون عمل التبشير مبنياً على قواعد التربية العقلية والتأثير على عقول المسلمين وفلوبهم وبث الأفكار التي تنسرب مع اللغات الأدبية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والالمانية والهلندية والفرنسية بما يمدد إلى إدخال تلك الأفكار وأن هذا يؤدي إلى سقوط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الاسلامية لتحل محلها الخصائص الغربية . .

(٤) ولما كان الاستشراق هو : المصنع ، الأساس لمخططات التغريب بينما التبشير هو أداته فإن أصدق تعريف للاستشراق هو : استخدام العلم في خدمة السياسة . . ومادة الاستشراق هي أعظم معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة ، وفي مجال التعليم لدعم خطته وإثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات . ذلك أن الاستشراق إنما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة وبأهداف واضحة : أساسها خدمة النفوذ الاستعماري وقوامها التعصب والاثام للإسلام والعروبة واللغة ، وأعمال رجاله هي البحث بملقاط وتحت مجهر عن هفوات صغيرة وتكبيرها وجمعها واضخمها ، ومهما صبت كلماته في أسلوب براق له مظهر علمي ، فإنها تنطوى على الحقد والتعصب مع عدم الخبرة ووضوح هدف الانحياز .

وقد حمل عدد كبير من رجال الاستشراق في مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً في أيدي المبشرين . ومن هؤلاء مرجليوث وماسفيون وهنري لامنس ولويس سنجو وفنسلك وجولد زهر . وهم أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية وتكشف أعمال المستشرقين على غير قليل من القصور في الفهم أو الهوى في القصد ، وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق : إن رجال الإرساليات التبشيرية قد خلعوا أرواحهم في السنوات الأخيرة (بعد أن انكشف أمرهم وتخفوا وراء أستار الاستشراق) . ويتحدث الكثيرون بحسن نية وبساطة عن الدور الذي حققه الاستشراق في بعث التراث العربي الإسلامي ، ومن يعرف أن مصدر اتهام للمستشرقين بالإسلام والعرب ليس مجرداً ولا أخالفاً لوجه العلم والحق إنما يدركون كيف يفيدون من وراء هذه الدراسات تعرفاً إلى نفسية هذه الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم ، وليكشفوا أطلعاتها ليحكموا الضربة ويصيطون بوسائل الإخضاع والسيطرة ، وهم يستمدون من ذلك كله معرفة جوانب القوة للقضاء عليها وجوانب الضعف لتعيقها ، وذلك في سبيل هدف واضح هو أن يبقى نفوذهم ويستمر ، وهم في كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع الإسلام والعرب واللغة العربية والتاريخ ، في قفص الاتهام ، وأوقفوا كتاب العرب والمسلمين موقف الدقاع ورد السهام .

وإذا كان الاستشراق خالفاً لوجه العلم حتى يركز على الجوانب الضعيفة والروايات للدخولة ، والشبهات للشكوك فيها والنصوص المحتملة ، ويدع كل ما هو وثيق ومستكمل وواضح ، ولماذا يركز على الخلاف حين يدرس الشريعة ويركز على الباطنية حين يدرس الفلسفة ويركز على وحدة الوجود

حين يدور التصوف ويركز على العامية حين يدرس اللغة . ولماذا يولى اهتمامه لبشار وأبي نواس في الأدب ، والحلاج والسيهروردي في التصوف ، وأبو بكر الرازي والراوندي في الفلسفة ، ولماذا يهاجم المتنبي والغزالي وابن خلدون وابن تيمية وهم من أبرز أعلام الأدب والفكر الإسلامي ؟

ولماذا يدع ألف باب من أبواب الأصالة في الفكر الإسلامي ليركز على حواشي متصل بالآثار الفارسية والهندية واليونانية ، ولماذا يبتعث من جديد الشبهات التي أثارها الشعوبية قديماً وبطرحها من جديد ، ولماذا يمين إلى البقاء حيث لا سبيل للبقاء : الفرعونية والفينيقية ، ويركز على الخلاف بين السنة والشيعة ويحاول إثارة الخلاف بين الأديان والأمم والمذاهب ويفتح باب الشكوك بين العرب والمسلمين . ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والفرامة والمجوسية والادعاء بأنها ثورات إسلامية . ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن نبوة أبو مسيلة الكذاب وإنكار وجود عبد الله بن سبأ .

إن نظرة شاملة إلى أعمال الاستشراق تكشف بوضوح عن أنه ركز على الأفكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة وحاول أن يضم ذلك كله إلى تراث الإسلام النقي الصافي .

(٥) ومن خلال مخططات الغريب برزت مجموعة من التوابع الذين شكلهم النفوذ الغربي في إرسالياته ومعاذره ، يحتقرون كل قيم العروبة والإسلام ويعارضون مقوماتها ويقفون موقف الاستهانة والغض من قدرها . وقد تشكل من خلال هذه المضامين المنحرفة ما يسمى بالشعوبية الحديثة . وهي مضامين تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية للفكر الإسلامي العربي ومفاهيمه في اللغة والقرآن والرسول والإسلام والتاريخ والتراث . وتقوم في أغلبها على انتقاص هذه المقدرات والغض من شأنها وإثارة الشبهات حولها . وهي في مجموعها تقوم على الأسس الآتية :

(١) الإقليمية وإعلاء شأن الدعوات القديمة كالفرعونية والفينيقية والجاهلية العربية والوثنية اليونانية وإحيائها في الأدب والتاريخ والمسرحية والرواية (٢) إنكار الروابط العربية الإسلامية الجامعة (٣) الغض من قدر اللغة العربية وإعلاء العاميات (٤) انتقاص التاريخ العربي الإسلامي (٥) محاولة وضع مصطلح القومية الوافدة في مكان مفهوم العروبة الاصيل (٦) إنكار أثر الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة البشرية (٧) تفريع مفهوم العروبة من القيم الإسلامية والتاريخ والتراث . ويقاب على هذا الاتجاه طابع د العصرية ، وغلاف العلمانية ، وإطار براق من النهج العلمي الخداع الذي يخفي وراءه أكبر مخاطر النعصب والحقد والتشكيك والانتقاص .

وتستهدف الشعوبية الحديثة إذابة العرب والمسلمين في مفهوم زائف وخطير هو مفهوم عالمية الثقافة أو منهج الفكر الحر وكلاهما من صياغة الدعوات الهدامة والتلويحية الصهيونية .

الغفيل الرابع

إحياء الهلينية

(١) كان من أخطر المحاولات التي جرت في ظل النفوذ الاستعماري : إحياء الهلينية ، ومحاولة إغراق الفكر الاسلامي والثقافة العربية في موج متلاطم من مترجمات اليونان والإغريق . وقد بدأت هذه الدعوة بترجمة مؤلفات أرسطو ، ثم بالتوسع في ترجمة الأسطورة . واتسع نطاق هذا الاتجاه حين أدخل إلى الدراسات الجامعية : مادة اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين . ومن ثم نشأ تيار ضخم أعاد بعث هذا التراث وفرضه على الأدب العربي والفكر الاسلامي . ومن ثم أصبح له تأثيره في مقومات الأدب وخصائص الفكر ، وهو أثر جاء أشد عنفاً من أثر الترجمة التي تمت في العصر العباسي للفلسفة اليونانية . وقد جرت الدعوة إلى هذا المخطط تحت عنوان ضخم ورائف في نفس الوقت هو القول بأن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الإنسانية .

وقد كشفت الأبحاث الجادة عن ريف الدعوى القائلة بأن مصادر كثيرة في البلاغة أو النقد أو المنطق قد استمدتها الأدب العربي من اليونان . فقد كان العرب قد أشكوا بيانهم وبلاغتهم ونحوهم قبل أن يتصلوا بالإغريق . وكان لهم من القرآن منطلقاً أساسياً لبناء أدبهم وفكرهم ، وكانت اللغة العربية بماضيها الحافل واستقلالها الواضح قد خطت خطوات واسعة قبل الاسلام ، وقبل نزول القرآن على نحو يكشف عن زيف دعوى التأثير العربي باليونان ، وهي دعوى أذاها بعض الشعوبيين من أتباع الاستغراق والتبشير بهدف القول بأن تبعية العرب في القديم لليونان لا تمنع تبعيتهم في العصر الحديث لحلفاء اليونان من الأوربيين .

(٢) وما كذبته الوقائع والأسانيد القول بأن عقلية مصر عقلية يونانية أو أن الفكر اليوناني قد أثر في الأمم التي جالعت على شاطئ البحر الأبيض قبل الاسلام . ومهما يكن هذا التأثير فإن الاسلام قد جب كل ما قبله ، وأزال من العقول والنفوس كل آثار الأمم والأديان والمذاهب ، وأقام منهاجاً جديداً مستمداً من القرآن ومرتبطة بالدين الحق في كل ما أنزل الله على نبي سابق ، وهو في نفس الوقت متصل أقوى الاتصال بالنفس البشرية والفطرة الإنسانية .

واقف أكد كثير من الباحثين أن ظهور الاسلام كان بمثابة فاصل فكري وحاجز عقلي بين عنصر وعصر ، وأن ركاز الفكر البشري الذي كان يعموج قبل الاسلام قد أصابه ومن كبره عند ما وقع تحت أضواء الفكر الرباني الموحى به ، والإنساني الطابع ، والحرر للبشرية من العبودية والوثنية والإلحاد

والإباحة ، ولا عبرة لما يتردد من أن الفلسفة الإسلامية لم تكن إلا فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية فقد اتخذ المسلمون منطلقهم العلمي ومنهجهم في المعرفة من القرآن وبه شكروا منهاجاً خالصاً يختلف كل الاختلاف مع الفلسفات القديمة ويتمارض معها من ناحيتين : من ناحية نقطة البدء ، وهي التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد . ومن ناحية نقطة التطبيق وهي المجتمع القائم على المساواة في مواجهة نظام العبودية الخطير الذي كان قائماً في مجتمعات الحضارات الثلاث الكبرى في العالم (الفرعونية والفارسية والرومانية) .

ولقد كان لعلماء المسلمين موقفهم من آراء أرسطو ، ومن المنطق بصفة عامة .

(٣) وإذا كانت الفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر العباسي قد جاءت باختيار المسلمين فإن الفلسفة اليونانية التي ترجمت في العصر الحديث قد جاءت وإرادة المسلمين مسلوكة وقد فرحت عليهم فرضاً ، فلم يكن لهم دور في اختيارها . ومن هنا فإن ما ترجم من عناصر الأسطورة والممرحية وللأساءة ومفهومها ، ومحاولة إدخال ذلك في الفكر العربي الإسلامي إنما جاء معارضاً لذاتية العربية والمراجع العربي الإسلامي الذي تشكل في ضوء القرآن خلال أربعة عشر عاماً على نحو مختلف عن مفاهيم اليونان الوثنية القائمة على المادية والإباحة .

وإذا كانت المدرسة الهلينية الحديثة قد استطاعت أن تحقق انتصاراً خاطئاً ، فإن مدرسة الأصالة التي انبثقت من حركة اليقظة العربية الإسلامية قد استطاعت أن تكشف هذا الويف وأن ترد الأمور إلى حقائقها ليس بالنسبة للترجمات المستعجمة لحسب ، بل بالنسبة لتقويم مترجمات الفلسفة اليونانية إلى الفكر العربي الإسلامي كلها ، فقد تسكفت حقائق كثيرة في هذا المجال أهمها :

(أولاً) إن الفلسفة التي ترجمت للمسلمين في العصر العباسي لم تكن ثقافة إغريق صحيحة بل كانت صورة من عقائد النساطرة واليعاقبة الذين ترجموها والذين عمدوا إلى التبشير بمعتقداتهم النصرانية في عالم الإسلام متخفين من ترجمة الفلسفة اليونانية سبيلاً إلى ذلك . هذا فضلاً عن أن عدداً من الكتّاب ترجم ، فسوياً إلى مؤلفين غير الدين ألفوه . ومن أخطر ذلك ما نسب إلى أفلاطون وهو من تأليف أرسطو مثلاً . وقد اعتمد الفلاسفة الذين حلوا هذا المواء أمثال الفارابي وغيره على هذه الزيوف ، فكان لها أسوأ الأثر في أبحاثهم .

(ثانياً) تكشف بطلان الدعوى التي ادعاها بعض الشعوبيين من القول بتأثر العرب بالأدب اليوناني . وقد أفاض الباحثون في تزييف الرأي القائل بالتأثر ومن هذا ما أثبتته غزوى أبو السعود : المر في ذلك راجع إلى سلبية العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان . فإن العرب لم يكن لديهم سوى اللسان أداة للتعبير ، ومن ثم تأصلت فيهم بجمية البلاغة وارتفعت فيهم مرتبة البلغاء ، وتوطدت لغتهم ونضج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم في الحضارة ولذلك لم يحاكون شيئاً من من الفنون التي كانت حولهم في اليونان والرومان والفرس والمصريين .

(ثالثاً) أمكن التفتيش في النصوص القديمة والكشف عن زيف الادعاء بأن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب .

فقد كشف ابن الأثير في المثل السائر ، خطأ هذا الاتهام - وكتاب المثل السائر من أشهر كتب البلاغة - وذلك في قوله : « فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وعملوا منه . قلت لك في الجواب إن هذا شيء لم يكن ، إلى أن قال : « وهذا باطل بي أنا . فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامي « إلى أن قال : « واقد فارضني ببعض المتفلسفين في هذا . وانساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والفسر . وذكر ضرباً من ضروب الفسر اليوناني يسمى الاغوذيا . وقام فأحضر كتاب الشفا لأبي علي . فوقفني على ما أذكره . فلما وقفت عليه استجباته ، فإنه طول فيه وعرض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذي ذكره لغو لا يستفيد منه صاحب الكلام العربي شيئاً . »

(رابعاً) انكشفت المحاولات الهدامة التي تهدف إلى ربط الفكر العربي الاسلامي الحديث بالهلينية كهدف من أهداف التغريب لإحياء الوثنية في محبط الاسلام ، وربط هذا الاتجاه بتقبل سيطرة الفكر الأوروبي الحديث على العرب والمسلمين وإن كل ذلك إنما يهدف إلى هدم قيم الاخلاق وإحياء الإباحية .

يقول الدكتور ركي مبارك : « عاش اليونان في جاهليتهم بعد ظهور الاسلام بأجيال طوال . وظلوا يتوارثون أوهام أسلافهم من عصر إلى عصر ، إلى أن جاء المتطرفون من شعراء الفرنسيين والانجليز فمكفروا على هذه الوثنية يعيدونها من جديد ، لأنها قامت على أساس براق هو التقديس لطرح الأهواء وطغيان الأحاسيس . »

وإذا كان الرجل يعجب من سكوت العرب عن ترجمة ما كان عند اليونان من أسفار وأقاصيص ، فإن المسلمين الذين نهام دينهم عن إحياء الوثنية العربية قد انتهوا بفضل الدين عن إحياء الوثنية اليونانية .

(خامساً) حارص الباحثون هذه المقالة في القول بأن أرسطو هو معلم العرب الأول وأن اليونان هم أساتذة العالم ومنقفو الشعوب ودحضوا محاولات إبراز مكانة الخطابة في اليونان ، وإعمالها عند العرب ومحاولة فرض مفكرى اليونان على أنهم قادة الفكر البشرى .

وقال الباحثون : إن هذه محاولة لإبعاد النفوس عن مجد اللغة العربية وسحر أدبها بحرمان الناشئة من معرفة الوسائل المؤدية إلى هذا السحر وهذا المجد .

(سادساً) وقف الفكر الاسلامي والثقافة العربية موقفاً معارضاً لكل القيم والمفاهيم التي عملتها الهلينية إلى العرب والمسلمين وحال إيمانهم للمبني بالتوحيد دون الخضوع لكل ما تحمله الهلينية من وثنية وإباحية ومعارضة الفطرة .

وقد أشار أراست وبنان إلى هذا المعنى حين قال : إن التوحيد هو أم خصائص العرب ، وهو الذى يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، وقد كان دين إبراهيم خالياً من التعقيد . وأشار إلى حركة الوهابيين في الجزيرة العربية وقال : لأنها تجديد لفكرة التوحيد باتجاهها إلى تخصيص العقيدة الإسلامية من كل العناصر الغريبة التى دخلت إليها وأبعدتها عن فطرتها الأولى .

وإن هذا المفهوم من التوحيد هو الذى حال بينهم وبين الميثولوجيا التى عرفها اليونانيون .

(سابعاً) كشفت حركة اليقظة عن اختلاف مفهوم الفكر الإسلامى والفكر الهلين حول الفقه والرواية والشرح ، وأبانت كيف لم يكن الغرب والمسلمون فى حاجة إلى هذا الفن لصناعة فكرهم ووضوح دعوتهم وبساطة كلمة التوحيد وبعدها عن التعقيد الذى يحتاج إلى تفهيم من خلال أساطير ومسرحيات ، وكذلك استبعاد المسلمين لفكرة عبادة البطل ومعارضتهم لفكرة الغطية الأولى مصدر للأساطير . وكذلك إنكارهم لمفهوم الصراع بين الله والناس .

وقد علم القرآن المسلمين بالقصص الحق : كيف تكون المباشرة الصريحة والالطاف الواضح الصريح بعيداً عن الإيحاء والرمز والظلال والغموض . هذا فضلاً عما ألهم القرآن للمسلمين من قوة المرأة وكرامتها فضلاً عن طابع الرحمة والسماحة والكرم والأريحية وهو ما يتعارض كلاً مع القصص اليونانية الخافقة بالوحشية والظلم والفساد على النحر الذى عرف فى قصة الكفرا ، وأوديب ملكا . ويرجع ذلك إلى هزيمة الآلهة الإغريقية وميلها إلى الشر والانتقام .

(ثامناً) قاوم الفكر الإسلامى فى الهلينية نظرة الإلحاد والثنائية والوثنية والإباحية . وهى للظواهر التى ورثها الفكر الغربى والحضارة الأوربية التى يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر والمجتمع الإسلامى بإعادة ابتعاد المسرحيات اليونانية والأدب الإغريق .

(تاسعاً) رفض الفكر الإسلامى مفهوم البطولة اليونانية القائم على الاحجار والنشك المادى ، وأقر مفهومه الأصيل القائم على تقدير العمل وإحياء العود الذى قام به البطل فى سبيل أمته ، كما رفض مفهوم التراجيديا اليونانية القائم على صراع الآلهة مع الإنسان ، أو عبادة الأبطال ، أو غير ذلك مما يتعارض مع أصول الفطرة الإنسانية المتحررة من العبودية لغير الله تعالى .

الفصل الخامس

الدعوة إلى العامية

(١) من أخطر الدعوات التي طرحت في نطاق غخططات الاستعمار والتغريب : محاولة فرض اللهجات العامية في البلاد العربية بدلاً لغة العربية الفصحى ، ولما كانت هذه اللهجات لا تحمل معها تراثاً ، ولا أدباً فقد جرت المحاولات لتجميع أزجال وأمثال ونكاح من هنا وهناك في محاولة لحلق نوات يمكن الاعتماد عليه في خداع الأمم ، وتركز هذه الدعوى الباطلة على القول بأن العامية ليست لهجة من اللغة العربية ، ولكنها لغة مستقلة .

ولقد كان عمل دعاة العامية من المستشرقين الذين حلوا لواء الدعوة إلى ما يسمونه اللغة المحكية (سيينا - ويلبور - ويلسكوكس) جمع كلمات وأمثال - بما يدور في الأحياء الوطنية ، وبين العامة - من أجل الادعاء بأنه تراث للعامية . بل لقد ذهب ويلسكوكس إلى أبعد من هذا . حين ادعى بأن العامية لغة مستقلة عن العربية ، ولا صلة لها بها . وعمدت الصحف العاملة في خدمة نفوذ الاستعمار والتغريب على تشجيع الإنتاج العاسي كالأزجال والحكايات والحرفات من أجل دعم هذه الدعوى . وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي ، وامتدت وتبلورت في دعوى لم يثبت لها دليل . وهي القول بأن العامية هي مصدر قوة الاختراع ، وأن تأخر المصريين في هذا المجال يرجع إلى اللغة الفصحى ولو أنهم اتخذوا لهم لغة إفريقية كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا وأن يحتضروا . وقد كانت هذه دعوى باطلة ومضللة وساذجة أيضاً ، ولكن هكذا جرت المحاولات لمهاجمة اللغة العربية ، ثم جاء ويلبور فدعا للمصريين إلى العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية .

وفي الغرب كان ماسنيون يدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وتابعه كولان وغيره ، ثم تبنت هذه الدعوة ثاية بين خريجي معاهد الإرساليات الذين حلوا لواء هذه الدعوة في بيروت ، وفي مصر جرت محاولات كثيرة أبرزها ما دعا إليه لطفى السيد وقاسم أمين وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي . وكانت المحاولة التي غطت لها التغريب هي وضع اللغة العربية في مقابلة تاريخية مع اللغة اللاتينية التي مائت ودخلت المتحف ونشأت منها لغات متعددة .

وكان القول دائماً بأن اللغة يجب أن تتطور لتلبى حاجات الناس في كل عصر ، وأن هذا يتطلب منها أن تجاري مستويات الناس . ولذلك فقد جرت المحاولات في أوروبا في العصر الحديث إلى إسقاط لغة الكتابة كل قرنين ، واعتماد لهجة الكلام لغة مستحدثة ، وكان هذا هو ما يراد باللغة العربية ، ولا ريب أن هدف هذا هو تحويل ذلك التراث الضخم ، وفي مقدمته القرآن والسنة ، والشرعة الإسلامية ، إلى شيء تاريخي لا يمكن دراسته إلا للمتخصصين ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة

قواميس ومترجمات، بعد أن يصبح معزولاً تماماً عن اللغة المستحدثة، ولقد تصدى كثيرون لدخول
فكرة المقابلة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية، ذلك أن اللاتينية حين ماتت كلفة اللهب، إنما كان
ذلك نتيجة موت الأمة. أما الأمة العربية الإسلامية فإنها لم تمت بعد، هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية
لم تكن اللغة الأصلية لكل أوروبا، وإنما كانت هناك السالية والسكرترة والجرمانية الهندية، فضلاً عن
أن اللاتينية كانت لغة أرسطراطية لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة، ولم تنغل في
طبقات العوام.

(٢) لم نجد الدعوة إلى العامية تقبلًا حريجاً، حتى من خصوم العرب والإسلام الذين هجروا
عن الدفاع عن العامية، وجرى التساؤل عن أي اللهجات الامامية يتخذ العرب، أم لغة الشام، أم
لغة مصر أم لغة العراق؟ وإذا كان المقصود هو أن يتخذ كل قطر لهجته لغة، فأى اللهجات في
مصر مثلاً: لغة شمال الدلتا أم الصعيد أم القاهرة؟ وكشفوا عن أن كل لغة في العالم لها لغة عامية،
ولها لغة كتابة، وأن الفرق بين لغة الكتاب ولغة الكلام في العربية ضيقة المجال. وليست أكثر مما
بين اللغة الإنجليزية وعاميتها. وقد أحصى الباحثون حجم الخسارة التي تفقدها الأمة العربية من إهمال
الفصحى، وخاصة ما يتعلق بتراث أربعة عشر قرناً من الفكر والأدب والعلم والشريعة، وكشفوا عن
أن السر في صمود اللغة العربية في وجه غزو العامية، إنما هو القرآن الذي ارتبطت به العربية منذ نزوله
بها. وقد أحدث معجزة لا تعرفها لغات الأرض قاطبة. وهي أن العربي يستطيع أن يقرأ تراث
القرون الماضية كله دون حاجة إلى قاموس، وأن واحداً من هؤلاء القدامى، لو أنه بعث حياً اليوم
لاستطاع أن يتحدث مع الناس.

وقد أشار الباحثون إلى ما تتميز به اللغة العربية من ثبات عجيب لا مثيل له، إلى درجة أن أحد
المستشرقين الألمان دعا الغربيين إلى استخدام اللغة العربية لتدوين الآثار الفكرية التي تبنى عليها
الحضارة وتستحق الخلود، ذلك أن المواطنين في أي لغة من اللغات المعاصرة، لا يتجاوز فهمهم أكثر
من إنتاج ما تقي عام من التراث، أما ما عدا ذلك فإنهم لا يستطيعون دراسته إلا بواسطة قوافيس
وإن أقل مقارنة بين شكسبير مثلاً في الأدب الأوربي، وبين المتنبي في الأدب العربي تكشف عن هذا
الفارق البعيد من حيث أن العربي يقرأ المتنبي اليوم ويفهمه وبينهما ألف عام بينما الانجليزي لا يقرأ
شكسبير إلا من خلال دراسات تنقل أفكاره إلى لغة القرنين الأخيرين.

(٣) كشف الباحثون عن فساد اللهجات العامية وعجزها عن أن تحمل اللغة، ذلك أن العامية
لم تبلغ من النضج والاضبط والإحكام مستوى اللغة العربية الفصيحة، فهي بدائية خام بعيدة عن الصقل
لم تمرن على النهوض بأهواء الحياة العلمية والفكرية، بينما كانت الفصحى حاملة رسالة العلم والأدب
والفلسفة قروناً طويلة، مما أكسبها صقلاً وسموثةً وجاوباً مع الفكر والشعور في مظهرها الرفيع.
فالعامية أجهز من أن تقفز إلى المستوى الذي تحتله الفصحى منذ دهر طويل. زد على ذلك أن العامية
لا مناص لها من الحصار في بيئة ضيقة محمية، فلن يحتاج لها ما أتيح للعربية من الرقي والنضوج في

شيوخها، إذ أن شيوخ العقيدة الإسلامية كان سبباً في شيوع العربية التي تحمل تلك العقيدة، فاشترك في الإنتاج بلغتها أسم مختلفة، وهذا الشيوع الغوى أدى إلى زيادة في طوعية العربية ومرونتها للتعبير عن كل مطالب الفكر الإنساني. هذا فضلاً عن أن العامية لا يمكن أن تحقق التفاهم، الذي هو الغرض من اللغة، بل إنها تحول دون التفاهم مع أبناء الأقطار العربية، أو بين أبناء القطر الواحد. وليس في اتخاذ العامية توفيق الوقت والجهد كما يتوهمون، إذ يضطر الناس في المستقبل إلى دراسة أطوار العامية لكي يفهموا النصوص المكتوبة في عصر سابق كما سيضطرون إلى دراسة اللغات العامية المجاورة لهم، كما سيجعل مكان دراسة قواعد اللغة الفصحى الواحدة دراسة قواعد العاميات المتعددة، ولا تستطيع العامية أن تباهى بمثل تاريخ الفصحى وفضلها على الحضارة، ولا شك أن العامية ستؤدي إلى إضعاف أواصر الوحدة القومية بين أجزاء الوطن العربي، كما ستؤدي إلى إضعاف أواصر الوحدة الفكرية بين أتباع العقيدة الإسلامية وهدم العقيدة والقومية هدماً يهدف إليه المبشرون والمستشرقون.

(٤) أما القرآن الكريم وأثره في بناء اللغة العربية، وأثره في امتدادها على القرون والأزمان فإنه قد وجد من الباحثين تقديرًا واضحاً وفهماً حقيقاً. فهو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور، وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور، إلا العربية فستبقى بمنجاة من هذا الموت وستبقى حية في كل زمان ومكان مخالفة لنواميس الطبيعة التي تسرى على سائر لغات البشر، ولا غرو فإنها متصلة بالمعزة القرآنية الأبدية.

وقد أكد غير واحد من الباحثين بأنه لا لغة عربية بفهم القرآن، وأنه النموذج الخالد الذي سيبقى قلة البيان، وأن اللغة العربية لا ريب حافظت على وجودها بفضل القرآن.

(٥) ولا ريب أن اللغة العربية قد صاغت بالقرآن فكراً متميزاً، له معاملة الراضحة وطبيعته الخاصة. ومن هنا كانت اللغة العربية ضرورية لفهم هذا الفكر، وكانت هناك مطابقة واحدة بين أهل اللغة العربية وبين القرآن والفكر الإسلامي، وهذا هو السر في القول بالعجز عن ترجمة القرآن من حيث ارتباط الفكر باللغة ارتباطاً جذرياً، ومن حيث عجز كثير من المستشرقين عن فهم القرآن وفهم الإسلام لأنهم يعجزون عن فهم أسرار اللغة وبلاغتها وتركيبها.

ولما كان من العسر فصل كلمات اللغة عن ملايساتها الفكرية التي تشبه إلها، فقد قام لغة جدار ضخم في بناء الفكر لا سبيل إلى إنكاره أو تجاوزه. وفي هذا المني يقول العلامة صادق هنري: لقد علينا أن نكمل أمة شهيداً من لغتها على ما فطرت عليه من دين ودون لها من تاريخ، وعرف عنها من نسب ومدني وفنون. ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية اعتراف منها بتفاهتها.

(٦) وإذا كان لنا أن نقسم أهمية اللغة العربية فإن ذلك يحتاج إلى موازين كثيرة: ومن ذلك أن عدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألفاً، وكلمات اللغة الإنجليزية مائة ألف، أما العربية فعدد موادها ٨٠ ألف مادة. ومعجم لسان العرب يحتوي على ٨٠ ألف مادة لا كله.

ويقول الخليل بن أحمد في كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب (١٢ مليون و ٣٠٥ ألف و ٤١٢ كلمة) ويقول الحسن الزبيدي : إن ما يستعمل من ألفاظها ٥٩٢٠ لفظاً . وعندما نزل بها القرآن أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضى قرن واحد . فلما بلغت القرن الثالث الهجري تحوت الصلوات في الكنائس إليها ، ثم كتبت بها اللغات التركية ، والفارسية والأوردية والأفغالية والكردية والمغوية والسودانية والإيجية والساحلية . كما كتبت بها لغة أهل الملايو . وقد حدث هذا كله منذ ألف عام تقريباً . ثم دخلت اللغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية والانجليزية . وفي اللغة الانجليزية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية : ومن الناحية العلمية : فهي تفوق أضخم اللغات نروية وأصواتاً ومقاطع . إذ فيها ٢٨ حرفاً غير مكررة . بينما اللغة الانجليزية فيها ٢٦ حرفاً ومنها مكرر . وبالله العربية ثراء في الأسماء المضاعفة . فهناك ١٧٠ اسماً للماء . و ٧٠ اسماً للمطر ومن خصائص اللغة العربية : أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف ، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . ولل فعل العربي صيغ متعددة تبلغ الإثنى عشر صيغة ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي وتمتاز بضروب في النحو في مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية . ومن أعاجيب العربية التي لا تجد لها ضرباً أن كلمة (الوفاء) في اللغة العربية قد شغلت أربع صفحات من الجزء العشر من لسان العرب من صفحة ٢٧٨ إلى صفحة ٢٨١ . وفي بعض اللغات لا توجد كلمة واحدة تدل على هذا المعنى .

(٧) هناك من دعاة التغريب من يقول : د ادعوا إلى قتل الفصحاه ، . ولا ريب أن الدعوى هناك موجهة ضد القرآن نفسه ، ذلك أن الأمة العربية إذا نزلت في أساليبها إلى المستوى العلمي فإنها ستفقد قدرتها على فهم القرآن وعلى الاتصال بمضامينه ، ولذلك فإن العربية لا تزال قائمة على الفصحاه وأن أساليبها تبقى قائمة على مستوى القرآن دون أن تنزل عنه . وفي هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي : العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم . وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا يحفل به من رنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ، ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء لها ، وأحكام اللغة والبصر في دقائقها وفنون بلاغتها ، والحرص على سلامة الذوق بها ، وكل هذا يجعل الترخيص في هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد . والحال الخاصة في فصاحة هذه اللغة : ليست في ألفاظها . ومن هنا فإن دعوى قتل الفصحاه هي حرب يراد بها إبعاد مستوى المسلمين والعرب عن مستوى بلاغة القرآن ، ومن ثم يعجزون عن فهمه وينحرفون إلى مستويات العاميات .

ومن الحق أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم كامة ، وهم لذلك ليسوا مخيرين في أن يتصرفوا بها ، ولكنها لغة فكر وثقافة وحضارة ودين يتزود بها سبعة ملايين من البشر . فهي لغة فكر مشترك بين العرب والمسلمين ، وبين المسلمين والمسيحيين ، وبين مختلف العناصر والجموع والأديان والمذاهب وهي لغة فكر الشرق بكل ثقافته ، وهذه خاصية لم تعرفها لغة غير اللغة العربية ، ومن أجل ذلك فقد استعصت على القوائين والنظم التي حاول علم مقارنة اللغات أن يضعها أو يفرضها على ثقافات الأمم ولغاتها .

الاسلام في مواجهة الفكر الوافد

(١) إن أكبر الأخطاء التي تواجه الاسلام من خصومه هي محاولتهم تطبيق مفاهيم الأديان الأخرى عليه ، بينما يختلف الاسلام عن هذه العقائد التي قد أصابها التحريف والقصور عن شمول الاسلام وتكامله . إن معظم العقائد والنحل تتقارب وتشابه وتلتقي في كثير من مفاهيمها . لذلك فقد يجد الباحثون من الغربيين في مفاهيم الاسلام شيئاً مخالفاً لمسار عليهم فهمه ، وربما بدا غريباً كل الغرابة ذلك أن الاسلام لم يكن مجرد دين ، بل هو طريقة في الحياة ومنهج واضح على بكل ناحية من حياة الفرد منظماً سلوكه الاجتماعي والخلق والقانوني والديني . وهو إلى ذلك منهج أخلاقي يربط الحياة الدنيا بالآخرة ، ويربط العقل بالقلب ، ويربط العلم بالعمل .

والتوحيد هو الأساس الأول للإسلام وهو أيضاً المحرك الأول للفكر الاسلامي وبوضوح فهمه منهجاً متكاملًا جامعاً يلقى صور الخلاف والصراع التي تقوم بين العلم والدين ، والروحية والمادية ، والفردية والاجتماعية . وهو يعنى من شأن الانسان ويجعله مستخلفاً في الأرض تحت إرادة الله .

وليس في الاسلام خطيئة أصلية ولكن فيه مسئولية فردية وجزاء أخرى . فهو لا يقر مسئولية أحد من البشر عن شيء سوى ما فعله ، وهو يؤكد قيمة الانسان به صرف النظر عن لونه وديانته .

(٢) وقد رفض الاسلام مبدأ التقليد ومبدأ التبعية . قائلين : يمنع الأصالة ، والتبعية لا تتيح معرفة حقيقية . والتقليد ينطبق على الوافد وعلى القديم جميعاً . كما دعا الاسلام إلى التفرقة بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية ، ونادى بالاهتمام بالاولى والتركيز عليها . وعمل الاسلام على تحرير أتباعه من التأثر الاجنبي بكل أنواعه . ودعا المسلمين إلى اليقظة إزاء الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الأصلية لعقيدتهم وفكرهم ومزاجهم النفسي . ولقد كان أهداف الاسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى ضرب الاسلام هو إثارة الشبهات وطرح الدعوات الهدامة في طريقه وإدخال تفهيرات غريبة عليه . ولا ريب أن الطريق إلى حفظ وجودنا وكياننا . وحماية العقائد والاصول التي تقوم على التوحيد والأخلاق من الشبه والفسوك التي قدمتها الفلسفة المادية هو طريق واحد إنه الانضمام بالقرآن القادر على المعطاء في حل جميع المتناقضات .

إن الفكر الغربي اليوم لا يقدم للمسلمين عوامل بناءة أو إيجابية ، فهو حريص على أن يقيمهم داخل دائرة ضعفهم وتخلفهم إنما يقدم لهم صراج المذاهب الفكرية ليفتنهم من قيمهم ويمنع عنهم العلوم التكنولوجية التي شاركوا في صنعائها وهم في حاجة إليها . إنهم يعطون ما لا يحتاجون إليه ويمنعون من حاجتهم الوحيدة في حضارة الغرب . إن وحدة الثقافة العالمية عبارة خلافة ولكنها تخفى في أحقادها التمسب والاحتقار للثقافات الانسانية ، ومعناها الحقيقي هو سيادة الثقافة الغربية وتسيدها على حضارات الأمم ولا سيما الفكر الاسلامي والثقافة العربية . لقد ظل كفاح المسلمين مستمراً على مدى

الاجيال في سبيل تحرير الفكر الاسلامي من هيمنة الفلاسفات الوافدة والنظريات المادية والوثنية . ولم يستسلم الفكر الاسلامي طوال تاريخه للنظريات الوافدة وقاومها طويلا .

إن أخطر معطيات الفكر الغربي هي الانشطارية - هذه الانشطارية هي الفصل بين القيم عامة والأخلاق من ناحية ، وبين السياسة والتربية والاجتماع من ناحية أخرى . وأخطر ما في المناهج الغربية الوافدة أنها تنوزع دون أن ترتبط في تكامل مع الانسان نفسه وحاجاته ، فترى علماء يدرسون الأخلاق في عالم المثل وعلماء يدرسون الانسان مجرداً عن الأخلاق . ويرى علماء أن هذا الفصل واجب ومفيد في العلوم الطبيعية ولكنه خطر ومستحيل في علوم النفس والاجتماع ذلك أنه ما دام للناس يعيشون في إطار مجتمع . وهذا المجتمع داخل في نفس كل فرد كجزء أساسي منه فلا يمكن أن تنفأ قيم خلقية واجتماعية منفصلة عن الانسان .

(٣) لا ريب أن على المفكرين المسلمين والعرب أن يفكروا بلفتهم . ومن داخل إطار فكرهم لينطلقوا في الطريق الوحيد الذي تضيئه أمامهم أضواء التوحيد والعدل ، وعلى المسلمين أن يعرفوا كيف حطم الاسلام قيد الإفريقية الثقيل . وحرروهم من منهجها العبودي الوثني ، وأن عليهم اليوم أن يخطوا قيد المادية في العصر الحديث وعلى المسلمين أن يفرقوا بين الاصيل والبديل وأن يذكروا دائماً أن الدعوات الهدامة تعمل على تقديم البديل الزائف البراق في مواجهة الاصيل الذي لا يجد طريقاً في رحمة الباطل . إن تهميد العقل واعتباره سبيلاً واحداً في البحث ليس منهجاً إسلامياً أصيلاً . وعلى المسلمين أن يذكروا أن هناك ظاهرة انحلال واضحة في الفكر الحديث كله في الأدب والفلسفة والاجتماع لقد حرر الاسلام المسلمين من ركam الفكر للقديم ووثنياته واضطرابه وأخطائه . فإذا كان في الفكر القديم أي ضياء من نور ، فإنه إنما جاء من رسالات السماء . وقد أعاد الاسلام تشكيله من جديد على صورة مضيئة ربانية وما سوى ذلك فلا حاجة لنا به . ولا بد أن تكون هناك تفرقة واضحة بين مفهوم التخصص وبين مفهوم فصل القيم وتجزئتها .

إن التخصص هو إعطائه علم معين أو فن معين أكبر قدر من الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التخصص في مفهوم الاسلام لا يتم إلا في داخل نطاق التوسع في الدرجة الأولى من الفكر كله والاعتناء بقوانينه وعلاماته . أما فصل الأخلاق عن السياسة ، أو عن التربية ، أو عزل الدين عن المجتمع ، أو الأدب عن الفكر ، أو العروبة عن الإسلام ، أو اللغة عن القرآن ، فذلك ليس تخصصاً ولكنه فصل مضيع لمفهوم التكامل الذي هو أبرز قواعد الفكر الاسلامي ، والذي هو بمثابة الجدار السميكة الذي يعجز الدعوات الهدامة والفكر الوافدة . فالمنهج الاسلامي في المعرفة يقوم على الثبات ، والتطور على قاعدة الثبات وحركة التطور من داخله شأنه شأن كل شيء في الكون له قاعدة يتحرك عليها ولا يتفصل عنها ، وفي الاسلام أهداف ثابتة ووسائل متغيرة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ،

إن الدعوة إلى التخصص على هذا النحو ليست إلا دعوة إلى تمزيق جهة واحدة ، وتفريق أصل

واحد . إن مسألة تجرئة المفاهيم في الفكر الغربي لها طابعها وعواملها ومبرراتها . ذلك أن الأصول القديمة للفكر الغربي تقوم على الفصل بين القيم وأهمها بين الدين والمجتمع .

(٤) وبعد فإذا تعنى كلمة « العقائد الموروثة » ، التي يرددها بعض الكتاب والمفكرين عليها ؟ إنها كلمة يراد بها الغرض من شأن الدين والقيم الإسلامية . ولا ريب أن العقائد الموروثة صنفان : أصيل وذائف ، وهي في إطلاقها دون تحديد نوعها ، إنما تريد بالتوبة أن تخدع بعض الناس وأن تصور لهم أن العقائد الموروثة كلها زائفة ، والحق أن العقائد الأصلية غير العقائد الزائفة ، وأن هناك عقائد زائفة جديدة هي في ذاتها نتاج عقائد موروثة . ونحن نعلم أن الإسلام حين جاء بالحق إنما كان حجة على العقائد الموروثة الزائفة . وقد كشف عنها ودحضها في قوة عن طريق أسلوب الإقناع القائم على العقل والقلب معاً . ونحن نعرف العقائد الأصلية من العقائد الزائفة بوسائل كثيرة ، فلا شك أن كل ما يقدمه لنا الأعداء والخصوم ذات مهادنة بديهة ، وكل ما يتعارض مع فطرتنا ومع روحنا ومع طابعنا ومع قيمنا الأصلية هو ذات مرفوض . أما الإسلام وحقايقه من التوحيد والتبوة والقرآن والبعث والجزاء فلن تكون أبداً عقائد موروثة على النحو الذي يقصده دعاة التغريب .

(٥) هناك صيغة تقول أن البشرية بلغت رشدها . فهل البشرية بلغت رشدها حقاً ؟ ولم تعد في حاجة إلى وصاية الدين ؟ هذه هي الصيغة التي تحملها الدهوات الهدامة في العصر الحديث من أجل التحرر من القيم والمفاهيم التي ورثتها الإنسانية من رسالات الأديان . والتي مدت في ديارهم الظلمات وأمدتها بالقوة على معارضة الظلم والطغيان والفساد . ونحن نسأل عن القيم الجديدة التي أفضت البشرية من هداية الدين وتبحث فلا تجد شيئاً . إن كل ما تقدمت به البشرية في القرنين الأخيرين مما كان من قبل ، لا يريد من هذه المعطيات المادية التي منحها الإنسان بعض الرفاهية في المسكن والملبس والطعام والشراب . ولكن هل قدمت الحضارة أو قدم العلم أي إضافة حقيقية في مجال النفس والاجتماع والأخلاق ؟ ثم نحن نعرف أن كل هذا للتقدم المادي إنما جاء على حساب النفس البشرية ، وخذ ارتقاها وتقدمها الأصيل الذي يقوم على الروح والمادة معاً ، ومن خلال العقل والقلب جميعاً .

إن الإنسان قد أصبح بالتقدم المادي أكثر حاجة إلى هداية الدين ، وأكثر بعداً عن الأصالة والإيمان . وقد كشفت لنا الدهوات الهدامة كالوجودية والهيوية مدى الأخطار التي تهدده وتهدفه إلى الغربة والتمزق . إن الإنسان بطبيعة تركيبه (نفساً ومادة) في حاجة إلى هداية من خارجه من كتاب الوجود الذي يكلف للنفس الإنسانية الطريق إلى الحق . ومن كتاب الله الذي يهدي البشرية إلى النور والضياء .

(٦) ثم ماذا تعنى صيغة الصائحين إلى إعادة النظر في كل المسلمات ، وما اصطلاح على أنه نهائي ومطلق ؟ الحقيقة أن هذه كلمة حق يراد بها باطل . فقد أصبحت الوثنيات الآن هي المسلمات الجديدة أما المسلمات المقصودة من أصحاب الصيغة . فإنها لا تعدى النظر إلى الدين على أنه نتاج عصر انتهى . ومن حق المسائل أن يقولوا لنا أي دين يقصدون ؟ وعلى أطلعوا على الإسلام حين هموا بالقول بكلمة الدين ؟

إن حملات ضخمة وجهت إلى أديان كثيرة ، وبعض ما في هذه الحملات صحيح ، لأن هذه الأديان قد تجاوزت بالتأويل مجموعة من الحقائق الربانية لم تكن كل ما يورجى إلى الأديان في الغرب لا يمكن بحال أن يصدق على الإسلام الذي يختلف ويشير في معطياته وفي تاريخه وفي موقفه من الإنسان . ومن العلم ومن الحياة هذا الذي كان في عطائه لقضايا العالم والإنسان والحياة أكثر إيجابية وتقدماً ، والحق أنه ليست هناك مسائل اصطلاح الناس على أنها نهائية ومطلقة غير الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وليس غير الإيمان بالدين الحق المنزل على الأنبياء رسالة بعد رسالة حتى أتىها الإسلام فكان خاتمتها . وليس غير الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل وخاتم رسالاته وليس غير الإيمان بالملائكة والنبیین واليوم الآخر والبعث والجزاء ، فكل هذه المسائل التي أقرتها الأديان نهائية ومطلقة . يمكن أن تكون موضع شك أو شبهة ، أو محاولة لإعادة النظر ؟

إن القائلين بهذه الصيغة إنما يريدون أن يعلنوا عن حقيقةهم . أما فيما سوى ذلك من حقائق فنحن ندهو إلى النظر في المسائل الباطلة التي يحاول خصوم الإسلام فرضها والهدوء إليها وتزيينها مثل : العلمانية والنظرية المادية والفردية لوجودية وغيرها - فذلك هي المسائل الزائفة التي تحتاج إلى إعادة النظر .

آفاق البحث

لنكي نعرف مدى الفوارق العميقة بين معطيات الإسلام وبين معطيات النظريات الفلسفية في مجالات العقائد وعلوم النفس والاجتماع والاخلاق علينا أن نذكر الحقائق التالية :

(١) إن الإسلام هو الذي حرر العقل والنفس والانسانية من الوثنيات من عبادة غير الله ، وحرر الفكر والارادة والعمل ، ورفض استعلاء الوجدانيين والعقلانيين وقرر أن أبرز مفاهيمه هي المطابقة بين العقيدة والعمل والحكمة والسلوك .

(٢) اعترف الإسلام بميول وعواطف الانسان . فقرر ان في الانسان ميولا وعواطف مختلفة وكلها فيه غريزية طبيعية أودعها فطرته لتكمل في شخصه ونوعه . ولقد كانت الدعوة إلى الحرمان ، ووقفت تيار هذه الميول بالرياضات قبل الإسلام سبباً في تعطيل قوى النفس الانسانية . وقد أنكر الإسلام طريقين لتحرير الانسان : هما التقشف والاباحة ، ووضع الإسلام طرائق لتنظيم النفس كالفبادات والصوم وتهذيب النفس أصل من أصول الحضارة الاسلامية . ذلك أن على الانسان أن يتحرر من ميول النفس ورغباتها وأهوائها وخضوعها لغهر الله .

(٣) إن الإسلام لم يعرف روح النسك التي عرفتها بيئات الأديرة والصوامع ، ولم يكن في الإسلام دعوة إلى الرهبانية ، بل كانت دعوته إلى : (قل من حرم ربة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . ولم يستسلم المسلمون . ولم يكن لإيمانهم بالقضاء والقدر داعية استسلام ، بل داعية تحفو

وعمل وتضحية بالنفس في سبيل الحق الذي آمنوا به واعتنقوه . أما المناظرة ضد الغيب بمفهوم كشف أسرار المادة وما يمكن فيها من تفاعل . فإنهم قد ذهبوا إلى أبعد شوط ولكنهم كانوا مؤمنين بالله ، فمعفوا عن مثل ألفاظ مناظرة الغيب أو صراع القدر أو قهر الطبيعة . وهذه كلها عبارات لا يقرها الإسلام . والإسلام يؤمن بتدليل الطبيعة لا تتحدى الطبيعة ويؤمن بلقاء الأجيال لا صراع الأجيال .

(٤) ولا يقر الإسلام نظرية تغير الأخلاق باختلاف البيئات والعصور ، ولا يقر نظرية التطور المطلق الذي يتحرك في فراغ ولا يقر تقديس العقل ولا عبادة الباطل .

إن مفهوم الأخلاق : هو خلافنا الأساسي مع الفلسفات المادية ، وأن مفهوم التوحيد : هو تميزنا الأساسي عن الفلسفات الوثنية .

(٥) في الإسلام : ليس الإنسان شريراً على وجه الإطلاق ، وليست عليه مسئولية خطيئة صادقة وليست الخطيئة متأصلة في كيانه ، هذه وجهة النظر المتشائمة لا يقرها الإسلام وليس الإنسان رد طبيعة صالحة خبرة على إطلاق القول ، والإسلام يرى أن في الإنسان طبيعة الخير والشر ، وأن إيمانه بالله هو الذي يرده عن الشر ، وليس الإنسان عبداً لموارثته أو لبيئته ، بل إنه قادر بالفهم لمهمته أن يحرر نفسه من كل الأخطاء وكل موروث يمكن تغييره ، ولا تصد الموارث أو البيئة النفس الإنسانية من التحرر والتغيير .

(٦) والأخلاق في مفهوم الإسلام : قوانين أخلاقية ثابتة يميز بها الحسن والقبيح ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، والمسلم يرى العمل حسناً حين يأمر به الله ، والمسلم يؤمن بأن لإرادة الله وراء القوانين ، وهي التي تجعل الحسن حسناً ، والقبيح قبيحاً .

(٧) وإن أبرز مفاهيم الإسلام أنه لا انفصال بين الدين والحياة ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والجسم ، وبين الواقع والمثال . فالإسلام يرفض تمزيق الجبهة الفكرية بين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والدين ، ويؤكد بقاء كل العناصر في اتجاه واحد قوامه واحدة النفس الإنسانية ، وبذلك يقتضي على كثير من الأخطار التي تواجه الفكر المعاصر والنفس الإنسانية والتي هي مصدر أزمة الإنسان الحديث . إن أزمة القلق التي يعانيها المثقف المسلم اليوم ، إنما تعود إلى أصل واحد ومصدر واحد هو أنه ترك مقوماته الأساسية وقيمه ، في نفس الوقت الذي أخذ يواجه فيه النظريات والمذاهب العالمية ولو أنه التقي بالفكر الإسلامي وهو صادر من قيمه ومقيم على قاعدته لما وقع مثل هذا التفرق ، أو هذه الأزمة . ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية هي : تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان ، وظهور القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل إبان التحدي ، وذلك حتى في أشد فترات الضعف والقدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمتنا على مدى التاريخ كله ، والايمان بالدود عن مقوماتنا الأصيلة .

(٨) إن روح الإسلام ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشرعية في ظل عقيدة التوحيد لا يعارض سحر الحضارة ، بل هو يدفعها دفعاً إلى الفايات العليا ، ولكنه يتعارض مع التجاوزات الإباحية التي

فرضها الإلحاد والتي ليست من مفهوم الحضارة بمعنى أنها دعوة إلى التقدم . ومن هنا فإن القول بأن الدين عامة ، أو الإسلام يعارض تقدم الحضارة هو قول مردود ، فالحقيقة أنه يعارض تقدم هذا الجانب من الإباحية والإلحاد والنظرية المادية ، وهي ليست الحضارة .

إن الحضارة بمفهوم العلم التكنولوجي والتقدم في أساليب الحياة تجري مع الإسلام ولكن الخلاف هو في محاولة فرض منهج اجتماعي وأخلاق على المجتمع لا يقوم على أساس الضوابط التي قدمها الدين الحق . وعلى أساس الأخلاق .

إن الخلاف حول نقطة أساسية : هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة ؟ والإسلام يقول إنها ثابتة وترتبط بالإنسان . وأن الإنسان روح ومادة وليس مادة خالصة .

فإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة فالإسلام يختلف فيه عن مفهوم الغرب ، ويرى أنه ليس المنهج الذي يدفع البشرية إلى التقدم . بعناه الحقيقي . والإسلام يرى أن كل حضارة لا تركز على الخير والعدل حضارة زائفة .

إن حضارة الإسلام تستهدف ترقية النفس وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات بحيث تصبح ربانية الهدف إنسانية الطابع تعمل لله . وتنتجها للخير إلى الناس جميعاً . وقد اعترف الإسلام بناموس الرقي ، واعتبر الإنسان مسوقاً لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم .

(٩) قرر الإسلام أن للوجود الإنساني سقناً لا يتبدل ولا تتحول ولا تزال عامة على مقتضى نظامها المقرر لها .

(١٠) لا يقر الإسلام إقصاء الدين عن منطقة الحياة الاجتماعية ، بل يرى أنه ضروري لها . والإسلام جامع بين العقيدة والشرعية والأخلاق ، فهو ينظم العلاقة بين الله والإنسان كما ينظم العلاقة بين الإنسان والمجتمع كله .

ومن هنا فقد أقام الإسلام منهجاً متكاملًا للخطوط العامة التي يقوم عليها سلوك الإنسان في الحياة لإزاء نفسه وإزاء باقي الجماعة وهو منهج مرن واسع سمح يقبل الاضطراب والاحتمال ، ويعفو عن الخطأ وهدفه من ضوابطه وحدوده حماية الإنسان نفسه . واحتفاظه بقواه وشخصيته . وهو منهج متكامل جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب ، يمتدح بفضائل الإنسان وحاجاته الطبيعية ويسمح له بممارستها في حدود المحافظة على كيانه ودون العدوان على حقوق الآخرين . وليس مفهوم الإسلام في الترابط بين الدين والمجتمع كفهوم العقائد التي تفصل بينهما .

(١١) من طبيعة الإسلام قدرته على التوفيق في براءة بين المتناقضات جميعاً دون أن يميل إلى جانب أو يغلب كفة على أخرى ، فهو يدعم الجماعية والفردية ، ويربط الروحية والمادية ، ويستوعب

النفس والعقل الإنساني . ومن طبيعة الاسلام : الجمع بين الثبات والحركة ، وهو يقيم الحركة في إطار الثبات وعلى قاعدة وهو في نفس الوقت الذي لا يقر فيه التعصب والتزمس ، لا يقر الانطلاق والحرية غير المنضبطة ، وهو يفسح للرغبات والمطامح طريقها إلى التحقيق ولكنه يحيط الإنسان بالضوابط التي تحميه من الفساد والإباحة . وهو يرفض الرهبانية والزهادة في نفس الوقت الذي يرفض فيه الترف والتحلل . والاسلام يطالب المسلمين بالحركة ، وتغيير وسائلهم وأساليب معيشتهم ، والأخذ من كل جديد في إطار قيمهم ومبادئهم ودون التضحية بها .

(١٢) لا بد من التفرقة بين العقيدة في أصولها السمحة وبين عملية التطبيق في المجتمع الاسلامي . وكذلك التفرقة بين مراحل القوة ومراحل الضعف . إن المبادئ الأساسية للإسلامية مستظل قابلة للتطبيق ، إنما مثل أعلى في الأصالة والواقعية والسماحة ومطابقة تماماً للأفطرة وجارية مع الطبيعة البشرية طرداً وعكساً .

ولا ريب أن ترقفها ، وغلب مذاهب أخرى عليها في هذا العصر ليس إلا عرضاً من أعراض ضعف المسلمين وعجزهم عن القيام على منهجهم ، وهو عرض زائل يمر بكل الأمم . ثم تكون اليقظة كاملاً على تجاوزها ، وفي المبادئ الإسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشري كله ، ويقدم له أصدق الحلول لمشاكله وقضاياه من خلال الإيمان بالله والأخلاق ، وقيام المسؤولية الفردية في ظل الإيمان بالبعث والجزاء .

ولا ريب أن تكشف يوماً بعد يوم أخطار الانحراف الذي أصاب البشرية وما تزال الصيحات تلو حول ما أسمره أزمة الإنسان الحديث . فقد اعترفوا بالآزمة وعجزوا عن حلها ؛ وقد مدت لهم طرق جديدة هي : متاهات جديدة وسوف لا يجدون بعد الجهد الجهد إلا أسلوب الاسلام ، أسلوب الأفطرة المنزل من عند الله .

(١٣) ولا ريب أن القول بأن (الإيمان بقضاء الله وقدره هو مدعاة للتواكل) ، هي دهور منقوضة من أساسها ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما جاءت به الأديان السماوية ، مفروض على المؤمنين في النتائج لا في الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب ، مفروض عليهم السعي والأخذ بها ، مطالبون بعد ذلك بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون الواحد الأعظم ، ومن هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر من عظمة المسلمين الأولين ، لأنهم أخذوا في الأسباب وبذلوا جهدهم في استئصالها إنفاذاً لأمر الله ولم يأبوا للنتائج الضارة المؤلمة رضا بقضاء الله ففازوا بالחסنيين . وكان أحدهم حين يخرج للجهاد في سبيل الله لا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه . وما ابتلى الناس بهذا التواكل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً ، فأخذوا بها في الأسباب فلم يستعدوا ونسوها في النتائج فلم يرضوا .

ولا ريب أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين إلى التقدم وجرأهم على المخاطر لتوسيع

رفعة الإسلام والتمتع من حوزته على سر الأيام . والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يؤمن المرء بأن الله خلق عالماً يسير وفق نظام دقيق ، وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة هذا العالم . فإن على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يقوم بعمله بهمة وإيمان ، ولا عليه من النتائج التي هي من قدر الله وقضائه . ولقد كانت عقيدة خلود الروح من أقوى الدعائم التي دفعت المجاهدين المسلمين إلى الموت غير مكترئين ، واستصغار الدنيا وزخرفها .

(١٤) إن أثر الإسلام واضح في كل الثورات التي قامت على القيود التي تمنع العقل من التفكير . أو تفرض جماعة خاصة تحتفظ بالأسرار ، وإليها ترد الأمور . ومن الإسلام انطلقت الدعوة إلى تحرير الفكر البشري من الوثنية ، وانطلقت الدعوة إلى حق كل إنسان ، أن يفهم كتاب الله دون وسيط . وأن يتصل بالله دون وسيط ، وبالإسلام انطلقت الدعوة إلى التحرر من طغيان الظلم وعدم الخضوع لجمهور المستبدين . وباسم الإسلام انطلقت الدعوة إلى النظر في المكون والبحث عن الدليل وإثبات التبعية ورفض التقليد بالباطل والتحرر من عقائد الآباء إذا لم تكن قائمة على الحق الواضح الذي يقره القلب . ومن مفهوم القرآن تحررت البشرية حضارياً من مفهوم العبودية الذي سيطر على كل الحضارات القديمة (فرعونية - فارسية - رومانية) وجعل البشر رقيقاً لمجموعة قليلة من السادة . ومن مفهوم القرآن والإسلام انتقلت البشرية من منهج التأمل النظري إلى منهج التجريب وإخضاع الأمور للبحث العلمي . ومن مفهوم القرآن انطلقت الدعوة إلى مقاييس الإيمان بالله وإخلاصها على مقاييس العصبية والعنصرية وخلق الجماعة التي تربطها رابطة الفكر والعقيدة بدلاً من الدم والعنصر .

ومن منطق القرآن تحرر الإنسان من أخطار البحث عن الله والكون والموت والبحث ، فقد قدم له منهجاً متكاملًا موحى به يدور العقل عن الوصول إليه ، ولكنه لا يعجز عن إدراكه ، وبذلك حلت أعظم النضاي التي كانت مصدر الخلاف قرونًا طويلة .

(١٥) لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي بالظروف المادية ، أو بتحديات الاقتصاد وحده . إن هناك عوامل مختلفة تحكم تاريخ الأمم . وبعضها غير مادي . وتاريخ الإسلام تحكمه عوامل كثيرة منها عوامل نفسية وروحية .

(١٦) لقد عجز العلم عن تقديم تفسير نهائي لكل الأشياء . وفي الإسلام ليس هناك تناقض بين العلم والإيمان ، والمسلم لا يجد في منجزات العلم ما يتعارض مع الإيمان . والفكر الغربي هو الذي فرق بين النظرة الدينية والنظرة العقلية والعلمية .

(١٧) إن النضالات الوطنية قد انطلقت تحت راية الجهاد في سبيل الله قبل أن تنطلق تحت راية الجهاد في سبيل الوطن ، ولقد كان الإسلام في أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية ضد الاحتلال والاستعباد الاستعماري ، وكان الضمان لاستمرار وحدة الأمة والثقافة ، وكانت تتجسد فيه كل القيم النبوية التي لم تكن متوفرة في ظل الاستعمار .

(١٨) الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة عشوائية بلا ضابط ولا نظام ، ولما كان لكل كوكب فلك ومدار ومحور ، فإن الحياة البشرية كذلك لا بد لها من محور ثابت ، ولا بد لها من فلك تدور فيه . وإلا انتهت إلى الفوضى .

(١٩) إن الفصل بين الدين والدولة : هو نتاج وافد غريب . وهو من معطيات العقائد الأوروبية في تفكيرها وصراعها خلال تاريخ طويل . ولكنه ليس من معطيات الإسلام ، بل إن الإسلام في تكامله وترايط القيم فيه يقيم من الدين والدولة كلا متكاملًا . فالإسلام دين ومنهج حياة وشريعة وخلق . وقد جاءت قضية الفصل بين الدين والدولة في الغرب هدفًا عميقًا من أهداف الأيديولوجية التلودية حيث كان الربط بين الكنيسة والحكومة حائلًا بين اليهود وبين الاندماج في المجتمعات . فلما انكمسر هذا القيد سيطروا على الأنظمة كلها ، وفرضوا نفوذهم عليها .

والمسيحية بطبيعتها منهيح يقوم على العبادة والوصايا الأخلاقية ، وليست لها شريعة منفصلة لأنها لم تكن إلا إحدى رسائل بن إسرائيل مصدقة للتوراة جاءت مكملًا للناموس وليست نافية إياه . ولقد اعترف المفكرون الغربيون جميعًا بحقيقة الإسلام نظامًا كاملاً ، وقدروا الفوارق العميقة بينه وبين الأديان والمعتقدات الأخرى . وعبارة هاملتون يجب في هذا واضحة صريحة : « ليس الإسلام دينًا بالمعنى المجرد الخاص ، بل هو مجتمع بالغ تمام السكال يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين . وقد أكد هذه النوعة الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامي والنظام الاجتماعي . والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات : إنه أعظم من ذلك بكثير ، فهو مدنية كاملة » .

وميزة الإسلام التي خصته بأن يكون نظامًا كاملاً ، هو أنه قدم مبادئ عامة وأصولاً ثابتة في مجال الشورى والعدالة والمساواة تصلح لإقامة مجتمع متماسك وتترك البشرية في تطورها واختلاف عصورها وبيئاتها القدرة على تقرير أسلوب مناسب في إطار هذه الأصول ، وهو ما يحول دون المجود ودون التعارض مع تطور المجتمعات ، غير أن هذه الأصول واجبة الإقرار وأن مقرراتها ثابتة لا تتعرض للتطور أو التحول ، وهي لا تخضع أبداً لتغير المجتمعات . ومن ذلك حدود الله في الزنا والربا والخمر والسرقه فتلك أصول أصيلة - وليست وصايا عامة - أو نواحي أخلاقية .

(٢٠) الحرية في مفهوم الإسلام أن لا يبقى الإنسان عبداً لشهواته ولا عبداً لغير الله ، وأن لا يخضع لسلطان غير سلطان الخالق . ويألف أن يكون عبداً للإنسان . والحرية في الإسلام هي حرية جامعة شاملة تقوم على التحرر من قيود الجهل والخرافة والوثنية والتقليد . والإسلام أول من دعا إلى هذه الحرية ، ولقد علم الإسلام الإنسان كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولقد استطاع الإسلام بهذا المفهوم أن يطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأمره حول

المعابد وبين أيدي السكينة ، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة . وإذا كانت صيحة أصحاب المذهب المادى إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة ، فإنها إنما كانت تعنى ذلك الركام ، الذى عاشته أوروبا في خلال المصور الوسطى . أما الإسلام فقد كان هو صاحب الدعوة إلى مثل هذه الحرية ، وإن ما جاء به يرتفع فوق الأساطير والتقاليد ، لأنه الحق الصادق الذى تصدع به النفوس والعقول والفطرة البشرية السليمة .

وهو الذى ليس وزاده من حق أو قول : (قل ماذا بعد الحق إلا الضلال) . ولقد عرف الإسلام الحق ، عاماً شاملاً بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين ، بينما عرف الغرب الحق على أنه شئ في أوروبا . وشئ في المستعمرات يختلف عنه بل ويتعارض معه . ومن هنا فقد كان موقف الفكر الغربى بالنسبة للمسلمين والعرب والإسلام موقف الخصومة والعداء وتجاوز الحق وتجاهل كل ما ادعى أنه من المنافع العلمية للبحث والاستواء .

ولقد كان المسلمون صادقين في تطبيق حرية الفكر على الناس جميعاً . وحافظوا على القاعدة الأساسية لا إكراه في الدين ، ولم يسفكوا دم أحد عقاباً له لأنه قال رأى يخالف برأى الإسلام إلا إذا انصل ذلك القائل بالخيانة السياسية .

وكما دعا الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم ، فالإسلام هو الدين الذى جاء ناقضاً للرق هادماً للنظام العبودى في امبراطوريات فارس والروم والفراعنة .

(٢١) إن أبرز معطيات الإسلام هي قدرته على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة واشتماره في مختلف الأزمنة والبيئات ، فهو قادر على إجراء حركة التصحيح من داخله ورد الهجمات ومقاومتها والحفاظة الدائمة على طابعه الانسانى وأصله الربانى . وللإسلام إلى ذلك قدرته على التوسع والانفتاح على الآفاق ، واقتحام مناطق جديدة من الأرض لنشر كلمته .

إن ميزة الإسلام في شموله وبكامله أنه جمع بين الحريات والضوابط ، وبين الفردية والجماعية وبين العلم والدين ، وبين العقلانية والوجدان ، وبين الروح والمادة ، وبين الوعى والعقل ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الغيب والشهادة وبين النبات والنظور وبين الماضى والحاضر وبين المحافظة والتجديد ، وبين الإسلام والانسانية ، وتلك ميزة الإسلام وخاصيته التى تميز بها واختلاف عن كل العقائد والأديان . وتلك هي مصدر قدرته المائقة على مواجهة كل التحديات والأخطار . وحقه خلوده على الزمان .

المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم
- (٢) الجامع الصحيح . الإمام البخارى
- (٣) تبليس إبليس . لابن الجوزى
- (٤) فضائح الباطنية . للإمام الغزالي
- (٥) الملل والنحل . للشهرستاني
- (٦) العواصم من القواصم . للقاضي ابن العربي
- (٧) تهديد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . مصطفى عبد الرزاق
- (٨) النقد التحليل لكتاب الشعر الجاهلي . محمد أحمد القمراوى
- (٩) دائرة معارف القرن العشرين . محمد فريد وجدى
- (١٠) رسالة التوحيد . الشيخ محمد عبده
- (١١) مناهج البحث عن مفكرى الإسلام . الدكتور على سامى الزهار
- (١٢) الإسلام والإيمان . الدكتور عبد الحليم محمود
- (١٣) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة . محمد عبد الله هنان
- (١٤) الإمبراطويات فى التفسير والحديث . محمد حسين الذهبي
- (١٥) اتجاهات هدامة فى الفكر العربى . دكتور محمد محمد حسين
- (١٦) الخطر اليهودى . محمد خايفه التونسى
- (١٧) الفكر الإسلامى الحديث . دكتور محمد الهبى
- (١٨) الإسلام على مفترق الطرق . محمد احمد
- (١٩) المر المصون فى شيعة القرمسون
- (٢٠) الفلسفة المادية . بحث الدكتور أحمد حسن الرحيم

- (٢١) المال المعاصرة في الدين اليهودى . الدكتور الفاروقى
(٢٢) رحلة الادب العربى الى أوربا . للشوباشى
(٢٣) تحفة راية القرآن . الرافعى
(٢٤) الجمعيات العربية . على آدم
(٢٥) أهداف إسرائيل التوسعية . محمود شيت خطاب
(٢٦) اليهودية العالمية . عباس محمود العقاد
(٢٧) الفاعرة على العالم الإسلامى . ترجمة السيد محب الدين الخطيب
(٢٨) التبشير والاستعمار . عمر فروخ وآخر
(٢٩) تاريخ الفكر العربى . عمر فروخ
(٣٠) بحث عن الحلول والاتحاد . محمود قاسم
(٣١) الرد على الدهريين . جمال الدين الافغانى
(٣٢) التصور الإسلامى . سيد قطب
(٣٣) إله الاتحاد المعاصر . كوستى بنديل
(٣٤) إخوان الصفا . عمر الدسوقي
(٣٥) الفلسفة الإسلامية . عبد الرحمن مرزبانا
(٣٦) تاريخ الطبرى ج ٣
(٣٧) الفرق بين الفرق . للبغدادى
(٣٨) التبصر بالدين . الاسفراينى
(٣٩) رجال الفكر والدعوة . للندوى
(٤٠) ديانة الإسماعيلية ونظامها . للندوى
(٤١) الرسالة سنة ١٩٤٦
(٤٢) وفيات الاعيان . ابن خلكان ، ابن المقفع ، ج ١
(٤٣) التفسير الإسلامى للفكر البشرى . أنور الجندى
(٤٤) حقيقة الباطنية والبهائية . محسن عبد الحميد
(٤٥) الروحانية الحديثة . محمد محمد حسين

موسوعة مقدمات العلوم والمناهج

المجلدات من السادس إلى العاشر

(تصدر على التوالي)

المجلد السادس :

المجتمع الاسلامي

ويضم أربع دراسات موسعة عن (١) النظام الاسلامي

(٢) التربية وبناء الاجيال

(٣) المجتمع الإسلامي وقضاياها : الشباب والمرأة

(٤) دراسة لأيدولوجيات المعاصرة

المجلد السابع

الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية

ويضم ثلاث دراسات موسعة عن :

(١) الإسلام والعالم

(٢) الإسلام والحضارة

(٣) مفاهيم العلوم الاجتماعية

المجلد الثامن

الاسلام وموقفه من الفلسفات والاديان

ويضم ثلاث دراسات موسعة عن :

(١) الاسلام والنحل والمذاهب المختلفة

(٢) العلمانية وموقف الاسلام منها

(٣) الفلسفات القديمة وموقف الاسلام منها

المجلد التاسع

الجهل والاعطاء الشائعة

ويضم دراسات عن :

(١) المنهج الغربي الوافد وأخطائه في الادب والاجتماع والاقتصاد

(٢) قضايا وشخصيات وكتب وردت في التاريخ الحديث

المجلد العاشر

حركة اليقظة الاسلامية

ويضم دراسات عن تاريخ حركة اليقظة الاسلامية في مواجهة عصر الاستعمار

وعصر القريب والنزول الثقافي من خلال مواجهات الرأسمالية واليهودية والصهيونية

دراسات إسلامية للمؤلف

أولاً : حركة اليقظة الإسلامية

١ - حركة اليقظة الإسلامية (في مواجهة الغزو الغربي والصهيونية والشيوعية)

٢ - على مشارف القرن الخامس عشر الهجري

٣ - إطار إسلامي للفكر البصري

٤ - القرن الخامس عشر الهجري : تحديات الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي

ثانياً : دراسات إسلامية :

١ - طلمية الاسلام

٢ - المنزل الأعلى للقباب المسلم

٣ - جوهر الاسلام في مرآة الفكر الانساني

٤ - أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي

٥ - الإسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني

٦ - مشكلات الفكر في ضوء الإسلام

٧ - قضايا العصر في ضوء الاسلام

٨ - من منابع الفكر الإسلامي

٩ - الاسلام والثقافة العربية في مواجهة الاستعمار

١٠ - شبهات في الفكر الإسلامي

١١ - القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافي العربية

١٢ - معالم الفكر الإسلامي المعاصر

١٣ - أحاديث إلى الشباب المسلم

ثالثاً : في مجال الأدب

١ - الأدب العربي المعاصر (النثر العربي المعاصر)

٢ - على مشارف القرن الخامس عشر

٣ - المعارك الأدبية (طبعة جديدة)

٤ - المساجلات والمعارك الأدبية

٥ - صفحات مضيئة في تاريخ الإسلام

رابعاً : الاعلام

عبدالمعز جاريش ، أحمد زكي باشا، فريد وجدي ، طه حسين ، حسن البنا



HD

مقدمات العلوم والمناهج

محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل

بناء الفكر الإسلامي الممتد خلال أربعة عشر قرنًا تعرض على طوال المدى لمحاولات الغزو والتغريب وقد قاومتها حركة اليقظة حين أقامت منهج السنة والجماعة ثم واجه المسلمون حملات الفرقة والدعوات الهدامة وكشفوا زيفها وفي العصر الحديث توالت محاولات الاستعمار والصهيونية والشيوعية من خلال مؤسسات التغريب والغزو الثقافي عن طريق التبشير والاستشراق، ومن هنا فقد ضمت هذه الموسوعة تلك المحاولة الضخمة كاشفة للتحديات التي واجهت الفكر الإسلامي واللغة والأدب والثقافة والحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية وفيما يتصل بمقارنات الأديان والفلسفات وفي المجلد الأول يتناول البحث بناء الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب والغزو الفكري كاشفًا عن المحاولات التي قامت بها الدعوات المختلفة القديمة المتجددة وما يتصل بالمناهج العلمية والدراسية وأخطاء المنهج الغربي الوافد في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية .

وستواصل الدراسة هذه القضايا المبركة في أربعين رسالة من خلال المجلدات العشر التي يتوالى صدورها كمحاولة لبناء منهج متكامل للفكر الإسلامي

أسعد سيّد أحمد

دار الأنصار للطبع والنشر